

سلسلة تهذيب كتب الإمام ابن قيم الجوزية (١)

تهذيب
مدارج السالكين في منازل السائرين

للإمام العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية

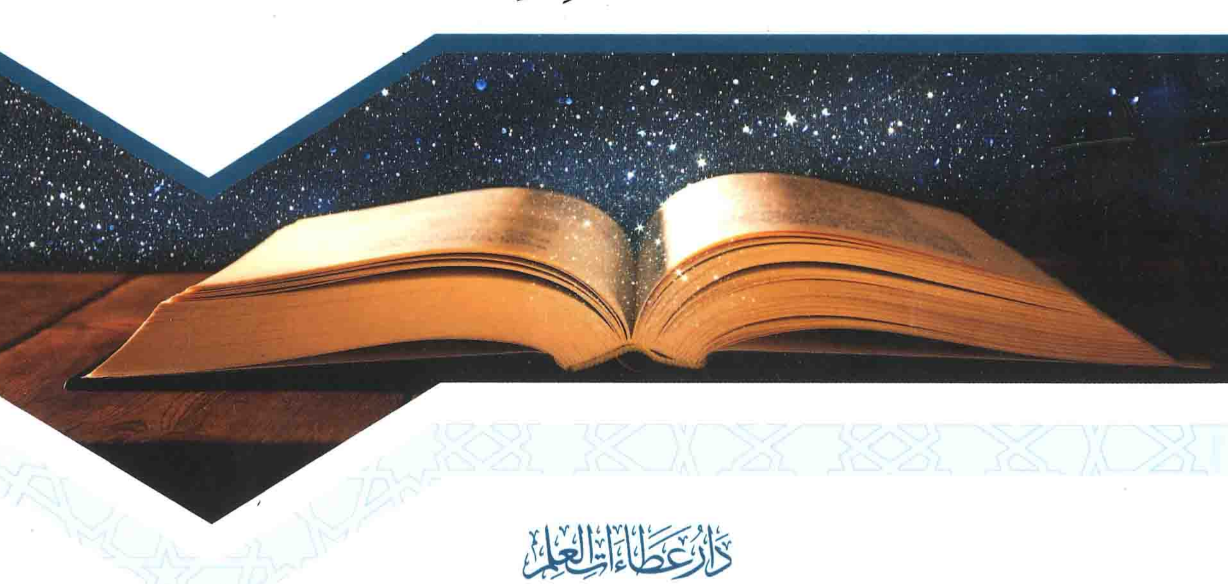
(٦٩١ - ٧٥١هـ)

إعداد

د. سلطان بن ناصر الناصر

إشراف

عطاءات العلم



دار عطاءات العلم



سِلْسِلَة تَهْذِيبِ كُتُبِ الإمَامِ ابْن قَيِّم الجَوْزِيَّة (١)

تهذيب
مدارج السالكين في منازل السائرين

لِلإمَامِ العَلَّامَة شَمْسِ الدِّين مُحَمَّد بْن أَبِي بَكْرٍ المَعْرُوف بِابْنِ قَيِّم الجَوْزِيَّة

(٦٩١ - ٧٥١هـ)

إِعْدَادُ
د. سُلْطَان بْن نَاصِر النَّاصِر

إِشْرَافُ
عَطَاءَات العِلْم

ح مؤسسة عطاءات العلم للنشر، ١٤٤٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الناصر، سلطان بن ناصر

تهذيب مدارك السالكين ومنازل السائرين/ سلطان بن ناصر الناصر - الرياض ١٤٤٢هـ

ص؛ ٠٠/ ..سم

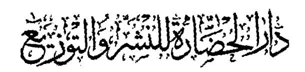
ردمك: ٠-٢١-٨٣٤١-٦٠٣-٩٧٨

١ - التصوف الإسلامي ٢- الوعظ والإرشاد أ- العنوان

ديوي ٢٦١ ١٤٤٢/١٠٢٠٨

الطبعة الأولى

١٤٤٣هـ/ ٢٠٢١م



المملكة العربية السعودية - الرياض

daralhadarah@hotmail.com

الرقم الموحد: 920000908 الفاكس: 2702719 - 011

0551523173 @daralhadarah

زوروا متجر الحضارة

daralhadarah.net

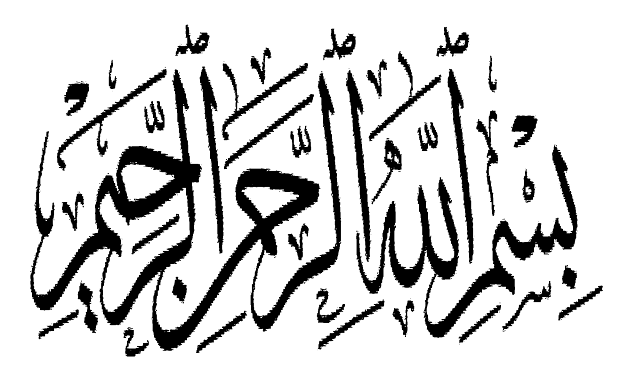
أحد مشاريع



هاتف: ٠٠٩٦٦١١ ٤٩١٦٥٣٣+

فاكس: ٠٠٩٦٦١١ ٤٩١٦٣٧٨+

info@ataat.com.sa


بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ نبيِّنا محمَّد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أما بعد؛ فإن «عطاءات العلم» بيت خبرة في تطوير البرامج العلمية الشرعية ورعايتها، وتمكين العاملين فيها، وهي تسعىٰ إلىٰ الارتقاء بالجهات والبرامج العلمية الشرعية بطريقة منهجية، وصولاً لتحقيق مقاصد الشريعة، وترسيخ القيم الإسلامية.

لقد نهضت «عطاءات العلم» منذ تأسيسها بعدة مشاريع نوعية وفق منهجية احترافية صممتها خصيصًا لصناعة المشاريع العلمية الشرعية، بين دراسات علمية محكّمة، ونصوص تراثية محققة، وبرامج تطويرية متخصصة، وموسوعات علمية إلكترونية متميزة، وسلسلة إصدارات كوكبة من الأئمة الأعلام، وغيرها من المشاريع والبرامج ذات الأثر العظيم والنفع العميم.

ولما كانت خدمة العلم الشرعي ونشره وتوريثه للأجيال المتعاقبة مما يجدر بأهل الإسلام الحرص عليه أولته «عطاءات العلم» عنايتها واهتمامها، فاحتضنت لأجله أحد مشروعاتها النوعية وهو مشروع تحقيق آثار العلماء ونشرها، ومنها آثار الإمام ابن قيم الجوزية ﵀، وذلك بطباعتها وتحقيقها تحقيقًا علميًا لائقًا؛ بتوفير أفضل نسخها الخطية في العالم، ومقابلة نصوصها، وتحريرها، والتعليق عليها بما يخدمها ويوضّح مقاصدها، وكتابة مقدمات تعرّف بكل كتاب وتكشف مزاياه، وصُنْع فهارس كاشفة مفصلة لعلومه وخباياه، في عمل علمي مبارك ابتدأ منتصف عام ١٤٢١هـ بإشراف الشيخ العلامة بكر بن عبد الله أبو زيد، وتمويل

مؤسسة الشيخ سليمان الراجحي الخيرية، واستمر نحو عشرين عامًا حتىٰ سنة ١٤٤١هـ، ونفع الله به من شاء من عباده في مختلف بلدان العالم.

وحين انتهىٰ العمل من نشر هذه الكتب العلمية النافعة باتت الحاجة ماسة إلىٰ تقريب عيون هذه الكتب وتهذيبها واختصارها بمنهج علمي محكم يسهم في توسيع دائرة الاستفادة من علومها وفوائدها لعموم القراء الذين قد يحول بينهم وبين الانتفاع بها استطراد المؤلف وإسهابه في تقرير المسائل والرد علىٰ المخالفين ونحو ذلك، كما يستفيد منها المتخصصون في العلوم الشرعية الراغبون في خلاصات جامعة لأفكار الكتب لغرض المراجعة والاستذكار.

ويطيب اليوم لـ«عطاءات العلم» أن تقدم لأهل العلم وطلابه والحريصين علىٰ تراثه هذا المشروع العلمي الجديد في تهذيب نخبة من مؤلفات الإمام ابن قيم الجوزية ﵀، وهو مشروعٌ علمي مبارك نهض به فكرةً وإعدادًا فضيلة الشيخ الدكتور سلطان بن ناصر الناصر (عضو المجلس الإشرافي لعطاءات العلم)، وتولت «عطاءات العلم» الإشراف عليه تتميمًا ومراجعةً وتوثيقًا وصفًّا وإخراجًا.

نسأل الله ﷻ أن ينفع بهذه الإصدارات العلمية المهذبة كما نفع بأصولها، وأن يبارك فيها وينفع بها الأمة، ويجزل الأجر ويعظم المثوبة للشيخ سليمان بن عبد العزيز الراجحي ومؤسسته الخيرية علىٰ رعايتها المباركة التي أثمرت هذا المشروع وأصله، ولفضيلة الشيخ الدكتور سلطان بن ناصر الناصر وجميع المشاركين فيه، ويجعله من العلم النافع الذي يستمر ثوابه ولا ينقطع، والحمد لله أوَّلًا وآخرًا، وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ نبيِّنا محمَّد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

عطاءات العلم

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين، ومن تبع هداهم واقتفىٰ سننهم إلىٰ يوم الدين.

أما بعد، فإن الإمام الحافظ أبا عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية المولود سنة ٦٩١ والمتوفىٰ سنة ٧٥١ هـ رحمه الله من أعلىٰ أهل العلم مرتبة في جودة التصنيف وكثرة التأليف، وقد أسبغ الله علىٰ كتبه من النضارة وجمال العبارة ما بهر عقول العلماء؛ لما فيها من استقصاء أصول المسائل وآثارها، وإبراز مقاصد الشريعة وأسرارها، فصار لها من القبول والانتشار والأثر، ما هو لائق بتلك العلوم والفوائد والدرر.

ولما كانت مؤلفات هذا الإمام الجليل زاخرة بالتحقيقات العلمية والتجليات الإيمانية التي تعظم حاجة الناس إلىٰ مداومة النظر فيها علىٰ اختلاف مستوياتهم المعرفية، فضلا عن طلاب العلوم الشرعية، والتي قد يحول دون قراءتها ورودها بين أمواج بحر تقريراته وردوده ذات النفس الطويل، ظهرت الحاجة لتقريب مصنفاته بتقديم تهذيبات علمية مركزة لمباحثها وأفكارها دون ما فيها من الاستطرادات التي لا تكون محل اهتمام لدىٰ غير المختصين بموضوعاتها، فجاء هذا العمل محققًا لتلك الغاية الشريفة، خدمةً لعموم المسلمين وخاصتهم، سواء منهم من لم يتسنَّ له قراءة الأصل، أو من أراد تكرار النظر في زبدة ذلك الأصل، وجاريًا علىٰ طريقة أهل العلم في اختصار التصانيف وتهذيبها، وذلك من أغراض التأليف ومقاصده المشهورة، كما عبَّر عنه ابن خلدون في مقدمته بقوله: «أن يكون الشيء من التآليف التي هي أمهات للفنون مطولًا مسهبًا، فيقصد بالتأليف تلخيص ذلك بالاختصار والإيجاز وحذف المتكرر إن وقع».

وقد جرىٰ العمل في التهذيب وفق منهج يتلخص فيما يلي:

١. إثبات ألفاظ المؤلف بدون تصرف فيها، ولا زيادة عليها.

٢. المحافظة علىٰ ترتيب ورود النصوص في الأصل بدون تقديم أو تأخير.

٣. الاقتصار علىٰ صلب الفكرة المقصودة، وحذف الاستطرادات، مع الحرص علىٰ إظهار السياق علىٰ نحوٍ متسق.

٤. الاختصار في عرض الأقوال والأدلة والنقاشات والتعريفات ونحوها.

٥. إثبات جميع عناوين الأبواب والفصول ولو كان المحذوف فيها كثيرًا.

٦. إثبات جميع المنازل بما يعرِّف بها علىٰ نحوٍ مختصر، عدا منازل معدودة خلت مادتها مما يوافق منهج التهذيب، بل قد يكون ابن القيم استدرك علىٰ الهروي رحمهما الله إدراجها في المنازل، وهي: منزلة السكر، ومنزلة الصحو، ومنزلة التلبيس.

٧. حذف الدرجات المذكورة في المنازل غالبًا، وإبقاؤها في بعض المنازل إذا اشتملت علىٰ معانٍ نفيسة، وسلمت من المآخذ، كما في منزلة الزهد، ومنزلة الرعاية، ومنزلة الإخلاص.

٨. قد تثبت مقدمة الهروي في تعريف المنزلة وقد تحذف بحسب أهميتها وملاءمتها لمنهج التهذيب.

٩. إبراز إجماعات العارفين التي حكاها ابن القيم رحمه الله.

١٠. الاحتفاء بالنقول عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

١١. إبراز بعض الفوائد والعبارات الصالحة للانتقاء والاقتباس، وذلك بتحبيرها باللون الأحمر.

١٢. وضع قائمة في آخر التهذيب بالفوائد والعبارات المنتقاة التي وردت في الأصل ولم تثبت في التهذيب نظرًا لعدم ملاءمتها للسياق، لورودها في نصٍّ لم يطابق شرط التهذيب.

١٣ . الاعتماد علىٰ النص المحقق في الإصدارات العلمية المتقنة التي تولت نشرها والإشراف عليها «عطاءات العلم».

وقد تكرمت «عطاءات العلم» -جزاها الله خيرًا- بخدمة التهذيب بما يلي:

١ . تخريج الأحاديث تخريجًا مختصرًا من حواشي الأصل.

٢ . شرح الألفاظ الغريبة شرحًا مختصرًا مستفادًا من حواشي الأصل.

٣ . وضع عناوين جانبية للموضوعات في بداية الفصول.

٤ . وضع أرقام صفحات الأصل علىٰ هامش الصفحات الأيمن والأيسر.

٥ . وضع فهرس للفوائد والعبارات الصالحة للاقتباس في نص التهذيب أو النصوص المحذوفة من الأصول.

٦ . وضع فهرس مفصل للكتاب.

٧ . مراجعة التهذيب وتحكيمه علميًّا.

٨ . التجهيز للطباعة.

وأجزل الشكر وأوفاه للمؤسسة العلمية الرائدة «عطاءات العلم» لجهودها في خدمة هذا المشروع، ولكل من أسهم في إنجازه بسهم، تحقيقًا لأصوله، ومراجعة لنصوصه، وتنسيقًا لها وإخراجًا، تقبل الله من الجميع أعمالهم وبارك فيها وجعلها خالصة لوجهه، إنه سميع مجيب.

وكتب

د. سلطان بن ناصر الناصر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١/ ٣

مقدمة الكتاب

ربِّ يسِّرْ

الحمد لله ربِّ العالمين، والعاقبة للمتّقين، ولا عدوان إلّا علىٰ الظّالمين. وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، ربُّ العالمين، وإلهُ المرسلين، وقيُّومُ السّماوات والأرضين. وأشهد أنّ محمّدًا عبده ورسوله المبعوث بالكتاب المبين، الفارقِ بين الهدىٰ والضَّلال، والغيِّ والرَّشاد، والشَّكِّ واليقين. أنزله لنقرأه تدبُّرًا، ونتأمّلَه تبصُّرًا، ونسعدَ به تذكُّرًا؛ ونحملَه علىٰ أحسن وجوهه ومعانيه، ونصدِّقَ أخباره ونجتهدَ علىٰ إقامة أوامره ونواهيه، ونجتنيَ ثمارَ علومه النّافعة الموصِلة إلىٰ الله سبحانه من أشجاره، ورياحينَ الحِكَم من بين رياضه وأزهاره.

فهو كتابُه الدَّالُّ لمن أراد معرفته، وطريقُه المُوصِلةُ لسالكها إليه، ونورُه المبينُ الذي أشرقت له الظُّلمات، ورحمتُه المهداة التي بها صلاح جميع المخلوقات، والسَّببُ الواصلُ بينه وبين عباده إذا انقطعت الأسباب، وبابه الأعظم الذي منه الدُّخول، فلا يُغلَق إذا غلِّقت الأبواب.

وهو الصِّراط المستقيم الذي لا تميل به الآراء، والذِّكر الحكيم الذي لا تزيغ به الأهواء، والنُّزُل الكريم الذي لا يشبع منه العلماء. لا تفنىٰ عجائبُه، ولا تُقلِع سحائبُه، ولا تنقضي آياتُه، ولا تختلف دلالاتُه.

كلَّما ازدادت البصائرُ فيه تأمُّلًا وتفكيرًا زادها هدايةً وتبصيرًا. وكلَّما بجَسَتْ مَعينَه فجَّر لها ينابيعَ الحكمة تفجيرًا. فهو نور البصائر مِن عَماها، وشفاء الصُّدور مِن أدوائها وجَوَاها؛ وحياةُ القلوب، ولذَّةُ النُّفوس، ورياضُ القلوب، وحادي الأرواح إلىٰ بلاد الأفراح، والمنادي بالمساء والصّباح: يا أهل الفلاح، حيَّ علىٰ الفلاح.

نادىٰ به منادي الإيمان علىٰ رأس الصِّراط المستقيم: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ

ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الأحقاف: ٣١].

أسمَعَ واللهِ لو صادف آذانًا واعيةً، وبصَّر لو صادف قلوبًا من الفساد خاليةً. لكن عصفت علىٰ القلوب هذه الأهواء، فأطفأت مصابيحَها. وتمكَّنت منها آراءُ الرِّجال، فأغلقت أبوابَ رُشدها، وأضاعت مفاتيحَها. وران عليها كسبُها، فلم تجد حقائقُ القرآن فيها مَنْفذًا. وتحكَّمت فيها أسقامُ الجهل، فلم تنتفع معها بصالح الغِذا.

واعجبًا لها! جعلت غذاءها من هذه الآراء التي لا تُسْمِن ولا تُغني من جوعٍ، ولم تقبل الاغتذاء بكلام ربِّ العالمين، ونصِّ نبيِّه المرفوع! سبحان الله! كيف اهتدَتْ في ظُلَم الآراء إلىٰ التّمييز بين الخطأ والصواب، وخفي عليها ذلك في مطالع الأنوار من السُّنّة والكتاب!

واعجبًا! كيف ميّزت بين صحيح الآراء وسقيمها، ومقبولها ومردودها، وراجحها ومرجوحها؛ وأقرَّتْ علىٰ أنفسها بالعجز عن تلقِّي الهدىٰ والعلم من كلامِ مَن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو الكفيل بإيضاح الحقِّ مع غاية التِّبيان؛ وكلامِ مَن أوتي جوامعَ الكلم، واستولىٰ علىٰ الأمد الأقصىٰ من البيان؟

كلَّا! بل هي واللهِ فتنةٌ أعمت القلوبَ عن مواقع رشدها، وحيَّرت العقولَ عن طرائق قصدها؛ يربّىٰ فيها الصّغير، ويهرم عليها الكبير.

سبحان الله! ماذا حُرم المعرضون عن نصوص الوحي واقتباس العلم من مشكاتها من كنوز الذّخائر! وماذا فاتهم من حياة القلوب واستنارة البصائر! قنعوا بأقوالٍ استنبطها معاولُ الآراء فِكَرًا، وتقطَّعوا أمرهم بينهم لأجلها زُبُرًا. وأوحىٰ بعضهم إلىٰ بعضٍ زخرفَ القول غرورًا، فاتّخذوا لأجل ذلك القرآن مهجورًا.

وبعد، فلمَّا كان كمالُ الإنسان إنّما هو بالعلم النّافع، والعمل الصَّالح

وهما الهدىٰ ودين الحقِّ وبتكميله لغيره في هذين الأمرين، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[سورة العصر]، فأقسم سبحانه أنَّ كلَّ أحدٍ خاسرٌ إلّا من كمَّل قوَّتَه العلميّة بالإيمان، وقوّتَه العمليَّة بالعمل الصالح، وكمَّل غيره بالتوصية له بالحقِّ والصّبر عليه؛ فالحقُّ هو الإيمان والعمل، ولا يتمُّ إلّا بالصَّبر عليه والتَّواصي به= كان حقيقًا بالإنسان أن يُنفق ساعاتِ عمره بل أنفاسَه فيما ينال به المطالبَ العالية، ويخلُصُ به من الخسران المبين.

وليس ذلك إلَّا بالإقبال علىٰ القرآن وتفهُّمه وتدبُّره واستخراجِ كنوزه، وإثارةِ دفائنه، وصرف العناية إليه، والعكوف بالهمَّة عليه؛ فإنّه الكفيل بمصالح العباد في المعاش والمعاد، والمُوصِل لهم إلىٰ سبيل الرشاد. فالحقيقة، والطّريقة، والأذواق والمواجيد الصحيحة= كلُّها لا تُقْتبَس إلّا من مشكاته، ولا تُسْتثمَر إلَّا من شَجَراته.

ونحن بعون الله ننبِّه علىٰ هذا بالكلام علىٰ فاتحة الكتاب وأمِّ القرآن، وعلىٰ بعض ما تضمَّنَتْه هذه السُّورة من هذه المطالب، وما تضمَّنته من الرَّدِّ علىٰ جميع أهل البدع والضَّلال، وما تضمَّنته من منازل السَّائرين ومقامات العارفين، والفرقِ بين وسائلها وغاياتها، ومواهبها وكسبيَّاتها؛ وبيانِ أنَّه لا يقوم غيرُ هذه السُّورة مقامَها، ولا يسُدُّ مسَدَّها، ولذلك لم ينزل في التّوراة ولا في الإنجيل ولا في الزَّبور ولا في القرآن مثلُها. والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله.

١/ ١٠

اشتمال سورة الفاتحة علىٰ أمهات المسائل

قوله ﷺ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ① ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ② ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ③ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ④ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ⑤ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ⑥ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ⑦﴾.

هذه السُّورة اشتملت علىٰ أمَّهات المطالب العالية أتمَّ اشتمالٍ، وتضمَّنتها أكملَ تضمُّنٍ.

فاشتملت علىٰ التّعريف بالمعبود تبارك وتعالىٰ بثلاثة أسماءٍ، مرجعُ الأسماء الحسنىٰ والصِّفات العليا إليها، ومدارُها عليها. وهي: الله، والرَّبُّ، والرَّحمن. وبُنيت السُّورة علىٰ الإلهيَّة، والرُّبوبيَّة، والرّحمة. فـ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ مبنيٌّ علىٰ الإلهيَّة، و﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ علىٰ الرُّبوبيَّة، وطلبُ الهداية إلىٰ صِراطه المستقيم بصفة الرّحمة. والحمدُ يتضمَّن الأمور الثلاثة، فهو المحمود في إلهيَّته، وربوبيَّته، ورحمته. والثّناء والمجد كمالان لحمده.

وتضمَّنت إثباتَ المعاد، وجزاءَ العباد بأعمالهم حَسَنِها وسيِّئها، وتفرُّدَ الربِّ تعالىٰ بالحكم إذ ذاك بين الخلائق، وكونَ حكمه بالعدل. وكلُّ هذا تحت قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

دلالة سورة الفاتحة علىٰ النبوة ووجوب إرسال الرسل

وتضمَّنت إثبات النُّبوّات من **جهات عديدة:**

أحدها: كونه ربَّ العالمين، فلا يليق به أن يتركهم سُدًىٰ مُهْملًا، لا يعرِّفهم ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم وما يضرُّهم فيهما؛ فهذا هضمٌ للرُّبوبيّة، ونسبةٌ إلىٰ الربِّ تعالىٰ ما لا يليق به. وما قدَرَه حقَّ قدره مَن نَسَبه إليه.

الثاني: أخذُها من اسمه «الله»، وهو المألوه المعبود، ولا سبيل للعباد إلىٰ معرفة عبوديته إلَّا من طريق رسله.

الموضع الثالث: من اسمه «الرَّحمن»، فإنَّ رحمته تمنع إهمالَ عباده، وعدمَ تعريفهم ما ينالون به غايةَ كمالهم. فمن أعطىٰ اسمَ الرَّحمن حقَّه علِمَ أنّه متضمِّنٌ لإرسال الرُّسل وإنزالِ الكتب أعظمَ مِن تضمُّنه إنزالَ الغيث، وإنباتَ الكلأ، وإخراجَ الحَبِّ. فاقتضاءُ الرَّحمة لِما يحصل به حياةُ القلوب والأرواحِ أعظمُ من اقتضائها لما يحصل به حياةُ الأبدان والأشباح. لكن المحجوبون إنّما أدركوا من هذا الاسم حظَّ البهائم والدَّوابِّ، وأدرك منه أولو الألباب أمرًا وراء ذلك.

الموضع الرّابع: مِن ذكر يوم الدِّين، فإنّه اليوم الذي يَدِين اللهُ العبادَ فيه بأعمالهم، فيثيبهم علىٰ الخيرات، ويعاقبهم علىٰ المعاصي والسّيِّئات. وما كان الله ليعذِّب أحدًا قبل إقامة الحجّة عليه، والحجّةُ إنّما قامت برسله وكتبه، وبهم استُحِقَّ الثَّوابُ والعقاب، وبهم قام سوقُ يوم الدِّين، وسيق الأبرار إلىٰ النَّعيم، والفجَّار إلىٰ الجحيم.

الموضع الخامس: من قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فإنَّ ما يُعبَد به تعالىٰ لا يكون إلَّا ما يحبُّه ويرضاه. وعبادته هي: شكُره، وحسنُه فِطريٌّ معقولٌ للعقول السليمة، لكنَّ طريق التّعبُّد وما يُعبد به لا سبيل إلىٰ معرفته إلَّا برسله. وفي هذا بيان أنَّ إرسال الرُّسل أمرٌ مستقرٌّ في العقول، يستحيل تعطيلُ العالَم عنه كما يستحيل تعطيلُه عن الصّانع؛ فمن أنكر الرَّسولَ فقد أنكر المُرْسِلَ ولم يؤمن به. ولهذا يجعل سبحانه الكفرَ برسوله كفرًا به.

الموضع السادس: من قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، فالهداية هي البيان والدَّلالة، ثمَّ التَّوفيق والإلهام، وهو بعد البيان والدَّلالة، ولا سبيل إلىٰ البيان والدَّلالة إلَّا من جهة الرُّسل. فإذا حصل البيان والدَّلالة والتَّعريف ترتَّب عليه هدايةُ التَّوفيق، وجعلُ الإيمان في القلب، وتحبيبُه إلىٰ العبد، وتزيينُه في قلبه، وجعلُه مؤثرًا له، راضيًا به، راغبًا فيه.

وهما هدايتان مسؤولتان، ولا يحصل الفلاح إلَّا بهما. وهما متضمِّنتان تعريفَ ما لم نعلَمْه من الحقِّ تفصيلًا وإجمالًا، وإلهامَنا له، وجَعْلَنا مريدين لاتِّباعه ظاهرًا وباطنًا؛ ثمَّ خلقَ القدرة لنا على القيام بموجَب الهدى بالقول والعمل والعزم، ثمَّ إدامةَ ذلك لنا وتثبيتَنا عليه إلى الموافاة.

ومن هاهنا يُعلَم اضطرار العبد إلى هذه الدَّعوة فوقَ كلِّ ضرورةٍ، وبطلانُ سؤال مَن يقول: إذا كنَّا مهتدين، فكيف نسأل الهداية؟ فإنَّ المجهولَ لنا من الحقِّ أضعافُ المعلوم، وما لا نريد فعلَه تهاونًا وكسلًا مثلُ ما نريده أو أكثرُ منه أو دونه. وما لا نقدر عليه ممَّا نريده كذلك. وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله فأمرٌ يفوت الحصر. ونحن محتاجون إلى الهداية التامَّة، فمن كمُلَتْ له هذه الأمور كان سؤالُ الهداية له سؤالَ التَّثبيت والدَّوام.

وللهداية مرتبةٌ أخرى وهي آخر مراتبها وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنَّة، وهو الصِّراط المُوصِل إليها. فمن هُدي في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم، الذي أَرسل به رسولَه، وأنزل به كتابه، هُدي هناك إلى الصِّراط المستقيم المُوصِل إلى جنَّته ودار ثوابه.

وعلى قدر ثبوت قدمه على هذا الصِّراط الذي نصبه اللهُ لعباده في هذه الدار، يكون ثبوتُ قدمه على الصِّراط المنصوب على متن جهنَّم. وعلى قدر سَيرِه على هذا الصِّراط يكون سيرُه على ذاك الصِّراط. فمنهم من يمرُّ كالبرق، ومنهم من يمرُّ كالطَّرْف، ومنهم من يمرُّ كشدِّ الرِّكاب، ومنهم من يسعى سعيًا، ومنهم من يمرُّ مشيًا، ومنهم من يحبو حَبْوًا، ومنهم المخدوش المسلَّم، ومنهم المُكَرْدَس(١) في النَّار. فلينظر العبدُ سيرَه على ذلك الصِّراط من سيرِه على هذا، حذوَ القُذَّة بالقُذَّة جزاءً وفاقًا ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[النمل: ٩٠].

(١) أي: الذي تجمع يداه ورجلاه ويلقى في النار.

ولينظُر الشَّهَواتِ والشبهاتِ التي تَعُوقه عن سيره علىٰ هذا الصِّراط المستقيم، فإنَّها الكلاليب التي بجَنْبَتَيْ ذاك الصِّراط، تخطَفه وتعُوقه عن المرور عليه؛ إن كثرت هنا وقَوِيت، فكذلك هي هناك، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

فسؤال الهداية متضمِّنٌ لحصول كلِّ خيرٍ، وللسَّلامة من كلِّ شرٍّ.

الموضع السابع: مِن معرفة نفس المسؤول، وهو الصِّراط المستقيم. ولا يكون الطَّريق صراطًا حتَّىٰ يتضمَّن خمسة أمورٍ: الاستقامة، والإيصال إلىٰ المقصود، والقرب، وسعته للمارِّين عليه، وتعيُّنه طريقًا للمقصود. ولا يخفىٰ تضمُّن الصِّراط المستقيم لهذه الأمور الخمسة.

فوصفُه بالاستقامة يتضمَّن قربَه، لأنَّ الخطَّ المستقيمَ هو أقرب خطٍّ فاصلٍ بين نقطتين، وكلَّما تعوَّج طال وبعُد. واستقامتُه تتضمَّن إيصالَه إلىٰ المقصود. ونصبُه لجميع من يمرُّ عليه يستلزم سعته. وإضافتُه إلىٰ المنعَم عليهم ووصفُه بمخالفة صراط أهل الغضب والضَّلال يستلزم تعيُّنه طريقًا.

والصِّراط تارةً يضاف إلىٰ الله، إذ هو الذي شرعه ونصبه، كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾[الأنعام: ١٥٣]، وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾[الشورىٰ: ٥٢-٥٣]. وتارةً يضاف إلىٰ العباد كما في الفاتحة، لكونهم أهلَ سلوكه، وهو المنصوب لهم، وهم المارُّون عليه.

الموضع الثامن: من ذكر المنعَم عليهم، وتمييزهم عن طائفتي الغضب والضلال. فانقسم الناسُ بحسب معرفة الحقِّ والعملِ به إلىٰ هذه الأقسام الثلاثة، لأنَّ العبد إمَّا أن يكون عالمًا بالحقِّ، أو جاهلًا به؛ والعالمُ بالحقِّ إمَّا عاملٌ بموجَبه أو مخالفٌ له. فهذه أقسام المكلَّفين لا يخرجون عنها البتَّة. فالعالِمُ

بالحقِّ العاملُ به هو المنعَم عليه، وهو الذي زكَّىٰ نفسه بالعلم النافع والعمل الصّالح، وهو المفلح ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾[الشمس: ٩]. والعالِمُ به المتَّبِعُ هواه هو المغضوب عليه. والجاهل بالحقِّ هو الضّالُّ.

والمغضوب عليه ضالٌّ عن هداية العمل، والضَّالُّ مغضوبٌ عليه لضلاله عن العلم الموجِب للعمل؛ فكلٌّ منهما ضالٌّ مغضوبٌ عليه، ولكنَّ تاركَ العمل بالحقِّ بعد معرفته به أولىٰ بوصف الغضب وأحقُّ به. ومن هاهنا كان اليهود أحقَّ به، وهو متغلِّظٌ في حقِّهم، كقوله تعالىٰ في حقِّهم: ﴿بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ﴾[البقرة: ٩٠]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ﴾[المائدة: ٦٠].

والجاهلُ بالحقِّ أحقُّ باسم الضلال. ومن هاهنا وُصِفت النصارىٰ به في قوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٧٧﴾[المائدة: ٧٧].

فالأولىٰ في سياق الخطاب مع اليهود، والثانية في سياقه مع النصارىٰ. وفي «التِّرمذيِّ» و«صحيح ابن حِبَّان» من حديث عديِّ بن حاتمٍ قال: قال رسول الله ﷺ: **«اليهود مغضوبٌ عليهم، والنّصارىٰ ضالُّون»**.

ففي ذكر المنعَم عليهم وهم من عرَف الحقَّ واتبعه، والمغضوبِ عليهم وهم من عرَفه واتَّبع هواه، والضّالِّين وهم مَن جَهِلَه= ما يستلزم ثبوت الرِّسالة والنُّبوَّة، لأنَّ انقسام الناس إلىٰ ذلك هو الواقع المشهود، وهذه القسمة إنَّما أوجبها ثبوتُ الرِّسالة.

١/ ١٧

إسناد النعمة إلىٰ الله تعالىٰ بخلاف مقابلها

وأضاف النِّعمة إليه، وحَذَف فاعل الغضب **لوجوهٍ**:

منها: أنَّ النِّعمة هي الخير والفضل، والغضبُ من باب الانتقام والعدل، والرحمةُ تغلب الغضب؛ فأضاف إلىٰ نفسه أكملَ الأمرين وأسبقَهما وأقواهما. وهذه طريقة القرآن في إسناد الخيرات والنِّعم إليه، وحذفِ الفاعل في مقابلها، كقول مؤمني الجنِّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾[الجن: ١٠]. ومنه قول الخضر في شأن الجدار واليتيمين: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾[الكهف: ٨٢]، وقال في خرقه السّفينةَ: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، ثمَّ قال بعد ذلك: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي﴾[الكهف: ٨٢].

الوجه الثاني: أنَّ الله سبحانه هو المتفرِّد بالنِّعم ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، فأضيف إليه ما هو متفردٌ به. وإن أضيف إلىٰ غيره فلكونه طريقًا ومجرًىٰ للنِّعمة. وأمَّا الغضبُ علىٰ أعدائه فلا يختصُّ به، بل ملائكته وأنبياؤه ورسله وأولياؤه يغضبون لغضبه، فكان في لفظة ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ من الإشعار بموافقة أوليائه له في غضبه ما لم يكن في «غضبتَ عليهم». وكان في لفظة ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ من الدِّلالة علىٰ تفرُّده بالإنعام، وأنَّ النِّعمة المطلقة منه وحده، هو المتفرد بها= ما ليس في لفظة «المنعَم عليهم».

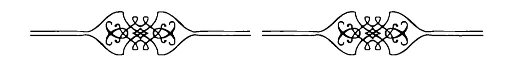
الوجه الثالث: أنَّ في حذف فاعل الغضب من الإشعار بإهانة المغضوب عليه وتحقيره وتصغير شأنه ما ليس في ذكره. وفي ذكر فاعل النِّعمة من إكرامِ المنعَم عليه والإشادةِ بذكره ورفعِ قدره ما ليس في حذفه. فإذا رأيتَ من قد أكرمه ملِكٌ وشرَّفه ورفَع قدره، فقلتَ: هذا الذي أكرمه السُّلطان، وخلَع عليه، وأعطاه، ومنَّاه= كان أبلغَ في الثّناء والتّعظيم من قولك: هذا الذي أُكرِمَ وخُلِعَ عليه وشُرِّف وأُعطِي.

وتأمَّلْ سرًّا بديعًا في ذكر السَّبب والجزاء للطوائف الثّلاثة بأوجز لفظٍ

وأخصرِه، فإنَّ الإنعام عليهم يتضمَّن إنعامَه بالهداية التي هي العلم النافع والعمل الصالح، وهي الهُدىٰ ودين الحقِّ، ويتضمَّن كمالَ الإنعام بحُسْنِ الثّواب والجزاء، فهذا تمام النِّعمة، ولفظة ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ تتضمَّن الأمرين.

وذكرُ غضبه علىٰ المغضوب عليهم يتضمَّن أيضًا أمرين: الجزاء بالغضب الذي موجَبُه غاية العذاب والهوان، والسَّبب الذي استحقُّوا به غضبه سبحانه؛ فإنَّه أرحم وأرأفُ من أن يغضب عليهم بلا جنايةٍ منهم ولا ضلالٍ، وكان الغضب عليهم مستلزمًا لضلالهم. وذكرُ الضّالِّين مستلزمٌ لغضبه عليهم وعقابه لهم، فإنَّ من ضلَّ استحقَّ العقوبة التي هي موجَبُ ضلالِه وغضبِ الله عليه.

فاستلزم وصفُ كلِّ واحدٍ من الطوائف الثلاثة للسَّبب والجزاء أبينَ استلزامٍ، واقتضاه أكمل اقتضاءٍ، في غاية الإيجاز والبيان والفصاحة، مع ذكرِ الفاعل في أهل السعادة، وحذفِه في أهل الغضب، وإسنادِ الفعل إلىٰ السَّبب في أهل الضلال.



١/ ٢١

فصل

الصراط المستقيم واحد والسبل متعددة

وذكر الصِّراط المستقيم مفردًا معرَّفًا تعريفين: تعريفًا باللَّام، وتعريفًا بالإضافة؛ وذلك يفيد تعيينَه واختصاصَه وأنَّه صراطٌ واحدٌ. وأمَّا طرق أهل الغضب والضَّلال فإنَّه سبحانه يجمعها ولا يفردها، كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. فوحَّد لفظ صراطه وسبيله، وجمَعَ السُّبلَ المخالفةَ له.

وقال ابن مسعودٍ رضي الله عنه: خطَّ لنا رسولُ الله ﷺ خطًّا، وقال: «**هذا سبيل الله**». ثمَّ خطَّ خطوطًا عن يمينه وعن يساره، وقال: «**هذه سُبلٌ، علىٰ كلِّ سبيلٍ شيطانٌ يدعو إليه**». ثمَّ قرأ قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣][(١)].

وهذا لأنَّ الطَّريق المُوصِل إلىٰ الله واحد، وهو ما بعث به رسلَه وأنزل به كتبَه، لا يُوصَل إليه إلّا من هذا الطريق. ولو أتىٰ النّاسُ من كلِّ طريقٍ، أو استفتحوا من كلِّ بابٍ، فالطُّرق عليهم مسدودةٌ، والأبواب في وجوههم مغلقةٌ إلَّا هذا الطريقَ الواحدَ، فإنَّه متَّصِلٌ بالله تعالىٰ، مُوصِلٌ إلىٰ الله تعالىٰ.

قال تعالىٰ: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١]. قال الحسن رضي الله عنه: معناه: صراطٌ إليَّ مستقيمٌ[(٢)]. وهذا يحتمل أمرين: أحدهما أن يكون أراد به أنَّه من باب إقامة الأدوات بعضِها مقامَ بعضٍ، فقامت أداةُ «علىٰ» مقام «إلىٰ».

---

(١) أخرجه أحمد (٤١٤٢، ٤٤٣٧)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١١٠٩)، وابن حبان (٦، ٧)، والحاكم (٢/ ٢٣٩، ٣١٨)، بإسناد حسن.

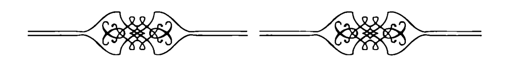
(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٧٠).

والثَّاني: أنَّه أراد التفسير علىٰ المعنىٰ، وهو الأشبه بطريق السلف، أي صراطٌ يُوصِل إليَّ. وقال مجاهد رضي الله عنه: الحقُّ يرجع إلىٰ الله، وعليه طريقُه، لا يعرِّج علىٰ شيءٍ[1]. وهذا مثل قول الحسن وأبين منه، وهو من أصحِّ ما قيل في الآية. وقيل: «علىٰ» فيه للوجوب، أي عليَّ بيانُه وتعريفه والدِّلالة عليه.

والقولان نظير القولين في آية النّحل ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾[الآية: ٩]، والصحيح فيها كالصحيح في آية الحِجْر: أنَّ السبيل القاصد وهو: المستقيم المعتدل يرجع إلىٰ الله، ويُوصِل إليه.

وسمعت شيخ الإسلام تقيّ الدِّين ابن تيميّة رحمه الله يقول: وهما نظير قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾[الليل: ١٢] قال: فهذه ثلاثة مواضع في القرآن في هذا المعنىٰ.

قلت: وأكثر المفسِّرين لم يذكروا في سورة (واللَّيل إذا يغشىٰ) إلَّا معنىٰ الوجوب، أي علينا بيان الهدىٰ من الضلال. ومنهم من لم يذكر في سورة النَّحل إلَّا هذا المعنىٰ كالبغويِّ، وذَكَر في الحِجْر الأقوال الثّلاثة[2]. وذكر الواحديُّ في «بسيطه»[3] المعنيين في سورة النّحل. **واختيار شيخنا** قول مجاهدٍ والحسن في السُّور الثّلاث[4].



(١) أخرجه الطبري (١٤/ ٧٠).
(٢) انظر: «تفسير البغوي» (٥/ ١١، ٤/ ٣٨٢).
(٣) (١٣/ ٢٤).
(٤) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٥/ ٢١٢).

١/ ٢٨
الصراط المستقيم الله تعالىٰ

فصل

والصِّراط المستقيم هو صراط الله. وهو يخبر أنَّ الصِّراط عليه سبحانه كما ذكرنا، ويخبر أنَّه سبحانه علىٰ الصِّراط المستقيم. وهذا في موضعين من القرآن: في هودٍ، والنّحل. قال في هودٍ: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦﴾. وقال في النّحل: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٧٦﴾.

فهذا مثلٌ ضربه الله تعالىٰ للأصنام التي لا تسمع، ولا تنطق، ولا تعقل، وهي كَلٌّ علىٰ عابدها. يحتاج الصَّنم إلىٰ أن يحمله عابدُه، ويضعه ويقيمه ويخدمه. فكيف يسوُّونه في العبادة بالله الذي يأمر بالعدل والتَّوحيد؟ وهو قادرٌ، متكلِّمٌ، غنيٌّ، وهو علىٰ صراطٍ مستقيمٍ في قوله وفعله. فقوله صدقٌ ورشدٌ ونصحٌ وهدًىٰ، وفعله حكمةٌ وعدلٌ ورحمةٌ ومصلحةٌ. هذا أصحُّ الأقوال في الآية، وهو الذي لم يذكر كثيرٌ من المفسِّرين غيره. ومَن ذكر غيرَه قدَّمه علىٰ الأقوال، ثمَّ حكاها بعدَه كما فعل البغويُّ، فإنَّه جزم به، وجعله تفسير الآية، ثمَّ قال: وقال الكلبيُّ: يدلُّكم علىٰ صراطٍ مستقيمٍ[1].

قلت: ودلالته لنا علىٰ الصِّراط المستقيم هي من موجَبِ كونه سبحانه وتعالىٰ علىٰ الصِّراط المستقيم، فإنّ دلالته بفعله وقوله، وهو علىٰ الصِّراط المستقيم في أفعاله وأقواله. فلا يناقض قول من قال: إنّه سبحانه علىٰ الصِّراط المستقيم.

وأمّا آية هودٍ عليه السلام، فصريحةٌ لا تحتمل إلّا معنًىٰ واحدًا، وهو أنّ الله سبحانه وتعالىٰ

(١) «تفسير البغوي» (٥/ ٣٣).

علىٰ صراطٍ مستقيمٍ. وهو سبحانه أحقُّ من كان علىٰ صراطٍ مستقيمٍ، فإنّ أقواله كلّها صدقٌ ورشدٌ وهدًىٰ وعدلٌ وحكمةٌ ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[الأنعام: ١١٥]، وأفعاله كلُّها مصالح وحِكَمٌ، ورحمةٌ وعدلٌ وخيرٌ. فالشرُّ لا يدخل في أفعاله ولا أقواله البتة، لخروج الشرِّ عن الصِّراط المستقيم، فكيف يدخل في أفعال مَن هو علىٰ الصِّراط المستقيم أو أقواله! وإنّما يدخل في أفعال من خرج عنه وأقواله.

وفي دعاء النبي ﷺ: «**لبَّيك وسعدَيك، والخيرُ كلُّه بيديك، والشّرُّ ليس إليك**»[1]. ولا يُلتفَت إلىٰ تفسير من فسَّره بقوله: والشرُّ لا يُتقرَّب به إليك، أو لا يَصْعَد إليك؛ فإنَّ المعنىٰ أجلُّ من ذلك وأكبر وأعظم قدرًا، فإنَّ مَن أسماؤه كلُّها حسنىٰ، وأوصافُه كلُّها كمالٌ، وأفعاله كلُّها حِكَمٌ، وأقواله كلُّها صدقٌ وعدلٌ= يستحيل دخولُ الشّرِّ في أسمائه أو أوصافه أو أفعاله أو أقواله.

وطابِقْ بين هذا المعنىٰ وبين قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[هود: ٥٦] وتأمَّلْ كيف ذكر هذا عقيب قوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾[هود: ٥٦]. أي هو ربِّي، فلا يُسْلِمني ولا يضيِّعني، وهو ربُّكم فلا يسلِّطكم عليَّ ولا يمكِّنكم منِّي، فإنَّ نواصيكم بيده، لا تفعلون شيئًا بدون مشيئته؛ فإنَّ ناصية كلِّ دابَّةٍ بيده، لا يُمْكنها تتحرَّكُ إلّا بإذنه؛ فهو المتصرِّف فيها، ومع هذا فهو في تصرُّفه فيها، وتحريكه لها، ونفوذ قضائه وقدره فيها= علىٰ صراطٍ مستقيمٍ. لا يفعل ما يفعل من ذلك إلّا بحكمةٍ وعدلٍ ومصلحةٍ. ولو سلَّطكم عليَّ فله من الحكمة في ذلك ما له الحمدُ عليه، لأنَّه تسليطُ مَن هو علىٰ صراطٍ مستقيمٍ، لا يظلم ولا يفعل شيئًا عبثًا بغير حكمةٍ.

فهكذا تكون المعرفة بالله، لا معرفة القدريَّة المجوسيَّة، ولا القدريَّة الجبريَّة نُفاةِ الحِكَم والمصالح والتَّعليل. والله الموفِّق سبحانه وتعالىٰ.

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧١)، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

١/ ٣٢

فصل

من دلائل الصراط المستقيم سلوك الصالحين عليه

ولمَّا كان طالبُ الصِّراط المستقيم طالبَ أمرٍ أكثرُ النَّاس ناكبون عنه، مريدٌ لسلوك طريقٍ مُرافِقُه فيها في غاية العزَّة[(١)]، والنُّفوسُ مجبولةٌ علىٰ وحشة التَّفرُّد وعلىٰ الأنس بالرَّفيق= نبَّه الله سبحانه علىٰ الرَّفيق في هذه الطريق، وأنَّهم هم الذين ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[النساء: ٦٩]، فأضاف الصِّراط إلىٰ الرَّفيق السالكين له، وهم الذين أنعم الله عليهم، ليزول عن الطالب للهداية وسلوكِ الصِّراط وحشةُ تفرُّده عن أهل زمانه وبني جنسه، وليعلمَ أنَّ رفيقه في هذا الصِّراط هم الذين أنعم الله عليهم، فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه له، فإنَّهم هم الأقلُّون قدرًا، وإن كانوا الأكثرين عددًا، كما قال بعض السَّلف: «عليك بطريق الحقِّ، ولا تستوحش لقلَّة السَّالكين. وإيَّاك وطريقَ الباطل، ولا تغترَّ بكثرة الهالكين»[(٢)]. وكلَّما استوحشتَ في تفرُّدك فانظر إلىٰ الرَّفيق السَّابق، واحرص علىٰ اللَّحاق بهم، وغُضَّ الطَّرْفَ عمَّن سواهم فإنَّهم لن يُغْنُوا عنك من الله شيئًا. وإذا صاحوا بك في طريق سيرك فلا تلتفت إليهم، فإنَّك متىٰ التفتَّ إليهم أخذوك أو عاقوك.

وقد ضُربت لذلك مثلان، فليكونا منك علىٰ بالٍ:

المثال الأوَّل: رجلٌ خرج من بيته إلىٰ الصَّلاة، لا يريد غيرها، فعرَض له في طريقه شيطانٌ من شياطين الإنس، فألقىٰ عليه كلامًا يؤذيه. فوقف، وردَّ عليه، وتماسكا. فربَّما كان شيطانُ الإنس أقوىٰ منه، فقهره، ومنعَه عن الوصول إلىٰ

---

(١) أي: في غاية القلة في العدد.

(٢) روي نحوه عن الفضيل بن عياض، انظر: «تبيين كذب المفتري» (ص٣٣١)، و«الأذكار» للنووي (ص١٦٠).

المسجد حتَّىٰ فاتت الصّلاة. وربَّما كان أقوىٰ من شيطان الإنس، ولكن اشتغل بمهاوشته عن الصّفِّ الأوَّل وكمال إدراك الجماعة. فإن التفت إليه أطمَعَه في نفسه، وربَّما فترت عزيمتُه. فإن كان له معرفةٌ وعلمٌ زاد في السَّعي والجَمْز[1] بقدر التفاته أو أكثر. فإن أعرض عنه واشتغل بما هو بصدده، وخاف فوتَ الصلاة أو الوقت= لم يبلغ عدوُّه منه شيئًا.

المثل الثاني: الظَّبيُ أشدُّ سعيًا من الكلب، ولكنَّه إذا أحسَّ به التفت إليه فضعُفَ سَعْيُه، فيدركه الكلب، فيأخذه.

والقصد: أنَّ في ذكر هذا الرفيق ما يزيل وحشة التفرُّد، ويحثُّ علىٰ السَّير والتشمير للَّحاق بهم. وهذا أحد الفوائد في دعاء القنوت: «**اللهمَّ اهدني فيمن هديت**». أي أدخلني في هذه الزُّمرة، واجعلني رفيقًا لهم ومعهم.

والفائدة الثانية: أنَّه توسُّلٌ إلىٰ الله بنعمه وإحسانه إلىٰ مَن أنعم عليه بالهداية. أي قد أنعمتَ بالهداية علىٰ مَن هديتَ، وكان ذلك نعمةً منك، فاجعل لي نصيبًا من هذه النِّعمة، واجعلني واحدًا من هؤلاء المنعَم عليهم. فهو توسُّلٌ إلىٰ الله بإحسانه.

والفائدة الثالثة: كما يقول السائل للكريم: تصدَّق عليَّ في جملة من تصدَّقتَ عليه، وعلِّمني مِن جملة من علَّمتَه، وأحسِنْ إليَّ في جملة من شمَلتَه بإحسانك.

---

(١) الجَمْز: العَدْو والإسراع.

١/ ٣٥

فصل

التوسل إلىٰ الله بين يدي سؤال الهداية إلىٰ الصراط المستقيم

ولمَّا كان سؤالُ الهداية إلىٰ الصِّراط المستقيم أجلَّ المطالب، ونيلُه أشرفَ المواهب: علَّم اللهُ عبادَه كيفيَّة سؤاله، وأمرَهم أن يقدِّموا بين يديه حمدَه والثناءَ عليه وتمجيدَه، ثمَّ ذِكْرَ عبوديَّتهم وتوحيدهم. فهاتان وسيلتان إلىٰ مطلوبهم: توسُّلٌ إليه بأسمائه وصفاته، وتوسُّلٌ إليه بعبوديَّته؛ وهاتان الوسيلتان لا يكاد يُرَدُّ معهما الدُّعاء. وهما الوسيلتان المذكورتان في حديثَي الاسم الأعظم اللَّذين رواهما ابن حبَّان في «صحيحه» والإمام أحمد والتِّرمذيُّ ﷺ:

أحدهما: حديث عبد الله بن بُرَيدة عن أبيه ﵄ قال: سمع النبيُّ ﷺ رجلًا يدعو، وهو يقول: اللهمَّ إنِّي أسألك بأنِّي أشهد أنَّك أنت الله الذي لا إله إلَّا أنت، الأحد الصَّمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحدٌ. فقال: «**والذي نفسي بيده، لقد سأل اللهَ باسمه الأعظم، الذي إذا دُعِي به أجاب، وإذا سُئِل به أعطىٰ**»[1]. قال التِّرمذيُّ: حديثٌ صحيحٌ.

فهذا توسُّلٌ إلىٰ الله بتوحيده، وشهادةِ الداعي له بالوحدانيَّة، وثبوتِ صفاته المدلولِ عليها باسم «الصَّمد» وهو كما قال ابن عبَّاسٍ ﵄: العالم الذي كَمُل علمُه، القادر الذي كمُلَتْ قدرتُه، وفي روايةِ عليٍّ عنه: هو السَّيِّد الذي قد كمل فيه جميعُ أنواع السُّؤدد[2]. وقال أبو وائلٍ: هو السَّيِّد الذي انتهىٰ سؤدده[3]. وقال

(١) أخرجه أحمد (٢٢٩٥٢، ٢٣٠٤١)، وأبو داود (١٤٩٣، ١٤٩٤)، والترمذي (٣٤٧٥)، وابن ماجه (٣٨٥٧)، وصححه ابن حبان (٨٩٢)، والحاكم (١/ ٥٠٤).

(٢) كلاهما جزء من رواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس التي أخرجها الطبري (٢٤/ ٧٣٦) وغيره مطولةً، إلا أنه ليس فيها: «القادر الذي كملت قدرته».

(٣) ذكره البخاري تعليقًا قبل الحديث (٤٩٧٥). انظر: «تغليق التعليق» (٤/ ٣٨٠).

سعيد بن جبيرٍ: هو الكامل في جميع صفاته وأعماله[١] وبنفيِ التمثيل والتشبيه عنه بقوله: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾. وهذا ترجمةُ عقيدةِ أهل السُّنَّة، فالتوسُّلُ بالإيمان بذلك والشهادةِ به هو الاسم الأعظم.

والثاني: حديث أنسٍ ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ سمع رجلًا يدعو: اللهمَّ إنِّي أسألك بأنَّ لك الحمد، لا إله إلَّا أنت، المنَّان، بديعَ السماوات والأرض، ذا الجلال والإكرام، يا حيُّ يا قيُّوم. فقال: «**لقد سأل الله باسمه الأعظم**»[٢]. فهذا توسُّلٌ إليه بأسمائه وصفاته.

وقد جمعت الفاتحةُ الوسيلتين: التوسُّلَ بالحمد لله والثناء عليه وتمجيده، والتّوسُّلَ إليه بعبوديَّته وتوحيده. ثمَّ جاء سؤال أهمِّ المطالب وأنجح الرَّغَبات وهو الهداية بعد الوسيلتين؛ فالداعي به حقيقٌ بالإجابة.

ونظير هذا: دعاء النبيِّ ﷺ الذي كان يدعو به إذا قام يصلِّي من اللَّيل. رواه البخاريُّ في «صحيحه»[٣] من حديث ابن عبَّاسٍ ﷺ: «**اللهمَّ لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض ومن فيهنَّ. ولك الحمد، أنت قيِّمُ السماوات والأرض ومن فيهنّ. ولك الحمد، أنت الحقُّ، ووعدك الحقُّ، ولقاؤك حقٌّ، والجنّة حقٌّ، والنّار حقٌّ، والنّبيُّون حقٌّ، والسّاعة حقٌّ، ومحمَّدٌ حقٌّ. اللهمَّ لك أسلمتُ، وبك آمنتُ، وعليك توكَّلتُ، وإليك أنبتُ، وبك خاصمتُ، وإليك حاكمتُ. فاغفِرْ لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ، وما أسررتُ وما أعلنتُ. أنت إلهي لا إله إلَّا أنت**». فذكر التّوسُّل إليه بحمده والثناء عليه وبعبوديَّته له، ثمَّ سأله المغفرة.

---

(١) ذكره الثعلبي في «الكشف والبيان» (٣٠/ ٥١٥).

(٢) أخرجه أحمد (١٢٢٠٥، ١٢٦١١)، وأبو داود (١٤٩٥)، والنسائي (١٣٠٠)، والترمذي (٣٥٤٤)، وابن ماجه (٣٨٥٨)، وصححه ابن حبان (٨٩٣).

(٣) برقم (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩).

١/ ٣٧
دلالة سورة الفاتحة علىٰ أنواع التوحيد

فصل

في اشتمال هذه السُّورة علىٰ أنواع التوحيد الثلاثة التي اتّفقت عليها الرُّسل صلوات الله وسلامه عليهم.

التَّوحيد نوعان: نوعٌ في العلم والاعتقاد، ونوعٌ في الإرادة والقصد. ويسمَّىٰ الأوَّل: التوحيدَ العلميَّ، والثّاني: التوحيدَ القصديَّ الإراديَّ؛ لتعلُّق الأوَّل بالأخبار والمعرفة، والثاني بالقصد والإرادة. وهذا الثاني أيضًا نوعان: توحيدٌ في الرُّبوبيَّة، وتوحيدٌ في الإلهيَّة. وهذه ثلاثة أنواع.

فأمَّا توحيد العلم، فمداره علىٰ إثبات صفات الكمال، وعلىٰ نفي التشبيه والمثال والتنزيه عن العيوب والنقائص. وقد دلَّ علىٰ هذا شيئان: مجملٌ، ومفصَّلٌ.

فأمَّا المجمل، فإثبات الحمد لله سبحانه. وأمَّا المفصَّل، فذكر صفة الإلهيَّة، والرُّبوبيَّة، والرحمة، والمُلك. وعلىٰ هذه الأربع مدار الأسماء والصِّفات.

فأمّا تضمُّن الحمد لذلك، فإنَّ الحمدَ يتضمَّن مدحَ المحمود بصفات كماله ونعوتِ جلاله، مع محبَّته والرِّضا عنه والخضوع له. فلا يكون حامدًا مَن جَحَد صفاتِ الممدوح، ولا من أعرض عن محبَّته والخضوع له. وكلَّما كانت صفاتُ كمال الممدوح أكثرَ كان حمدُه أكملَ، وكلَّما نقَصَ من صفات كماله نقَص من حمده بحسبها. ولهذا كان الحمدُ كلُّه لله حمدًا لا يحصيه أحدٌ سواه، لكمال صفاته وكثرتها. ولهذا لا يحصي أحدٌ من خلقه ثناءً عليه، لِما له من صفات الكمال ونعوت الجلال التي لا يحصيها سواه. ولهذا ذمَّ الله سبحانه وتعالىٰ آلهة الكفَّار وعابها بسَلْبِ أوصاف الكمال عنها، فعابها بأنَّها لا تسمع ولا تبصر، ولا تتكلَّم ولا تُكلِّم ولا تهدي.

١/ ٤٢

دلالة سورة الفاتحة على توحيد الأسماء والصفات

فصل

فهذا دلالة الحمد علىٰ توحيد الأسماء والصِّفات.

وأمَّا دلالة الأسماء الخمسة عليها وهي: الله، والرَّبُّ، والرَّحمن، والرَّحيم، والمَلِك فمبنيٌّ علىٰ أصلين:

أحدهما: أنَّ أسماء الربِّ ﷻ دالَّةٌ علىٰ صفات كماله، فهي مشتقَّةٌ من الصِّفات، فهي أسماءٌ وهي أوصافٌ. وبذلك كانت حسنىٰ، إذ لو كانت ألفاظًا لا معاني فيها لم تكن حسنىٰ، ولا كانت دالَّةً علىٰ مدحٍ ولا كمالٍ، ولساغ وقوعُ أسماء الانتقام والغضب في مقام الرَّحمة والإحسان، وبالعكس؛ فيقال: اللهمَّ إنِّي ظلمتُ نفسي، فاغفر لي، إنَّك أنت المنتقم! واللهمَّ أعطِني فإنَّك أنت الضارُّ المانع! ونحو ذلك. ونفيُ معاني أسمائه الحسنىٰ من أعظم الإلحاد فيها، قال تعالىٰ: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[الأعراف: ١٨٠].

ولأنَّها لو لم تدلَّ علىٰ معانٍ وأوصافٍ لم يسُغْ أن يُخبَر عنه بمصادرها ويوصف بها، لكن أخبر عن نفسه بمصادرها، وأثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾[الذاريات: ٥٨]، فعُلِم أنَّ «القويَّ» من أسمائه معناه: الموصوف بالقوَّة. وكذلك قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾[فاطر: ١٠]، فالعزيز مَن له العزَّة. فلولا ثبوت العزَّة والقوَّة لم يسمَّ قويًّا ولا عزيزًا. وكذلك قوله: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ﴾[النساء: ١٦٦]، ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾[هود: ١٤]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ﴾[البقرة: ٢٥٥].

وفي «الصحيح»[1] عن النَّبيِّ ﷺ: **«إنَّ الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام. يخفض**

(١) أخرجه مسلم (١٧٩)، من حديث أبي موسىٰ الأشعري ﷺ.

القسطَ ويرفعه. يُرفع إليه عملُ اللّيل قبل عمل النّهار، وعملُ النّهار قبل عمل اللّيل. حجابه النُّور، لو كشَفه لأحرقَتْ سُبُحاتُ وجهه ما انتهىٰ إليه بصرُه من خلقه». فأثبت المصدر الذي اشتقَّ منه اسمه «البصير».

وفي «صحيح البخاريِّ»(١) عن عائشة رضي الله عنها: «الحمد لله الذي وسِعَ سمعُه الأصواتَ».

وفي «الصحيح»(٢) حديث الاستخارة: «**اللهمَّ إنِّي أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك**». فهو قادرٌ بقدرةٍ.

وقال تعالىٰ لموسىٰ عليه السلام: ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]. فهو متكلِّمٌ بكلامٍ.

وهو العظيم الذي له العظمةُ، كما في «الصَّحيح»(٣) عنه ﷺ: «**يقول تعالىٰ: العظمة إزاري، والكبرياء ردائي**». وهو الحكيم الذي له الحكم ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾[غافر: ١٢].

وأجمع المسلمون أنَّه لو حلف بحياة الله وسمعه وبصره وقوَّته وعزَّته وعظمته انعقدت يمينه، وكانت مكفَّرةً، لأنَّ هذه صفات كماله التي اشتُقَّت منها أسماؤه.

وأيضًا لو لم تكن أسماؤه مشتملةً علىٰ معانٍ وصفاتٍ لم يسُغْ أن يُخبَر عنه بأفعالها. فلا يقال: يسمع، ويرىٰ، ويعلم، ويقدر، ويريد؛ فإنَّ ثبوت أحكام الصِّفات فرعُ ثبوتها، فإذا انتفت أصل الصِّفة استحال ثبوت حكمها.

---

(١) تعليقًا بصيغة الجزم قبل الحديث (٧٣٨٦)، ووصله أحمد (٢٤١٩٥)، والنسائي (٣٤٦٠)، وابن ماجه (١٨٨)، وصححه الحافظ في «تغليق التعليق» (٥/ ٣٣٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٨٢)، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٢٠) بلفظ: «العزُّ إزاره، والكبرياء رداؤه». واللفظ الذي ذكره المؤلف أخرجه أحمد (٨٨٩٤)، وأبو داود (٤٠٩٠)، وابن ماجه (٤١٧٤)، وصححه ابن حبان (٣٢٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

١/ ٤٧

فصل

دلالة الأسماء الحسنىٰ علىٰ معاني الجلال والتنزيه بالتضمن واللزوم

الأصل الثاني: أنَّ الاسم من أسمائه تبارك وتعالىٰ كما يدلُّ علىٰ الذات والصِّفة التي اشتُقَّ منها بالمطابقة، فإنَّه يدلُّ دلالتان أخريان بالتضمُّن واللُّزوم. فيدلُّ علىٰ الصِّفة بمفردها بالتضمُّن وكذلك علىٰ الذات المجرَّدة عن الصِّفة، ويدلُّ علىٰ الصِّفة الأخرىٰ باللُّزوم. فإنَّ اسم «السميع» يدلُّ علىٰ ذات الربِّ وسمعه بالمطابقة، وعلىٰ الذات وحدَها والسمع وحده بالتضمُّن، ويدلُّ علىٰ اسم «الحيِّ» وصفةِ الحياة بالالتزام. وكذلك سائر أسمائه وصفاته، ولكن تتفاوت النّاسُ في معرفة اللُّزوم وعدمه. ومن هاهنا يقع اختلافهم في كثيرٍ من الأسماء والصِّفات والأحكام، فإنَّ مَن علم أنَّ الفعل الاختياريَّ لازمٌ للحياة، وأنَّ السمع والبصر لازمٌ للحياة الكاملة، وأنَّ سائر الكمال من لوازم الحياة الكاملة= أثبت من أسماء الربِّ وصفاته وأفعاله ما ينكره من لم يعرف لزوم ذلك، ولا عرف حقيقة الحياة ولوازمها.

وكذلك سائرُ صفاته. فإنَّ اسم «العظيم» له لوازم ينكرها من لم يعرف عظمة الله تعالىٰ ولوازمها. وكذلك اسم «العليِّ»، واسم «الحكيم»، وسائر أسمائه. فإنَّ من لوازم اسم «العليِّ» العلوَّ المطلقَ بكلِّ اعتبارٍ، فله العلوُّ المطلق من جميع الوجوه: علوُّ القدر، وعلوُّ القهر، وعلوُّ الذّات. فمن جحد علوَّ الذّات فقد جحد لوازم اسمه «العليِّ».

﴿ فصل ﴾

١/ ٤٩

الاسم المعظَّم «الله» دال علىٰ جميع الأسماء الحسنىٰ

إذا تقرَّر هذان الأصلان، فاسم «الله» دالٌّ علىٰ جميع الأسماء الحسنىٰ والصِّفات العُلىٰ بالدِّلالات الثلاث. فإنّه دالٌّ علىٰ الإلهيَّة المتضمِّنة لثبوت صفات الإلهيَّة له مع نفي أضدادها عنه. وصفات الإلهيَّة هي صفاتُ الكمال المنزَّهةُ عن التشبيه والمثال وعن العيوب والنقائص، ولهذا يضيف تعالىٰ سائر الأسماء الحسنىٰ إلىٰ هذا الاسم المعظَّم، كقوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]. ويقال: الرَّحمن، والرَّحيم، والقدُّوس، والسَّلام، والعزيز، والحكيم= من أسماء الله. ولا يقال: الله من أسماء الرَّحمن، ومن أسماء العزيز، ونحو ذلك.

فعُلِمَ أنَّ اسمه «الله» مستلزمٌ لجميع معاني الأسماء الحسنىٰ، دالًّا عليها بالإجمال. والأسماء الحسنىٰ تفصيلٌ وتبيينٌ لصفات الإلهيَّة التي اشتُقَّ منها اسم «الله». واسمُ «الله» دالٌّ علىٰ كونه مألوهًا معبودًا، تَأْلَهُه الخلائق محبَّةً وتعظيمًا وخضوعًا ومَفْزعًا إليه في الحوائج والنوائب. وذلك مستلزمٌ لكمال ربوبيَّته ورحمته المتضمِّنتين لكمال الملك والحمد. وإلهيَّتُه وربوبيَّتُه ورحمانيَّتُه وملكُه مستلزمٌ لجميع صفات كماله، إذ يستحيل ثبوتُ ذلك لمن ليس بحيٍّ ولا سميعٍ ولا بصيرٍ ولا قادرٍ ولا متكلِّمٍ، ولا فعَّالٍ لما يريد، ولا حكيمٍ في أفعاله.

فصفات الجلال والجمال أخصُّ باسم «الله». وصفات الفعل والقدرة، والتّفرُّد بالضَّرِّ والنّفع والعطاء والمنع، ونفوذ المشيئة وكمال القوَّة، وتدبير أمر الخليقة= أخصُّ باسم «الرّبِّ».

وصفات الإحسان والجود والبِرِّ والحنان والرَّأفة واللُّطف= أخصُّ باسم

«الرحمن». وكُرِّرَ إيذانًا بثبوت الوصف، وحصول أثره، وتعلُّقه بمتعلَّقاته.

فالرَّحمن: الذي الرَّحمةُ وصفُه، والرَّحيم: الرَّاحم لعباده. ولهذا يقول تعالىٰ: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾[الأحزاب: ٤٣]، ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]. ولم يجئ: رحمانٌ بعباده، ولا رحمانٌ بالمؤمنين، مع ما في اسم «الرَّحمن» الذي هو علىٰ وزن فَعْلان من سعة هذا الوصف وثبوت جميع معناه للموصوف به. ألا ترىٰ أنَّهم يقولون: غضبان للممتلئ غضبًا، وندمان وحيران وسكران ولهفان لمن مُلئ بذلك؛ فبناء فَعْلان للسَّعة والشُّمول.

ولهذا يَقْرُن استواءَه علىٰ العرش بهذا الاسم كثيرًا، كقوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[طه: ٥]، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾[الفرقان: ٥٩]. فاستوىٰ علىٰ عرشه باسم «الرَّحمن»، لأنَّ العرش محيطٌ بالمخلوقات قد وَسِعَها، والرَّحمةُ محيطةٌ بالخلق واسعةٌ لهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾[الأعراف: ١٥٦]. فاستوىٰ علىٰ أوسع المخلوقات بأوسع الصِّفات، فلذلك وسعَتْ رحمتُه كلَّ شيءٍ.

وفي «الصحيح»(١) من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لمَّا قضىٰ الله الخلقَ كتَب في كتابٍ فهو عنده موضوعٌ علىٰ العرش: إنَّ رحمتي تغلب غضبي**». وفي لفظ: «**سبقت رحمتي غضبي**»(٢). وفي لفظٍ: «**فهو عنده، وضعه علىٰ العرش**»(٣).

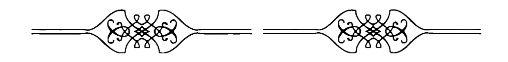
فتأمَّلْ اختصاصَ هذا الكتاب بذكر الرَّحمة ووضعِه عنده علىٰ العرش،

---

(١) البخاري (٧٤٠٤)، ومسلم (٢٧٥١).
(٢) البخاري (٧٥٥٣)، ومسلم (٢٧٥١/ ١٥).
(٣) أخرجه البخاري (٧٤٠٤) بلفظ: «وهو وَضْعٌ عنده علىٰ العرش» أي موضوع، وفي رواية أبي ذر: «وَضَعَ»، انظر: «فتح الباري» (١٣/ ٣٨٥).

وطابِقْ بين ذلك وبين قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[طه: ٥]، وقولِه: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾[الفرقان: ٥٩] ينفتِحْ لك بابٌ عظيمٌ من معرفة الربِّ تبارك وتعالىٰ إن لم يُغلِقْه عنك التعطيل والتَّجَهُّم.

وصفاتُ العدل، والقبض والبسط، والخفض والرَّفع، والإعطاء والمنع، والإعزاز والإذلال، والقهر والحكم، ونحوها= أخصُّ باسم المَلِك. وخَصَّه بيوم الدِّين وهو الجزاء بالعدل لتفرُّده بالحكم فيه وحده، ولأنَّه اليوم الحقُّ وما قبله كساعةٍ، ولأنَّه الغاية وأيّام الدُّنيا مراحل إليه.



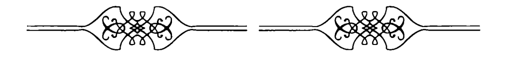
١/ ٥٢

فصل

اختصاص معاني الخلق والأمر بالأسماء ثلاثة

وتأمَّلْ ارتباطَ الخلق والأمر بهذه الأسماء الثلاثة وهي «الله» و«الرَّبُّ» و«الرَّحمن» كيف نشأ عنها الخلق، والأمر، والثواب، والعقاب! وكيف جَمَعت الخلقَ وفرَقَتهم! فلها الجمعُ والفرق.

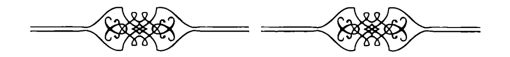
فاسم «الرّبِّ» له الجمعُ الجامعُ لجميع المخلوقات. فهو ربُّ كلِّ شيءٍ وخالقه، والقادر عليه، لا يخرج شيءٌ عن ربوبيَّته. وكلُّ مَن في السماوات والأرض عبد له، في قبضته، وتحت قهره. فاجتمعوا بصفة الرُّبوبيَّة. وافترقوا بصفة الإلهيَّة، فأَلِهَه وحدَه السُّعداءُ، وأقرُّوا له طوعًا بأنَّه اللهُ الذي لا إله إلَّا هو، الذي لا ينبغي العبادة والتوكُّل والرجاء والخوف والحَسْب والإنابة والإخبات والخشية والتذلُّل والخضوع إلَّا له.



١/ ٥٤
ذكر الأسماء بعد الحمد يدل علىٰ كمال مضمونها ومقتضاها

فصل

وفي ذكر هذه الأسماء بعد الحمد، وإيقاع الحمد علىٰ مضمونها ومقتضاها= ما يدلُّ علىٰ أنّه محمودٌ في إلهيَّته، محمودٌ في ربوبيَّته، محمودٌ في رحمانيَّته، محمودٌ في ملكه؛ وأنّه إلهٌ محمودٌ، ربٌّ محمودٌ، ورحمنٌ محمودٌ، ومِلِكٌ محمودٌ. فله بذلك جميع أقسام الكمال: كمالٌ من هذا الاسم بمفرده، وكمالٌ من الآخر بمفرده، وكمالٌ من اقتران أحدهما بالآخر.



١/ ٥٧

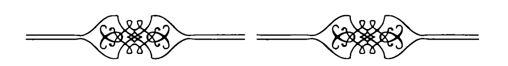
فصل

في مراتب الهداية الخاصَّة والعامَّة

وهي عشر مراتب:

المرتبة الأولىٰ: مرتبة تكليم الله تعالىٰ لعبده يقظةً بلا واسطةٍ، بل منه إليه. وهذه أعلىٰ مراتبها، كما كلَّم موسىٰ بن عمران صلوات الله وسلامه علىٰ نبيِّنا وعليه. قال تعالىٰ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾[النساء: ١٦٤]. فذكر في أوَّل الآية وحيه إلىٰ نوحٍ والنَّبيِّين من بعده، ثمَّ خصَّ موسىٰ من بينهم بالإخبار بأنَّه كلَّمه. وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ التكليم الذي حصل له أخصُّ من مطلق الوحي الذي ذُكِر في أوَّل الآية.

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾[الأعراف: ١٤٣]. وهذا التكليم غير التكليم الأوَّل الذي أرسله به إلىٰ فرعون، وفي هذا التكليم الثاني سأل النظر لا في الأوَّل، وفيه أعطي الألواح، وكان عن مواعدةٍ من الله له، والتكليم الأوَّل لم يكن عن مواعدةٍ.

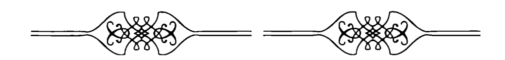


فصل

المرتبة الثانية: مرتبة الوحي المختص بالأنبياء عليهم السلام

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾[النساء: ١٦٣]. وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ الآية [الشورىٰ: ٥١]. فجعل الوحي في هذه الآية قسمًا من أقسام التكليم، وجعله في آية النِّساء قسيمًا للتكليم. وذلك باعتبارين، فإنَّه قسيم للتَّكليم الخاصِّ الذي بلا واسطةٍ، وقسمٌ من التكليم العامِّ الذي هو إيصال المعنىٰ بطرقٍ متعدِّدةٍ.

والوحي في اللُّغة هو الإعلام السَّريع الخفيُّ.

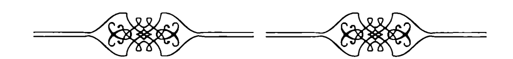


فصل

المرتبة الثالثة: إرسال الرسول الملكيِّ إلىٰ الرسول البشريِّ، فيوحي إليه عن الله ما أمره أن يوصله إليه.

فهذه المراتبُ الثلاثةُ خاصَّةٌ بالأنبياء ﷩، لا تكون لغيرهم.

ثمَّ هذا الرسول الملكيُّ قد يتمثَّل للرسول البشريِّ رجلًا، يراه عِيانًا ويخاطبه. وقد يراه علىٰ صورته التي خُلِق عليها، وقد يدخل فيه الملَكُ ويوحي إليه ما يوحيه، ثمَّ يَفْصِمُ عنه[1]، أي يُقْلِع. والثلاثة حصلت لنبيِّنا ﷺ.



(١) كما في حديث عائشة ﵂ عند البخاري (٣٢١٥)، ومسلم (٢٣٣٣).

فصل

المرتبة الرّابعة: مرتبة المحدَّث.

وهذه دون مرتبة الوحي الخاصِّ، فتكون للصدِّيقين، كما كانت لعمر بن الخطَّاب رضي الله عنه، كما قال النبيُّ ﷺ: «**إنَّه قد كان في الأمم قبلكم مُحَدَّثون، فإن يكن في هذه الأمَّة أحدٌ فعمر بن الخطاب**»[١] رضي الله عنه.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيميَّة رضي الله عنه يقول: جزَم بأنَّهم كائنون في الأمم قبلنا، وعلَّق وجودَهم في هذه الأمَّة بـ «إنْ» الشرطيّة، مع أنّها أفضل الأمم؛ لاحتياجِ الأمم قبلنا إليهم، واستغناءِ هذه الأمَّة عنهم لكمالِ نبوَّةِ نبيِّها ورسالته، فلم يُحوِجِ الله الأمَّةَ بعده إلىٰ مُحَدَّثٍ ولا ملهَمٍ، ولا صاحبِ كشفٍ ولا إلىٰ منامٍ. فهذا التعليق لكمال الأمَّة واستغنائها، لا لنقصها.

والمحدَّث: هو الذي يُحَدَّث في سرِّه وقلبه بالشَّيء، فيكون كما يحدَّث به.

قال شيخنا رضي الله عنه: والصِّدِّيقُ كان أكملَ من المحدَّث، لأنَّه استغنىٰ بكمال صدِّيقيَّته ومتابعته عن التحديث والإلهام والكشف، فإنَّه قد سلَّم قلبه وسرَّه وظاهرَه وباطنَه للرسول ﷺ، فاستغنىٰ به عمَّا منه[٢].

قال: وكان هذا المحدَّث يَعْرِض ما يُحدَّث به علىٰ ما جاء به الرَّسول، فإن وافقه قبله، وإلَّا ردَّه. فعُلِمَ أنَّ مرتبة الصدِّيقيَّة فوق مرتبة التحديث.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٦٩)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٢٣٩٨)، عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) انظر نحوه في «الجواب الصحيح» (٢/ ٣٨٢)، و«الصفدية» (١/ ٢٥٩)، و«شرح الأصفهانية» (ص١٧٥)، و«مجموع الفتاوىٰ» (١٧/ ٤٦).

فصل

المرتبة الخامسة: مرتبة الإفهام.

قال تعالىٰ: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ [الأنبياء: ٧٨- ٧٩]. فذكر هذين النبيَّين الكريمين، وأثنىٰ عليهما بالعلم والحكم، وخصَّ سليمان بالفهم في هذه الواقعة المعيَّنة.

وقال عليُّ بن أبي طالبٍ ﷺ وقد سئل: هل خصَّكم رسول الله ﷺ بشيءٍ دون الناس؟ فقال: لا والذي فلَقَ الحبَّةَ وبرأ النَّسمةَ، إلَّا فهمًا يؤتيه الله عبدًا في كتابه، وما في هذه الصحيفة. وكان فيها العَقْلُ وهو الدِّيات، وفَكاكُ الأسير، وأن لا يُقتَل مسلمٌ بكافرٍ[1].

وفي كتاب عمر بن الخطاب ﷺ لأبي موسىٰ الأشعريِّ[2]: «والفهمَ الفهمَ فيما أُدْلِيَ إليك». فالفهمُ نعمةٌ من الله تعالىٰ علىٰ عبده، ونورٌ يقذفه في قلبه، يدرك ما لا يدركه غيرُه، فيفهم من النصِّ ما لا يفهمه غيرُه، مع استوائهما في حفظه وفهمِ أصل معناه.

فالفهمُ عن الله ورسوله عنوان الصدِّيقيّة ومنشور الوراثة النبويَّة. وفيه تفاوتت مراتب العلماء، حتَّىٰ عُدَّ ألفٌ بواحدٍ.

---

(١) رواه البخاري (٣٠٤٧).

(٢) أخرجه بهذا اللفظ ضمن حديث طويل البيهقيُّ في «الكبرىٰ» (١٠/ ١٥٠)، وقال في «المعرفة» (١٤/ ٢٤٠): «هو كتاب معروف مشهور لابد للقضاة من معرفته والعمل به».

فصل

المرتبة السادسة: مرتبة البيان العامِّ.

وهو تبيينُ الحقِّ وتمييزُه من الباطل بأدلَّته وشواهده وأعلامه، بحيث يصير مشهودًا للقلب كشهود العين للمرئيَّات.

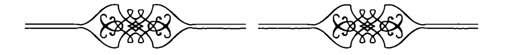
وهذه المرتبة هي حجَّة الله على خلقه، التي لا يعذِّب أحدًا ولا يُضِلُّه إلّا بعد وصوله إليها، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]. فهذا الإضلالُ عقوبةٌ منه لهم، حين بيَّن لهم، فلم يقبلوا ما بيَّنه، ولم يعملوا به، فعاقبهم بأن أضَلَّهم عن الهدىٰ. وما أضلَّ الله سبحانه أحدًا قطُّ إلَّا بعد هذا البيان.

وهذا البيان نوعان: بيانٌ بالآيات المسموعة المتلوَّة، وبيانٌ بالآيات المشهودة المرئيَّة. وكلاهما أدلّةٌ وآياتٌ علىٰ توحيد الله وأسمائه وصفاته وكماله، وصدقِ ما أخبرت به رسلُه عنه. ولهذا يدعو الله عباده بآياته المتلوَّة إلىٰ التفكُّر في آياته المشهودة، ويحضُّهم علىٰ التَّفكُّر في هذه وهذه. وهذا البيان هو الذي بُعثت به الرُّسل، وجُعِل إليهم وإلىٰ العلماء بعدهم. وبعد ذلك يُضِلُّ الله من يشاء، ويهدي مَن يشاء. قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤]. فالرُّسلُ تُبيِّن، والله هو الذي يُضِلُّ مَن يشاء ويهدي من يشاء بعزَّته وحكمته.

فصل

المرتبة السابعة: البيان الخاصُّ.

وهو البيان المستلزم للهداية الخاصَّة، وهو بيانٌ مقارنُه: العنايةُ والتّوفيقُ والاجتباءُ وقطعُ أسباب الخذلان وموادِّها عن القلب، فلا تتخلَّف عنه الهداية البتَّة. قال تعالىٰ في هذه المرتبة: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾[النحل: ٣٧]، وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[القصص: ٥٦]. فالبيان الأوَّل شرطٌ، وهذا موجِبٌ.

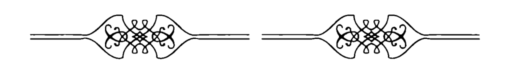


فصل

المرتبة الثامنة: مرتبة الإسماع.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾[الأنفال: ٢٣]. وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾[فاطر: ١٩-٢٣].

وهذا الإسماع أخصُّ من إسماع الحجَّة والتبليغ، فإنَّ ذلك حاصلٌ لهم، وبه قامت الحجَّة عليهم؛ لكنَّ ذاك إسماعُ الآذان، وهذا إسماع القلوب. فإنَّ الكلام له لفظٌ ومعنًىٰ، وله نسبةٌ إلىٰ الأذن والقلب وتعلُّقٌ بهما. فسماعُ لفظه حظُّ الأذن، وسماعُ حقيقة معناه ومقصودِه حظُّ القلب. فالله سبحانه نفىٰ عن الكفَّار سماعَ المقصود والمرادِ الذي هو حظُّ القلب، وأثبت لهم سماعَ الألفاظ الذي هو حظُّ الأذن في قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾[الأنبياء: ٢].

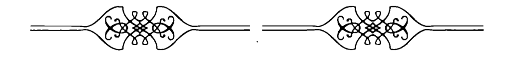


فصل

المرتبة التاسعة: مرتبة الإلهام.

قال تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس: ٧- ٨].

وقال النبيُّ ﷺ لحُصين بن المنذر الخُزاعيِّ لمَّا أسلم: «**قل: اللهمَّ أَلْهِمْني رُشدي، وقِني شرَّ نفسي**»[١].



(١) أخرجه الترمذي (٣٤٨٣)، وفي إسناده ضعف، ينظر: «العلل الكبير» (٦٧٧)، وأخرجه أحمد (١٩٩٩٢)، عن عمران بنحوه، وصححه ابن حبان (٨٩٩).

فصل

المرتبة العاشرة من مراتب الهداية: الرُّؤيا الصادقة.

وهي من أجزاء النُّبوَّة كما ثبت عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**الرُّؤيا الصادقةُ جزءٌ من ستَّةٍ وأربعين جزءًا من النُّبوَّة**»[1].

والرُّؤيا مبدأ الوحي، وصِدقُها بحسب صدق الرائي، وأصدق الناس رؤيا أصدقهم حديثًا. وهي عند اقتراب الزمان لا تكاد تُخطئ، كما قال النبيُّ ﷺ[2]. وذلك لبعد العهد بالنُّبوَّة وآثارها، فيُعوَّض المؤمنون بالرُّؤيا. وأمَّا في زمن قوَّة نور النُّبوَّة، ففي ظهور نورها وقوَّته ما يُغني عن الرُّؤيا. ونظير هذا: الكرامات التي ظهرت بعد عصر الصحابة رضي الله عنهم، ولم تظهر عليهم لاستغنائهم عنها بقوَّة إيمانهم، واحتياجِ مَن بعدهم إليها لضعف إيمانهم. وقد نصَّ أحمد رضي الله عنه علىٰ هذا المعنىٰ.

قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: رؤيا المؤمن كلامٌ يكلِّم به الرَّبُّ عبدَه في المنام[3].

وقد قال النبيُّ ﷺ: «**لم يبق من النُّبوَّة إلَّا المبشِّرات**». قيل: وما المبشِّرات يا رسول الله؟ قال: «**الرُّؤيا الصّالحة يراها المؤمن أو تُرىٰ له**»[4].

وإذا تواطأت رؤيا المسلمين لم تكذِبْ. وقد قال النبيُّ ﷺ لأصحابه لمَّا أُرُوا ليلةَ القدر في العشر الأواخر: «**أرىٰ رؤياكم قد تواطأت في العشر الأواخر،**

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٨٧)، ومسلم (٢٢٦٤)، من حديث عبادة بن الصامت.

(٢) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند البخاري (٧٠١٧)، ومسلم (٢٢٦٣).

(٣) لم أجده موقوفًا، وقد أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٤٩٤)، عن عُبادة مرفوعًا، وإسناده ضعيف، ينظر: «مجمع الزوائد» (٧/ ٣٦٢).

(٤) مجموع من لفظ حديث أبي هريرة عند البخاري (٦٩٩٠)، وحديث ابن عباس رضي الله عنهما عند مسلم (٤٧٩).

فمن كان منكم متحرِّيها فليتحَرَّها في العشر الأواخر من رمضان»[(١)].

والرُّؤيا كالكشوف، منها رحمانيٌّ، ومنها نفسانيٌّ، ومنها شيطانيٌّ. وقال النبيُّ ﷺ: «**الرُّؤيا ثلاثةٌ: رؤيا من الله، ورؤيا تحزينٌ من الشيطان، ورؤيا ممَّا يحدِّث به الرجلُ نفسَه في اليقظة فيراه في المنام**»[(٢)]. والذي هو من أسباب الهداية هو الرُّؤيا التي من الله خاصَّةً.

ورؤيا الأنبياء عليهم السلام وحيٌ، فإنَّها معصومةٌ من الشيطان، وهذا باتِّفاق الأمّة. ولهذا أقدَمَ الخليلُ عليه السلام علىٰ ذبح إسماعيل بالرُّؤيا. وأمّا رؤيا غيرهم، فتُعْرَض علىٰ الوحي الصَّريح، فإن وافقَتْه وإلَّا لم يُعمل بها.

ومن أراد أن تصدُقَ رؤياه فليتحرَّ الصِّدقَ وأكلَ الحلال والمحافظةَ علىٰ الأمر والنهي، ولينم علىٰ طهارةٍ كاملةٍ مستقبلَ القبلة، ويذكر الله حتَّىٰ تغلبه عيناه؛ فإنَّ رؤياه لا تكاد تكذب البتَّة.

وأصدَقُ الرُّؤيا: رؤيا الأسحار[(٣)]، فإنَّه وقت للنُّزولِ الإلهيِّ وسكونِ الشياطين. وعكسه رؤيا العَتَمة عند انتشار الشياطين والأرواح الشيطانيّة.

---

(١) أخرجه البخاري (١١٥٨)، ومسلم (١١٦٥)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، ولفظ مسلم: «في السبع الأواخر».

(٢) أخرجه البخاري (٧٠١٧)، ومسلم (٢٢٦٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد (١١٢٤٠، ١١٦٥٠)، والترمذي (٢٢٧٤)، من حديث دراج أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وسنده ضعيف، ينظر: «الكامل» (٤/ ٤٨٦-٤٩٣)، و«الضعيفة» (١٧٣٢).

١/ ٨٤

فصل

في بيان اشتمال الفاتحة علىٰ الشفاءين: شفاء القلوب وشفاء الأبدان

فأمَّا اشتمالها علىٰ شفاء القلوب، فإنَّها اشتملت عليه أتمَّ اشتمالٍ، فإنَّ مدار اعتلال القلوب وأسقامها علىٰ أصلين: فساد العلم، وفساد القصد. ويترتَّب عليهما داءان قاتلان، وهما الضلال والغضب. فالضلال نتيجةُ فسادِ العلم، والغضبُ نتيجة فساد القصد؛ وهذان المرضان هما مِلاك أمراض القلوب جميعها.

فهداية الصِّراط المستقيم تتضمَّن الشِّفاء من مرض الضلال. ولذلك كان سؤالُ هذه الهداية أفرضَ دعاءٍ علىٰ كلِّ عبدٍ، وأوجبَه عليه كلَ يومٍ وليلةٍ في كلِّ صلاةٍ، لشدَّة ضرورته وفاقته إلىٰ الهداية المطلوبة، ولا يقومُ غيرُ هذا السُّؤال مقامَه.

والتَّحقُّقُ بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ علمًا ومعرفةً وعملًا وحالًا يتضمَّن الشِّفاء من مرض فساد القصد. فإنَّ فسادَ القصد يتعلَّق بالغاية والوسائل، فمن طلب غايةً منقطعةً مضمحلَّةً فانيةً، وتوسَّل إليها بأنواع الوسائل الموصلة إليها كان كِلا نوعي قصده فاسدًا. وهذا شأن كلِّ من كان غايةُ طلبه غيرَ الله وعبوديَّته من المشركين، ومتَّبعي الشَّهَوات الذين لا غاية لهم وراءها، وأصحابِ الرِّياسات المتَّبعين لإقامة رياستهم بأيِّ طريقٍ كان من حقٍّ أو باطلٍ.

وكذلك من طلب الغاية العليا والمطلب الأعلىٰ، ولكن لم يتوسَّل إليه بالوسيلة المُوصِلة له إليه، بل توسَّل إليه بوسيلةٍ ظنَّها موصِلةً إليه، وهي من أعظم القواطع عنه= فحاله أيضًا كحال هذا، وكلاهما فاسد القصد.

ولا شفاء من هذا المرض إلَّا بدواء ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فإنَّ هذا الدواء مركَّبٌ من ستَّة أجزاءٍ: عبوديّةٍ لله لا لغيره، بأمره وشرعه لا بالهوىٰ وبآراء الرِّجال وأوضاعِهم ورسومهم وأفكارهم، واستعانةٍ علىٰ عبوديَّته به لا بنفس العبد وقوَّته وحوله ولا بغيره. فهذه أجزاء ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فإذا ركَّبها الطَّبيبُ العالمُ بالمرض، واستعملها المريض، حصل بها الشِّفاء التامُّ. وما نقَص من الشِّفاء فهو لفوَاتِ جزءٍ من أجزائها، أو اثنين أو أكثر.

ثمَّ إنَّ القلب يعرض له مرضان عظيمان، إن لم يتداركهما تَرامَيا به إلىٰ التَّلَف ولا بدَّ؛ وهما: الرِّياء، والكبر. فدواء الرِّياء بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ودواء الكبر بـ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. وكثيرًا ما كنتُ أسمع شيخَ الإسلام ابن تيميّة قدّس الله روحَه يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تدفع الرِّياء، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تدفع الكبرياء[1].

فإذا عوفي من مرض الرِّياء بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ومن مرض الكبر والعُجْب بـ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ومن مرض الضَّلال والجهل بـ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾= عوفي من أمراضه وأسقامه، ورَفَل في أثواب العافية، وتمَّت عليه النِّعمة، وكان من المنعَم عليهم غيرِ المغضوب عليهم وهم أهلُ فساد القصد الذين عرفوا الحقَّ وعدَلوا عنه والضّالِّين، وهم أهلُ فساد العلم الذين جهلوا الحقَّ ولم يعرفوه.

وحُقَّ لسورةٍ تشتمل علىٰ هذا الشفاء أن يُستشفىٰ بها من كلِّ مرضٍ.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٠/ ٢٧٧).

فصل

وأمَّا تضمُّنها لشفاء الأبدان، فنذكر منه ما جاءت به السُّنَّة، ودلَّت عليه التَّجربة.

فأمَّا ما دلّت عليه السُّنَّة، ففي «الصحيح»[1] من حديث أبي المتوكِّل عن أبي سعيدٍ الخدريِّ ﵁ أنَّ ناسًا من أصحاب النبيِّ ﷺ مرُّوا بحيٍّ من العرب، فلم يَقْرُوهم، ولم يضيِّفوهم. فلُدِغَ سيِّدُ الحيِّ، فأتوهم، فقالوا: هل عندكم من رقيةٍ، أو هل فيكم من راقٍ؟ فقالوا: نعم، ولكنَّكم لم تَقْرُونا، فلا نفعل حتَّىٰ تجعلوا لنا جُعْلًا. فجعلوا علىٰ ذلك قطيعًا من الغنم. فجعل رجلٌ منَّا يقرأ عليه بفاتحة الكتاب، فقام كأن لم يكن به قَلَبةٌ. فقلنا: لا تَعْجَلُوا حتّىٰ نأتي النبيَّ ﷺ، فأتيناه، فذكرنا له ذلك. فقال: «**وما يدريك أنّها رُقْيةٌ؟ كلوا، واضربوا لي معكم بسهمٍ**».

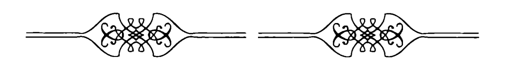
فقد تضمَّن هذا الحديثُ حصولَ شفاء هذا اللَّديغ بقراءة الفاتحة عليه، فأغنته عن الدواء، وربَّما بلغت من شفائه ما لم يبلغه الدّواء. هذا مع كون المحلِّ غيرَ قابلٍ، إمَّا لكون هؤلاء الحيِّ غيرَ مسلمين، أو أهلَ بخلٍ ولؤمٍ؛ فكيف إذا كان المحلُّ قابلًا!

وأمَّا شهادة التَّجارِب بذلك فهي أكثر من أن تذكر، وذلك في كلِّ زمانٍ. وقد جرَّبتُ أنا من ذلك في نفسي وفي غيري أمورًا عجيبةً، ولا سيَّما مدَّةَ المُقام بمكَّةَ أعزَّها الله تعالىٰ. فإنَّه كان يعرض لي آلامٌ مزعجةٌ، بحيث تكاد تقطع الحركةَ منِّي، وذلك في أثناء الطواف وغيره، فأُبادر إلىٰ قراءة الفاتحة، وأمسح بها محلَّ الألم، فكأنَّه حصاةٌ تسقط. جرَّبتُ ذلك مرارًا عديدةً. وكنت آخذ قدحًا من ماء

---

(١) البخاري (٢٢٧٦)، ومسلم (٢٢٠١).

زمزمٍ فأقرأ عليه الفاتحة مرارًا وأشربه، فأجد به من النّفع والقوَّة ما لم أعهد مثلَه في الدَّواء. والأمرُ أعظم من ذلك، ولكن بحسب قوَّة الإيمان وصحَّة اليقين. والله المستعان.



١/ ٩٢

فصل

في اشتمال الفاتحة علىٰ الردِّ علىٰ جميع المُبطلين من أهل الملل والنِّحل، والرَّدِّ علىٰ أهل البدع والضّلال من هذه الأمّة

وهذا يُعلَم بطريقين: مجملٍ ومفصَّلٍ.

فأمَّا المجمل، فهو أنَّ الصِّراط المستقيم يتضمَّن معرفةَ الحقِّ، وإيثارَه وتقديمَه علىٰ غيره، ومحبّتَه والانقيادَ له، والدَّعوةَ إليه، وجهادَ أعدائه بحسب الإمكان.

والحقُّ هو ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وما جاء به علمًا وعملًا في باب صفات الرّبِّ سبحانه وتعالىٰ وأسمائه وتوحيده، وأمره ونهيه، ووعده ووعيده، وفي حقائق الإيمان التي هي منازل السائرين. وكلُّ ذلك مُسلَّمٌ إلىٰ رسول الله ﷺ، دون آراء الرِّجال وأوضاعهم وأفكارهم واصطلاحاتهم. فكلُّ علمٍ أو عملٍ أو حقيقةٍ أو حالٍ أو مقامٍ خرج من مشكاة نبوَّته، وعليه السِّكَّة المحمَّديَّة، بحيث يكون من ضَرْبِ المدينة، فهو من الصِّراط المستقيم. وما لم يكن كذلك فهو من صراط أهل الغضب أو الضلال. فما ثَمَّ خروجٌ عن هذه الطُّرق الثَّلاث: طريقِ الرَّسول وما جاء به، وطريقِ أهل الغضب وهي طريقُ مَن عرَفَ الحقَّ وعانَده، وطريقِ أهل الضَّلال وهي طريقُ من أضلَّه الله عنه.

ولهذا قال عبد الله بن عبَّاسٍ وجابر بن عبد الله[١]: الصِّراط المستقيم: هو الإسلام.

وقال عبد الله بن مسعودٍ وعليُّ بن أبي طالبٍ: هو القرآن. وفيه حديثٌ مرفوعٌ في التِّرمذيِّ وغيره[٢].

---

(١) ينظر في «تفسير البغوي» (١/ ٥٤)، والأقوال الآتية كلها منقولة منه.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٠٦)، وضعَّفه.

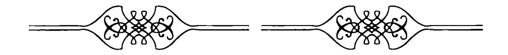
وقال سهل بن عبد الله[١]: طريق السُّنة والجماعة.

وقال بكر بن عبد الله المُزَنـيُّ: طريقُ رسول الله ﷺ.

ولا ريـب أنَّـه مـا كان عليـه رسـول الله ﷺ وأصحابـه علمًـا وعمـلًا، وهـو معرفةُ الحقِّ وتقديمُـه وإيثـارُه علىٰ غيره.

فبهـذا الطَّريـق المجملـة نعلـم أنَّ كلَّ ما خالفه فباطلٌ، وهـو من صراط الأمّتين: الأمَّـة الغضبيَّة، وأمَّة الضلال.

وأمَّـا الطريـق المفصَّلـة، فمعرفـة المذاهـب الباطلة، واشـتمال كلمـات الفاتحة علىٰ إبطالها.



١/ ١١٥

فصل

مدار التوحيد علىٰ العبودية والاستعانة

وسرُّ الخلق والكتُب والأمر والنهي والشرائع والثواب والعقاب انتهىٰ إلىٰ هاتين الكلمتين. وعليهما مدار العبوديَّة والتَّوحيد، حتّىٰ قيل: أنزل الله مائة كتابٍ وأربعة كتبٍ، جمع معانيها في التَّوراة والإنجيل والقرآن، وجمع معانيَ هذه الكتب الثلاثة في القرآن، وجمع معانيَ القرآن في المفصَّل، ومعانيَ المفصَّل في الفاتحة، ومعانيَ الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1].

وهما الكلمتان المقسومتان بين الرَّبِّ وبين عبده نصفين، فنصفها له تعالىٰ وهو ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ونصفها لعبده وهو ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. وسيأتي سرُّ هذا ومعناه إن شاء الله في موضعه.

والعبادة تجمع أصلين: غايةَ الحبِّ بغاية الذُّلِّ والخضوع. والعرب تقول: طريقٌ معبَّدٌ أي مذلَّلٌ، والتّعبُّد: التّذلُّل والخضوع. فمن أحببتَه ولم تكن خاضعًا له لم تكن عابدًا له. ومن خضعتَ له بلا محبَّةٍ لم تكن عابدًا له حتَّىٰ تكون محبًّا خاضعًا. ومن هاهنا كان المنكرون محبَّةَ العباد لربِّهم منكرين حقيقةَ العبوديَّة، والمنكرون لكونه محبوبًا لهم، بل هو غايةُ مطلوبهم، ووجهُه الأعلىٰ نهايةُ بغيتهم= منكرين لكونه إلهًا وإن أقرُّوا بكونه ربًّا للعالمين وخالقًا لهم؛ فهذا غاية توحيدهم، وهو توحيد الرُّبوبيَّة الذي اعترف به مشركو العرب، ولم يَخرُجُوا به من الشِّرك، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[لقمان: ٢٥]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[الزخرف: ٨٧]، ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾[المؤمنون: ٨٤- ٨٥]. ولهذا

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢١٥٥)، عن الحسن البصري بنحوه مختصرًا.

يَحتجُّ عليهم به علىٰ توحيد إلهيَّته، وأنَّه لا ينبغي أن يُعبد غيرُه، كما أنَّه لا خالقَ غيرُه ولا ربَّ سواه.

والاستعانة تجمع أصلين: الثِّقة بالله، والاعتماد علىٰ الله؛ فإنَّ العبد قد يثق بالواحد من الناس ولا يعتمد عليه في أموره مع ثقته به، لاستغنائه عنه. وقد يعتمد عليه مع عدم ثقته به، لحاجته إليه ولعدم من يقوم مقامه، فيحتاج إلىٰ اعتماده عليه مع أنَّه غير واثقٍ به.

والتّوكُّل معنًىٰ يلتئم من الأصلين: من الثِّقة، والاعتماد. وهو حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

وهذان الأصلان وهما التوكُّل والعبادة قد ذُكِرا في القرآن في عدَّة مواضع، قُرِنَ بينهما فيها، هذا أحدها.

الثاني: قول شعيبٍ عليه السلام: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾[هود: ٨٨].

الثالث: قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾[هود: ١٢٣].

الرابع: قوله تعالىٰ حكايةً عن المؤمنين: ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[الممتحنة: ٤].

الخامس: قوله تعالىٰ: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾[المزمل: ٨- ٩].

السادس: قوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠].

فهذه ستَّة مواضع يجمع فيها بين الأصلين، وهما ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

وتقديم «**العبادة**» **علىٰ** «**الاستعانة**» **في الفاتحة** من باب تقديم الغايات علىٰ الوسائل، إذ العبادة غايةُ العباد التي خُلِقوا لها، والاستعانةُ وسيلةٌ إليها.

ولأنَّ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ متعلِّقٌ بألوهيَّته واسمِه «الله» و﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ متعلِّقٌ بربوبيَّته واسمه «الربِّ»، فقدَّم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ علىٰ ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كما تقدَّم اسمُ «الله» علىٰ «الربِّ» في أوَّل السورة.

ولأنَّ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قِسْمُ الربِّ، فكان من الشطر الأوَّل الذي هو ثناءٌ علىٰ الرَّبِّ تعالىٰ لكونه أولىٰ به، و﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قِسْمُ العبد، فكان مع الشّطر الذي له، وهو ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إلىٰ آخر السُّورة.

ولأنَّ العبادة المطلقة تتضمَّن الاستعانةَ من غير عكسٍ. فكلُّ عابدٍ لله عبوديَّةً تامَّةً مستعينٌ به، ولا ينعكس لأنَّ صاحب الأغراض والشَّهوات قد يستعين به علىٰ شهواته. فكانت العبادة أكملَ وأتمَّ، ولهذا كانت قِسْمَ الرَّبِّ تعالىٰ.

ولأنَّ الاستعانة جزءٌ من العبادة من غيرِ عكسٍ.

ولأنَّ الاستعانة طلبٌ منه، والعبادة طلبٌ لهُ.

ولأنَّ العبادة لا تكون إلَّا من مخلصٍ، والاستعانة تكون من مخلصٍ وغير مخلصٍ.

ولأنَّ العبادةَ حقُّه الذي أوجبه عليك، والاستعانة طلبُ العون، وهو صدقته التي تصدَّقَ بها عليك. وأداءُ حقِّه أهمُّ من التعرُّض لصدقته.

ولأنَّ العبادة شكرُ نعمته عليك، والله يحبُّ أن يُشْكَر؛ والإعانةُ فعلُه بك وتوفيقُه لك. فإذا التزمتَ عبوديَّته، ودخلتَ تحت رِقِّها أعانك عليها. فكان التزامُها والدُّخولُ تحت رقِّها سببًا لنيل الإعانة. وكلَّما كان العبد أتمَّ عبوديّةً كانت إعانةُ الله له أعظم. والعبوديَّةُ محفوفةٌ بإعانتين: إعانةٍ قبلها علىٰ التزامها والقيام

بها، وإعانةٍ بعدها علىٰ عبوديَّةٍ أخرىٰ. وهكذا أبدًا، حتَّىٰ يقضي العبدُ نَحْبَه.

- ولأنَّ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ له، و﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ به. وما له مقدَّمٌ علىٰ ما به، لأنَّ ما له متعلِّقٌ بمحبَّته ورضاه، وما به متعلِّقٌ بمشيئته. وما تعلَّق بمحبَّته أكملُ ممَّا تعلَّق بمجرَّد مشيئته. فإنَّ الكونَ كلَّه متعلِّقٌ بمشيئته: الملائكةُ والشّياطينُ، والمؤمنون والكفّار، والطّاعاتُ والمعاصي. والمتعلِّقُ بمحبَّته طاعاتُهم وإيمانُهم. والكفَّارُ أهل مشيئته، والمؤمنون أهل محبَّته. ولهذا لا يستقرُّ في النار شيءٌ لله أبدًا، وكلُّ ما فيها فإنَّه به وبمشيئته.

فهذه الأسرار يتبيَّن بها حكمة تقديم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ علىٰ ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وأمَّا تقديم المعبود والمستعان علىٰ الفعلين، ففيه أدبُهم مع الله بتقديم اسمه علىٰ فعلهم. وفيه الاهتمام وشدَّة العناية به. وفيه الإيذان بالاختصاص المسمَّىٰ بالحصر، فهو في قوَّة «لا نعبد إلَّا إيَّاك، ولا نستعين إلَّا بك». والحاكمُ في ذلك ذوقُ العربيَّة، والفقهُ فيها، واستقراءُ موارد استعمال ذلك مقدَّمًا. وسيبويه نصَّ[1] علىٰ الاهتمام، ولم ينفِ غيره.

ولأنَّه يقبُح من القائل أن يُعتِق عشرةَ أعبدٍ مثلًا، ثمَّ يقول لأحدهم: إيَّاك أعتقتُ. ومن سمعه أنكر ذلك وقال: وغيرَه أيضًا أعتقتَ. ولولا فهمُ الاختصاصِ لما قبُح هذا الكلام، ولا حسُن إنكاره.

وتأمَّلْ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِيَّىَ فَٱرْهَبُونِ﴾[البقرة: ٤٠]، ﴿وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ﴾[البقرة: ٤١] كيف تجده في قوَّة «لا ترهبوا غيري»، و«لا تتَّقوا سواي». وكذلك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾هو في قوَّة «لا نعبد غيرك، ولا نستعين بسواك». وكلُّ ذي ذوقٍ سليمٍ يفهم هذا الاختصاص من هذا السِّياق.

---

(١) في «الكتاب» (١/ ٣٤، ٥٦، ٨٠).

١/ ١٢١

فصل

مراتب الناس في العبادة والاستعانة

إذا عُرِف هذا، فالنَّاس في هذين الأصلين وهما العبادة والاستعانة **أربعة أقسامٍ**:

أجلُّها وأفضلها: أهل العبادة والاستعانة بالله عليها، فعبادة الله غاية مرادهم، وطلبُهم منه أن يعينهم عليها ويوفِّقهم للقيام بها. ولهذا كان من أفضل ما يُسأل الربُّ تبارك وتعالىٰ الإعانةُ علىٰ مرضاته. وهو الذي علَّمه النبيُّ ﷺ لحِبِّه معاذ بن جبل، فقال: «**يا معاذ، والله إنِّي أحبُّك، فلا تنسَ أن تقول في دبر كلِّ صلاةٍ: اللهمَّ أعنِّي علىٰ ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»[1].

فأنفعُ الدُّعاء طلبُ العون علىٰ مرضاته، وأفضلُ المواهب إسعافُه بهذا المطلوب. وجميع الأدعية المأثورة مدارها علىٰ هذا، وعلىٰ دفع ما يضادُّه، وعلىٰ تكميله وتيسير أسبابه، فتأمَّلْها.

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رضي الله عنه: تأمَّلتُ أنفعَ الدُّعاء، فإذا هو سؤالُ الله العونَ علىٰ مرضاته. ثمَّ رأيته في الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ويقابل هؤلاء **القسم الثاني**، وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة به، فلا عبادةَ ولا استعانةَ. بل إن سأله أحدُهم واستعان به فعلىٰ حظوظه وشهواته، لا علىٰ مرضاة ربِّه وحقوقه. فإنَّه سبحانه يسأله من في السماوات والأرض، يسأله أولياؤه وأعداؤه ويُمِدُّ هؤلاء وهؤلاء. وأبغضُ خلقِه إليه عدوُّه إبليس لعنه الله، ومع هذا فسأله حاجةً فأعطاه إيَّاها ومتَّعه بها. ولكن لمَّا لم يكن عونًا له علىٰ

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢١١٩، ٢٢١٢٦)، وأبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (١٣٠٣)، وصححه ابن خزيمة (٧٥١)، وابن حبان (٢٠٢٠، ٢٠٢١).

مرضاته كانت زيادةً في شقاوته وبُعدِه من الله تعالىٰ وطرده عنه. وهكذا كلُّ من استعان به علىٰ أمرٍ أو سأله إيَّاه، ولم يكن عونًا علىٰ طاعته، كان مُبعِدًا له عن مرضاته قاطعًا له عنه ولا بدّ.

فليتأمَّل العاقل هذا في نفسه وفي غيره، وليعلم أنَّ إجابة الله لسائليه ليست لكرامةِ كلِّ سائلٍ عليه. بل يسأله عبدُه الحاجةَ فيقضيها له، وفيها هلاكُه وشقوته، ويكون قضاؤها له من هوانه عليه وسقوطه من عينه. ويكون منعُه منها لكرامته عليه ومحبَّته له، فيمنعه حمايةً وصيانةً وحفظًا لا بخلًا.

فاحذر كلَّ الحذر أن تسأل شيئًا معيَّنًا خِيرتُه وعاقبتُه مُغيَّبةٌ عنك. وإذا لم تجد من سؤاله بدًّا، فعلِّقه علىٰ شرط علمِه تعالىٰ فيه الخِيرةَ، وقدِّم بين يدي سؤالك الاستخارة، ولا تكن استخارةً باللِّسان بلا معرفةٍ، بل استخارةَ من لا علمَ له بمصالحه، ولا قدرةَ له عليها، ولا اهتداءَ له إلىٰ تفاصيلها، ولا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا؛ بل إن وُكِل إلىٰ نفسه هلَك كلَّ الهلاك، وانفرط عليه أمرُه.

وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤالٍ فسَلْه أن يجعله عونًا علىٰ طاعته، وبلاغًا إلىٰ مرضاته، ولا يجعلَه قاطعًا لك عنه، ولا مبعدًا عن مرضاته. ولا تظنَّ أنَّ عطاءَه كلَّ ما أعطىٰ: لكرامةِ عبده عليه، ولا مَنْعَه كلَّ ما يمنعه: لهوان عبده عليه. ولكن عطاؤه ومنعُه ابتلاءٌ وامتحانٌ يمتحن بهما عباده.

قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦ كَلَّا﴾[الفجر: ١٥ - ١٧].

فصل

القسم الثالث: من له نوع عبادةٍ بلا استعانةٍ، وهؤلاء نوعان:

أحدهما: القدريَّة القائلون بأنَّه قد فعَل بالعبد جميعَ مقدوره من الألطاف، وأنَّه لم يبق في مقدوره إعانةٌ له علىٰ الفعل. فإنَّه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها، وتعريف الطّريق، وإرسال الرَّسول، وتمكينه من الفعل؛ فلم يبقَ بعد هذا إعانةٌ مقدورةٌ يسأله إيَّاها. بل قد ساوىٰ بين أوليائه وأعدائه في الإعانة، فأعان هؤلاء كما أعان هؤلاء؛ ولكن أولياؤه اختاروا لأنفسهم الإيمان، وأعداؤه اختاروا لنفوسهم الكفر ، من غير أن يكون الله سبحانه وفَّقَ هؤلاء بتوفيقٍ زائدٍ أوجبَ لهم الإيمان، وخذَلَ هؤلاء بأمرٍ آخر أوجبَ لهم الكفر. فعُبَّادُ هؤلاء لهم نصيبٌ منقوصٌ من العبادة، لا استعانةَ معه، فهم موكولون إلىٰ أنفسهم، مسدودٌ عليهم طريقُ الاستعانة والتوحيد.

قال ابن عباسٍ ﷺ: الإيمانُ بالقدر نظامُ التَّوحيد، فمن آمن بالله وكذَّب بقدَره نقَضَ تكذيبُه توحيدَه[1].

النوع الثاني: من لهم عباداتٌ وأورادٌ، ولكن حظُّهم ناقصٌ من التوكُّل والاستعانة. لم تتَّسع قلوبُهم لارتباط الأسباب بالقدر، وتلاشيها في طيِّه، وقيامها به، وأنَّها بدون القدر كالمَوَات الذي لا تأثير له، بل كالعدم الذي لا وجود له، وأنَّ القدَر كالرُّوح المحرِّك لها، والمعوَّلُ علىٰ المحرِّك الأوَّل. فلم تنفذ قوىٰ بصائرهم من المتحرِّك إلىٰ المحرِّك، ومن السَّبب إلىٰ المسبِّب، ومن الآلة إلىٰ الفاعل. فضعُفَت عزائمُهم، وقصرت هممُهم، فقلَّ نصيبُهم من ﴿إِيَّاكَ

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السنة» (٩٠٢، ٩٠٥)، والفريابي في القدر (٢٠٥).

نَسْتَعِينُ﴾، ولـم يجدوا ذوق التعبُّد بالتوكُّل والاستعانة، وإن وجدوا ذوقَه بـالأوراد والوظائف.

فهؤلاء لهـم نصيبٌ مـن التوفيق والنُّفوذ والتأثير بحسب استعانتهم وتوكُّلهم، ولهـم مـن الخِذلان والضعف والمهانة والعجز بحسب قلَّة استعانتهم وتوكُّلهم. ولـو تـوكَّل العبد علىٰ الله حقَّ توكُّله في إزالـة جبلٍ عـن مكانه وكان مأمورًا بإزالته لأزاله.

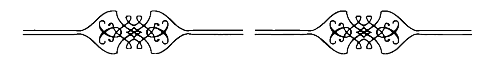
فإن قلت: فما معنىٰ التوكُّل والاستعانة؟

قلت: هـو حـالٌ للقلب ينشأ عـن معرفته بـالله تعالىٰ، وتفرُّدِه بالخلق والتدبير، والضَّرِّ والنّفع، والعطاء والمنع، وأنَّه مـا شاء كان وإن لـم يشأ الناس، وما لم يشأ لـم يكـن وإن شـاءه النـاس. فيوجِبُ لـه هذا اعتمـادًا عليـه، وتفويضًـا إليـه، وطمأنينةً بـه، وثقـةً بـه، وتيقُّنًا بكفايته لِما توكَّل عليه فيـه، وأنّه مليٌّ به، ولا يكون إلَّا بمشيئته، شـاءه النـاس أو أبـوه. فتُشبه حالتُـه حالـةَ الطِّفل مع أبويه فيما ينوبه من رغبـةٍ ورهبةٍ هما مليَّان بهما. فانظر في تجرُّد قلبه عـن الالتفـات إلىٰ غير أبويـه، وحبسِـه همَّـه علىٰ إنـزال مـا ينوبـه بهما؛ فهـذه حـال المتوكِّل.

ومـن كان هكـذا مـع الله، فـالله كافيـه ولا بـدَّ. قـال تعالـىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[الطلاق: ٣] أي كافيـه. والحَسْـب: الـكافي. فـإن كان مـع هـذا مـن أهـل التقـوىٰ كانـت لـه العاقبـة الحميـدة. وإن لـم يكـن مـن أهـل التقـوىٰ فهـو:

القسـم الرابـع: وهـو مـن شـهد تفـرُّدَ الله بالضَّـرِّ والنَّفـع، وأنَّـه مـا شـاء كان ومـا لـم يشـأ لـم يكـن، ولـم يَـدُرْ مـع مـا يحبُّـه ويرضـاه، فتوكَّل عليـه واستعان به علىٰ حظوظه وشـهواته وأغراضـه، وطَلَبَهـا منـه، وأنزلهـا بـه، فقُضِيـت لـه، وأُسْـعِفَ بهـا؛ ولكـن لا عاقبـةَ لـه، سـواءٌ كانـت أمـوالًا أو رياسـاتٍ وجاهًـا عنـد الخلـق، أو أحـوالًا مـن كشـفٍ

وتأثيرٍ وقـوَّةٍ وتمكيـنٍ، فإنَّهـا من جنس المُلك الظاهر والأموال، لا تستلزم الإسلام، فضلًا عـن الولايـة والقرب مـن الله؛ فإنَّ الملـك والمـال والحال يُعطـاه البَـرُّ والفاجر والمؤمـن والكافر. فمن استدلَّ بشـيءٍ من ذلك علىٰ محبَّة الله لمن آتـاه إيَّاه ورضاه عنـه وأنَّـه مـن أوليائـه المقرَّبيـن، فهـو مـن أجهـلِ الجاهليـن، وأبعدِهـم معرفـةً بـالله ودينـه، والتمييزِ بيـن مـا يحبُّـه ويرضـاه ويكرهـه ويسـخطه. فالحـال مـن الدُّنيـا وهـو كالملـك والمـال إن أعانـه علىٰ طاعـة الله ومرضاتـه وتنفيـذ أوامـره ألحَقَـه بالملـوك العادليـن الـبررة، وإلَّا فهـو وبـالٌ علىٰ صاحبـه، ومُبْعِـدٌ له عـن الله تعالـىٰ، ومُلْحِقٌ له بالملـوك الظلمـة والأغنيـاء الفجـرة.



١/ ١٢٨

فصل

تحقيق كمال العبودية يكون بأصلين

إذا عُرِف هذا فلا يكون العبدُ متحقِّقًا بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾إلَّا بأصلين عظيمين: أحدهما: متابعة الرسول. والثاني: الإخلاص للمعبود. فهذا تحقيق ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

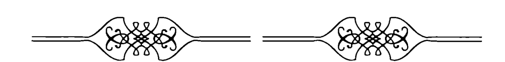
والنّاس منقسمون بحسب هذين الأصلين أيضًا إلىٰ **أربعة أقسامٍ:**

أحدها: أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة. وهم أهل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حقيقةً، فأعمالُهم كلُّها لله، وأقوالُهم لله، وعطاؤهم لله، ومنعُهم لله، وحبُّهم لله، وبغضُهم لله. فمعاملتُهم ظاهرًا وباطنًا لوجه الله وحده، لا يريدون بذلك جزاءً من الناس ولا شكورًا، ولا ابتغاءَ الجاه عندهم، ولا طلبَ المحمدة والمنزلة في قلوبهم، ولا هربًا من ذمِّهم. بل قد عَدُّوا الناسَ كأصحابَ القبور، لا يملكون لهم ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا. فالعملُ لأجل هؤلاء وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم، ورجاؤهم للضَّرِّ والنّفع منهم، لا يكون من عارفٍ بهم البتَّة، بل مِن جاهلٍ بشأنهم وجاهلٍ بربِّه.

فمَن عرف الناس أنزلهم منازلهم، ومَن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله وعطاءه ومنعه وحبَّه وبغضه. ولا يعامل أحدٌ الخلقَ دون الله إلَّا لجهله بالله وجهله بالخلق، وإلَّا فإذا عرَف الله وعرَف الناس آثرَ معاملةَ الله علىٰ معاملتهم. وكذلك أعمالُهم كلُّها وعباداتهم موافقةٌ لأمر الله ولما يحبُّه ويرضاه. وهذا هو العمل الذي لا يقبل اللهُ مِن عامل سواه. وهو الذي بَلَا عبادَه بالموت والحياة لأجله. قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[الملك: ٢]، وجعل ما علىٰ الأرض زينةً لها ليختبرهم أيُّهم أحسن عملًا. قال الفُضيل بن عياضٍ ﷺ: هو أخلَصُه وأصوَبُه. قالوا: يا أبا عليٍّ ما أخلَصُه وأصوَبُه؟ قال: إنّ

العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبَل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبَل، حتّىٰ يكون خالصًا صوابًا. فالخالص: أن يكون لله. والصَّواب: أن يكون علىٰ السُّنّة[(١)].

وهذا هو المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾[الكهف: ١١٠]، وفي قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[النساء: ١٢٥]. فلا يقبل الله من العمل إلّا ما كان خالصًا لوجهه، علىٰ متابعة أمره. وما عدا ذلك فمردودٌ علىٰ عامله، يعود أحوجَ ما هو إليه هباءً منثورًا. وفي «الصحيح»[(٢)] عن النبيِّ ﷺ: «**كلُّ عملٍ ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ**». وكلُّ عملٍ بلا اقتداءٍ فإنَّه لا يزيد عاملَه من الله إلَّا بعدًا، فإنَّ الله تعالىٰ إنَّما يُعبَد بأمره، لا بالآراء والأهواء.



(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص والنية» (٢٢).

(٢) البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها بنحوه.

فصل

الضرب الثاني: مَن لا إخلاص له ولا متابعة. فليس عمله موافقًا للشرع، ولا هو خالصٌ للمعبود، كأعمال المتزيِّنين للناس المرائين لهم بما لم يشرَعْه اللهُ ﷻ ورسولُه. وهؤلاء شرار الخلق، وأمقتُهم إلىٰ الله ﷻ. ولهم أوفر نصيبٍ من قوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨٨]. يفرَحون بما أتَوا من البدعة والضلالة والشِّرك، ويحبُّون أن يُحْمَدوا باتِّباع السُّنّة والإخلاص.

وهذا الضَّرب يكثر فيمن انحرف من المنتسبين إلىٰ العلم والفقر والعبادة عن الصِّراط المستقيم، فإنَّهم يرتكبون البدعَ والضَّلالات والرِّياء والسُّمعة، ويحبُّون أن يُحْمَدوا بما لم يفعلوه من الاتِّباع والإخلاص والعلم، فهم أهل الغضب والضلال.

الضرب الثالث: مَن هو مخلصٌ في أعماله، لكنَّها علىٰ غير متابعة الأمر، كجُهَّال العُبَّاد والمنتسبين إلىٰ طريق الزُّهد والفقر. وكلُّ مَن عبد الله بغير أمره واعتقده قربةً إلىٰ الله فهذه حاله، كمن يظنُّ أنَّ سماعَ المُكَاء والتصدية قربةٌ، وأنَّ الخلوةَ التي يترك فيها الجمعةَ والجماعةَ قربةٌ، وأنَّ مواصلة صوم النهار باللَّيل قربةٌ، وأنَّ صيامَ يومِ فطرِ الناس كلِّهم قربةٌ، وأمثال ذلك.

الضرب الرابع: مَن أعمالُه علىٰ متابعة الأمر، لكنَّها لغير الله تعالىٰ، كطاعات المرائين، وكالرجل يُقاتِل رياءً وحميَّةً وشجاعةً وللمغنَم، ويحُجُّ ليقال، ويقرأ القرآن ليقال. فهؤلاء أعمالهم أعمالٌ صالحةٌ مأمورٌ بها، لكنَّها غير خالصة، فلا تُقبَل. ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥] فكلُّ أحدٍ لم يؤمر إلَّا بعبادة الله بما أَمَر، والإخلاص له في العبادة، وهم أهل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

١/ ١٣٢

فصل

أصناف الناس في تحديد أفضل أنواع العبادة

ثمَّ أهلُ مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لهم في أفضل العبادة وأنفعها وأحقِّها بالإيثار والتخصيص أربعةُ طرقٍ، فهم في ذلك **أربعة أصنافٍ**:

الصِّنف الأوّل: عندهم أنفَعُ العبادات وأفضَلُها: أشقُّها على النُّفوس وأصعَبُها. قالوا: لأنَّه أبعد الأشياء من هواها، وهو حقيقة التعبُّد. قالوا: والأجر على قدر المشقَّة. ورَوَوْا حديثًا لا أصل له: «**أفضلُ الأعمال أحمَزُها**»[1] أي: أصعَبُها وأشقُّها.

وهؤلاء هم أهل المجاهدات والجَور على النُّفوس. قالوا: وإنَّما تستقيم النُّفوس بذلك، إذ طبعُها الكسل والمهانة والإخلاد إلى الأرض، فلا تستقيم إلَّا بركوب الأهوال وتحمُّل المشاقِّ.

الصِّنف الثاني قالوا: أفضل العبادات وأنفعها: التّجرُّد، والزُّهد في الدُّنيا، والتّقلُّلُ منها غاية الإمكان، واطِّراحُ الاهتمام بها، وعدمُ الاكتراث بكلِّ ما هو منها. ثمّ هؤلاء قسمان:

فعوامُّهم ظنُّوا أنَّ هذا غايةٌ، فشمَّروا إليه وعملوا عليه، ودعَوا النَّاس إليه، وقالوا: هو أفضل من درجة العلم والعبادة، فرأوا الزُّهد في الدُّنيا غايةَ كلِّ عبادةٍ ورأسَها.

وخواصُّهم رأوا هذا مقصودًا لغيره، وأنَّ المقصودَ به عكوفُ القلب على الله تعالى، وجمعُ الهمَّة عليه، وتفريغُ القلب لمحبَّته، والإنابةِ إليه، والتّوكُّلِ عليه،

---

(١) ذكره أبو عبيد في «غريب الحديث» (٥/ ٢٤٨) من كلام ابن عباس ﷺ، وانظر: «المقاصد الحسنة» (ص١٣٠)، و«كشف الخفاء» (١/ ١٥٥).

والاشتغالِ بمرضاته. فرأوا أنَّ أفضلَ العبادات في الجمعيَّة علىٰ الله تعالىٰ ودوامِ ذكره بالقلب واللِّسان والاشتغالِ بمراقبته دونَ كلِّ ما فيه تفريقٌ للقلب وتشتيتٌ له.

ثمّ هؤلاء قسمان: فالعارفون المتَّبعون منهم إذا جاء الأمر والنّهي بادروا إليه، ولو فرَّقَهم وأذهبَ جمعيَّتَهم. والمنحرفون منهم يقولون: المقصودُ من العبادة جمعيَّةُ القلب علىٰ الله، فإذا جاء ما يفرِّقه عن الله لم يلتفت إليه، وربّما يقول:

يطالَبُ بالأوراد من كان غافلًا فكيف بقلبٍ كلُّ أوقاته وِرْدُ

ثمَّ هؤلاء أيضًا قسمان: منهم من يترك الواجبات والفرائض لجمعيَّته. ومنهم من يقوم بها، ويترك السُّننَ والنوافلَ وتعلُّمَ العلم النّافع لجمعيّته.

وسأل بعض هؤلاء شيخًا عارفًا، فقال: إذا أذَّن المؤذِّنُ وأنا في جمعيَّتي علىٰ الله تعالىٰ، فإن قمتُ وخرجتُ تفرَّقتُ، وإن بقيتُ علىٰ حالي بقيتُ علىٰ جمعيَّتي؛ فما الأفضل في حقِّي؟ فقال: إذا أذّن المؤذِّن وأنت تحت العرش، فقُمْ، فأجِبْ داعي الله، ثمّ عُدْ إلىٰ موضعك. وهذا لأنَّ الجمعيَّةَ علىٰ الله تعالىٰ حظُّ الرُّوح والقلب، وإجابةَ الدَّاعي حقُّ الربِّ. ومَن آثر حظَّ روحه علىٰ حقِّ ربِّه، فليس من أهل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

الصِّنف الثالث: رأوا أنَّ أفضل العبادات وأنفعها: ما كان فيه نفعٌ متعدٍّ، فرأوه أفضلَ من ذي النفع القاصر. فرأوا خدمةَ الفقراء، والاشتغالَ بمصالح الناس، وقضاءَ حوائجهم، ومساعدتَهم بالمال والجاه والنفع= أفضَلَ، فتصدَّوا له، وعملوا عليه.

واحتجُّوا بأنَّ عملَ العابد قاصرٌ علىٰ نفسه، وعملَ النَّفَّاع متعدٍّ إلىٰ الغير، وأين أحدهما من الآخر؟

واحتجُّوا بقوله ﷺ: «**إنّ الله وملائكته يصلُّون علىٰ معلِّمي الناس الخير**»[١]، وبقوله ﷺ «**إنَّ العالم لَيستغفرُ له مَن في السماوات ومن في الأرض، حتىٰ الحيتانُ في البحر، والنَّملةُ في جُحْرها**»[٢].

واحتجُّوا بأنَّ صاحبَ العبادة إذا مات انقطع عملُه، وصاحب النَّفع لا ينقطع عملُه ما دام نفعُه الذي تسبَّبَ إليه.

واحتجُّوا بأنَّ الأنبياء ﷺ إنَّما بُعثوا بالإحسان إلىٰ الخلق وهدايتهم ونفعهم في معاشهم ومعادهم، لم يُبعَثوا بالخلوات والانقطاع عن الناس والترهُّب. ولهذا أنكر النبيُّ ﷺ علىٰ أولئك النَّفر الذين همُّوا بالانقطاع للتعبد وتركِ مخالطة الناس. ورأىٰ هؤلاء أنَّ التفرُّقَ في أمر الله ونفعِ عباده والإحسانِ إليهم أفضَلُ من الجمعيَّةِ عليه بدون ذلك.

الصِّنف الرّابع قالوا: إنّ أفضلَ العبادة العملُ علىٰ مرضاة الربِّ تعالىٰ في كلِّ وقتٍ بما هو مقتضىٰ ذلك الوقت ووظيفتُه. فأفضلُ العبادات في وقت الجهاد: الجهاد، وإن آل إلىٰ ترك الأوراد من صلاة اللَّيل وصيام النهار، بل ومِن تركِ إتمام صلاة الفرض كما في حالة الأمن.

والأفضل في وقت حضور الضَّيف مثلًا: القيامُ بحقِّه والاشتغال به عن الورد المستحبِّ. وكذلك في أداء حقِّ الزَّوجة والأهل.

والأفضلُ في وقت استرشاد الطالب وتعليم الجاهل: الإقبالُ علىٰ تعليمه والاشتغال به.

والأفضل في أوقات السَّحر: الاشتغالُ بالصلاة، والقرآن، والدُّعاء والذِّكر.

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٨٥)، من حديث أبي أمامة ﷺ، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب».
(٢) أخرجه أحمد (٢١٧١٥)، وأبو داود (٣٦٤١، ٣٦٤٢)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، من حديث أبي الدرداء ﷺ، بنحوه. وأعلَّه الترمذي، وطرقه لا تخلو من مقال.

والأفضل في وقت الأذان: تركُ ما هو فيه مِن وِرْده، والاشتغالُ بإجابة المؤذِّن.

والأفضل في أوقات الصَّلوات الخمس: الجِدُّ والنُّصح في إيقاعها علىٰ أكمل الوجوه، والمبادرةُ إليها في أوَّل الوقت، والخروجُ إلىٰ الجامع. وإن بعُدَ كان أفضل.

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلىٰ المساعدة بالجاه أو البدن أو المال: الاشتغالُ بمساعدته، وإغاثة لهفته، وإيثار ذلك علىٰ أورادك وخلوتك.

والأفضل في وقت قراءة القرآن: جمعيَّةُ القلب والهمَّة علىٰ تدبُّره وتفهُّمه، حتَّىٰ كأنَّ الله تعالىٰ يخاطبك به، فتجمَعُ قلبَك علىٰ فهمه وتدبُّره والعزم علىٰ تنفيذ أوامره أعظمَ من جمعيَّةِ قلبِ مَن جاءه كتابٌ من السُّلطان علىٰ ذلك.

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة: الاجتهادُ في التضرُّع والدعاء والذكر دون الصَّوم المُضْعِف عن ذلك.

والأفضل في أيّام عشر ذي الحجّة: الإكثار من التّعبُّد، لاسيّما التّكبير والتهليل والتحميد، فهو أفضل من الجهاد غير المتعيِّن.

والأفضل في العشر الأخير من رمضان: لزومُ المسجد فيه، والخلوةُ والاعتكافُ دون التصدِّي لمخالطة الناس والاشتغال بهم، حتَّىٰ إنَّه أفضل من الإقبال علىٰ تعليمهم العلمَ وإقرائهم القرآنَ عند كثيرٍ من العلماء.

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته: عيادتُه، وحضورُ جنازته وتشييعُه، وتقديمُ ذلك علىٰ خلوتك وجمعيَّتك.

والأفضل في وقت نزول النّوازل وأذىٰ الناس لك: أداءُ واجب الصّبر مع خُلطتك لهم، دون الهَرَب منهم، فإنَّ «المؤمنَ الذي يخالط النَّاس ويصبر علىٰ

أذاهم أفضَلُ من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه»[(١)]. والأفضل: خلطتهم في الخير، فهي خيرٌ من عزلتهم فيه؛ وعزلتُهم في الشرِّ، فهي أفضل من خلطتهم فيه، فإن علم أنَّه إذا خالطهم أزاله أو قلَّله فهي خيرٌ من عزلتهم.

فالأفضلُ في كلِّ وقتٍ وحالٍ: إيثارُ مرضاة الله تعالىٰ في ذلك الوقت والحال، والاشتغالُ بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه.

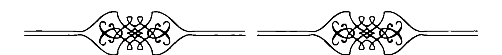
وهؤلاء هم أهل التعبُّد المطلَق. والأصنافُ قبلهم أهل التعبد المقيَّد، فمتىٰ خرج أحدهم عن النّوع الذي تعلَّق به من العبادة وفارقه يرىٰ نفسه كأنَّه قد نقص وترك عبادته، فهو يعبد الله علىٰ وجهٍ واحدٍ. وصاحبُ التعبُّد المطلق ليس له غرضٌ في تعبُّدٍ بعينه يؤثره علىٰ غيره، بل غرضُه تتبُّعُ مرضاة الله تعالىٰ أين كانت، فمدارُ تعبُّدِه عليها. فهو لا يزال منتقلًا في منازل العبوديَّة، كلَّما رُفِعت له منزلةٌ عمِل علىٰ سيره إليها واشتغل بها حتَّىٰ تلوح له منزلةٌ أخرىٰ. فهذا دأبه في السَّير حتّىٰ ينتهي سيرُه. فإن رأيتَ العلماءَ رأيته معهم، وإن رأيت العُبَّادَ رأيته معهم، وإن رأيتَ المجاهدين رأيتَه معهم، وإن رأيتَ الذاكرين رأيته معهم، وإن رأيتَ المتصدِّقين المحسنين رأيتَه معهم، وإن رأيتَ أرباب الجمعيَّة وعكوفِ القلب علىٰ الله رأيته معهم.

فهذا هو العبد المطلق الذي لم تَمْلِكه الرُّسوم، ولم تقيِّدْه القيود، ولم يكن عملُه علىٰ مراد نفسه وما فيه لذَّتها وراحتُها من العبادات، بل علىٰ مراد ربِّه ﷻ، ولو كانت راحةُ نفسه ولذَّتها في سواه.

فهذا المتحقِّق بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ حقًّا، القائمُ بهما صدقًا. مَلْبَسُه ما تهيَّأَ، ومأكله ما تيسَّرَ، واشتغالُه بما أُمِر به في كلِّ وقتٍ بوقته، ومجلسه حيث

(١) كما في حديث ابن عمر ﵄ بنحو، أخرجه أحمد (٥٠٢٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٨٨)، والترمذي (٢٥٠٧)، وابن ماجه (٤٠٣٢)، بإسناد صحيح.

انتهىٰ ووجده خاليًا. لا تملكه إشارةٌ، ولا يتعبَّدُه قيدٌ، ولا يستولي عليه رسمٌ. حرٌّ مجرَّدٌ، دائرٌ مع الأمر حيث دار، يَدين بدين الآمِرِ أنَّىٰ توجَّهتْ ركائبُه، ويدور معه حيث استقلَّت مضاربُه. يأنسَ به كلُّ مُحِقٍّ، ويستوحش منه كلُّ مبطلٍ. كالغيث حيث وقَع نفَع. وكالنخلة لا يسقط ورقُها، وكلُّها منفعةٌ حتَّىٰ شوكُها. وهو موضعُ الغلظة منه علىٰ المخالفين لأمر الله، والغضبِ إذا انتُهِكَتْ محارمُ الله. فهو لله وبالله ومع الله. قد صحِبَ الله بلا خَلْقٍ، وصحِبَ النّاسَ بلا نَفْسٍ. بل إذا كان مع الله عزَلَ الخلائق من البين، وتخلَّىٰ عنهم. وإذا كان مع خَلْقه عزَلَ نفسَه من الوسط وتخلَّىٰ عنها. فواهًا! ما أغربَه بين الناس! وما أشدَّ وحشته منهم! وما أعظمَ أُنسَه بالله وفرَحَه به وطمأنينتَه به وسكونَه إليه! والله المستعان، وعليه التكلان.



فصل

١/ ١٤٨

لا يقف العبد علىٰ سر العبودية إلا بمعرفة صفات المعبود

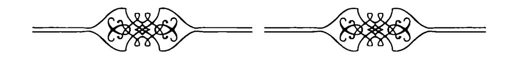
اعلم أنَّ سرَّ العبوديَّة وغايتَها وحكمتَها إنَّما يطَّلع عليه من عرَف صفاتِ الرَّبِّ تعالىٰ ولم يُعطِّلها، وعرف معنىٰ الإلهيَّة وحقيقتها ومعنىٰ كونه إلهًا، بل هو الإله الحقُّ، وكلُّ إلهٍ سواه فباطلٌ، بل أبطلُ الباطل، وأنَّ حقيقة الإلهيَّة لا تنبغي إلَّا له، وأنَّ العبادةَ موجَبُ إلهيَّته وأثرُها ومقتضاها، وارتباطُها بها كارتباط متعلَّق الصِّفات بالصِّفات، كارتباط المعلوم بالعلم، والمقدورِ بالقدرة، والأصواتِ بالسمع، والإحسانِ بالرحمة، والعطاء بالجود.

فمَن أنكر حقيقة الإلهيَّة ولم يعرفها، كيف يستقيم له معرفةُ حكمة العبادات وغاياتها ومقاصدها وما شُرعت لأجله؟ وكيف يستقيم له العلمُ بأنَّها هي الغاية المقصودة بالخلق، فلها خُلِقوا، ولها أُرسلت الرُّسل، وأُنزلت الكتب، ولأجلها خُلِقت الجنَّة والنار؛ وأنَّ فرضَ تعطيل الخليقة عنها نسبةُ الله إلىٰ ما لا يليق به، ويتعالىٰ عنه مَن خلق السماواتِ والأرضَ بالحقِّ، ولم يخلقهما باطلًا، ولم يخلق الإنسان عبثًا ولم يتركه سدًىٰ مهملًا. قال تعالىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾[المؤمنون: ١١٥] أي: لغير شيءٍ ولا حكمةٍ، ولا لعبادتكم لي ومجازاتي لكم. وقد صرَّح تعالىٰ بهذا في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. فالعبادة هي الغايةُ التي خُلِق لها الجنُّ والإنس والخلائق كلُّها.

فأصلُ العبادة: محبَّةُ الله، بل إفرادُه بالمحبَّة، وأن يكون الحبُّ كلُّه لله، فلا يُحِبُّ معه سواه، وإنَّما يُحِبُّ ما يحبُّه لأجله وفيه، كما يُحِبُّ أنبياءَه ورسلَه وملائكتَه وأولياءه. فمحبَّتُنا لهم من تمام محبَّته، وليست محبَّةً معه كمحبَّة من يتَّخذ من دون الله أندادًا يحبُّهم كحبِّه.

وإذا كانت المحبّة له هي حقيقة عبوديّته وسرُّها، فهي إنّما تتحقَّق باتِّباع أمره واجتناب نهيه. فعندَ اتِّباع الأمر والنهي تتبيَّن حقيقةُ العبوديَّة والمحبَّة. ولهذا جعل سبحانه اتِّباعَ رسوله ﷺ عَلَمًا عليها، وشاهدًا لمن ادَّعاها، فقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾[آل عمران: ٣١]. فجعَل اتِّباعَ رسوله مشروطًا بمحبَّتهم لله، وشرطًا لمحبَّة الله لهم. ووجودُ المشروط ممتنعٌ بدون تحقُّق شرطه، فعُلِمَ انتفاءُ المحبَّة عند انتفاء المتابعة. فانتفاءُ محبَّتهم لله لازمٌ لانتفاء المتابعة لرسوله، وانتفاءُ المتابعة ملزومٌ لانتفاء محبَّة الله لهم، فيستحيل إذًا ثبوتُ محبَّتهم لله وثبوتُ محبَّة الله لهم بدون المتابعة لرسوله ﷺ. ودلَّ علىٰ أنَّ متابعة الرَّسول هي حبُّ الله ورسوله وطاعةُ أمره.

ولا يكفي ذلك في العبوديَّة حتَّىٰ يكون اللهُ ورسوله أحبَّ إلىٰ العبد ممَّا سواهما، فلا يكون عنده شيءٌ أحبَّ إليه من الله ورسوله. ومتىٰ كان عنده شيءٌ أحبَّ إليه منهما فهذا هو الشِّرك الذي لا يُغفَر لصاحبه البتَّة، ولا يهديه الله. قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾[التوبة: ٢٤].



١/ ١٥٣

فصل

قواعد بناء العبودية لله تعالىٰ

وبناءُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ علىٰ أربعة قواعد: التحقُّقُ بما يحبُّه الله ويرضاه، من قولِ اللِّسان والقلب وعملِ القلب والجوارح. فالعبوديّة: اسمٌ جامعٌ لهذه المراتب الأربع، فأصحابُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حقًّا هم أصحابها.

فقول القلب: هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه وأسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه علىٰ لسان رسوله ﷺ.

وقول اللِّسان: الإخبارُ عنه بذلك، والدعوةُ إليه، والذَّبُّ عنه، وتبيينُ بطلان البدع المخالفة له، والقيامُ بذكره، وتبليغُ أوامره.

وعمل القلب: كالمحبَّة له، والتوكُّل عليه، والإنابة إليه، والخوف منه والرجاء له، وإخلاص الدِّين له، والصبر علىٰ أوامره وعن نواهيه وعلىٰ أقداره، والرضا به وعنه، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والذلِّ له والخضوع والإخبات إليه، والطمأنينة به، وغيرِ ذلك من أعمال القلوب التي فرضُها أفرَضُ من أعمال الجوارح، ومستحبُّها أحبُّ إلىٰ الله من مستحبِّها. وعملُ الجوارح بدونها إمَّا عديم المنفعة أو قليل المنفعة.

وأعمال الجوارح: كالصلاة والجهاد، ونقل الأقدام إلىٰ الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلىٰ الخلق، ونحو ذلك.

فـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ التزامٌ لأحكام هذه الأربعة، وإقرارٌ بها. و﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ طلبٌ للإعانة عليها والتوفيق لها. و﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ متضمِّنٌ للتَّعريف بالأمرين علىٰ التَّفصيل، وإلهامِ القيام بهما، وسلوكِ طريق السالكين إلىٰ الله بهما.

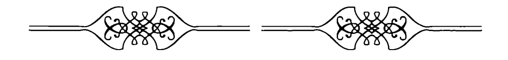
١/ ١٥٤

فصل

جميع الرسل دعوا إلىٰ التوحيد

وجميع الرُّسل إنَّما دَعَوا إلىٰ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فإنَّهم كلَّهم دعوا إلىٰ توحيد الله وعبادته، من أوَّلهم إلىٰ آخرهم. فقال نوحٌ لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[الأعراف: ٥٩]. وكذلك قال هودٌ وصالحٌ وشعيبٌ وإبراهيم عليهم السلام.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[النحل: ٣٦]. وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[الأنبياء: ٢٥]. وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾[المؤمنون: ٥١ - ٥٢].



١/ ١٥٥

فصل

أكمل أوصاف الخلق تمام العبودية للخالق

والله جعل العبوديّةَ وصفَ أكملِ خلقه وأقرَبهم إليه، فقال: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾[النساء: ١٧٢].

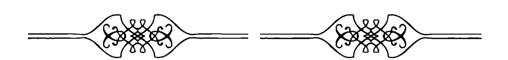
وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾[الأنبياء: ٢٦- ٢٧]. وقال تعالىٰ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾[الفرقان: ٦٣] إلىٰ آخر السُّورة. وقال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾[الإنسان: ٦]. وقال: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾[ص: ١٧]، ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾[ص: ٤١]، ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾[ص: ٤٥]. وقال عن سليمان: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ﴾[ص: ٣٠]. وقال عن المسيح: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾[الزخرف: ٥٩]، فجعَل غايتَه العبوديَّةَ، لا الإلهيَّةَ كما يقول أعداؤه النصارىٰ لعنهم الله.

ووصف أكرمَ خلقه عليه وأعلاهم عنده منزلةً بالعبوديَّة في أشرف مقاماته، فقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾[البقرة: ٢٣]، وقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[الفرقان: ١]، وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾[الكهف: ١]، فذكَره بالعبوديَّة في مقام إنزال الكتاب عليه والتَّحدِّي بأن يأتوا بمثله. وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾[الجن: ١٩]، فذكره بالعبوديَّة في مقام الدعوة إليه. وقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾[الإسراء: ١]، فذكره بالعبوديَّة في مقام الإسراء.

وجعل سبحانه البشارة المطلقة لعباده، فقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ

يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾[الزمر: ١٧]. وجعل الأمن المطلق لهم، فقال تعالىٰ: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۝٦٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾[الزخرف: ٦٨ - ٦٩].

وعزَل الشيطانَ عن سلطانه عليهم خاصَّةً، وجعل سلطانه علىٰ من تولَّاه وأشرك به، فقال: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾[الحجر: ٤٢].



١/ ١٥٩

فصل

في لزوم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لكلِّ عبد إلىٰ الموت

قال الله تعالىٰ لرسوله ﷺ: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[الحجر: ٩٩]. وقال أهل النّار: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾[المدثر: ٤٦- ٤٧]. واليقين هاهنا: الموت، بإجماع أهل التّفسير. وفي «الصحيح»[(١)] في قصَّة عثمان بن مظعونٍ رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**أمَّا عثمانُ فقد جاءه اليقين من ربِّه**» أي الموتُ وما فيه.

فلا ينفكُّ العبدُ من العبوديَّة ما دام في دار التكليف. بل عليه في البرزخ عبوديّةٌ أخرىٰ لمَّا يسأله المَلَكانِ: من كان يعبد؟ وما يقول في رسول الله ﷺ؟ ويلتمسان منه الجواب[(٢)]. وعليه عبوديَّةٌ أخرىٰ يوم القيامة، يوم يدعو الله الخلقَ كلَّهم إلىٰ السُّجود، فيسجد المؤمنون، ويبقىٰ الكفَّار والمنافقون لا يستطيعون السُّجود. فإذا دخلوا دارَ الثواب والعقاب انقطع التكليفُ هناك، وصارت عبوديَّةُ أهلِ الثَّواب تسبيحًا مقرونًا بأنفاسهم، لا يجدون له تعبًا ولا نصبًا.

ومن ظنَّ أنّه يصل إلىٰ مقامٍ يُسقِط عنه التعبُّدَ، فهو زنديقٌ كافرٌ بالله ورسوله، وإنَّما وصل إلىٰ مقام الكفر بالله تعالىٰ والانسلاخ من دينه. وكلَّما تمكَّن العبدُ في منازل العبوديَّة كانت عبوديَّتُه أعظمَ، والواجبُ عليه منها أكثر من الواجب علىٰ من دونه. ولهذا كان الواجبُ علىٰ رسول الله ﷺ بل علىٰ الرُّسل أعظمَ من الواجب علىٰ أممهم، والواجبُ علىٰ أولي العلم أعظمَ من الواجب علىٰ من دونهم، وكلُّ أحدٍ بحسب مرتبته.

---

(١) البخاري (١٢٤٣)، من حديث أمِّ العلاء الأنصارية رضي الله عنها.

(٢) كما في حديث البراء رضي الله عنه، أخرجه البخاري (١٣٦٩)، ومسلم (٢٨٧١).

فصل

في انقسام العبوديّة إلىٰ عامّةٍ وخاصّةٍ

العبوديَّة نوعان: عامٌّ، وخاصٌّ.

فالعبوديَّة العامَّة: عبوديّة أهل السماوات والأرض كلِّهم لله: بَرِّهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم. فهذه عبوديّة القهر والملك، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾[مريم: ٨٨ - ٩٣]. فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم.

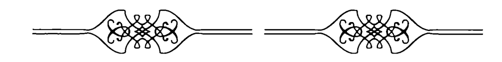
وأمّا النّوع الثّاني، فعبوديّةُ الطَّاعةِ والمحبَّةِ واتِّباع الأوامر. قال تعالىٰ: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾[الزخرف: ٦٨]. وقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[الزمر: ١٧ - ١٨]. وقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾[الفرقان: ٦٣]. وقال تعالىٰ عن إبليس: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[الحجر: ٣٩ - ٤٠] فقال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[الحجر: ٤٢].

فالخلقُ كلُّهم عبيدُ ربوبيَّته، وأهلُ طاعته وولايته عبيدُ إلهيَّته.

وإنَّما انقسمت العبوديَّة إلىٰ خاصَّةٍ وعامَّةٍ لأنَّ أصل معنىٰ اللّفظة: الذُّلُّ والخضوع. يقال: طريقٌ معبَّدٌ إذا كان مذلَّلًا بوطْء الأقدام. وفلانٌ عبَّده الحبُّ

إذا ذَلَّلَه، لكن أولياؤُه خضعوا له وذلُّوا له طوعًا واختيارًا وانقيادًا لأمره ونهيه، وأعداؤه خضعوا له قهرًا ورغمًا.

ونظيرُ انقسام العبوديَّة إلىٰ خاصَّةٍ وعامَّةٍ: انقسامُ القنوت إلىٰ خاصٍّ وعامٍّ، والسجود كذلك.



فصل

في مراتب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ علمًا وعملًا

للعبوديّة مراتب بحسب العلم والعمل.

فأمَّا **مراتبها العلميَّة**، فمرتبتان:

أحدُهما: العلم بالله، والثاني: العلم بدينه.

فأمَّا العلم به سبحانه، فخمس مراتب: العلم بذاته، وصفاته، وأفعاله، وأسمائه، وتنزيهُه عمَّا لا يليق به.

والعلم بدينه مرتبتان. أحدهما: دينه الأمريُّ الشّرعيُّ، وهو صراطه المستقيم الموصل إليه. والثاني: دينه الجزائيُّ المتضمِّن ثوابه وعقابه. وقد دخل في هذا العلمُ بملائكته وكتبه ورسله.

وأمَّا **مراتبها العَمَلية**، فمرتبتان: مرتبةٌ لأصحاب اليمين، ومرتبةٌ للسابقين المقرَّبين.

فأمَّا مرتبة أصحاب اليمين، فأداءُ الواجبات، وتركُ المحرَّمات، مع ارتكاب المباحات وبعض المكروهات، وترك بعض المستحبَّات.

وأمّا مرتبة المقرَّبين، فالقيامُ بالواجبات والمندوبات، وتركُ المحرَّمات والمكروهات؛ زاهدون فيما لا ينفعهم في معادهم، متورِّعون عمَّا يخافون ضرره. وخاصَّتُهم قد انقلبت المباحاتُ في حقِّهم طاعاتٍ وقرباتٍ بالنِّيَّة، فليس في حقِّهم مباحٌ متساوي الطَّرفين، بل كلُّ أعمالهم راجحةٌ. ومَن دونهم يترك المباحاتِ مشتغلًا عنها بالعبادات، وهؤلاء يأتونها طاعاتٍ وقرباتٍ. ولأهل هاتين المرتبتين درجاتٌ لا يحصيها إلَّا الله تعالىٰ.

١/ ١٦٥

فصل

أنواع العبادات ومراتبها

ورحىٰ العبوديّة تدور علىٰ خمس عشرة قاعدةً، من كمَّلَها كمَّلَ مراتبَ العبوديَّة.

وبيانها: أنَّ العبوديّة منقسمةٌ علىٰ القلب، واللِّسان، والجوارح. وعلىٰ كلٍّ منها عبوديّةٌ تخُصُّه. والأحكام التي للعبوديَّة خمسةٌ: واجبٌ، ومستحبٌّ، وحرامٌ، ومكروهٌ، ومباحٌ. وهي لكلِّ واحدٍ من القلب، واللِّسان، والجوارح.

فواجب القلب منه متَّفَقٌ علىٰ وجوبه، ومختلَفٌ فيه.

فالمتَّفَقُ علىٰ وجوبه: كالإخلاص، والتّوكُّل، والمحبَّة، والصَّبْر، والإنابة، والخوف، والرجاء، والتصديق الجازم، والنِّيّة للعبادة، وهذه قدرٌ زائدٌ علىٰ الإخلاص، فإنَّ الإخلاص هو إفراد المعبود عن غيره. ونيَّة العبادة لها مرتبتان: إحداهما: تمييز العبادة عن العادة. والثانية: تمييز مراتب العبادات بعضها عن بعضٍ. والأقسامُ الثلاثةُ واجبةٌ.

وكذلك الصِّدقُ. والفرقُ بينه وبين الإخلاص: أنَّ للعبد مطلوبًا وطلبًا، فالإخلاصُ توحيد مطلوبه، والصِّدقُ توحيد طلبه. فالإخلاص: أن لا يكون المطلوبُ منقسمًا، والصِّدق: أن لا يكون الطَّلبُ منقسمًا. فالصِّدقُ بذل الجهد، والإخلاصُ إفراد المطلوب.

واتّفقت الأمَّة علىٰ وجوب هذه الأعمال علىٰ القلب من حيث الجملة.

وكذلك النُّصح في العبوديَّة، ومدارُ الدِّين عليه. وهو بذل الجهد في إيقاع العبوديَّة علىٰ الوجهِ المحبوبِ للرَّبِّ المرضيِّ له. وأصل هذا واجبٌ، وكمالُه مرتبةُ المقرَّبين.

وكذلك كلُّ واحدٍ من هذه الواجبات القلبيَّة، لها طرفان: واجبٌ مستحَقٌّ وهو مرتبة أصحاب اليمين، وكمالٌ مستحبٌّ وهو مرتبة المقرَّبين.

وكذلك الصَّبرُ واجبٌ باتِّفاق الأمّة. قال الإمام أحمد ﷺ: الصَّبرُ في تسعين موضعًا من القرآن، أو بضعًا وتسعين. وله طرفان أيضًا: واجبٌ مستحَقٌّ، وكمالٌ مستحبٌّ.

وأمَّا المختلف فيه فكالرِّضا، فإنَّ في وجوبه قولين للفقهاء.

وهذا الخلاف بينهم إنَّما هو في الرِّضا بقضائه الكونيِّ. وأمّا الرِّضا به ربًّا وإلهًا والرِّضا بأمره الدِّينيِّ، فمتَّفَقٌ علىٰ فرضيَّته. بل لا يصير العبدُ مسلمًا إلَّا بهذا الرِّضا: أن يرضىٰ بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمَّدٍ ﷺ رسولًا.

ومن هذا أيضًا: اختلافُهم في الخشوع في الصَّلاة، وفيه قولان للفقهاء، وهما في مذهب أحمد وغيره. وعلىٰ القولين اختلافُهم في وجوب الإعادة علىٰ من غلب عليه الوسوسة في صلاته.

ولكن لا نزاع أنَّ هذه الصلاة لا يثاب منها إلَّا بقدر حضور قلبه وخشوعه، كما قال النبيُّ ﷺ: «**إنَّ العبد لينصرف من الصلاة ولم يُكتَبْ له إلّا نصفُها، ثلثُها، ربعُها...**» حتَّىٰ بلغ: «**عُشْرُها**»[1].

والقصد أنَّ هذه الأعمالَ واجبَها ومستحبَّها هي عبوديّةُ القلب، فمن عطَّلَها فقد عطَّلَ عبوديّةَ المَلِك، وإن قام بعبوديّة رعيّته من الجوارح.

والمقصود أن يكون مَلِكُ الأعضاء قائمًا بعبوديّته لله تعالىٰ، هو ورعيّته.

وأمّا المحرَّمات التي عليه، فكالكبر، والرِّياء، والعُجْب، والحسد، والغفلة، والنِّفاق. وهي نوعان: كفرٌ، ومعصيةٌ. فالكفر: كالشّكِّ، والنِّفاق، والشِّرك، وتوابعها. والمعصية نوعان: كبائر، وصغائر.

فالكبائر: كالرِّياء، والعجب، والكبر، والفخر، والخيلاء، والقنوط من رحمة

(١) أخرجه أحمد (١٨٨٩٤)، وأبو داود (٧٩٦)، من حديث عمَّار بن ياسر ﷺ. وصحَّحه العراقي في «تخريج الإحياء» (١/ ١٢٠).

الله تعالىٰ، واليأس من رَوح الله، والأمن من مكر الله، والفرح والسُّرور بأذىٰ المسلمين، والشّماتة بمصيبتهم، ومحبَّته أن تشيع الفاحشة فيهم، وحسدهم علىٰ ما آتاهم الله من فضله، وتمنِّي زوال ذلك عنهم، وتوابع هذه الأمور التي هي أشدُّ تحريمًا من الزِّنىٰ، وشرب الخمر وغيرهما من الكبائر الظّاهرة، ولا صلاح للقلب ولا للجسد إلّا باجتنابها والتّوبة منها، وإلّا فهو قلبٌ فاسدٌ، وإذا فسد القلب فسد البدن.

وهذه الآفات إنّما تنشأ من الجهل بعبوديَّة القلب، وترك القيام بها. فوظيفة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ علىٰ القلب قبل الجوارح، فإذا جَهِلَها وتَرَكَ القيامَ بها امتلأ بأضدادها ولا بدَّ. وبحسب قيامه بها يتخلَّص من أضدادها.

وهذه الأمور ونحوها قد تكون صغائر في حقِّه، وقد تكون كبائر، بحسب قوَّتها وغِلَظها، وخفَّتها ورقَّتها.

ومن الصغائر أيضًا: شهوة المحرَّمات وتمنِّيها. وتفاوتُ درجات الشَّهوة في الكبر والصِّغر بحسبِ تفاوتِ درجات المشتهىٰ. فشهوة الكفر والشِّرك كفرٌ، وشهوة البدعة فسقٌ، وشهوة الكبائر معصيةٌ. فإن ترَكَها لله مع قدرته عليها أُثيبَ، وإن ترَكَها عجزًا مع بذله مقدورَه في تحصيلها استحقَّ عقوبة الفاعل، لتنزُّله منزلتَه في أحكام الثواب والعقاب، وإن لم ينزل منزلته في أحكام الشرع. ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «**إذا تواجه المسلمان بسيفَيهما فالقاتل والمقتول في النار**». قالوا: هذا القاتل يا رسول الله، فما بال المقتول؟ قال: «**إنَّه كان حريصًا علىٰ قتل صاحبه**»[1]. فنزَّلَه منزلة القاتل لحرصه، في الإثم دون الحكم. وله نظائر كثيرةٌ في الثّواب والعقاب.

وقد عُلِمَ بهذا مستحَبُّ القلب ومباحُه.

---

(١) أخرجه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨)، من حديث أبي بكرة ﵁.

فصل

وأمّا عبوديّات اللِّسان الخمس، فواجبها: النُّطق بالشهادتين، وتلاوة ما يلزمُه تلاوته من القرآن، وهو ما تتوقَّفُ صحَّةُ صلاته عليه؛ وتلفُّظه بالأذكار الواجبة في الصلاة التي أمَر الله بها ورسولُه، كما أمَر بالتّسبيح في الرُّكوع والسُّجود، وأمَر بقول «ربّنا ولك الحمد» بعد الاعتدال، وأمَر بالتشهُّد، وأمَر بالتكبير.

ومن واجبه: ردُّ السّلام. وفي ابتدائه قولان.

ومن واجبه: الأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليمُ الجاهل، وإرشادُ الضّالِّ، وأداءُ الشهادة المتعيِّنة، وصدقُ الحديث.

وأمَّا مستحَبُّه، فتلاوة القرآن، ودوام ذكر الله، والمذاكرة في العلم النافع، وتوابع ذلك.

وأمَّا مُحرَّمه، فهو النُّطقُ بكلِّ ما يبغضه الله ورسوله، كالنُّطق بالبدع المخالفة لما بعث الله به رسولَه، والدُّعاءِ إليها، وتحسينِها وتقويتِها؛ وكالقذفِ، وسبِّ المسلم وأذاه بكلِّ قولٍ، والكذب، وشهادة الزُّور، والقول على الله بلا علمٍ وهو أشدُّها تحريمًا.

ومكروهه: التكلُّمُ بما تركُه خيرٌ من الكلام به، مع عدم العقوبة عليه.

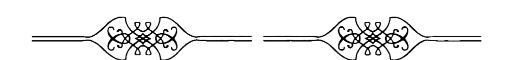
وقد اختلف السَّلف هل في حقِّه كلامٌ مباحٌ متساوي الطَّرفين؟ على قولين.

والتحقيق: أنّ حركة اللِّسان بالكلام لا تكون متساوية الطّرفين، بل إمَّا راجحةً أو مرجوحةً، لأنَّ للِّسان شأنًا ليس لسائر الجوارح. فـ«**إذا أصبح ابنُ آدم فإنَّ الأعضاءَ كلَّها تُكفِّر اللِّسانَ**[1]، تقول: **اتَّقِ الله، فإنَّما نحن بك، فإن استقمتَ**

---

(١) أي: تخضع له.

استقمنا، وإنَّ اعْوَجَجْتَ اعوججنا»[1]. وأكثَرُ ما يكُبُّ الناسَ علىٰ مناخرهم في النّار حصائدُ ألسنتهم[2].



(١) أخرجه أحمد (١١٩٠٨)، والترمذي (٢٤٠٧)، عن أبي سعيد الخدري ﷺ مرفوعًا.

(٢) كما في حديث معاذ ﷺ، أخرجه أحمد (٢٢٠١٦)، والترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وقال الترمذي: « «هذا حديث حسن صحيح». وقد أُعلَّ بالنقطاع في سنده. انظر: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (ح٢٩).

فصل

وأمّا العبوديَّات الخمس على الجوارح، فعلىٰ خمس وعشرين مرتبةً أيضًا، إذ الحواسُّ خمسةٌ، وعلىٰ كلِّ حاسَّةٍ خمس عبودياتٍ.

فعلىٰ السَّمع وجوبُ الإنصات والاستماع لما أوجبه الله تعالىٰ ورسوله ﷺ عليه، من استماع الإسلام والإيمان وفروضهما. وكذلك استماع القراءة في الصَّلاة إذا جهر بها الإمام، واستماع الخطبة للجمعة في أصحِّ قولَي العلماء.

ويحرم عليه استماعُ الكفر والبدع، إلَّا حيث يكون في استماعه مصلحةٌ راجحةٌ مِن ردِّه، أو الشَّهادة علىٰ قائله، أو زيادة قوَّة الإيمان والسُّنَّة بمعرفة ضدِّهما من الكفر والبدعة، ونحو ذلك؛ وكاستماع سِرار من يهرب عنك بسرِّه، ولا يحبُّ أن يطلعك عليه، ما لم يكن متضمِّنًا لحقٍّ لله يجب القيام به، أو لأذىٰ مسلمٍ يتعيَّن نصحُه وتحذيرُه منه.

وكذلك استماع أصوات النِّساء الأجانب التي تُخشىٰ الفتنةُ بأصواتهنَّ، إذا لم تدعُ إليه حاجةٌ من شهادةٍ، أو معاملةٍ، أو استفتاءٍ، أو محاكمةٍ، أو مداواةٍ، ونحوها.

وكذلك استماعُ المعازف وآلات الطَّرب واللَّهو، كالعود والطُّنبور واليَراع ونحوها. ولا يجب عليه سدُّ أذنه إذا سمع الصّوت، وهو لا يريد استماعه، إلَّا إذا خاف السُّكونَ إليه والإنصاتَ، فحينئذٍ يجب تجنُّبُ سَمْعِه وجوبَ سدِّ الذرائع.

وأمَّا السَّمعُ المستحَبُّ فكاستماع المستحَبِّ من العلم، وقراءة القرآن، وذكر الله، واستماع كلِّ ما يحبُّه الله وليس بفرضٍ. والمكروه عكسه، وهو استماعُ كلِّ ما يكرهه ولا يعاقب عليه. والمباح ظاهرٌ.

وأمَّا النَّظر الواجب، فالنَّظرُ في المصحف وكتب العلم عند تعيُّنِ تعلُّمِ الواجب منها، والنظرُ إذا تعيَّن لتمييز الحلال من الحرام في الأعيان التي يأكلها ويُنفقها ويستمتع بها، والأمانات التي يؤدِّيها إلىٰ أربابها ليميِّز بينها، ونحو ذلك.

والنظر الحرام: النظر إلىٰ الأجنبيَّات بشهوةٍ مطلقًا، وبغيرها إلَّا لحاجةٍ، كنظر الخاطب، والمُسْتام، والمُعامِل، والشاهد، والحاكم، والطَّبيب، وذي المَحْرَم.

والمستحبُّ: النظرُ في كتب العلم والدِّين، الذي يزداد به الرّجلُ إيمانًا وعلمًا، والنظرُ في المصحف ووجوه العلماء والصالحين والوالدين، والنظرُ في آيات الله المشهودة ليستدلَّ بها علىٰ توحيده ومعرفته وحكمته.

والمكروه: فضولُ النَّظر التي لا مصلحة فيها، فإنَّ له فضولًا كما للِّسان فضولًا. وكم قادت فضولُهما إلىٰ فضولٍ عزَّ التّخلُّص منها، وأعيا دواؤها. وقال بعض السَّلف: كانوا يكرهون فضول النظر، كما يكرهون فضول الكلام[(١)].

والمباح: النظر الذي لا مضرَّة فيه في العاجل ولا الآجل، ولا منفعة.

ومن النظر الحرام: النَّظرُ إلىٰ العورات، وهي قسمان: عورةٌ وراء الثِّياب، وعورةٌ وراء الأبواب.

وأمَّا الذَّوق الواجب، فتناولُ الطَّعام والشَّراب عند الاضطرار إليه وخوف الموت، فإنْ ترَكَه حتَّىٰ مات، مات عاصيًا قاتلًا لنفسه. قال الإمام أحمد[(٢)] وطاوس[(٣)] ﷺ: من اضطُرَّ إلىٰ أكل الميتة، فلم يأكل حتَّىٰ مات، دخل النّار.

---

(١) من كلام داود بن نصير الطائي: أحد الأئمة الزهَّاد من أتباع التابعين؛ ذكره عنه القشيري في «الرسالة» (ص١٢٣).

(٢) في رواية الأثرم عنه كما في «المغني» (١٣/ ٣٣١).

(٣) كذا هنا و«عدَّة الصابرين» (ص٥٤)، والظاهر أنه وهم، والصواب: «مسروق» كما ذكر المصنف في «روضة المحبين» (ص٢٠٥)، وهو الذي ذكر قوله أحمد في رواية الأثرم، وأخرجه عبد الرزاق (١٠/ ٤١٣).

ومن هذا: تناولُ الدواء إذا تيقَّن النجاةَ به من الهلاك، علىٰ أصحِّ القولين. وإن ظَنَّ الشِّفاء به، فهل هو مستحبٌّ أو مباحٌ والأفضل تركه؟ فيه نزاعٌ معروفٌ بين السَّلف والخلف[(١)].

والذّوق الحرام: كذوق الحرام، والسُّموم القاتلة، والذّوق الممنوع منه للصِّيام الواجب.

وأمَّا المكروه: فكذوق المشتبهات، والأكلِ فوقَ الحاجة، وذوقِ طعامِ الفُجاءة، وهو الطَّعام الذي تَفْجَأُ آكِلَه ولم يُرِدْ أن يدعوك إليه؛ وكأكلِ أطعمةِ المُتَبارِين في الولائم والدَّعَوات ونحوها وفي «السُّنن»[(٢)] أنَّ رسول الله ﷺ نهىٰ عن طعام المتبارِيَين وذوقِ طعامِ مَن يُطعِمك حياءً منك لا بطيب نفس.

والذَّوقُ المستحبُّ: أكلُ ما يعينك علىٰ طاعة الله ممَّا أذِن اللهُ فيه، والأكلُ مع الضَّيف ليطيبَ له الأكلُ فينالَ منه غرضه، والأكلُ من طعام صاحب الدعوة الواجبِ إجابتُها أو المستحَبِّ. وقد أوجب بعضُ الفقهاء الأكلَ من الوليمةِ الواجبِ إجابتُها[(٣)]، للأمر به من الشّارع[(٤)].

والذَّوق المباح: ما لم يكن فيه إثمٌ ولا رجحانٌ.

وأمَّا تعلُّق العبوديَّات الخمس بحاسَّة الشَّمِّ، فالشَّمُّ الواجبُ: كلُّ شمٍّ تعيَّنَ طريقًا للتّمييز بين الحلال والحرام، كالشَّمِّ الذي يُعلَم به هذا العين هل هو خبيث أو طيِّب؟ وهل هو سمٌّ قاتلٌ أو لا مضرَّة فيه؟ أو يميِّز به بين ما يملك الانتفاعَ

(١) انظر: «التمهيد» (٥/ ٢٦٣- ٢٨٦)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٢٤/ ٢٦٩)، و«الفروع» (٣/ ٢٣٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٧٥٤)، وأعلَّه بالإرسال.

(٣) انظر: «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (٧/ ٢٨٧)، و«المغني» (١٠/ ١٩٧).

(٤) يشير إلىٰ حديث أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دعي أحدكم فليجب، فإن كان صائمًا فليُصَلِّ، وإن كان مفطرًا فليَطعَمْ»، رواه مسلم (١٤٣١).

به، ولا يملكه؟ ومن هذا شمُّ المقوِّم وربِّ الخِبرة عند الحكم في التقويم والعيب ونحو ذلك.

وأمَّا الشَّمُّ الحرامُ، فالتعمُّدُ لشمِّ الطِّيب في الإحرام، وشمِّ الطِّيب المغصوب والمسروق، وتعمُّدُ شمِّ الطِّيب من النِّساء الأجنبيَّات خشيةَ الافتتان بما وراءه.

وأمَّا الشَّمُّ المستحبُّ، فشمُّ ما يعينك علىٰ طاعة الله، ويقوِّي الحواسَّ، ويَبْسُطُ النَّفسَ للعلم والعمل. ومن هذا هديَّة الطِّيب والرَّيحان إذا أُهديت لك، ففي «صحيح مسلم ﷺ»[1] عن النّبيِّ ﷺ: **«من عُرِض عليه ريحانٌ فلا يردُّه، فإنّه طيِّبُ الرِّيح، خفيفُ المَحْمِل»**.

والمكروه: كشمِّ طيب الظَّلَمَة وأصحاب الشُّبهات، ونحو ذلك.

والمباح: ما لا منع فيه من الله ولا تبعة، ولا فيه مصلحةٌ دينيّةٌ.

وأمّا تعلُّق هذه الخمس بحاسَّة اللَّمس، فاللَّمسُ الواجبُ كلمس الزّوجةِ حين يجب جماعُها، والأمةِ الواجبِ إعفافُها.

والحرام: لمسُ ما لا يحلُّ من الأجنبيَّات.

والمستحبُّ: إذا كان فيه غضُّ بصره، وكفُّ نفسه عن الحرام، وإعفافُ أهله.

والمكروه: لمسُ الزَّوجة في الإحرام للذَّةٍ، وكذلك في الاعتكاف، وفي الصِّيام إذا لم يأمن نفسَه. ومن هذا: لمسُ بدن الميِّت لغير غاسله، لأنَّ بدنه قد صار بمنزلة عورة الحيِّ تكريمًا له. ولهذا يستحبُّ سترُه عن العيون، وتغسيلُه في قميصٍ في أحد القولين[2]؛ ولمسُ فخذ الرجل إذا قلنا: هو عورةٌ.

والمباح ما لم يكن فيه مفسدةٌ ولا مصلحةٌ دينيّةٌ.

---

(١) برقم (٢٢٥٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «اختلاف الأئمة العلماء» (١/ ١٧٦)، و«المغني» (٣/ ٣٦٨).

وهذه المراتب أيضًا مرتَّبَة علىٰ البطش باليد، والمشي بالرِّجل، وأمثلتُها لا تخفىٰ.

فالتكسُّبُ المقدورُ للنّفقة علىٰ نفسه وأهله وعياله واجبٌ. وفي وجوبه لقضاء دَينه خلافٌ[(١)]، والصحيح: وجوبُه لتمكُّنه من أداء دينه. ولا يجب لإخراج الزكاة. وفي وجوبه لأداء فريضة الحجِّ نظرٌ، والأقوىٰ في الدليل: وجوبه لدخوله في الاستطاعةِ وتمكُّنِه بذلك من أداء النُّسك، والمشهور عدم وجوبه[(٢)].

ومن البطش الواجب: إعانة المضطرِّ، ورمي الجمار، ومباشرة الوضوء والتيمُّم.

والحرام: كقتل النّفس التي حرَّم الله، ونهبِ المال المعصوم، وضربِ من لا يحلُّ ضربُه، ونحو ذلك. وكأنواع اللّعب المحرَّم بالنَّصِّ كالنَّرْد[(٣)]، أو ما هو أشدُّ تحريمًا منه عند أهل المدينة كالشِّطْرَنْج، أو مثلُه عند فقهاء الحديث كأحمد وغيره، أو دونه عند بعضهم[(٤)]. ونحو كتابة البِدَع المخالفة للسُّنّة تصنيفًا ونسخًا إلَّا مقرونًا بردِّها ونقضها، وكتابةِ الزُّور والظُّلم، والحكم الجائر، والقذف والتَّشبيب بالنِّساء الأجانب، وكتابةِ ما فيه مضرَّةٌ علىٰ المسلمين في دينهم أو دنياهم، ولاسيَّما إن كسَبَ عليه مالًا ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾[البقرة: ٧٩]. وكذلك كتابةُ المفتي علىٰ الفتوىٰ ما يخالف حكمَ الله ورسوله إلّا أن يكون مجتهدًا مخطئًا، فالإثم موضوعٌ عنه.

وأمّا المكروه فكالعبث واللَّعب الذي ليس بحرامٍ، وكتابة ما لا فائدة في كتابته ولا منفعة في الدُّنيا والآخرة.

والمستحبُّ كتابةُ كلِّ ما فيه منفعةٌ في الدِّين، أو مصلحةٌ لمسلمٍ. والإحسان

(١) انظر: «المغني» (٦/ ٥٨١).

(٢) انظر: «الفروع» (٥/ ٢٣١)، و«الإنصاف» (٣/ ٤٠١).

(٣) انظر: حديث بريدة ﷺ في «صحيح مسلم» (٢٢٦٠).

(٤) انظر: «المغني» (١٤/ ١٥٥)، و«التهذيب في اختصار المدونة» (٣/ ٥٨٤)، و«روضة الطالبين» (١١/ ٢٢٥).

بيده بأن يعينَ صانعًا، أو يصنعَ لأخرق، أو يُفْرِغَ من دلوه في دلو المستقي، أو يحملَ له علىٰ دابَّته، أو يمسكها حتَّىٰ يحمل عليها، أو يعاونه بيده فيما يحتاج إليه أو نحو ذلك. ومنه: لمسُ الرُّكن بيده في الطّواف. وفي تقبيلها بعد اللَّمس قولان[(١)].

والمباح ما لا مضرَّة فيه ولا ثواب.

وأمَّا المشي الواجب، فالمشيُ إلىٰ الجُمُعات والجماعات في أصحِّ القولين لبضعةٍ وعشرين دليلًا مذكورةٍ في غير هذا الموضع. والمشيُ حول البيت للطواف الواجب، والمشيُ بين الصَّفا والمروة بنفسه أو بمركوبه، والمشيُ إلىٰ حكم الله ورسوله إذا دُعي إليه، والمشيُ إلىٰ صلةِ رحمه وبرِّ والديه، والمشيُ إلىٰ مجالس العلم الواجبِ طلبُه وتعلُّمه، والمشيُ إلىٰ الحجِّ إذا قرُبَت المسافة ولم يكن عليه فيه ضررٌ.

والحرام: المشيُ في معصية الله، وهو من رَجِلِ الشَّيطان. قال تعالىٰ: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾[الإسراء: ٦٤]. قال مقاتلٌ ﵁: استعِنْ عليهم بركبان جندك ومُشاتهم[(٢)]. فكلُّ راكبٍ وماشٍ في معصية الله فهو من جند إبليس لعنه الله.

وكذلك تتعلَّق هذه الأحكام الخمسة بالرُّكوب أيضًا.

فواجبه: الرُّكوب للغزو والجهاد، والحجِّ الواجب.

ومستحبُّه: الرُّكوب للمستحبِّ من ذلك، ولطلب العلم، وصلة الرّحم، وبرِّ الوالدين. وفي الوقوف بعرفة نزاعٌ: هل الرُّكوب فيه أفضل أم علىٰ الأرض؟ والتحقيق أنّ الرُّكوب أفضل إذا تضمَّن مصلحةً من تعليمٍ للمناسك واقتداءٍ به،

(١) انظر: «المغني» (٥/ ٢٢٨).
(٢) «تفسير البغوي» (٥/ ١٠٥).

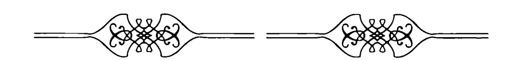
وكان أعونَ له علىٰ الدُّعاء، ولم يكن فيه ضررٌ علىٰ الدّابَّة[(١)].

وحرامه: الرُّكوب في معصية الله.

ومكروهه: الرُّكوب للهو واللّعب وكلِّ ما تركُه خيرٌ من فعله.

ومباحه: الرُّكوب لما لم يتضمَّن فوتَ أجرٍ، ولا تحصيلَ وزرٍ.

فهذه خمسون مرتبةً علىٰ عشرة أشياء: القلب، والسّمع، والبصر، واللِّسان، والأنف، والفم، واليد، والرِّجل، والفرج، والاستواء علىٰ ظهر الدابَّة.



(١) انظر: «المغني» (٥/ ٢٦٧)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٢٦/ ١٣٢).

فصل

في منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ التي يتنقَّل فيها القلبُ منزلةً منزلةً في حال سيره إلىٰ الله تعالىٰ

وقد أكثر الناسُ في صفة المنازل وعددها، فمنهم من جعلها ألفًا، ومنهم من جعلها مائةً، ومنهم من زاد ونقص؛ وكلٌّ وصَفَها بحسب سيره وسلوكه. وسأذكر فيها أمرًا مختصرًا جامعًا نافعًا، إن شاء الله تعالىٰ.

فأوَّل منازل العبوديَّة: **اليقظة**. وهي انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغافلين. ولله ما أنفعَ هذه الرَّوعةَ! وما أعظمَ قدرَها وخطرَها! وما أشدَّ إعانتَها علىٰ السُّلوك! فمن أحسَّ بها فقد أحسَّ واللهِ بالفلاح، وإلَّا فهو في سكرات الغفلة، فإذا انتبه شمَّر لله بهمَّته إلىٰ السَّفر إلىٰ منازله الأولىٰ، وأوطانه التي سُبِي منها.

فحيَّ علىٰ جنَّاتِ عَدْنٍ فإنّها ... منازلُك الأولىٰ وفيها المخيَّمُ
ولكنَّنا سَبْيُ العدوِّ فهل ترىٰ ... نعود إلىٰ أوطاننا ونُسلَّمُ[1]

فأخَذَ في أُهبة السّفر، فانتقل إلىٰ منزلة «العزم»، وهو العقدُ الجازمُ علىٰ المسير، ومفارقةُ كلِّ قاطعٍ ومعوِّقٍ، ومرافقةُ كلِّ معينٍ ومُوصلٍ. وبحسب كمال انتباهه ويقظته يكون عزمُه، وبحسب قوَّة عزمه يكون استعدادُه.

فإذا استيقظ أوجبت له اليقظةُ «الفكرةَ»، وهي تحديقُ القلب نحو المطلوب الذي قد استعدَّ له مجملًا، ولمَّا يهتَدِ إلىٰ تفصيله وطريق الوصول إليه.

فإذا صحَّت فكرتُه أوجبت له «البصيرةَ»، وهي نورٌ في القلب يُبصر به الوعد

(١) البيتان من ميميَّة المؤلف في «طريق الهجرتين» (١/ ١٠٨)، و«حادي الأرواح» (١/ ١٤)، وقد ذكرهما فيه مرة أخرىٰ (٢/ ٦٠٤)، وفي «إغاثة اللهفان» (١/ ١١٧).

والوعيد، والجنَّة والنَّار، وما أعدَّ الله في هذه لأوليائه، وفي هذه لأعدائه. فأبصر النّاسَ وهم قد خرجوا من قبورهم مُهطعين لدعوة الحقِّ، وقد نزلت ملائكةُ السماوات فأحاطت بهم، وقد جاء اللهُ، ونُصِبَ كرسيُّه لفصل القضاء، وقد أشرقت الأرضُ لنوره، ووُضِع الكتابُ، وجيء بالنبيين والشهداء، وقد نُصِب الميزان، وتطايرت الصُّحفُ، واجتمعت الخصومُ، وتعلَّق كلُّ غريمٍ بغريمه، ولاح الحوضُ وأكوابُه عن كثَبٍ، وكثر العِطاشُ وقلَّ الواردُ، ونُصِبَ الجسرُ للعبور، ولُزَّ النّاسُ إليه، وقُسِّمت الأنوار دون ظلمته للعبور عليه، والنّار يحطِمُ بعضُها بعضًا تحته، والمتساقطون فيها أضعافُ أضعافِ النّاجين. فينفتح في قلبه عينٌ يرىٰ بها ذلك، ويقوم بقلبه شاهدٌ من شواهد الآخرة يريه الآخرةَ ودوامَها، والدُّنيا وسرعةَ انقضائها.

فالبصيرة: نورٌ يقذفه الله في القلب، يرىٰ به حقيقة ما أخبرت به الرُّسل، كأنّه شاهدٌ رأيَ عينٍ، فيتحقَّق مع ذلك انتفاعَه بما دعت إليه الرُّسل، وتضرُّرَه بمخالفتهم. وهذا معنىٰ قول بعض العارفين(١): البصيرةُ تحقُّقُ الانتفاعِ بالشّيء والتّضرُّرِ به. وقال بعضهم: البصيرة ما خلَّصَك من الحَيرة(٢)، إمَّا بإيمانٍ وإمَّا بعيانٍ.

والبصيرة علىٰ ثلاث درجاتٍ، من استكملها فقد استكمل البصيرة: بصيرةٌ في الأسماء والصِّفات، وبصيرةٌ في الأمر والنهي، وبصيرةٌ في الوعد والوعيد.

فالبصيرة في الأسماء والصِّفات: أن لا يتأثَّر إيمانُك بشبهةٍ تعارضُ ما وصَف الله به نفسَه ووصفه به رسولُه، بل تكون الشُّبَهُ المعارضة لذلك عنده بمنزلة الشُّبه والشُّكوك في وجود الله، فكلاهما سواءٌ في البطلان عند أهل البصائر.

---

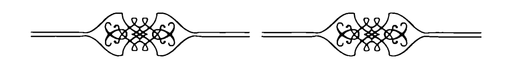
(١) نقله الفيروزابادي أيضًا دون عزو في «البصائر» (٥/ ٣٩٠).
(٢) هذا التفسير لصاحب «المنازل» (ص٦٣)، وما بعده من «شرح التلمساني» (٢/ ٣٤٣).

وعَقْدُ هذا: أن يشهد قلبُك الرَّبَّ تعالىٰ مستويًا علىٰ عرشه، متكلِّمًا بأمره ونهيه، بصيرًا بحركات العالَم علويِّه وسفليِّه وأشخاصه وذرَّاته، سميعًا لأصواتهم، رقيبًا علىٰ ضمائرهم وأسرارهم، وأمرُ الممالك تحت تدبيره، نازلٌ من عنده وصاعدٌ إليه، وأملاكُه بين يديه تنفِّذ أوامره في أقطار الممالك؛ موصوفًا بصفات الكمال، منعوتًا بنعوت الجلال، منزَّهًا عن العيوب والنقائص والمثال. هو كما وصف نفسَه في كتابه، وفوق ما يصفه به خلقُه.

حيٌّ لا يموت، قيُّومٌ لا ينام، عليمٌ لا يخفىٰ عليه مثقالُ ذرّةٍ في السماوات ولا في الأرض، بصيرٌ يرىٰ دبيب النَّملة السَّوداء علىٰ الصَّخرة الصَّمَّاء في اللّيلة الظّلماء، سميعٌ يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللُّغات علىٰ تفنُّن الحاجات.

تمَّت كلماتُه صِدقًا وعدلًا، وجلَّت صفاتُه أن تقاس بصفاتِ خَلقِه شبهًا ومثلًا، وتعالت ذاته أن تُشْبِهَ شيئًا من الذوات أصلًا، ووسعت الخليقةَ أفعالُه عدلًا وحكمةً ورحمةً وإحسانًا وفضلًا.

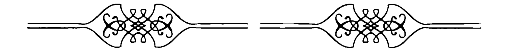
له الخلق والأمر، وله النِّعمة والفضل، وله الملك والحمد، وله الثناء والمجد. أوَّلٌ ليس قبله شيءٌ، آخِرٌ ليس بعده شيءٌ، ظاهرٌ ليس فوقه شيءٌ، باطنٌ ليس دونه شيءٌ. أسماؤه كلُّها أسماء مدحٍ وحمدٍ وثناءٍ وتمجيدٍ، ولذلك كانت حسنىٰ. وصفاتُه كلُّها صفاتُ كمالٍ، ونعوتُه نعوتُ جلالٍ، وأفعالُه كلُّها حكمةٌ ورحمةٌ ومصلحةٌ وعدلٌ. كلُّ شيءٍ من مخلوقاته دالٌّ عليه، ومرشدٌ لمن رآه بعين البصيرة إليه.



﴾ فصل ﴿

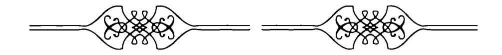
المرتبة الثانية من البصيرة: البصيرة في الأمر والنهي. وهي تجريده عن المعارضة بتأويلٍ أو تقليدٍ أو هوًى. فلا يقوم بقلبه شبهةٌ تعارض العلمَ بأمر الله ونهيه، ولا شهوةٌ تمنع من تنفيذه وامتثاله والأخذ به، ولا تقليدٌ يزيحه عن بذل الجهد في تلقِّي الأحكام من مشكاة النُّصوص.

وقد علمتَ بهذا أهلَ البصائر من العلماء من غيرهم.



فصل

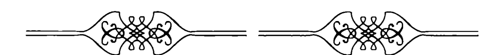
المرتبة الثالثة: البصيرة في الوعد والوعيد. فهو أن تشهدَ قيامَ الله علىٰ كلِّ نفسٍ بما كسبَتْ في الخير والشرِّ، عاجلًا وآجلًا، في دار العمل ودار الجزاء؛ وأنَّ ذلك هو موجَبُ إلهيَّته وربوبيَّته وعدله وحكمته، وأنَّ الشَّكَّ في ذلك شكٌّ في إلهيَّته وربوبيَّته، بل شكٌّ في وجوده؛ فإنَّه يستحيل عليه خلافُ ذلك. ولا يليق أن يُنسب إليه تعطيلُ الخليقة وإرسالُها هَملًا وتركُها سدًىٰ، تعالىٰ الله عن هذا الحسبان علوًّا كبيرًا. فشهادة العقل بالجزاء كشهادته بالوحدانيَّة.



فصل

منزلة القصد

فإذا انتبه وأبصر أخذ في القصد وصدق الإرادة، وأجمعَ القصدَ والنِّيَّةَ علىٰ سفر الهجرة إلىٰ الله، وعلِمَ وتيقَّنَ أنّه لا بدَّ له منه، فأخذ في أهبة السّفر وتعبئة الزاد، والتجرُّدِ عن عوائق السفر، وقطعِ العلائق التي تمنعه من الخروج.



فصل

منزلة العزم

فإذا استحكم قصدُه صار عزمًا جازمًا، مستلزمًا للشُّروع في السَّفر، مقرونًا بالتوكُّل علىٰ الله. قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾[آل عمران: ١٥٩].

والعزم هو: القصد الجازم المتَّصل بالفعل، ولذلك قيل: إنَّه أوَّلُ الشُّروع في الحركة لطلب المقصود. والتحقيق: أنَّ الشُّروعَ في الحركة ناشئٌ عن العزم، لا أنَّه نفسُه، ولكن لمَّا اتَّصل به من غير فصلٍ ظُنَّ أنَّه هو. وحقيقته: هو استجماع قوىٰ الإرادة علىٰ الفعل.

والعزم نوعان، أحدهما: عزم المريد علىٰ الدُّخول في الطريق، وهذا من البدايات. والثاني: عزمٌ في حال السَّير، وهو أخصُّ من هذا.

واعلم أنَّ ترتيبَ هذه المقامات ليس باعتبار أنَّ السَّالكَ يقطع المقامَ ويفارقه وينتقل إلىٰ الثاني، كمنازل السَّير الحسِّيِّ. هذا محالٌ، ألا ترىٰ أنَّ اليقظةَ معه في كلِّ مقامٍ لا تفارقه. وكذلك البصيرة والإرادة والعزم. وكذلك التوبة، فإنَّها كما أنَّها من أوّل المقامات فهي آخرها أيضًا، بل هي في كلِّ مقامٍ مستصحَبةٌ.

ولهذا جعلها الله آخر مقامات خاصَّته، فقال تعالىٰ في غزوة تبوك آخرِ الغزوات التي قطعوا فيها الأودية والبدايات والأحوال والنِّهايات: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]، فجعل التّوبةَ أوّلَ أمرهم وآخرَه.

فالتّوبة هي نهايةُ كلِّ سالكٍ وكلِّ وليٍّ لله، وهي الغاية التي يجري إليها العارفون بالله وعبوديَّته وما ينبغي له. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[الأحزاب: ٧٢- ٧٣]، فجعل سبحانه التّوبةَ غايةَ كلِّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ.

وكذلك الصَّبر فإنّه لا ينفكُّ عنه في مقامٍ من المقامات.

وإنّما هذا الترتيبُ ترتيبٌ للمشروط المتوقِّفِ علىٰ شرطه المصاحبِ له. مثال ذلك: أنَّ الرِّضا مترتِّبٌ علىٰ الصبر، لتوقُّفِ الرِّضا عليه واستحالةِ ثبوته بدونه. فإذا قيل: إنَّ مقامَ الرِّضا أو حالَه علىٰ الخلاف بينهم هل هو مقامٌ أو حالٌ؟ بعد مقام الصَّبر، لا يُعْنَىٰ به أنَّه يفارق الصبرَ، وينتقل إلىٰ الرِّضا. وإنّما يُعْنَىٰ أنَّه لا يحصل له مقام الرِّضا حتَّىٰ يتقدَّم له قبله مقامُ الصَّبر. فافهم هذا الترتيب في مقامات العبوديَّة.

وإذا كان كذلك علمتَ أنَّ «القصدَ» و«العزمَ» متقدِّمٌ علىٰ سائر المنازل، فلا وجه لتأخيره. وعلمتَ بذلك أنَّ المحاسبةَ متقدِّمةٌ علىٰ التوبة بالرُّتبة أيضًا، فإنَّه إذا حاسب نفسَه خرج ممَّا عليه، وهي حقيقة التَّوبة؛ وأنَّ منزلةَ التّوكُّل قبل منزلة الإنابة، لأنّه يتوكَّل في حصولها، فالتوكُّل وسيلةٌ، والإنابة غايةٌ؛ وأنَّ مقامَ التَّوحيد أَولىٰ المقامات أن يُبدَأ به، كما هو أوَّلُ دعوة الرُّسل كلِّهم، وقال النبيُّ ﷺ لمعاذ بن جبلٍ: «**فليكن أوّلَ ما تدعوهم إليه شهادةُ أن لا إله إلّا الله**»[(١)]، ولأنَّه لا يصحُّ مقامٌ من المقامات ولا حالٌ من الأحوال إلّا به، فلا وجه لجعله آخر المقامات. وهو مفتاحُ دعوة الرُّسل، وأوَّلُ فرضٍ فرضه الله علىٰ العباد.

ومن المقامات ما يكون جامعًا لمقامين. ومنها ما يكون جامعًا لأكثر من

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٥٨)، ومسلم (١٩)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

ذلك. ومنها ما يندرج فيه جميع المقامات، فلا يستحقُّ صاحبُه اسمَه إلَّا عند استجماع جميع المقامات فيه.

فالتَّوبة جامعةٌ لمقام المحاسبة ومقام الخوف، لا يُتصوَّر وجودُها بدونهما.

والرِّضا جامعٌ لمقام الصبر ومقام المحبَّة، لا يُتصوَّر وجودُه بدونهما.

والتوكُّل جامعٌ لمقام التفويض والاستعانة والرِّضا، لا يتصوَّر وجوده بدونها.

والرَّجاء جامعٌ لمقام الخوف والإرادة.

والخوف جامعٌ لمقام الرَّجاء والإرادة.

والإنابة جامعةٌ لمقام المحبَّة والخشية، لا يكون العبد منيبًا إلّا باجتماعهما.

والإخبات جامعٌ لمقام المحبَّة والذُّلِّ والخضوع، لا يكون أحدها بدون الآخر إخباتًا.

والزُّهد جامعٌ لمقام الرَّغبة والرَّهبة، لا يكون زاهدًا مَن لم يرغب فيما يرجو نفعه، ويرهب ممَّا يخاف ضَرَّه.

ومقامُ المحبَّة جامعٌ لمقام المعرفة والخوف والرجاء والإرادة، فالمحبَّة معنًى يلتئم من هذه الأربعة، وبها تحقُّقُها.

ومقامُ الخشية جامعٌ لمقام المعرفة بالله، والمعرفةِ بحقِّ عبوديّته، فمتى عرَف الله وعرَف حقَّه اشتدَّت خشيتُه له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]. فالعلماء به وبأمره هم أهلُ خشيته. قال النبيُّ ﷺ: **«أنا أعلمكم بالله وأشدُّكم له خشيةً»**[1].

ومقامُ الهيبة جامعٌ لمقام المحبَّة والإجلال والتعظيم.

ومقامُ الشُّكر جامعٌ لجميع مقامات الإيمان، ولذلك كان أرفعَها وأعلاها.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٠١)، ومسلم (٢٣٥٦)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

وهو فوق الرِّضا. وهو يتضمَّن الصَّبرَ من غير عكسٍ، ويتضمَّن التّوكُّل والحبَّ والإنابة والإخبات والخشوع والخوف والرجاء. فجميع هذه المقامات مندرجةٌ فيه، لا يستحقُّ صاحبُه اسمَه على الإطلاق إلَّا باستجماع المقامات له. ولهذا كان الإيمان نصفَين: نصف صبر، ونصف شكرٍ، والصَّبرُ داخلٌ في الشُّكر، فرجع الإيمانُ كلُّه إلى الشُّكر. والشاكرون هم أقلُّ العباد، كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[سبأ: ١٣].

ومقامُ الحياء جامعٌ لمقام المعرفة والمراقبة.

ومقامُ الأنس جامعٌ لمقام الحبِّ مع القرب. فلو كان المحبُّ بعيدًا من محبوبه لم يأنَسْ به، ولو كان قريبًا من رجلٍ ولم يحبَّه لم يأنَسْ به، حتَّى يجتمع له حبُّه مع القرب منه.

ومقامُ الصِّدق الجامعُ للإخلاص والعزم، فباجتماعهما يصحُّ له مقامُ الصِّدق.

ومقامُ المراقبة جامعٌ للمعرفة مع الخشية، فبحسبهما يصحُّ مقام المراقبة.

ومقامُ الطُّمأنينة جامعٌ للإنابة والتوكُّل والتفويض والرِّضا والتسليم. فهو معنًى يلتئم من هذه الأمور، إذا اجتمعت صار صاحبُها صاحبَ طمأنينةٍ، وما نقَص منها نقَص من الطُّمأنينة.

وكذلك الرغبة والرهبة، كلٌّ منهما يلتئمُ من الرجاء والخوف. والرجاءُ على الرغبة أغلب، والخوفُ على الرهبة أغلب.

وكلُّ مقامٍ من هذه المقامات، فالسالكون بالنِّسبة إليه نوعان: أبرارٌ، ومقرَّبون. فالأبرار في أذياله، والمقرَّبون في ذِرْوةِ سَنامه. وهكذا مراتب الإيمان جميعها. وكلٌّ من النّوعين لا يُحصي تفاوتَهم وتفاضلَ درجاتهم إلَّا الله تعالى.

فالأَولىٰ: الكلامُ في هذه المقامات علىٰ طريقة المتقدِّمين من أئمَّة القوم كلامًا مطلقًا في كلِّ مقامٍ مقامٍ ببيان حقيقته، وموجَبه، وآفته المانعة من حصوله، والقاطع عنه، وذكر عامِّه وخاصِّه. فكلامُ أئمَّة الطريق هو علىٰ هذا المنهاج لمن تأمَّلَه، كسهل بن عبد الله التُّسْتَريِّ، وأبي طالبٍ المكِّيِّ، والجُنيد بن محمَّدٍ، وأبي عثمان النَّيسابوريِّ، ويحيىٰ بن معاذٍ الرَّازيِّ؛ وأرفعَ من هؤلاء طبقةً مثل أبي سليمان الدَّارانيِّ، وعون بن عبد الله الذي كان يقال له «حكيمُ الأمَّة»[1]، وأضرابهما؛ فإنّهم تكلَّموا علىٰ أعمال القلوب وعلىٰ الأحوال كلامًا مفصَّلًا جامعًا مبيَّنًا مطلقًا، من غير ترتيبٍ، ولا حصرٍ للمقامات بعددٍ معلومٍ، فإنَّهم كانوا أجلَّ من هذا، وهممُهم أعلىٰ وأشرف. إنَّما هم حائمون علىٰ اقتباس الحكمة والمعرفة، وطهارة القلوب، وزكاة النُّفوس، وتصحيح المعاملة. ولهذا كلامُهم قليلٌ فيه البركة، وكلامُ المتأخِّرين كثيرٌ طويلٌ قليل البركة.

فالأولىٰ بنا: أن نذكر منازلَ العبوديَّة الواردة في القرآن والسُّنّة، ونشيرَ إلىٰ معرفة حدودها ومراتبها، إذ معرفةُ ذلك من تمام معرفة حدود ما أنزل الله تعالىٰ علىٰ رسوله. وقد وصف تعالىٰ مَن لم يعرفها بالجهل والنِّفاق، فقال: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾[التوبة: ٩٦]. فبمعرفةِ حدودها درايةً والقيامِ بها رعايةً يستكمل العبدُ الإيمانَ، ويكونُ من أهل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ونذكر لها ترتيبًا غيرَ مستحَقٍّ، بل مُستحسَنٌ بحسب ترتيب السَّير الحسِّيِّ، ليكون ذلك أقربَ إلىٰ تنزيل المعقول منزلةَ المشهود بالحسِّ، فيكونَ التصديقُ به أتمَّ، ومعرفتُه أكمل، وضبطُه أسهل. وهذه فائدة ضرب الأمثال، وهي خاصَّةُ العقل

(١) المشهور بهذا اللقب أبو الدرداء ﷺ. ثم أبو مسلم الخولاني، انظر: «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٣٣٥)، و(٤/ ٩).

ولبُّه. ولهذا أكثر تعالىٰ منها في القرآن، ونفىٰ عقلَها عن غير العلماء، فقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[العنكبوت: ٤٣].

فاعلم أنَّ العبدَ قبل وصول الدّاعي إليه في نوم الغفلة، قلبُه نائمٌ وطرفُه يقظان، فصاحَ به النّاصح، وأسمَعَه داعي النَّجاح، وأذَّن به مؤذِّنُ الرَّحمن: حَيَّ علىٰ الفلاح.

١/ ٢١٥ **فأوَّل مراتب هذا النائم: اليقظة** والانتباه من النَّوم. وقد ذكرنا أنّها انزعاجُ القلب لروعة الانتباه.

منزلة اليقظة

وصاحب «المنازل» يقول[1]: (**هي القومة لله المذكورة في قوله:** ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ﴾[سبأ: ٤٦]). قال: (**القومةُ لله هي: اليقظةُ من سِنة الغفلة، والنُّهوضُ عن ورطة الفترة. وهي أوّلُ ما يستنير قلبُ العبد بالحياة لرؤية نور التنبيه. وهي ثلاثة أشياء: لحظُ القلب إلىٰ النِّعمة علىٰ اليأسِ من عدِّها والوقوفِ علىٰ حدِّها، والتّفرُّغُ إلىٰ معرفة المنَّة بها، والعلمُ بالتقصير في حقِّها**).

وهذا الذي ذكره هو موجَبُ اليقظة وأثرُها، فإنَّه إذا نهض من ورطة الغفلة، واستنار قلبُه برؤية نور التنبيه، أوجب له ذلك ملاحظةَ نعم الله الباطنة والظاهرة. وكلَّما حدَّقَ قلبَه وطرفَه فيها شاهَدَ عِظَمَها وكثرتَها، فيئس من عدِّها والوقوفِ علىٰ حدِّها، وفرَّغ قلبَه لمشاهدةِ منَّةِ الله عليه بها من غير استحقاقٍ ولا استجلابٍ لها بثمنٍ، فتيقَّن حينئذٍ تقصيرَه في واجبها، وهو القيامُ بشكرها.

فأوجب له شهودُ تلك المنَّةِ والتَّقصيرِ نوعين جليلين من العبوديّة: محبَّةُ

---

(١) «منازل السائرين» (ص٨). ومؤلفه هو: شيخ الإسلام عبد الله بن محمد بن علي الهروي، أبو إسماعيل الأنصاري، الصوفي المحدِّث، إمام أهل السنة والأثر بهراة، توفي سنة ٤٨١. وكتابه «منازل السائرين» في علم السلوك والتصوف، وقد أكثر ابن القيم النقلَ منه في «مدارج السالكين» حتىٰ صار بمثابة شرحٍ له.

المنعم واللَّهَجُ بذكره، وتذلُّله وخضوعُه له وإزراؤه علىٰ نفسه، حيث عَجَز عن شكر نعمه فصار متحقِّقًا بـ «**أبوءُ لك بنعمتك عليَّ وأبوءُ بذنبي فاغفر لي إنَّه لا يغفر الذُّنوب إلّا أنت**»[١]، وعلِمَ حينئذٍ أنَّ هذا الاستغفار حقيقٌ بأن يكون سيِّدَ الاستغفار، وعلِمَ حينئذٍ أنَّ اللهَ لو عذَّب أهلَ سماواته وأهلَ أرضه لعذَّبهم وهو غيرُ ظالمٍ لهم، ولو رحِمَهم لكانت رحمتُه خيرًا لهم من أعمالهم، وعلِمَ أنَّ العبدَ دائمًا سائرٌ إلىٰ الله بين مطالعة المنَّة ومشاهدة التقصير.

قال[٢]: (**الثاني: مطالعةُ الجناية، والوقوفُ علىٰ الخطر فيها، والتشميرُ لتداركها، والتخلُّصُ من رِقِّها، وطلبُ النَّجاة بتمحيصها**).

فينظرُ إلىٰ ما سلَف منه من الإساءة، ويعلمُ أنَّه علىٰ خطرٍ عظيمٍ فيها، مشرفٌ علىٰ الهلاك بمؤاخذة صاحب الحقِّ بموجَبِ حقِّه. وقد ذمَّ اللهُ تعالىٰ في كتابه مَن نسي ما قدَّمَت يداه، فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾[الكهف: ٥٧].

فإذا طالَعَ جنايتَه شمَّر لاستدراك الفارط بالعلم والعمل، وتخلَّص من رقِّ الجناية بالاستغفار والنَّدَم، وطلَبَ التمحيصَ، وهو تخليصُ إيمانه ومعرفته مِن خَبَث الجناية، كتمحيص الذهب والفضّة، وهو تخليصُهما من خَبَثهما.

ولا يمكن دخول الجنَّة إلَّا بعد هذا التمحيص، فإنَّها لا يدخلها إلَّا طيِّبٌ. ولهذا تقول لهم الملائكة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾[الزمر: ٧٣]. وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾[النحل: ٣٢]. فليس في الجنَّة ذرَّة خَبَثٍ.

وهذا التمحيص يكون في دار الدُّنيا بأربعة أشياء: بالتَّوبة، والاستغفار،

---

(١) جزء من حديث سيد الاستغفار، أخرجه البخاري (٦٣٠٦)، من حديث شداد رضي الله عنه.
(٢) «منازل السائرين» (ص٨).

والحسنات الماحية، والمصائب المكفِّرة. فإن محَّصَتْه هذه الأربعةُ وخلَّصَتْه كان من ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾، يبشِّرونهم بالجنَّة، وكان من الذين تتنزَّل عليهم الملائكةُ عند الموت ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾[فصلت: ٣٠ - ٣٢].

وإن لم تَفِ هذه الأربعةُ بتمحيصه وتخليصه، فلم تكن التَّوبة نَصُوحًا وهي العامَّة الشَّاملة الصَّادقة ولم يكن الاستغفار كاملًا تامًّا وهو المصحوب بمفارقة الذنب والنَّدم عليه، هذا هو الاستغفار النافع، لا استغفارُ مَن في يده قَدَح المسكر، وهو يقول: أستغفر الله، ثمَّ يرفعه إلىٰ فيه ـ ولم تكن الحسناتُ في كمِّيَّتها وكيفيَّتها وافيةً بالتكفير، ولا المصائبُ، وهذا إمَّا لعِظَم الجناية، وإمَّا لضعف الممحِّص، وإمَّا لهما مُحِّص في البرزخ بثلاثة أشياء:

أحدها: صلاة أهل الإيمان عليه، واستغفارهم له، وشفاعتهم له.

الثاني: تمحيصه بفتنة القبر ورَوعةِ الفتَّان والعَصْرة والانتهار، وتوابع ذلك.

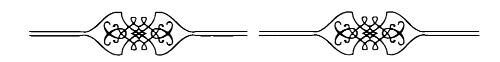
الثالث: ما يُهدي إليه إخوانُه المسلمون من هدايا الأعمال، من الصدقة عنه، والحجِّ عنه، والصِّيام عنه، وقراءة القرآن، والصلاة؛ وجعل ثوابِ ذلك له.

فإن لم تفِ هذه الثلاثة بالتمحيص مُحِّصَ في الموقف بثلاثة أشياء: أهوال القيامة وشدَّة الموقف، وشفاعة الشُّفعاء، وعفو الله.

فإن لم تف هذه الثلاثة بتمحيصه، فلا بدَّ له من دخول الكِير رحمةً في حقِّه، ليتخلَّص ويتمحَّص ويتطهَّر في النار، فتكون النارُ طهرةً له وتمحيصًا لخَبثه، ويكون مَكْثُه فيها علىٰ حسب كثرة الخَبَث وقلَّته، وشدَّته وضعفه، فإذا خرج خَبثُه أُخرِجَ من النار وأُدخِلَ الجنَّة.

قال[1]: **(الثّالث)** يعني من مراتب اليقظة: **(الانتباهُ لمعرفة الزِّيادة والنُّقصان من الأيّام، والتنصُّلُ عن تضييعها، والنظرُ إلىٰ الضَّنِّ بها لِتدارُكِ فائتها وتعميرِ باقيها)**.

يعني أنّه يعرفُ ما معه من الزِّيادة والنُّقصان، فيتداركُ ما فاته في بقيَّة عمره التي لا ثمن لها، ويبخل بساعاته بل بأنفاسه عن ذهابها ضَيَاعًا في غير ما يقرِّبه إلىٰ الله تعالىٰ، فهذا هو حقيقة الخسران المشترك بين الناس، مع تفاوتهم في قدره قلَّةً وكثرةً. فكلُّ نَفَسٍ يخرج في غير ما يقرِّب إلىٰ الله تعالىٰ، هو حسرةٌ علىٰ العبد في معاده، ووقفةٌ له في طريق سيره، أو نكسةٌ إن استمرَّ، وحجابٌ إن انقطع به.



(١) «منازل السائرين» (ص٩).

١/ ٢٢٤

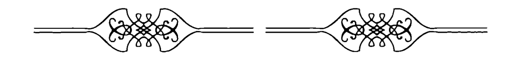
فصل

منزلة الفكرة

فإذا استحكمت يقظتُه أوجبت له الفكرةَ، وهي كما تقدَّم: تحديقُ القلب إلىٰ جهة المطلوب التماسًا له.

والفكرة فكرتان: فكرةٌ تتعلَّق بالعلم والمعرفة، وفكرةٌ تتعلَّق بالطّلب والإرادة. فالَّتي تتعلَّق بالعلم والمعرفة فكرةُ التَّمييز بين الحقِّ والباطل، والثّابت والمنفيِّ. والّتي تتعلَّق بالطّلب والإرادة فهي الفكرة التي تميِّز بين النَّافع والضَّارِّ. ثمّ يترتَّب عليها فكرةٌ أخرىٰ في الطّريق إلىٰ حصول ما ينفع فيسلكها، وطريقِ ما يضرُّ فيتركها.

فهذه ستَّة أقسامٍ لا سابع لها، هي محالُّ أفكار العقلاء.



١/ ٢٥٩

فصل

منزلة المحاسبة

فلنرجع إلىٰ ذكر منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ التي لا يكون العبدُ من أهلها حتّىٰ ينزل منازلها.

فذكرنا منها اليقظة، والبصيرة، والفكرة، والعزم.

وهذه المنازل الأربعة لسائر المنازل كالأساس للبنيان، وعليها مدار منازل السّفر إلىٰ الله تعالىٰ، ولا يتصوَّر السَّفرُ إليه بدون نزولها البتّة. وهي علىٰ ترتيب السَّير الحسِّيِّ، فإنَّ المقيمَ في وطنه لا يتأتّىٰ منه السفر حتَّىٰ يستيقظ من غفلته عن السفر، ثمّ يتبصَّر في أمر سفره وخطره وما فيه من المنفعة والمصلحة، ثمّ يفكِّر في أُهبة السفر والتّزوُّد وإعداد عدَّته، ثمّ يعزم عليه. فإذا عزَم عليه وأجمَعَ قَصْدَه انتقل إلىٰ منزلة المحاسبة، وهي التّمييز بين ما له وعليه، فيستصحب ما له، ويؤدِّي ما عليه، لأنّه مسافرٌ سفَرَ من لا يعود.

ومن منزل المحاسبة يصحُّ له نزولُ منزلة التوبة، لأنَّه إذا حاسب نفسَه عرَفَ ما عليه من الحقِّ، فخرج منه وتنصَّل منه إلىٰ صاحبه، وهي حقيقة التَّوبة، فكان تقديم المحاسبة عليها لذلك أولىٰ. ولتأخيرها عنها وجهٌ أيضًا، وهو أنّ المحاسبة لا تكون إلَّا بعد تصحيح التَّوبة. والتَّحقيقُ: أنَّ التَّوبة بين محاسبتين: محاسبةٍ قبلها تقتضي وجوبَها، ومحاسبةٍ بعدها تقتضي حفظَها، فالتّوبةُ محفوفةٌ بمحاسبتين.

وقد دلَّ علىٰ المحاسبة قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٌ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٍ﴾[الحشر: ١٨]. فأمر سبحانه العبدَ أن ينظر ما قدَّم لغده، وذلك يتضمَّن محاسبةَ نفسه علىٰ ذلك، والنّظرَ هل يصلُح ما قدَّمه أن يلقىٰ اللهَ به أو لا يصلح؟ والمقصود من هذا النّظر: ما يوجبه ويقتضيه من كمال الاستعداد،

وتقديم ما ينجيه من عذاب الله ويبيِّض وجهَه عند الله.

وقال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: حاسِبُوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا، وزِنُوها قبل أن تُوزَنوا، وتزيَّنُوا للعرض الأكبر ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ أو قال: علىٰ من لا تخفىٰ عليه أعمالكم[1].

قال صاحب «المنازل»[2]: **(المحاسبة لها ثلاثة أركانٍ: أحدها: أن تقيس بين نعمته وجنايتك)**.

يعني: تقايس بينَ ما مِنَ الله وما منك، فحينئذٍ يظهر لك التفاوتُ، وتعلمُ أنّه ليس إلّا عفوُه ورحمتُه، أو الهلاكُ والعطَبُ.

وفي هذه المقايسة تعلم أنَّ الربَّ ربٌّ والعبدَ عبدٌ، ويتبيَّن لك حقيقةُ النفس وصفاتُها، وعظمةُ جلال الرُّبوبيَّة، وتفرُّدُ الربِّ بالكمال والإفضال، وأنَّ كلَّ نعمةٍ منه فضلٌ، وكلَّ نقمةٍ منه عدلٌ. وأنت قبل هذه المقايسة جاهلٌ بحقيقة نفسك، وبربوبيَّة فاطرها وخالقها.

فإذا قايستَ ظهَر لك أنَّها منبعُ كلِّ شرٍّ، وأساسُ كلِّ نقصٍ، وأنَّ حدَّها: الجاهلةُ الظالمةُ، وأنّه لولا فضلُ الله ورحمتُه بتزكيته سبحانه ما زَكَتْ أبدًا؛ ولولا هُداه ما اهتدت، ولولا إرشادُه وتوفيقُه لما كان لها وصولٌ إلىٰ خيرٍ البتَّة، وأنَّ حصول ذلك لها من بارئها وفاطرها، وتوقُّفُه عليه كتوقُّفِ وجودها علىٰ إيجاده، فكما أنّها ليس لها من ذاتها وجودٌ، فكذلك ليس لها من ذاتها كمالُ الوجود، فليس لها من ذاتها إلَّا العدمُ: عدمُ الذات وعدمُ الكمال، فهناك تقول حقًّا: **«أبوءُ لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي»**[3].

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٩٩)، وقال ابن كثير في «مسند الفاروق» (٢/ ٦١٢): «فيه انقطاع».
(٢) (ص١٢).
(٣) من سيد الاستغفار، وقد تقدم تخريجه.

ثـمَّ تقيس بيـن الحسـنات والسيِّئات، فتعلـم بهـذه المقايسـة أيُّهما أكثرُ وأرجَحُ قـدرًا وصفـةً. وهـذه المقايسـةُ الثّانيـةُ مقايسـةٌ بيـن أفعالـك وما منك خاصَّةً.

قـال[١] : **(وهـذه المقايسـةُ تشـقُّ علىٰ مـن ليـس لـه ثلاثـة أشـياء: نـورُ الحكمـة، وسـوءُ الظّـنِّ بالنّفـس، وتمييـزُ النِّعمـة مـن الفتنـة).**

يعني: أنَّ هـذه المقايسـة والمحاسبة تتوقَّف علىٰ نـور الحكمـة، وهـو النُّـور الـذي نـوَّر الله بـه قلـوبَ أتبـاع الرُّسـل، وهـو نـور الحكمـة، فبقـدره يـرىٰ التَّفـاوت، ويتمكَّـن مـن المحاسـبة.

ونـورُ الحكمـة هاهنـا: هـو العلـم الـذي يميِّـز بـه بيـن الحـقِّ والباطـل، والهـدىٰ والضـلال، والضَّـارِّ والنَّافـع، والكامـل والنَّاقـص، والخير والشَّـرِّ؛ ويُبصر بـه مراتبَ الأعمـال: راجحَهـا ومرجوحَهـا، ومقبولَهـا ومردودَهـا. وكلَّمـا كان حظُّـه مـن هـذا النُّـور أقـوىٰ كان حظُّـه مـن المحاسـبة أكمـلَ وأتـمَّ.

وأمّـا سـوءُ الظَّـنِّ بالنفس، فإنَّمـا احتـاج إليـه لأنَّ حسـنَ الظـنِّ بالنفس يمنـع مـن كمـال التفتيـش ويُلبِّس عليـه، فيـرىٰ المسـاوئَ محاسـنَ، والعيـوبَ كمـالًا، فـإنَّ المحـبَّ يـرىٰ مسـاوئ محبوبـه وعيوبـه كذلـك.

فعيـنُ الرِّضـا عـن كلِّ عيـبٍ كليلـةٌ كما أنَّ عينَ السُّخط تُبدي المَساويا[٢]

ولا يسـيءُ الظَّـنَّ بنفسـه إلَّا مَـن عرفهـا. ومَـن أحسـن ظنَّـه بهـا فهـو مـن أجهـل النـاس بنفسـه!

وأمّـا تمييـزُه النِّعمـةَ مـن الفتنـة، ليفـرِّقَ بيـن النِّعمـة التـي يُـراد بهـا الإحسـانُ واللُّطـفُ، ويُعـانُ بهـا علىٰ تحصيـل سـعادته الأبديَّـة، وبيـن النِّعمـة التـي يُـراد بهـا

(١) «المنازل» (ص١٢).
(٢) البيت لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب في كتاب «الحيوان» للجاحظ (٣/ ٤٨٨).

الاستدراجُ. فكم من مستدرَجٍ بالنِّعم وهو لا يشعُر، مفتونٍ بثناء الجهَّال عليه، مغرورٍ بقضاء الله حوائجَه وسَتْرِه عليه! وأكثرُ الخلق عندهم أنَّ هذه الثلاثةَ علامةُ السعادة والنجاح. ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾[النجم: ٣٠]!

فإذا كملت هذه الثلاثةُ[1] فيه عرَفَ حينئذٍ أنَّ ما كان من نِعَم الله عليه يجمَعُه علىٰ الله فهو نعمةٌ حقيقيَّةٌ، وما فرَّقَه عنه وأخَذَه منه فهو البلاءُ في صورة النِّعمة، والمِحْنةُ في صورة المِنْحة؛ فليحذَرْ، فإنَّما هو مستدرَجٌ.

ويميِّزُ بذلك أيضًا بين المِنَّة والحجَّة، فلم تُلَبَّسْ إحداهما عليه بالأخرىٰ؛ فإنَّ العبدَ بين منَّةٍ من الله عليه، وحجَّةٍ منه عليه، ولا ينفكُّ منهما. فكلُّ علمٍ صَحِبه عملٌ يُرضيه سبحانه فهو منَّةٌ، وإلَّا فهو حجَّةٌ.

وكلُّ قوّةٍ ظاهرةٍ أو باطنةٍ صَحِبها تنفيذٌ لمرضاته وأوامره فهي منَّةٌ، وإلَّا فهي حجَّةٌ.

وكلُّ حالٍ صَحِبه تأثيرٌ في نصرة دينه والدَّعوة إليه فهو منَّةٌ، وإلَّا فهو حجَّةٌ.

وكلُّ مالٍ اقترن به إنفاقٌ في سبيل الله وطاعته، لا لطلب الجزاء ولا للشُّكور، فهو منَّةٌ من الله عليه، وإلَّا فهو حجَّةٌ.

وكلُّ فراغٍ اقترن به اشتغالٌ بما يريد الربُّ من عبده فهو منَّةٌ عليه، وإلَّا فهو حجَّةٌ.

وكلُّ قَبولٍ في الناس وتعظيمٍ ومحبَّةٍ، اتَّصل به خضوعٌ للرَّبِّ وذلٌّ وانكسارٌ، ومعرفةٌ بعيب النفس والعمل، وبذلُ النَّصيحة للخلق= فهو منَّةٌ، وإلَّا فهو حجّةٌ.

وكلُّ بصيرةٍ وموعظةٍ وتذكيرٍ وتعريفٍ من تعريفات الحقِّ سبحانه إلىٰ العبد، اتَّصل به عبرةٌ ومزيدٌ في العقل والمعرفة والإيمان= فهي منَّةٌ، وإلَّا فهي حجَّةٌ.

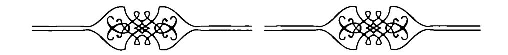
وكلُّ حالٍ مع الله، أو مقامٍ اتَّصل به السَّيرُ إلىٰ الله وإيثارُ مُرادِه علىٰ مراد العبد، فهو منَّةٌ من الله. وإن صحِبه الوقوفُ عنده، والرِّضا به، وإيثارُ مقتضاه من

---

(١) أي: نور الحكمة، وسوء الظن بالنفس، وتمييز النعمة من الفتنة.

لـذَّة النفس بـه، وطمأنينتِهـا إليـه، وركونِهـا إليـه= فهـو حجَّـةٌ مـن الله عليـه.

فليتأمَّلِ العبدُ هـذا الموضـعَ العظيـمَ الخَطَـرِ، ويميِّزْ بيـن مواقـعِ المنَّـةِ ومواقـعِ الحجَّـة، فمـا أكثرَ ما يلتبس ذلـك علىٰ خواصِّ النّاس وأرباب السُّـلوك! والله يهدي من يشـاء إلـىٰ صراطٍ مستقيمٍ.



فصل

الرُّكن الثاني من أركان المحاسبة: أن تميِّزَ بين ما للحقِّ عليك من وجوبِ العبوديَّة والتزامِ الطاعة واجتنابِ المعصية، وبين ما لَكَ. والَّذي لك هو المباح الشرعيُّ. فعليك حقٌّ، ولك حقٌّ. ولابدَّ من التمييزِ بين ما لك وما عليك، وإعطاءِ كلِّ ذي حقٍّ حقَّه.

وكثيرٌ من الناس يجعل كثيرًا ممَّا عليه من الحقِّ من قِسْم ما لَه، فيتخيَّر بين فعله وتركه، وإن فعَلَه رأىٰ أنّه فضلٌ قام به، لا حقٌّ أدَّاه!

وبإزاء هؤلاء من يرىٰ كثيرًا ممَّا له فعلُه وتركُه، من قِسْمِ ما عليه فعلُه أو تركُه، فيتعبَّد بتركِ ما له فعلُه كترك كثيرٍ من المباحات، ويظنُّ ذلك حقًّا عليه؛ أو يتعبَّد بفعلِ ما له تركُه، ويظنُّ ذلك حقًّا عليه!

ومن أركان المحاسبة ما ذكره صاحب «المنازل»، فقال[1]: (**الثَّالث: أن تعرفَ أنَّ كلَّ طاعةٍ رضيتَها منك فهي عليك، وكلَّ معصيةٍ عيَّرتَ بها أخاك فهي إليك**).

رضا العبد بطاعته دليلٌ علىٰ حسنِ ظنِّه بنفسه، وجهلِه بحقوق العبوديَّة، وعدمِ علمِه بما يستحقُّه الربُّ جلَّ جلالُه ويليق أن يُعامَل به.

وحاصل ذلك: أنَّ جهلَه بنفسه وصفاتها وآفاتها وعيوب عمله، وجهلَه بربِّه وحقوقه وما ينبغي أن يُعامَل به= يتولَّد منهما رضاه بطاعاته، وإحسانُ ظنِّه بها. ويتولَّد من ذلك من العُجْب والكِبْر والآفات ما هو أكبر من الكبائر الظاهرة من الزِّنا، وشرب الخمر، والفرار من الزَّحف، ونحوها. فالرِّضا بالطاعة من رُعُونات النفس وحماقتها.

---

(١) (ص١٢).

وأربابُ العزائم والبصائر أشدُّ ما يكونون استغفارًا عقيبَ الطَّاعات، لشهودهم تقصيرَهم فيها وتركَ القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه، وأنّه لولا الأمرُ لَما أقدَمَ أحدُهم علىٰ مثل هذه العبوديَّة، ولا رضيها لسيِّده.

وقد أمر الله تعالىٰ وفدَه وحُجَّاجَ بيته بأن يستغفروه عقيبَ إفاضتهم من عرفاتٍ، وهو أجلُّ المواقف وأفضلُها، فقال: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[البقرة: ١٩٨ - ١٩٩].

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾[آل عمران: ١٧]. قال الحسن رضي الله عنه: مَدُّوا الصّلاةَ إلىٰ السَّحر، ثمَّ جلسوا يستغفرون الله عز وجل[(١)].

وفي «الصحيح»[(٢)] أنَّ النّبيّ ﷺ كان إذا سلَّم استغفر ثلاثًا، ثمَّ قال: «**اللهمَّ أنت السَّلام، ومنك السَّلام، تباركتَ يا ذا الجلال والإكرام**».

وأمَرَه اللهُ سبحانه بالاستغفارِ بعد أداء الرِّسالة، والقيامِ بما عليه من أعبائها، وقضاءِ فرض الحجِّ والجهاد، واقترابِ أجله، فقال في آخر ما أنزل عليه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾[سورة النصر]. ومن هاهنا فَهِم عمر وابن عبَّاسٍ رضي الله عنهم أنَّ هذا أجلُ رسول الله ﷺ أعلَمَه به، فأمَره أن يستغفره عقيبَ أداء ما عليه[(٣)]، فكان إعلامَه بأنَّك قد أدَّيتَ ما عليك، ولم يبق عليك شيءٌ، فاجعل خاتمته الاستغفار، كما كان خاتمةَ الصلاة والحجِّ وقيام اللّيل، وخاتمةَ الوضوء

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٥١٠).

(٢) أخرجه مسلم (٥٩١، ٥٩٢)، من حديث ثوبان وعائشة رضي الله عنهما.

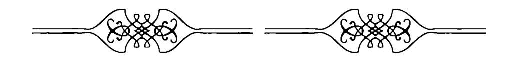
(٣) أخرجه البخاري (٣٦٢٧).

أيضًا إذ يقول بعد فراغه «**اللهمَّ اجعلني من التَّوَّابين، واجعلني من المتطهِّرين**»[(١)].

فهذا شأنُ مَن عرَف ما ينبغي لله ويليق بجلاله من حقوق العبوديَّة وشرائطها، لا جهلُ أصحاب الدَّعاوىٰ وشطحاتُهم.

وقال بعضُ العارفين: متىٰ رضيتَ نفسَك وعملَك لله، فاعلم أنَّه غيرُ راضٍ به. ومَن عرَفَ أنَّ نفسَه مأوىٰ كلِّ عيبٍ وسوء، وعملَه عُرْضةُ كلِّ آفةٍ ونقصٍ، كيف يرضىٰ لله نفسَه وعملَه؟

ولله درُّ الشَّيخ أبي مَدِين حيث يقول: من تحقَّق بالعبوديَّة نظَر أفعالَه بعين الرِّياء، وأحوالَه بعين الدعوىٰ، وأقوالَه بعين الافتراء[(٢)]. وكلَّما عظُم المطلوبُ في قلبك صغُرتْ عندك وتضاءلت القيمةُ التي تبذلها في تحصيله. وكلَّما شهدتَ حقيقةَ الرُّبوبيَّة وحقيقةَ العبوديَّة، وعرفتَ الله وعرفتَ النفس، تبيَّن لك أنَّ ما معك من البضاعة لا يصلح للمَلِك الحقِّ، وإنَّما يقبله بكرمه وجوده.



---

(١) أخرجه الترمذي (٥٥)، عن عمر ﷺ، وضعَّفه الترمذي، وأصله عند مسلم (٢٣٤) بدون هذه الجملة. ينظر: «نتائج الأفكار» (١/ ٢٣٨- ٢٤٤).

(٢) ذكره اليافعي في «مرآة الجنان» (٣/ ٣٥٥).

١/ ٢٧٠

فصل

جزاء التعيير بالمعصية الوقوع فيها

وقوله: (**وكلُّ معصيةٍ عيَّرتَ بها أخاك فهي إليك**).

يحتمل أن يريد به: أنّها صائرةٌ إليك ولا بدَّ أن تعملَها. وهذا مأخوذٌ من الحديث الذي رواه التِّرمذيُّ في «جامعه»[1] عن النبيِّ ﷺ: «**من عيَّر أخاه بذنبٍ لم يمُت حتّىٰ يعملَه**». قال الإمام أحمد رضي الله عنه في تفسيره: هذا من ذنبٍ قد تاب منه[2].

وأيضًا ففي التعيير ضربٌ خفيٌّ من الشَّماتة بالمعيَّر. وفي «التِّرمذيِّ»[3] أيضا مرفوعًا: «**لا تُظهِر الشَّماتةَ لأخيك، فيرحمَه الله ويبتليَك**».

ويحتمل أن يريد: أنَّ تعييرَك لأخيك بذنبه أعظمُ إثمًا من ذنبه وأشدُّ من معصيته، لما فيه من صَولة الطاعة، وتزكية النفس وشكرها، والمناداة عليها بالبراءة من الذنب، وأنَّ أخاك هو الذي باء به. ولعلَّ كَسْرتَه بذنبه، وما أحدَث له من الذِّلَّة والخضوع، والإزراءِ علىٰ نفسه، والتخلُّصِ من مرض الدَّعوىٰ والكبر والعجب، ووقوفِه بين يدي الله ناكسَ الرَّأس خاشعَ الطَّرْف منكسرَ القلب= أنفعُ له وخيرٌ له من صولةِ طاعتك، وتكثُّرِك بها، والاعتدادِ بها، والمنَّةِ علىٰ الله وخلقه بها. فما أقربَ هذا العاصيَ من رحمة الله! وما أقربَ هذا المُدِلَّ من مَقْت الله! فذنبٌ تَذِلُّ به لديه أحبُّ إليه من طاعةٍ تُدِلُّ بها عليه، وأنينُ المذنبين أحبُّ إليه من زَجَلِ المسبِّحين المُدِلِّين! ولعلَّ الله أسقاه بهذا الذنب دواءً استخرج به داءً قاتلًا هو فيك ولا تشعر.

---

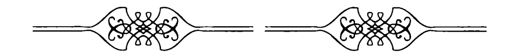
(١) برقم (٢٥٠٥)، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال الترمذي: «ليس إسناده بمتصل». وفيه أيضًا محمد بن الحسن الهمداني، متروك الحديث. وقد حكم عليه بالوضع: ابن الجوزي في «الموضوعات» (١٥١١).

(٢) نقله الترمذي بعد الحديث المذكور. قال: «قال أحمد: قالوا: من ذنبٍ قد تاب منه». وأحمد هنا: أحمد بن منيع أبو جعفر البغوي شيخ الترمذي.

(٣) برقم (٢٥٠٦)، وقال: حسن غريب، وضعَّفه الألباني في «الضعيفة» (٥٤٢٦).

فللّهِ في أهل طاعته ومعصيته أسرارٌ لا يعلمها إلّا هو. ولا يطالعها إلّا أهلُ البصائر، فيعرفون منها بقدر ما تناله معارفُ البشر، ووراء ذلك ما لا يطّلع عليه الكرام الكاتبون! فقد قال النبيُّ ﷺ: «**إذا زنَتْ أمَةُ أحدِكم، فليُقِمْ عليها الحدَّ ولا يُثرِّبْ**»(١). أي لا يعيِّرْ، من قول يوسف لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢]. فإنَّ الميزانَ بيد الله، والحكمُ لله، والسَّوطُ الذي ضُرِب به هذا العاصي بيد مقلِّب القلوب، والقصدُ: إقامةُ الحدِّ لا التعيير والتثريب.

ولا يأمن كرَّاتِ القدر وسطواتِه إلّا أهلُ الجهل بالله. وقد قال تعالىٰ لأعلم الخلقِ وأقربهم إليه وسيلةً: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤]. وقال يوسف الصِّدِّيق: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾[يوسف: ٣٣]. وكان عامَّةُ يمين رسول الله ﷺ: «**لا، ومقلِّبِ القلوب**»(٢). وقال: «**ما من قلبٍ إلّا وهو بين إصبَعَين من أصابع الرَّحمن، إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يُزيغه أزاغه**». ثمَّ قال: «**اللهمَّ مقلِّبَ القلوب ثبِّت قلوبنا علىٰ دينك**»(٣)، «**اللهمَّ مصرِّفَ القلوب صرِّف قلوبنا علىٰ طاعتك**»(٤).



---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٣٤)، ومسلم (١٧٠٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٦١٧)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه أحمد (١٧٦٣٠)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٧٦٩١)، وابن ماجه (١٩٩)، من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه. وصححه ابن خزيمة في «التوحيد» (١٣٢)، وابن حبان (٩٤٣)، والحاكم (١/ ٥٢٥).

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٥٤)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

١/ ٢٧٦

فصل

منزلة التوبة

فإذا صحَّ له هذا المقامُ، ونزَل في هذه المنزلة، أشرف منها علىٰ مقام التَّوبة، لأنَّه بالمحاسبة قد تميَّز عنده ما له ممَّا عليه، فليجمع علىٰ التشمير إليه والنُّزول فيه إلىٰ الممات.

ومنزلة التوبة أوَّل المنازل وأوسطها وآخرها، فلا يفارقه العبد، ولا يزال فيه إلىٰ الممات. وإن ارتحل إلىٰ منزلٍ آخر ارتحل به ونزل به. فالتّوبة هي بداية العبد ونهايته، وحاجتُه إليها في النِّهاية ضروريَّةٌ، كما حاجتُه إليها في البداية كذلك.

وقد قال تعالىٰ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[النور: ٣١]. وهذه الآية في سورةٍ مدنيَّةٍ، خاطب بها أهلَ الإيمان وخيارَ خلقه أن يتوبوا إليه بعد إيمانهم وصبرهم وهجرتهم وجهادهم، ثمَّ علَّقَ الفلاحَ بالتَّوبة تعليقَ المسبَّبِ بسببه، وأتىٰ بأداة «لعلّ» المُشعِرة بالتَّرجِّي إيذانًا بأنَّكم إذا تبتم كنتم علىٰ رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاحَ إلَّا التائبون؛ جعلَنا الله منهم!

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[الحجرات: ١١]. فقسَّم العبادَ إلىٰ تائبٍ وظالمٍ، وما ثَمَّ قسمٌ ثالثٌ البتَّة. وأوقع اسمَ الظَّالم علىٰ من لم يتُب، ولا أظلَمَ منه لجهله بربِّه وبحقِّه، وبعيبِ نفسه وآفاتِ أعماله.

وفي «الصحيح»[(١)] عنه ﷺ أنّه قال: «**يا أيُّها الناس، توبوا إلىٰ الله، فواللهِ إنِّي لَأتوب إليه في اليوم أكثرَ من سبعين مرَّةً**».

---

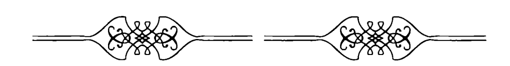
(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٧)، من حديث أبي هريرة، ومسلم (٢٧٠٢)، من حديث الأغرِّ المزني رضي الله عنهما.

وكان أصحابُه يعدُّون له في المجلس الواحد قبل أن يقوم: «**ربِّ اغفر لي وتُبْ عليَّ إنّك أنت التوَّاب الغفور**» مائة مرّةٍ[(١)].

وما صلَّىٰ صلاةً قطُّ بعدَ إذ أُنزلت عليه ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ إلىٰ آخرها، إلَّا قال في صلاته: «**سبحانك اللهمَّ ربَّنا وبحمدك، اللهمَّ اغفر لي**»[(٢)].

وصحَّ عنه أنَّه قال: «**لن يُنْجيَ أحدًا منكم عملُه**». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلَّا أن يتغمَّدني الله برحمةٍ منه وفضلٍ**»[(٣)].

فصلواتُ الله وسلامُه علىٰ أعلمِ الخلق بالله وحقوقه وعظمته وما يستحقُّه جلالُه من العبوديّة، وأعرفِهم بالعبوديَّة وحقوقها وأقوَمِهم بها.



---

(١) أخرجه أحمد (٤٧٢٦)، وأبو داود (١٥١٦)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١٠٢١٩)، والترمذي (٣٤٣٤)، وابن ماجه (٣٨١٤)، وصححه الترمذي، وابن حبان (٩٢٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٦٧)، ومسلم (٤٨٤).

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦).

١/ ٢٧٦

فصل

حقيقة التوبة الهداية إلىٰ الصراط المستقيم

ولمَّا كانت التَّوبةُ هي رجوعَ العبد إلىٰ الله ومفارقتَه لصراط المغضوب عليهم والضَّالِّين، وذلك لا يحصل إلَّا بهداية الله تعالىٰ له إلىٰ الصِّراط المستقيم، ولا تحصل هدايته إلَّا بإعانته وتوحيده= انتظمَتْها سورةُ الفاتحة أحسنَ انتظامٍ، وتضمَّنَتها أبلغَ تضمُّنٍ.

فمن أعطىٰ الفاتحةَ حقَّها علمًا وشهودًا وحالًا ومعرفةً عَلِمَ أنّه لا يصحُّ له قراءتُها علىٰ العبوديَّة إلَّا بالتوبة النَّصوح، فإنَّ الهدايةَ التامَّةَ إلىٰ الصِّراط المستقيم لا تكون مع الجهل بالذُّنوب، ولا مع الإصرار عليها، فإنَّ الأوّلَ جهلٌ ينافي معرفةَ الهدىٰ، والثاني غَيٌّ ينافي قصدَه وإرادتَه. فلذلك لا تصحُّ التوبةُ إلّا بعد معرفة الذنب، والاعتراف به، وطلبِ التخلُّص من سوء عواقبه.

قال في «المنازل»[(١)]: (**وهي أن تنظر في الذنب إلىٰ ثلاثة أشياء: إلىٰ انخلاعِك من العصمة حين إتْيانِه، وفرَحِك عند الظَّفَر به، وقعودِك علىٰ الإصرار عن تداركه، مع تيقُّنك نظرَ الحقِّ إليك**).

يحتمل أن يريد بالانخلاع عن العصمة انخلاعَه عن اعتصامه بالله، فإنَّه لو اعتصم به لما خرج عن هداية الطاعة. قال تعالىٰ: ﴿**وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾[آل عمران: ١٠١]. فلو كمُلَت عصمتُه بالله لم يخذُلْه أبدًا. قال تعالىٰ: ﴿**وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ**﴾[الحج: ٧٨]. أي متىٰ اعتصمتم به تولَّاكم ونصَركم، ومِن نصرِه لكم: نصرُكم علىٰ أنفسكم وعلىٰ الشيطان، وهما العدوَّان اللَّذان لا يفارقان، وعداوتُهما أضرُّ من عداوة

(١) «منازل السائرين» (ص٩- ١٠).

العدوِّ الخارج؛ فالنَّصرُ علىٰ هذا العدوِّ أهمُّ، والعبدُ إليه أحوجُ. وكمالُ النُّصرة عليه بحسب كمال الاعتصام بالله. وسيأتي الكلام إن شاء الله بعدَ هذا في حقيقة الاعتصام وأنَّ الإيمانَ لا يقوم إلَّا به.

ويحتمل أن يريد الانخلاعَ من عصمة الله له، وأنَّك إنَّما ارتكبتَ الذنبَ بعد انخلاعك من ثوبِ عصمتِه لك. فمتىٰ عرَفَ هذا الانخلاع عظُم خطرُه عنده، واشتدَّ عليه مفارقتُه، وعلِمَ أنَّ الهُلْكَ كلَّ الهُلْكِ بعده. وهو حقيقةُ الخِذلان، فما خلَّىٰ الله بينك وبين الذَّنب إلَّا بعد أن خَذَلك، وخلَّىٰ بينك وبين نفسك. ولو عصَمك ووفَّقك لما وجد الذنبُ إليك سبيلًا. فقد أجمع العارفون بالله علىٰ أنَّ الخِذْلانَ: أن يخلِّيَ الله بينك وبين نفسك، والتّوفيقَ: أن لا يَكِلَك اللهُ إلىٰ نفسك. وله سبحانه في هذه التَّخليةِ بينك وبين الذنب وخذلانِك حين واقَعْتَه حِكَمٌ وأسرارٌ، سنذكر بعضها.

وعلىٰ الاحتمالين، فترجع التوبة إلىٰ اعتصامك به وعصمته لك.

قوله: (**وفرحِك عند الظَّفر به**). الفرحُ بالمعصية دليلُ شدَّةِ الرَّغبة فيها، والجهلِ بقَدْر مَن عصاه، والجهلِ بسوء عاقبتها وعظم خطرها= ففرحُه بها غطَّىٰ عليه ذلك كلَّه. وفرحُه بها أشدُّ ضررًا عليه من مُواقعتها. والمؤمنُ لا تتمُّ لذَّتُه بمعصيته أبدًا، ولا يكمُل بها فرحُه؛ بل لا يباشرها إلَّا والحزنُ مخالطٌ لقلبه، ولكنَّ سُكْرَ الشَّهوة يحجبه عن الشُّعور به. ومتىٰ خلا قلبُه من هذا الحزن واشتدَّت غبطتُه وسرورُه فليتَّهِمْ إيمانَه، وليَبْكِ علىٰ موتِ قلبه؛ فإنَّه لو كان حيًّا لأحزنه ارتكابُه للذَّنب، وغاظه، وصعب عليه، ولَأَحَسَّ القلبُ بذلك؛ فحيث لم يُحِسَّ به فـ«ما لجُرْحٍ بميِّتٍ إيلامُ»[1].

وهذه النُّكتةُ في الذنب قلَّ مَن يهتدي لها أو يتنبَّه عليها. وهي موضعٌ مخوفٌ

---

(١) عجز بيت للمتنبي في «ديوانه» (ص١٤٩)، وصدره: من يَهُنْ يسهُلِ الهوانُ عليه.

جدًّا، مترام إلىٰ هلاكٍ إن لم يُتدارَكْ بثلاثة أشياء: خوفٍ من الموافاة عليه قبل التوبة، وندمٍ علىٰ ما فاته من الله بمخالفة أمره، وتشميرٍ للجدِّ في استدراكه.

قوله: **(وقعودِك علىٰ الإصرار عن تداركه)**. الإصرار هو الاستقرارُ علىٰ المخالفة، والعزمُ علىٰ المعاودة. وذلك ذنبٌ آخر، لعلَّه أعظَمُ من الذّنب الأوَّل بكثيرٍ. وهذا من عقوبة الذَّنب أنَّه يُوجِب ذنبًا أكبرَ منه، ثم الثَّاني كذلك، ثم الثَّالث كذلك، حتّىٰ يستحكم الهلاك. فالإصرارُ علىٰ المعصية معصيةٌ أخرىٰ. فالقعودُ عن تدارك الفارط من المعصية إصرارٌ، ورضًا بها، وطمأنينةٌ إليها، وذلك علامةُ الهلاك.

وأشدُّ من هذا كلِّه: المجاهرةُ بالذنب مع تيقُّنِ نظرِ الربِّ جلَّ جلالُه من فوق عرشه إليه. فإن آمَنَ بنظره إليه وأقدَمَ علىٰ المجاهرة فعظيمٌ، وإن لم يُؤمن بنظره إليه واطِّلاعه عليه فكفرٌ وانسلاخٌ من الإسلام بالكلِّيّة. فهو دائرٌ بين الأمرين: بين قلَّة الحياء ومجاهرة نظر الله إليه، وبين الكفر والانسلاخ من الدِّين. فلذلك يشترط في صحَّة التوبة تيقُّنُه أنَّ اللهَ كان ناظرًا إليه، مطَّلعًا عليه، يراه جَهْرةً عند مواقعة الذنب، لأنَّ التّوبةَ لا تصحُّ إلّا من مسلمٍ؛ إلّا أن يكون كافرًا بنظر الله إليه جاحدًا له، فيكون توبتُه دخولَه في الإسلام وإقرارَه بصفات الربِّ جلّ جلاله.

قال: **(وشرائطُ التَّوبة ثلاثةٌ: النَّدم، والإقلاع، والاعتذار)**.

فحقيقة التوبة: هي الندمُ علىٰ ما سلف منه في الماضي، والإقلاعُ عنه في الحال، والعزمُ علىٰ أن لا يعاوده في المستقبل. والثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التَّوبة، فإنَّه في ذلك الوقت يندَم، ويُقلِع، ويَعزِم. فحينئذٍ يرجع إلىٰ العبوديَّة التي خُلِق لها، وهذا الرُّجوعُ هو حقيقة التَّوبة. ولمَّا كان متوقِّفًا علىٰ تلك الثلاثة جُعلت شرائط له.

فأمَّا الندم، فإنَّه لا تتحقَّق التَّوبةُ إلَّا به، إذ من لم يندَم علىٰ القبيح فذلك دليلٌ

علىٰ رضاه به وإصراره عليه. وفي «المسند»[١]: «**الندم توبةٌ**».

وأمَّا الإقلاع، فتستحيل التَّوبة مع مباشرة الذَّنب.

وأمَّا الاعتذار، ففيه إشكالٌ، فإنَّ من الناس من يقول: من تمام التوبة تركُ الاعتذار، فإنَّ الاعتذارَ مُحاجَّةٌ عن الجناية، وتركَ الاعتذار اعترافٌ بها، ولا تصحُّ التّوبة إلَّا بعد الاعتراف. وفي ذلك يقول بعضُ الشُّعراء لرئيسه، وقد عتب عليه في شيءٍ:

وما قابلتُ عَتْبَك باعتذارٍ ولكنِّي أقولُ كما تقولُ

وأطرُقُ بابَ عفوك بانكسارٍ ويحكمُ بيننا الخلُقُ الجميلُ[٢]

فلمَّا سمع الرّئيس مقالته قام وركب إليه من فوره، وأزال عتبه عليه. فتمامُ الاعترافِ تركُ الاعتذار، بأن يكون في قلبه ولسانه[٣]: اللهمَّ لا عذرَ لي، وإنَّما هو محضُ حقِّك، ومحضُ جنايتي، فإن عفوتَ وإلَّا فالحقُّ لك.

والّذي يظهر لي من كلام صاحب «المنازل» أنّه أراد بالاعتذار إظهارَ الضَّعفِ والمسكنةِ، وغلبةِ العدوِّ، وقوَّةِ سلطان النّفس، وأنَّه لم يكن منِّي ما كان استهانةً بحقِّك، ولا جهلًا به، ولا إنكارًا لاطِّلاعك عليَّ، ولا استهانةً بوعيدك؛ وإنَّما كان عن غلباتِ الهوىٰ، وضعفِ القوَّة عن مقاومة مرض الشهوة، وطمعًا في مغفرتك، واتِّكالًا علىٰ عفوك، وحسنَ ظنٍّ بك، ورجاءً لكرمك، وطمعًا في سعة حلمك ورحمتك. وغرَّني بك الغرورُ، والنفسُ الأمّارةُ بالسُّوء، وأعانني جهلي. ولا سبيلَ لي إلىٰ الاعتصام إلَّا بك، ولا معونةَ علىٰ طاعتك إلَّا بتوفيقك، ونحوَ

---

(١) برقم (٣٥٦٨)، من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ، ولا ينزل عن درجة الحسن إن شاء الله. انظر: تعليق محققي «مسند أحمد» (٣٥٦٨).

(٢) البيتان في «غرر الخصائص الواضحة» (ص٤٩١)، و«ديوان الصبابة» (ص٥٩).

(٣) مأخوذ من كلام عمرو بن العاص ﷺ عند وفاته. انظر: «العاقبة في ذكر الموت» (ص١٢٥).

هـذا مـن الـكلام المتضمِّـن للاستعطاف والتذلُّـل والافتقـار، والاعـتراف بالعجـز، والإقـرار بالعبوديَّة. فهـذا مـن تمام التَّوبة. وإنَّما يسـلكه الأكيـاس المتملِّقون لربِّهم، والله يحـبُّ أن يُتَملَّـق لـه.

قـال صاحـب «المنـازل»[١]: (وحقائـق التوبـة ثلاثـة أشـياء: **تعظيـمُ الجنايـة، واتِّهـامُ التوبـة، وطلـبُ أعـذار الخليقـة**).

يريـدون بالحقائـق: مـا يتحقَّـق بـه الشَّـيءُ، ويتبيَّـن صحَّتُـه وثبوتُـه، كمـا قـال النبـيُّ ﷺ لحارثـة[٢]: «**إنّ لـكلِّ حـقٍّ حقيقـةً، فمـا حقيقـةُ إيمانـك؟**»[٣].

فأمَّا تعظيـم الجناية، فإنَّـه إذا استهان بها لـم يندم عليهـا، وعلىٰ قـدر تعظيمها يكـون ندمُـه علىٰ ارتكابها. فإنَّ مَـن استهان بإضاعـة فَلْسٍ مثلًا لـم ينـدم علىٰ إضاعتـه، فـإذا علـم أنّـه دينـارٌ اشـتدَّ ندمُـه، وعظمـت إضاعتُـه عنـده. وتعظيـمُ الجناية يصـدر عـن ثلاثـة أشـياء: تعظيـمِ الأمـر، وتعظيـمِ الآمِـر، والتَّصديـق بالجـزاء.

وأمَّا اتِّهامُ التوبة، فلأنَّها حقٌّ عليه، ولا يتيقَّن أنَّه أدَّىٰ هذا الحقَّ علىٰ الوجه المطلوب منه، الذي ينبغي له أن يؤدِّيه عليه، فيخاف أنَّه ما وفَّاها حقَّها، وأنَّها لم تُقبَل منه، وأنَّه لم يبذل جهدَه في صحَّتها، أو أنَّها توبةُ علَّةٍ وهو لا يشعر بها، كتوبة أرباب الجوائح والإفلاس، والمحافظين علىٰ جاهاتهم ومنازلهم بين الناس، أو أنَّه تاب محافظةً علىٰ حاله، فتاب للحال لا خوفًا من ذي الجلال، أو أنَّه تاب طلبًا للرَّاحة من الكدِّ في تحصيل الذَّنب، أو إبقاءً علىٰ عِرضه وماله ومنصبه، أو لضعفِ داعي المعصية في قلبه وخمودِ نار شهوته، أو لمنافاة المعصية لما يطلبه من العلم والرِّزق، ونحو ذلك

(١) «منازل السائرين» (ص١٠).

(٢) كذا، ولكن في أغلب المصادر: «الحارث بن مالك».

(٣) رُوي منقطعًا من رواية عدد من أتباع التابعين عن النبي ﷺ. ينظر: «مصنف عبد الرزاق» (٢٠٠١٤)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (٣١٠٦٤). ورُوي مسندًا من حديث أنس بن مالك ﷺ، كما في «مسند البزار» (١٣/ ٣٣٣)، وقد ضعَّفه العراقي في «تخريج الإحياء».

من العلل التي تقدَح في كونِ التَّوبةِ خوفًا من الله تعالىٰ، وتعظيمًا له ولحرماته، وإجلالًا له، وخشيةً من سقوط المنزلة عنده ومن البعد والطَّرد عنه والحجاب عن رؤية وجهه في الدار الآخرة. فهذه التَّوبةُ لونٌ، وتوبةُ أصحاب العلل لونٌ.

ومن اتِّهام التوبة أيضًا: ضعفُ العزيمة، والتفاتُ القلب إلىٰ الذَّنب اللَّفْتَةَ بعد اللَّفْتةِ، وتذكُّرُ حلاوة مواقعته، فربَّما تنفَّسَ، وربَّما هاج هائجُه.

ومن اتِّهام التوبة: طمأنينتُه ومعرفتُه من نفسه بأنَّه قد تاب، حتَّىٰ كأنَّه قد أُعطِيَ منشورًا بالأمان! فهذا من علامات التُّهمة.

ومن علاماتها: جمودُ العين، واستمرارُ الغفلة، وأنه لم يَستحدِثْ بعد التّوبة أعمالًا صالحةً لم تكن له قبلُ.

فالتوبة المقبولة الصحيحة لها علاماتٌ:

منها: أن يكون بعد التوبة خيرًا ممَّا كان قبل الخطيئة.

ومنها: أنَّه لا يزال الخوف مصاحبًا له، لا يأمن طرفةَ عين. فخوفُه مستمرٌّ إلىٰ أن يسمع قولَ الرُّسل لقبض روحه: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[فصلت: ٣٠]، فهناك يزول الخوف.

ومنها: انخلاعُ قلبه، وتقطُّعُه ندَمًا وخوفًا. وهذا علىٰ قدر عِظَمِ الجناية وصِغَرِها. وهذا تأويل ابن عيينة لقوله تعالىٰ: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾[التوبة: ١١٠] قال: تقطُّعها بالتوبة[١]. ولا ريب أنَّ الخوفَ الشديدَ من العقوبة العظيمة يُوجِب انصداعَ القلب وانخلاعَه، وهذا هو تقطُّعُه، وهذا حقيقةُ التَّوبة، لأنَّه يتقطَّع قلبُه حسرةً علىٰ ما فرَط منه، وخوفًا من سوء عاقبته. فمن لم يتقطَّع قلبُه في الدُّنيا علىٰ ما فرَّط حسرةً وخوفًا، تقطَّع في

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٨٦).

الآخرة إذا حقَّت الحقائقُ، وعاين ثوابَ المطيعين، وعقابَ العاصين. فلا بدَّ من تقطُّعِ القلب إمَّا في الدُّنيا وإمَّا في الآخرة.

ومن موجَبات التوبةِ الصحيحةِ أيضًا: كَسْرةٌ خاصَّةٌ تحصل للقلب لا يشبهها شيءٌ. ولا تكون لغير الذنب، لا تحصل بجوعٍ، ولا رياضةٍ، ولا حبٍّ مجرَّدٍ. وإنَّما هي أمرٌ وراء هذا كلِّه، تُكسِّر القلبَ بين يدي ربِّه كسرةً تامَّةً قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقَتْه بين يدي ربِّه طريحًا ذليلًا خاشعًا، كحال عبدٍ جانٍ آبقٍ من سيِّده، فأُخِذَ، وأُحضِرَ بين يديه، ولم يجد مَن يُنجيه من سطوته، ولم يجد منه بدًّا ولا عنه غَناءً ولا منه مهربًا، وعلِم أنَّ حياته وسعادته وفلاحه ونجاته في رضاه عنه، وقد علِمَ إحاطةَ سيِّده بتفاصيل جناياته. هذا مع حبِّه لسيِّده، وشدَّةِ حاجته إليه، وعلمِه بضعفِه وعجزِه وقوَّةِ سيِّده، وذُلِّه وعِزِّ سيِّده. فيجتمع من هذه الأحوال كَسْرةٌ وذلَّةٌ وخضوعٌ، ما أنفعَها للعبد! وما أجزلَ عائدَها عليه! وما أعظمَ جبرَه بها! وما أقربَه بها من سيِّده! فليس شيءٌ أحبَّ إلىٰ سيِّده من هذه الكسرة والخضوع والتذلُّل والإخبات، والانطراح بين يديه، والاستسلام له!

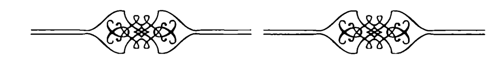
فللهِ ما أحلىٰ قولَه في هذه الحال: أسألك بعزِّك وذلِّي لك إلَّا رحمتَني. أسألك بقوَّتك وضعفي، وبغناك عنِّي وفقري إليك. هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك. عبيدُك سواي كثيرٌ، وليس لي سيِّدٌ سواك. لا ملجأ ولا منجىٰ منك إلَّا إليك. أسألك مسألةَ المسكين، وأبتهل إليك ابتهالَ الخاضع الذليل، وأدعوك دعاءَ الخائف الضَّرير، سؤالَ من خضعَتْ لك رقبتُه، ورغِمَ لك أنفُه، وفاضت لك عيناه، وذلَّ لك قلبُه.

يا مَن ألوذُ به فيما أؤمِّلُه ... ومَن أعوذ به فيما أُحاذِرُهُ
لا يجبُر الناسُ عظمًا أنت كاسرُه ... ولا يَهِيضُون عَظْمًا أنت جابرُهُ[1]

(١) البيتان للمتنبي في «ديوانه» (ص٣٨- ٣٩).

فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة. فمن لم يجد ذلك في قلبه فليتَّهِمْ توبتَه، وليرجع إلىٰ تصحيحها. فما أصعبَ التوبةَ الصّحيحةَ بالحقيقة! وما أسهلَها باللِّسان والدعوىٰ! وما عالج الصادقُ شيئًا أشقَّ عليه من التوبة الصّادقة الخالصة، فلا حول ولا قوَّة إلّا بالله.

وأكثر الناس المتبرِّئين عن الكبائر الحسِّيَّة والقاذوراتِ= في كبائرَ مثلِها أو أعظمَ منها أو دونَها، ولا يخطر بقلوبهم أنَّها ذنوبٌ ليتوبوا منها! فعندهم من الإزراءِ علىٰ أهل الكبائر واحتقارِهم، وصَولةِ طاعاتهم عليهم، ومنَّتِهم علىٰ الخلق بلسان الحال، واقتضاءِ بواطِنهم لتعظيم الخلق لهم علىٰ طاعاتهم اقتضاءً لا يخفىٰ علىٰ أحدٍ غيرهم، وتوابعِ ذلك= ما هو أبغَضُ إلىٰ الله تعالىٰ وأبعَدُ لهم عن بابه من كبائر أولئك. فإن تدارك الله أحدَهم بقاذورةٍ أو كبيرةٍ تُوقِعُه ليَكْسِر بها نفسَه، ويعرِّفه بها قدرَه، ويُذِلَّه بها، ويُخرِجَ بها صولةَ الطاعة من قلبه= فهي رحمةٌ في حقِّه، كما أنَّه إذا تدارك أصحابَ الكبائر بتوبةٍ نصوحٍ وإقبالٍ بقلوبهم إليه، فهو رحمةٌ في حقِّهم، وإلَّا فكلاهما علىٰ خطرٍ.



١/ ٢٩٠

فصل

إعذار الخلق بحجة جريان القدر عليهم

وأمَّا طلب أعذار الخليقة، فهذا له وجهان: وجهٌ محمودٌ، ووجهٌ مذمومٌ حرامٌ.

فالمذموم: أن يطلب أعذارَهم نظرًا إلىٰ الحكم القدَريِّ وجريانِه عليهم، شاؤوا أم أبوا، فيعذِرَهم بالقدَر.

وهذا الشُّهودُ شهودٌ ناقصٌ مذمومٌ. إن طرَدَه صاحبُه، فعذَر أعداءَ الله وأهلَ مخالفته ومخالفة رسله، وطلَب أعذارهم= كان مضادًّا لله في أمره، عاذرًا من لم يعذِرْه الله، طالبًا عذرَ من لامه الله وأمَر بلَومِه. وليست هذه موافقةً لله، بل موافقتُه لومُ هذا، واعتقادُ أنَّه لا عذر له عند الله ولا في نفس الأمر. فالله ﷻ قد أعذَر إليه، وأزال عذرَه بالكلِّيَّة. ولو كان معذورًا في نفس الأمر عند الله لما عاقبه البتَّة، فإنَّ الله أرحَمُ وأغنىٰ وأعدَل من أن يعاقب صاحبَ عذرٍ، فـ«لا أحدَ أحبُّ إليه العذرُ من الله، ومن أجل ذلك أرسل الرُّسل وأنزل الكتب»[1] إزالةً لأعذار خلقه، لئلاَّ يكون لهم عليه حجَّةٌ. ومعلومٌ أنَّ طالبَ عذرهم ومُصحِّحَه مقيمٌ لحجَّةٍ قد أبطلها الله من جميع الوجوه!

فلِله الحجَّة البالغة؛ أرسل إليه رسولَه يدعوه إلىٰ دار كرامته، فعصىٰ الرَّسولَ، وقال: لا أبيع ناجزًا بغائبٍ، ونقدًا بنسيئةٍ، ولا أترك ما أراه لشيءٍ سمعتُ به! فإن وافق حظُّه طاعةَ الرسول أطاعه لنيل حظِّه، لا لرضىٰ مُرْسِله!

لم يزل يتمقَّت إليه بمعاصيه، حتَّىٰ أعرض عنه وأغلق البابَ في وجهه. ومع

---

(١) كما في حديث ابن مسعود ﷺ عند مسلم (٢٧٦٠) بنحوه. وأخرجه البخاري (٧٤١٦)، ومسلم (١٤٩٩) من حديث المغيرة ﷺ بنحوه.

هذا فلم يُؤيِسْه من رحمته، بل قال: متىٰ جئتَني قبلتُك، إن أتيتَني ليلًا قبلتُك، وإن أتيتَني نهارًا قبلتُك. و«**إن تقرَّبتَ منِّي شبرًا تقرَّبتُ منك ذراعًا، وإن تقرَّبتَ منِّي ذراعًا تقرَّبتُ منك باعًا، وإن مشيتَ إليَّ هرولتُ إليك**»[(١)]. «**ولو لقيتَني بقُرابِ الأرض خطايا، ثمَّ لقيتَني لا تشرك بي شيئًا، أتيتُك بقُرابها مغفرةً. ولو بلغت ذنوبُك عَنانَ السَّماءِ، ثمَّ استغفرتَني غفرتُ لك**»[(٢)].

ومَن أعظمُ منِّي جودًا وكرمًا؟ عبادي يبارزوني بالعظائم، وأنا أكلؤهم علىٰ فُرُشهم[(٣)]!

«**إنِّي والإنسَ والجِنَّ في نبأٍ عظيم: أخلُقُ ويُعبَدُ غيري، وأرزُقُ ويُشْكَر سواي!**»[(٤)]. خيري إلىٰ العباد نازلٌ، وشرُّهم إليَّ صاعدٌ! أتحبَّب إليهم بنعمي وأنا الغنيُّ عنهم، ويتبغَّضون إليَّ بالمعاصي وهم أفقر شيءٍ إليَّ[(٥)]!

من أقبل إليَّ تلقَّيتُه من بعيدٍ، ومن تركَ لأجلي أعطيتُه فوق المزيد، ومن أراد رضاي أردتُ ما يريد، ومن تصرَّف بحَولي ألَنْتُ له الحديد.

أهلُ ذكري أهلُ مجالستي، وأهلُ شكري أهلُ زيادتي، وأهلُ طاعتي أهل كرامتي. وأهلُ معصيتي لا أقنِّطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبُهم، فإنِّي

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥)، من حديث أبي هريرة ﵁.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠)، من حديث أنس بن مالك. وقد أخرج مسلم (٢٦٨٧) بعضَه من طريق آخر عن أبي ذر مرفوعًا، ولفظه: «... ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئًا لقيته بمثلها مغفرة».

(٣) انظر نحوه في «الحلية» (٨/ ٩٢- ٩٣)، عن الفضيل بن عياض.

(٤) أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٩٨٣- دار النوادر)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٢٤٣)، وعبد الغني المقدسي في «التوحيد» (٨٩)، من حديث أبي الدرداء مرفوعًا، وإسناده منقطع. وانظر: «الضعيفة» (٢٣٧١).

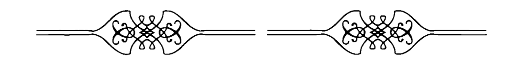
(٥) أخرجه بنحوه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (١٨١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٧)، عن وهب بن منبِّه أنه قرأ ذلك في بعض الكتب المتقدمة.

أحبُّ التّوَّابين وأحبُّ المتطهِّرين. وإن لم يتوبوا فأنا طبيبُهم، أبتليهم بالمصائب لأطهِّرهم من المعايب.

مَن آثرني علىٰ سواي آثرتُه علىٰ سواه. الحسنةُ عندي بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعفٍ، إلىٰ أضعافٍ كثيرةٍ. والسيِّئة عندي بواحدةٍ، فإن ندم عليها واستغفرني غفرتُها له.

أشكر اليسيرَ من العمَل، وأغفر الكثيرَ من الزَّلَل. رحمتي سبقت غضبي، وحلمي سبَقَ مؤاخذتي، وعفوي سبَقَ عقوبتي. أنا أرحم بعبادي من الوالدة بولدها[(١)].

فهذا شأنُ الربِّ وشأنُ العبيد، وهم يقيمون أعذارَ أنفسهم، ويحملون ذنوبَهم علىٰ أقداره.



(١) كما جاء في حديث عمر رضي الله عنه، أخرجه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).

١/ ٣٠٥

فصل

من تمام العبودية الإعراض عن إساءة الخلق

فهذا أحد المعنيين في قوله: (إنَّ من حقائق التوبة طلبَ أعذار الخليقة). وقد ظهر لك بهذا أنَّ طلب أعذارهم في الجناية عائدٌ علىٰ التوبة بالنَّقض والإبطال.

والمعنىٰ الثاني: أن يكون مرادُه إقامةَ أعذارهم في إساءتهم إليك وجنايتهم عليك، والنظرَ في ذلك إلىٰ الأقدار، وأنَّ أفعالهم بمنزلة حركات الأشجار، فتعذِرَهم بالقَدَر في حقِّك، لا في حقِّ ربِّك. فهذا حقٌّ، وهو من شأن سادات العارفين وخواصِّ أولياء الله الكمَّل، يفنىٰ أحدهم عن حقِّه، ويستوفي حقَّ ربِّه. ينظر في التفريط في حقِّه والجناية عليه إلىٰ القدَر، وينظر في حقِّ الله إلىٰ الأمر، فيطلب لهم العذرَ في حقِّه، ويمحو عنهم العذرَ ويُبطله في حقِّ الله.

وهذه كانت حال نبيِّنا ﷺ، كما قالت عائشة ﵂: ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قطُّ، ولا نيل منه شيءٌ فانتقم لنفسه، إلّا أن تُنتهَك محارمُ الله. فإذا انتُهِكَتْ محارمُ الله لم يقُمْ لغضبه شيءٌ، حتَّىٰ ينتقم لله[1].

وقالت عائشة ﵂ أيضًا: ما ضرَبَ رسولُ الله ﷺ بيده خادمًا ولا دابّةً ولا شيئًا قطُّ، إلَّا أن يُجاهِدَ في سبيل الله[2].

فهذا المعنىٰ الثاني وإن كان حقًّا لكن ليس من شرائط التوبة ولا أركانها، ولا له تعلُّقٌ بها؛ فإنَّه لو لم يُقِمْ أعذارَهم في إساءتهم إليه لما نقَصَ ذلك شيئًا من توبته.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٦٠)، ومسلم (٢٣٢٧).
(٢) أخرجه مسلم (٢٣٢٨).

١/ ٣١٥

فصل

متىٰ ينفع التائب أن يتذكر تقصيره

ونسيان الجناية، قد اختلف فيه أرباب الطَّريق:

فمنهم: من رأىٰ الاشتغالَ عن ذكر الذَّنب والإعراضَ عنه صفحًا بصفاءِ الوقت مع الله تعالىٰ أولىٰ بالتائب وأنفعَ له. ولهذا قيل: ذكرُ الجفاء في وقتِ الصَّفاء جفاءٌ[1].

ومنهم من رأىٰ أنَّ الأَولىٰ أن لا ينسىٰ ذنبه، بل لا يزال نُصْبَ عينيه، يلاحظُه كلَّ وقتٍ، فيُحدِث له ذلك انكسارًا وذلًّا وخضوعًا أنفَعَ له من جمعيَّته وصفاء وقته.

قالوا: ولهذا كان نَقَشَ داودُ الخطيئةَ في كفِّه، وكان ينظر إليها ويبكي[2].

قالوا: ومتىٰ تِهْتَ عن الطَّريق، فارجع إلىٰ ذنبك تجدِ الطَّريق.

ومعنىٰ ذلك: أنَّك إذا رجعتَ إلىٰ ذنبك انكسرتَ وذللتَ، وأطرقتَ بين يدي الله خاشعًا ذليلًا خائفًا، وهذه طريق العبوديَّة.

والصّوابُ: التفصيلُ في هذه المسألة، وهو أن يقال: إذا أحسَّ من نفسه حالَ الصَّفاء غَيْمًا من الدعوىٰ ورقيقةً من العُجْب[3] ونسيانِ المِنَّة، وخطَفَتْه نفسُه عن حقيقة فقره ونقصه، فذكرُ الذنب أنفع له. وإن كان في حال مشاهدةِ منَّة الله عليه، وكمالِ افتقاره إليه، وقيامِه به، وعدمِ استغنائه عنه في ذرَّةٍ من ذرَّاته، وقد خالط

(١) من كلام الجنيد في قصة له مع السَّري السَّقَطي، انظر: «حلية الأولياء» (١٠/ ٢٧٤)، و«الرسالة القشيرية» (ص٣٠١).

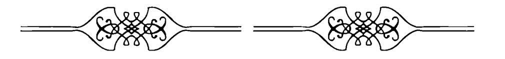
(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٤٨٩)، وابن جرير في «التفسير» (٢٠/ ٦٩)، عن عطاء الخراساني.

(٣) يعني: شيئًا يسيرًا منه.

قلبَه حالُ المحبَّةِ والفرحِ بالله، والأنسِ به، والشَّوقِ إلىٰ لقائه، وشهودِ سعةِ رحمته وحلمه وعفوه، وقد أشرقَتْ علىٰ قلبه أنوارُ الأسماء والصِّفات= فنسيانُ الجناية والإعراض عن الذنب أولىٰ به وأنفع له، فإنَّه متىٰ رجع إلىٰ ذكر الجناية تواریٰ عنه ذلك، ونزل من عُلْوٍ إلىٰ سُفْلٍ، ومن حالٍ إلىٰ حالٍ بينهما من التفاوت أبعَدُ ما بين السَّماء والأرض. وهذا من حسد الشيطان له، أراد أن يحُطَّه عن مقامه وسَيْرِ قلبه في ميادين المعرفة والمحبَّة والشّوق إلىٰ وحشة الإساءة وحَصْر الجناية.

والأوّلُ يكون شهودُه لجنايته منَّةً من الله، منَّ بها عليه ليؤمِّنه بها من مَقْتِ الدعوىٰ وحجاب الكِبْرِ الخفيِّ الذي لا يشعر به. فهذا لونٌ، وهذا لونٌ.

وهذا أمرٌ: الحكمُ فيه أمرٌ وراءَ العبارة. وبالله التوفيق، وهو المستعان.



١/ ٣٢٠

فصل

لطائف أسرار التوبة

اعلم أنَّ صاحب البصيرة إذا صدرت منه الخطيئة فله نظرٌ إلىٰ خمسة أمورٍ:

أحدها: أن ينظر إلىٰ أمر الله تعالىٰ له ونهيه، فيُحْدِثُ له ذلك الاعترافَ بكونها خطيئةً، والإقرارَ علىٰ نفسه بالذّنب.

الثاني: أن ينظر إلىٰ الوعد والوعيد، فيُحدِثُ له ذلك خوفًا وخشيةً تحملُه علىٰ التوبة.

الثالث: أن ينظر إلىٰ تمكين الله تعالىٰ له منها، وتخليتِه بينه وبينها، وتقديرِها عليه، وأنَّه لو شاء لعَصَمه منها وحال بينها وبينه؛ فيُحْدِثُ له ذلك أنواعًا من المعرفة بالله وأسمائه وصفاته، وحكمته، ورحمته، ومغفرته وعفوه، وحلمه وكرمه. وتوجب له هذه المعرفةُ عبوديَّةً بهذه الأسماء لا تحصل بدون لوازمها البتَّة، ويعلم ارتباطَ الخلق والأمر والجزاء بالوعد والوعيد بأسمائه وصفاته، وأنَّ ذلك موجَبُ الأسماء والصِّفات وأثرُها في الوجود، وأنَّ كلَّ اسمٍ وصفةٍ مقتضٍ لأثره وموجَبه، متعلِّقٌ به، لا بدَّ منه.

وهذا المشهد يُطْلِعُه علىٰ رياضٍ مُونقةٍ من المعارف والإيمان وأسرار القدر والحكمة، يَضيقُ عن التَّعبير عنها نطاقُ الكَلِم.

فمِن بعضها: أن يعرف العبدُ عزَّتَه في قضائه. وهو أنَّه سبحانه العزيزُ الذي يقضي ما يشاء، وأنَّه بكمال عزِّه حكَم علىٰ العبد وقضىٰ عليه بأن قلَّب قلبَه وصرَّف إرادتَه علىٰ ما يشاء، وحال بين العبد وقلبه، وجعلَه مريدًا شائيًا لما شاءه منه العزيز الحكيم. وهذا من كمال العزَّة، إذ لا يقدر علىٰ ذلك إلَّا الله تعالىٰ. وغايةُ المخلوق أن يتصرَّف في بدنك وظاهرك، وأمَّا جعلُك مريدًا شائيًا لما يشاؤه

منك ويريده، فلا يقدر عليه إلَّا ذو العزَّة الباهرة.

فإذا عرف العبدُ عزَّ سيِّده، ولاحظه بقلبه، وتمكَّن شهودُ ذلك منه= كان الاشتغالُ به عن ذلِّ المعصية أولىٰ به وأنفع له، لأنَّه يصير مع الله لا مع نفسه.

ومِن معرفة عزَّته في قضائه: أن يعرفَ أنّه مدبَّرٌ مقهورٌ، ناصيتُه بيد غيره، لا عصمةَ له إلَّا بعصمته، ولا توفيقَ له إلَّا بمعونته، فهو ذليلٌ حقيرٌ، في قبضة عزيزٍ حميدٍ.

ومنها: أن يعرف برَّه سبحانه في سَتْره عليه حالَ ارتكاب المعصية، مع كمال رؤيته له، ولو شاء لَفَضَحه بين خلقه، فحَذِرُوه؛ وهذا من كمال بِرِّه، ومن أسمائه: البَرُّ. وهذا البِرُّ من سيِّده به مع كمالِ غناه عنه، وكمالِ فقر العبد إليه. فيشتغل بمطالعة هذه المنَّة ومشاهدة هذا البِرِّ والإحسان والكرم، فيَذْهَل عن ذُلِّ الخطيئة، فيبقىٰ مع الله؛ وذلك أنفع له من اشتغاله بجنايته وشهودِ ذلِّ معصيته، فإنَّ الاشتغالَ بالله والغفلةَ عمَّا سواه هو المطلبُ الأعلىٰ والمقصدُ الأسنىٰ. ولا يُوجِب هذا نسيانَ الخطيئة مطلقًا، بل في هذه الحال، فإذا فَقَدها فليرجع إلىٰ مطالعة الخطيئة وذكر الجناية. ولكلِّ وقتٍ ومقامٍ عبوديَّةٌ تليق به.

ومنها: شهودُه حلمَ الله سبحانه وتعالىٰ في إمهال راكب الخطيئة. ولو شاء لَعاجَلَه بالعقوبة، ولكنَّه الحليم الذي لا يعجَل. فيُحدِث له ذلك معرفتَه سبحانه باسمه الحليم، ومشاهدةَ صفة الحلم، والتَّعبدَ بهذا الاسم. والحكمةُ والمصلحةُ الحاصلةُ من ذلك بتوسُّط الذَّنب أحبُّ إلىٰ الله، وأصلَحُ للعبد، وأنفَعُ له من فوتها. ووجودُ الملزوم بدون لازمه ممتنعٌ.

ومنها: معرفةُ العبد كرمَ ربِّه في قبول العذر منه إذا اعتذر إليه بنحو ما تقدَّم من الاعتذار، لا بالقدَر فإنَّه مخاصَمةٌ ومحاجَّةٌ كما تقدَّم، فيقبل عذرَه بكرمه وجوده. فيوجب له ذلك اشتغالًا بذكره وشكره، ومحبَّةً أخرىٰ لم تكن حاصلةً

له قبل ذلك، فإنَّ محبَّتك لمن شكَرك علىٰ إحسانك وجازاك به، ثمَّ غفر لك إساءَتك ولم يؤاخذك بها= أضعافُ محبَّتِك علىٰ شكر الإحسان وحده. والواقعُ شاهدٌ بذلك. فعبوديَّة التوبة بعد الذَّنب لونٌ آخر.

ومنها: أن يشهد فضلَه في مغفرته، فإنَّ المغفرةَ فضلٌ من الله تعالىٰ، وإلَّا فلو وَاخذَنا بالذَّنبِ لَوَاخذَ بمحض حقِّه وكان عادلًا محمودًا، وإنَّما غفره بفضله لا باستحقاقك. فيُوجِب لك ذلك أيضًا شكرًا له، ومحبَّةً له، وإنابةً إليه، وفرحًا وابتهاجًا به، ومعرفةً له باسمه الغفَّار، ومشاهدةً لهذه الصِّفة، وتعبُّدًا بمقتضاها. وذلك أكملُ في العبوديَّة والمعرفة والمحبَّة.

١/ ٣٢٤

مراتب الذل والخضوع

ومنها: أن يكمِّل لعبده مراتبَ الذُّلِّ والخضوع والانكسار بين يديه، والافتقار إليه، فإنَّ النَّفسَ فيها مضاهاةُ الرُّبوبيَّة، ولو قدرَتْ لقالت كقول فرعون، ولكنَّه قدَر فأظهرَ، وغيرُه عجَز فأضمَر. وإنَّما يُخلِّصها من هذه المضاهاة ذلُّ العبوديَّة، وهو أربع مراتب:

المرتبة الأولىٰ: مشتركةٌ بين الخلق، وهي: ذلُّ الحاجة والفقر إلىٰ الله تعالىٰ. فأهلُ السَّماوات والأرض محتاجون إليه فقراءُ إليه، وهو وحده الغنيُّ. وكلُّ أهل السَّماوات والأرض يسألونه، وهو لا يسأل أحدًا.

المرتبة الثانية: ذلُّ الطاعة والعبوديَّة، وهو ذلُّ الاختيار، وهذا خاصٌّ بأهل طاعته، وهو سرُّ العبوديَّة.

المرتبة الثالثة: ذلُّ المحبَّة، فإنَّ المحبَّ ذليلٌ بالذات لمحبوبه، وعلىٰ قدر محبَّته له يكون ذلُّه له، فالمحبَّةُ أسِّست علىٰ الذِّلَّة للمحبوب، كما قيل:

اخضَعْ وذِلَّ لمن تحبُّ فليس في ... حُكمِ الهوىٰ أنفٌ يُشالُ ويُعقَدُ[1]

---

(١) البيت لأبي تراب هبة الله ابن السريجي في «بدائع البدائه» (ص١٧).

وقال آخر:

مساكينُ أهلُ الحبِّ حتَّىٰ قبورُهم   عليها ترابُ الذُّلِّ بينَ المقابرِ [١]

المرتبة الرابعة: ذلُّ المعصية والجناية.

فإذا اجتمعت هذه المراتبُ الأربعُ كان الذُّلُّ لله والخضوعُ له أكملَ وأتمَّ، إذ يذِلُّ له خوفًا وخشيةً، ومحبَّةً وإنابةً وطاعةً، وفقرًا وفاقةً.

وحقيقة ذلك هو الفقر الذي يشير إليه القوم. وهذا المعنىٰ أجلُّ من أن يسمَّىٰ بالفقر، بل هو لبُّ العبوديَّة وسرُّها. وحصولُه أنفع شيءٍ للعبد، وأحبُّ شيءٍ إلىٰ الله. فلا بدَّ من تقدير لوازمه من أسباب الضَّعف والحاجة، وأسباب العبوديَّة والطَّاعة، وأسباب المحبَّة والإنابة، وأسباب المعصية والمخالفة؛ إذ وجودُ الملزوم بدون لازمه ممتنعٌ. والفائتُ من تقدير عدمِ هذا الملزومِ ولازمِه: مصلحةُ وجوده خيرٌ من مصلحة فوته، ومفسدةُ فوته أكثرُ من مفسدة وجوده. والحكمةُ مبناها علىٰ دفعِ أعظمِ المفسدتين باحتمال أدناهما، وتحصيلِ أعظمِ المصلحتين بتفويت أدناهما. وقد فُتِح لك الباب، فإن كنتَ من أهل المعرفة فادخل، وإلَّا فرُدَّ البابَ وارجِعْ بسلامٍ!

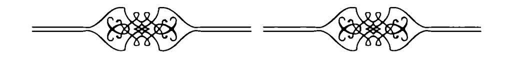
ومنها: أنَّ أسماءه الحسنىٰ تقتضي آثارها اقتضاءَ الأسباب التَّامَّةِ لمسبَّباتها، فاسم «السَّميع البصير» يقتضي مسموعًا ومُبصَرًا، واسم «الرَّزَّاق» يقتضي مرزوقًا، واسم «الرَّحيم» يقتضي مرحومًا، وكذلك اسم «الغفور»، و«العفوِّ»، و«التَّوَّاب»، و«الحليم» يقتضي مَن يغفر له، ويتوبُ عليه، ويعفو عنه، ويحلم عنه. ويستحيل تعطيلُ هذه الأسماء والصِّفات، إذ هي أسماءٌ حسنىٰ وصفاتُ كمالٍ، ونعوتُ جلالٍ، وأفعالُ حكمةٍ وإحسانٍ وجودٍ، فلا بدَّ من ظهور آثارها في العالم. وقد

(١) البيت دون عزو في «الكشف والبيان» للثعلبي (٥/ ٥٨) وغيره. هو في الديوان المنسوب إلىٰ علي رضي الله عنه (ص٥٢- الهند سنة ١٢٩٣)، بلفظ «أهل الفقر».

أشار إلىٰ هذا أعلَمُ الخلقِ بالله صلوات الله وسلامه عليه، حيث يقول: «**لو لم تُذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقومٍ يُذنبون، ثمَّ يستغفرون، فيغفر لهم**»[1].

وأنت إذا فرضت الحيوانَ بجملته معدومًا، فلِمَن يرزق الرَّزَّاقُ سبحانه؟ وإذا فرضتَ المعصية والخطيئة منتفيةً من العالم، فلمن يغفر؟ وعمَّن يعفو؟ وعلىٰ من يتوبُ ويَحْلُم؟ وإذا فرضتَ الفاقاتِ كلَّها قد سُدَّت، والعبيدُ أغنياءُ معافَون، فأين السُّؤال والتّضرُّع والابتهال، والإجابة وشهود الفضل والمنَّة، والتخصيص بالإنعام والإكرام؟

فسبحان من تعرَّف إلىٰ خلقه بجميع التَّعرُّفات، ودلَّهم عليه بأنواع الدِّلالات، وفتَح لهم إليه جميعَ الطُّرقات، ثمّ نصَب إليه الصِّراطَ المستقيمَ، وعرَّفهم به ودلَّهم عليه ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[الأنفال: ٤٢].



(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

١/ ٣٢٧

فصل

حقيقة سر التوبة الفرح بالرجوع إلىٰ الله

ومنها: السِّرُّ الأعظم، الذي لا تقتحمه العبارة، ولا تجسُر عليه الإشارة، ولا ينادي عليه منادي الإيمان علىٰ رؤوس الأشهاد، فشهدَتْه قلوبُ خواصِّ العباد، فازدادت به معرفةً لربِّها، ومحبَّةً له، وطمأنينةً وشوقًا إليه، ولهجًا بذكره، وشهودًا لبِرِّه، ولطفه وكرمه وإحسانه، ومطالعةً لسرِّ العبوديَّة، وإشرافًا علىٰ حقيقة الإلهيَّة.

وهو ما ثبت في «الصَّحيحين»[1] من حديث أنس بن مالكٍ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَلّهُ أفرَحُ بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان علىٰ راحلته بأرضِ فلاةٍ، فانفلتت منه، وعليها طعامُه وشرابُه، فأَيِسَ منها، فأتىٰ شجرةً فاضطجع في ظلِّها، قد أَيِسَ من راحلته. فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمةً عنده، فأخذ بخِطامها، ثمَّ قال من شدَّة الفرح: اللهمَّ أنت عبدي وأنا ربُّك! أخطأ من شدَّة الفرح**». هذا لفظ مسلمٍ.

وفي الحديث من قواعد العلم: أنَّ اللَّفظَ الذي يجري علىٰ لسان العبد خطأً من فرحٍ شديدٍ أو غيظٍ شديدٍ أو نحوه لا يؤاخَذ به. ولهذا لم يكن هذا كافرًا بقوله: أنت عبدي وأنا ربُّك.

ومعلومٌ أنَّ تأثيرَ الغضب في عدم القصد يصل إلىٰ هذه الحال أو أعظمَ منها، فلا ينبغي مؤاخذةُ الغضبان بما صدَر منه في حالِ شدَّة غضبه من نحو هذا الكلام، ولا يقع طلاقُه بذلك ولا رِدَّتُه. وقد نصَّ الإمام أحمدُ رحمه الله[2] علىٰ تفسير «الإغلاق» في قوله ﷺ: «**لا طلاق في إغلاقٍ**»[3] بأنَّه الغضب وفسَّره به غيرُ واحدٍ

(١) البخاري (٦٣٠٩)، ومسلم (٢٧٤٧).

(٢) في رواية حنبل، نقله المؤلف في «أعلام الموقعين» (٢/ ٥٠٧)، عن «زاد المسافر» لأبي بكر غلام الخلال (٣/ ٢٦٥)، وانظر: «إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان» (ص٦- ٧).

(٣) أخرجه أحمد (٢٦٣٦٠)، وأبو داود (٢١٩٣)، وابن ماجه (٢٠٤٦)، وله طرق أخرىٰ لا تخلو من مقال، وحسنه الألباني بمجموع طرقه في «الإرواء» (٢٠٤٧).

من الأئمَّة. وفسَّروه بالإكراه، وفسَّروه بالجنون[(١)]. **قال شيخنا**: وهو يعُمُّ هذا كلَّه، وهو من الغلَق، لانغلاق قصد المتكلِّم عليه، فكأنَّه لم ينفتح قلبُه لمعنىٰ ما قاله[(٢)].

والقصد: أنَّ هذا الفرحَ له شأنٌ لا ينبغي للعبد إهمالُه والإعراضُ عنه، ولا يطَّلع عليه إلَّا مَن له معرفةٌ خاصَّةٌ بالله وأسمائه وصفاته وما يليق بعزِّ جلاله.

وقد كان الأولىٰ بنا طيَّ الكلام فيه إلىٰ ما هو اللَّائقُ بأفهام بني الزَّمان وعلومهم، ونهايةِ أقدامهم من المعرفة، وضعفِ عقولهم عن احتماله؛ غير أنَّا نعلم أنَّ الله سيسوقُ هذه البضاعةَ إلىٰ تُجَّارها ومَن هو عارفٌ بقدرها، وإن وقعت في الطريق بيد من ليس عارفًا بها، «فرُبَّ حاملِ فقهٍ ليس بفقيهٍ، ورُبَّ حامل فقهٍ إلىٰ من هو أفقه منه»[(٣)].

فاعلم أنَّ الله سبحانه اختصَّ نوعَ الإنسان من بين خلقه بأن كرَّمه وفضَّلَه وشرَّفَه، وخلَقه لنفسه، وخلَق كلَّ شيءٍ له، وخصَّه من معرفته ومحبَّته وقربه وإكرامه بما لم يعطه غيرَه، وسخَّر له ما في سماواته وأرضه وما بينهما، حتّىٰ ملائكته الذين هم أهلُ قربه، واستخدمهم له، وجعلهم حَفَظةً له في منامه ويقظته وظعنه وإقامته، وأنزل إليه وعليه كتبَه، وأرسله وأرسل إليه، وخاطَبه وكلَّمه منه إليه، واتَّخذ منهم الخليل والكليم، والأولياءَ والخواصَّ والأحِبَّاءَ، وجعلهم معدنَ أسراره ومحلَّ حكمته وموضعَ حبِّه، وخلق لهم الجنَّة والنَّار. فالخلقُ والأمرُ والثوابُ والعقابُ مدارهُ علىٰ النَّوع الإنسانيِّ، فإنّه خلاصةُ الخلق، وهو المقصودُ بالأمر والنَّهي، وعليه الثَّوابُ والعقابُ.

(١) انظر: «أعلام الموقعين» (٣/ ٥١٢)، و«زاد المعاد» (٥/ ٣٠٧).
(٢) انظر: «تهذيب السنن» (١/ ٥٢٤)، و«الصواعق» (٢/ ٥٦٤- ٥٦٥).
(٣) كما في حديث زيد بن ثابت ﷺ عند أبي داود (٣٦٦٠)، والترمذي (٢٦٥٦)، وابن ماجه (٢٣٠)، وحسَّنه الترمذي، وصححه ابن حبان (٦٧).

فللإنسان شأنٌ ليس لسائر المخلوقات. وقد خلَق أباه بيده، ونفَخ فيه من روحه، وأسجَدَ له ملائكتَه، وعلَّمه أسماءَ كلِّ شيءٍ، وأظهر فضلَه علىٰ الملائكة فمَن دونهم من جميع المخلوقات. وطرَد إبليسَ عن قربه، وأبعدَه عن بابه إذ لم يسجد له مع السَّاجدين، واتَّخذَه عدوًّا له.

فالمؤمنون من نوع الإنسان خيرُ البريَّة علىٰ الإطلاق، وخِيرةُ الله من العالمين؛ فإنَّه خلقَه لِتَتمَّ نعمتُه عليه، وليتواتر إحسانُه إليه، وليخصَّه من كرامته وفضله بما لم تنله أمنيَّتُه، ولم يخطر علىٰ باله ولم يشعُر به، ليسأله من المواهب والعطايا الباطنة والظاهرة العاجلة والآجلة التي لا تُنال إلَّا بمحبَّته، ولا تُنال محبَّتُه إلَّا بطاعته وإيثاره علىٰ ما سواه. فاتَّخذه محبوبًا له، وأعدَّ له أفضلَ ما يُعِدُّه محبٌّ غنيٌّ قادرٌ جوادٌ لمحبوبه إذا قَدِم عليه. وعَهِد إليه عهدًا تقدَّم إليه فيه بأوامره ونواهيه، وأعلَمه في عهده ما يقرِّبه إليه ويزيده محبَّةً له وكرامةً عليه، وما يُبعِده منه، ويُسْخطه عليه، ويُسْقِطه من عينه.

وللمحبوب عدوٌّ، هو أبغَضُ خلقه إليه، قد جاهَره بالعداوة، وأمرَ عباده أن يكون دينُهم وطاعتُهم وعبادتُهم له دون وليِّهم ومعبودهم الحقِّ، واستقطَع عباده، واتَّخذ منهم حزبًا ظاهَروه ووالَوه علىٰ ربِّهم، وكانوا أعداءً له مع هذا العدوِّ، يدعُون إلىٰ سخطه، ويطعنون في ربوبيَّته وإلهيَّته ووحدانيَّته، ويسبُّونه ويكذِّبونه، ويفتنون أولياءه، ويؤذونهم بأنواع الأذىٰ، ويجتهدون علىٰ إعدامِهم من الوجود، وإقامةِ الدَّولة لهم، ومحوِ كلِّ ما يحبُّه الله ويرضاه وتبديله بكلِّ ما يسخَطه ويكرهه= فعرَّفه بهذا العدوِّ وطرائقهم وأعمالهم ومآلهم، وحذَّره موالاتَهم والدُّخولَ في زمرتهم والكونَ معهم.

وأخبره في عهده أنَّه أجودُ الأجودين، وأكرمُ الأكرمين، وأرحمُ الرَّاحمين؛ وأنَّه سبقت رحمتُه غضبَه، وحلمُه عقوبتَه، وعفوُه مؤاخذتَه؛ وأنَّه قد أفاض علىٰ

خلقه النِّعمة، وكتب علىٰ نفسه الرحمة؛ وأنَّه يحبُّ الإحسان والجود والعطاء والبِرَّ؛ وأنَّ الفضلَ كلَّه بيده، والخيرَ كلَّه منه، والجودَ كلَّه له. وأحبُّ ما إليه أن يجودَ علىٰ عباده ويُوسِعَهم فضلًا، ويغمُرَهم إحسانًا وجودًا، ويُتمَّ عليهم نعمَه، ويضاعف لديهم مننَه، ويتعرَّفَ إليهم بأوصافه وأسمائه، ويتحبَّب إليهم بنعمه وآلائه.

فهو الجواد لذاته، وجُودُ كلِّ جوادٍ خلَقه الله ويخلُقه أبدًا أقلُّ من ذرَّةٍ بالقياس إلىٰ جوده. فليس الجواد علىٰ الإطلاق إلَّا هو، وجُودُ كلِّ جوادٍ فمن جوده. ومحبَّتُه للجود والإعطاء والإحسان والبرِّ والإنعام والإفضال فوقَ ما يخطُر ببال الخلق أو يدور في أوهامهم. وفرَحُه بعطائه وجوده وإفضاله أشدُّ من فرَح الآخذ بما يُعطاه ويأخذه أحوجَ ما هو إليه، وأعظَمُ ما كان قدرًا. فإذا اجتمع شدَّةُ الحاجة وعِظَمُ قدر العطيَّة والنَّفع بها، فما الظَّنُّ بفرَح المعطَىٰ! ففرحُ المعطي سبحانه بعطائه أشدُّ وأعظمُ من فرح هذا بما يأخذه. ولله المثل الأعلىٰ، إذ هذا شأنُ الجواد من الخلق، فإنَّه يحصل له من الفرحة والسُّرور والابتهاج واللَّذَّة بعطائه وجُوده فوقَ ما يحصل لمن يعطيه؛ ولكنَّ الآخذَ غائبٌ بلذَّة أخذه عن لذَّة المعطي وابتهاجه وسروره. هذا مع حاجته إلىٰ ما يعطيه وفقره إليه، وعدمِ وثوقه باستخلاف مثله، وخوفِ الحاجة إليه عند ذهابه، والتعرُّضِ لذلِّ الاستعانة بنظيره أو مَن هو دونه، ونفسُه قد طُبِعت علىٰ الحرص والشُّحِّ. فما الظنُّ بمن تقدَّس وتنزَّه عن ذلك كلِّه؟ ولو أنَّ أهلَ سماواته وأرضه، وأوَّلَ خلقه وآخرَهم، وإنسَهم وجنَّهم، ورطبَهم ويابسَهم، قاموا في صعيدٍ واحدٍ فسألوه، فأعطىٰ كلًّا منهم ما سأله= ما نقَص ذلك ممَّا عنده مثقالَ ذرَّةٍ.

وهو الجواد لذاته، كما أنَّه الحيُّ لذاته، العليمُ لذاته، السَّميعُ البصيرُ لذاته، فجوده العالي من لوازم ذاته. والعفوُ أحبُّ إليه من الانتقام، والرحمةُ أحبُّ إليه

من العقوبة، والفضلُ أحبُّ إليه من العدل، والعطاءُ أحبُّ إليه من المنع.

فإذا تعرَّض عبدُه ومحبوبُه الذي خلَقه لنفسه، وأعدَّ له أنواعَ كرامته، وفضَّله علىٰ غيره، وجعلَه محلَّ معرفته، وأنزل إليه كتابه، وأرسل إليه رسوله، واعتنىٰ بأمره ولم يُهمله، ولم يتركه سدًىٰ= فتعرَّض لغضبه، وارتكب مساخطَه وما يكرهه، وأبَق منه، ووالىٰ عدوَّه، وظاهَره عليه، وتحيَّز إليه، وقطَع طريقَ نعمه وإحسانه إليه التي هي أحبُّ شيءٍ إليه، وفتَح طريقَ العقوبة والانتقام والغضب= فقد استدعىٰ من الجواد الكريم خلافَ ما هو موصوفٌ به من الجود والإحسان والبرِّ، وتعرَّض لإغضابه وإسخاطه وانتقامه، وأن يصير غضبُه وسخطُه في موضع رضاه، وانتقامُه وعقوبتُه في موضع كرمِه وبرِّه وإعطائه. فاستدعىٰ بمعصيته من أفعاله ما سواه أحبُّ إليه منه، وخلافَ ما هو من لوازم ذاته من الجود والإحسان. فبينا هو حبيبُه المقرَّبُ المخصوصُ بالكرامة، إذ انقلب آبقًا شاردًا، رادًّا لكرامته، مائلًا عنه إلىٰ عدوِّه، مع شدَّة حاجته إليه، وعدم استغنائه عنه طرفة عينٍ.

فبينا ذلك الحبيبُ مع العدوِّ في طاعته وخدمته ناسيًا لسيِّده، منهمكًا في موافقة عدوِّه، قد استدعىٰ من سيِّده خلافَ ما هو أهلُه، إذ عرضت له فكرةٌ فتذكَّر برَّ سيِّده وعطفَه وجودَه وكرمَه، وعلِمَ أنَّه لا بدَّ له منه، وأنَّ مصيره إليه، وعرضَه عليه، وأنَّه إن لم يَقْدَم عليه بنفسه قُدِم به عليه علىٰ أسوأ الأحوال، ففرَّ إلىٰ سيِّده من بلد عدوِّه، وجدَّ في الهرب إليه حتَّىٰ وصل إلىٰ بابه، فوضَع خدَّه علىٰ عتبة بابه، وتوسَّد ثرىٰ أعتابه، متذلِّلًا متضرِّعًا خاشعًا باكيًا آسفًا، يتملَّق سيِّدَه، ويسترحمه، ويستعطفه ويعتذر إليه، قد ألقىٰ إليه بيده، واستسلم له، وأعطاه قيادَه، وألقىٰ إليه زمامَه. فعلِم سيِّدُه ما في قلبه، فعاد مكانَ الغضب عليه رضًا عنه، ومكانَ الشِّدَّة عليه رحمةً به، وأبدله بالعقوبة عفوًا، وبالمنع عطاءً، وبالمؤاخذة حلمًا. فاستدعىٰ بالتَّوبة والرُّجوع من سيِّده ما هو أهله، وما هو موجَبُ أسمائه الحسنىٰ وصفاته

العُلا. فكيف يكون فرحُ سيِّده به، وقد عاد إليه حبيبُه ووليُّه طوعًا واختيارًا، وراجَع ما يحبُّه سيِّده منه ويرضاه، وفتحَ طريقَ البرِّ والإحسان والجود، التي هي أحبُّ إلىٰ سيِّده من طريق الغضب والانتقام والعقوبة؟

وهذا موضع الحكاية المشهورة عن بعض العارفين أنَّه حصل له إباقٌ عن سيِّده، فرأىٰ في بعض السِّكك بابًا قد فُتِح، وخرج منه صبيٌّ يستغيث ويبكي، وأمُّه خلفه تطرده حتَّىٰ خرج، فأغلقت البابَ في وجهه ودخلت. فذهب الصَّبيُّ غيرَ بعيدٍ، ثمَّ وقف مفكِّرًا، فلم يجد له مأوًىٰ غير البيت الذي أُخرج منه، ولا من يؤويه غير والدته، فرجع مكسورَ القلب حزينًا، فوجد الباب مُرْتَجًا، فتوسَّده ووضع خدَّه علىٰ عتبة الباب ونام. فخرجت أمُّه، فلمَّا رأته علىٰ تلك الحال لم تملك أن رمَتْ نفسَها عليه، والتزمته تقبِّله وتبكي، وتقول: يا ولدي، أين تذهب عنِّي؟ ومن يؤويك سواي؟ ألم أقل لك: لا تخالفني، ولا تحملني بمعصيتك لي علىٰ خلاف ما جُبِلتُ عليه من الرَّحمة لك، والشفقة عليك، وإرادةِ الخيرِ لك؟ ثمَّ أخذَتْه ودخَلَتْ[1].

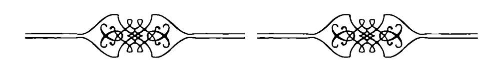
فتأمَّلْ قولَ الأمِّ: لا تحملني بمعصيتك علىٰ خلاف ما جُبِلتُ عليه من الرَّحمة والشَّفقة. وتأمَّلْ قوله ﷺ: «**لَلّهُ أرحَمُ بعباده من الوالدة بولدها**»[2]. وأين تقع رحمةُ الوالدة من رحمة الله؟ فإذا أغضبه العبدُ بمعصيته فقد استدعىٰ منه صرفَ تلك الرَّحمة عنه، فإذا تاب إليه فقد استدعىٰ منه ما هو أهله وأولىٰ به.

فهذه نبذةٌ يسيرةٌ تُطلعك علىٰ سرِّ فرَحِ الله بتوبة عبده أعظمَ من فرحِ هذا الواجد لراحلته في الأرض المهلكة بعد اليأس منها. ووراء هذا ما تجفو عنه العبارة، وتدِقُّ عن إدراكه الأذهان.

---

(١) انظر: «صفة الصفوة» لابن الجوزي (٢/ ٤٥٤).
(٢) أخرجه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وإيَّاك وطريقةَ التَّعطيل والتَّمثيل، فإنَّ كلًّا منهما منزلٌ ذميمٌ، ومرتَعٌ علىٰ عِلَّاته وخيمٌ. ولا يحِلُّ لأحدهما أن يجد روائحَ هذا الأمر ونفَسَه، لأنَّ زكامَ التَّعطيل والتَّمثيل مفسِدٌ لحاسَّة الشَّمِّ، كما هو مفسِدٌ لحاسَّة الذَّوق، فلا يذوق طعمَ الإيمان، ولا يجد ريحَه. والمحرومُ كلُّ المحروم من عُرِضَ عليه الغنىٰ والخيرُ فلم يقبله! ولا مانعَ لما أعطىٰ الله، ولا معطيَ لما منَع، والفضلُ بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.



١/ ٣٣٥

فصل

تعلق الفرح الإلهي بإلهيته وكونه معبودا

هذا إذا نظرتَ إلىٰ تعلُّق الفرح الإلهيِّ بالإحسان والجود والبرِّ.

وأمَّا إن لاحظتَ تعلُّقه بإلهيَّته وكونِه معبودًا، فذاك مشهدٌ أجلُّ من هذا وأعظمُ منه، وإنَّما يشهده خواصُّ المحبِّين.

فإنَّ الله سبحانه إنّما خلق الخلقَ لعبادته الجامعة لمحبَّتِه والخضوعِ له وطاعتِه، وهذا هو الحقُّ الذي خُلِقت به السماوات والأرض، وهو غاية الخلق والأمر. ونفيُه كما يقول أعداؤه هو الباطلُ والعبَثُ الذي نزَّه نفسَه عنه، وهو السُّدىٰ الذي نزَّه نفسَه عن أن يترك الإنسانَ عليه. فهو سبحانه يحبُّ أن يُعبَد ويُطاعَ، ولا يعبأ بخلقه شيئًا لولا محبَّتهم وطاعتهم له. وقد أنكر علىٰ من زعم أنَّه خلقهم لغير ذلك. وإنَّهم لو خُلِقوا لغير عبادته وتوحيده وطاعته لكان خلقُهم عبثًا وباطلًا وسدًىٰ، وذلك ما يتعالىٰ عنه أحكمُ الحاكمين والإله الحقُّ.

فإذا خرج العبدُ عمَّا خُلِق له من طاعته وعبوديَّته، فقد خرج عن أحبِّ الأشياء إليه، وعن الغاية التي لأجلها خُلِقت الخليقة، وصار كأنَّه خُلِقَ عبثًا لغير شيءٍ، إذ لم تُخرج أرضُه البذرَ الذي وُضِع فيها، بل قلبَتْه شوكًا ودَغَلًا[1]. فإذا راجعَ ما خُلِق له ووُجِد لأجله فقد رجع إلىٰ الغاية التي هي أحبُّ الأشياء إلىٰ خالقه وفاطره، ورجع إلىٰ مقتضىٰ الحكمة التي خُلِق لأجلها، وخرَج عن معنىٰ العبث والسُّدىٰ والباطل. فاشتدَّت محبَّةُ الرَّبِّ له فإنَّ اللهَ يحبُّ التَّوَّابين، فأوجبت هذه المحبّةُ فرحًا كأعظمِ ما يقدَّر من الفرح.

ولو كان في الفرح المشهود في هذا العالم نوعٌ أعظمُ من هذا الذي ذكره النبيُّ ﷺ

---

(١) المقصود بالدَّغَل هنا النباتات الطفيلية التي تنبت حول الزرع وتزاحمه.

لَذكَره، ولكن لا فرحةَ أعظمُ من فرحة هذا الواجدِ الفاقدِ لمادَّة حياته وبلاغه في سفره، بعد يأسه من أسباب الحياة بفقده. وهذا لشدَّة محبَّته لتوبة التائب. والمحبُّ إذا اشتدَّت محبَّتُه للشَّيء وغاب عنه، ثمّ وَجَده وصار طوعَ يديه، فلا فرحةَ أعظمُ من فرحته به.

فما الظنُّ بمحبوبٍ لك تحبُّه حبًّا شديدًا، وأسره عدوُّك، وحال بينك وبينه، وأنت تعلم أنَّ العدوَّ سيسومُه سوءَ العذاب، ويعرِّضه لأنواع الهلاك، وأنت أولىٰ به منه، وهو غرسُك وتربيتُك. ثمَّ إنَّه انفلتَ من عدوِّه، ووافاك علىٰ غير ميعادٍ، فلم يفجأك إلَّا وهو علىٰ بابك، يتملَّقُك ويترضَّاك ويستعتبُك، ويمرِّغ خدَّيه علىٰ ثرىٰ أعتابك= فكيف يكون فرحُك به، وقد اختصَّيْتَه[1] لنفسك، ورضيتَه لقربك، وآثرتَه علىٰ سواه؟ هذا، ولستَ الذي أوجدتَه وخلقتَه، وأسبغتَ عليه نعمَك.

واللهُ ﷻ هو الذي أوجد عبدَه، وخلَقه وكوَّنه، وأسبغ عليه نعمَه، وهو يحبُّ أن يتمَّها عليه، فيصيرَ مُظْهِرًا لنعمه، قابلًا لها، شاكرًا لها، محبًّا لوليِّها مطيعًا له عابدًا له، معاديًا لعدوِّه مبغضًا له عاصيًا له. والله تعالىٰ يحبُّ من عبده معاداةَ عدوِّه ومعصيتَه ومخالفتَه، كما يحبُّ أن يُواليَه سبحانه ويطيعَه ويعبدَه؛ فتنضافُ محبَّتُه لعبادته وطاعته والإنابة إليه، إلىٰ محبَّته لعداوة عدوِّه ومعصيته ومخالفته، فتشتدُّ المحبَّةُ منه سبحانه مع حصول محبوبه. وهذا حقيقة الفرح.

وفي صفة النبيِّ ﷺ في بعض الكتب المتقدِّمة: «عبدي الذي سُرَّتْ به نفسي»[2]. وهذا لكمال محبَّته له، جعَلَه ممَّا تُسَرُّ به نفسُه سبحانه.

ومن هذا: ضَحِكُهُ سبحانه من عبده حين يأتي من عبوديَّته بأعظم ما يحبُّه، فيضحكُ سبحانه فرحًا به ورضًا، كما يضحكُ من عبده إذا ثار عن وِطائه وفراشه

---

(١) أصله: اختصَصْتَه، من كلام العامة مثل ظنَّيْتُ واستمرَّيْتُ.

(٢) سفر إشعياء (٤٢/ ١)، ونصُّه في الترجمة: «هو ذا عبدي الذي أعضُده، مختاري الذي سُرَّت به نفسي»، وانظر: «إنجيل متّىٰ» (١٢/ ١٨)، وحاول كاتبه أن يصرف النص إلىٰ المسيح ﷺ.

ومضاجعة حبيبه إلىٰ خدمته يتلو آياته ويتملَّقه[(١)].

ويضحكُ من رجلٍ هرب أصحابُه عن العدوِّ، فأقبل إليهم، وباع نفسَه لله ولقَّاهم نحرَه، حتَّىٰ قُتِلَ في محبَّته ورضاه[(٢)].

ويضحك إلىٰ من أخفىٰ الصدقةَ عن أصحابه لسائلٍ اعتراهم فلم يعطُوه، فتخلَّف بأعقابهم، وأعطاه سرًّا حيث لا يراه إلَّا الله تعالىٰ والذي أعطاه[(٣)]؛ فهذا الضَّحِك منه حبًّا له وفرحًا به. وكذلك الشهيدُ حين يلقاه يوم القيامة، فيضحك إليه فرحًا به وبقدومه عليه[(٤)].

وليس في إثبات هذه الصِّفات محذورٌ البتَّة، فإنَّه فرَحٌ ليس كمثله شيءٌ، وضَحِكٌ ليس كمثله شيءٌ، وحكمُه حكمُ رضاه ومحبَّته وإرادته وسائر صفاته. فالباب بابٌ واحدٌ، لا تمثيل ولا تعطيل.

وليس ما يُلزِمُ به المعطِّلُ للمثبِت إلَّا ظلمٌ محضٌ وتناقضٌ وتلاعبٌ، فإنَّ هذا لو كان لازمًا للزم رحمتَه وإرادتَه ومشيئتَه وسمعَه وبصرَه وعلمَه وسائرَ صفاته، فكيف جاء هذا اللُّزومُ لهذه الصِّفة دون الأخرىٰ؟ وهل يجد ذو عقلٍ إلىٰ الفرق سبيلًا؟ فما ثمَّ إلَّا التعطيلُ المحضُ المطلَق، أو الإثباتُ المطلَقُ لكلِّ ما ورد به النَّصُّ؛ والتناقضُ لا يرضاه المحصِّلون.

---

(١) يشير إلىٰ حديث عبد الله بن مسعود ﷺ الذي أخرجه أحمد (٣٩٤٩)، وابن خزيمة في «التوحيد» (٧٩٩)، وابن حبان (٢٥٥٧، ٢٥٥٨).

(٢) يشير إلىٰ حديث أبي الدرداء ﷺ الذي أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٩٨٣)، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (٣٤٧٨).

(٣) يشير إلىٰ حديث أبي ذر ﷺ الذي أخرجه أحمد (٢١٣٥٥)، والنسائي (١٦١٥)، والترمذي (٢٥٦٨)، وابن خزيمة (٢٤٥٦)، وابن حبان (٣٣٤٩)، ينظر: «العلل الكبير» للترمذي (٦٢٧)، و«علل الدارقطني» (١١٠٣).

(٤) يشير إلىٰ حديث نعيم بن همَّار الذي أخرجه أحمد (٢٢٤٧٦)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٤٦٦)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٦/ ١٢٤).

١/ ٣٤٣

فصل

النظر إلىٰ محل الجناية ومصدرها

قد ذكرنا أنَّ العبدَ في الذنب له نظرٌ إلىٰ أربعة أمورٍ: نظرٌ إلىٰ الأمر والنَّهي، ونظرٌ إلىٰ الحكم والقضاء، وذكرنا ما يتعلَّق بهذين النَّظرين[1].

النظر الثالث: النظرُ إلىٰ محلِّ الجناية ومصدرها، وهو النَّفسُ الأمَّارةُ بالسُّوء. ويفيده نظرُه إليها أمورًا:

منها: أنَّها جاهلةٌ ظالمةٌ، وأنَّ الجهلَ والظُّلمَ يصدر عنهما كلُّ قولٍ وعملٍ قبيحٍ، ومَن وَصْفُه الجهلُ والظُّلمُ لا مطمعَ في استقامته واعتداله البتَّة. فيوجب له ذلك بذلَ الجهد في العلم النافع الذي يُخرِجُها به عن وصف الجهل، والعملِ الصَّالحِ الذي يُخرِجُها به عن وصف الظُّلم. ومع هذا فجهلُها أكثرُ من علمها، وظلمُها أعظمُ من عدلها. فحقيقٌ بمن هذا شأنه: أن يرغب إلىٰ خالقها وفاطرها أن يقيَه شرَّها، وأن يؤتيها تقواها ويزكِّيها، فهو خيرُ من زكَّاها، فإنَّه وليُّها ومولاها، وأن لا يكِلَه إليها طرفةَ عينٍ، فإن وَكلَه إليها هلَكَ، فما هلَكَ مَن هلَك إلَّا حيث وُكِلَ إلىٰ نفسه.

وقال النبيُّ ﷺ لحُصَين بن المنذر: «**قل: اللهمَّ أَلْهِمْني رُشدي، وقِني شرَّ نفسي**»[2]. وفي خطبة الحاجة: «**الحمد لله، نستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيِّئات أعمالنا**»[3].

---

(١) كذا قال! ونسي أنه ذكر من قبل (ص٣٢٠) أنَّ صاحب البصيرة إذا صدرت منه الخطيئة نظر إلىٰ خمسة أمور، ثم ذكر ثلاثة منها.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه أحمد (٣٧٢٠، ٤١١٥)، وأبو داود (٢١١٨)، والترمذي (١١٠٥)، وابن ماجه (١٨٩٢)، وحسَّنه الترمذي، وصححه الألباني في «خطبة الحاجة التي كان رسول الله ﷺ يُعلِّمها أصحابه».

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[الحشر: ٩]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾[يوسف: ٥٣].

فمن عرَفَ حقيقةَ نفسه وما طُبِعت عليه علِمَ أنَّها منبعُ كلِّ شرٍّ ومأوىٰ كلِّ سوءٍ، وأنَّ كلَّ خيرٍ فيها ففضلٌ من الله منَّ به عليها، لم يكن منها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾[النور: ٢١]. وقال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾[الحجرات: ٧]. فهذا الحبُّ وهذه الكراهةُ لم يكونا في النفس ولا بها، ولكنَّ الله هو الذي منَّ بهما، فجعَلَ العبدَ بسببهما من الراشدين ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[الحجرات: ٨]: عليمٌ بمن يصلُح لهذا الفضل ويزكو عليه ويُثمِر عنده، حكيمٌ فلا يضَعُه عند غير أهله، فيضيِّعه بوضعه في غير موضعه.

ومنها: أنَّ من له بصيرةٌ بنفسه، وبصيرةٌ بحقوق الله تعالىٰ، وهو صادقٌ في طلبه، لم يُبقِ له نظرُه في سيِّئاته حسنةً البتَّة، فلا يلقىٰ الله إلَّا بالإفلاس المحض والفقر الصِّرف. لأنّه إذا فتَّشَ عن عيوب نفسه وعيوب عمله علِمَ أنَّها لا تصلُح لله، وأنَّ تلك البضاعةَ لا يُشترىٰ بها النَّجاةُ من عذابه، فضلًا عن الفوز بعظيم ثوابه. فإن خلَص له عملٌ وحالٌ مع الله، وصفا له معه وقتٌ، شاهَدَ منَّةَ الله عليه به ومجرَّدَ فضله، وأنَّه ليس من نفسه، ولا هي أهلٌ لذلك. فهو دائمًا مُشاهدٌ لمنَّة الله عليه ولعيوب نفسه وعمله، لأنَّه متىٰ تطلَّبها رآها. وهذا من أجلِّ أنواع المعارف وأنفعها للعبد.

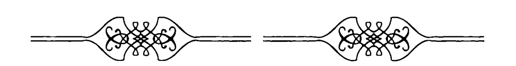
ولذلك كان سيِّد الاستغفار: «**اللهمَّ أنت ربِّي لا إله إلّا أنتَ، خلقتَني، وأنا عبدُك، وأنا علىٰ عهدك ووعدك ما استطعتُ، أعوذ بك من شرِّ ما صنعتُ، أبوء**

شرح معاني سيد الاستغفار

لك بنعمتك عليَّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، إنّه لا يغفر الذُّنوب إلّا أنت»[(١)].

فتضمَّن هذا الاستغفارُ الاعترافَ من العبد بربوبيَّته وإلهيَّته وتوحيده، والاعترافَ بأنَّه خالقه العالمُ به، إذ أنشأه نشأةً تستلزم عجزَه عن أداء حقِّه وتقصيرَه فيه، والاعترافَ بأنَّه عبدُه الذي ناصيته بيده وفي قبضته، لا مهربَ له منه، ولا وليَّ له سواه. ثمَّ التزامَ الدُّخول تحت عهده وهو أمره ونهيه الذي عهِدَه إليه على لسان رسله. وأنَّ ذلك بحسب استطاعتي، لا بحسب أداء حقِّك فإنَّه غيرُ مقدورٍ للبشر، وإنَّما هو جهدُ المقلِّ وقدرُ الطاقة؛ ومع ذلك فأنا مصدِّقٌ بوعدك الذي وعدتَه لأهل طاعتك بالثواب ولأهل معصيتك بالعقاب، فأنا مقيمٌ على عهدك، مصدِّقٌ بوعدك. ثمَّ الاستعاذة والاعتصام بك من شرِّ ما فرَّطتُ فيه من أمرك ونهيك، فإنَّك إن لم تُعِذْني من شرِّه، وإلَّا أحاطت بي الهلكة، فإنَّ إضاعةَ حقِّك سببُ الهلاك. وأنا أُقِرُّ لك وألتزمُ بنعمتك عليَّ، وأُقِرُّ وألتزمُ وأبخَعُ[(٢)] بذنبي، فمنك النِّعمةُ والإحسانُ والفضلُ، ومنِّي الذَّنبُ والإساءةُ. فأسألك أن تغفر لي بمحو ذنبي، وأن تَقِيَني من شرِّه، إنّه لا يغفر الذُّنوب إلّا أنت. فلهذا كان هذا الدُّعاء سيِّد الاستغفار، إذ هو متضمِّنٌ لمحض العبوديَّة.

فأيُّ حسنةٍ تبقى للبصير الصادق، مع مشاهدته عيوبَ نفسه وعمله، ومنَّةَ الله عليه؟ فهذا الذي يعطيه نظرُه إلى نفسه ونقصه.



(١) تقدم تخريجه.
(٢) أي: أُقِرُّ وأخضع.

١/ ٣٤٧

فصل

النظر إلىٰ الآمر بالمعصية وما يريد أن يظفر به فيها من العقبات

النظر الرابع: نظرُه إلىٰ الآمرِ له بالمعصية، المزيِّنِ له فعلَها، الحاضِّ له عليها، وهو شيطانُه الموكَّلُ به.

فيفيده النظرُ إليه وملاحظتُه اتِّخاذَه عدوًّا، وكمالَ الاحتراز منه والتّحفُّظ واليقظة والانتباهَ لما يريده منه عدوُّه وهو لا يشعر، فإنَّه يريد أن يظفر به في عَقَبةٍ من **سبع عقَباتٍ**، بعضُها أصعب من بعضٍ، لا ينزل منه من العقبة الشَّاقَّة إلىٰ ما دونها إلَّا إذا عجَز عن الظفر به فيها.

العقبة الأولىٰ: عقبةُ الكفر بالله وبدينه ولقائه وصفات كماله وما أخبرت به رسلُه عنه، فإنَّه إن ظفِر به في هذه العقَبة بردت نارُ عداوته واستراح معه. فإن اقتحَمَ هذه العقَبةَ، ونجا منها ببصيرة الهداية، وسلِم معه نورُ الإيمان طلَبه علىٰ:

العقبة الثانية: وهي عقبة البدعة، إمَّا باعتقاد خلافِ الحقِّ الذي أرسل الله به رسولَه وأنزل به كتابَه، وإمَّا بالتعبُّدِ بما لم يأذن به من الأوضاع والرُّسوم المحدثة في الدِّين التي لا يقبل الله منها شيئًا. والبدعتان في الغالب متلازمتان، قلَّ أن تنفكَّ إحداهما عن الأخرىٰ، كما قال بعضهم: تزوَّجَتْ بدعةُ الأقوال ببدعة الأعمال، فاشتغل الزَّوجان بالعُرس، فلم يفجَأهم إلَّا أولادُ الزِّنا يعيثون في بلاد الإسلام، تضجُّ منهم العباد والبلاد إلىٰ الله تعالىٰ.

وقال شيخنا: تزوَّجت الحقيقةُ الكافرةُ بالبدعة الفاجرة، فوُلد بينهما خسرانُ الدُّنيا والآخرة.

فإن قطع العبدُ هذه العقَبةَ، وخلَص منها بنور السُّنَّة، واعتصَم منها بحقيقة المتابعة وما مضىٰ عليه السلفُ الأخيارُ من الصحابة والتابعين لهم بإحسانٍ،

وهيهات أن تسمح الأعصارُ المتأخِّرةُ بواحدٍ من هذا الضرب! فإن سمحَتْ به نصَب له أهلُ البدع الحبائلَ، وبغَوه الغوائلَ، وقالوا: مبتدعٌ مُحْدِثٌ= فإذا وفَّقه الله لقطع هذه العقبة طلبَه علىٰ:

العقبة الثَّالثة: وهي عقبةُ الكبائر. فإن ظفِر به فيها زيَّنها له، وحسَّنها في عينه، وسوَّفَ به وفتَح له بابَ الإرجاء وأنَّ الإيمانَ هو نفسُ التصديق فلا تقدَح فيه الأعمالُ. وربَّما أجرىٰ علىٰ لسانه وأذنه كلمةً طالما أهلَكَ بها الخلقَ: لا يضرُّ مع التوحيد ذنبٌ، كما لا ينفع مع الشِّرك حسنةٌ![1].

والظفرُ به في عقَبة البدعة أحبُّ إليه لمناقضِتها الدِّين ودفعِها لما بعث الله به رسولَه، وصاحبُها لا يتوب منها، ويدعو الخلقَ إليها؛ ولتضمُّنها القولَ علىٰ الله بلا علمٍ، ومعاداةَ صريح السُّنَّة، ومعاداةَ أهلها، والاجتهادَ علىٰ إطفاء نور السُّنّة، وتوليةَ مَن عزلَه الله ورسوله وعَزْلَ من ولَّاه، واعتبارَ ما ردَّه الله ورسوله وردَّ ما اعتبره، وموالاةَ من عاداه ومعاداةَ من والاه، وإثباتَ ما نفاه ونفيَ ما أثبته، وتكذيبَ الصّادق وتصديقَ الكاذب، ومعارضةَ الحقِّ بالباطل، وقلبَ الحقائق بجعل الحقِّ باطلًا، والباطلِ حقًّا، والإلحادَ في دين الله، وتعميةَ الحقِّ علىٰ القلوب، وطلبَ العوج لصراط الله المستقيم، وفتحَ باب تبديل الدِّين جملةً؛ فإنَّ البدعَ تَسْتدرجُ بصغيرها إلىٰ كبيرها، حتّىٰ ينسلخَ صاحبُها من الدِّين، كما تنسَلُّ الشَّعرةُ من العجين، فمفاسدُ البدع لا يقف عليها إلَّا أربابُ البصائر، والعميانُ في ظلمة العَمىٰ ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[النور: ٤٠].

فإن قطَع هذه العقَبةَ بعصمةٍ من الله، أو بتوبةٍ نصوحٍ تُنجيه، طَلَبه علىٰ:

العقبة الرَّابعة: وهي عقبة الصغائر. فكال له منها بالقُفْزان، وقال: ما عليك إذا اجتنبتَ الكبائرَ ما غشِيتَ من اللَّمَم. أَوَما علمتَ بأنَّها تُكفَّر باجتناب الكبائر

(١) نسبه ابن حزم في «الفصل» (٥/ ٧٤) إلىٰ مقاتل بن سليمان.

وبالحسنات؟ ولا يزال يهوِّن عليه أمرَها حتَّىٰ يُصِرَّ عليها، فيكون مرتكبُ الكبيرة الخائفُ الوَجِلُ النَّادمُ أحسنَ حالًا منه؛ فإنَّ الإصرارَ علىٰ الذنب أقبَحُ منه، ولا كبيرةَ مع التَّوبة والاستغفار، ولا صغيرةَ مع الإصرار. وقد قال ﷺ: «**إيَّاكم ومحقَّراتِ الذُّنوب**»، ثمَّ ضرَب لذلك مثلًا بقومٍ نزلوا بفَلاةٍ من الأرض، فأعوَزَهم الحطبُ، فجعل يجيء هذا بعُودٍ، وهذا بعُودٍ، حتَّىٰ جمعوا حطبًا كثيرًا، فأوقدوه نارًا. فكذلك شأنُ محقَّراتِ الذُّنوب تجتمع علىٰ العبد، ويستهين بشأنها حتَّىٰ تُهلِكه[1].

فإن نجا من هذه العَقبة بالتحرُّز والتحفُّظ، ودوام التَّوبة والاستغفار، وإتباعِ السَّيئةِ الحسنةَ= طلَبَه علىٰ:

العقبة الخامسة: وهي عقَبةُ المباحات التي لا حرج علىٰ فاعلها. فشغَلَه بها عن الاستكثار من الطاعات، وعن الاجتهاد في التزوُّد لمعاده، ثمَّ طمِع فيه أن يستدرجه منها إلىٰ تركِ السُّنن، ثمَّ من تركِ السُّنن إلىٰ ترك الواجبات. وأقلُّ ما ينال منه تفويتُه الأرباحَ العظيمةَ والمنازلَ العاليةَ، ولو عرَفَ السِّعرَ لما فوَّت علىٰ نفسه شيئًا من القربات، ولكنَّه جاهلٌ بالسِّعر.

فإن نجا من هذه العقبة ببصيرةٍ تامَّةٍ ونورٍ هادٍ، ومعرفةٍ بقدر الطَّاعات والاستكثار منها، وقلَّةِ المقام علىٰ الميناء، وخطَرِ التِّجارة، وكرمِ المشتري، وقدرِ ما يعوِّض به التُّجَّارَ، فبخِلَ بأوقاته وضنَّ بأنفاسه أن تذهب في غير ربحٍ= طلَبه العدوُّ علىٰ:

العقبة السادسة: وهي عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات. فأمرَه بها، وحسَّنها في عينه، وزيَّنها له، وأراه ما فيها من الفضل والرِّبح ليشغله

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٨٠٨)، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وإسناده صحيح. انظر: «الصحيحة» (٣٨٩، ٣١٠٢).

بها عمَّا هو أفضل منها وأعظم ربحًا، لأنَّه لمَّا عجَز عن تخسيره أصلَ الثواب طمِعَ في تخسيره كمالَه وفضلَه ودرجاتِه العاليةَ، فشغَلَه بالمفضول عن الفاضل، وبالمرجوح عن الرَّاجح، وبالمحبوب لله عن الأحبِّ إليه، وبالمرضيِّ عن الأرضىٰ له.

ولكن أين أصحاب هذه العَقَبة! فهم الأفراد في العالم، والأكثرون قد ظفر بهم في العقَبات الأُوَل.

فإن نجا منها بفقهٍ في الأعمال ومراتبها عند الله تعالىٰ، ومنازلِها في الفضل، ومعرفةِ مقاديرها، والتَّمييزِ بين عاليها وسافلِها، ومفضولِها وفاضلِها، ورئيسِها ومرؤوسها، وسيِّدِها ومسودها؛ فإنَّ في الأعمال والأقوال سيِّدًا ومسودًا، ورئيسًا ومرؤوسًا، وذروةً وما دونها، كما في الحديث الصحيح: «**سيِّد الاستغفار أن يقول العبد: اللهمَّ أنتَ ربِّي**» الحديث[(١)]، وفي الحديث الآخر: «**الجهادُ ذِروةُ سَنامِ الأمر**»[(٢)]، وفي أثرٍ آخر: أنَّ الأعمال تفاخرت، فذكر كلُّ عملٍ منها مرتبته وفضله، وكان للصَّدَقة مزيّةٌ في الفخر عليهنّ[(٣)].

ولا يقطع هذه العقبةَ إلّا أهلُ البصائر والصِّدق من أولي العلم.

= فإذا نجا منها لم يبق هناك عقَبةٌ يطلبه العدوُّ عليها سوىٰ واحدةٍ لا بدَّ له منها، ولو نجا منها أحدٌ لنجا منها رسلُ الله وأنبياؤه وأكرمُ الخلق عليه. وهي عقَبةُ تسليطِ جندِه عليه بأنواع الأذىٰ باليد واللِّسان والقلب، علىٰ حسب مرتبته في

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) جزء من حديث معاذ بن جبل ﷺ، أخرجه أحمد (٢٢٠١٦، ٢٢٠٦٨)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٣٣٠)، والترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وصححه الترمذي.

(٣) يشير إلىٰ ما روي عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: «ذُكر أنَّ الأعمال الصالحة تتباهىٰ، فتقول الصدقة: أنا أفضلكم». وقد أخرجه ابن خزيمة (٢٤٣٣)، وفي إسناده أبو قرة الأسدي وهو مجهول.

الخير. فكلَّما علَتْ مرتبتُه أجلَبَ عليه بخيله ورَجْله، وظاهَرَ عليه بجنده، وسلَّطَ عليه حزبَه وأهلَه بأنواع التَّسليط. وهذه العقَبةُ لا حيلة له في التخلُّص منها، فإنَّه كلَّما جدَّ في الاستقامة والدَّعوة إلىٰ الله تعالىٰ والقيام بأمره، جدَّ العدوُّ في إغراء السُّفهاء به، فهو في هذه العقبة قد لبِس لَأْمةَ الحرب، وأخذ في محاربة العدوِّ لله وبالله. فعبوديَّتُه فيها عبوديَّةُ خواصِّ العارفين، وهي تسمَّىٰ «عبوديّة المراغمة»، ولا ينتبه لها إلَّا أولو البصائر التّامَّة. ولا شيءَ أحبُّ إلىٰ الله من مراغمةِ وليِّه لعدوِّه وإغاظتِه له.

وقد أشار سبحانه وتعالىٰ إلىٰ هذه العبوديَّة في مواضع من كتابه. أحدها: قوله: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾[النساء: ١٠٠]. سمَّىٰ المهاجَرَ الذي يهاجَر فيه إلىٰ عبادة الله «مراغَمًا» لأنه يُراغَم به عدوُّ الله وعدوُّه، واللهُ يحبُّ من وليِّه مراغمةَ عدوِّه وإغاظته، كما قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[التوبة: ١٢٠].

وقال تعالىٰ في مثل رسول الله ﷺ وأتباعه: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾[الفتح: ٢٩]. فمغايظةُ الكفَّار غايةٌ محبوبةٌ للرّبِّ مطلوبةٌ له، فموافقته فيها من كمال العبوديَّة.

وشرع النبيُّ ﷺ للمصلِّي إذا سها في صلاته سجدتين، وقال: **«إن كانت صلاتُه تامَّةً كانتا ترغيمًا للشَّيطان»**[1]. وسمَّاهما **«المُرْغِمَتين»**[2].

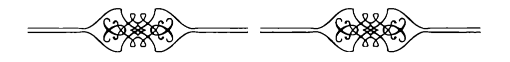
(١) أخرجه مسلم (٥٧١)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) كما في حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، أخرجه أبو داود (١٠٢٥)، وابن خزيمة (١٠٦٣)، وابن حبان (٢٦٥٥، ٢٦٨٩)، وفي سنده عبد الله بن كيسان، فيه لين، انظر: «تهذيب الكمال» (١٥/ ٤٨٠- ٤٨١).

فمن تعبَّد لله بمراغمة عدوِّه، فقد أخذ من الصدِّيقيَّة بسهمٍ وافرٍ. وعلىٰ قدر محبَّة العبد لربِّه وموالاته ومعاداةِ عدوِّه يكون نصيبُه من هذه المراغمة. ولأجل هذه المراغمة حُمِد التَّبختُرُ بين الصَّفَّين، والخيلاءُ والتَّبختُرُ عند صدقة السِّرِّ حيث لا يراه إلَّا الله تعالىٰ[1]؛ لِما في ذلك من إرغام العدوِّ ببذل محبوبه من نفسه وماله لله. وهذا بابٌ من العبوديَّة، ولا يعرفُه ويسلكُه إلَّا القليلُ من الناس. ومن ذاق لذَّتَه وطعمَه بكىٰ علىٰ أيَّامه الأُوَل. وبالله المستعان، وعليه التُّكلان، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله.

وصاحبُ هذا المقام إذا نظر إلىٰ الشَّيطان، ولاحظَه في الذَّنب، راغَمَه بالتَّوبة النَّصوح، فأحدثت له هذه المراغمةُ عبوديّةً أخرىٰ.

فهذه نبذةٌ من بعض لطائف أسرار التَّوبة، لا تَسْتَهِنْ بها، فلعلَّك لا تظفر بها في مصنَّفٍ البتَّة. ولله الحمد والمنَّة، وبه التَّوفيق.



(١) يشير إلىٰ حديث جابر بن عتيك ﷺ، أخرجه أحمد (٢٣٧٤٧، ٢٣٧٤٨، ٢٣٧٥٠، ٢٣٧٥٢)، وأبو داود (٢٦٥٩)، والنسائي (٢٥٥٨)، وابن حبان (٢٩٥، ٤٧٦٢)، وحسَّنه الألباني في «صحيح أبي داود- الأم» (٧/ ٤١١).

١/ ٤٢٢

فصل

نبذ في أحكام التوبة

ونذكر نُبَذًا تتعلَّق بأحكام التَّوبة، تشتدُّ الحاجةُ إليها، ولا يليق بالعبد جهلُها.

منها: المبادرةُ إلىٰ التَّوبة من الذَّنب فرضٌ علىٰ الفور، لا يجوز تأخيرها. فمتىٰ أخَّرها عصىٰ بالتَّأخير، فإذا تاب من الذَّنب بقي عليه توبةٌ أخرىٰ، وهي توبتُه من تأخير التَّوبة. وقلَّ أن يخطر هذا ببال التَّائب، بل عنده: إذا تاب من الذَّنب لم يبق عليه شيءٌ آخر، وقد بقي عليه التَّوبةُ من تأخير التَّوبة.

ولا ينجي من هذا إلَّا توبةٌ عامّةٌ ممَّا يعلم من ذنوبه وممَّا لا يعلم، فإنَّ ما لا يعلمه العبدُ من ذنوبه أكثرُ ممَّا يعلمه. ولا ينفعه في عدم المؤاخذة بها جهلُه إذا كان متمكِّنًا من العلم، فإنَّه عاصٍ بترك العلم والعمل، فالمعصيةُ في حقِّه أشدُّ.

وفي «صحيح ابن حِبَّان»[١] أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**الشِّرك في هذه الأمَّة أخفىٰ من دبيب النمل**». فقال أبو بكر رضي الله عنه: فكيف الخلاص منه يا رسول الله؟ قال: «**أن تقول: اللهمَّ إنِّي أعوذ بك أن أُشْرِك بك وأنا أعلم، وأستغفرُك لما لا أعلم**».

فهذا طلبُ الاستغفار ممَّا يعلم اللهُ أنَّه ذنبٌ، ولا يعلمه العبدُ.

وفي «الصَّحيح»[٢] عنه ﷺ أنَّه كان يدعو في صلاته: «**اللهمَّ اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به منِّي. اللهمَّ اغفر لي جِدِّي وهَزْلي، وخطئي وعَمْدي، وكلُّ ذلك عندي. اللهمَّ اغفر لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ، وما أسررتُ وما أعلنتُ، أنت إلهي لا إله إلَّا أنت**».

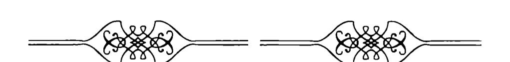
---

(١) كذا، وإنما أخرجه ابن حبان في «المجروحين» (٢/ ٤٨٣)، وابن عدي في «الكامل» (١٠/ ٦٢٢) من حديث أبي بكر رضي الله عنه، أخرجاه في ترجمة يحيىٰ بن كثير أبي النضر، وهو علته إذ ليس ممن يحتج به.

(٢) البخاري (٦٣٩٨)، ومسلم (٢٧١٩)، من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه.

وفي الحديث الآخر: «**اللهمَّ اغفِرْ لي ذنبي كلَّه، دِقَّه وجِلَّه، سرَّه وعلانيتَه، أوَّلَه وآخرَه**»[١].

فهذا التَّعميمُ وهذا الشُّمولُ لتأتيَ التَّوبةُ على ما علِمَ العبدُ من ذنوبه وما لم يعلمه.



(١) أخرجه مسلم (٤٨٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

١/ ٤٢٤

فصل

هل تصح التوبة مع الإصرار علىٰ الذنب

وهل تصحُّ التَّوبة من ذنبٍ مع الإصرار علىٰ غيره؟

فيه قولان لأهل العلم، والمسألة مشكلةٌ، ولها غورٌ، ويحتاج الجزمُ بأحد القولين إلىٰ دليل يحصل به الجزم.

والَّذين صحَّحوها احتجُّوا بأنَّه لمَّا صحَّ الإسلامُ وهو توبةٌ من الكفر مع البقاء علىٰ معصيةٍ لم يَتُبْ منها، فهكذا تصحُّ التَّوبةُ من ذنبٍ مع بقائه علىٰ آخر.

واحتجَّ الآخرون بأنَّ التَّوبة هي الرُّجوع إلىٰ الله تعالىٰ من مخالفته إلىٰ طاعته، وأيُّ رجوعٍ لمن تاب من ذنبٍ واحدٍ، وأصرَّ علىٰ ألف ذنبٍ؟

وسرُّ المسألة: أنَّ التَّوبةَ هل تتبعَّضُ كالمعصية، فيكون تائبًا من وجهٍ دون وجهٍ، وكالإيمان والإسلام؟

والراجحُ تبعُّضُها، فإنَّها كما تتفاضل في كيفيَّتها هكذا تتفاضل في كمِّيَّتها. ولو أتىٰ العبدُ بفرضٍ وترَكَ فرضًا آخر لاستحقَّ العقوبةَ علىٰ ما تركه دون ما فعَلَه. فهكذا إذا تاب من ذنبٍ وأصرَّ علىٰ آخر، لأنَّ التَّوبةَ فرضٌ من الذَّنبين، فقد أدَّىٰ أحدَ الفرضين وترَكَ الآخر، فلا يكون ما ترك مُوجِبًا لبطلان ما فعل، كمن ترك الحجَّ وأتىٰ بالصَّلاة والصِّيام والزَّكاة.

والَّذي عندي في هذه المسألة: أنَّ التَّوبةَ لا تصحُّ من ذنبٍ مع الإصرار علىٰ آخَر من نوعه. وأمَّا التَّوبةُ من ذنبٍ مع مباشرةِ آخرَ لا تعلُّقَ له به ولا هو من نوعه، فتصحُّ. كما إذا تاب من الرِّبا، ولم يتُب من شرب الخمر مثلًا، فإنَّ توبتَه من الرِّبا صحيحةٌ. وأمّا إذا تاب من ربا الفضل، وأصرَّ علىٰ ربا النَّسيئة، أو بالعكس، أو تاب من تناول الحشيشة وأصرَّ علىٰ شرب الخمر، أو بالعكس= فهذا لا تصحُّ توبته. وهو كمن يتوب عن الزِّنا بامرأةٍ، وهو مصرٌّ علىٰ الزِّنا بغيرها غيرُ تائبٍ منه.

١/ ٤٢٧

فصل

هل يشترط في التوبة عدم الرجوع إلىٰ الذنب أبدًا؟

ومن أحكام التَّوبة: أنَّه **هلُ يشترط في صحَّتها أن لا يعود إلىٰ الذَّنب أبدًا، أم ليس ذلك بشرطٍ؟**

فشرَط بعضُ النَّاس عدمَ معاودة الذَّنب، وقال: متىٰ عاد إليه تبيَّنَّا أنَّ التَّوبةَ كانت باطلةً غيرَ صحيحة.

والأكثرون علىٰ أنَّ ذلك ليس بشرطٍ، وإنَّما صحَّةُ التَّوبة تتوقَّف علىٰ الإقلاع عن الذنب، والنَّدمِ عليه، والعزم الجازم علىٰ ترك معاودته. فإذا عاوده مع عزمه حالَ التَّوبة علىٰ أن لا يعاوده، صار كمن ابتدأ المعصيةَ، ولم تبطل توبتُه المتقدِّمة[1].

والمسألةُ مبنيَّةٌ علىٰ أصلٍ، وهو: أنَّ العبد إذا تاب من الذَّنب ثمَّ عاوده، فهل يعود إليه إثمُ الذَّنب الذي كان قد تاب منه ثمَّ عاوده، بحيث يستحقُّ العقوبة علىٰ الأوَّل والآخر إن مات مصرًّا؟ أو أنَّ ذلك قد بطل بالكلِّيَّة، فلا يعود إثمُه، وإنَّما يعاقَب علىٰ هذا الأخير؟

وفي هذا الأصل قولان:

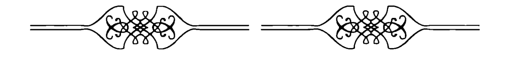
فقالت طائفةٌ: يعود إليه إثمُ الذَّنب الأوّل لفساد التَّوبة وبطلانها بالمعاودة.

قالوا: لأنَّ التَّوبةَ من الذَّنب بمنزلة الإسلام من الكفر، والكافرُ إذا أسلم هدَم إسلامُه ما قبله من إثم الكفر وتوابعه؛ فإن ارتدَّ عاد إليه الإثم الأوَّلُ مع إثم الرِّدّة، كما ثبت في «الصَّحيح»[2] عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مَن أحسَنَ في الإسلام لم يُؤاخَذْ**

(١) انظر: «الإرشاد» للجويني (ص٤٠٩)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (٢/ ٤٥).
(٢) البخاري (٦٩٢١)، ومسلم (١٢٠)، من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.

بما عمِل في الجاهليَّة، ومَن أساء في الإسلام أُخِذَ بالأوَّل والآخِر».

قالوا: والتَّوبةُ واجبةٌ وجوبًا مُضيَّقًا بزمن العمر، فوقتُها مدَّةُ العمر، إذ يجب عليه استصحابُ حكمها في مدَّة عمره. فهي بالنِّسبة إلىٰ العمر كالإمساك عن المفطِّرات في صوم اليوم، فإذا أمسك معظمَ النَّهار، ثمَّ نقَضَ إمساكَه بالمفطِّر بطَل ما تقدَّمه، ولم يُعتدَّ به، وكان بمنزلة من لم يمسك شيئًا من يومه.



فصل

واحتجَّ الفريقُ الآخَر وهم القائلون بأنَّه لا يعود إليه إثمُ الذَّنب الذي تاب منه بنقض التَّوبة بأنَّ ذلك الإثمَ قد ارتفع بالتَّوبة، وصار بمنزلة ما لم يعمله، وكأنَّه لم يكن، فلا يعودُ إليه بعد ذلك؛ وإنَّما العائدُ إثمُ المستأنَف لا الماضي.

قالوا: ولا يُشترَط في صحَّةِ التَّوبة العصمةُ إلىٰ الممات، بل إذا ندِم وأقلَعَ وعزَم علىٰ التَّرك مُحِيَ عنه إثمُ الذَّنب بمجرَّد ذلك، فإذا استأنفه استأنفَ إثمه.

قالوا: وليس هذا كالكفر الذي يُحبِط الأعمال، فإنَّ الكفرَ له شأنٌ آخر ولهذا يُحبِط جميع الحسنات، ومعاودةُ الذَّنب لا تُحبِط ما تقدَّمَه من الحسنات.

قالوا: وقد علَّق الله سبحانه قبولَ التَّوبة بالاستغفار وعدم الإصرار، دون المعاودة، فقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ١٣٥﴾[آل عمران: ١٣٥]. والإصرار: عقدُ القلب علىٰ ارتكاب الذنب متىٰ ظفر به، فهذا الذي يمنَع مغفرتَه.

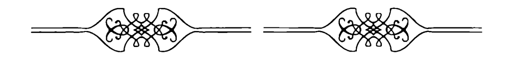
قالوا: وأمَّا استمرارُ التَّوبة فشرطٌ في صحَّة كمالها ونفعها، لا شرطٌ في صحَّة ما مضىٰ منها، وليس ذلك كصيام اليوم وعدد ركعات الصَّلاة، فإنَّ تلك عبادةٌ واحدةٌ لا تكون مقبولةً إلَّا بالإتيان بجميع أركانها وأجزائها. وأمَّا التَّوبةُ فهي عباداتٌ متعدِّدةٌ بتعدُّد الذُّنوب، فكلُّ ذنبٍ له توبةٌ تخصُّه، فإذا أتىٰ بعبادةٍ وترك أخرىٰ لم يكن ما ترك مُوجِبًا لبطلان ما فعل، كما تقدَّم تقريره. بل نظير هذا: أن يصوم من رمضان ويُفطِر منه بلا عذرٍ، فهل يكون ما أفطره منه مبطلًا لأجر ما صامه منه؟ بل نظير من صلَّىٰ ولم يصُم، أو زكَّىٰ ولم يحُجَّ.

ونكتة المسألة: أنَّ التَّوبةَ المتقدِّمةَ حسنةٌ، ومعاودةُ الذنب سيِّئةٌ، فلا تُبطِل معاودتُه هذه الحسنةَ، كما لا تُبطل ما قارنها من الحسنات.

قالوا: وهذا علىٰ أصول أهل السُّنَّة أظهَرُ، فإنَّهم متَّفِقون علىٰ أنَّ الشَّخصَ الواحدَ يكون فيه ولايةٌ لله وعداوةٌ من وجهين مختلفين، ويكون محبوبًا لله مبغوضًا له من وجهين أيضًا، بل يكون فيه إيمانٌ ونفاقٌ، وإيمانٌ وكفرٌ، ويكون إلىٰ أحدهما أقربَ منه إلىٰ الآخر فيكون من أهله، كما قال تعالىٰ: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾[آل عمران: ١٦٧].

وبهذا الأصل أثبت أهلُ السُّنَّة دخولَ أهل الكبائر النَّارَ ثمَّ خروجَهم منها ودخولَهم الجنَّة، لما قام بهم من السَّببين.

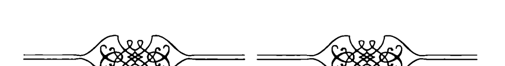
فإذا ثبت هذا فمُعاوِدُ الذَّنبِ مبغوضٌ لله من جهة معاودة الذَّنب، محبوبٌ له من جهة توبته وحسناته السابقة. فرتَّبَ الله سبحانه علىٰ كلِّ سببٍ أثرَه ومسبَّبَه بالعدل والحكمة، ولا يظلم مثقالَ ذرّةٍ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[فصلت: ٤٦].



فصل

من تاب توبة نصوحا عادت إليه حسناته

وإذا استغرقت سيِّئاتُه الحديثاتُ حسناتِه القديماتِ وأبطلتها، ثمَّ تاب منها توبةً نصوحًا خالصةً، عادت إليه حسناتُه، ولم يكن حكمُه حكمَ المستأنفِ لها، بل يقال له: تبتَ على ما أسلفتَ من خيرٍ؛ فإنَّ الحسناتِ التي فعلها في الإسلام أعظمُ من الحسنات التي يفعلها الكافر في كفره من عتاقةٍ وصدقةٍ وصلةٍ. وقد قال حكيم بن حِزامٍ ﵁: يا رسول الله، أرأيتَ عتاقةً أُعتقتُها في الجاهليَّة، وصدقةً تصدَّقتُ بها، وصِلةً وصلتُ بها رحمي، هل لي فيها من أجرٍ؟ فقال: «**أسلمتَ على ما أسلفتَ من خيرٍ**»[1]. وذلك أنَّ الإساءةَ المتخلِّلة بين الطَّاعتين قد ارتفعت بالتَّوبة وصارت كأنَّها لم تكن، فتلاقت الطاعتان واجتمعتا. والله أعلم.



١/ ٤٣٩

فصل

هل تصح التوبة مع تعذر فعل المعصية؟

ومن أحكامها: أنَّ العاصي إذا حيل بينه وبين أسباب المعصية، وعجَز عنها بحيث يتعذَّر وقوعُها منه، هل تصحُّ توبته؟

وهذا كالكاذب والقاذف وشاهِدِ الزُّور إذا قُطِع لسانُه، والزاني إذا جُبَّ، والسَّارقِ إذا أُتي علىٰ أطرافه الأربعة، والمزوِّرِ إذا قُطعت يدُه، ومَن وصل إلىٰ حدٍّ بطلت معه دواعيه إلىٰ معصيةٍ كان يرتكبها.

ففي هذا قولان للناس[١]:

فقالت طائفةٌ: لا تصحُّ توبتُه، لأنَّ التَّوبةَ إنَّما تكون ممَّن يُمكنه الفعلُ والتَّركُ، فالتَّوبةُ من الممكن لا من المستحيل.

قالوا: ولأنَّ التَّوبةَ مخالفةُ داعي النَّفس، وإجابةُ داعي الحقِّ، ولا داعيَ للنَّفس هنا، إذ يعلم استحالة الفعل منها.

قالوا: ولأنَّ هذا كالمُكرَه علىٰ التَّرك، المحمول عليه قهرًا، ومثلُ هذا لا تصحُّ توبته.

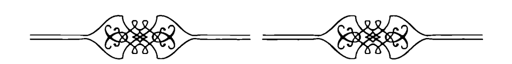
والقول الثاني وهو الصَّواب: أنَّ توبتَه صحيحةٌ ممكنةٌ، بل واقعةٌ؛ فإنَّ أركانَ التَّوبة مجتمعةٌ فيه، والمقدورُ له منها النَّدم. وفي «المسند»[٢] مرفوعًا: «**النَّدَمُ توبةٌ**». فإذا تحقَّق ندمُه علىٰ الذَّنب ولومُه نفسَه عليه، فهذه توبتُه. وكيف يصحُّ أن تُسلَب التَّوبةُ عنه، مع شدَّة ندمه علىٰ الذَّنب، ولومِه نفسَه عليه؟ ولا سيَّما

(١) انظر: «إحياء علوم الدين» (٤/ ٤٠- ٤٢)، و«مجموع الفتاوىٰ» (١٠/ ٧٤٥- ٧٤٦)، (٢٢/ ٢٤٤- ٢٤٥).

(٢) تقدَّم تخريجه.

ما يتبعُ ذلك من بكائه وحزنه وخوفه، وعزمِه الجازم، ونيَّتِه أنّه لو كان صحيحًا والفعلُ مقدورًا له= لما فَعَله.

وإذا كان الشارعُ قد نزَّل العاجزَ عن الطَّاعة منزلةَ الفاعل لها إذا صحَّت نيّتُه، كقوله في الحديث الصَّحيح: «**إذا مرِض العبدُ أو سافرَ كُتِبَ له ما كان يعملُ صحيحًا مقيمًا**»[1]. وفي «الصحيح»[2] أيضًا عنه: «**إنَّ بالمدينة أقوامًا ما سِرْتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلّا كانوا معكم**». قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: «**وهم بالمدينة، حبَسهم العذرُ**». وله نظائر في الحديث. فتنزيلُ العاجزِ عن المعصية، التَّاركِ لها قهرًا مع نيَّته تركَها اختيارًا لو أمكنَتْه منزلةَ التَّاركِ المختارِ أولىٰ.



(١) أخرجه البخاري (٢٩٩٦)، من حديث أبي موسىٰ الأشعري ﷺ.
(٢) أخرجه البخاري (٤٤٢٣)، من حديث أنس ﷺ.

١/ ٤٤٤

فصل

من لم يتمكن من الخروج من المعصية إلا بمعصية

ومن أحكامها: أنَّ مَن توغَّل ذنبًا، وعزَم علىٰ التوبة منه، ولا يمكنه التوبةُ منه إلَّا بارتكاب معصية، كمن أولَجَ في فرجٍ حرام، ثمَّ عزَم علىٰ التَّوبة قبل النَّزع الذي هو جزءُ الوطء؛ وكمن توسَّط أرضًا مغصوبةً، ثمَّ عزم علىٰ التَّوبة، ولا يمكنه إلَّا بالخروج الذي هو مشيٌ فيها وتصرُّفٌ، فكيف يتوبُ من الحرام بحرامٍ مثله؟ وهل تُعقَل التَّوبةُ من الحرام بالحرامٍ؟

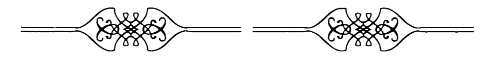
فهذا ممَّا أشكل علىٰ بعض النَّاسِ، حتَّىٰ دعاه ذلك إلىٰ أن قال بسقوط التَّكليف عنه في هذا الفعل الذي يتخلَّص به من الحرام. قال: لأنَّه لا يمكن أن يكون مأمورًا به وهو حرامٌ، وقد تعيَّن في حقِّه طريقًا للخلاص من الحرام، لا يمكن التخلُّصُ بدونه، فلا حكمَ في هذا الفعل البتَّة، وهو بمنزلة العفو الذي لا يدخل تحت التَّكليف.

وقالت طائفةٌ: بل هو حرامٌ واجبٌ، فهو ذو وجهين: مأمورٌ به من أحدهما، منهيٌّ عنه من الآخر. فيؤمر به من حيث تعيُّنه طريقًا للخلاص من الحرام، وهو من هذا الوجه واجبٌ؛ ويُنهىٰ عنه من جهة كونه مباشرةً للحرام، وهو من هذا الوجه محرَّمٌ= فيستحقُّ عليه الثَّوابَ والعقابَ.

والصَّواب: أنَّ هذا النَّزعَ والخروجَ من الأرض توبةٌ ليس بحرامٍ، إذ هو مأمورٌ به قطعًا، ومحالٌ أن يؤمرَ بالحرام، وإنَّما كان النَّزعُ الذي هو جزء الوطء حرامًا لقصد التّلذُّذِ به وتكميلِ الوطء. وأمَّا النَّزعُ الذي يُقْصَد به مفارقةُ الحرام ويقطَعُ لذَّةَ المعصية، فلا دليل علىٰ تحريمه، لا مِن نصٍّ ولا إجماعٍ ولا قياسٍ صحيحٍ يستوي فيه الأصلُ والفرعُ في علَّةِ الحكم. ومحالٌ خلوُّ هذه الحادثة عن حكمٍ لله

فيهـا، وحكمُـه فيهـا: الأمـرُ بالنَّـزع قطعًـا، وإلَّا كانـت الاسـتدامةُ مباحـةً، وذلـك عينُ المحال.

وكذلـك الخـروجُ مـن الأرض مأمـورٌ بـه، وإنَّمـا تكـون الحركـةُ والتَّصـرُّف في ملـك الغيـر حرامًـا إذا كان علىٰ وجـه الانتفاع بها المتضمِّـنِ لإضرار مالكهـا. أمَّا إذا كان لقصـدِ تـركِ الانتفـاع وإزالـةِ الضَّـرر عن المالك، فلم يحرِّم الله ولا رسـولُه ذلك، ولا دلَّ علىٰ تحريمه نظـرٌ صحيـحٌ ولا قيـاسٌ صحيـحٌ. وقياسُـه علىٰ مشـيِ مسـتديمِ الغَصْـب وقيـاسُ نـزع التائـب علـىٰ نزع المستديم: من أفسَـدِ القيـاس وأبينـه بطلانًـا.



١/ ٤٤٨

فصل

من أحكام التوبة وجوب رد الحقوق لأصحابها

ومن أحكامها: أنَّها إذا كانت متضمِّنةً لحقِّ آدميٍّ أن يخرُجَ إليه منه، إمَّا بأدائه وإمَّا باستحلاله منه بعد إعلامه به، إن كان حقًّا ماليًّا أو جنايةً علىٰ بدنه أو بدن موروثه، كما ثبت عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**من كان لأخيه عنده مظلمةٌ من مالٍ أو عرضٍ، فليتحلَّلْه اليومَ، قبل أن لا يكون دينارٌ ولا درهمٌ إلَّا الحسناتُ والسَّيِّئاتُ**»(١).

وإن كانت المظلمة بقدحه فيه بغيبةٍ أو قذفٍ، فهل يُشترَط في توبته منها إعلامُه بذلك بعينه والتّحلُّل منه، أو إعلامه بأنَّه نال من عرضه ولا يشترط تعيينُه، أو لا يشترط لا هذا ولا هذا، بل يكفي في توبته أن يتوب بينه وبين الله تعالىٰ من غير إعلام مَن قذفه واغتابه؟ علىٰ ثلاثة أقوالٍ.

والّذين اشترطوا ذلك احتجُّوا بأنَّ الذَّنبَ حقُّ آدميٍّ، فلا يَسقط إلَّا بإحلاله منه وإبرائه.

ثمَّ مَن لم يصحِّح البراءةَ من الحقِّ المجهول يشترط إعلامَه بعينه، لا سيَّما إذا كان مَن عليه الحقُّ عارفًا بقدره، فلا بدَّ من إعلام مستحقِّه به، لأنَّه قد لا تسمح نفسُه بالإبراء منه إذا عرف قدره.

والقول الآخر: أنَّه لا يُشترَط الإعلامُ بما نال من عرضه وقذفه واغتيابه، بل يكفي توبته بينه وبين الله، ويذكرُ المغتابَ والمقذوفَ في مواضع غيبته وقذفه بضدِّ ما ذكره به من الغيبة، فيبدِّلُ غيبتَه بمدحه والثناء عليه وذكر محاسنه، وقَذْفَه بذكر عفَّته وإحصانه، ويستغفر له بقدر ما اغتابه. وهذا اختيار شيخنا قدَّس الله روحَه(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

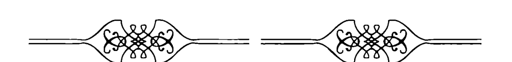
(٢) انظر: «الصارم المسلول» (ص٤٩٣)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ٢٩١)، (١٨/ ١٨٩).

واحتجَّ أصحابُ هذه المقالة بأنَّ إعلامه مفسدةٌ محضةٌ لا تتضمَّن مصلحةً، فإنَّه لا يزيده إلَّا أذًىٰ وحنقًا وغمًّا، وقد كان مستريحًا قبل سماعه، فإذا سمعه ربَّما لم يصبر علىٰ حمله، وأورثَه ضررًا في نفسه أو بدنه، كما قال الشّاعر[1]:

فإنَّ الذي يؤذيك منه سماعُه وإنَّ الذي قالوا وراءك لم يُقَلْ

وما كان هكذا فإنَّ الشَّارعَ لا يبيحه، فضلًا عن أن يوجبه ويأمر به.

وهذا هو الصَّحيحُ من القولين كما رأيتَ. والله أعلم.



(١) البيت للعلاء بن الحضرمي في «عيون الأخبار» (٢/ ١٨).

١/ ٤٥١

فصل

التائب من الذنب هل يرجع إلىٰ ماكان عليه من الدرجة أو لا؟

ومن أحكامها: أنَّ العبد إذا تاب من الذَّنب فهل يرجع إلىٰ ما كان عليه قبل الذَّنب من الدَّرجة التي حطَّه عنها الذَّنبُ، أو لا يرجع إليها؟

اختُلِف في ذلك.

فقالت طائفةٌ: يرجع إلىٰ درجته، لأنَّ التوبةَ تجُبُّ الذَّنبَ بالكلِّيَّة، وتُصيِّره كأن لم يكن، والمقتضي لدرجته ما معه من الإيمان والعمل الصالح، فعاد إليها بالتوبة.

قالوا: ولأنَّ التَّوبةَ حسنةٌ عظيمةٌ وعملٌ صالحٌ، فإن كان ذنبُه قد حطَّه عن درجته، فحسنتُه بالتَّوبة رقَّته إليها. وهذا كمن سقط في بئرٍ، وله صاحبٌ شفيقٌ، أدلىٰ إليه حبلًا تمسَّك به حتَّىٰ رقي منه إلىٰ موضعه. فهكذا التَّوبةُ والعملُ الصَّالحُ مثل هذا القرين الصَّالح والأخ الشَّفيق.

وقالت طائفةٌ: لا يعود إلىٰ درجته وحاله، لأنَّه لم يكن في وقوفٍ، بل كان في ترقٍّ وصعودٍ، فبالذَّنب صار في نزولٍ وهبوطٍ؛ فإذا تاب نقَص عليه ذلك القدرُ الذي كان مستعدًّا فيه للتَّرقِّي.

قالوا: ومثَلُ هذا مثَلُ رجلين سائرين علىٰ طريقٍ سيرًا واحدًا، ثمَّ عرَض لأحدهما ما ردَّه علىٰ عقبه أو أوقفه، وصاحبُه سائرٌ؛ فإذا استقال هذا رجوعَه ووقفتَه وسار بإثر صاحبه لم يلحَقْه أبدًا، لأنَّه كلَّما سار مرحلةً تقدَّم ذلك أخرىٰ.

قالوا: والأوَّلُ سيرُه بقوَّة أعماله، وكلَّما ازداد سيرًا ازدادت قوَّتُه. وذلك الواقف الذي رجع قد ضعفت قوَّةُ سيره بالوقوف والرُّجوع.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يحكي هذا الخلاف، ثمَّ قال: والصَّحيحُ

أنَّ من التَّائبين من لا يعود إلىٰ درجته، ومنهم من يعود إليها، ومنهم من يعود إلىٰ أعلىٰ منها فيصير خيرًا ممَّا كان قبل الذَّنب. وكان داود بعد التَّوبة خيرًا منه قبل الخطيئة.

قال: وهذا بحسب حال التائب بعد توبته وعزمه وحذره وجدِّه وتشميره. فإن كان ذلك أعظمَ ممَّا كان له قبل الذنب عاد خيرًا ممَّا كان وأعلىٰ درجةً، وإن كان مثلَه عاد إلىٰ مثل حاله، وإن كان دونه لم يعُد إلىٰ درجته وكان منحطًّا عنها(١).

وهذا الذي ذكره هو فصلُ النِّزاع في هذه المسألة.

ويتبيَّن هذا بمثلين مضروبين:

أحدهما: رجلٌ مسافرٌ سائرٌ علىٰ الطَّريق بطمأنينةٍ وأمنٍ، فهو يعدو مرَّةً ويمشي أخرىٰ، ويستريح تارةً وينام أخرىٰ. فبينا هو كذلك إذ عرض له في طريق سيره ظلٌّ ظليلٌ، وماءٌ باردٌ، ومقيلٌ، وروضةٌ مزهرةٌ؛ فدَعَتْه نفسُه إلىٰ النُّزول عليها، فنزلَ عليها، فوثب عليه منها عدوٌّ، فأخذَه وقيَّده وكتَّفه ومنَعه عن السَّير، فعاين الهلاك وظنَّ أنَّه منقطَعٌ به، وأنَّه رزقُ الوحوش والسِّباع، وأنَّه قد حيل بينه وبين مقصده الذي يؤمُّه. فبينا هو علىٰ ذلك تتقاذف به الظُّنونُ، إذ وقف علىٰ رأسه والده الشَّفيقُ القادرُ، فحلَّ كِتافَه وقيودَه، وقال: اركب الطَّريقَ، واحذر هذا العدوَّ، فإنَّه علىٰ منازل الطَّريق بالمرصاد. واعلم أنَّك ما دمتَ حاذرًا له متيقِّظًا لا يقدر عليك، فإذا غفلتَ وثَب عليك، وأنا متقدِّمك إلىٰ المنزلة وفرَطٌ لك، فاتَّبِعني علىٰ الأثر.

فإن كان هذا السائرُ كيِّسًا فَطِنًا لبيبًا حاضر الذِّهن والعقل، استقبل سيرَه استقبالًا آخرَ، واشتدَّ حذرُه، وتأهَّب لهذا العدوِّ، وأعدَّ له عُدَّته، فكان سيرُه الثاني

---

(١) انظر: «منهاج السنة» (٢/ ٤٣٢- ٤٣٤)، و«مجموع الفتاوىٰ» (١٠/ ٢٩٣- ٢٩٤)، (١٥/ ٥٤- ٥٧).

أقوىٰ من الأوّل وخيرًا منه، ووصوله إلىٰ المنزل أسرعَ. وإن غفَل عن عدوِّه وعاد إلىٰ مثل حاله الأولىٰ من غير زيادةٍ ولا نقصانٍ ولا قوَّةِ حذرٍ واستعدادٍ عاد كما كان، وهو معرَّضٌ لما عرَض له أولًا. وإن أورثه ذلك توانيًا في سَيره وفتورًا، وتذكُّرًا لطِيب مقيله وحُسنِ ذلك الرَّوض وعذوبة مائه وتفيُّؤ ظلاله، وسكونًا بقلبه إليه= لم يعُدْ إلىٰ مثل سَيره ونقَص عمَّا كان.

المثلُ الثَّاني: عبدٌ في صحَّةٍ وعافية جسمٍ، عرَض له مرضٌ أوجب له حِمْيةً وشربَ دواءٍ وتحفُّظًا من التَّخليط، ونفَض بذلك عنه مادَّةً رديَّةً كانت مُنقِصةً لكمال قوَّته وصحَّته، فعاد بعد المرض أقوىٰ ممَّا كان قبله:

لعلَّ عتبَك محمودٌ عواقبه ... وربَّما صحَّت الأجسامُ بالعِلَلِ[1]

وإن أوجب له ذلك المرضُ ضعفًا في القوَّة، وتدارَكه بمثل ما نقص من قوَّته، عاد إلىٰ مثل ما كان. وإن تداركه بدون ما نقص من قوَّته عاد إلىٰ دون ما كان عليه من القوَّة.

وفي هذين المثلين كفايةٌ لمن تدبَّرهما.

وقد ضُرِب لذلك مثلٌ آخَرُ برجلٍ خرج من بيته يريد الصَّلاةَ في الصَّفِّ الأوَّل، لا يَلوي علىٰ شيءٍ في طريقه، فعرَض له رجلٌ من خلفه جبَذ ثوبَه وأوقفه قليلًا، يريد تعويقَه عن الصَّلاة، فله معه حالان:

أحدهما: أن يشتغل به حتَّىٰ تفوته الصَّلاةُ. فهذه حالُ غيرِ التائب.

الثّانية: أن يجاذبَه علىٰ نفسه، ويتفلَّت منه، لئلَّا تفوتَه الصَّلاة. ثمَّ له بعد هذا التّفلُّت ثلاثةُ أحوالٍ:

أحدها: أن يكون سيره جَمْزًا ووثوبًا، ليستدرك ما فاته بتلك الوقفة، فربَّما

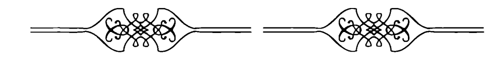
(١) للمتنبي في «ديوانه» (ص٣٣١).

استدركه وزاد عليه.

الثّاني: أن يعود إلىٰ مثل سيره.

الثّالث: أن تورثه تلك الوقفةُ فتورًا وتهاونًا، فيفوتَه فضيلةُ الصَّفِّ الأوّل، أو فضيلةُ الجماعة وأوَّل الوقت.

فهكذا التائبُ سواءً.



١/ ٤٥٦

فصل

أيهما أفضل: المطيع الذي لم يعص أم العاصي التائب؟

ويتبيَّن هذا بمسألةٍ شريفةٍ، وهي أنَّه هل المطيعُ الذي لم يعصِ خيرٌ من العاصي الذي تاب إلىٰ الله توبةً نصوحًا، أو هذا التائبُ أفضَلُ منه؟

اختُلِفَ في ذلك.

فطائفةٌ رجَّحَت مَن لم يعصِ علىٰ من عصىٰ وتاب، واحتجُّوا بوجوهٍ:

أحدها: أنَّ أكملَ الخلق وأفضلَهم أطوَعُهم لله تعالىٰ، وهذا الذي لم يعصِ أطوَعُ، فيكون أفضل.

الثَّاني: أنَّ في زمن اشتغال العاصي بمعصيته يسبقه المطيعُ عدَّةَ مراحل إلىٰ فوق، فتكون درجتُه أعلىٰ من درجته. وغايته أنَّه إذا تاب استقبل سيَره ليلحقَه، وذلك في سيرٍ آخر، فأنَّىٰ له بلَحاقه! فهما بمنزلة رجلين مشتركين في الكسب، كلَّما كسَب أحدُهما شيئًا كسَب الآخرُ مثلَه، فعمَد أحدُهما إلىٰ كسبه فأضاعه، وأمسَكَ عن الكسبِ المستأنَفِ؛ والآخَرُ يجِدُّ في الكسب، فإذا أدركته حميَّةُ المنافسة، وعاد إلىٰ الكسب، وجد صاحبَه قد كسَب في تلك المدَّة، شيئًا كثيرًا، فلا يكسب شيئًا إلَّا كسب صاحبه نظيرَه، فأنَّىٰ له بمساواته!

الثَّالث: أنَّ غايةَ التَّوبةِ أن تمحو عن هذا سيِّئاتِه، ويصير بمنزلة من لم يعملها، فيكون سعيُه في مدَّة المعصية لا له ولا عليه؛ فأين هذا السَّعيُ من سعي مَن هو كاسبٌ رابحٌ!

الرَّابع: أنَّ الله يمقت علىٰ معاصيه ومخالفة أوامره، ففي مدَّة اشتغال هذا بالذُّنوب كان حظُّه المقتَ، وحظُّ المطيع الرِّضا، فالله لم يزل عنه راضيًا، ولا ريب أنَّ هذا خيرٌ ممَّن كان الله راضيًا عنه، فمقَتَه، ثمَّ رضي عنه؛ فإنَّ الرِّضا المستمرَّ خيرٌ من الذي تخلَّلَه المقتُ.

فصل

وطائفةٌ رجَّحت التّائبَ، وإن لم تنكر كونَ الأوّل أكثرَ حسناتٍ منه. واحتجَّت بوجوهٍ:

أحدها: أنَّ عبوديّةَ التَّوبة من أحبِّ العبوديَّات إلىٰ الله وأكرمِها عليه، فإنّه سبحانه يحبُّ التوَّابين. ولو لم تكن التَّوبةُ أحبَّ الأشياء إليه لما ابتلىٰ بالذَّنب أكرمَ الخلقِ عليه. فلمحبَّته لتوبة عبده ابتلاه بالذَّنب الذي يُوجِب وقوعَ محبوبه من التَّوبة، وزيادةَ محبَّتِه لعبده، فإنَّ للتائبين عنده محبَّةً خاصَّةً. يوضِّح ذلك:

الوجه الثّاني: أنَّ للتَّوبة عنده سبحانه منزلةً ليست لغيرها من الطَّاعات. ولهذا يفرح سبحانه بتوبة عبده حين يتوب أعظمَ فرحٍ يُقدَّر، كما مثَّله النبيُّ ﷺ بفرح الواجد لراحلته التي عليها طعامُه وشرابُه في الأرض الدَّوِّيَّةِ المهلكة، بعد ما فقدها وأيِسَ من أسباب الحياة[1]. ولم يجئ هذا الفرحُ في شيءٍ من الطَّاعات سوىٰ التَّوبة. ومعلومٌ أنَّ لهذا الفرح تأثيرًا عظيمًا في حال التائب وقلبِه، ومزيدُه لا يعبَّر عنه. وهو من أسرار تقدير الذُّنوب علىٰ العباد، فالعبدُ ينال بالتَّوبة درجةَ المحبوبيَّة، فيصير حبيبًا لله، فإنَّ الله يحبُّ التَّوَّابين ويحبُّ العبدَ المُفَتَّنَ التَّوَّابَ[2]. يوضِّحه:

الوجه الثّالث: أنَّ عبوديّةَ التَّوبة فيها من الذُّلِّ والانكسار والخضوع، والتّملُّقِ لله، والتّذلُّلِ له= ما هو أحبُّ إليه من كثيرٍ من الأعمال الظَّاهرةِ وإن زادت في القدر والكمِّيَّة علىٰ عبوديَّة التَّوبة؛ فإنَّ الذُّلَّ والانكسارَ روحُ العبوديَّة ومخُّها ولبُّها. يوضِّحه:

---

(١) تقدَّم الحديث وتخريجه.

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده علىٰ «المسند» (٦٠٥، ٨١٠)، وحكم الألباني عليه بالوضع في «الضعيفة» (٩٦). و«المفتَّن»: الذي فُتِن وامتُحن كثيرًا بالذنوب.

الوجه الرّابع: أنَّ حصولَ مراتب الذُّلِّ والانكسار للتّائب أكملُ منها لغيره، فإنَّه قد شارك مَن لم يُذنب في ذلِّ الفقر، والعبوديَّة، والمحبَّة؛ وامتاز عنه بانكسار المعصية، والله سبحانه أقربُ ما يكون إلىٰ عبده عند ذلِّه وانكسار قلبه، كما في الأثر الإسرائيليِّ: «يا ربِّ أين أجدك؟ قال: عند المنكسِرة قلوبُهم من أجلي»[1]. ولأجل هذا «**أقربُ ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجدٌ**»[2]، لأنّه مقامُ ذلٍّ وانكسارٍ بين يدي ربِّه ﷻ.

الوجه الخامس: أنَّ الذَّنبَ قد يكون أنفعَ للعبد ـ إذا اقترنت به التَّوبةُ من كثيرٍ من الطَّاعات. وهذا معنىٰ قول بعض السَّلف: قد يعمل العبدُ الذَّنبَ فيدخل به الجنَّةَ، ويعملُ الطَّاعةَ فيدخلُ بها النَّارَ. قالوا: وكيف ذلك؟ قال: يعمل الذَّنبَ فلا يزال نُصْبَ عينيه، إن قام وإن قعد وإن مشىٰ، كلما ذكَره أحدَثَ له توبةً واستغفارًا وندمًا، فيكونُ ذلك سببَ نجاته. ويعملُ الحسنةَ، فلا تزال نُصْبَ عينيه، إن قام وإن قعد وإن مشىٰ، كلَّما ذكرها أورثته عُجْبًا وكِبْرًا ومِنَّةً، فتكون سببَ هلاكه[3].

فيكون الذَّنبُ موجِبًا لترتُّب طاعاتٍ وحسناتٍ ومعاملاتٍ قلبيَّةٍ من خوفٍ من الله، وحياءٍ منه، وإطراقٍ بين يديه منكِّسًا رأسَه خَجِلًا باكيًا نادمًا مستقيلًا ربَّه. وكلُّ واحدٍ من هذه الآثار أنفَعُ للعبد من طاعةٍ تُوجِب له صولةً، وكبرًا، وازدراءً بالناس، ورؤيتَهم بعين الاحتقار.

ولا ريب أنَّ هذا المُذْنِبَ خيرٌ عند الله وأقربُ إلىٰ النَّجاة والفوز من هذا المعجَبِ بطاعته، الصائلِ بها، المانِّ بها بحاله علىٰ الله وعباده، وإن قال بلسانه

(١) أخرجه عبد الله في زوائد «الزهد» (ص٦٤)، عن عمران بن مسلم القصير قال: قال موسىٰ: يا ربِّ أين أبغيك؟ قال: ابغِني عند المنكسرة قلوبهم.

(٢) قطعة من حديث أبي هريرة ﷺ، أخرجه مسلم (٤٨٢).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٤٢)، عن التابعي الزاهد أبي حازم سلمة بن دينار بنحوه.

خلافَ ذلك، فالله شهيدٌ علىٰ ما في قلبه. ويكاد يعادي الخلائقَ إن لم يعظِّموه ويرفعوه ويخضعوا له، ويجدُ في قلبه بِغضةً لمن لم يفعل به كذلك، ولو فتَّش نفسه حقَّ التّفتيش لرأىٰ فيها ذلك كامنًا. ولهذا تراه عاتبًا علىٰ من لم يعظِّمه ويعرِفْ له حقَّه، متطلِّبًا لعيبه في قالبِ حميَّةٍ لله، وغضبٍ له! وإذا قام بمن يعظِّمه ويحترمه ويخضع له من الذُّنوب أضعافُ ما قام بهذا فتَح له بابَ المعاذير والرَّجاء، وأغمَض عينَه وسمعَه، وكفَّ لسانه وقلبه، وقال: بابُ العصمة عن غير الأنبياء عليهم السلام مسدودٌ! وربَّما ظنَّ أنَّ ذنوبَه تُكفَّر بإجلاله وتعظيمه وإكرامه!

فإذا أراد الله بهذا العبد خيرًا ألقاه في ذنبٍ كسَره به، وعرَّفَه قدرَه، وكفَىٰ به عبادَه شرَّه، ونكَّسَ به رأسَه، واستخرجَ به منه داءَ العُجب والكبر والمنَّة عليه وعلىٰ عباده فيكونُ هذا الذَّنبُ أنفعَ لهذا من طاعاتٍ كثيرةٍ، ويكون بمنزلة شُربِ الدَّواء ليستخرجَ به الدَّاءَ العُضالَ، كما قيل بلسان الحال في قصّة آدم عليه السلام وخروجه من الجنّة بذنبه:

يا آدمُ، لا تجزَعْ من كأسِ زللٍ كانت سببَ كَيْسِك، فقد استُخْرِجَ بها منك داءٌ لا يصلُح أن تُجاورنا به، وأُلْبِسْتَ بها خِلْعةَ العبوديّة.

لعلَّ عتبَك محمودٌ عواقبُه   وربَّما صحَّتِ الأجسامُ بالعِلَلِ[1]

يا آدَمُ، إنَّما ابتليتُك بالذَّنب لأنِّي أُحِبُّ أن أُظْهِرَ فضلي وجودي وكرمي علىٰ من عصاني. «**لو لم تُذنبوا لذهَبَ الله بكم، ولجاء بقومٍ يُذنبون فيستغفرون، فأغفِرُ لهم**»[2].

يا آدمُ، كنتَ تدخل عليَّ دخولَ الملوك علىٰ الملوك، واليومَ تدخلُ عليَّ دخولَ العبيد علىٰ الملوك[3].

(١) للمتنبي وقد تقدَّم قريبًا.
(٢) تقدَّم تخريجه.
(٣) في «طريق الهجرتين» (٢/ ٥١٠) أنَّ في بعض الآثار يقول الله تعالىٰ ذلك لداود عليه السلام.

يـا آدَمُ، إذا عصمتُك وعصمتُ بنيك مـن الذُّنـوب، فعلىٰ مَن أجُـودُ بحلمي؟ وعلىٰ مَن أجُود بعفـوي ومغفـرتي وتوبتي، وأنـا التَّـوَّاب الرَّحيم؟

يـا آدمُ، لا تجزَعْ من قولي لـك: «اخرُجْ منهـا»، فلـك خلقتُهـا، ولكـن اهبِطْ إلىٰ دار المجاهـدة، وابذُرْ بِذارَ التَّقـوىٰ، وأَمطِرْ عليه سحائبَ الجفـون. فإذا اشتدَّ الحَبُّ واستغلَظَ واستوىٰ علىٰ سوقه، فتعـالَ فاحصُدْه.

يـا آدمُ، مـا أهبطتُكَ مـن الجنَّةِ إلَّا لتتوسَّـل إلـيَّ في الصُّعود، ومـا أخرجتُك منها نفيًا لـك عنها، مـا أخرجتُك إلَّا لِتعود.

إن جـرىٰ بيننـا وبينـك عَتْـبٌ أو تنـاءَتْ منَّـا ومنـكَ الدِّيـارُ
فالـوِدادُ الـذي عهـدتَ مقيـمٌ والعِثـارُ الـذي أصبـتَ جُبَـارُ[1]

يا آدَمُ، ذنبٌ تَذِلُّ به لدينا أحبُّ إلينا من طاعةٍ تُدِلُّ بها علينا.

يا آدمُ، أنينُ المذنبين أحبُّ إلينا من تسبيح المُدِلِّين.

«ويـا ابـنَ آدم، إنَّـك مـا دعوتَني ورجوتَني غفـرتُ لـك علىٰ مـا كان منك ولا أبالـي. ابـنَ آدم، لـو بلغـت ذنوبُـك عَنـانَ السَّـماء، ثـمَّ استغفرتَني غفـرتُ لك. يـا ابنَ آدم، لـو لقيتَني بقُرابِ الأرض خطايـا، ثـمَّ لقيتَني لا تشـرك بـي شـيئًا أتيتُـك بقُرابهـا مغفـرةً»[2].

ويُذكر عن بعض العُبَّاد[3] أنّه كان يطوف ليلةً، فسأل ربَّه في الطَّوافِ أن يعصِمَه عـن معصيتـه، ثـمَّ غلبَتْه عيناه فنام، فسمع قائلًا يقـول: أنت تسـألني العصمـةَ، وكلُّ عبـادي يسـألوني العصمـةَ، فـإذا عصمتُهـم فعلىٰ من أجـودُ بمغفرتي وعفـوي؟ وعلىٰ مـن أتـوب؟ وأيـن كرمي وعفـوي ومغفرتي وفضلـي؟ أو نحو هذا مـن الكلام.

---

(١) البيتان للبحتري في «ديوانه» (٢/ ٨٥٢- ٨٥٣).

(٢) تقدَّم تخريجه.

(٣) هو إبراهيم بن أدهم، انظر: «قوت القلوب» (٢/ ١٠٢)، و«الرسالة القشيرية» (ص٣٦٤).

ويا ابنَ آدم، إذا آمنتَ بي ولم تُشرك بي شيئًا أقمتُ حمَلةَ العرش ومَن حولَه يسبِّحون بحمدي ويستغفرون لك، وأنت علىٰ فراشك!

وفي الحديث العظيم الإلهيِّ حديثِ أبي ذرٍّ: «**عبادي، إنَّكم تخطئون باللَّيل والنَّهار، وأنا أغفر الذُّنوب. فمن عَلِم أنِّي ذو قدرةٍ علىٰ المغفرة غفرتُ له ولا أبالي**»(١).

و﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[الزمر: ٥٣].

ويا عبدي! لا تعجَزْ، فمنك الدُّعاء وعليَّ الإجابة، ومنك الاستغفارُ وعليَّ المغفرة، ومنك التَّوبةُ وعليَّ تبديلُ سيِّئاتك حسناتٍ. يوضِّحه:

الوجه السادس: وهو قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[الفرقان: ٧٠]. وهذا من أعظم البشارة للتَّائب إذا اقترن بتوبته إيمانٌ وعملٌ صالحٌ، وهو حقيقةُ التَّوبة. قال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: ما رأيتُ النَّبيَّ ﷺ فرِحَ بشيءٍ قطُّ فرحَه بهذه الآية لمَّا أُنزلت، وفرحَه بـ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحًا مُّبِينًا ① لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[الفتح: ١ - ٢](٢).

واختلفوا في صفة هذا التَّبديل، وهل هو في الدُّنيا أو في الآخرة؟ علىٰ قولين(٣):

فقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما وأصحابُه: هو تبديلهم بقبائح أعمالهم محاسنَها، فبدَّلَهم

---

(١) مجموع من روايتين عن أبي ذر، أما قوله: «عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب» فقد أخرجه مسلم (٢٥٧٧)، وأما الشطر الثاني فقد أخرجه أحمد (٢١٥٤٠، ٢١٣٦٧)، والترمذي (٢٤٩٥)، وابن ماجه (٤٢٥٧).

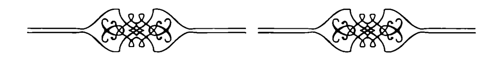
(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (١٠٠٦)، وإسناده ضعيف.

(٣) انظر: «تفسير البغوي» (٦/ ٩٧)، و«طريق الهجرتين» (٢/ ٥٣٤- ٥٤٥).

بالشِّرك إيمانًا، وبالزِّنا عفّةً وإحصانًا، وبالكذب صدقًا، وبالخيانة أمانةً. فعلىٰ هذا معنىٰ الآية: أنَّ صفاتهم القبيحة وأعمالهم السّيِّئة، بُدِّلوا عوضها صفاتٍ جميلةً وأعمالًا صالحةً، كما يبدَّل المريضُ بالمرض صحَّةً، والمبتلىٰ ببلائه عافيةً.

وقال سعيد بن المسيِّب وغيره من التَّابعين: هو تبديلُ الله سيِّئاتهم التي عملوها بحسناتٍ يوم القيامة، فيعطيهم مكانَ كلِّ سيِّئةٍ حسنةً.

الوجه السَّابع: وهو أنَّ التَّائبَ قد بدَّل كلَّ سيِّئةٍ حسنةً بندمه عليها، إذ هو توبةُ تلك السيِّئة، والنَّدمُ توبةٌ، والتَّوبةُ من كلِّ ذنبٍ حسنةٌ، فصار كلُّ ذنبٍ عَمِله زائلًا بالتَّوبة التي حلَّت محلَّه وهي حسنةٌ، فصار له مكانَ كلِّ سيِّئةٍ حسنةٌ بهذا الاعتبار. فتأمَّله فإنَّه من ألطف الوجوه.



فصل

١/ ٤٧٢

حقيقة التوبة العزم على الفعل المأمور والإتيان به

وكثيرٌ من الناس إنَّما يفسِّر التوبةَ بالعزم علىٰ أن لا يعاود الذَّنبَ، وبالإقلاع عنه في الحال، وبالنَّدَم عليه في الماضي، وإن كان في حقِّ آدميٍّ فلا بدَّ من أمرٍ رابعٍ، وهو التّحلُّلُ منه.

وهذا الذي ذكروه بعضُ مسمَّىٰ التوبة بل شطرُها، وإلَّا فالتَّوبةُ في كلام الله ورسوله كما تتضمَّن ذلك، تتضمَّنُ العزمَ علىٰ فعل المأمور والتزامه. فلا يكون بمجرَّد الإقلاع والعزم والندم تائبًا، حتَّىٰ يوجدَ منه العزمُ الجازمُ علىٰ فعل المأمور والإتيان به. هذا حقيقة التوبة، وهي اسمٌ لمجموع الأمرين، لكنَّها إذا قُرنت بفعل المأمور كانت عبارةً عمَّا ذكروه، فإذا أُفردت تضمَّنت الأمرين. وهي كلفظة «التقوىٰ» التي عند إفرادها تقتضي فعلَ ما أمَر الله تعالىٰ به وتركَ ما نهىٰ عنه، وعند اقترانها بفعل المأمور تقتضي الانتهاءَ عن المحظور.

فإنَّ حقيقةَ التوبة: الرُّجوعُ إلىٰ الله بالتزام فعلِ ما يحبُّ وتركِ ما يكره، فهي رجوعٌ من مكروهٍ إلىٰ محبوبٍ، فالرُّجوعُ إلىٰ المحبوب جزءُ مسمَّاها، والرُّجوعُ عن المكروه الجزءُ الآخَر.

ولهذا علَّق سبحانه الفلاحَ المطلقَ علىٰ فعلِ المأمور وتركِ المحظور بها، فقال تعالىٰ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]. فكلُّ تائبٍ مفلحٌ، ولا يكون مفلحًا إلَّا مَن فعَلَ ما أُمِر به وترَكَ ما نُهي عنه.

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[الحجرات: ١١]، وتاركُ المأمور ظالمٌ، كما أنَّ فاعلَ المحظور ظالمٌ، وزوالُ اسم الظُّلم عنه بالتَّوبة الجامعة للأمرين.

فالناس قسمان: تائبٌ وظالمٌ، ليس إلَّا. فالتائبون هم: ﴿ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾[التوبة: ١١٢]. فحفظُ حدوده جزءُ التوبة، والتَّوبةُ هي مجموعُ هذه الأمور. وإنّما سمِّي التائبُ تائبًا لرجوعه إلىٰ أمر الله من نهيه، وإلىٰ طاعته من معصيته، كما تقدَّم.

فإذَنْ التَّوبةُ هي حقيقة دين الإسلام، والدِّين كلُّه داخلٌ في مسمّىٰ التَّوبة وبهذا استحقَّ التَّائبُ أن يكون حبيبَ الله، فإنّ الله يحبُّ التّوّابين، وإنّما يحبُّ الله مَن فعَلَ ما أمر به، وترَكَ ما نهىٰ عنه.

فإذن التَّوبةُ هي الرُّجوعُ ممَّا يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا إلىٰ ما يحبُّه ظاهرًا وباطنًا، ويدخل في مسمَّاها الإسلامُ والإيمانُ والإحسانُ، ويتناول جميعَ المقامات. ولهذا كانت غايةَ كلِّ مؤمنٍ، وبدايةَ الأمر وخاتمتَه، كما تقدَّم. وهي الغايةُ التي وُجِد لأجلها الخلقُ والأمرُ. والتَّوحيدُ جزءٌ منها، بل جزؤها الأعظم الذي عليه بناؤها.

وأكثرُ النَّاس لا يعرفون قدرَ التَّوبة ولا حقيقتَها، فضلًا عن القيام بها علمًا وعملًا وحالًا. ولم يجعل الله محبّتَه للتَّوَّابين إلَّا وهم خواصُّ الخلقِ لديه. ولولا أنَّ التَّوبةَ اسمٌ جامعٌ لشرائع الإسلام وحقائق الإيمان لم يكن الرّبُّ تعالىٰ يفرَحُ بتوبة عبده ذلك الفرحَ العظيمَ. فجميعُ ما يتكلَّم فيه النَّاسُ من المقامات والأحوال هو تفاصيلُ التَّوبة وآثارُها.

١/ ٤٧٤

فصل

أنواع الاستغفار

وأمَّا الاستغفار، فهو نوعان: مفردٌ، ومقرونٌ بالتوبة.

فالمفرد: كقول نوحٍ عليه السّلام لقومه: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾[نوح: ١٠-١١]، وكقول صالحٍ لقومه: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[النمل: ٤٦]، وكقوله تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[البقرة: ١٩٩]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[الأنفال: ٣٣].

والمقرونُ: كقوله تعالىٰ: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾[هود: ٣]، وقولِ صالحٍ لقومه: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾[هود: ٦١]، وقول شعيبٍ: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ۝٩٠﴾[هود: ٩٠].

فالاستغفارُ المفردُ كالتَّوبة، بل هو التَّوبة نفسُها، مع تضمُّنه طلبَ المغفرة من الله. وهي محوُ الذنب، وإزالةُ أثره، ووقايةُ شرِّه، لا كما ظنَّه بعضُ النَّاس أنَّها السَّتْر، فإنَّ الله يستُر علىٰ من يغفر له ومن لا يغفر له، ولكنَّ السَّترَ لازمُ مسمَّاها أو جزؤه، فدلالتُها عليه إمَّا بالتَّضمُّن وإمَّا باللُّزوم. وحقيقتها: وقاية شرِّ الذَّنب، ومنه المِغْفَر، لما يقي الرَّأسَ من الأذىٰ، والسَّترُ لازمٌ لهذا المعنىٰ، وإلّا فالعِمامةُ لا تسمَّىٰ مِغْفرًا، ولا القُبْعُ[1] ونحوه مع ستره، فلا بدَّ في لفظ المِغْفَر من الوقاية.

وهذا الاستغفار الذي يمنع العذابَ في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ

(١) طاقية صغيرة من القطن تلبس تحت العمامة، انظر: «المعجم العربي لأسماء الملابس» (ص٣٧٦).

يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[الأنفال: ٣٣]، فإنَّ الله لا يعذِّب مستغفرًا. وأمَّا من أصرَّ علىٰ الذَّنب، وطلَب من الله مغفرتَه، فهذا ليس باستغفارٍ مطلقٍ، ولهذا لا يمنع العذاب.

فالاستغفار يتضمَّن التَّوبةَ، والتَّوبةُ تتضمَّن الاستغفارَ، وكلٌّ واحدٍ منهما يدخل في مسمَّىٰ الآخر عند الإطلاق. وأمَّا عند اقتران إحدىٰ اللَّفظتين بالأخرىٰ، فالاستغفارُ: طلبُ وقايةِ شرِّ ما مضىٰ، والتَّوبةُ: الرُّجوعُ وطلبُ وقاية شرِّ ما يخافه في المستقبل من سيِّئات أعماله.

فهاهنا ذنبان: ذنبٌ قد مضىٰ، فالاستغفارُ: طلبُ وقاية شرِّه. وذنبٌ يخافُ وقوعَه، فالتَّوبةُ: العزم علىٰ أن لا يفعله. والرُّجوعُ إلىٰ الله يتناول النَّوعين: رجوعٌ إليه ليقيه شرَّ ما مضىٰ، ورجوعٌ إليه ليقيَه شرَّ ما يَستقبِلُ من شرِّ نفسه وسيِّئات أعماله.

وأيضًا فإنَّ المذنبَ بمنزلة من قد ارتكب طريقًا تؤدِّيه إلىٰ هلاكه ولا تُوصِلهُ إلىٰ المقصود، فهو مأمورٌ أن يولِّيها ظهرَه، ويرجع إلىٰ الطَّريق التي تُوصِلُه وفيها فلاحه.

فهاهنا أمران لا بدَّ منهما: مفارقةُ شيءٍ، والرُّجوعُ إلىٰ غيره. فخُصَّت التّوبةُ بالرُّجوع، والاستغفارُ بالمفارقة، وعند إفراد أحدهما يتناول الأمرين. ولهذا والله أعلم جاء الأمرُ بهما مرتَّبًا بقوله: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾[هود: ٣]، فإنّه الرُّجوعُ إلىٰ طريق الحقِّ بعد مفارقة طريق الباطل.

وأيضًا فالاستغفارُ من باب طلبِ إزالةِ الضَّرر، والتَّوبةُ طلبُ جلبِ المنفعة. فالمغفرةُ أن يقيَه شرَّ الذَّنب، والتَّوبةُ أن يحصل له بعد الوقاية ما يحبُّه، فكلٌّ منهما يستلزم الآخرَ عند إفراده. والله أعلم.

فصل

١/ ٤٧٦

حقيقة التوبة النصوح

وهذا يتبيَّن بذكر التَّوبة النَّصوح وحقيقتها. قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾[التحريم: ٨]. فجعَلَ وقايةَ شرِّ السيِّئات وهو تكفيرُها بزوال ما يكره العبدُ، ودخولَ الجنَّات وهو حصولُ ما يحبُّ العبدُ ـ منوطًا بحصول التَّوبة النَّصوح.

و«النَّصوح» علىٰ وزن فَعولٍ المعدولِ عن فاعلٍ قصدًا للمبالغة كالشَّكور والصَّبور. وأصلُ مادَّة (ن ص ح) لخلاص الشَّيء من الغشِّ والشَّوائب الغريبة، وهو ملاقٍ في الاشتقاق الأكبر لـ«نصَعَ» إذا خَلَص. فالنُّصحُ في التوبة والعبادة والمشورة: تخليصُها من كلِّ غشٍّ ونقصٍ وفسادٍ، وإيقاعُها علىٰ أكمل الوجوه. والنُّصح ضدُّ الغشِّ.

وقد اختلفت عبارات السَّلف عنها، ومرجعها إلىٰ شيءٍ واحدٍ. فقال عمر بن الخطَّاب وأبيُّ بن كعبٍ ﵄: التَّوبة النَّصوحُ أن يتوبَ من الذَّنب ثمَّ لا يعودَ إليه، كما لا يعودُ اللَّبنُ إلىٰ الضَّرع [١].

وقال الحسن البصريُّ: هي أن يكون العبدُ نادمًا علىٰ ما مضىٰ مُجْمِعًا علىٰ أن لا يعود فيه. وقال الكلبيُّ: أن يستغفر باللِّسان، ويندم بالقلب، ويمسك بالبدن. وقال سعيد بن المسيِّب: توبةً نصوحًا، تنصحون بها أنفسكم. جعلَها بمعنىٰ ناصحةٍ للتَّائب، كضَرُوب المعدول عن ضاربٍ. وأصحابُ القول الأوَّل يجعلونها بمعنىٰ المفعول، أي قد نصَح فيها التَّائبُ ولم يشُبْها بغِشٍّ. فهي إمَّا

---

(١) انظر: «تفسير البغوي» (٨/ ١٦٩- ١٧٠)، وفيه الأقوال الآتية.

بمعنىٰ منصوحٍ فيها، كركوبةٍ وحلوبةٍ بمعنىٰ مركوبةٍ ومحلوبةٍ، أو بمعنىٰ الفاعل، أي ناصحةٍ كخالصةٍ وصادقةٍ.

وقال محمَّد بن كعبٍ القُرَظيُّ ﷺ: يجمعها أربعةُ أشياء: الاستغفارُ باللِّسان، والإقلاعُ بالأبدان، وإضمارُ تركِ العَودِ بالجَنان، ومهاجرةُ سيِّء الإخوان.

قلت: النُّصحُ في التَّوبة يتضمَّن ثلاثةَ أشياء:

تعميمُ جميع الذُّنوب واستغراقُها بها بحيث لا تدع ذنبًا إلَّا تناولته.

والثَّاني: إجماعُ العزم والصِّدق بكلِّيَّته عليها، بحيث لا يبقىٰ عنده تردُّدٌ ولا تلوُّمٌ ولا انتظارٌ، بل يُجْمِعُ عليها كلَّ إرادته وعزيمته مبادرًا بها.

الثَّالث: تخليصُها من الشَّوائب والعلل القادحة في إخلاصِها ووقوعِها لمحض الخوف من الله تعالىٰ وخشيته، والرَّغبة فيما لديه، والرَّهبة ممَّا عنده؛ لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته ومنصبه ورياسته، أو لحفظ حاله أو حفظ قوَّته وماله، أو استدعاءِ حمدِ الناس، أو الهرَب من ذمِّهم، أو لئلَّا يتسلَّطَ عليه السُّفهاءُ، أو لقضاءِ نَهْمته من الذَّنب، أو لإفلاسه وعجزه، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحَّتها وخلوصها لله.

فالأوَّلُ يتعلَّق بما يتوب منه، والثَّالثُ بمن يتوب إليه، والأوسطُ يتعلَّق بذات التائب ونفسه.

فنصحُ التَّوبةِ: الصِّدقُ فيها، والإخلاص، وتعميمُ الذُّنوب بها. ولا ريب أنَّ هذه التَّوبةَ تستلزم الاستغفارَ وتتضمَّنه، وتمحو جميعَ الذُّنوب، وهي أكملُ ما يكون من التَّوبة. والله المستعان، وعليه التُّكلان، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله.

١/ ٤٧٩

فصل

في الفرق بين تكفير السّيِّئات ومغفرة الذُّنوب

وقد جاء في كتاب الله تعالىٰ ذكرُهما مقترنين، وذكرُ كلٍّ واحدٍ منهما مفردًا عن الآخَرَ.

فالمقترنان كقوله تعالىٰ حاكيًا عن عباده المؤمنين: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾[آل عمران: ١٩٣].

والمفرد كقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾[محمد: ٢]، وقوله في المغفرة: ﴿**وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ**﴾[محمد: ١٥]، وقوله: ﴿**رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا**﴾[آل عمران: ١٤٧] ونظائره.

فهاهنا أربعة أمورٍ: ذنوبٌ، وسيِّئاتٌ، ومغفرةٌ، وتكفيرٌ.

فالذُّنوب: المراد بها الكبائر. والمراد بالسّيِّئات: الصّغائر، وما تعمل فيه الكفَّارة من الخطأ وما جرىٰ مجراه.

والدليلُ علىٰ أنَّ السيِّئات هي الصَّغائر، والتَّكفيرُ لها: قوله تعالىٰ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[النساء: ٣١]. وفي «صحيح مسلمٍ»[(١)] من حديث أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ كان يقول: «**الصَّلوات الخمس، والجمعة إلىٰ الجمعة، ورمضان إلىٰ رمضان مكفِّراتٌ لما بينهنَّ إذا اجْتُنِبَت الكبائر**».

ولفظُ «المغفرة» أكمل من لفظ «التكفير»، ولهذا كان مع الكبائر، والتكفيرُ

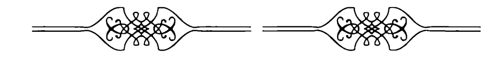
---

(١) برقم (٢٣٣).

مع الصَّغائر؛ فإنَّ لفظَ «المغفرة» يتضمَّن الوقايةَ والحفظَ، ولفظَ «التكفير» يتضمَّن السَّترَ والإزالةَ، وعند الإفراد يدخل كلٌّ منهما في الآخر كما تقدَّم. فقوله تعالىٰ: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ﴾[محمد: ٢] يتناول صغائرها وكبائرها، ومحوَها ووقايةَ شرِّها، بل التكفيرُ المفردُ يتناول أسوأَ الأعمال، كما قال: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾[الزمر: ٣٥].

وإذا فُهِمَ هذا فُهِمَ السِّرُّ في الوعد علىٰ المصائب والهموم والغموم والوَصَب والنَّصَب بالتكفير دون المغفرة، كقوله في الحديث الصَّحيح: «**ما يصيب المؤمنَ من همٍّ ولا غمٍّ ولا أذًىٰ حتّىٰ الشَّوكةِ يُشَاكُها إلّا كفَّر الله بها من خطاياه**»[(١)]، فإنَّ المصائبَ لا تستقلُّ بمغفرة الذُّنوب، ولا تُغْفَر الذُّنوبُ جميعُها إلَّا بالتَّوبة، أو بحسناتٍ تتضاءل وتتلاشىٰ فيها الذُّنوبُ، فهي كالبحر لا يتغيَّر بالجِيَف، وإذا بلغ الماءُ قلَّتين لم يحمل الخَبَث!

فلأهل الذُّنوب ثلاثةُ أنهارٍ عظامٍ يتطهَّرون بها في الدُّنيا، فإن لم تَفِ بطهرهم طُهِّروا في نهر الجحيم يوم القيامة: نهرُ التوبة النَّصوح، ونهرُ الحسنات المستغرقة للأوزار المحيطة بها، ونهرُ المصائب العظيمة المكفِّرة. فإذا أراد الله بعبد خيرًا أدخله أحدَ هذه الأنهار الثَّلاثة، فورد القيامةَ طيِّبًا طاهرًا، فلم يحتَجْ إلىٰ النَّهر الرَّابع.



(١) أخرجه البخاري (٥٦٤١، ٥٦٤٢)، ومسلم (٢٥٧٣)، من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما.

١/ ٤٨١

فصل

توبة العبد واقعة بين توبتين من الله

وتوبةُ العبد إلىٰ الله تعالىٰ محفوفةٌ بتوبةٍ من الله عليه قبلها، وتوبةٍ منه بعدها، فتوبتُه بين توبتين من الله: سابقةٍ ولاحقةٍ، فإنَّه تاب عليه أوَّلًا إذنًا وتوفيقًا وإلهامًا، فتاب العبدُ، فتاب اللهُ عليه ثانيًا قبولًا وإثابةً. قال تعالىٰ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾[التوبة: ١١٧ - ١١٨]. فأخبر سبحانه أنّ توبتَه عليهم سبقت توبتَهم، وأنَّها هي التي جعلتهم تائبين، فكانت سببًا ومقتضيًا لتوبتهم. فدلَّ علىٰ أنّهم ما تابوا حتَّىٰ تاب عليهم، والحكمُ ينتفي لانتفاء علّته.

ونظيرُ هذا: هدايتُه لعبده قبل الاهتداء، فيهتدي بهدايته، فتوجب له تلك الهدايةُ هدايةً أخرىٰ يُثيبه الله بها علىٰ هدايته، فإنَّ من ثواب الهدىٰ الهدىٰ بعده، كما أنَّ من عقوبة الضَّلالةِ الضَّلالةَ بعدها. قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾[محمد: ١٧] فهداهم أولًا فاهتدوا، فزادهم هدًىٰ ثانيًا. وعكسُه في أهل الزّيغ كقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[الصف: ٥] فهذه الإزاغةُ الثَّانيةُ عقوبةٌ علىٰ زيغهم.

وهذا القدرُ من سرِّ اسمه الأوَّل الآخر، فهو المُعِدُّ وهو المُمِدُّ، ومنه السَّببُ والمسبَّبُ، وهو الذي يعيذ من نفسه بنفسه، ويُجير من نفسه بنفسه، كما قال أعرفُ الخلق به: «**وأعوذ بك منك**»[1]. والعبد توَّابٌ، والله توَّابٌ. فتوبةُ العبد رجوعُه إلىٰ سيِّده بعد الإباق، وتوبةُ الرَّبِّ نوعان: إذنٌ وتوفيقٌ، وقبولٌ واعتداد.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٦).

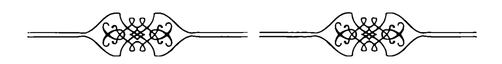
١/ ٤٨٢

فصل

مبدأ التوبة ومنتهاها

والتّوبةُ لها مبدأٌ ومنتهًىٰ. فمبدؤها: الرُّجوعُ إلىٰ الله بسلوك صراطه المستقيم الذي نصَبه لعباده موصلًا إلىٰ رضوانه، وأمرَهم بسلوكه بقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾[الأنعام: ١٥٣]، وبقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[الشورىٰ: ٥٢- ٥٣]، وبقوله: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾[الحج: ٢٤].

ونهايتُها: الرُّجوعُ إليه في المعاد، وسلوكُ صراطه الذي نصبَه موصلًا إلىٰ جنَّته. فمن رجَع إلىٰ الله في هذه الدَّار بالتَّوبة رجَع إليه في المعاد بالثَّواب.

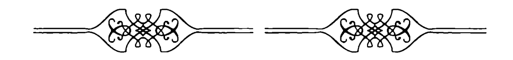


١/ ٤٨٤

فصل

أقسام الذنوب: صغائر وكبائر

والذُّنوب تنقسم إلىٰ صغائر وكبائر بنصِّ القرآن والسُّنّة وإجماع السَّلف والاعتبار. قال تعالىٰ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾[النساء: ٣١]. وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾[النجم: ٣٢]. وفي «الصحيح»[1] عن النبيِّ ﷺ: «**الصّلواتُ الخَمسُ، والجمعةُ إلىٰ الجمعة، ورمضانُ إلىٰ رمضان مكفِّراتٌ لما بينهنَّ، إذا اجتُنبَتِ الكبائرُ**».



(١) تقدَّم تخريجه.

١/ ٤٨٦

فصل

اللمم ما دون الكبائر

فأمَّا اللَّمَمُ، فقد روي عن جماعةٍ من السّلف أنَّه الإلمامُ بالذَّنب مرّةً، ثمَّ لا يعود إليه وإن كان كبيرًا. قال البغويُّ رحمه الله[(١)]: هذا قول أبي هريرة، ومجاهدٍ، والحسن، وروايةُ عطاءٍ عن ابن عبَّاسٍ. قال: وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: اللَّمَمُ ما دون الشِّرك. قال السُّدِّيُّ: قال أبو صالحٍ: سئلتُ عن قول الله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾[النجم: ٣٢]، فقلتُ: هو الرَّجل يُلِمُّ بالذَّنب ثمَّ لا يعاوده. فذكرتُ ذلك لابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما فقال: لقد أعانك عليها ملَكٌ كريمٌ.

والجمهورُ علىٰ أنَّ اللَّمَمَ ما دون الكبائر. وهو أصحُّ الرِّوايتين عن ابن عبّاسٍ، كما في «صحيح البخاريِّ»[(٢)] من حديث طاووسٍ عنه قال: ما رأيتُ أشبهَ باللَّمَم ممَّا قال أبو هريرة عن النبيِّ ﷺ: «**إنَّ الله كتَب علىٰ ابن آدم حظَّه من الزِّنا، أدرك ذلك لا محالة. فزنا العينِ النَّظرُ، وزنا اللِّسانِ النُّطقُ. والنَّفسُ تمنَّىٰ وتشتهي، والفرجُ يصدِّق ذلك ويكذِّبه**». ورواه مسلمٌ[(٣)] من حديث سهيل بن أبي صالحٍ عن أبيه عن أبي هريرة، وفيه: «**والعينانِ زناهما النَّظرُ، والأذنانِ زناهما الاستماعُ، واللِّسانُ زناه الكلامُ، واليدُ زناها البطشُ، والرِّجلُ زناها الخُطا**».

وقال الكلبيُّ: اللَّمَمُ علىٰ وجهين: كلُّ ذنبٍ لم يَذكُر الله عليه حدًّا في الدُّنيا ولا عذابًا في الآخرة، فذلك الذي تكفِّره الصّلواتُ الخمسُ، ما لم يبلغ الكبائرَ والفواحشَ. والوجهُ الآخر: هو الذَّنب العظيمُ، يُلِمُّ به المسلمُ المرَّةَ بعد المرَّة، فيتوب منه[(٤)].

---

(١) في «التفسير» (٧/ ٤١١).
(٢) برقم (٦٢٤٣)، وأخرجه مسلم (٢٦١٢).
(٣) برقم (٢٦٥٧).
(٤) انظر لقول الكلبي وما يليه: «تفسير البغوي» (٧/ ٤١٣).

وقال سعيد بن المسيِّب: هو ما ألمَّ بالقلب، أي خطَر عليه.

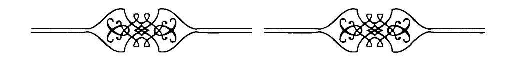
وقال الحسينُ بن الفضلِ: اللَّمَمُ: النَّظَرُ من غير تعمُّدٍ، فهو مغفورٌ، فإن أعاد النَّظرَ فليس بلَمَمٍ، وهو ذنبٌ.

وقد روىٰ عطاءٌ عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن تغفِرِ اللهمَّ تغفِرْ جَمَّا وأيُّ عبد لك لا ألمَّا[1]»[2]

وذهبت طائفةٌ ثالثةٌ إلىٰ أنَّ اللَّمَم: ما فعلوه في الجاهليَّة قبل إسلامهم، فاللهُ لا يؤاخذُهم به. وذلك أنَّ المشركين قالوا للمسلمين: أنتم بالأمس كنتم تعملون معنا، فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية. وهذا قول زيد بن ثابتٍ وزيد بن أسلم[3].

والصحيح قولُ الجمهور: إنَّ اللَّمَم هو صِغارُ الذُّنوب، كالنَّظرة والغَمْزة والقُبلة ونحو ذلك. هذا قول جمهور الصَّحابة ومَن بعدهم. وهو قول أبي هريرة، وعبد الله بن مسعودٍ، وابن عبَّاسٍ، ومسروقٍ، والشَّعبيِّ[4].



(١) الرَّجز لُأمية بن أبي الصَّلْت، وينسب إلىٰ أبي خِراش الهذلي، وقد تمثل به النبي ﷺ، انظر: «أعلام الحديث» للخطابي (٢/ ٩٧٧)، و«غريب الحديث» لابن قتيبة (٢/ ٣٠٣).
(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٨٤)، وصححه الترمذي.
(٣) «تفسير البغوي» (٧/ ٤١٢).
(٤) المصدر السابق.

١/ ٤٩٢

فصل

ما هي الكبائر؟

وأمَّا الكبائر، فاختلف السَّلفُ فيها اختلافًا لا يرجع إلىٰ تباينٍ وتضادٍّ، وأقوالهم متقاربةٌ.

وفي «الصَّحيحين»(١) من حديث الشَّعبيِّ، عن عبد الله بن عمرٍو، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**الكبائر: الإشراكُ بالله، وعقوقُ الوالدين، وقتلُ النَّفس، واليمينُ الغَموس**».

وفيهما(٢) عن عبد الرَّحمن بن أبي بكرة، عن أبيه، عن النبيِّ ﷺ: «**ألا أنبِّئكم بأكبر الكبائر؟**» ثلاثًا. قالوا: بلىٰ، يا رسول الله، قال: «**الإشراك بالله، وعقوق الوالدين**». وجَلَس وكان متَّكئًا، فقال: «**ألا، وقولُ الزُّور**»، فما زال يكرِّرها حتَّىٰ قلنا: ليته سكت.

وفي «الصَّحيح»(٣) من حديث أبي وائلٍ، عن عمرو بن شُرَحبيل، عن عبد الله قال: قلت: يا رسولَ الله، أيُّ الذّنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله ندًّا وهو خلَقَك**». قال: قلت: ثمَّ أيٌّ؟ قال: «**أن تقتل ولدَك مخافةَ أن يأكلَ معك**». قال: قلت: ثمَّ أيٌّ؟ قال: «**أن تُزانيَ حليلةَ جارك**». فأنزل الله تعالىٰ تصديقَ قول النَّبيِّ ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ﴾[الفرقان: ٦٨].

وفي «الصحيحين»(٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**اجتنبوا السَّبعَ المُوبقات**». قالوا: يا رسول الله، وما هنَّ؟ قال: «**الشِّركُ بالله، والسِّحرُ،**

(١) الحديث إنما أخرجه البخاري (٦٦٧٥).
(٢) البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).
(٣) البخاري (٦٠٠١)، ومسلم (٨٦).
(٤) البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩).

وقتلُ النَّفس التي حرَّم الله إلّا بالحقِّ، وأكلُ الرِّبا، وأكلُ مال اليتيم، والتَّولِّي يوم الزَّحف، وقذفُ المُحْصَنات الغافلات المؤمنات».

وروىٰ شعبة عن سعد بن إبراهيم سمعتُ حميدَ بن عبد الرَّحمن يحدِّث عن عبد الله بن عمرٍو عن النَّبيِّ ﷺ قال: «من أكبر الكبائر أن يسُبَّ الرّجلُ والديه». قالوا: وكيف يسُبُّ الرجل والديه؟ قال: «يسُبُّ أبا الرَّجل فيسُبُّ أباه، ويسُبُّ أمَّه فيسُبُّ أمَّه»(١).

وفي حديث أبي هريرة ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إنَّ أكبرَ الكبائر استطالةُ الرَّجل في عِرْضِ أخيه بغير حقٍّ»(٢).

وقال عبد الله بن مسعودٍ ﷺ: أكبرُ الكبائر: الشِّركُ بالله، والأمنُ من مكر الله، والقنوطُ من رحمة الله، واليأسُ من رَوح الله(٣).

قال سعيد بن جبيرٍ: سأل رجلٌ ابنَ عبَّاسٍ ﷺ عن الكبائر أَسَبعٌ هي؟ قال: هي إلىٰ السبعمائة أقرب، إلّا أنَّه لا كبيرةَ مع الاستغفار، ولا صغيرةَ مع الإصرار(٤). وقال: كلُّ شيءٍ عُصِيَ الله به فهو كبيرةٌ، من عمل شيئًا منها فليستغفر الله، فإنَّ الله لا يخلِّد في النَّار من هذه الأمَّة إلَّا مَن كان راجعًا عن الإسلام، أو جاحدًا فريضةً، أو مكذِّبًا بقدَر.

وقال عبد الله بن مسعودٍ ﷺ: ما نهىٰ الله عنه في سورة النِّساء من أوَّلها إلىٰ

---

(١) أخرجه أحمد (٦٨٤٠) من هذا الطريق، وقد أخرجه البخاري (٥٩٧٣)، ومسلم (٩٠) من طريق آخر.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٧٧)، وله شاهد صحيح من حديث سعيد بن زيد ﷺ، أخرجه أحمد (١٦٥١)، وأبو داود (٤٨٧٦)، وانظر: «الصحيحة» (٣٩٥٠).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٦٤٨-٦٥٠) بأسانيد جياد. والمؤلف صادر عن «تفسير البغوي» (٢/ ٢٠٢)، وكذا في الآثار الآتية.

(٤) أخرجه الطبري (٦/ ٦٥١) إلىٰ هنا.

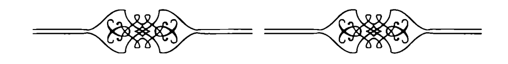
قوله: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ﴾[النساء: ٣١] فهو كبيرةٌ[١].

وقال عليُّ بن أبي طلحة: هي كلُّ ذنبٍ ختَمه الله بنارٍ، أو غضبٍ، أو لعنةٍ، أو عذابٍ[٢].

وقال الضَّحَّاك: هي ما أوعد الله عليه حدًّا في الدُّنيا، أو عذابًا في الآخرة[٣].

وقالت فرقةٌ: الصَّغائرُ ما دون الحَدَّين. والكبائر ما تعلَّق بها أحدُ الحدَّين[٤].

ومرادهم بالحدَّين: عقوبة الدُّنيا والآخرة، فكلُّ ذنبٍ عليه عقوبةٌ مشروعةٌ محدودةٌ في الدُّنيا كالزِّنا والشُّرب والسَّرِقة والقذف، أو عليه وعيدٌ في الآخرة كأكلِ مال اليتيم، والشُّرْبِ في آنية الفضَّة والذهب، وقتلِ الإنسان نفسَه، وخيانة أمانته، ونحو ذلك= فهو من الكبائر. وصدق ابنُ عبَّاسٍ ﷺ، هي إلىٰ السَّبعمائة أقرَبُ منها إلىٰ السَّبع[٥].



(١) أخرجه الطبري (٦/ ٦٤٢) من طريقين عن ابن مسعود.
(٢) أخرجه الطبري (٦/ ٦٥٢) عنه عن ابن عبَّاس. وسنده حسن
(٣) أخرجه الطبري (٦/ ٦٥٤) بنحوه.
(٤) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١١/ ٦٥٠، ٦٥٨).
(٥) تقدَّم تخريجه.

١/ ٥٠٥

فصل

الكبيرة قد تلحق بالصغائر بسبب ما يقترن بها

وهاهنا أمرٌ ينبغي التّفطُّن له، وهو أنَّ الكبيرةَ قد يقترن بها من الحياءِ والخوفِ والاستعظامِ لها ما يُلْحِقها بالصَّغائر، وقد يقترن بالصَّغيرة من قلَّةِ الحياء وعدمِ المبالاة وتركِ الخوف والاستهانةِ بها ما يُلحقها بالكبائر، بل يجعلها في أعلىٰ رُتَبها.

وهذا أمرٌ مرجعُه إلىٰ ما يقوم بالقلب، وهو قدرٌ زائدٌ علىٰ مجرَّد الفعل، والإنسانُ يعرف ذلك من نفسه وغيره.

وأيضًا فإنَّه يُعفىٰ للمحبِّ ولصاحب الإحسان العظيم ما لا يُعفَىٰ لغيره، ويسامَحُ بما لا يسامَح به غيرُه.

وسمعتُ شيخَ الإسلام ابن تيميَّة رضي الله عنه يقول: انظر إلىٰ موسىٰ صلواتُ الله وسلامُه عليه رمىٰ الألواح التي فيها كلامُ الله الذي كتَبه بيده فكسَرها، وجرَّ بلحيةِ نبيٍّ مثلِه ورأسِه، وهو هارون؛ ولطَم عينَ ملَكِ الموت ففقأها[1]، وعاتَب ربَّه ليلةَ الإسراء في محمَّدٍ ﷺ ورفعِه عليه[2]؛ وربُّه تبارك وتعالىٰ يحتمل له ذلك كلَّه، ويحبُّه ويكرمه ويدلِّلُه، لأنَّه قام لله المقاماتِ العظيمةَ في مقابلةِ أعدىٰ عدوٍّ له، وصدَعَ بأمره، وعالج أمَّةَ القِبْط وأمَّةَ بني إسرائيل أشدَّ المعالجة= فكانت هذه الأمورُ كالشَّعرة في البحر. وانظر إلىٰ يونس بن متَّىٰ حيث لم يكن له هذه المقامات التي لموسىٰ ﷺ، غاضَبَ ربَّه مرَّةً، فأخَذه وسجَنه في بطن الحوت، ولم يحتمل له ما احتمل لموسىٰ ﷺ.

---

(١) يشير إلىٰ حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أخرجه البخاري (١٣٣٩)، ومسلم (٢٣٧٢).
(٢) كما جاء في حديث مالك بن صعصعة، أخرجه البخاري (٣٨٨٧)، ومسلم (١٦٤).

وفرقٌ بينَ من إذا أتىٰ بذنبٍ لم يكن له من الإحسان والمحاسن ما يشفع له، وبينَ من إذا أتىٰ بذنبٍ جاءت محاسنُه بكلِّ شفيعٍ، كما قيل:

وإذا الحبيبُ أتىٰ بذنبٍ واحدٍ جاءت محاسنُه بألفِ شفيعِ[1]

فالأعمالُ تشفَع لصاحبها عند الله، وتذكِّر به إذا وقَع في الشدائد. قال تعالىٰ عن ذي النُّون: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣ - ١٤٤].

وفي «المسند»[2] عنه ﷺ: **«إنَّ ما تذكرون من جلال الله من التَّسبيح والتَّكبير والتَّحميد يتعاطَفْنَ حول العرش، لهنّ دويٌّ كدويِّ النَّحل، يُذكِّرْن بِصاحبهنَّ. أفلا يحبُّ أحدُكم أن يكون له من يُذكِّر به؟»**.

ولهذا من رجَحَت حسناتُه علىٰ سيِّئاته أفلَحَ ولم يعذَّب، ووُهِبَت له سيِّئاتُه لأجل حسناته.

ولأجل هذا يُغفَر لصاحب التَّوحيد ما لا يُغفَر لصاحب الإشراك، لأنَّه قد قام به ممَّا يحبُّه الله ما اقتضىٰ أن يغفِرَ له ويُسامِحَه ما لا يسامِحُ به المشركَ. وكلَّما كان توحيدُ العبد أعظمَ كانت مغفرةُ الله له أتمَّ. فمَن لقيه لا يشرك به شيئًا البَتَّةَ غفرَ له ذنوبَه كلَّها، كائنةً ما كانت، ولم يُعذِّب بها.

ولسنا نقول: إنَّه لا يدخل النَّارَ أحدٌ من أهل التَّوحيد، بل كثيرٌ منهم يدخل بذنوبه، ويعذَّب علىٰ مقدار جُرمه، ثمَّ يخرج منها؛ ولا تنافي بين الأمرين لمن أحاط علمًا بما قدَّمناه. ونزيده هاهنا إيضاحًا لعِظَم هذا المقام من شدَّة الحاجة إليه:

---

(١) كثر التمثُّل به في المصادر دون عزو، انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٧٥).

(٢) برقم (١٨٣٦٢)، من حديث النعمان بن بشير ﷺ، وأخرجه أيضًا ابن ماجه (٣٨٠٩)، وصححه الحاكم (١/ ٥٠٠، ٥٠٣)، والألباني في «الصحيحة» (٣٣٥٨).

اعلم أنَّ أشعَّةَ (لا إله إلَّا الله) تُقطِّع من ضَبابِ الذُّنوب وغَيمها بقدر قوَّة ذلك الشُّعاع وضَعْفِه، فلها نورٌ، وتفاوتُ أهلها في ذلك النُّور قوَّةً وضعفًا لا يحصيه إلَّا الله تعالىٰ. فمن الناس مَن نورُ هذه الكلمة في قلبه كالشَّمس. ومنهم مَن نورُها في قلبه كالكوكب الدُّرِّيِّ. ومنهم مَن نورُها في قلبه كالمِشْعَل العظيم، وآخَرُ كالسِّراج المضيء، وآخَر كالسِّراج الضَّعيف.

ولهذا تظهر الأنوارُ يوم القيامة بأيمانهم وبين أيديهم علىٰ هذا المقدار، بحسب ما هو في قلوبهم من نور هذه الكلمة علمًا وعملًا ومعرفةً وحالًا. وكلَّما عظُمَ نورُ الكلمة واشتدَّ أحرَقَ من الشُّبهات والشَّهوات بحسب قوَّته وشدَّته، حتّىٰ إنَّه ربَّما وصل إلىٰ حالٍ لا يصادف شبهةً ولا شهوةً ولا ذنبًا إلَّا أحرَقَه.

وهذه حالُ الصَّادق في توحيده، الذي لم يُشرك بالله شيئًا. فأيُّ ذنبٍ أو شهوةٍ أو شبهةٍ دنت من هذا النُّور أحرَقَها. فسماءُ إيمانه قد حُرِسَتْ بالنُّجوم من كلِّ سارقٍ لحسناته، فلا ينال منه السَّارقُ إلّا علىٰ غِرَّةٍ وغفلةٍ لا بدَّ منها للبشر. فإذا استيقظ وعَلِمَ ما سُرِقَ منه استنقذه من سارقه، أو حصَّل أضعافَه بكسبه. فهو هكذا أبدًا مع لصوص الجنِّ والإنس، ليس كمن فَتَح لهم خِزانتَه، وولّىٰ البابَ ظهرَه.

وليس التَّوحيدُ مجرَّدَ إقرارِ العبد بأنَّه لا خالقَ إلَّا الله وأنَّ الله ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُه، كما كان عبَّادُ الأصنام مقرِّين بذلك وهم مشركون. بل التَّوحيدُ يتضمَّن من محبَّةِ الله، والخضوعِ له، والذُّلِّ له، وكمالِ الانقياد لطاعته، وإخلاصِ العبادة له، وإرادةِ وجهه الأعلىٰ بجميع الأقوال والأعمال، والمنع والعطاء، والحبِّ والبغض= ما يحول بين صاحبه وبين الأسباب الدَّاعية إلىٰ المعاصي والإصرار عليها.

ومَن عرَف هذا عرَف قولَ النبيِّ ﷺ: «**إنَّ الله حرَّم علىٰ النّار مَن قال: لا إله إلّا الله، يبتغي بذلك وجه الله**»[(١)]، وقوله: «**لا يدخُل النارَ مَن قال: لا إله إلاّ الله**»[(٢)]، وما جاء من هذا الضّرب من الأحاديث التي أشكلت علىٰ كثيرٍ من الناس، حتّىٰ ظنَّها بعضُهم منسوخةً، وظنَّها بعضُهم قبلَ ورود الأوامر والنَّواهي واستقرار الشَّرع. وحمَلهَا بعضُهم علىٰ نار المشركين والكفَّار، وأوَّلَ بعضُهم الدُّخولَ بالخلود وقال: المعنىٰ لا يدخلها خالدًا. ونحو ذلك من التأويلات المستكرَهة.

والشّارعُ صلوات الله وسلامه عليه لم يجعل ذلك حاصلًا بمجرَّد قولِ اللِّسان فقط، فإنَّ هذا خلافُ المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام، فإنَّ المنافقين يقولونها بألسنتهم، وهم تحت الجاحدين لها في الدَّرك الأسفل من النّار. فلا بدَّ من قول القلب، وقول اللِّسان.

وقولُ القلب يتضمَّن من معرفتِها، والتَّصديقِ بها، ومعرفةِ حقيقة ما تضمَّنته من النَّفي والإثبات، ومعرفةِ حقيقة الإلهيَّة المنفيَّة عن غير الله، المختصَّة به، التي يستحيل ثبوتُها لغيره، وقيامِ هذا المعنىٰ بالقلب علمًا ومعرفةً ويقينًا وحالًا= ما يُوجِبُ تحريمَ قائلها علىٰ النّار. وكلُّ قولٍ رتَّب الشّارعُ عليه ما رتَّب من الثَّواب، فإنّما هو القولُ التّامُّ، كقوله ﷺ: «**من قال في يومٍ: سبحان الله وبحمده مائة مرّةٍ، حُطَّت عنه خطاياه أو: غُفِرَتْ له ذنوبُه ولو كانت مثلَ زبدِ البحر**»[(٣)]. وليس هذا مرتَّبًا علىٰ مجرَّد القول اللِّساني.

نعم، من قالها بلسانه غافلًا عن معناها، مُعرضًا عن تدبُّرها، ولم يواطئ قلبُه لسانَه، ولا عرَفَ قدرها وحقيقتها، راجيًا مع ذلك ثوابَها= حُطَّت من خطاياه

(١) أخرجه البخاري (٤٢٥)، ومسلم (٣٣)، من حديث عِتبان بن مالكَ رضي الله عنه.
(٢) جاء نحوه في الحديث السابق عند مسلم (٣٣/ ٥٤).
(٣) أخرجه البخاري (٦٤٠٥)، ومسلم (٢٦٩١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بحسب ما في قلبه؛ فإنَّ الأعمالَ لا تتفاضَلُ بصورها وعددها، وإنَّما تتفاضَلُ بتفاضُلِ ما في القلوب. فتكون صورةُ العمَلَين واحدةً، وبينهما في التّفاضل كما بين السَّماء والأرض. والرَّجلان يكون مقامُهما في الصَّفِّ واحدًا، وبين صلاتيهما كما بين السَّماء والأرض.

وتأمَّلْ حديثَ البطاقة[1] التي تُوضَع في كِفَّةٍ، ويقابلها تسعةٌ وتسعون سجلاًّ، كلُّ سجلٍّ منها مدَّ البصر، فتثقُل البطاقةُ، وتطيش السِّجلّات، فلا يعذَّب. ومعلومٌ أنَّ كلَّ موحِّدٍ فله مثلُ هذه البطاقة، وكثيرٌ منهم يدخل النَّارَ بذنوبه، ولكنَّ السِّرَّ الذي ثقَّل بطاقةَ ذلك الرَّجل وطاشت لأجله السِّجلَّاتُ لمَّا لم يحصُل لغيره من أرباب البطاقات انفردت بطاقتُه بالثِّقل والرَّزانة.

وإذا أردتَ زيادة إيضاحٍ لهذا، فانظُر إلىٰ ذكر مَن قلبُه ملآنُ بمحبّتك، وذكرِ مَن هو معرضٌ عنك، غافلٌ ساهٍ، مشغولٌ بغيرك، قد انجذبت دواعي قلبه إلىٰ محبَّة غيرك وإيثاره عليك، هل يكون ذكرهما لك واحدًا؟ أم هل يكون ولداك اللَّذان هما بهذه المثابة، أو عبداك، أو زوجتاك= عندك سواءً؟

وتأمَّلْ ما قام بقلب قاتلِ المائة من حقائق الإيمان التي لم تَشْغَله عند السِّياق عن السَّير إلىٰ القرية، وحَمَلتْه وهو في تلك الحال علىٰ أن جعَل ينوء بصدره وهو يعالج سكَراتِ الموت[2] = فهذا أمرٌ آخر، وإيمانٌ آخر. ولا جرَمَ أُلْحِقَ بالقرية الصَّالحة، وجُعِلَ من أهلها.

وقريبٌ من هذا ما قام بقلب البغيِّ التي رأت ذلك الكلبَ، وقد اشتدَّ به

(١) أخرجه أحمد (٦٩٩٤، ٧٠٦٦)، والترمذي وحسنه (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، وصححه ابن حبان (٢٢٥)، والألباني في «الصحيحة» (١٣٥).

(٢) يشير إلىٰ حديث الرجل من بني إسرائيل الذي قتل تسعة وتسعين إنسانًا ثم خرج يسأل، أخرجه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦)، من حديث أبي سعيد ﷺ.

العطَشُ يأكل الثّرىٰ، فقام بقلبها ذلك الوقتَ مع عدم الآلة، وعدم المُعين وعدم مَن تُرائيه بفعلها ما حملها علىٰ أن غرَّرت بنفسها في نزول البئر ومَلْءِ الماء في خفِّها ولم تعبأ بتعرُّضه للتَّلَف وحملِها له بفيها وهو ملآنُ، حتَّىٰ أمكنها الرُّقيُّ في البئر، ثمَّ تواضُعِها لهذا المخلوق الذي جرت عادة الناس بضربه وطرده، فأمسكت له الخفَّ بيدها حتَّىٰ شربَ، من غير أن ترجو منه جزاءً ولا شكورًا[1].

فأحرقت أنوارُ هذا القدر من التوحيد ما تقدَّم منها من البغاء، فغُفِر لها.

فهكذا حالُ الأعمالِ والعُمَّال عند الله. والعاملُ في غفلةٍ من هذا الإكسير الكيمياويِّ، الذي إذا وُضِع منه مثقالٌ علىٰ قناطيرَ من نحاس الأعمال قَلَبَها ذهبًا. والله المستعان.



(١) أخرج قصة البغي البخاري (٣٤٦٧)، ومسلم (٢٢٤٥)، وما ساقه المصنف ورد في قصة الرجل الذي رأىٰ كلبًا يأكل الثرىٰ من العطش، أخرجه البخاري (٢٣٦٣)، ومسلم (٢٢٤٤)، كلاهما من حديث أبي هريرة ﵁.

١/ ٥١٣

﴿ فصل ﴾

تغليظ العقوبة بحسب مرتبة الولاية

فإن قيل: فقد ذكرتم أنَّ المُحِبَّ يسامَحُ بما لا يسامَحُ به غيرُه، ويعفىٰ للوليِّ عمَّا لا يعفىٰ لسواه. وكذلك العالِمُ أيضًا يُغفَر له ما لا يُغفَر للجاهل، كما روىٰ الطَّبرانيُّ[1] بإسنادٍ جيِّدٍ مرفوعًا إلىٰ النبيِّ ﷺ: «**إنّ الله إذا جمَع النّاسَ يوم القيامة في صعيدٍ واحدٍ قال للعلماء: إنِّي كنت أُعبَدُ بفتواكم، وقد علمتُ أنّكم كنتم تخلِطون ما يخلِط النَّاسُ، وإنِّي لم أضَعْ علمي فيكم وأنا أريد أن أعذِّبكم. اذهبوا، فقد غفرتُ لكم**». هذا معنىٰ الحديث، وقد روي مسندًا ومرسلًا.

فهذا الذي ذكرتم صحيحٌ، وهو مقتضىٰ الحكمة والجود والإحسان، ولكن ما تصنعون بالعقوبة المضاعفة التي ورد التَّهديدُ بها في حقِّ أولئك إن وقع منهم ما يُكرَه، كقوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾[الأحزاب: ٣٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾[الإسراء: ٧٤ - ٧٥]، أي لولا تثبيتُنا لك لقد كدتَ تركَنُ إليهم بعضَ الشَّيء، ولو فعلتَ لأذقناك ضِعْفَ عذاب الحياة وضِعْفَ عذاب الممات، أي أَضْعفنا لك العذابَ في الدُّنيا والآخرة؟

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾[الحاقة: ٤٤ - ٤٦]. أي لو أتىٰ بشيءٍ من عند نفسه لأخذنا بيمينه، وقطعنا نياطَ قلبه وأهلكناه. وقد أعاذه الله من هذا الرُّكون إلىٰ أعدائه بذرَّةٍ من قلبه، ومن التَّقوُّل عليه سبحانه. وكم من راكنٍ إلىٰ أعدائه ومتقوِّلٍ عليه من قِبل

---

(١) في «الأوسط» (٤٢٦٤)، وفي «الصغير» (٥٩١)، والحديث قال عنه ابن عدي في «الكامل» (٦/ ٣٢٩): «باطل»، وذكره ابن الجوزي في «الموضوعات» (٥١٢).

نفسه قد أقرَّه ولم يعبأ به كأرباب البدع كلِّهم المتقوِّلين علىٰ أسمائه وصفاته ودينه.

وما ذكرتم في قصَّة يونس ﷺ هو من هذا الباب، فإنَّه لم يسامَح بغَضْبةٍ، وسُجِن لأجلها في بطن الحوت. ويكفي حالُ أبي البشر حيث لم يسامَحْ بلقمةٍ وكانت سببَ إخراجه من الجنَّة.

والجوابُ: أنَّ هذا أيضًا حقٌّ، ولا تنافي بين الأمرين؛ فإنَّ مَن كملت عليه نعمةُ الله تعالىٰ، واختصَّه منها بما لم يختصَّ به غيرَه، وأعطاه منها ما حرَمَه غيرَه، فحُبِيَ بالإنعام، وخُصَّ بالإكرام، وخُصَّ بمزيد التَّقريب، وجُعِلَ في منزلة الوليِّ الحبيب= اقتضت حالُه من حفظ مرتبة الولاية والقرب والاختصاص بأن يراعي مرتبتَه من أدنىٰ مشوِّشٍ وقاطعٍ. فلشدَّة الاعتناء به، ومزيد تقريبه، واتِّخاذه لنفسه، واصطفائه علىٰ غيره= تكون حقوقُ وليِّه وسيِّده عليه أتمَّ، ونِعَمُه عليه أكملَ، والمطلوبُ منه فوقَ المطلوب من غيره. فهو إذا غفَل وأخلَّ بمقتضىٰ مرتبته نُبِّه بما لم يُنبَّه عليه البعيدُ البَرَّانيُّ، مع كونه يسامَحُ بما لم يسامَحْ به ذلك أيضًا، فيجتمع في حقِّه الأمران.

وإذا أردتَ معرفة اجتماعهما وعدَم تناقضهما، فالواقع شاهدٌ به؛ فإنَّ الملك يسامِحُ خاصَّتَه وأولياءَه بما لا يسامِحُ به مَن ليس في منزلتهم، ويؤاخذهم ويؤدِّبُهم بما لم يؤاخذ به غيرَهم. وقد ذكرنا شواهد هذا وهذا، ولا تناقُضَ بين الأمرين.

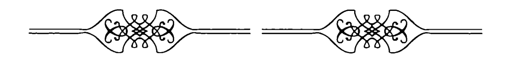
وأنت إذا كان لك عبدان أو ولدان أو زوجتان، أحدُهما أحبُّ إليك من الآخر وأقربُ إلىٰ قلبك وأعزُّ عليك= عاملتَه بهذين الأمرين، واجتمع في حقِّه المعاملتان بحسب قربه منك، وحبِّك له، وعزَّته عليك. فإذا نظرتَ إلىٰ إكمال إحسانك إليه وإتمام نعمتك عليه اقتضت معاملتُه بما لا يُعامَلُ مَن دونه من التَّنبيه وعدم الإهمال. وإذا نظرتَ إلىٰ إحسانه ومحبَّته لك، وطاعته وخدمته،

وكمال عبوديَّته ونصحه= وهبتَ له وسامحتَه وعفوتَ عنه بما لا تفعله مع غيره. فالمعاملتان بحسب ما منك وما منه.

وقد ظهر اعتبارُ هذا المعنىٰ في الشَّرع، حيث جعَل حدَّ من أنعَم عليه بالتّزوُّج إذا تعدَّاه إلىٰ الزِّنا: الرَّجْمَ، وحدَّ من لم يعطه هذه النِّعمة: الجَلْدَ. وكذلك ضاعف الحدَّ علىٰ الحرِّ الذي قد ملَّكه نفسَه، وأتمَّ عليه نعمتَه، ولم يجعله مملوكًا لغيره، وجعَل حدَّ العبد المنقوص بالرِّقِّ الذي لم تحصل له هذه النِّعمةُ نصفَ ذلك.

فسبحان مَن بهرَتْ حكمتُه في خلقه وأمره وجزائه عقولَ العالمين، وشهدَتْ بأنَّه أحكمُ الحاكمين.

فللّه سرٌّ تحتَ كلِّ لطيفةٍ ... فأخو البصائر غائصٌ يتعقَّلُ



فصل

في أجناس ما يُتاب منها ولا يستحقُّ العبدُ اسمَ التائب حتَّىٰ يَخلُصَ منها

وهي اثنا عشر جنسًا مذكورةٌ في كتاب الله تعالىٰ، هي أجناس المحرَّمات: الكفر، والشِّرك، والنِّفاق، والفسوق، والعصيان، والإثم، والعدوان، والفحشاء، والمنكر، والبغي، والقول علىٰ الله بلا علمٍ، واتِّباع سبيلٍ غيرِ سبيله.

فهذه الاثنا عشر جنسًا، عليها مدارُ كلِّ ما حرَّم الله تعالىٰ، وإليها انتهىٰ العالَمُ بأسرهم إلَّا أتباعَ الرُّسل. وقد يكون في الرَّجل أكثرُها أو أقلُّها أو واحدةٌ منها، وقد يعلم بذلك وقد لا يعلم. فالتَّوبةُ النَّصوحُ هي بالتَّخلُّص منها، وإنَّما يمكن التخلُّصُ منها لمن عرفها.

ونحن نذكرها ونذكر ما اجتمعت فيه وما افترقت، لِتَبِينَ حدودُها وحقائقُها. والله الموفِّقُ لما وراء ذلك كما وفَّق له، ولا حول ولا قوَّة إلَّا به. **وهذا الفصل من أنفع فصول الكتاب، والعبدُ أحوَجُ شيءٍ إليه.**

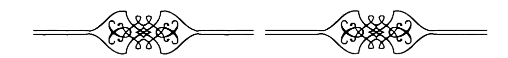
فأمَّا الكفر، فنوعان: كفرٌ أكبر، وكفرٌ أصغر.

فالكفر الأكبر: هو الموُجِبُ للخلود في النار.

والأصغَرُ: مُوجِبٌ لاستحقاق الوعيد دون الخلود، كما في قوله تعالىٰ وكان ممَّا يتلىٰ فنُسِخَ لفظهُ: «**لا ترغبوا عن آبائكم فإنَّه كفرٌ بكم**»[1]، وقولِه ﷺ في الحديث الصحيح: «**اثنتان في أمَّتي، هما بهم كفرٌ: الطَّعنُ في النَّسَب، والنِّياحة**»[2]،

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٦٨٣٠) عن عمر رضي الله عنه.
(٢) أخرجه مسلم (٦٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقولِهِ في «السُّنن»[(١)]: «من أتىٰ امرأةً في دبرها فقد كفَر بما أُنزِل علىٰ محمَّدٍ ﷺ»، وفي الحديث الآخر: «من أتىٰ كاهنًا، فصدَّقه بما يقول، فقد كفَر بما أُنزِلَ علىٰ محمَّدٍ ﷺ»[(٢)]، وقوله: «لا ترجعوا بعدي كفَّارًا يضربُ بعضُكم رقابَ بعضٍ»[(٣)].



(١) أخرجه أبو داود (٣٩٠٤)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٨٩٦٧)، والترمذي (١٣٥)، وابن ماجه (٦٣٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ونقل الترمذي تضعيف الإمام البخاري له، وقد ضعَّفه في «التاريخ الكبير» (٣/ ١٧).

(٢) أخرجه أحمد (١٠١٦٧)، وأبو داود (٣٩٠٤)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٨٩٦٨)، والترمذي (١٣٥).

(٣) أخرجه البخاري (١٢١)، ومسلم (٦٥)، من حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه.

١/ ٥٢٠

فصل

أنواع الكفر الأكبر

وأمَّا الكفر الأكبر، فخمسة أنواعٍ: كفرُ تكذيبٍ، وكفرُ استكبارٍ وإباءٍ مع التَّصديق، وكفرُ إعراضٍ، وكفرُ شكٍّ، وكفرُ نفاقٍ.

فأمَّا كفرُ التَّكذيب، فهو اعتقادُ كذب الرَّسول. وهذا القسم قليلٌ في الكفَّار، فإنَّ الله تعالىٰ أيَّد رسله، وأعطاهم من البراهين والآيات علىٰ صدقهم ما أقام به الحجَّةَ، وأزال به المعذرة. قال تعالىٰ عن قوم فرعون: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[النمل: ١٤]. وقال لرسوله ﷺ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[الأنعام: ٣٣].

وإن سمِّي هذا كفرَ تكذيبٍ أيضًا فصحيحٌ، إذ هو تكذيبٌ باللِّسان.

وأمَّا كفر الإباء والاستكبار، فنحوُ كفر إبليس، فإنَّه لم يجحد أمرَ الله ولا قابله بالإنكار، وإنَّما تلقَّاه بالإباء والاستكبار.

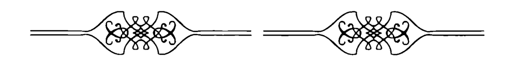
ومن هذا: كفرُ مَن عرَفَ صدقَ الرَّسول وأنَّه جاء بالحقِّ من عند الله، ولم ينقَدْ له إباءً واستكبارًا. وهو الغالبُ علىٰ كفر أعداء الرُّسل، كما حكىٰ الله تعالىٰ عن فرعون وقومه: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾[المؤمنون: ٤٧]، وقولُ الأمم لرسلهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾[إبراهيم: ١٠]، وقولُه: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾[الشمس: ١١]. وهو كفرُ اليهود، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾[البقرة: ٨٩]، وقال: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾[البقرة: ١٤٦]. وهو كفرُ أبي طالبٍ أيضًا، فإنَّه صدَّقه ولم يشكَّ في صدقه، ولكن أخذته الحَميَّةُ وتعظيمُ آبائه أن يرغَب عن ملَّتهم، ويشهدَ عليهم بالكفر.

وأمَّا كفرُ الإعراض، فأن يُعرِض بسمعه وقلبه عن الرَّسول، لا يصدِّقه ولا

يكذِّبه، ولا يواليه ولا يعاديه، ولا يُصغي إلىٰ ما جاء به البتَّة، كما قال أحدُ بني عبدِ ياليلَ للنَّبيِّ ﷺ: والله، لا أقول لك كلمةً. إن كنتَ صادقًا، فأنت أجلُّ في عيني من أن أرُدَّ عليك. وإن كنتَ كاذبًا، فأنتَ أحقَرُ من أن أكلِّمك(١).

وأمَّا كفرُ الشَّكِّ، فأن لا يجزمَ بصدقه ولا بكذبه، بل يشكَّ في أمره. وهذا لا يستمرُّ شكُّه إلّا إذا ألزم نفسَه الإعراضَ عن النّظر في آيات صدقه جملةً، فلا يسمعها ولا يلتفت إليها. وأمَّا مع التفاته إليها ونظره فيها، فإنَّه لا يبقىٰ معه شكٌّ، لأنَّها مستلزمةٌ للصِّدق، ولا سيَّما بمجموعها، فإنَّ دلالتها علىٰ الصِّدق كدلالة الشَّمس علىٰ النّهار.

وأمّا كفرُ النِّفاق، فأن يُظْهِرَ بلسانه الإيمان، وينطوي بقلبه علىٰ التّكذيب. فهذا هو النِّفاق الأكبر، وسيأتي بيانُ أقسامه إن شاء الله تعالىٰ.



(١) انظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٤١٩)، و«دلائل النبوة» لأبي نعيم (١/ ٢٩٥).

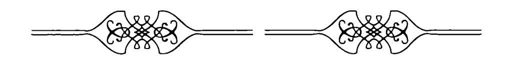
فصل[1]

وكفرُ الجحود نوعان: كفرٌ مطلقٌ عامٌّ، ومقيَّدٌ خاصٌّ.

فالمطلق: أن يجحد جملةَ ما أنزل الله تعالىٰ، ورسالةَ الرَّسول.

والخاصُّ المقيَّد: أن يجحد فرضًا من فروض الإسلام، أو تحريمَ محرَّمٍ من محرَّماته، أو صفةً وصف الله بها نفسه، أو خبرًا أخبر الله به= عمدًا، أو تقديمًا لقول من خالفه عليه لغرضٍ من الأغراض.

وأمّا جحدُ ذلك جهلًا أو تأويلًا يُعذَر فيه صاحبُه، فلا يكفر صاحبُه به، كحديث الذي جحَد قدرةَ الله عليه وأمَر أهلَه أن يُحرِقوه ويُذَرُّوه في الرِّيح، ومع هذا فغفَر الله له ورحِمَه[2] لجهله، إذ كان ذلك الذي فعله مبلغَ علمه، لم يجحد قدرة الله علىٰ إعادته عنادًا وتكذيبًا.



(١) وقد أدرج المؤلف من قبلُ كفرَ الجحود مجملاً في كفر التكذيب، ولعله رأىٰ فيما بعد أن يفرده بالكلام.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٧٨، ٣٤٨١)، ومسلم (٢٧٥٧، ٢٧٥٦)، من حديث أبي سعيد وأبي هريرة ﭭ.

١/ ٥٢٣

فصل

أنواع الشرك

وأمّا الشِّركُ، فهو نوعان: أكبر وأصغر.

فالأكبر: لا يغفره الله إلَّا بالتَّوبة منه. وهو أن يتَّخذ من دون الله ندًّا يحبُّه كما يحبُّ الله. وهو الشِّرك الذي تضمَّن تسويةَ آلهة المشركين بربِّ العالمين. ولهذا قالوا لآلهتهم في النَّار: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[الشعراء: ٩٧ - ٩٨] مع إقرارهم بأنَّ الله وحده خالقُ كلِّ شيءٍ وربُّه ومليكه، وأنَّ آلهتهم لا تخلُق ولا ترزُق ولا تميت ولا تحيي. وإنَّما كانت هذه التَّسوية في المحبَّة والتَّعظيم والعبادة، كما هو حال أكثر مشركي العالم؛ بل كلُّهم يحبُّون معبوديهم ويعظِّمونها ويوالونها من دون الله. وكثيرٌ منهم، بل أكثرُهم يحبُّون آلهتَهم أعظَم من محبَّة الله، ويستبشرون بذكرهم أعظمَ من استبشارهم إذا ذُكِرَ الله وحده.

قال تعالىٰ حاكيًا عن أسلاف هؤلاء المشركين: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ﴾. ثمَّ شهد عليهم بالكفر والكذب، وأخبر أنَّه لا يهديهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾[الزمر: ٣]. فهذه حالُ من اتَّخذ من دون الله وليًّا، يزعُم أنَّه يقرِّبه إلىٰ الله. وما أعزَّ من يخلُص من هذا! بل ما أعزَّ من لا يعادي مَن أنكره!

ومن جهل المشرك: اعتقادُه أنَّ من اتَّخذه وليًّا أو شفيعًا أنَّه يشفَع له وينفعه عند الله، كما يكون خواصُّ الملوك والولاة تنفع مَن والاهم! ولم يعلموا أنَّ الله لا يشفع عنده أحدٌ إلَّا بإذنه، ولا يأذن في الشَّفاعة إلَّا لمن رضي قولَه وعملَه، كما قال تعالىٰ

في الفصل الأوّل: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾[البقرة: ٢٥٥]، وفي الفصل الثّاني: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾[الأنبياء: ٢٨]. وبقي فصلٌ ثالثٌ، وهو أنَّه لا يرضىٰ من القول والعمل إلّا التَّوحيدَ واتِّباعَ الرَّسول، وعن هاتين الكلمتين يسأل الأوَّلين والآخرين، كما قال أبو العالية: كلمتان يُسأل عنهما الأوَّلون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟[1].

فهذه ثلاثُ فصولٍ تقطع شجرةَ الشِّرك من قلب من وعاها وعقلها: لا شفاعة إلَّا بإذنه، ولا يأذن إلَّا لمن رضي قوله وعمله، ولا يرضىٰ من القول والعمل إلَّا بتوحيده واتِّباع رسوله.

وقد قطَع تعالىٰ الأسباب التي يتعلَّق بها المشركون جميعَها قطعًا يعلم مَن تأمَّلَه وعرَفَه أنَّ من اتّخذ من دون الله وليًّا أو شفيعًا فهو كمثل العنكبوت اتَّخذت بيتًا، وإنَّ أوهنَ البيوت لَبيتُ العنكبوت، فقال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ۝٢٢ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ﴾[سبأ: ٢٢ - ٢٣].

فالمشركُ إنَّما يتَّخذ معبوده لما يحصل له به من النَّفع، والنَّفعُ لا يكون إلّا ممَّن فيه خصلةٌ من هذه الأربع: إمَّا مالكٌ لما يريد عابدُه منه، فإن لم يكن مالكًا كان شريكًا للمالك، فإن لم يكن شريكًا له كان معينًا له وظهيرًا، فإن لم يكن معينًا ولا ظهيرًا كان شفيعًا عنده. فنفىٰ سبحانه المراتب الأربع نفيًا مترتِّبًا منتقلًا من الأعلىٰ إلىٰ ما دونه، فنفىٰ المِلْكَ، والشِّركةَ، والمظاهرةَ، والشَّفاعةَ التي يطلبها المشرك؛ وأثبتَ شفاعةً لا نصيب فيها لمشركٍ، وهي الشَّفاعةُ بإذنه. فكفىٰ بهذه الآية نورًا وبرهانًا ونجاةً، وتجريدًا للتَّوحيد، وقطعًا لأصول الشِّرك وموادِّه لمن عقلها!

(١) أخرجه الطبري في «التفسير» (١٤/ ١٤١).

١/ ٥٣٠

فصل

أنواع الشرك الأصغر

وأمّا الشِّركُ الأصغَرُ، فكيسير الرِّياء، والتَّصنُّع للخلق، والحلِف بغير الله، كما ثبت عن النَّبيِّ ﷺ أنّه قال: «**من حلَف بغير الله فقد أشرك**»[١]، وقولِ الرَّجل للرَّجل: ما شاء الله وشئت، وهذا مِن الله ومنك، وإنَّا بالله وبك، وما لي إلَّا الله وأنت، وأنا متَّكلٌ علىٰ الله وعليك، ولولا أنت لم يكن كذا وكذا. وقد يكون هذا شركًا أكبر بحسب حال قائله ومقصده.

وصحَّ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال لرجل قال له: ما شاء الله وشئتَ: «**أجعلتني لله ندًّا؟ قل: ما شاء الله وحده**»[٢]. وهذا اللَّفظ أخفُّ من غيره من الألفاظ.

وما نجا من شَرَكِ هذا الشِّرك الأكبر إلّا من جرَّد توحيده لله، وعادىٰ المشركين في الله، وتقرَّب بمقتهم إلىٰ الله، واتَّخذ الله وحده وليَّه وإلهَه ومعبودَه، فجرَّد حبَّه لله، وخوفَه لله، ورجاءَه لله، وذلَّه لله، وتوكُّلَه علىٰ الله، واستعانتَه بالله، والتجاءَه إلىٰ الله، واستغاثتَه بالله؛ وأخلصَ قصدَه لله متَّبعًا لأمره متطلِّبًا لمرضاته. إذا سأل سأل الله، وإذا استعان استعان بالله، وإذا عمِل عَمِل لله؛ فهو لله، وبالله، ومع الله.

والشِّركُ أنواعٌ كثيرةٌ لا يحصيها إلّا الله.

---

(١) أخرجه أحمد (٥٣٧٥)، وأبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وأعله البيهقي (١٠/ ٢٩) بالانقطاع، والمحفوظ ما أخرجه البخاري (٦٦٤٧)، ومسلم (١٦٤٦) بلفظ: «إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم».

(٢) أخرجه أحمد (١٨٣٩، ٢٥٦١، ٣٢٤٧)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١٠٧٥٩)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٣٩، ١٠٩٣).

١/ ٥٣٥

فصل

النفاق وأنواعه

وأمّا النِّفاق فالدَّاء العُضال الذي يكون الرَّجلُ ممتلئًا منه، وهو لا يشعر، فإنّه أمرٌ خفيٌّ يخفىٰ علىٰ النَّاس، وكثيرًا ما يخفىٰ علىٰ من تلبَّس به، فيزعُم أنّه مصلحٌ وهو مفسدٌ.

وهو نوعان: أكبر، وأصغر.

فالأكبَرُ يُوجِب الخلودَ في النَّار في دركها الأسفل، وهو أن يُظهِر للمسلمين إيمانَه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهو في الباطن منسلِخٌ من ذلك مكذِّبٌ به، لا يؤمن بأنَّ الله تكلَّم بكلامٍ أنزله علىٰ بشرٍ جعله رسولًا للنَّاس يهديهم بإذنه، ويُنذرهم بأسَه، ويخوِّفهم عقابَه.

وقد هتَك الله سبحانه أستارَ المنافقين وكشَفَ أسرارهم في القرآن، وجلَّىٰ لعباده أمورهم، ليكونوا منها ومن أهلها علىٰ حذرٍ. وذكَر طوائفَ العالم الثلاثة في أوَّل البقرة: المؤمنين، والكفَّار، والمنافقين؛ فذكر في المؤمنين أربعَ آياتٍ، وفي الكفَّار آيتين، وفي المنافقين ثلاث عشرة آيةً لكثرتهم ولعموم الابتلاء بهم، وشدَّةِ فتنتهم علىٰ الإسلام وأهله، فإنَّ بليّةَ الإسلام بهم شديدةٌ جدًّا، فإنهم منتسبون إليه وإلىٰ نصرته وموالاته، وهم أعداؤه في الحقيقة، يُخْرِجون عداوتَه في كلِّ قالبٍ يظنُّ الجاهلُ أنّه عِلمٌ وإصلاحٌ، وهو غايةُ الجهل والإفساد.

فللّهِ كم من معقلٍ للإسلام قد هدموه! وكم من حصنٍ له قد قلَعوا أساسَه وخرَّبوه! وكم من عَلَمٍ له قد طمسوه! وكم من لواءٍ مرفوعٍ له قد وضعوه! كم ضربوا بمعاول الشُّبه في أصول غِراسه ليقلعوها! وكم عمَّوا عيونَ موارده بآرائهم ليدفنوها ويقطعوها!

فلا يزال الإسلامُ منهم في محنةٍ وبليَّةٍ، ولا يزال يطرُقُه مِن شُبَهِهم سَرِيَّةٌ بعد سَرِيَّةٍ، ويزعمون أنّهم بذلك مصلحون! ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾[البقرة: ١٢]، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[الصف: ٨].

اتَّفقوا على مفارقة الوحي، فهم على ترك الاهتداء به مُجْمِعُون. ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[المؤمنون: ٥٣]، ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾[الأنعام: ١١٢]، ولأجل ذلك ﴿ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾[الفرقان: ٣٠].

درسَتْ معالمُ الإيمان في قلوبهم فليسوا يعرفونها، ودثَرت معاهدُه عندهم فليسوا يعمُرونها، وأفلَتْ كواكبُه من قلوبهم فليسوا يُحْيُونها، وكسَفَت شمسُه عند اجتماع ظُلَمِ آرائِهم فليسوا يبصرونها.

لم يقبلوا هدى الله الذي أرسَلَ به رسولَه ولم يرفعوا به رأسًا، ولم يروا بالإعراض عنه إلى آرائهم وأفكارهم بأسًا.

أضاءت لهم نارُ الإيمان فأبصروا في ضوئها مواقعَ الهدى والضَّلال، ثمَّ طفئ ذلك النُّورُ، وبقيت نارٌ تأجَّجُ ذاتُ تلهُّبٍ واشتعالٍ، فهم بتلك النَّار معذَّبون، وفي تلك الظُّلمات يعمهون. ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾[البقرة: ١٧].

أسماعُ قلوبهم قد أثقَلَها الوَقْرُ فهي لا تسمع منادي الإيمان، وعيونُ بصائرهم عليها غشاوة العَمى فهي لا تُبصر حقائق القرآن، وألسنتهُم بها خَرَسٌ عن الحقِّ فهم به لا ينطقون، ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[البقرة: ١٨].

لهم علاماتٌ يُعرفَون بها مبيَّنةٌ في السُّنَّة والقرآن، باديةٌ لمن تدبَّرها مِن

أهل بصائر الإيمان. قام بهم والله الرِّياءُ وهو أقبحُ مقامٍ قامه الإنسان، وقعد بهم الكسلُ عمَّا أُمِروا به من أوامر الرَّحمن، فأصبح الإخلاصُ لذلك عليهم ثقيلًا، فإذا ﴿قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٤٢].

أحدُهم «كالشَّاة العائرة بين الغنَمين، تَعِيرُ إلىٰ هذه مرَّةً وإلىٰ هذه مرَّةً»[1]، ولا يستقرُّ مع إحدىٰ الفئتين، فهم واقفون بين الجمْعَين ينظرون أيُّهم أقوىٰ وأعزُّ قبيلًا ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾[النساء: ١٤٣].

فهم جنسٌ بعضُه يشبه بعضًا: يأمرون بالمنكر بعد أن يفعلوه، وينهَون عن المعروف بعد أن يتركوه، ويبخلون بالمال في سبيل الله ومرضاته أن يُنفقوه. كم ذكَّرهم الله بنِعَمه فأعرضوا عن ذكره ونَسُوه! وكم كشَفَ حالهم لعباده المؤمنين ليجتنبوه! فاسمعوا أيُّها المؤمنون: ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾[التوبة: ٦٧].

تسبق يمينُ أحدهم كلامَه من غير أن تُعرَض عليه، لعلمه بأنَّ قلوب أهل الإيمان لا تطمئنُّ إليه، فيتبرَّأ بيمينه من سوء الظَّنِّ به وكشفِ ما لديه. وكذلك أهلُ الرِّيبة يكذبون، ويحلفون ليحسبَ السَّامعُ أنَّهم صادقون، وقد ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[المنافقون: ٢].

تبًّا لهم! برزوا إلىٰ البَيداء مع ركب الإيمان، فلمَّا رأوا طولَ الطَّريق وبُعدَ الشُّقَّة نكصوا علىٰ أعقابهم ورجعوا، وظنُّوا أنَّهم يتمتَّعون بطيب العيش ولذَّة

(١) والعائرة: المترددة الحائرة بين قطيعين لا تدري أيهما تتبع، وهذا لفظ حديث ابن عمر ﵄ في «صحيح مسلم» (٢٧٨٤) في مثل المنافق.

المنام في ديارهم، فما مُتِّعوا به ولا بتلك النُّجْعة انتفعوا. فما هو إلَّا أن صاح بهم الصَّائحُ فقاموا عن موائد أطعمتهم والقومُ جِياعٌ ما شبعوا، فكيف حالهم عند اللِّقاء، وقد عرفوا ثمَّ أنكروا، وعَمُوا بعدما عاينوا الحقَّ وأبصروا! ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾[المنافقون: ٣].

يؤخِّرون الصَّلاةَ عن وقتها الأوَّل إلىٰ شَرَقِ الموتىٰ[١]، فالصُّبحُ عند طلوع الشمس، والعصرُ عند الغروب. ويَنْقُرونها نقرَ الغراب، إذ هي صلاةُ الأبدان لا صلاةُ القلوب. ويلتفتون فيها التفاتَ الثَّعلب إذا تيقَّنَ أنَّه مطرودٌ ومطلوبٌ. ولا يشهدون الجماعة، بل إن صلَّىٰ أحدُهم ففي البيت أو الدُّكَّان. وإذا خاصَمَ فجَر، وإذا عاهَدَ غدَر، وإذا حدَّثَ كذَب، وإذا وعَد أخلَفَ، وإذا ائتُمِنَ خان[٢]. هذه معاملتُهم للخلق، وتلك معاملتُهم للخالق. فخذ وصفَهم من أوَّل المطفِّفين، وآخر (والسَّماء والطَّارق)، فلا ينبِّئك عن أوصافهم مثلُ خبيرٍ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣].

فما أكثرَهم! وهم الأقلُّون. وما أجبرهم! وهم الأذلُّون. وما أجهلهم! وهم المُتَمَعْلِمُون. وما أغرَّهم بالله إذ هم بعظمته جاهلون! ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾[التوبة: ٥٦].

كره الله طاعتَهم لخبث قلوبهم وفساد نيَّاتهم، فثبَّطهم عنها وأقعَدَهم. وأبغض قربَهم منه وجوارَهم، لميلهم إلىٰ أعدائه، فطرَدَهم عنه وأبعَدَهم. وأعرضوا عن وحيه فأعرض عنهم، وأشقاهم وما أسعدهم. وحكَم عليهم بحكم عدلٍ لا مطمع لهم في الفلاح بعده إلَّا أن يكونوا من التائبين، فقال: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟

(١) شَرَق الميت هو حشرجته عند خروج روحه.
(٢) كما جاء في حديث عبد الله بن عمرو ﵄ عند البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨).

لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴾ [التوبة: ٤٦]. ثم ذكر حكمته في تثبيطهم وإقعادهم، وطردِهم عن بابه وإبعادهم، وأنَّ ذلك من لطفه بأوليائه وإسعادهم، وهو أحكم الحاكمين، فقال: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التوبة: ٤٧].

فكيف بهم إذا جُمِعوا ليوم التَّلاق، وتجلَّىٰ الله جلَّ جلالُه للعباد وقد كُشِفَ عن ساقٍ، ودُعُوا إلىٰ السُّجود فلا يستطيعون، ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ﴾ [القلم: ٤٣]!

أم كيف بهم إذا حُشِروا إلىٰ جسر جهنَّم، وهو أدقُّ من الشَّعْرة، وأحَدُّ من الحُسام! وهو دَحْضٌ مزَلَّةٌ مُظلِمٌ لا يقطعه أحدٌ إلَّا بنورٍ يبصر به مواطئَ الأقدام. فقُسِّمت بين الناس الأنوارُ وهم علىٰ قدر تفاوتها في المرور والذَّهاب وأُعْطُوا نورًا ظاهرًا مع أهل الإسلام، كما كانوا بينهم في هذه الدّار يأتون بالصَّلاة والزَّكاة والحجِّ والصِّيام. فلمَّا توسَّطوا الجسرَ عصَفَتْ علىٰ أنوارهم أهويةُ النِّفاق، فأطفأت ما بأيديهم من المصابيح. فوقفوا حيارىٰ لا يستطيعون المرور، فضُرِبَ بينهم وبين أهل الإيمان بسورٍ له بابٌ، ولكن قد حيل بين القوم وبين المفاتيح. باطنُه الذي يلي المؤمنين فيه الرَّحمة، وما يليهم من قِبَله العذابُ والنِّقمة. ينادُون من تقدَّمهم من وفد الإيمان، ومشاعلُ الرَّكب تلوح علىٰ بعدٍ كالنُّجوم، تبدو لناظر الإنسان: ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ ﴾ [الحديد: ١٣] لنتمكَّن في هذا المضيق من العبور، فقد طفئت أنوارُنا ولا جوازَ اليوم إلَّا بمصباحٍ من النُّور. ﴿قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا﴾ حيث قسِّمت الأنوار، فهيهات الوقوفُ لأحدٍ في مثل هذا المضمار! كيف يلتمس الوقوف في هذا المضيق؟ وهل يَلوي اليوم أحدٌ علىٰ أحدٍ في هذا الطريق؟!

فذكَّروهم باجتماعهم معهم وصحبتهم لهم في هذه الدَّار، كما يذكِّر الغريبُ صاحبَ الوطن بصحبته له في الأسفار: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ نصوم كما تصومون، ونصلِّي كما تصلُّون، ونقرأ كما تقرؤون، ونتصدَّق كما تتصدَّقون، ونحجُّ كما تحجُّون؟ فما الذي فرَّق بيننا اليومَ، حتَّىٰ انفردتم دوننا بالمرور؟ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ كانت ظواهركم معنا وبواطنكم مع كلِّ ملحدٍ وكلِّ ظلوم كفورٍ، ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحديد: ١٤ - ١٥].

لا تستطِلْ أوصافَ القوم، فالمتروكُ واللهِ أكثَرُ من المذكور! كاد القرآن أن يكون كلُّه في شأنهم، لكثرتهم علىٰ ظهر الأرض وفي أجواف القبور. فلا خلَتْ بقاعُ الأرض منهم لئلَّا يستوحشَ المؤمنون في الطُّرقات، وتتعطَّل بهم أسباب المعيشات، وتتخطَّفَهم الوحوشُ والسِّباعُ في الفلَوات! سَمِع حذيفة رضي الله عنه رجلًا يقول: اللهمَّ أهلِكِ المنافقين، فقال: يا ابنَ أخي، لو أهلك المنافقين لاستوحشتم في طرقاتكم[1]!

تالله لقد قطَّع خوفُ النِّفاق قلوبَ السابقين الأوَّلين، ولعلمهم بدِقِّه وجِلِّه وتفاصيلِهِ وجُمَلِه ساءت ظنونهم بأنفسهم حتّىٰ خشُوا أن يكونوا من جملة المنافقين. قال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه لحذيفة بن اليمان: يا حذيفةُ، نشدتُك بالله، هل سمَّاني لك رسول الله ﷺ منهم؟ فقال: لا، ولا أزكِّي بعدك أحدًا[2].

---

(١) أخرج الخرائطي في «اعتلال القلوب» (٣٧٧)، من قول الحسن: «لولا المنافقون لاستوحشتم في الطرق». وأما قول حذيفة فأخرجه الخرائطي في «مساوئ الأخلاق» (٣٠٤)، بلفظ: «لو هلكوا ما انتصفتم من عدوكم». وكأنَّ ما ورد هنا ملفَّق من القولين.

(٢) أخرجه وكيع في «الزهد» (٤٧٧)، والبزار في «المسند» (٢٨٨٥)، وصححه ابن حجر في «مختصر زوائد البزار» (٥٩٠).

وقال ابن أبي مُلَيكة: أدركتُ ثلاثين من أصحاب محمّدٍ ﷺ كلُّهم يخاف النِّفاقَ علىٰ نفسه، ما منهم أحدٌ يقول: إنَّ إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل. ذكره البخاريُّ[١].

وذكَر[٢] عن الحسن رضي الله عنه: ما أمِنَه إلاَّ منافقٌ، ولا خافه إلاَّ مؤمنٌ.

ولقد ذُكر عن بعض الصَّحابة أنّه كان يقول في دعائه: اللهمَّ إنِّي أعوذ بك من خشوع النِّفاق. قيل: وما خشوعُ النِّفاق؟ قال: أن يخشع البدنُ، والقلبُ غيرُ خاشعٍ[٣].

بالله تعالىٰ، لقد ملئت قلوبُ القوم إيمانًا ويقينًا، وخوفُهم من النِّفاق شديدٌ، فهمُّهم لذلك ثقيلٌ. وسواهم كثيرٌ منهم لا يجاوز إيمانُهم حناجرَهم، وهم يدَّعون أنَّه كإيمان جبريل وميكائيل!

زرعُ النِّفاق ينبُت علىٰ ساقيتين: ساقية الكذب، وساقية الرِّياء، ومخرجُهما من عينين: عين ضعف البصيرة، وعين ضعف العزيمة. فإذا تمَّت هذه الأركانُ الأربعُ استحكم بنيانُ النِّفاق، ولكنَّه بمدارج السُّيول علىٰ شفا جُرُفٍ هارٍ. فإذا سال سيلُ الحقائق وعاينوا يومَ تُبلىٰ السرائر، وكُشِفَ المستور، وبُعثر ما في القبور، وحُصِّل ما في الصُّدور= تبيّن حينئذٍ لمن كانت بضاعتُه النِّفاقَ أنَّ حواصلَه التي حصَّلها كانت كالسَّراب، ﴿يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾[النور: ٣٩].

---

(١) في «صحيحه» تعليقًا قبل الحديث (٤٨)، وأخرجه في «تاريخه» (٥/ ١٣٧).

(٢) تعليقًا أيضًا في الموضع السابق، وقد وصله الفريابي في «صفة النفاق» (٨١). قال ابن رجب في «فتح الباري» (١/ ١٩٥): «هذا مشهور عن الحسن، صحيح عنه».

(٣) أخرجه أحمد في «الزهد» (٧٥٧)، عن أبي الدرداء رضي الله عنه، وفي إسناده انقطاع.

١/ ٥٥٣

فصل

أنواع الفسوق

وأمَّا الفسوق، فهو في كتاب الله نوعان: مفردٌ مطلقٌ، ومقرونٌ بالعصيان.

والمفرد نوعان أيضًا: فسوقُ كفرٍ يُخرج عن الإسلام، وفسوقٌ لا يُخرج عن الإسلام.

فالمقرونُ كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾[الحجرات: ٧].

والمفردُ الذي هو فسوقُ كفرٍ، كقوله تعالىٰ: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٢٦ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾[البقرة: ٢٦- ٢٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾[البقرة: ٩٩]، وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾[السجدة: ٢٠]، فهذا كلُّه فسوقُ كفرٍ.

وأمَّا الفسوقُ الذي لا يُخرج عن الإسلام، فكقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ﴾[البقرة: ٢٨٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾[الحجرات: ٦].

والفسوقُ قسمان: فسقٌ من جهة العمل، وفسقٌ من جهة الاعتقاد.

ففسقُ العمل نوعان: مقرونٌ بالعصيان، ومفردٌ.

فالمقرونُ بالعصيان: هو ارتكابُ ما نهىٰ الله عنه. والعصيانُ: هو عصيانُ

أمره، كما قال تعالىٰ: ﴿لَا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾[التحريم: ٦]. وقال موسىٰ لأخيه: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾[طه: ٩٢]. وقال الشَّاعر:

أمرتُك أمرًا حازمًا فعصيتَني فأصبحتَ مسلوبَ الإمارة نادما[1]

فالفسقُ أخصُّ بارتكاب النَّهي، ولهذا يطلق عليه كثيرًا، كقوله: ﴿وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾[البقرة: ٢٨٢]. والمعصيةُ أخصُّ بمخالفة الأمر كما تقدَّم. ويطلَق كلٌّ منهما علىٰ صاحبه، كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾[الكهف: ٥٠]، فسمَّىٰ مخالفتَه للأمر فسقًا. وقال: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾[طه: ١٢١] فسمّىٰ ارتكابَه للنَّهي معصيةً. فهذا عند الإفراد. فإذا اقترنا كان أحدُهما لمخالفة الأمر، والآخَرُ لمخالفة النَّهي.

والتقوىٰ: اتِّقاءُ مجموع الأمرين فيه. وبتحقيقها تصحُّ التَّوبةُ من الفسوق والعصيان، بأن يعمل العبدُ بطاعة الله علىٰ نورٍ من الله يرجو ثوابَ الله، ويترك معصيةَ الله علىٰ نورٍ من الله يخافُ عقابَ الله.

وفسقُ الاعتقاد: كفسق أهل البدع الذين يؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر، ويحرِّمون ما حرَّم الله، ويوجبون ما أوجب الله؛ ولكن ينفُون كثيرًا ممَّا أثبت الله ورسوله جهلًا وتأويلًا وتقليدًا للشُّيوخ، ويُثبتون ما لم يثبته الله ورسوله كذلك. وهؤلاء كالخوارج المارقة، وكثيرٍ من الرَّوافض، والقدريَّة، والمعتزلة، وكثيرٍ من الجهميَّة الذين ليسوا غلاةً في التَّجهُّم. وأمَّا غاليةُ الجهميَّة فكغُلاة الرَّافضة، ليس للطَّائفتين في الإسلام نصيبٌ. ولذلك أخرجهم جماعةٌ من السلف من الثِّنتين وسبعين فرقةً، وقالوا: هم مباينون للملَّة.

(١) للحضين بن المنذر الرَّقَاشي في «الوحشيات» (ص٥٧)، و«حماسة البحتري» (ص١٧٣)، و«تاريخ الطبري» (٦/ ٣٩٦).

وليس مقصودنا الكلامَ في أحكام هؤلاء، وإنَّما المقصود تحقيق التَّوبة من هذه الأجناس العشرة.

فالتَّوبةُ من هذا الفسوق: بإثبات ما أثبته الله لنفسه ورسوله من غير تشبيهٍ ولا تمثيلٍ، وتنزيهه عمَّا نزَّه نفسَه عنه ونزَّهه عنه رسولُه من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، وتلقِّي النَّفي والإثبات من مشكاة الوحي، لا من آراء الرِّجال ونتائج أفكارهم التي هي منشأ البدعة والضَّلالة. فتوبةُ هؤلاء الفسَّاق من جهة الاعتقادات الفاسدة بمحض اتِّباع السُّنَّة.

ولا يكتفىٰ منهم بذلك أيضًا حتَّىٰ يبيِّنوا فساد ما كانوا عليه من البدعة، إذ التَّوبةُ من كلِّ ذنبٍ هي بفعل ضدِّه. ولهذا شرَطَه الله في توبة الكاتمين ما أنزل الله من البيِّنات والهدىٰ، لأنَّ ذنبَهم لمَّا كان بالكتمان كانت توبتُهم منه بالبيان. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ۝١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[البقرة: ١٥٩ - ١٦٠]. وذنبُ المبتدع فوق ذنب الكاتم، لأنَّ ذلك كتَم الحقَّ، وهذا كتَمَه ودعا إلىٰ خلافه؛ فكلُّ مبتدعٍ كاتمٌ، ولا ينعكس.

وشرَط في توبة المنافق الإخلاصَ؛ لأنَّ ذنبه بالرِّياء. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ۝١٤٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾[النساء: ١٤٥- ١٤٦].

ولذلك كان الصَّحيحُ من القولين أنَّ توبةَ القاذف إكذابُه نفسَه[1]، لأنَّه ضدُّ الذَّنب الذي ارتكبه وهتَك به عرضَ المسلم المحصَن، فلا تحصل التَّوبةُ منه إلَّا بإكذابه نفسَه، لينتفي عن المقذوف العارُ الذي ألحقه به بالقذف، وهو مقصودُ التَّوبة.

---

(١) انظر: «الحاوي الكبير» (١٧/ ٣١- ٣٢)، و«المغني» (١٤/ ١٩١- ١٩٢).

فصل

١/ ٥٦٦

الإثم والعُدوان قرينان، إذا أُفرد أحدهما تضمَّن معنىٰ الآخر

وأمَّا الإثم والعدوان، فهما قرينان. قال تعالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾[المائدة: ٢].

وكلٌّ منهما إذا أُفرِدَ تضمَّن الآخرَ، فكلُّ إثمٍ عدوانٌ، إذ هو فعلُ ما نهىٰ الله عنه، أو تركُ ما أمر الله به، فهو عدوانٌ علىٰ أمره ونهيه. وكلُّ عدوانٍ إثمٌ، فإنَّه يأثم به صاحبُه.

ولكن عند اقترانهما، فهما شيئان بحسب متعلَّقهما ووصفهما. فالإثم: ما كان محرَّمَ الجنس كالكذب والزِّنا وشرب الخمر ونحو ذلك. والعدوان ما كان محرَّم القدر والزِّيادة. فالعدوان: تعدِّي ما أبيح منه إلىٰ القدر المحرَّم، كالاعتداء في أخذ الحقِّ ممَّن هو عليه، إمَّا أن يعتديَ علىٰ ماله أو بدنه أو عرضه، فإذا غصبه خشبةً لم يرضَ عوضَها إلَّا دارَه، وإذا أتلف عليه شيئًا أتلف عليه أضعافَه، وإذا قال فيه كلمةً قال فيه أضعافَها= فهذا كلُّه عدوانٌ وتعدٍّ للعدل.

وهذا نوعان: عدوانٌ في حقِّ الله، وعدوانٌ في حقِّ العبد. فالعدوانُ في حقِّ الله كما إذا تعدَّىٰ ما أبيح له من الوطء الحلال في الأزواج والمملوكات إلىٰ ما حُرِّم عليه من سواهما، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾[المؤمنون: ٥-٧].

وكذلك تعدِّي ما أبيح له من زوجته وأمته إلىٰ ما حُرِّم عليه منها كوطئها في حيضها أو نفاسها أو في إحرام أحدهما أو صيامه الواجب.

وكذلك كلُّ ما أبيح له منه قدرٌ معيَّنٌ، فتعدَّاه إلىٰ أكثر منه، فهو من العدوان،

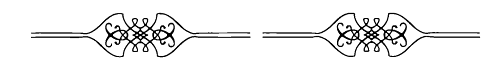
كمن أبيح له إساغةُ الغصَّة بجُرعةٍ من خمرٍ، فتناول الكأسَ كلَّها؛ أو أبيح له نظرةُ الخِطْبة والسَّوم والشَّهادة والمعاملة والمداواة، فأطلقَ عِنانَ طَرْفه في ميادين محاسن المنظور، وأسامَ طرفَ ناظره في تلك الرِّياض والزُّهور، فتعدَّىٰ المباحَ إلىٰ القدر المحظور، وحام حولَ الحِمىٰ المحوَّط المحجور، فصار ذا بصرٍ حائرٍ، وقلبٍ عن مكانه طائرٍ. أرسل طرفَه رائدًا يأتيه بالخبر، فخامَر عليه وأقام، فبعث القلبَ في آثاره، فلم يشعر إلَّا وهو أسيرٌ يَحْجُل في قيوده بين تلك الخيام؛ فما أقلعت لحظاتُ ناظره حتَّىٰ تشحَّط بينهنَّ قتيلًا، وما برِحَتْ تَنُوشه سيوفُ تلك الجفون حتَّىٰ جدَّلَتْه تجديلًا.

هذا خطرُ العدوان، وما أمامَه أعظَمُ وأخطَرُ. وهذا فوتُ الحرمان، وما حُرِمَه من ثواب مَن غضَّ طرفَه لله أجلُّ وأكبر. سافَرَ الطَّرفُ في مفاوز محاسن المنظور إليه فلم يربَحْ إلَّا أذىٰ السَّفَر، وغرَّر بنفسه في ركوب تلك البِيد وما عرَفَ أنَّ راكبها علىٰ أعظم الخطَر! يا لها سفرةً لم يبلغ المسافر منها نواه، ولم يضَعْ فيها عن عاتقه عصاه، حتَّىٰ قُطِعَ عليه فيها الطَّريق، وقعد له الرَّصَدُ علىٰ كلِّ نَقْبٍ ومضيقٍ. لا يستطيع الرُّجوعَ إلىٰ وطنه والإياب، ولا له سبيلٌ إلىٰ المرور والذَّهاب. يرىٰ هَجِيرَ الهاجرة من بعيدٍ فيظنُّه بردَ الشَّراب، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾[النور: ٣٩]، وتيقَّن أنَّه كان مغرورًا بلامع السَّراب!

تاللهِ ما استوت هذه الذلَّةُ وتلك اللَّذَّةُ في القيمة فيشتريَها بها العارفُ الخبير، ولا تَقارَبا في المنفعة، فيتخيَّرَ بينهما البصير؛ ولكن علىٰ العيون غشاوةٌ فلا تفرِّقُ بين مواطن السَّلامة ومواطن العثور، والقلوبُ تحت أغطية الغفلات راقدةٌ فوق فُرُش الغُرور، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[الحج: ٤٦].

والإثـمُ والعـدوانُ همـا الإثـمُ والبغـيُ المذكـوران في سـورة الأعـراف[١]، مع أنَّ البغـيَ غالـبُ استعماله في حقـوق العبـاد والاسـتطالة عليهـم. وعلـىٰ هـذا فـإذا قُـرن بالعـدوان كان البغـيُ ظلمَهـم بمحـرَّم الجنس كالسَّـرقة والكـذب والبهـت والابتداء بـالأذىٰ، والعـدوانُ تعـدِّيَ الحـقِّ في استيفائه إلـىٰ أكثر منه، فيكـون البغـيُ والعدوانُ في حقِّهـم كالإثـم والعـدوان في حـدود الله.

فهاهنـا أربعـة أمـورٍ: حـقٌّ لله ولـه حدٌّ. وحـقٌّ لعبـاده ولـه حدٌّ. فالبغـيُ والعدوانُ والظُّلـم: تجـاوزُ الحدَّيـن إلـىٰ مـا وراءهمـا، أو التَّقصيـرُ عنهمـا، فلا يصـل إليهمـا.



(١) في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ الآية [٣٣].

١/ ٥٧١

فصل

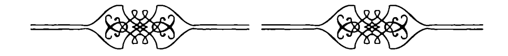
الفحشاء والمنكر

وأمَّا الفحشاء والمنكر، فالفحشاء: صفةٌ لموصوفٍ قد حُذِف تجريدًا لقصد الصِّفة، وهي الفَعْلَة الفحشاء والخَصْلة الفحشاء. وهي ما ظهر قبحُها لكلِّ أحدٍ واستفحَشَه كلُّ ذي عقلٍ سليمٍ. ولهذا فُسِّر بالزِّنا واللِّواط، وسمَّاه الله فاحشةً لتناهي قبحه. وكذلك القبيحُ من القول يسمَّىٰ فُحْشًا، وهو ما ظهر قبحُه جدًّا من السَّبِّ القبيح والقذف ونحوه.

وأمَّا المنكر، فصفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ أيضًا، أي الفعل المنكر، وهو الذي تنكره العقول والفِطَر. ونسبتُه إليها كنسبة الرَّائحة القبيحة إلىٰ حاسَّة الشَّمِّ، والمنظرِ القبيحِ إلىٰ العين، والطَّعمِ المستكرهِ إلىٰ الذَّوق، والصَّوتِ المنكرِ إلىٰ الأذن.

فما اشتدَّ إنكارُ العقول والفِطَر له فهو فاحشةٌ، كما فَحُشَ إنكارُ الحواسِّ له من هذه المدركات. فالمنكَر لها: ما لم تعرِفْه ولم تألَفْه. والقبيحُ المستكَره لها الذي تشتدُّ نفرتُها عنه هو الفاحشة.

ولذلك قال ابنُ عبَّاسٍ ﵄: الفاحشة: الزِّنا، والمنكَر: ما لم يُعرَف في شريعةٍ ولا سنَّةٍ[١]. فتأمَّلْ تفريقَه بين ما لم يُعرَف حسنُه ولم يؤلَف، وبين ما استقرَّ قبحُه في الفِطَر والعقول.



(١) «تفسير البغوي» (٥/ ٣٨).

١/ ٥٧٢

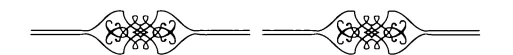
فصل

من أشد المحرمات: القول بلا علم

وأمَّا القول علىٰ الله بلا علمٍ، فهو أشدُّ هذه المحرَّمات تحريمًا، وأعظمها إثمًا. ولهذا ذُكر في المرتبة الرَّابعة من مراتب المحرَّمات التي اتّفقت عليها الشَّرائعُ والأديانُ، ولا تباح بحالٍ، بل لا تكون إلَّا محرَّمةً، وليست كالميتة والدَّم ولحم الخنزير، الذي يباح في حالٍ دون حالٍ.

فإنَّ المحرَّمات نوعان: محرَّمٌ لذاته لا يباح بحالٍ، ومحرَّمٌ تحريمُه عارضٌ في وقتٍ دون وقتٍ. قال تعالىٰ في المحرَّم لذاته: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[الأعراف: ٣٣]. ثمّ انتقل منه إلىٰ ما هو أعظم منه، فقال: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾، ثمَّ انتقل منه إلىٰ ما هو أعظم منه، فقال: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. فهذا أعظمُ المحرَّمات عند الله وأشدُّها إثمًا، فإنَّه يتضمَّن الكذبَ علىٰ الله، ونسبتَه إلىٰ ما لا يليق به، وتغييرَ دينه وتبديلَه، ونفيَ ما أثبته وإثباتَ ما نفاه، وتحقيقَ ما أبطله وإبطالَ ما أحقَّه، وعداوةَ من والاه وموالاةَ من عاداه، وحبَّ ما أبغضه وبغضَ ما أحبَّه، ووصفَه بما لا يليق به في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله.

فليس في أجناس المحرَّمات أعظَمُ عند الله منه ولا أشدُّ إثمًا، وهو أصلُ الشِّرك والكفر، وعليه أُسِّست البدعُ والضَّلالاتُ، فكلُّ بدعةٍ مُضلَّةٍ في الدِّين أساسُها القولُ علىٰ الله تعالىٰ بلا علمٍ.



١/ ٥٧٥

فصل

من تعذر عليه أداء الحق الذي فرَّط فيه فكيف توبته؟

ومن أحكام التَّوبة: أنَّ من تعذَّر عليه أداءُ الحقِّ الذي فرَّط فيه ولم يمكنه تداركُه، ثمَّ تاب، فكيف حكمُ توبته؟

وهذا يُتصوَّر في حقِّ الله وحقوق عباده.

فأمَّا في حقِّ الله، فكمن ترك الصَّلاة عمدًا من غير عذرٍ مع علمه بوجوبها وفرضها، ثمَّ تاب وندم. فاختلف السَّلفُ في هذه المسألة[١].

فقالت طائفةٌ: توبتُه بالنَّدَم والاشتغال بأداء الفرائض المستأنفة وقضاء الفرائض المتروكة. وهذا قول الأئمَّة الأربعة وغيرهم.

وقالت طائفةٌ: توبةُ هذا باستئناف العمل في المستقبل ولا ينفعه تدارُكُ ما مضىٰ بالقضاء ولا يُقبَل منه، فلا يجب عليه. وهذا قول أهل الظَّاهر، وهو مرويٌّ عن جماعةٍ من السَّلَف.

وحجَّةُ المُوجِبين: قولُ النبيِّ ﷺ: «**من نام عن صلاةٍ أو نسيها فليصلِّها إذا ذكرها**»[٢].

قالوا: فإذا وجب القضاءُ علىٰ النَّائم والنَّاسي مع عدم تفريطهما فوجوبُه علىٰ العامد المفرِّط أولىٰ.

قالوا: ولأنَّه كان يجب عليه أمران: الصَّلاةُ وإيقاعُها في وقتها، فإذا ترك أحدَ الأمرين بقيَ الآخر.

---

(١) انظر: «المحلَّىٰ» (٢/ ١٠- ١٨)، و«المفهم» لأبي العباس القرطبي (٢/ ٣٠٩- ٣١٠)، و«المجموع» للنووي (٣/ ٧١)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٢٢/ ٤٠- ٤٦).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٧)، ومسلم (٦٨٤)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

قالوا: وكيف يُظَنُّ بالشَّرع أنَّه يخفِّف عن هذا المتعمِّد المفرِّط العاصي لله ورسوله بترك الوجوب، ويُوجبه علىٰ المعذور بالنَّوم والنِّسيان؟

قال أصحابُ القول الآخر: العبادةُ إذا أُمر بها علىٰ صفةٍ معيَّنةٍ أو في وقتٍ بعينه لم يكن المأمورُ ممتثلًا للأمر إلَّا إذا أوقَعَها علىٰ الوجه المأمور به من وصفها وشرطها ووقتها. فإيقاعُها في وقتها المحدود لها شرعًا شرطٌ في صحة التعبُّد بها والامتثال، فانتفاءُ وقتها كانتفاء وصفها وشرطها، فلا يتناولها الأمرُ بدونه.

قالوا: وإخراجُها عن وقتها كإخراجها عن استقبال القبلة مثلًا، وكالسُّجود علىٰ الخدِّ بدل الجبهة، والبروكِ علىٰ الرُّكبة بدل الرُّكوع ونحوه.

قالوا: والعباداتُ التي جُعِل لها ظروفٌ من الزَّمان لا تصحُّ إلَّا فيه كالعبادات التي جعل لها ظروفٌ من المكان، فلو أراد نقلَها إلىٰ أمكنةٍ أخرىٰ غيرها لم تصحَّ إلَّا في أمكنتها، ولا يقوم مكانٌ مقامَ مكانٍ، كأمكنة المناسك من عرفة ومزدلفة والجِمار والسَّعي بين الصَّفا والمروة والطَّواف بالبيت. فنقلُ العبادة إلىٰ أزمنةٍ غير أزمنتها التي جُعِلَتْ أوقاتًا لها شرعًا إلىٰ غيرها كنقلها عن أمكنتها التي جُعِلت لها شرعًا إلىٰ غيرها، لا فرقَ بينهما في الاعتداد وعدمه كما لا فرق بينهما في الإثم.

قالوا: فنقلُ الصَّلاة المحدودة الوقت أوَّلًا وآخرًا عن زمنها إلىٰ زمنٍ آخر كنقل الوقوف بعرفة عن زمنه إلىٰ زمنٍ آخرَ، ونقل أشهر الحجِّ عن زمنها إلىٰ زمنٍ آخَر.

قالوا: وهذه الصَّلاةُ مردودةٌ بنصِّ الشَّارع، فلا يسوغ أن يقال بقبولها وصحَّتها، مع تصريحه بردِّها وإلغائها كما ثبت في «الصَّحيح»[1] عنه ﷺ من

(١) أخرجه مسلم (١٧١٨).

حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ**». وفي لفظٍ: «**كلُّ عملٍ ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ**»[١]. وهذا عملٌ علىٰ خلاف أمره، فيكون ردًّا. والرَّدُّ بمعنىٰ المردود.

قالوا: وأمَّا استدلالُكم بقول النَّبيِّ ﷺ: «**من نام عن صلاةٍ أو نسيها فَلْيصلِّها إذا ذكرها**»[٢]، فأوجب القضاءَ علىٰ المعذور، فالمفرِّطُ أولىٰ= فهذه الحجَّةُ إلىٰ أن تكون عليكم أقرَبُ منها أن تكون لكم! فإنَّ صاحبَ الشَّرع شرَطَ في فعلها بعد الوقت أن يكون التَّركُ عن نومٍ أو نسيانٍ، والمعلَّقُ علىٰ الشَّرط عَدَمٌ عند عدمه. فلم يبق معكم إلَّا مجرَّدُ قياس المفرِّط العاصي المستحقِّ للعقوبة علىٰ من عذَره الله تعالىٰ ولم يُنْسَب إلىٰ تفريطٍ ولا معصيةٍ، كما ثبت عنه في «الصحيح»[٣]: «**ليس في النَّوم تفريطٌ، إنَّما التَّفريطُ في اليقظة أن يؤخِّر صلاةً حتَّىٰ يدخل وقتُ التي بعدها**». وأيُّ قياسٍ في الدُّنيا أفسَدُ من هذا القياس وأبطل؟

قالوا: وأمَّا قولكم: إنّه كان يجب عليه أمران: العبادةُ وإيقاعُها في وقتها فإذا ترك أحدَهما بقي عليه الآخَرُ؛ فهذا إنَّما ينفع فيما إذا لم يكن أحدُ الأمرين مرتبطًا بالآخر ارتباطَ الشَّرطيَّة، كمن أُمِر بالحجِّ والزَّكاة، فترَكَ أحدهما لم يَسقُط عنه الآخرَ. أمَّا إذا كان أحدُهما شرطًا في الآخر وقد تعذَّر الإتيانُ بالشَّرط الذي لم يؤمر بالمشروط إلَّا به، فكيف يقال: إنَّه يؤمَرُ بالآخَر بدونه، ويصحُّ منه بدون وصفه وشرطه؟ فأين أمَرَه الله بذلك؟ وهل الكلامُ إلّا فيه؟

قالوا: وأمَّا قولكم: إنَّه لا يُظَنُّ بالشَّرع تخفيفُه عن هذا العامد المفرِّط بعدم

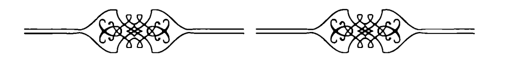
---

(١) لم أجد هذا اللفظ مسندًا، وقد ذكره ابن عبد البر في «التمهيد» (٢/ ٨٢، ٩١ و١٤/ ١٦، ٧٣)، والنووي في «المجموع» (١٢/ ١١٩).

(٢) تقدم قريبًا.

(٣) أخرجه مسلم (٦٨١)، من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.

إيجاب القضاء، وتكليفُ المعذور به؛ فكلامٌ بعيدٌ عن التَّحقيق بيِّنُ البطلان، فإنَّ هذا المعذورَ إنَّما فعَلَ ما أُمِر به في وقته كما تقدَّم، فهو في فعلِ ما أُمِرَ به كغير المعذور الذي صلّىٰ في وقته. ونحن لم نُسْقِط القضاءَ عن العامد المفرِّط تخفيفًا عنه، بل لأنَّه غيرُ نافعٍ له ولا مقبولٍ منه ولا مأمورٍ به، فلا سبيلَ له إلىٰ تحصيلِ مصلحةِ ما تركه، فأين التَّخفيفُ عنه؟



١/ ٥٩١

فصل

تعذر رد حقوق العباد

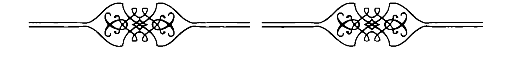
وأمَّا حقوق العباد، فتتصوَّر في مسائل:

إحداها: من غصب أموالًا، ثمَّ تاب، وتعذَّر عليه ردُّها إلىٰ أصحابها أو إلىٰ ورَثتهم لجهله بهم أو لانقراضهم وغير ذلك؛ فاختلف في توبة مثل هذا[(١)].

فقالت طائفةٌ: لا توبةَ له إلَّا بأداء هذه المظالم إلىٰ أربابها. فإذا كان ذلك قد تعذَّر عليه تعذَّرت عليه التَّوبةُ، والقِصاصُ أمامَه يوم القيامة بالحسنات والسَّيِّئات ليس إلَّا.

وقالت طائفةٌ أخرىٰ: بل بابُ التَّوبة مفتوحٌ لهذا، ولم يُغلق الله عنه ولا عن مذنبٍ بابَ التوبة، وتوبتُه أن يتصدَّق بتلك الأموال عن أربابها. فإذا كان يومُ استيفاء الحقوق كان لهم الخيارُ بين أن يُجيزوا ما فعَل وتكون أجورُها لهم، وبين أن لا يجيزوا ويأخذوا من حسناته بقدر أموالهم فيكون ثوابُ تلك الصَّدقة له، إذ لا يبطل الله سبحانه ثوابَها، ولا يجمع لأربابها بين العوض والمعوَّض، فيغرِّمَه إيَّاها ويجعلَ أجرَها لهم، وقد غُرِّم من حسناته بقدرها.

وهذا مذهب جماعةٍ من الصَّحابة ﷺ، كما هو مرويٌّ عن ابن مسعودٍ، ومعاوية[(٢)].



(١) انظر: «الأوسط» لابن المنذر (١١/ ٦٠- ٦٢)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٢٩/ ٣٢١- ٣٢٢).
(٢) انظر: «مصنف عبد الرزاق» (١٨٦٣١)، و«سنن سعيد بن منصور» (٢٧٣٢).

فصل

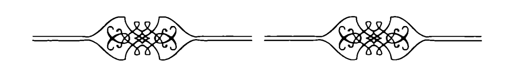
إذا عاوض معاوضة محرمة ثم تاب

المسألة الثَّانية: إذا عاوضَ غيرَه معاوضةً محرَّمةً، وقبَض العوضَ كالزَّانية والمغنِّي وبائع الخمر وشاهد الزُّور ونحوهم، ثمَّ تاب والعوضُ بيده.

فقالت طائفةٌ: يردُّه إلىٰ مالكه إذ هو عينُ ماله، ولم يقبضه بإذن الشَّارع ولا حصل لربِّه في مقابلته نفعٌ مباحٌ.

وقالت طائفةٌ: بل توبتُه بالتَّصدُّق به، ولا يدفعه إلىٰ من أخذه منه. وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله[1]. وهو أصوَبُ القولين، فإنَّ قابضه إنَّما قبضه ببذل مالكه له ورضاه ببذله، وقد استوفىٰ عوضَه المحرَّمَ، فكيف يجمع له بين العوض والمعوَّض؟ وكيف يردُّ عليه مالًا قد استعان به علىٰ معاصي الله، ورضي بإخراجه فيما يستعين به عليها ثانيًا وثالثًا؟ وهل هذا إلّا محضُ إعانته علىٰ الإثم والعدوان؟

وهكذا توبةُ من اختلط مالُه الحلالُ بالحرام، وتعذَّر عليه تمييزُه: أن يتصدَّق بقدر الحرام، ويطيبُ له باقي ماله[2].



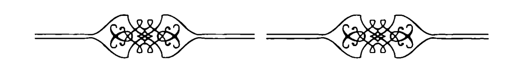
(١) انظر: «جامع المسائل» (٨/ ٢٧٨، ٢٩٥)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٢٩/ ٣٠٩).
(٢) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٢٩/ ٢٧٣، ٣٠٨).

فصل

إذا غصب مالا وتعذر رده

إذا غصَب مالًا، ومات ربُّه، وتعذَّر ردُّه عليه= تعيَّن عليه ردُّه إلىٰ وارثه. فإن مات الوارثُ ردَّه إلىٰ وارثه، وهلمَّ جرًّا. فإن لم يردَّه إلىٰ ربِّه ولا إلىٰ أحد من ورثته، فهل تكون المطالبةُ به في الآخرة للموروث إذ هو ربُّه الأصليُّ وقد غصَبه عليه، أو للوارث الآخِر إذ الحقُّ قد انتقل إليه؟

فيه قولان للفقهاء، ويحتمل أن يقال: المطالبة للموروث ولكلِّ واحدٍ من الورثة، إذ كلٌّ منهم قد كان يستحقُّه ويجب عليه الدَّفعُ إليه، فقد ظلمه بترك إعطائه ما وجب عليه دفعُه إليه، فيتوجَّه عليه المطالبة له في الآخرة[1].



(١) وانظر: «الدَّاء والدَّواء» (ص٣٣٥).

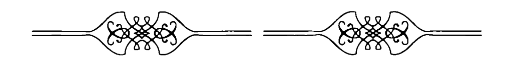
١/ ٦٠٠

فصل

اختلف النَّاسُ هل في الذُّنوب ذنبٌ لا تُقبل توبتُه أم لا؟

فقال الجمهور: التَّوبةُ تأتي علىٰ كلِّ ذنبٍ، فكلُّ ذنبٍ يمكن التَّوبةُ منه وتُقْبَل.

وقالت طائفةٌ: لا تقبل توبة القاتل. وهذا مذهب ابن عبَّاسٍ رضي الله عنه المعروف عنه وإحدىٰ الرِّوايتين عن أحمد[1].



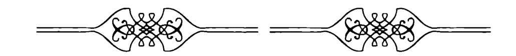
(١) «الروايتين والوجهين» (٢/ ٢٤٧).

٢/ ٣

فصل في مشاهد الخلق في المعصية

وهي اثنا عشر مشهدًا: مشهد الحيوانيَّة وقضاء الشهوة، ومشهد اقتضاء رسوم الطبيعة ولوازم الخلقة، ومشهد الجبر، ومشهد القدر، ومشهد الحكمة، ومشهد التوفيق والخِذلان، ومشهد التوحيد، ومشهد الأسماء والصِّفات، ومشهد الإيمان وتعدُّد شواهده، ومشهد العجز والضَّعف، ومشهد الذُّلِّ والافتقار، ومشهد المحبَّة والعبوديَّة؛ فالأربعة الأُولىٰ للمنحرفين، والثمانية البواقي لأهل الاستقامة، وأعلاها المشهد العاشر.

وهذا الفصل من أجلِّ فصول الكتاب وأنفعها لكلِّ أحدٍ، وهو حقيقٌ بأن تُثنىٰ عليه الخناصر، ولعلَّك لا تظفر به في كتاب سواه إلَّا ما ذكرناه في كتابنا المسمّىٰ بـ«سفر الهجرتين وطريق السَّعادتين»[(١)].



٢/ ٤

فصل

مشهد الحيوانية وقضاء الشهوة

فأمَّا مشهد الحيوانية وقضاء الشهوة، فمشهد الجهَّال الذين لا فرق بينهم وبين سائر الحيوان إلَّا في اعتدال القامة ونطق اللِّسان، ليس همُّهم إلّا مجرَّد نيلِ الشَّهوة بأيِّ طريقٍ أفضَتْ إليها، فهؤلاء نفوسهم نفوسٌ حيوانيَّةٌ لم تترقَّ عنها إلىٰ درجة الإنسانيَّة فضلًا عن درجة الملائكة، فهؤلاء حالهم أخسُّ من أن يُذكَر، وهم في أحوالهم متفاوتون بحسب تفاوت الحيوانات التي هم علىٰ أخلاقها وطباعها.

فمنهم مَن نفسه كلبيَّة: لو صادف جيفةً تُشبع ألفَ كلبٍ لوقع عليها وحَماها من سائر الكلاب ونبح كلَّ كلبٍ يدنو منها، فلا تقربها الكلابُ إلَّا علىٰ كُرهٍ منه وغلبةٍ، ولا يسمح لكلبٍ بشيءٍ منها؛ وهمُّه شبعُ بطنِه من أي طعامٍ اتَّفق: ميتةٍ أو ذكيٍّ، خبيثٍ أو طيِّبٍ، ولا يستحيي من قبيحٍ؛ إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، إن أطعمتَه بصبص بذَنَبه ودار حولك، وإن منعته هرَّك ونبحك.

ومنهم من نفسه حماريَّة: لم يُخلَق إلَّا للكدِّ والعلف، كلّما زيد في علفه زيد في كدِّه، أبكم الحيوان وأقلُّه بصيرةً، ولهذا مثَّل الله سبحانه به من حَمَّله كتابَه فلم يَحمِله معرفةً ولا فقهًا ولا عملًا، ومثَّل بالكلب عالمَ السُّوء الذي آتاه آياتِه فانسلخ منها وأخلد إلىٰ الأرض واتّبع هواه[1]. وفي هذين المثلَين أسرار عظيمة ليس هذا موضع ذكرها.

ومنهم من نفسه سَبُعيَّة غضبيَّة: همُّه العدوان علىٰ النَّاس وقهرهم بما

(١) الأول في قوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ﴾الآية [الجمعة: ٥]، والثاني في قوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝١٧٥ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ...﴾الآيات [الأعراف: ١٧٥- ١٧٧].

وصلت إليه قدرته؛ طبيعته تتقاضىٰ ذلك كتقاضي طبيعة السَّبُع لما يصدر منه.

ومنهم من نفسه فأريَّة: فاسق بطبعه، مفسدٌ لما جاوره، تسبيحه بلسان الحال: سبحان من خلقه للفساد.

ومنهم من نفسه علىٰ نفوس ذوات السُّموم والحُمَات[(١)]، كالحيَّة والعقرب وغيرهما. وهذا الضَّرب هو الذي يؤذي بعينه، فيُدخِل الرجُلَ القبرَ والجَمَل القِدْر[(٢)].

ومن النَّاس من طبعه طبع خنزيرٍ يمرُّ بالطِّيِّبات فلا يلوي عليها، فإذا قام الإنسان عن رَجِيعه قَمَّه، وهكذا كثيرٌ من النَّاس، يسمع منك ويرىٰ من المحاسن أضعافَ أضعافِ المساوئ فلا يتحفَّظها ولا ينقلها ولا تناسبه، فإذا رأىٰ سقطةً أو كلمةً عوراءَ وجد بُغيته وما يُناسبه فجعلها فاكهته ونُقْلَه[(٣)].

ومنهم من هو علىٰ طبيعة الطَّاوس: ليس إلَّا التَّطوُّس والتزيُّن بالرِّيش، وما وراء ذلك شيءٌ.

ومنهم من هو علىٰ طبيعة الجمل: أحقد الحيوان وأغلظه كبدًا.

ومنهم علىٰ طبيعة الدُّبِّ: أبلَمُ[(٤)] خبيث، وعلىٰ طبيعة القرد.

وأحمد طبائع الحيوانات: طبائع الخيل التي هي أشرف الحيوانات نفوسًا وأكرَمُها طباعًا، وكذلك الغنم.

وكلُّ من ألِفَ ضربًا من ضروب هذه الحيوانات اكتسب من طبعه وخلقه،

---

(١) جمع الحُمَة بتخفيف الميم، وهي سمُّ كلِّ شيءٍ يلدغ ويلسع.

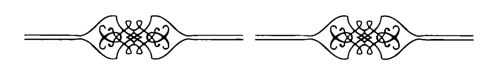
(٢) روي ذلك مرفوعًا بلفظ: «إن العين لتُدخل الرجل القبر والجمل القدر»، وهو حديث واهٍ لا يثبت، أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٩/ ٦٨٢)، وانظر: «المقاصد الحسنة» (٧٢٦).

(٣) النُّقْل: ما يأكله الشارب علىٰ شرابه، وما يُتفكَّه به من جوز ولوز وبندق ونحوها، انظر: «مقاييس اللغة» (٥/ ٤٦٣)، و«تاج العروس» (٣١/ ٢٧).

(٤) الأبلم: الغليظ الشفتين، ولكنه صار يستعمل بمعنىٰ البليد، وانظر: «تكملة المعاجم» لدوزي (١/ ٤٣٧، ٤٣٨).

فإن تغذَّىٰ بلحمه كان الشَّبَه أقوىٰ، فإنَّ الغاذي شبيهٌ بالمغتذي، ولهذا حرَّم الله أكل لحوم السِّباع وجوارح الطَّير لِما تورث آكِلَها من شبه نفوسها بها، والله أعلم.

والمقصود: أنَّ أصحاب هذا المشهد ليس لهم شهودٌ سوىٰ ميل نفوسهم وشهوتهم، لا يعرفون ما وراء ذلك البتَّة.



٢/ ١١

فصل

مشهد الطبائعيين

المشهد الثَّاني: مشهد رسوم الطَّبيعة ولوازم الخلقة، كمشهد زنادقة الفلاسفة والأطبَّاء الذين يشهدون أنَّ ذلك من لوازم الخِلقة والطبيعة الإنسانيَّة، وأنّ تركيب الإنسان من الطَّبائع الأربع وامتزاجَها واختلاطَها كما يقتضي بغيَ بعضها علىٰ بعضٍ وخروجَه عن الاعتدال بحسب اختلاف هذه الأخلاط= فكذلك تركيبُه من البدن والنَّفس والطبيعة الحيوانيَّة يتقاضاه أثَرَ هذه الخلقةِ ورسومَ تلك الطَّبيعة، ولا تنقهر له إلّا بقاهرٍ، إمَّا من نفسه وإمَّا من خارجٍ عنه.

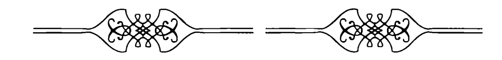
٢/ ١٢

فصل

مشهد الجبرية

المشهد الثالث: مشهد أصحاب الجبر، وهم الذين يشهدون أنهم مُجبَرون علىٰ أفعالهم، وأنها واقعة بغير قدرتهم، بل لا يشهدون أنها أفعالهم البتَّة، ويقولون: إنَّ أحدهم غير فاعلٍ في الحقيقة ولا قادرٍ، وأنَّ الفاعل فيه غيرُه والمحرِّك له سواه، وأنَّه آلة محضة، وحركاته بمنزلة هبوب الرِّياح وحركات الأشجار.

وهؤلاء إذا أنكرت عليهم أفعالهم احتجُّوا بالقدر وحملوا ذنوبهم عليه، وقد يَغْلُون في ذلك حتىٰ يروا أفعالَهم كلَّها طاعاتٍ، خيرَها وشرَّها، لموافقتها المشيئةَ والقدر، ويقولون: كما أنَّ موافقة الأمر طاعة، فموافقة المشيئة طاعة، كما حكىٰ الله تعالىٰ عن المشركين إخوانِهم أنَّهم جعلوا مشيئته تعالىٰ لأفعالهم دليلًا علىٰ أمره بها ورضاه بها[1]. وهؤلاء شرٌّ من القدريَّة النُّفاة، وأشدُّ عداوةً لله ومناقضةً لكتبه ورسله ودينه.



(١) وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ الآية [الأنعام: ١٤٨]، وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ الآية [النحل: ٣٥].

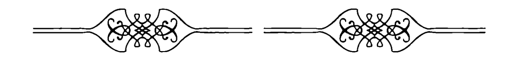
فصل

مشهد القدرية

المشهد الرّابع: مشهد القدريَّة النُّفاة، يشهدون أنَّ هذه الجنايات والذُّنوب هم الذين أحدثوها، وأنّها واقعةٌ بمشيئتهم دون مشيئة الله تعالىٰ، وأنَّ الله لم يقدِّر ذلك عليهم ولم يكتبه، ولا شاءه، ولا خلق أفعالهم، وأنّه لا يقدر أن يهدي أحدًا ولا يضلَّه إلَّا بمجرَّد البيان، لا أنَّه يُلهمه الهدىٰ والضَّلال والفجور والتّقوىٰ فيجعل ذلك في قلبه.

ويشهدون أنَّه يكون في ملك الله ما لا يشاؤه، وأنَّه يشاء ما لا يكون، وأنَّ العباد خالقون لأفعالهم بدون مشيئة الله، فالمعاصي والذُّنوب خَلْقُهم وموجَبُ مشيئتهم، لا أنها خلق الله ولا تتعلّق بمشيئته، وهم لذلك مبخوسو الحظِّ جدًّا من الاستعانة بالله تعالىٰ والتوكُّل عليه والاعتصام به، وسؤالِه أن يهديهم وأن يثبِّت قلوبهم وأن لا يُزيغَها، وأن يوفِّقهم لمرضاته ويجنِّبَهم معصيته، إذ هذا كلُّه واقعٌ بهم وعين أفعالهم، ولا يدخل تحت مشيئة الربِّ تعالىٰ.

والشيطان قد رضي منهم بهذا القدر، فلا يؤزُّهم إلىٰ المعاصي ذلك الأزَّ، ولا يزعجهم إليها ذلك الإزعاج.



فصل

مشهد الحكمة

المشهد الخامس وهو أحد مشاهد أهل الاستقامة: **مشهد الحكمة**، وهو مشهد حكمة الله في تقديره على عبده ما يبغضه سبحانه ويكرهه، ويلوم ويعاقب عليه، وأنَّه لو شاء لعصمه منه ولحال بينه وبينه، وأنَّه سبحانه لا يُعصىٰ قسرًا، وأنّه لا يكون في العالم شيءٌ إلَّا بمشيئته؛ ﴿ لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وهؤلاء يشهدون أنَّ الله سبحانه لم يخلق شيئًا عبثًا ولا سُدًى، وأنَّ له الحكمةَ البالغة في كلِّ ما قدّره وقضاه من خيرٍ وشرٍّ وطاعةٍ ومعصيةٍ، حكمةً باهرةً تعجِز العقول عن الإحاطة بكنهها وتكِلُّ الألسُنُ عن التَّعبير عنها؛ فمصدر قضائه وقدره لِما يُبغضه ويَسخطه اسمه «الحكيم» الذي بهرت حكمته الألباب.

وقد قال تعالىٰ لملائكته لمَّا قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ﴾فأجابهم سبحانه بقوله: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٣٠]، فلله سبحانه في ظهور المعاصي والذُّنوب والجرائم وترتُّب آثارها عليها من الآيات والحِكَم، وأنواع التعرُّفات إلىٰ خلقه، وتنويع آياته، ودلائل ربوبيَّته ووحدانيَّته وإلهيَّته وحكمته وعزَّته وتمامِ ملكه وكمالِ قدرته وإحاطةِ علمه= ما يشهده أولو البصائر عِيانًا ببصائر قلوبهم، فيقولون: ربّنا ما خلقت هذا باطلًا، إن هي إلّا حكمتك الباهرة وآياتك الظاهرة.

وللهِ في كلِّ تحريكةٍ … وتسكينةٍ أبدًا شاهدُ
وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ … تدلُّ علىٰ أنّه واحدُ[1]

(١) البيتان لأبي العتاهية في «ديوانه» (ص١٠٢ - ١٠٤).

فكم من آيةٍ في الأرض بيِّنةٍ دالَّةٍ علىٰ الله، وعلىٰ صدق رسله، وعلىٰ أنّ لقاءه حقٌّ= كان سببُها معاصيَ بني آدم وذنوبَهم، كآيته في إغراق قوم نوحٍ، وعلوِّ الماء علىٰ رؤوس الجبال حتَّىٰ أغرق جميع أهل الأرض ونجا أولياؤه وأهلُ معرفته وتوحيده، فكم في ذلك من آيةٍ وعبرةٍ ودلالةٍ باقيةٍ علىٰ ممرِّ الدُّهور؟! وكذلك إهلاك قوم عادٍ وثمود.

وكذلك اتِّخاذُ الله تعالىٰ الشُّهداء والأولياء والأصفياء من بني آدم بسبب صبرهم علىٰ أذىٰ أهل المعاصي والظُّلم، ومجاهدتهم في الله، وتحمُّلِهم لأجله من أعدائه ما هو بعينه وعلمه، واستحقاقِهم بذلك رفعة الدّرجات.

إلىٰ غير ذلك من المصالح والحكم التي وُجدت بسبب ظهور المعاصي والجرائم، وكان من سببها تقدير ما يبغضه الله ويسخطه. وكان ذلك محضَ الحكمة لما يترتَّب عليه ممَّا هو أحبُّ إليه وآثَرُ عنده من فوته بتقدير عدم المعصية، فحصول هذا المحبوب العظيم أحبُّ إليه من فوات ذلك المبغوض المسخوط، فإنَّ فواته وعدمه وإن كان محبوبًا له لكنَّ حصول هذا المحبوب الذي لم يكن يحصل بدون وجود ذلك المبغوض أحبُّ إليه، وفوات هذا المحبوب أكرَه إليه من فوات[1] ذلك المكروه المسخوط، وكمال حكمته يقتضي حصولَ أحبِّ الأمرين إليه بفوات أدنىٰ المحبوبين، وأن لا يُعطَّل هذا الأحبُّ بتعطيل ذلك المكروه.

وفرض الذِّهن وجودَ هذا بدون هذا كفرضه وجود المسبَّبات بدون أسبابها والملزومات بدون لوازمها، ممَّا تمنعه حكمة الله وكمال قدرته وربوبيَّته.

ويكفي من هذا مثال واحد، وهو أنَّه لولا المعصية من أبي البشر بأكل

---

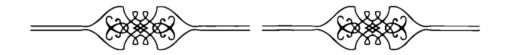
(١) كذا، والسياق يقتضي: «وجود» أو «حصول».

الشجرة لما ترتَّب علىٰ ذلك ما ترتَّب من وجود هذه المحبوبات العظام للربِّ تعالىٰ، من امتحان خلقه وتكليفهم، وإرسال رسله، وإنزال كتبه، وإظهار آياته وعجائبه وتنويعها وتصريفها، وإكرام أوليائه، وإهانة أعدائه، وظهور عدله وفضله، وعزَّته وانتقامه، وعفوه ومغفرته، وصفحه وحلمه، وظهور من يعبده ويحبُّه ويقوم بمراضيه بين أعدائه في دار الابتلاء والامتحان.

وأولياؤه المتّقون، إذا شاهدوا أحوال أعدائه ومقته لهم، وغضبه عليهم، وخِذلانه لهم، ازدادوا له خضوعًا وذُلًّا وافتقارًا وانكسارًا، وبه استعانةً، وإليه إنابةً، وعليه توكُّلًا، وفيه رغبةً، ومنه رهبةً، وعلموا أنه لا ملجأ لهم منه إلَّا إليه، وأنّهم لا يعيذهم من بأسه إلَّا هو، ولا ينجيهم من سخطه إلّا مرضاته، فالفضل بيده أوَّلًا وآخرًا.

وهذا قطرةٌ من بحر حكمته المحيطِ بخلقه وأمره. والبصيرُ يطالع ببصيرته ما وراءه، فيُطلعه علىٰ عجائب من حكمته لا تبلغها العبارة ولا تنالها الصِّفة.

وأمّا حظُّ العبد في نفسه وما يخصُّه من شهود هذه الحكمة، فبحسب استعداده وقوَّةِ بصيرته، وكمالِ علمه ومعرفته بالله وأسمائه وصفاته، ومعرفته بحقوق العبوديّة والرُّبوبيَّة، وكلُّ مؤمنٍ له من ذلك شِربٌ معلوم ومقام لا يتعدّاه ولا يتخطّاه.



فصل

مشهد التوحيد

المشهد السادس: مشهد التوحيد، وهو أن يشهد انفراد الربِّ تعالىٰ بالخلق والحكم، وأنّه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنّه لا تتحرَّك ذرّةٌ إلّا بإذنه، وأنّ الخلق مقهورون تحت قبضته، وأنَّه ما من قلبٍ إلّا وهو بين أصابعه، إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يُزيغه أزاغه، فالقلوب بيده وهو مقلِّبها ومصرِّفها كيف شاء وكيف أراد، وأنّه هو الذي آتىٰ نفوس المتقين تقواها، وهو الذي هداها وزكَّاها، وألْهَم نفوسَ الفجَّار فجورها وأشقاها. من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له؛ يهدي من يشاء بفضله ورحمته، ويضلُّ من يشاء بعدله وحكمته. هذا فضله وعطاؤه، وما فضل الكريم بممنونٍ؛ وهذا عدله وقضاؤه، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[الأنبياء: ٢٣].

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: الإيمان بالقدر نظام التَّوحيد، فمن كذَّب بالقدر نقض تكذيبُه توحيدَه، ومن آمن بالقدر صدَّق إيمانه توحيده[1].

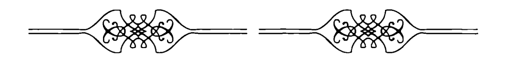
وفي هذا المشهد يتحقَّق للعبد مقامُ ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾علمًا وحالًا، فتَثبت قدم العبد في توحيد الرُّبوبيَّة، ثمَّ يرقىٰ منه صاعدًا إلىٰ توحيد الإلهيَّة، فإنه إذا تيقَّن أن الضرَّ والنَّفع، والعطاء والمنع، والهدىٰ والضّلال، والسَّعادة والشَّقاوة كلُّ ذلك بيد الله لا بيد غيره، وأنّه الذي يقلِّب القلوب ويصرِّفها كيف يشاء، وأنَّه لا موفَّق إلّا من وفَّقه وأعانه، ولا مخذول إلَّا من خذله وتخلَّىٰ عنه= اتَّخذه وحده إلهًا ومعبودًا، فكان أحبَّ إليه من كلِّ ما سواه، وأخوف عنده من كلِّ ما سواه، وأرجىٰ له من كلِّ ما سواه، فتتقدّم محبَّتُه في قلبه جميع المحابِّ، فتنساق المحابُّ

(١) سبق تخريجه.

تبعًا لها كما ينساق الجيش تبعًا للسُّلطان، ويتقدَّم خوفُه في قلبه جميع المخاوف، فتنساق المخاوف كلُّها تبعًا لخوفه، ويتقدَّم رجاؤه في قلبه جميع الرجاء، فينساق كلُّ رجاءٍ له تبعًا لرجائه. فهذا علامة توحيد الإلهيَّة، والبابُ الذي دخل إليه منه: توحيد الرُّبوبيَّة، كما يدعو سبحانه عبادَه في كتابه بهذا النَّوع من التَّوحيد إلىٰ النَّوع الآخر، ويحتجُّ عليهم به، ويقرِّرهم به، ثمّ يخبر أنّهم يَنقضونه بشِرْكهم به في الإلهيَّة.

وفي هذا المشهد يتحقَّق له مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[الزخرف: ٨٧] أي: فمِن أين يُصرَفون عن شهادة أن لا إله إلّا هو، وعن عبادته وحده، وهم يشهدون أنّه لا ربَّ غيرُه، ولا خالق سواه؟

والمقصود أنَّ العبد يحصل له هذا المشهد من مطالعة الجنايات والذُّنوب وجَرَيانِها عليه وعلىٰ الخليقة بتقدير العزيز الحكيم، وأنّه لا عاصم من غضبه وأسباب سخطه إلَّا هو، ولا سبيل إلىٰ طاعته إلا بمعونته، ولا وصول إلىٰ مرضاته إلا بتوفيقه، فموارد الأمور كلُّها منه، ومصادرها إليه، وأزِمَّة التوفيق جميعها بيديه، فلا مستعانَ للعباد إلا به ولا مُتَّكَل إلا عليه، كما قال تعالىٰ عن شعيبٍ خطيب الأنبياء: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[هود: ٨٨].



فصل

مشهد التوفيق والخذلان

المشهد السابع: مشهد التوفيق والخِذلان، وهو من تمام هذا المشهد وفروعه، ولكن أُفرد بالذِّكر لحاجة العبد إلىٰ شهوده وانتفاعه به، وقد أجمع العارفون بالله أنَّ التَّوفيق: أن لا يَكِلَك اللهُ إلىٰ نفسك، والخِذلان: أن يخلِّي بينك وبينها؛ فالعبيد متقلِّبون بين توفيقه وخذلانه، بل العبد في السَّاعة الواحدة ينال نصيبه من هذا وهذا، فيطيعه ويرضيه ويذكره ويشكره بتوفيقه له، ثمَّ يعصيه ويخالفه ويُسخطه ويغفل عنه بخذلانه له. فهو دائرٌ بين توفيقه وخذلانه، فإن وفَّقه فبفضله ورحمته، وإن خذله فبعدله وحكمته، وهو المحمود في هذا وهذا، له أتمُّ حمدٍ وأكملُه، ولم يمنع العبد شيئًا هو له، وإنّما منعه ما هو مجرَّد فضله وعطائه، وهو أعلم حيث يضعه وأين يجعله.

فمتىٰ شهد العبد هذا المشهد وأعطاه حقَّه، علم ضرورته وفاقته إلىٰ التَّوفيق كلَّ نَفَسٍ وكلَّ لحظةٍ وطرفةِ عينٍ، وأنَّ إيمانه وتوحيده مُمْسَكٌ بيَدِ غيره، لو تخلَّىٰ عنه طرفة عينٍ لثُلَّ عرشُه ولخرَّت سماءُ إيمانه علىٰ الأرض، وأنّ الممسك له مَن يُمسك السماء أن تقع علىٰ الأرض إلَّا بإذنه، فهِجِّيرىٰ قلبه ودأبُ لسانه: يا مقلِّب القلوب ثبِّت قلبي علىٰ دينك، يا مصرِّف القلوب صرِّف قلبي إلىٰ طاعتك، ودعواه: يا حيُّ يا قيُّوم، يا بديع السَّماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلَّا أنت، برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كلَّه ولا تكلني إلىٰ نفسي طرفة عينٍ ولا إلىٰ أحدٍ من خلقك.

ففي هذا المشهد يشهد توفيق الله وخذلانَه، كما يشهد ربوبيَّته وخلقه، فيسأله توفيقه مسألة المضطرِّ، ويعوذ به مِن خذلانه عياذَ الملهوف، ويُلقي نفسَه

بين يديه طريحًا ببابه مستسلمًا له، ناكسَ الرأس بين يديه، خاضعًا ذليلًا مستكينًا، لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

والتوفيق إرادة الله من نفسه أن يفعل بعبده ما يصلح به العبد، بأن يجعله قادرًا علىٰ فعل ما يُرضيه، مريدًا له، محبًّا له، مؤثرًا له علىٰ غيره، ويبغِّض إليه ما يسخطه ويَكْرهه، وهذا مجرَّد فعلِه والعبد محلٌّ له؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[الحجرات: ٧ - ٨]، فهو سبحانه عليمٌ بمن يصلح لهذا الفضل ومن لا يصلح له، حكيمٌ يضعه في مواضعه وعند أهله، لا يمنعه أهلَه ولا يضعه عند غير أهله.

وقد ضُرب للتوفيق والخذلان مثلُ مَلِكٍ أرسل إلىٰ أهل بلدة من بلاده رسولًا، وكتب معه كتابًا يُعْلمهم أنَّ العدوَّ مُصبِّحهم عن قريبٍ ومُجتاحهم ومخرِّب البلد ومُهلِكٌ من فيها، وأرسل إليهم أموالًا ومراكِبَ وزادًا وعُدَّةً وأدلَّةً، وقال: ارتحلوا إليَّ مع هؤلاء الأدلَّة وقد أرسلت إليكم جميع ما تحتاجون إليه، ثمَّ قال لجماعةٍ من مماليكه: اذهبوا إلىٰ فلانٍ فخذوا بيده واحملوه ولا تذروه يقعد، واذهبوا إلىٰ فلانٍ كذلك وإلىٰ فلانٍ، وذروا من عداهم فإنَّهم لا يصلحون أن يساكنوني في بلدي، فذهب خواصُّ الملك إلىٰ من أُمروا بحملهم، فلم يتركوهم يَقِرُّون، بل حملوهم حملًا وساقوهم سوقًا إلىٰ الملك، فاجتاح العدوُّ من بقي في المدينة وقتلهم وأسر مَن أسر. فهل يعدُّ المَلِك ظالمًا لهؤلاء أم عادلًا فيهم؟ نعم، خصَّ أولئك بإحسانه وعنايته وحرمها من عداهم، إذ لا يجب عليه التّسوية بينهم في فضله وإكرامه، بل ذلك فضله يؤتيه من يشاء.

فصل

مشهد الأسماء والصفات

المشهد الثامن: مشهد الأسماء والصِّفات، وهو من أجلِّ المشاهد، وهو أعلىٰ ممَّا قبله وأوسع.

والمُطْلع علىٰ هذا المشهد: معرفة تعلُّق الوجود خلقًا وأمرًا بالأسماء الحسنىٰ والصِّفات العُلا، وارتباطه بها، وأن العالَمَ بما فيه من بعض آثارها ومقتضاها. وهذا من أجلِّ المعارف وأشرفها.

وكلُّ اسمٍ من أسمائه سبحانه له صفةٌ خاصَّة، فإن أسماءه سبحانه أوصافُ مدحٍ وكمالٍ، وكلُّ صفةٍ لها مقتضًىٰ وفعلٌ، إمَّا لازم وإمَّا متعدٍّ. ولذلك الفعل تعلُّقٌ بمفعولٍ هو من لوازمه. وهذا في خلقه وأمره وثوابه وعقابه. كلُّ ذلك آثار الأسماء الحسنىٰ وموجَباتها.

ومن المُحال تعطيلُ أسمائه عن أوصافها ومعانيها، وتعطيلُ الأوصاف عمَّا تقتضيه وتستدعيه من الأفعال، وتعطيلُ الأفعال عن المفعولات؛ كما أنَّه يستحيل تعطيلُ مفعوله عن أفعاله، وأفعالِه عن صفاته، وصفاتِه عن أسمائه، وتعطيلُ أسمائه وأوصافه عن ذاته.

وإذا كانت أوصافه صفاتِ كمالٍ، وأفعالُه حِكَمًا ومصالح، وأسماؤه حسنىٰ، ففَرْضُ تعطيلها عن موجَباتها مستحيلٌ في حقِّه، ولهذا ينكر سبحانه علىٰ من عطَّله عن أمره ونهيه وثوابه وعقابه، وأنّه نَسَبه إلىٰ ما لا يليق به بل يتنزَّه عنه، وأنّ ذلك حكمٌ سيِّئ ممَّن حكم به عليه، وأنَّ من نسبه إلىٰ ذلك فما قدره حقَّ قدره، ولا عظَّمه حقَّ تعظيمه، كما قال تعالىٰ في حقِّ منكري النبوات وإرسال الرُّسل وإنزال الكتب: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾[الأنعام: ٩١].

وقال في حقِّ منكري المعاد والثواب والعقاب: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[الزمر: ٦٧].

وقال في حقِّ من جوَّز عليه التسوية بين المختلفين، كالأبرار والفجّار، والمؤمنين والكفّار: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[الجاثية: ٢١]، فأخبر أنّ هذا حكمٌ سيِّئ لا يليق به، تأباه أسماؤه وصفاته.

وقال سبحانه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾[المؤمنون: ١١٥-١١٦] عن هذا الظَّنِّ والحسبان الذي تأباه أسماؤه وصفاته. ونظائر هذا في القرآن كثير، ينفي عن نفسه خلاف موجَب أسمائه وصفاته، إذ ذلك مستلزمٌ تعطيلها عن كمالها ومقتضاها.

فاسمه **الحميد المجيد** يمنع ترك الإنسان سدًىٰ مهملًا معطَّلًا، لا يُؤمر ولا ينهىٰ ولا يثاب ولا يعاقب. وكذلك اسمه **الحكيم** يأبىٰ ذلك، وكذلك اسمه **الملك**.

واسمه **الحيُّ** يمنع أن يكون معطَّلًا عن الفعل، بل حقيقة الحياة: الفعل، فكلُّ حيٍّ فعَّالٌ، وكونه سبحانه خالقًا قيُّومًا من موجَبات حياته ومقتضاها.

واسمه **السَّميع البصير** يوجب مسموعًا ومرئيًا. واسم **الخالق** يقتضي مخلوقًا، وكذا **الرَّازق**. واسم **المَلِك** يقتضي مملكةً وتصرُّفًا وتدبيرًا، وإعطاءً ومنعًا، وإحسانًا وعدلًا، وثوابًا وعقابًا. واسم **البَرِّ، المحسن، المعطي، المنَّان** ونحوها تقتضي آثارها وموجَباتها.

إذا عرف هذا، فمن أسمائه سبحانه: **الغفَّار، التَّوَّاب، العفوُّ**، فلا بدَّ لهذه الأسماء من متعلَّقاتٍ، ولا بُدَّ من جنايةٍ تُغفَر، وتوبةٍ تُقبَل، وجرائم يُعفىٰ عنها،

ولا بدَّ لاسمه **الحليم** من متعلَّقٍ يظهر فيه حِلْمه، إذ اقتضاءُ هذه الأسماء لآثارها كاقتضاء اسم الخالق الرازق المعطي المانع للمخلوق والمرزوق والمُعطىٰ والممنوع، وهذه الأسماء كلُّها حسنىٰ.

والربُّ تعالىٰ يحبُّ ذاته وأوصافه وأسماءه، فهو **عفوٌّ** يحبُّ العفو، ويحبُّ المغفرة، ويحبُّ التَّوبة، ويفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرحٍ يخطر بالبال، فكان تقديرُ ما يغفره، ويعفو عن فاعله، ويحلم عنه، ويتوب عليه ويسامحه= من موجَب أسمائه وصفاته. وحصولُ ما يحبُّه ويرضاه من ذلك، وما يَحمَد به نفسه ويحمده به أهلُ سماواته وأهل أرضه= ما هو من موجبات كماله ومقتضىٰ حمده.

وهو سبحانه **الحميد المجيد**، وحمده ومجده يقتضيان آثارهما، ومن آثارهما: مغفرة الزلّات، وإقالة العَثَرات، والعفو عن السيِّئات، والمسامحة علىٰ الجنايات، مع كمال القدرة علىٰ استيفاء الحقِّ والعلمِ منه سبحانه بالجناية ومقدار عقوبتها، فحِلْمُه بعد علمه، وعفوُه بعد قدرته، ومغفرته عن كمال عزَّته وحكمته، كما قال المسيح صلىٰ الله علىٰ نبينا وعليه وسلم: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[المائدة: ١١٨]، أي: فمغفرتك عن كمال قدرتك وحكمتك، ليستْ كمن يغفر عجزًا ويسامح جهلًا بقدر الحقِّ، بل أنت عليمٌ بحقِّك، قادرٌ علىٰ استيفائه، حكيمٌ في الأخذ به.

فمن تأمَّل سَرَيان آثارِ الأسماء والصِّفات في العالَم وفي الأمر، تبيَّن له أنَّ مصدر قضاءِ هذه الجنايات من العبيد وتقديرها هو من كمال الأسماء والصِّفات والأفعال، وغاياتُها أيضًا مقتضىٰ حمده ومجده، كما هو مقتضىٰ ربوبيَّته وإلهيَّته.

فله في كلِّ ما قضىٰ وقدَّره: الحكمةُ البالغة، والآياتُ الباهرة، والتعرُّف إلىٰ

عَبيده بأسمائه وصفاته، واستدعاءُ محبَّتهم له، وذكرِهم له، وشكرِهم له، وتعبُّدِهم له بأسمائه الحسنىٰ، إذ كلُّ اسمٍ فله تعبُّدٌ مختصٌّ به علمًا ومعرفةً وحالًا. وأكملُ النّاس عبوديَّةً: المتعبِّدُ بجميع الأسماء والصِّفات التي يطّلع عليها البشر، فلا تحجبه عبوديَّةُ اسمٍ عن عبوديَّةِ آخرَ، كمن يحجبه التعبُّد باسمه القدير عن التعبُّد باسمه الحكيم الرحيم، أو تحجبه عبوديَّةُ اسمه المعطي عن عبوديَّة اسمه المانع، أو عبوديَّةُ اسمه الرحيم والعفوِّ والغفور عن اسمه المنتقم، أو التعبُّدُ بأسماء التودُّد والبِرِّ واللُّطف والإحسان عن أسماء العدل والجبروت والكبرياء والعظمة ونحو ذلك.

وهذه طريقة الكُمَّل من السَّائرين إلىٰ الله تعالىٰ، وهي طريقة مشتقَّة من قلب القرآن، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف: ١٨٠]، والدُّعاء بها يتناول دعاءَ المسألة، ودعاءَ الثّناء، ودعاءَ التعبُّد، وهو سبحانه يدعو عباده إلىٰ أن يعرفوه بأسمائه وصفاته، ويُثنوا عليه بها، ويأخذوا بحظِّهم من عبوديّتها.

وهو سبحانه يحبُّ موجَب أسمائه وصفاته، فهو عليمٌ يحبُّ كلَّ عليمٍ، جَوادٌ يحبُّ كلّ جَوادٍ، وترٌ يحبُّ الوتر، جميلٌ يحبُّ الجمال، عفوٌّ يحبُّ العفو وأهله، حَيِيٌّ يحبُّ الحياء وأهله، بَرٌّ يحبُّ الأبرار، شكورٌ يحبُّ الشاكرين، صبورٌ يحبُّ الصابرين، حليمٌ يحبُّ أهل الحلم. فلمحبَّته سبحانه للتَّوبة والمغفرة والعفو والصفح خَلَق من يغفر له ويتوب عليه ويعفو عنه، وقدَّر عليه ما يقتضي وقوعَ المكروه المبغوض له، ليُرتِّبَ عليه المحبوب له المرضي له، فتوسُّطه كتوسُّط الأسباب المكروهة المُفضية إلىٰ المحبوب.

وهذا المشهد أجلُّ من أن يحيط به كتاب، أو يستوعبه خطاب، وإنَّما أشرنا منه إلىٰ أدنىٰ إشارةٍ تُطلع علىٰ ما وراءها، والله الموفِّق المعين.

فصل

مشهد زيادة الإيمان

المشهد التاسع: مشهد زيادة الإيمان وتعدُّد شواهده. وهذا من ألطف المشاهد وأخصِّها بأهل المعرفة، ولعلَّ سامعه يبادر إلىٰ إنكاره، ويقول: كيف نشهد زيادة الإيمان من الذُّنوب والمعاصي، ولا سيَّما مِن ذنوب العبد ومعاصيه؟ وهل ذلك إلَّا مُنقص الإيمان، فإنَّه بإجماع السّلف يزيد بالطّاعة وينقص بالمعصية.

فاعلم أنَّ هذا حاصلٌ من التفات العارف إلىٰ الذُّنوب والمعاصي منه ومن غيره وإلىٰ ترتُّب آثارها عليها. وترتُّبُ هذه الآثار عليها عَلَمٌ من أعلام النُّبوَّة، وبرهانٌ من براهين صدق الرُّسل وصحَّة ما جاؤوا به، فإنَّ الرُّسل صلوات الله وسلامه عليهم أمروا العباد بما فيه صلاح ظواهرهم وبواطنهم في معاشهم ومعادهم، ونهوهم عمَّا فيه فساد ظواهرهم وبواطنهم في المعاش والمعاد، وأخبروهم عن الله سبحانه أنّه يحبُّ كذا وكذا ويُثيب عليه كذا وكذا، وأنّه يبغض كيت وكيت ويعاقب عليه بكيت وكيت، وأنّه إذا أطيع بما أَمَر به شكر عليه بالإمداد والزِّيادة والنِّعم في القلوب والأبدان والأموال، ووجد العبدُ زيادته وقوَّته في حاله كلِّها، وأنّه إذا خولف أمرُه ونهيه ترتَّب عليه من النقص والفساد والضَّعف والذُّلِّ والمهانة والحقارة وضيق العيش وتنكُّد الحياة ما ترتَّب، كما قال تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[النحل: ٩٧]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ [الزمر: ١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ﴾[النحل: ٣٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا

حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾[هود: ٣].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[طه: ١٢٤]، وفسِّرت المعيشة الضّنك بعذاب القبر، والصَّحيح أنّها في الدُّنيا وفي البرزخ، فإنّ من أعرض عن ذكره الذي أنزله فله من ضيق الصّدر، ونكدِ العيش، وكثرةِ الخوف، وشدّةِ الحرص والتعب علىٰ الدُّنيا، والتحسُّرِ علىٰ فواتها قبل حصولها وبعد حصولها، والآلامِ التي في خلال ذلك= ما لا يشعر به القلب لسَكرته وانغماسه في السُّكر، فهو لا يصحو ساعةً إلَّا شعر بهذا الألم فبادر إلىٰ إزالته بسكرٍ ثانٍ، فهو هكذا مدَّةَ حياته، وأيُّ معيشة أضيقُ من هذه لو كان للقلب شعورٌ؟

فقلوب أهل البدع، والمُعرضين عن القرآن، وأهلِ الغفلة عن الله، وأهل المعاصي في جحيمٍ قبل الجحيم الكبرىٰ، وقلوبُ الأبرار في نعيمٍ قبل النعيم الأكبر؛ ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾[الانفطار: ١٣- ١٤]. هذا في دورهم الثلاثة، ليس مختصًّا بالدّار الآخرة، وإن كان تمامُه وكمالُه وظهورُه لهما هو في الدّار الآخرة، وفي البرزخ دون ذلك؛ قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾[الطور: ٤٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾[النمل: ٧١- ٧٢]. وفي هذه الدار دون ما في البرزخ، ولكن يمنع من الإحساس به الاستغراقُ في سَكرة الشَّهَوات، وطرحُ ذلك عن القلب، وعدمُ التفكُّر فيه. والعبد قد يصيبه ألمٌ حسِّيٌّ فيطرحه عن قلبه، ويقطع التفاتَه عنه، ويجعل إقباله علىٰ غيره إلىٰ أن لا يشعر به جملةً، فلو زال عنه ذلك الالتفاتُ لصاح من شدَّة الألم، فما الظَّنُّ بعذاب القلوب وآلامها؟

وقد جعل الله تعالىٰ للحسنات والطاعات آثارًا محبوبةً لذيذةً طيِّبةً، لذَّتها فوق لذَّة المعصية بأضعافٍ مضاعفةٍ، لا نسبة لها إليها، وجَعَل للسيِّئات والمعاصي آلامًا وآثارًا مكروهةً وحزازاتٍ تُرْبي علىٰ لذَّة تناوُلِها بأضعافٍ مضاعفةٍ، قال ابن عبَّاسٍ ﷺ: «إنَّ للحسنة نورًا في القلب، وضياءً في الوجه، وقوَّةً في البدن، وزيادةً في الرِّزق، ومحبَّةً في قلوب الخلق. وإنّ للسيِّئة سوادًا في الوجه، وظلمةً في القلب، ووَهَنًا في البدن، ونقصًا في الرِّزق، وبِغضةً في قلوب الخلق»[1]. وهذا يعرفه صاحب البصيرة ويشهده من نفسه ومن غيره.

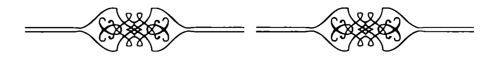
فما حصل للعبد حالٌ مكروهةٌ قطُّ إلّا بذنبٍ، وما يعفو الله عنه أكثر. وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورىٰ: ٣٠]، وقال لخيار خلقه وأصحاب نبيِّه: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾[آل عمران: ١٦٥]، وقال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾[النساء: ٧٩]، والمراد بالحسنة والسيِّئة هنا النِّعم والمصائب التي تصيب العبد من الله، ولهذا قال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ﴾ولم يقل: «ما أصبت». فكلُّ نقصٍ وبلاءٍ وشرٍّ في الدُّنيا والآخرة فبسبب الذُّنوب ومخالفةِ أوامر الربِّ تعالىٰ، فليس في العالم شرٌّ قطُّ إلّا الذُّنوب وموجَباتها.

فشهود العبد نقصَ حاله إذا عصىٰ ربَّه، وتغيُّرَ القلوب عليه، وجفولَها منه، وانسدادَ الأبواب في وجهه، وتوعُّرَ المسالك عليه، وهوانَه علىٰ أهل بيته وأولاده وزوجته وإخوانه؛ وتطلُّبُ سببِ ذلك حتَّىٰ يعلم من أين أُتي؛ ووقوعُه علىٰ

(١) لم أقف عليه من قول ابن عباس، وقد صحَّ نحوه من قول الحسن البصري، أخرجه ابن أبي شيبة (٣٦٣٤٣)، وروي مرفوعًا كما في «حلية الأولياء» (٢/ ١٦١)، ولكنه لا يصح، انظر: «العلل» لابن أبي حاتم (١٩٠٩).

السّبب الموجِب لذلك= ممّا يقوِّي إيمانَه. فإن أقلع وباشر الأسباب التي تُفضي به إلىٰ ضدِّ هذه الحال، ورأىٰ العزَّ بعد الذُّلِّ، والغنىٰ بعد الفقر، والسُّرورَ بعد الحزن، والأمنَ بعد الخوف، والقوَّة في قلبه بعد ضعفه ووهنه= ازداد إيمانًا مع إيمانه، فتَقْوىٰ شواهدُ الإيمان في قلبه وبراهينُه وأدلَّتُه في حال معصيته وطاعته، فهذا من الذين يكفِّرُ الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون.

وصاحب هذا المشهد متىٰ تبصَّر فيه وأعطاه حقَّه صار من أطبَّاء القلوب العالمين بدائها ودوائها، فنفعه الله في نفسه، ونفع به من شاء من خلقه.

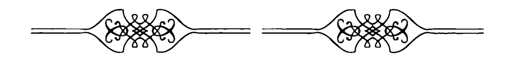


فصل

مشهد الرحمة

المشهد العاشر: مشهد الرحمة، فإنَّ العبد إذا وقع في الذَّنب خرج من قلبه تلك الغلظةُ والقسوةُ والكيفيَّةُ الغضبيَّة التي كانت عنده لمن صدر منه ذنبٌ، حتّىٰ لو قَدَر عليه لأهلكه، وربما دعا اللهَ عليه أن يُهلكه ويأخذه، غضبًا منه لله وحرصًا علىٰ أن لا يُعصىٰ، فلا يجد في قلبه رحمةً للمذنبين الخطَّائين، ولا يراهم إلّا بعين الاحتقار والازدراء، ولا يذكرهم إلّا بلسان الطّعن فيهم والعيب لهم والذّمِّ.

فإذا جرت عليه المقادير وخُلِّي ونفسَه استغاث بالله والتجأ إليه، وتَمَلْمَل بين يديه تململَ السَّليم، ودعاه دعاءَ المضطرِّ، فتبدَّلت تلك الغلظة علىٰ المذنبين رقّةً، وتلك القساوة علىٰ الخطَّائين رحمةً مع قيامه بحدود الله، وتبدَّل دعاؤه عليهم دعاءً لهم، وجعل لهم وظيفةً من عمره يسأل الله فيها أن يغفر لهم. فما أنفعَه له من مشهدٍ، وما أعظَمَ جدواه عليه!



فصل

مشهد العجز والضّعف

فيورثه ذلك: **المشهدَ الحادي عشر، وهو: مشهد العجز والضعف**، وأنَّه أعجز شيءٍ عن حفظ نفسه وأضعف، وأنّه لا قوّة له ولا قدرة ولا حول إلّا بربِّه، فيشهد قلبَه كريشةٍ مُلقاةٍ بأرضِ فلاةٍ تُسيِّرها الرِّياح يمينًا وشمالًا، ويشهد نفسه كراكب سفينةٍ في البحر تهيج بها الرِّياح وتتلاعب بها الأمواج، ترفعها تارةً وتخفضها أخرىٰ.

تجري عليه أحكام القدر وهو كالآلة طريحًا بين يدي وليِّه، ملقًىٰ ببابه، واضعًا خدَّه علىٰ ثرىٰ أعتابه، لا يملك لنفسه ضَرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، ليس له من نفسه إلَّا الجهلُ والظُّلمُ وآثارُهما ومقتضَياتهما، فالهلاك أدنىٰ إليه من شِراك نعله، كشاةٍ ملقاةٍ بين الذِّئاب والسِّباع لا يردُّهم عنها إلّا الرّاعي، فلو تخلَّىٰ عنها طرفةَ عينٍ لتقاسموها أعضاءً، هكذا حال العبد ملقًىٰ بين الله وبين أعدائه من شياطين الإنس والجنِّ، فإنْ حماه منهم وكفَّهم عنه لم يجدوا إليه سبيلًا، وإن تخلَّىٰ عنه ووَكَله إلىٰ نفسه طرفة عينٍ لم ينقسم عليهم، بل هو نصيب من ظفر به منهم.

وفي هذا المشهد يعرف نفسه حقًّا، ويعرف ربَّه، وهذا أحد التأويلات للكلام المشهور: «من عرف نفسه عرف ربَّه»، وليس حديثًا عن رسول الله ﷺ، وإنَّما هو أثرٌ إسرائيليٌّ بغير هذا اللّفظ أيضًا: «يا إنسان اعرِفْ نفسك تعرف ربّك»[1]، وفيه ثلاث تأويلاتٍ:

أحدها: أنَّ من عرف نفسه بالضّعف عرف ربَّه بالقوَّة، ومن عرفها بالعجز

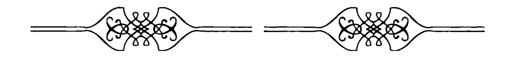
(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٦/ ٣٤٩)، و«سلسلة الأحاديث الضعيفة» (٦٦).

عرف ربَّه بالقدرة، ومن عرفها بالذُّلِّ عرف ربَّه بالعزِّ، ومن عرفها بالجهل عرف ربَّه بالعلم، فإنَّ الله سبحانه استأثر بالكمال المطلق والحمد والثّناء والمجد والغنىٰ، والعبد فقيرٌ ناقصٌ محتاجٌ، وكلّما ازدادت معرفةُ العبد بنقصه وعيبه وفقره وذلِّه وضعفه ازدادت معرفتُه لربِّه بأوصاف كماله.

التأويل الثاني: أنَّ من نظر إلىٰ نفسه وما فيها من الصِّفات الممدوحة من القوَّة والإرادة والكلام والمشيئة والحياة، عرف أنَّ من أعطاه ذلك وخلقه فيه أولىٰ به، فمُعطي الكمال أحقُّ بالكمال، فكيف يكون العبد حيًّا متكلِّمًا سميعًا بصيرًا مريدًا عالمًا يفعل باختياره، ومَن خَلَقه وأوجده لا يكون أولىٰ بذلك منه؟ فهذا من أعظم المُحال، بل من جعل العبد متكلِّمًا أولىٰ أن يكون هو متكلِّمًا، ومن جعله حيًّا عليمًا سميعًا بصيرًا فاعلًا قادرًا أولىٰ أن يكون كذلك. فالتّأويل الأوَّل من باب الضِّدِّ، وهذا من باب الأولويَّة.

والتأويل الثالث: أنَّ هذا من باب النفي، أي كما أنَّك لا تعرف نفسك التي هي أقرب الأشياء إليك، فلا تعرف حقيقتها، ولا ماهيَّتها ولا كيفيَّتها، فكيف تعرف حقيقة ربِّك وكيفيَّة صفاته؟

والمقصود: أنَّ في هذا المشهد يعرِف العبد أنَّه عاجزٌ ضعيفٌ، فتزول عنه رُعُونات الدَّعاوي، والإضافات إلىٰ نفسه، ويعلم أنَّه ليس له من الأمر شيءٌ وليس بيده شيء، إن هو إلَّا محضُ الفقر والعجز والضَّعف.



فصلٌ

مشهد الذل والخضوع

فحينئذٍ يطلع منه علىٰ **المشهد الثاني عشر**، وهو: مشهد الذُّلِّ والانكسار والخضوع والافتقار للربِّ جلّ جلاله، فيشهد في كلِّ ذرّةٍ من ذرَّاته الباطنة والظاهرة ضرورةً تامَّةً وافتقارًا تامًّا إلىٰ ربِّه ووليِّه، ومَن بيده صلاحُه وفلاحه، وهداه وسعادته، وهذه الحال التي تحصل لقلبه لا تَنال العبارةُ حقيقتَها، وإنّما تُدرَك بالحصول، فيحصل لقلبه كسرةٌ خاصَّةٌ لا يشبهها شيء، بحيث يرىٰ نفسه كالإناء المرضوض تحت الأرجل، الذي لا شيء فيه، ولا به ولا منه، ولا فيه منفعة، ولا يُرغَب في مثله، وأنَّه لا يصلح للانتفاع إلَّا بجبرٍ جديدٍ من صانعه وقيِّمه، فحينئذٍ يستكثر في هذا المشهد ما مِن ربِّه إليه من الخير، ويرىٰ أنَّه لا يستحقُّ منه قليلًا ولا كثيرًا، فأيُّ خيرٍ ناله من الله تعالىٰ استكثره علىٰ نفسه، وعلم أنَّ قدره دونه، وأنّ رحمة ربِّه اقتضَتْ ذِكرَه به وسياقته إليه، واستقلَّ ما مِن نفسه من الطّاعات لربِّه، ورآها ولو ساوت طاعات الثّقلين من أقلِّ ما ينبغي لربِّه عليه، واستكثر قليلَ معاصيه وذنوبه، فإنَّ الكسرة التي حصلت لقلبه أوجبت له هذا كلَّه.

فما أقربَ الجبرَ من هذا القلب المكسور، وما أدنىٰ النصرَ والرحمةَ والرِّزقَ منه، وما أنفعَ هذا المشهدَ له وأجداه عليه! وذرّةٌ من هذا ونَفَسٌ منه أحبُّ إلىٰ الله من طاعاتٍ أمثال الجبال من المُدلِّين المُعجَبين بأعمالهم وعلومهم وأحوالهم، وأحبُّ القلوب إلىٰ الله تعالىٰ قلبٌ قد تمكّنت منه هذه الكسرة وملكته هذه الذِّلَّة، فهو ناكس الرّأس بين يدي ربِّه تعالىٰ، لا يرفع رأسه إليه حياءً وخجلًا من الله تعالىٰ.

قيل لبعض العارفين[1]: أيسجد القلب؟ قال: نعم، يسجد سجدةً لا يرفع رأسه منها إلىٰ يوم اللِّقاء، فهذا سجود القلب.

فقلبٌ لا تباشره هذه الكسرةُ فهو غير ساجدٍ السُّجودَ المرادَ منه، وإذا سجد القلب لله هذه السجدةَ العظمىٰ سجدت معه جميعُ الجوارح، وعنا الوجهُ حينئذٍ للحيِّ القيُّوم، وخشع الصَّوت والجوارح كلُّها، وذلّ العبد وخضع واستكان، ووضع خدَّه علىٰ عتبة العبوديَّة ناظرًا بقلبه إلىٰ ربِّه ووليِّه نظر الذليل إلىٰ العزيز الرحيم، فلا يُرىٰ إلّا متملِّقًا لربِّه خاضعًا له، ذليلًا مستكينًا مستعطفًا له، يسأله عطفه ورحمته، فهو يترضَّىٰ ربَّه كما يترضَّىٰ المحبُّ الكاملُ المحبَّةِ محبوبَه المالكَ له الذي لا غنىٰ له عنه ولا بدَّ له منه، فليس له همٌّ غير استرضائه واستعطافه، لأنَّه لا حياة له ولا فلاح إلَّا في قربه ورضاه عنه ومحبَّته له، يقول: كيف أُغضِب مَن حياتي في رضاه؟ وكيف أعدِلُ عمَّن سعادتي وفلاحي وفوزي في قربه وحبِّه وذِكره؟

وصاحب هذا المشهد يشهد نفسه كرجلٍ كان في كنف أبيه يغذوه بأطيب الطعام والشراب واللِّباس، ويربِّيه أحسن التّربيةٍ، ويرقِّيه في درجات الكمال أتمَّ ترقيةٍ، وهو القيِّم بمصالحه كلِّها، فبعثه أبوه في حاجةٍ له، فخرج عليه في الطريق عدوٌّ فأسره وكَتَفه وشدَّه وثاقًا، ثمَّ ذهب به إلىٰ بلاد الأعداء فسامه سوءَ العذاب، وعامله بضدِّ ما كان أبوه يعامله به، فهو يتذكّر تربية والده وإحسانَه إليه الفينةَ بعد الفينة، فيَهيج من قلبه لواعجُ الحسرات كلَّما رأىٰ حاله وتذكَّر ما كان فيه، فبينا هو في أسْرِ عدوِّه يسومه سوءَ العذاب ويريد نحرَه في آخر الأمر، إذ حانت منه التفاتةٌ إلىٰ نحو ديار أبيه فرأىٰ أباه منه قريبًا، فسعىٰ إليه وألقىٰ نفسه عليه، يستغيث: يا

---

(١) في «فتاوىٰ شيخ الإسلام» (٢١/ ٢٨٧) أنه سهل بن عبد الله التستري، ولكن في «الفتوحات» لابن العربي (١/ ٥١٥) أن سهلًا هو السائل، والمسؤول بعض العارفين مِن عَبَّادان.

أبتاه، يا أبتاه! انظر إلىٰ ولدك وما هو فيه، ودموعُه تستبق علىٰ خدَّيه، قد اعتنقه والتزمه، وعدوُّه في طلبه حتّىٰ وقف علىٰ رأسه، وهو ملتزمٌ لوالده ممسكٌ له، فهل تقول: إنَّ والده يُسْلِمه مع هذه الحال إلىٰ عدوِّه ويخلِّي بينه وبينه؟ فما الظّنُّ بمن هو أرحمُ بعبده من الوالد بولده والوالدة بولدها إذا فرَّ إليه، وهرب من عدوِّه إليه، وألقىٰ نفسَه طريحًا ببابه، يمرِّغ خدّه في ثَرىٰ أعتابه باكيًا بين يديه، يقول: يا ربِّ، يا ربِّ، ارحم مَن لا راحمَ له سواك، ولا وليَّ له سواك، ولا ناصرَ له سواك، ولا مؤوي له سواك، ولا مغيث له سواك؛ مسكينك وفقيرك، وسائلك ومؤمِّلك ومرجِّيك، لا ملجا ولا منجا له منك إلَّا إليك، أنت ملاذُه وبك معاذُه.

يا من ألوذ به فيما أؤمِّله ... ومن أعوذ به فيما أحاذره
لا يَجْبُر النّاس عظمًا أنت كاسِرُه ... ولا يَهيضُون عظمًا أنت جابره[1]

فإذا استبصر في هذا المشهد، وتمكَّن من قلبه وباشره، وذاق طعمه وحلاوته= ترقَّىٰ منه إلىٰ:

المشهد الثالث عشر، وهو: الغاية التي شمَّر إليها السَّالكون، وأمَّها القاصدون، ولحظ إليها العاملون.

مشهد العبودية والمحبة

وهو **مشهد العبوديَّة والمحبَّة**، والشوق إلىٰ لقائه، والابتهاج والفرح والسُّرور به، فتَقِرُّ به عينُه، ويسكن إليه قلبُه، وتطمئنُّ إليه جوارحُه، ويستولي ذكرُه علىٰ لسان محبِّه وقلبه، فتصير خطراتُ المحبَّة مكانَ خطرات المعصية، وإرادةُ التقرُّب إليه ومرضاته مكان إرادة معاصيه ومساخطه، وحركاتُ اللِّسان والجوارح بالطّاعات مكان حركاتها بالمعاصي. قد امتلأ قلبه من محبَّته، ولهج لسانُه بذكره، وانقادت الجوارح لطاعته، فإنَّ هذه الكسرة الخاصَّة لها تأثيرٌ عجيبٌ في المحبَّة لا يُعبَّر عنه.

---

(١) البيتان للمتنبي في «ديوانه» (ص٣٨- ٣٩). والهَيضُ: الكَسْر العظم بعدَ الجُبور.

ويُحكىٰ عن بعض العارفين قال: دخلت علىٰ الله من أبواب الطّاعات كلِّها، فما دخلت من بابٍ إلّا رأيت عليه الزِّحام فلم أتمكَّن من الدُّخول، حتّىٰ جئت باب الذُّلِّ والافتقار، فإذا هو أقرب بابٍ إليه وأوسعه، ولا مُزاحمَ فيه ولا مُعوِّق، فما هو إلَّا أن وضعتُ قدمي في عَتَبته فإذا هو قد أخذ بيدي وأدخلني عليه.

وكان شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله **يقول**: من أراد السعادة الأبديَّة فليلزم عتبة العبوديَّة[1].

وقال بعضُ العارفين: لا طريق أقربُ إلىٰ الله من العبودية، ولا حجاب أغلظ من الدعوىٰ، ولا ينفع مع الإعجاب والكبر عملٌ واجتهادٌ، ولا يضرُّ مع الذُّلِّ والافتقار بطالةٌ، يعني: بعدَ فعل الفرائض.

والقصد: أنَّ هذه الذِّلَّة والكسرة الخاصة تُدخله علىٰ الله، وترميه علىٰ طريق المحبَّة، فيفتح له منها بابٌ لا يفتح له من غير هذا الطّريق، وإن كانت طرق سائر الأعمال والطاعات تفتح للعبد أبوابًا من المحبَّة، لكنَّ الذي يُفتح منها من طريق الذلِّ والانكسار والافتقار وازدراء النفس، ورؤيتِها بعين الضَّعف والعجز والعيب والنقص والذمِّ بحيث يشاهدها ضيعةً وعجزًا وتفريطًا وذنبًا وخطيئةً= نوعٌ آخر وفتحٌ آخر.

والسالك بهذا الطريق غريبٌ في الناس، هُم في وادٍ وهو في وادٍ، وهي تسمَّىٰ طريقة الطَّير، يسبق النائمُ فيها علىٰ فراشه السُّعاةَ، فيصبح وقد قطع الرَّكب، بينا هو يحدِّثك وإذا به قد سبق الطَّرف وفات السُّعاة، فالله المستعان وهو خير الغافرين.

وهذا الذي حصل له من آثار محبَّة الله له وفرحه بتوبة عبده، فإنَّه سبحانه

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٩/ ٣٤)، و«جامع المسائل» (٦/ ١٢٥).

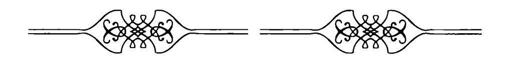
يحبُّ التوَّابين ويفرح بتوبتهم أعظمَ فرحٍ وأكملَه. فكلَّما طالع العبدُ منَّته سبحانه قبل الذَّنب، وفي حال مواقعة الذنب، وبعد الذنب، وبِرَّه به وحلمه عنه، وإحسانه إليه= هاجت من قلبه لواعجُ محبَّته والشوقِ إلىٰ لقائه، فإنَّ القلوب مجبولةٌ علىٰ حبِّ من أحسن إليها، وأيُّ إحسانٍ أعظمُ من إحسانِ من يبارزه العبد بالمعاصي وهو يمدُّه بنعمه، ويعامله بألطافه، ويُسبِل عليه ستره، ويحفظه من خطفات أعدائه المترقِّبين له أدنىٰ عثرةٍ ينالون منه بها بُغيتهم، ويردُّهم عنه، ويحول بينهم وبينه؟ وهو في ذلك كلِّه بعَينه، يراه ويطَّلع عليه، فالسَّماء تستأذن ربَّها أن تَحصِبَه، والأرض تستأذنه أن تخسِفَ به، والبحر يستأذنه أن يُغرقه، كما في «مسند الإمام أحمد ﵁»[1] عن النبيِّ ﷺ: **«ما من يومٍ إلاَّ والبحر يستأذن ربَّه أن يغرق بني آدم، والملائكة تستأذنه أن تعاجله وتهلكه، والرَّبُّ تعالىٰ يقول: دَعُوا عبدي، فأنا أعلم به إذ أنشأته من الأرض، إن كان عبدكم فشأنكم به، وإن كان عبدي فمنِّي إلىٰ عبدي، وعزَّتي وجلالي إن أتاني ليلًا قبلته، وإن أتاني نهارًا قبلته، وإن تقرَّب منِّي شبرًا تقرَّبتُ منه ذراعًا، وإن تقرّب منِّي ذراعًا تقرَّبت منه باعًا، وإن مشىٰ إليَّ هرولتُ إليه، وإن استغفرني غفرتُ له، وإن استقالني أقلته، وإن تاب إليَّ تبتُ عليه؛ مَن أعظم منِّي جودًا وكرمًا وأنا الجواد الكريم؟ عبيدي يبيتون يبارزوني بالعظائم وأنا أكلَؤُهم في مضاجعهم وأحرُسُهم علىٰ فرشهم، مَن أقبل إليَّ تلقَّيتُه من بعيدٍ، ومَن ترك لأجلي أعطيتُه فوق المزيد، ومن تصرَّف بحولي وقوَّتي ألنْتُ له الحديد، ومن أراد مرادي أردتُ ما يريد، أهل ذكري أهل مجالستي، وأهل شكري أهل زيادتي، وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهل معصيتي لا أُقنِّطهم**

---

(١) ليس فيه هذا اللفظ الطويل الذي ذكره، وليس في القدر المطبوع من كتاب «الزهد» لأحمد.
والذي في «المسند» (٣٠٣) هو حديث عمر مرفوعًا بلفظ: «ليس من ليلةٍ إلا والبحرُ يُشرِف فيها ثلاث مرَّاتٍ علىٰ الأرض يستأذن الله في أن ينفضخ عليهم، فيكفُّه الله ﷻ»، وإسناده ضعيف، انظر: «الضعيفة» (٤٣٩٢).

من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهِّرهم من المعايب».

ولنقتصر علىٰ هذا القدر من ذكر التَّوبة وأحكامها وثمراتها، فإنَّه ما أطيل الكلامُ فيها إلَّا لفرط الحاجة والضرورة إلىٰ معرفتها، ومعرفة أحكامها وتفاصيلها ومسائلها، والله الموفِّق لمراعاة ذلك والقيام به عملًا وحالًا كما وفَّق له علمًا ومعرفةً، فما خاب من توكَّل عليه ولاذ به ولجأ إليه، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله.



فصل

٢/ ٥٥

منزل الإنابة

فقد علمت أنَّ من نزل في منزل التَّوبة وقام في مقامها نزل في جميع منازل الإسلام، وأنَّ التَّوبة الكاملة متضمِّنةٌ لها وهي مندرجة فيها، ولكن لا بدَّ من إفرادها بالذِّكر والتفصيل تبيينًا لحقائقها وخواصِّها وشروطها.

فإذا استقرَّت قدمُه في منزل التَّوبة نزل بعده **منزل الإنابة**، وقد أمر به تعالىٰ في كتابه، وأثنىٰ علىٰ خليله به، فقال: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾[الزمر: ٥٤]، وقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾[هود: ٧٥].

وأخبر أنَّ آياته إنَّما يتبصَّر بها ويتذكَّر أهلُ الإنابة فقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾[ق: ٦- ٨]، وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾[غافر: ١٣].

وقال تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ﴾[الروم: ٣٠- ٣١]، و﴿مُنِيبِينَ﴾ منصوبٌ علىٰ الحال من الضمير المستكنِّ في قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾، لأنَّ هذا الخطاب له ولأمَّته، أي: أقم وجهك أنت وأمَّتُك منيبين إليه، نظيره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١]. ويجوز أن يكون حالًا من المفعول في قوله ﴿فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾ أي: فطرهم منيبين إليه، فلو خُلُّوا وفِطَرَهم لما عَدَلَتْ عن الإنابة إليه، ولكنَّها تُحوَّل وتغيَّر عمَّا فُطِرت عليه، كما قال ﷺ: «**ما من مولودٍ إلَّا يولد علىٰ هذه**

الملَّة حتىٰ يُعرِب عنه لسانُه»[١].

وقال عن نبيِّه داود ﷺ: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾[ص: ٢٤].

وأخبر أنَّ ثوابه وجنَّته لأهل الخشية والإنابة فقال: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣١ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٣٣ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾[ق: ٣١- ٣٤].

وأخبر سبحانه أنَّ البشرىٰ منه إنَّما هي لأهل الإنابة فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾[الزمر: ١٧].

والإنابة إنابتان: إنابة لربوبيَّته، وهي إنابة المخلوقات كلِّها، يشترك فيها المؤمن والكافر، والبرُّ والفاجر، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾[الروم: ٣٣]، فهذا عامٌّ في حقِّ كلِّ داعٍ أصابه ضرٌّ، كما هو الواقع، وهذه الإنابة لا تستلزم الإسلام، بل تجامع الشِّرك والكفر، كما قال تعالىٰ في حقِّ هؤلاء: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝٣٣ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾[الروم: ٣٣- ٣٤] فهذا حالهم بعد إنابتهم.

والإنابة الثانية: إنابةُ أوليائه، وهي إنابةٌ لإلهيَّته إنابةَ عبوديَّةٍ ومحبَّةٍ. وهي تتضمَّن أربعة أمورٍ: محبَّته، والخضوعَ له، والإقبالَ عليه، والإعراضَ عمَّا سواه، فلا يستحقُّ اسم المنيب إلَّا من اجتمعت فيه هذه الأربعة، وتفسير السّلف لهذه اللفظة يدور علىٰ ذلك.

وفي اللَّفظة معنىٰ الإسراع والرُّجوع والتّقدُّم، فالمنيب إلىٰ الله المسرع إلىٰ مرضاته، الراجع إليه كلَّ وقتٍ، المتقدِّم إلىٰ محابِّه.

قال صاحب «المنازل»[٢]: **(وإنَّما يستقيم الرجوعُ إليه وفاءً بثلاثة أشياء:**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٨/ ٢٣) من حديث أبي هريرة ﷺ بنحوه.
(٢) «منازل السائرين» (ص١٣).

بالخلاص من لـذَّة الذّنـب، وبتـرك الاستهانة بأهـل الغفلة تخوُّفًا عليهم مـع الرَّجاء لنفسـك، وبالاستقصاء في رؤيـة علَّـة الخدمـة).

إذا صَفَتْ له الإنابةُ إلىٰ ربِّه تخلَّص من الفكرة في لـذَّة الذنـب، وعـاد مكانها ألمًا وتوجُّعًا لذكره والفكرة فيه، فما دامت لـذَّة الفكر فيه موجودةً في قلبه فإنابته غير صافيةٍ.

فإن قيل: أيُّ الحالين أعلىٰ: حالُ من يجد لـذَّة الذنب في قلبه فهو يجاهدها لله ويتركها من خوفه ومحبَّته وإجلاله، أو حالُ من ماتت لذّة الذنب في قلبه وصار مكانها ألمًا وتوجُّعًا وطمأنينةً إلىٰ ربِّه وسكونًا إليه والتذاذًا بحبِّه وتنعُّمًا بذكره؟

قيل: حال هذا أرفع وأكمل، وغاية صاحب المجاهدة أن يجاهد نفسه حتَّىٰ يصل إلىٰ مقامِ هذا ومنزلته، ولكنَّه تاليه في المنزلة والقربِ ومنوطٌ به.

فإن قيل: فأين أجرُ مجاهدة صاحب اللَّذَّة، وتركِه محابَّه لله، وإيثارِه رضىٰ الله علىٰ هواه؟ وبهذا كان النوع الإنسانيُّ أفضلَ من النّوع الملكيِّ عند أهل السنَّة[1] وكانوا خيرَ البريَّة، والمطمئنُّ قد استراح من هذه المجاهدة وعُوفي منها، فبينهما من التَّفاوت ما بين درجة المعافىٰ والمُبتلىٰ.

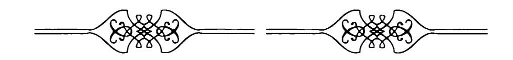
قيل: النَّفس لها ثلاثة أحوالٍ: الأمرُ بالذَّنب، ثـمَّ اللَّومُ عليه والنَّدمُ منه، ثمَّ الطُّمأنينة إلىٰ ربِّها والإقبالُ بكلِّيَّتها عليه، وهذه الحالُ أعلىٰ أحوالِها وأرفعُها. وهي التي يشمِّر إليها المجاهد، وما يحصل له من ثواب مجاهدته وصبره فهو لتشميره إلىٰ درجة الطُّمأنينة إلىٰ الله، فهو بمنزلة مرتكب القِفار والمَهامِهِ[2] والأَهوال ليصل إلىٰ البيت فيطمئنَّ قلبه برؤيته والطَّواف به. والآخَرُ بمنزلة من هو مشغولٌ به طائفًا وقائمًا، وراكعًا وساجدًا، ليس له التفاتٌ إلىٰ غيره؛ فهذا

(١) انظر «مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ٣٥٠- ٣٩٢)، و«بدائع الفوائد» (٣/ ١١٠٤).
(٢) المَهامِه: جمع المَهْمَه، وهي المفازة البعيدة.

مشغول بالغاية، وذاك بالوسيلة، وكلٌّ له أجر، ولكن بين أجر الغايات وأجر الوسائل بَونٌ.

وما يحصل للمطمئنِّ من الأحوال والعبوديَّة والإيمان فوق ما يحصل لهذا المجاهد نفسَه في ذات الله تعالىٰ وإن كان أكثرَ عملًا، فقدر عمل المطمئنِّ المنيب بجملته وكيفيَّته أعظم وإن كان هذا المجاهد أكثر عملًا، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، فما سبق الصِّدِّيقُ الصحابةَ بكثرة عملٍ، وفيهم من هو أكثر صيامًا وحجًّا وقراءةً وصلاةً منه، ولكن بأمرٍ آخر قام بقلبه، حتّىٰ إنَّ أفضل الصّحابة يسابقه ولا يراه إلَّا أمامه[(١)].

ولكن عبوديَّة مجاهدٍ نفسَه علىٰ لذَّة الذَّنب والشَّهوة قد تكون أشقَّ، ولا يلزم من مشقَّتها تفضيلُها في الدَّرجة، فأفضل الأعمال الإيمان بالله، والجهاد أشقُّ منه وهو تاليه في الدرجة، ودرجة الصِّدِّيقين أعلىٰ من درجة المجاهدين والشُّهداء. وفي «مسند الإمام أحمد رحمه الله»[(٢)] من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنَّ النبيّ ﷺ ذُكر عنده الشُّهداء فقال: «**إنَّ أكثر شهداء أمَّتي لأصحابُ الفُرُش، ورُبَّ قتيلٍ بين الصَّفَّين اللهُ أعلم بنيَّته**».



(١) لعله يشير إلىٰ قصة عمر المشهورة معه في المسابقة إلىٰ الصدقة بأكثر ما يمكنهما، وقول عمر في آخرها: «لا أسابقك إلىٰ شيءٍ أبدًا»، أخرجها أبو داود (١٦٧٨)، والترمذي (٣٦٧٥)، بإسناد حسن.

(٢) برقم (٣٧٧٢)، وإسناده حسن إن شاء الله.

فصل

من علامات الإنابة ترك الاستهانة بأهل الغفلة

ومن علامات الإنابة تركُ الاستهانة بأهل الغفلة والخوفِ عليهم مع فتحك بابَ الرَّجاء لنفسك، فترجو لنفسك الرحمة وتخشىٰ علىٰ أهل الغفلة النِّقمة، ولكن ارْجُ لهم الرّحمة واخشَ علىٰ نفسك النِّقمة، فإن كنت لا بدَّ مستهينًا بهم ماقِتًا لهم لانكشاف أحوالهم لك ورؤية ما هم عليه، فكن لنفسك أشدَّ مقتًا منك لهم، وكن لهم أرجىٰ لرحمة الله منك لنفسك.

قال بعض السَّلف: لن تفقه كلَّ الفقه حتَّىٰ تَمْقُتَ الخلقَ في ذات الله، ثمَّ تُقبلَ علىٰ نفسك فتكونَ لها أشدَّ مقتًا[1].

وهذا الكلام لا يعلم معناه إلَّا الفقيه في دين الله تعالىٰ، فإنَّ مَن شهد حقيقة الخلق وعجزَهم وضعفَهم وتقصيرَهم، بل تفريطَهم وإضاعتَهم لحقِّ الله وإقبالَهم علىٰ غيره، وبيعَهم حظَّهم من الله بأبخس الثَّمن من هذا العاجل الفاني= لم يجد بدًّا من مَقْتِهم، ولم يُمْكنه غيرُ ذلك البتَّة، ولكن إذا رجع إلىٰ نفسه وحاله وتقصيره، وكان علىٰ بصيرةٍ من ذلك= كان لنفسه أشدَّ مقتًا واستهانةً؛ فهذا هو الفقيه.

وأمَّا (الاستقصاء في رؤية علل الخدمة)[2] فهو التّفتيش عمَّا يشوبها من حظوظ النفس، وتمييز حقِّ الربِّ منها من حظِّ النّفس، ولعلَّ أكثرها أو كلَّها أن تكون حظًّا لنفسك وأنت لا تشعر.

---

(١) رُوي عن أبي الدرداء ﷺ، أخرجه معمر في «جامعه» (٢٠٤٧٣)، وأبو داود (٢٤٢)، من طريق أبي قلابة عنه، وهو مرسل لأن أبا قلابة لم يُدرك أبا الدرداء، إلا أن يكون حدَّثته بذلك أمُّ الدرداء (الصغرىٰ) فإن له نظائر.

(٢) الخدمة: حقُّ العبودية وأدبها وواجبها.

فلا إله إلَّا الله، كم في النُّفوس من عللٍ وأغراضٍ وحظوظٍ تمنع الأعمال أن تكون لله خالصةً وأن تصل إليه! وإنَّ العبد لَيعمل العمل حيث لا يراه بشرٌ البتَّة وهو غير خالصٍ لله، ويعمل العمل والعيون قد استدارت عليه نطاقًا وهو خالصٌ لوجه الله، ولا يميِّزُ هذا من هذا إلَّا أهلُ البصائر وأطبَّاءُ القلوب العالمون بأدوائها وعللها.

فبين العمل وبين القلب مسافة، وفي تلك المسافة قطَّاعٌ تمنع وصول العمل إلىٰ القلب، فيكون الرجل كثيرَ العمل وما وصل منه إلىٰ قلبه محبَّةٌ ولا خوفٌ ولا رجاءٌ، ولا زهدٌ في الدُّنيا ورغبةٌ في الآخرة، ولا نورٌ يفرِّق به بين أولياء الله وأعدائه وبين الحقِّ والباطل، ولا قوَّةٌ في أمره. فلو وصل أثرُ الأعمال إلىٰ قلبه لاستنار وأشرق، ورأىٰ الحقَّ والباطل، وميَّز بين أولياء الله وأعدائه، فأوجب له ذلك المزيد من الأحوال.

ثمَّ بين القلب وبين الربِّ مسافة، وعليها قطَّاعٌ تمنع وصول العمل إليه، مِن كبرٍ وإعجابٍ وإدلالٍ، ورؤية العمل ونسيان المنَّة، وعللٍ خفيَّةٍ لو استقصىٰ في طلبها لرأىٰ العجب، ومن رحمة الله سَتْرُها علىٰ أكثر العُمَّال، إذ لو رأَوها وعاينوها لوقعوا فيما هو أشدُّ منها، من اليأس والقنوط، والاستحسار وتركِ العمل، وخمود العزم وفتور الهمَّة. ولهذا لمَّا ظهرت «رعاية أبي عبد الله الحارث بن أسدٍ المحاسبيِّ»[1] واشتغل بها العبَّادُ عُطِّلت منهم مساجدُ كانوا يَعْمُرونها بالعبادة. والطبيب الحاذق يعلم كيف يَطُبُّ النُّفوس، فلا يَعْمُرُ قصرًا ويهدِمُ مصرًا.

---

(١) ذكر الحارث في كتابه «الرعاية» الآفات التي تعرض للعلم والعمل، كالرياء والعجب والاغترار، وفصَّل فيها وفي علاماتها تفصيلًا مطوَّلًا، مما قد يجعل القارئ تفتر همَّته فيترك العمل مخافةَ الوقوع في تلك الآفات.

فصل

٢/ ٦٨

منزل التذكر

ثـمَّ ينـزل القلب منـزل **التَّذَكُّر** وهو قريـن الإنابة، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾[غافر: ١٣]، وقال: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾[ق:٨].

وهو من خواصِّ أولي الألباب، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[البقرة: ٢٦٩].

والتذكُّر والتفكُّر منزلان يُثمران أنواعَ المعارف وحقائقَ الإيمان والإحسان، فالعارف لا يزال يعود بتفكُّره علىٰ تذكُّره، وتذكُّره علىٰ تفكُّره، حتّىٰ يفتح قفلَ قلبه بإذن الفتَّاح العليم. قال الحسن البصريُّ: ما زال أهل العلم يعودون بالتذكُّر علىٰ التفكُّر، وبالتفكُّر علىٰ التذكُّر، ويُناطقون القلوب حتَّىٰ نطقت[١].

قال صاحب «المنازل»[٢]: **(التذكُّر فوق التفكُّر، لأنَّ التفكُّر طلب، والتذكُّر وجود)**.

يريد أنَّ التّفكُّر التماس الغايات من مباديها، كما قال[٣]: **(التفكُّر تلمُّس البصيرة واستدراك البغية)**.

وأمَّا قوله: **(التذكُّر وجودٌ)** لأنه يكون فيما قد حصل بالتفكُّر ثمَّ غاب عنه بالنِّسيان، فإذا تذكَّره وجده وظفر به. والتذكُّر تفعُّلٌ من الذِّكر، وهو ضدُّ النِّسيان، وهو حضور صورة المذكور العلميَّة في القلب، واختير له بناءُ التفعُّل لحصوله بعد مهلةٍ وتدريج، كالتبصُّر والتفهُّم والتعلُّم.

---

(١) أخرجه الدِّينَوري في «المجالسة» (٢٦٧٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١٩) بنحوه.
(٢) (ص١٥).
(٣) «منازل السائرين» (ص١٣).

فمنزلة التذكُّر من التفكُّر منزلة حصول الشيء المطلوب بعد التفتيش عليه، ولهذا كانت آيات الله المتلوَّة والمشهودة ذكرىٰ، كما قال في المتلوَّة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[غافر: ٥٣- ٥٤]، وقال عن القرآن: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾[الحاقة: ٤٨]. وقال في آياته المشهودة: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾[ق: ٦- ٨]، فالتَّبصرة آلة البصر، والتَّذكرة آلة الذِّكر، وقُرِن بينهما وجُعلا لأهل الإنابة، لأنه إذا أناب إلىٰ الله أبصر مواقع الآيات والعبر، فاستدلَّ بها علىٰ ما هي آياتٌ له، فزال عنه الإعراضُ بالإنابة، والعمىٰ بالتبصرة، والغفلةُ بالتذكرة، لأنَّ التبصرة توجب له حصولَ صورة المدلول في القلب بعد غفلته عنها، فترتَّبت المنازل الثلاثة أحسنَ ترتيبٍ، ثمَّ إنَّ كلًّا منها يمدُّ صاحبه ويقوِّيه ويثمره.

وقال تعالىٰ في آياته المشهودة: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[ق: ٣٦].

والنّاس ثلاثة: رجلٌ قلبه ميِّتٌ، فذلك الذي لا قلب له، فهذا ليست هذه الآية ذكرىٰ في حقِّه.

الثاني: رجلٌ له قلبٌ حيٌّ مستعدٌّ، لكنّه غير مستمعٍ للآيات المتلوَّة التي يُخبر بها عن الآيات المشهودة، إمَّا لعدم ورودها، أو لوصولها إليه ولكنَّ قلبه مشغولٌ عنها بغيرها، فهو غائب القلب ليس حاضرًا، فهذا أيضًا لا تحصل له الذِّكرىٰ مع استعداده ووجود قلبه.

والثالث: رجلٌ حيُّ القلب مستعدٌّ، تُلِيت عليه الآياتُ فأصغىٰ بسمعه،

وألقىٰ السمع وأحضر قلبه، ولم يَشغَلْه بغير فهم ما يسمعه، فهو شاهدُ القلبِ مُلْقٍ السمعَ، فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات المتلوَّة والمشهودة.

فالأوَّل بمنزلة الأعمىٰ الذي لا يبصر، والثاني بمنزلة البصير الطَّامح ببصره إلىٰ غير جهة المنظور إليه، فكلاهما لا يراه. والثالث بمنزلة البصير الذي قد حدَّق إلىٰ جهة المنظور إليه وأتبعه بصرَه، وقابله علىٰ توسُّطٍ من البعد والقرب، فهذا هو الذي يراه. فسبحان من جعل كلامه شفاءً لما في الصُّدور.

فإن قيل: فما موقع ﴿أَوْ﴾ من هذا النظم علىٰ ما قرَّرت؟

قيل: فيها سرٌّ لطيفٌ، ولسنا نقول: إنَّها بمعنىٰ الواو، كما يقوله ظاهريَّة النُّحاة.

فاعلم أنَّ الرجل قد يكون له قلبٌ وقَّادٌ، مليءٌ باستخراج العبر واستنباط الحِكَم، فهذا قلبُه يوقعه علىٰ التذكُّر والاعتبار، فإذا سمع الآيات كانت له نورًا علىٰ نورٍ، وهؤلاء أكمل خلق الله تعالىٰ، وأعظمهم إيمانًا وبصيرةً، حتَّىٰ كأنَّ الذي أخبرهم به الرسولُ قد كان مشاهدًا لهم لكن لم يشعروا بتفاصيله وأنواعه، حتَّىٰ قيل: إنَّ مثل حال الصِّدِّيق ﷺ مع النبيِّ ﷺ، كمثل رجلين دخلا دارًا فرأىٰ أحدهما تفاصيلَ ما فيها وجُزوِيَّاتها، والآخر وقعت يده علىٰ ما في الدَّار ولم يَرَ تفاصيله ولا جزويَّاتِه، لكن علم أنَّ فيها أمورًا عظيمةً لم يدرك بصرُه تفاصيلها، ثمَّ خرجا فسأله عمَّا رأىٰ في الدَّار؟ فجعل كلَّما أخبره بشيءٍ صدَّقه لِما عنده من شواهده، وهذه أعلىٰ درجات الصدِّيقيَّة. ولا تستبعد أن يمنَّ الله المنَّان علىٰ عبدٍ بمثل هذا الإيمان، فإنَّ فضلَ الله لا يدخل تحت حصرٍ ولا حسبانٍ.

فصاحبُ هذا القلب إذا سمع الآياتِ وفي قلبه نورٌ من البصيرة ازداد بها نورًا إلىٰ نوره. فإن لم يكن للعبد مثل هذا القلب، فألقىٰ السَّمْع وشهد قلبُه

ولم يَغِب= حصل له التذكُّر أيضًا، ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾[البقرة: ٢٦٥]، والوابل والطّلُّ في جميع الأعمال وآثارها وموجَباتها، وأهلُ الجنَّة سابقون مقرَّبون وأصحاب يمينٍ، وبينهما في درجات التّفضيل ما بينهما، حتَّىٰ إنَّ شرابَ أحد النوعين الصِّرفَ يُطيَّب به شرابُ النَّوع الآخر ويُمزج به مزجًا[(١)].

قال تعالىٰ: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾[سبأ: ٦]، وكلُّ مؤمنٍ يرىٰ هذا، ولكنّ رؤية أهل العلم لونٌ، ورؤية غيرهم له لونٌ.

قال صاحب «المنازل»[(٢)]: (**أبنية التذكُّر ثلاثة: الانتفاع بالعِظة، والاستبصار للعِبرة، والظّفر بثمرة الفكرة**).

الانتفاع بالعظة: هو أن يقدح في القلب قادح الخوف والرجاء، فيتحرَّك للعمل طلبًا للخلاص من المخوف، ورغبةً في حصول المرجوِّ.

والعظة هي الأمر والنَّهي المقرون بالترغيب والترهيب.

والعظة نوعان: عظةٌ بالمسموع، وعظةٌ بالمشهود. فالعظة بالمسموع الانتفاع بما يسمعه من الهدىٰ والرُّشد والنصائح التي جاءت علىٰ يد الرُّسل، وكذلك الانتفاع بالعظة من كلِّ ناصحٍ ومرشدٍ في مصالح الدِّين والدُّنيا. والعظة بالمشهود: الانتفاع بما يراه ويشهده في العالم من مواقع العِبَر وأحكام القدر ومجاريه، وما يشاهده من آيات الله الدالَّة علىٰ صدق رسله.

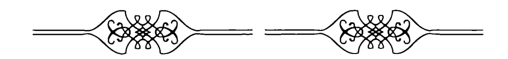
وأمَّا (**الاستبصار للعبرة**)، فهو زيادة البصيرة عمَّا كانت عليه في منزل التفكُّر بقوَّة الاستحضار، لأنَّ التذكُّر يَصْقُل المعاني التي حصلت بالتفكُّر في مواقع

(١) يشير إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾[الإنسان]. انظر: «طريق الهجرتين» للمؤلف (١/ ٤٢١-٤٢٢).
(٢) (ص١٥).

الآيات والعبر، فهو يظفر بها بالتفكُّر، وتنصقل له وتنجلي بالتذكُّر، فيقوىٰ العزم علىٰ السَّير بحسب قوَّة الاستبصار، لأنَّه يوجب تحديد النّظر فيما يحرِّك الطلب، إذ الطلب فرع الشُّعور، وكلَّما قوي الشُّعور بالمحبوب اشتدَّ سفر القلب إليه، وكلّما اشتغل الفكر به ازداد الشُّعور والبصيرة به والذكر له.

وأمّا (**الظَّفر بثمرة الفكرة**)، فهذا موضعٌ لطيفٌ. وللفكرة ثمرتان: حصول المطلوب تامًّا بحسب الإمكان، والعمل بموجبه رعايةً لحقِّه؛ فإنَّ العقل حالَ التفكُّر كان قد كَلَّ بإعماله في تحصيل المطلوب، فلمَّا حصلت له المعاني وتخمَّرت في القلب واستراح العقل عاد فتذكَّر ما كان حصَّله وطالعه، فابتهج به وفرح به، وصحَّح في هذا المنزل ما كان فاته في منزل التفكُّر، لأنَّه قد أشرف عليه من مقام التذكُّر الذي هو أعلىٰ منه، فأخذ حينئذٍ في الثمرة المقصودة، وهي العمل بموجَبه مراعاةً لحقِّه، فإنَّ العمل الصالح هو ثمرة العلم النافع الذي هو ثمرة التفكُّر.

وإذا أردت فهم هذا بمثال حسِّي: فطالب المال ما دام جادًّا في طلبه فهو في كلالٍ وتعبٍ، حتَّىٰ إذا ظفر به استراح من كدِّ الطلب، وقدم من سفر التِّجارة وطالع ما حصَّله وأبصره، وصحَّح في هذه الحال ما عساه غلط فيه في حال اشتغاله بالطلب، فإذا صحَّ له وبرَدَتْ غنيمتُه له أخذ في صرف المال في وجوه الانتفاع المطلوبة منه.



٢/ ٨٠

فصل

تجتنىٰ ثمرة الفكرة بثلاثة أشياء

(وإنَّما تُجتنىٰ ثمرة الفكرة بثلاثة أشياء: بقصر الأمل، والتأمُّل في القرآن، وقلَّة الخلطة والتمنِّي والتعلُّق بغير الله والشِّبع والمنام)[١].

يعني أنَّ في منزل التذكُّر تُجتنىٰ ثمرة الفكرة لأنه أعلىٰ منها، وكلُّ مقام تجتنىٰ ثمرته في الذي هو أعلىٰ منه، ولاسيَّما علىٰ ما قرَّره في خطبة كتابه[٢]: كلُّ مقامٍ يصحِّح ما قبله.

ثمَّ ذكر أن هذه الثمرة تجتنىٰ بثلاثة أشياء، أحدها: قصر الأمل، والثاني: تدبُّر القرآن، والثالث: تجنُّب مفسدات القلب الخمسة.

فأمَّا **(قصر الأمل)** فهو العلم بقرب الرحيل وسرعة انقضاء مدَّة الحياة، وهو من أنفع الأمور للقلب، فإنَّه يبعثه علىٰ مغافصة الأيام[٣]، وانتهاز الفرص التي تمرُّ مرَّ السّحاب، ومبادرة طيِّ صحائف الأعمال، ويثير ساكن عَزَماته إلىٰ دار البقاء، ويحثُّه علىٰ قضاءِ جَهازِ سفره وتدارك الفارط، ويزهِّده في الدُّنيا ويرغِّبه في الآخرة، فيقوم بقلبه إذا داوم مطالعةَ قِصر الأمل شاهدٌ من شواهد اليقين يُريه فناء الدُّنيا وسرعةَ انقضائها وقلَّة ما بقي منها، وأنها قد ترحَّلت مُدبرةً، ولم يبقَ منها إلا صَبابةٌ كصبابة الإناء يتصابُّها صاحبها[٤]، وأنها لم يبق منها إلا كما بقي من يومٍ صارت شمسُه علىٰ رؤوس الجبال؛ ويُريه بقاءَ الآخرة ودوامَها، وأنها

(١) «منازل السائرين» (ص١٥).
(٢) (ص٣).
(٣) أي: مُسابقتها وانتهاز الفُرَص فيها.
(٤) أي: البقية اليسيرة في الإناء يشربها صاحبها. وهو مقتبس من خطبة لعُتبة بن غزوان المازني رضي الله عنه خطبها بالبصرة، أخرجها مسلم (٢٩٦٧/ ١٤).

قد ترحَّلت مقبلةً، وقد جاء أشراطها وأعلامها، وأنه مِن لقائها كمسافرٍ خرج صاحب له يتلقَّاه، وكلٌّ منهما يسير إلىٰ الآخر، فيوشك أن يلتقيا سريعًا.

ويكفي في قصر الأمل: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾[الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧]، وقولُه تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾[يونس: ٤٥]، وقولُه: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾[النازعات: ٤٦]، وقولُه: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[المؤمنون: ١١٢ - ١١٤]، وقولُه: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾[الأحقاف: ٣٥]، وقولُه تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾[طه: ١٠٢ - ١٠٤].

وخطب النبيُّ ﷺ يومًا أصحابه والشمس علىٰ رؤوس الجبال، فقال: «**إنَّه لم يبق من الدُّنيا فيما مضىٰ منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضىٰ منه**»[١].

ومرَّ رسول الله ﷺ ببعض أصحابه، وهم يُعالجون خُصًّا لهم قد وَهَىٰ وهم يصلحونه، فقال «**ما هذا؟**» قالوا: خُصٌّ لنا قد وهىٰ فنحن نعالجه، فقال: «**ما أرىٰ الأمر إلَّا أعجلَ من هذا**»[٢].

وقصر الأمل بناؤه علىٰ أمرين: تيقُّن زوالِ الدُّنيا ومفارقتها، وتيقُّن لقاء الآخرة وبقائها ودوامها، ثمَّ يقايس بين الأمرين ويؤثر أولاهما بالإيثار.

(١) أخرجه أحمد (١١١٤٣)، والترمذي (٢١٩١)، وقال: «حديث حسن».
(٢) أخرجه أحمد (٦٥٠٢)، وأبو داود (٥٢٣٦)، والترمذي (٢٣٣٥)، وصححه.
والخُصُّ: البيت من القصب، وجمعه: خُصوص وأخصاص، سُمِّي بذلك لما فيه من الخَصاص، وهي الفُرَج.

٢/ ٨٣

فصل

التأمل في القرآن أنفع شيء للعبد في معاشه ومعاده

وأمَّا (**التأمُّل في القرآن**) فهو تحديق ناظر القلب إلىٰ معانيه وجمعُ الفكر علىٰ تدبُّره وتعقُّله، وهو المقصود بإنزاله، لا مجرَّد تلاوته بلا تفهُّمٍ ولا تدبُّرٍ، قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[ص: ٢٩]. وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[محمد: ٢٤]. وقال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾[المؤمنون: ٦٨]. وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[الزخرف: ٣]. وقال الحسن ﷺ: نزل القرآن ليُتدبَّر ويُعمَل به، فاتَّخذوا تلاوته عملًا[١].

فليس شيءٌ أنفعَ للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلىٰ نجاته من تدبُّر القرآن وإطالة التأمُّل له، وجمع الفكر علىٰ معاني آياته، فإنها تُطلع العبدَ علىٰ معالم الخير والشرِّ بحذافيرهما، وعلىٰ طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما ومآل أهلهما، وتَتُلُّ[٢] في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبِّت قواعد الإيمان في قلبه، وتشيِّد بُنيانه وتوطِّد أركانه، وتريه صورة الدُّنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه، وتُحضره بين الأمم وتريه أيّام الله فيهم، وتبصِّره مواقع العبر، وتشهده عدل الله وفضله، وتعرِّفه ذاته وأسماءه وصفاتِه وأفعالَه، وما يحبُّه وما يبغضه، وصراطَه الموصل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول إليه والقدوم عليه، وقواطعَ الطريق وآفاتِها، وتعرِّفه النفسَ وصفاتِها، ومفسداتِ الأعمال ومصحِّحاتها، وتعرِّفه

(١) عزاه ابنُ قُتيبة في «تأويل مشكل القرآن» (ص٢٣٣) إلىٰ الحسن، وأخرجه الآجري في «أخلاق حملة القرآن» (ص٧٦)، عن الفضيل بن عياض ﵀ قوله.
(٢) أي: تَصبُّ وتُلقي، وكأن التعبير مقتبس من حديث أبي هريرة في «المسند» (١٠٥١٧)، وغيره: «بينا أنا نائم أوتيت بمفاتيح خزائن الأرض فَتُلَّتْ في يدي».

طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالَهم وأحوالهم وسيماهم، ومراتبَ أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسامَ الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه وافتراقهم فيما يفترقون فيه.

وبالجملة تعرِّفه الربَّ المدعوَّ إليه، وطريقَ الوصول إليه، وما له من الكرامة إذا قدم عليه.

وتعرِّفه في مقابل ذلك ثلاثةً أخرىٰ: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه.

فهذه ستَّة أمورٍ ضروريَّة للعبد معرفتُها. ومشاهدتُها ومطالعتُها تُشهده الآخرة حتىٰ كأنَّه فيها، وتغيِّبه عن الدُّنيا حتىٰ كأنه ليس فيها، وتميِّز له بين الحقِّ والباطل في كلِّ ما اختَلَف فيه العالَم، فتريه الحقَّ حقًّا والباطل باطلًا، وتعطيه فرقانًا ونورًا يفرِّق به بين الهدىٰ والضلال والغيِّ والرَّشاد، وتعطيه قوَّةً في قلبه وحياةً وسعةً وانشراحًا وبهجةً وسرورًا، فيَصير في شأنٍ والناس في شأنٍ آخر.

فإنَّ معاني القرآن دائرةٌ علىٰ **التَّوحيد** وبراهينه، والعلم بالله وما له من أوصاف الكمال، وما يتنزَّه عنه من سمات النّقص؛ وعلىٰ **الإيمان بالرُّسل**، وذكر براهين صدقهم وأدلَّة صحَّة نبوَّتهم، والتعريف بحقوقهم وحقوق مُرسِلهم؛ وعلىٰ **الإيمان بملائكته** وهم رسله في خلقه وأمره، وتدبيرُهم الأمورَ بإذنه ومشيئته وما جُعلوا عليه من أمر العالم العلويِّ والسُّفليِّ، وما يختصُّ بالنوع الإنسانيِّ منهم حين يستقرُّ في رحم أمِّه إلىٰ أن يوافي ربَّه ويَقْدَمَ عليه؛ وعلىٰ **الإيمان باليوم الآخر** وما أعدَّ الله فيه لأوليائه من دار النعيم المطلق التي لا يشوبها ألمٌ ولا نكد ولا تنغيص، وما أعدَّ لأعدائه من دار العقاب الوبيل التي لا يخالطها سرورٌ ولا رخاء ولا راحة ولا فرح، وتفاصيلِ ذلك أتمَّ تفصيلٍ وأبينَه؛ وعلىٰ **تفاصيل الأمر والنهي، والشرع**

والقدر، والحلال والحرام، والمواعظ والعِبَر، والقصص والأمثال، والأسباب والحكم، والمبادئ والغايات في خلقه وأمره.

فلا تزال معانيه تنهض العبد إلىٰ ربِّه بالوعد الجميل، وتحذِّره وتخوِّفه بوعيده من العذاب الوبيل، وتحثُّه علىٰ التضمُّر والتخفُّف للقاء اليوم الثقيل، وتَهديه في ظُلَم الآراء والمذاهب إلىٰ سواء السبيل، وتصدُّه عن اقتحام طرق البدع والأضاليل، وتبعثه علىٰ الازدياد من النِّعم بشكر ربِّه الجليل، وتبصِّره بحدود الحلال والحرام وتَقِفُه عليها لئلَّا يتعدَّاها فيقع في العناء الطَّويل، وتُثبِّت قلبَه عن الزيغ والميل عن الحقِّ والتّحويل، وتسهِّل عليه الأمور الصِّعاب والعقبات الشاقَّة غاية التسهيل، وتناديه كلَّما فترت عزماتُه ونىٰ في سيره: تقدَّم الركبُ وفاتك، فاللَّحاق اللَّحاق! والرحيل الرحيل! وتحدو به وتسير أمامه سيرَ الدليل، وكلَّما خرج عليه كمينٌ من كمائن العدوِّ أو قاطعٌ من قطّاع الطّريق نادَتْه: الحذر الحذر! فاعتصِمْ بالله واستعن به وقُل: حسبي الله ونعم الوكيل.

وفي تأمُّل القرآن وتدبُّره وتفهُّمه أضعافُ أضعافِ ما ذكرناه من الحكم والفوائد. وبالجملة فهو أعظم الكنوز، طِلَّسْمُه[1]: الغَوصُ بالفكر إلىٰ قرار معانيه.

نزِّه فؤادك عن سوىٰ روضاته ... فرياضه حِلٌّ لكلِّ منزِّهِ
والفهمُ طِلَّسْمٌ لكنزِ علومه ... فاقصد إلىٰ االطلَّسْمِ تحظَ بكنزِهِ
لا تخشَ من بدعٍ لهم وحوادثٍ ... ما دمتَ في كنف الكتاب وحرزِهِ
من كان حارسَه الكتابُ ودرعَه ... لم يخشَ من طعن العدوِّ ووَخْزِهِ[2]
لا تخشَ من شبهاتهم واحمِلْ إذا ... ما قابلَتْك بنصره وبعزِّه

---

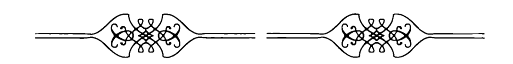
(١) أي: سِرُّ إدراكه، ومِفتاحُه.
(٢) الوخز: الطعن بالرمح والخنجر ونحوهما.

والله مـا هـاب امـرؤٌ شـبهاتِهم إلَّا لضعـف القلـب منـه وعجـزهِ

يـا ويـحَ تيـسٍ ظالـعٍ يبغـي مسـا بقـة الهِزَبْـرِ بعَـدْوه وبجَمْـزهِ[1]

ودخـانِ زِبْـلٍ يرتقـي للشّـمس يَسـ ـتُرُ عينهـا لمَّـا سـرىٰ في أزِّه

وجبـانِ قلـبٍ أعـزلٍ قـد رام يـأ سِـرُ فارسًـا شـاكي السِّـلاح بهـزِّه



(١) الظالع: الذي يعرج ويغمز في مشيه، والجمز: العَدو فوق العَنَق ودون الحُضْر.

٢/ ٨٧

فصل

مفسدات القلب خمسة

وأمَّا **مفسدات القلب الخمسة**، فهي التي أشار إليها مِن كثرة الخلطة، والتمنِّي، والتعلُّق بغير الله، والشِّبع، والمنام. فهذه الخمسة من أكبر مفسدات القلب، فنذكر آثارها التي اشتركت فيها، وما تميَّز به كلُّ واحدٍ منها:

اعلم أنَّ القلب يسير إلىٰ الله والدار الآخرة، ويكشف عن طريق الحقِّ ونهجه، وآفاتِ النفس والعمل وقطاعِ الطريق= بنوره وحياته وقوَّته، وصحَّته وعزمه، وسلامة سمعه وبصره، وغيبة الشَّواغل والقواطع عنه. وهذه الخمسة تطفئ نوره، وتُغوِّر عينَ بصيرته، وتُثقل سمعه إن لم تُصِمَّه وتُبكِمْه، وتُضعِفُ قواه كلَّها وتوهن صحَّته، وتُفتِّرُ عزيمته وتوقف همَّته، وتُنكِّسُه إلىٰ ورائه. ومن لا شعور له بهذا فميِّت القلب «وما لجرحٍ بميِّتٍ إيلامُ»[1].

فهي عائقةٌ له عن نيل كماله، قاطعةٌ له عن الوصول إلىٰ ما خُلق له وجُعِل نعيمُه وسعادته وابتهاجه ولذَّته في الوصول إليه، فإنّه لا نعيم له ولا لذّة ولا ابتهاج ولا كمال إلَّا بمعرفة الله ومحبَّته، والطُّمأنينةِ بذكره، والفرحِ والابتهاج بقُربه، والشَّوقِ إلىٰ لقائه؛ فهذه جنَّته العاجلة، كما أنَّه لا نعيم له في الآخرة ولا فوز إلَّا بجواره في دار النعيم في الجنَّة الآجلة؛ فله جنَّتان لا يدخل الثانية منهما إن لم يدخل الأولىٰ.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله يقول: إنَّ في الدُّنيا جنَّةً مَن لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة[2].

---

(١) عَجُز بيت سائر للمتنبي، صدره: «من يَهُن يسهل الهَوان عليه».

(٢) ذكره المؤلف في «الوابل الصيِّب» (ص١٠٩) أيضًا.

وقال بعض العارفين: إنّه ليمرُّ بالقلب أوقاتٌ أقول: إن كان أهل الجنَّة في مثل هذا إنَّهم لفي عيشٍ طيِّبٍ[(١)].

وقال بعض المحبِّين: مساكينُ أهلُ الدُّنيا! خرجوا من الدُّنيا وما ذاقوا أطيبَ ما فيها. قالوا: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبّة الله والأنس به، والشوق إلىٰ لقائه، والإقبال عليه، والإعراض عمَّا سواه[(٢)]. أو نحو هذا من الكلام.

وكلُّ من له قلبٌ حيٌّ يشهد هذا ويعرفه ذوقًا.

وهذه الأشياء الخمسة قاطعةٌ عن هذا، حائلةٌ بين القلب وبينه، عائقةٌ له عن سيره، محدثةٌ له أمراضًا وعللًا إن لم يتداركها المريض خِيف عليه منها.

فأمَّا ما تؤثره **كثرة الخلطة**، فامتلاء القلب من دخان أنفاس بني آدم حتّىٰ يسوَدَّ، ويوجب له تشتُّتًا وتفرُّقًا، وهمًّا وغمًّا وضعفًا، وحملًا لما يعجِز عن حمله من مؤنة قرناء السُّوء، وإضاعةِ مصالحه والاشتغال عنها بهم وبأمورهم، وتقسيمِ فكره في أودية مطالبهم وإراداتهم، فماذا يبقىٰ منه لله والدار الآخرة؟

هذا، وكم جلبت خُلطة الناس مِن نقمة، ودفعت من نعمة، وأَنزلت من محنة، وعطَّلت من منحة، وأحلَّت من رَزِيَّة، وأوقعت في بليَّة؟ وهل آفةُ النّاس إلَّا الناس؟ وهل كان علىٰ أبي طالبٍ عند الوفاة أضرُّ من قرناء السُّوء؟ لم يزالوا به حتَّىٰ حالوا بينه وبين كلمةٍ واحدةٍ توجب له سعادةَ الأبد[(٣)].

وهذه الخلطة التي تكون علىٰ نوع مودَّةٍ في الدُّنيا وقضاء وَطَرِ بعضهم من بعضٍ تنقلب إذا حَقَّت الحقائق عداوةً، يَعَضُّ المخالط عليها يديه ندمًا، كما قال

---

(١) ذكره ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (٤/ ٢٨٦)، عن أبي سليمان المغربي.
(٢) أسند الدِّينَوَري في «المجالسة» (٢٢٢)، عن التابعي الزاهد مالك بن دينار نحوه. وأسند أبو نعيم (٨/ ١٦٧)، عن عبد الله بن المبارك مثله.
(٣) كما في حديث سعيد بن المسيب عن أبيه عند البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤).

تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾[الفرقان: ٢٧ - ٢٩]. وقال تعالىٰ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[الزخرف: ٦٧].

وقال خليلُه إبراهيم ﷺ لقومه: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[العنكبوت: ٢٥]. وهذا شأن كلِّ مشتركِين في غرضٍ، يتوادُّون ما داموا متساعدين علىٰ حصوله، فإذا انقطع ذلك الغرض أعقب ندامةً وحزنًا وألمًا، وانقلبت تلك المودَّة بغضًا ولعنةً وذمًّا من بعضهم لبعضٍ لمَّا انقلب ذلك الغرض خِزْيًا وعذابًا، كما يُشاهَد في هذه الدار من أحوال المشتركين في خَرْبةٍ[1] إذا أُخِذوا وعوقبوا، فكلُّ متساعِدَين علىٰ باطلٍ متوادَّين عليه لا بدَّ أن تنقلب مودَّتُهما بغضًا وعداوةً.

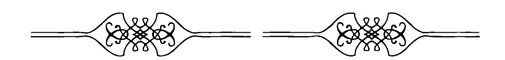
والضابط النافع في أمر الخلطة أن يخالط الناس في الخير كالجمعة والجماعات، والأعياد والحجِّ، وتعليم العلم، والجهاد والنصيحة. ويعتزلهم في الشّرِّ وفضول المباحات، فإذا دعت الحاجة إلىٰ خلطتهم في الشرِّ ولم يُمْكنه اعتزالُهم فالحذرَ الحذرَ أن يوافقهم، وليصبر علىٰ أذاهم، فإنَّهم لا بدَّ أن يؤذوه إن لم يكن له قوَّة ولا ناصر، ولكن أذًىٰ يَعْقبُه عزٌّ ومحبَّةٌ له وتعظيم، وثناءٌ عليه منهم ومن المؤمنين ومن ربِّ العالمين. وموافقتهم يعقبها ذلٌّ وبغضٌ له ومقتٌ، وذمٌّ منهم ومن المؤمنين ومن ربِّ العالمين، فالصبر علىٰ أذاهم خير وأحسنُ عاقبةً وأحمدُ مآلًا.

---

(١) الخربة: الجناية والبليّة.

وإن دعت الحاجةُ إلىٰ خلطتهم في فضول المباحات، فليجتهد أن يقلب ذلك المجلس طاعةً لله إن أمكنه، ويشجِّع نفسه ويقوِّي قلبه، ولا يلتفت إلىٰ الوارد الشيطاني القاطعِ له عن ذلك بأنَّ هذا رياء ومحبَّة لإظهار علمك وحالك، ونحو ذلك، فليُحارِبْه وليستعن بالله تعالىٰ، ويؤثِّرْ فيهم من الخير ما أمكنه. فإن عجَّزته المقادير عن ذلك، فليَسُلَّ قلبه من بينهم كسَلِّ الشعرة من العجين، وليكن فيهم حاضرًا غائبًا، قريبًا بعيدًا، نائمًا يقظانَ، ينظر إليهم ولا يبصرهم، ويسمع كلامهم ولا يعيه، لأنَّه قد أخذ قلبه من بينهم، ورقي به إلىٰ الملأ الأعلىٰ، يسبِّح حول العرش مع الأرواح العُلويَّة الزاكيَّة.

وما أصعبَ هذا وأشقَّه علىٰ النُّفوس، وإنَّه ليسير علىٰ من يسَّره الله عليه، فبين العبد وبينه أن يَصدُقَ اللهَ ويديم اللَّجأ إليه، ويُلقي نفسه علىٰ بابه طريحًا ذليلًا. ولا يعين علىٰ هذا إلَّا المحبَّةُ الصادقة والذِّكر الدّائم بالقلب واللِّسان، وتجنُّبُ المفسدات الأربعة الباقية الآتي ذكرُها، ولا ينال هذا إلَّا بعُدَّةٍ صالحةٍ ومادَّة قويَّةٍ من الله، وعزيمةٍ صادقة، وفراغٍ من التّعلُّق بغير الله.



٢/ ٩٢

فصل

من مفسدات القلب ركوب بحر التمني

المفسد الثاني من مفسدات القلب: **ركوبه بحر التمنِّي**، وهو بحرٌ لا ساحل له. وهو البحر الذي يركبه مفاليس العالَم.

إنَّ المُنىٰ رأس أموال المفاليس[(١)]

وبضاعة ركَّابه مواعيد الشياطين وخيالات المُحال والبهتان، فلا تزال أمواج الأماني الكاذبة والخيالات الباطلة تتلاعب براكبه كما تتلاعب بالجِيفة.

وهي بضاعة كلِّ نفسٍ مهينةٍ خَسِيسةٍ سُفليَّة، ليست لها همَّةٌ تنال بها الحقائق الخارجيَّة، فاعتاضت عنها بالأماني الذِّهنية، وكلٌّ بحسب حاله، مِن مُتمنٍّ للقدرة والسُّلطان، أو للضرب في الأرض والتَّطواف في البلدان، أو للأموال والأثمان، أو للنِّسوان والمُردان، فيمثِّل المتمنِّي صورة مطلوبه في نفسه وقد فاز بوصلها، والتذَّ بالظفر بها، فبينا هو علىٰ هذه الحال إذ استيقظ فإذا يدُه والحصيرَ!

وصاحب الهمَّة العَليَّة أمانيه حائمةٌ حول العلم والإيمان والعمل الذي يقرِّبه من ربِّه ويدنيه من جواره، فأمانيُّ هذا إيمان ونور، وأمانيُّ أولئك خَدْعٌ وغرور.

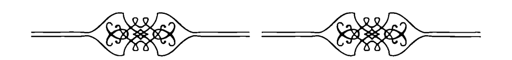
وقد مدح النبيُّ ﷺ متمنِّي الخير، وربَّما جعل أجرَه في بعض الأشياء كأجر فاعله، كالقائل: لو أنَّ لي مالًا لعملت بعمل فلانٍ الذي يتَّقي في ماله ربَّه، ويصل فيه رحمه، ويخرج منه حقَّه؛ وقال: «**هما في الأجر سواءٌ**»[(٢)]. وتمنَّىٰ ﷺ في حجَّة

---

(١) عجزُ بيتٍ سائر، صدره: «إذا تمنَّيت بتُّ الليل مغتبطًا»، ذكره الجاحظُ في «الحيوان» (٥/ ١٩١).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٠٢٤، ١٨٠٣١)، والترمذي (٢٣٢٥)، وابن ماجه (٤٢٢٨)، وصححه الترمذي.

الـوداع أنّـه لـو كان تمتَّـع وحلَّ ولـم يَسُـق الهدي، وكان قـد قرن[1]، فأعطـاه الله ثواب القِـران بفعلـه وثـوابَ التمتُّـع الـذي تمنَّـاه بأمنيتـه، فجمع له بيـن الأجرين.



(١) كما في حديثَي جابر وعائشة المتفق عليهما، البخاري (١٦٥١، ٧٢٢٩)، ومسلم (١٢١٦، ١٢١١).

فصل

أعظم مفسدات القلب التعلق بغير الله

المفسد الثالث من مفسدات القلب: **التعلُّق بغير الله**. وهذا أعظم مفسداته علىٰ الإطلاق، فليس عليه أضرُّ من ذلك، ولا أقطعُ له عن الله وأحجبُ له عن مصالحه وسعادته منه، فإنَّه إذا تعلَّق بغير الله وَكَله الله إلىٰ من تعلَّق به، وخذله من جهة مَن تعلَّق به، وفاته تحصيلُ مقصوده من الله بتعلُّقه بغيره والتفاته إلىٰ سواه، فلا علىٰ نصيبه من الله حصل، ولا إلىٰ ما أمَّله ممَّن تعلَّق به وصل! قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١ - ٨٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ۝٧٤ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٌ مُّحۡضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤ - ٧٥].

فأعظمُ الناس خِذلانًا من تعلَّق بغير الله، فإنَّ ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه أعظمُ ممَّا حصل له ممَّن تعلَّق به، وهو معرَّض للزوال والفوات. ومثلُ المتعلِّق بغير الله كمثل المستظلِّ من الحرِّ والبرد ببيت العنكبوت أوهن البيوت.

وبالجملة فأساس الشِّرك وقاعدته التي بُني عليها: التعلُّق بغير الله، ولصاحبه الذَّمُّ والخِذلان، كما قال تعالىٰ: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومًا مَّخۡذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢] مذمومًا لا حامد لك، مخذولًا لا ناصر لك، إذ قد يكون بعض الناس مقهورًا محمودًا كالذي قُهر بباطلٍ، وقد يكون مذمومًا منصورًا كالذي قَهر وتسلَّط بباطلٍ، وقد يكون محمودًا منصورًا كالذي تمكَّن ومَلَك بحقٍّ، والمشرك المتعلِّق بغير الله قسمه أردىٰ الأقسام الأربعة، لا محمودٌ ولا منصور!

فصل

من مفسدات القلب الطعام

المفسد الرابع من مفسدات القلب: **الطعام**. والمفسد له من ذلك نوعان:

أحدهما: ما يُفسده لِعَينه وذاته كالمحرَّمات، وهي نوعان: محرّماتٌ لحقِّ الله، كالميتة والدّم ولحم الخنزير، وذي النّاب من السِّباع والمِخلَب من الطير؛ ومحرَّماتٌ لحقِّ العباد، كالمسروق والمغصوب والمنهوب، وما أُخِذ بغير رضا صاحبه، إمَّا قهرًا وإمَّا حياءً وتذمُّمًا.

والثاني: ما يفسده بقَدْره وتعدِّي حدِّه، كالإسراف في الحلال، والشِّبع المُفرط، فإنَّه يثقله عن الطاعات، ويَشْغَلُه بمزاولة مؤنة البِطنة ومحاولتها حتَّىٰ يظفر بها، فإذا ظفر بها شغله بمزاولة تصرُّفها ووقاية ضررها والتّأذِّي بثقلها، وقوَّىٰ عليه موادَّ الشهوة وطُرُقَ مجاري الشيطان ووسَّعها، فإنَّه يجري من ابن آدم مجرىٰ الدّم، فالصَّوم يضيِّق مجاريه ويسدُّ عليه طرقه، والشِّبع يُطرِّقها ويوسِّعها.

ومَن أكل كثيرًا شرب كثيرًا، فنام كثيرًا، فخسر كثيرًا. وفي الحديث المشهور: «**ما ملأ آدميٌّ وعاءً شرًّا من بطنٍ، بِحَسْب ابن آدم لقيماتٌ يُقِمن صُلبَه، فإن كان لا بدَّ فاعلًا فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنَفَسه**»[(١)].

ويحكىٰ أنَّ إبليس عرض ليحيىٰ بن زكريا عليهما السلام فقال له: هل نلتَ منِّي شيئًا قطُّ؟ قال: لا، إلَّا أنَّه قُدِّم إليك طعامٌ ليلةً فشهَّيتُه إليك حتَّىٰ شبعتَ منه فنِمتَ عن وِردك، فقال: للهِ عليَّ أن لا أشبعَ من طعامٍ أبدًا، فقال: وأنا لله عليَّ أن لا أنصح رجلًا أبدًا[(٢)].

---

(١) أخرجه أحمد (١٧١٨٦)، والترمذي (٢٣٨٠)، وابن ماجه (٣٣٤٩)، وصححه الترمذي، وابن حبان (٦٧٤).

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٩٦)، عن ثابت بن أسلم البُناني.

فصل

من مفسدات القلب كثرة النوم

المفسد الخامس: **كثرة النوم**، فإنَّه يُميت القلب، ويثقِّل البدن، ويضيع الوقت، ويورث كثرة الغفلة والكسل. ومنه المكروه جدًّا، ومنه الضّارُّ غير النافع للبدن.

وأنفع النَّوم ما كان عند شدَّة الحاجة إليه، ونومُ أوَّل الليل أحمدُ وأنفعُ من آخره، ونومُ وسط النهار أنفعُ من طَرَفيه، وكلَّما قَرُب النوم من الطَّرَفين قلَّ نفعه وكَثُر ضرره، ولا سيَّما نوم العصر والنوم أوَّلَ النهار إلَّا لسهران.

ومن المكروه عندهم: النوم بين صلاة الصُّبح وطلوع الشَّمس[1]، فإنَّه وقت غنيمةٍ، وللسَّير ذلك الوقت عند السالكين مزيَّة عظيمة، حتَّىٰ لو ساروا طول ليلهم لم يسمحوا بالقعود عن السير ذلك الوقت حتَّىٰ تطلُع الشَّمس، فإنَّه أوَّل النَّهار ومفتاحه، ووقت نزول الأرزاق وحصول القِسَم وحلول البركة، ومنه ينشأ النهار، وينسحب حكم جميعه علىٰ حكم تلك الحصَّة، فينبغي أن يكون نومها كنوم المضطرِّ.

وبالجملة فأعدل النوم وأنفعه نوم نصف اللَّيل الأوَّل وسدسه الأخير[2]، وهو مقدار ثمان ساعاتٍ، وهذا أعدل النوم عند الأطبَّاء، فما زاد عليه أو نقص منه أثَّر عندهم في الطبيعة انحرافًا بحسبه.

ومن النوم الذي لا ينفع أيضًا: النومُ أوَّلَ الليلِ عقيبَ غروب الشمس حتَّىٰ

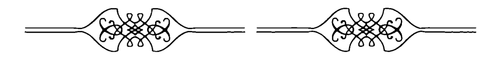
---

(١) انظر لنماذج من كراهة السلف النوم بعد الفجر: «صحيح مسلم» (٢٧٨/٨٢٢)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (كتاب الأدب/ من كان لا يدع أحدًا من أهله ينام بعد الفجر حتىٰ تطلع الشمس).

(٢) وهو الذي امتدحه النبي ﷺ في حديث عبد الله بن عمرو المتفق عليه: «أحب الصلاة إلىٰ الله صلاة داود عليه السلام، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه».

تذهب فحمةُ العشاء، وكان النبي ﷺ يكرهه[(١)]، فهو مكروهٌ شرعًا وطبعًا.

وكما أنَّ كثرة النوم مُورثةٌ لهذه الآفات، فمدافعته وهَجره مورثٌ لآفاتٍ أخرىٰ عظامٍ من سوء المزاج ويبسه، وانحراف النفس، وجفاف الرطوبات المُعِينة علىٰ الفهم والعمل، ويورث أمراضًا متلفةً لا ينتفع صاحبها بقلبه ولا بدنه معها. وما قام الوجود إلَّا بالعدل، فمن اعتصم به فقد أخذ بحظِّه من مجامع الخير، وبالله المستعان.



(١) كما في حديث أبي برزة الأسلمي عند البخاري (٥٤٧)، ومسلم (٦٤٧) أن النبي ﷺ كان يكره النوم قبل صلاة العشاء، والحديث بعدها.

فصل

٢/ ٩٩

منزل الاعتصام

ثمَّ ينزل القلب **منزل الاعتصام**. وهو نوعان: اعتصامٌ بالله، واعتصامٌ بحبل الله. قال تعالىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾[آل عمران: ١٠٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[الحج: ٧٨].

والاعتصام افتعالٌ من العصمة، وهو التمسُّك بما يَعصمك ويمنعك من المحذور المَخُوف، فالعصمة: الحمية، والاعتصام: الاحتماء، ومنه سمِّيت القِلاع: العواصم، لمنعها وحمايتها.

ومدار السعادة الدنيويَّة والأخرويَّة علىٰ الاعتصام بالله، والاعتصام بحبله، ولا نجاة إلَّا لمن استمسك بهاتين العصمتين.

فأمَّا الاعتصام بحبله فإنَّه يعصم من الضّلالة، والاعتصام به يعصم من الهلكة، فإنَّ السائر إلىٰ الله كالسائر علىٰ طريقٍ نحو مقصده، فهو محتاجٌ إلىٰ هداية الطريق والسلامة فيها، فلا يصل إلىٰ مقصده إلَّا بعد حصول هذين الأمرين له، فالدَّليل كفيلٌ بعصمة الضلالة وأن يهديه إلىٰ الطريق، والعُدَّة والقوَّة والسِّلاح بها تحصل له السلامة من قُطَّاع الطريق وآفاتها؛ والاعتصامُ بحبل الله يوجب له الهداية واتِّباع الدليل، والاعتصامُ بالله يوجب له القوَّة والعدَّة والسِّلاح والمادَّة التي يسلم بها في طريقه.

ولهذا اختلفت عبارات السلف في الاعتصام بحبل الله بعد إشارتهم كلِّهم إلىٰ هذا المعنىٰ، فقال ابن عبّاسٍ: تمسَّكوا بدين الله[١].

وقال ابن مسعودٍ: هو الجماعة[٢]. وقال: عليكم بالجماعة، فإنَّها حبل الله

(١) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٢/ ٧٨)، ولم أجده مسندًا.
(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٦٤٤).

الذي أمر به، وإنَّ ما تكرهون في الجماعة والطاعة خيرٌ ممَّا تحبُّون في الفُرقة[(١)].

وقال مجاهدٌ وعطاء: بعهد الله وقال قتادة والسُّدِّيُّ وكثيرٌ من المفسِّرين: هو القرآن[(٢)].

قال ابن مسعودٍ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ: **«إنَّ هذا القرآن هو حبل الله، وهو النُّور المبين، والشِّفاء النّافع، وعصمةُ من تمسَّك به، ونجاة من تبعه»**[(٣)].

وقال عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ في القرآن: **«هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تَزيغ به الأهواء، ولا يَخْلُقُ عن كثرة الرد، ولا تلتبس به الألسُن، ولا تَشْبَع منه العلماء»**[(٤)].

وقال مقاتل: بأمر الله وطاعته، ولا تفرَّقوا كما تفرَّقت اليهود والنصارىٰ[(٥)].

وفي «الموطَّأ»[(٦)] من حديث مالكٍ عن سهيل بن أبي صالحٍ عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«إن الله يرضىٰ لكم ثلاثًا ويسخط لكم ثلاثًا، يرضىٰ لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا، وأن تُناصحوا من ولَّاه الله أمرَكم، ويسخط لكم قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السُّؤال»**. رواه مسلم في «الصحيح»[(٧)].

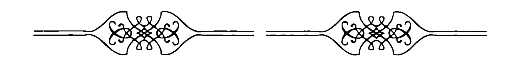
قال صاحب «المنازل»[(٨)]: **(الاعتصام بحبل الله هو المحافظة علىٰ طاعته، مراقِبًا لأمره).**

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٨٤٩٢)، والطبري (٥/ ٦٤٨).
(٢) انظر: «تفسير الطبري» (٥/ ٦٤٤- ٦٤٦).
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٠٦٣٠)، عن ابن مسعود مرفوعًا، وأخرجه عبد الرزاق (٦٠١٧)، موقوفًا علىٰ ابن مسعود من قوله، وهو أشبه، وانظر: «السلسلة الضعيفة» (٦٨٤٢).
(٤) أخرجه الترمذي (٢٩٠٦) وضعَّفه. وقوله: «لا يخلق» أي: لا يَبلىٰ.
(٥) أخرجه ابن المنذر في «تفسيره» (١/ ٣١٩).
(٦) برواية أبي مصعب الزهري (٢٠٨٩).
(٧) برقم (١٧١٥).
(٨) (ص١٦).

ويريد بمراقبته الأمر القيام بالطاعة لأجل أنَّ الله أمر بها وأحبَّها، لا لمجرَّد العادة، أو لعلَّةٍ باعثةٍ سوىٰ امتثال الأمر، كما قال طَلْقُ بن حَبِيب رضي الله عنه في التَّقوىٰ: هي العمل بطاعة الله علىٰ نورٍ من الله ترجو ثواب الله، وترك معصية الله علىٰ نورٍ من الله تخاف عقاب الله[(١)].

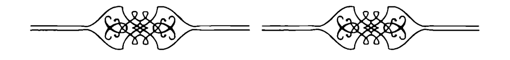
وهذا هو الإيمان والاحتساب المشار إليه في كلام النبيِّ ﷺ كقوله: «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا... ومن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له**»[(٢)]، فالصِّيام والقيام هو الطّاعة، والإيمانُ: مراقبة الأمر، وإخلاص الباعث هو أن يكون الإيمان الآمرَ لا شيءٌ سواه، والاحتساب: رجاء ثواب الله. فالاعتصام بحبل الله يحمي من البدعة وآفات العمل.



(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٣٤٣).
(٢) أخرجه البخاري (١٩٠١، ٢٠١٤)، ومسلم (٧٦٠)، من حديث أبي هريرة.

فصل

وأمَّا الاعتصام به فهو التوكُّل عليه والامتناع به، والاحتماء به وسؤاله أن يحمي العبد ويمنعه، ويعصمه ويدفع عنه، فإنَّ ثمرة الاعتصام به هو الدفع عن العبد، والله يدفع عن الذين آمنوا [1]، فيدفع عن عبده المؤمن به إذا اعتصم به كلَّ سبب يفضي إلىٰ العَطَب ويحميه منه، فيدفع عنه الشُّبهاتِ والشّهوات، وكيدَ عدوِّه الباطن والظاهر، وشرَّ نفسه، ويدفع عنه موجب أسباب الشرِّ بعد انعقادها بحسب قوَّة الاعتصام به وتمكُّنه، فينعقد في حقِّه أسبابُ العَطَب فيدفع عنه موجَباتِها ومسبَّباتِها، ويدفع عنه قَدَرَه بقدره، وإرادته بإرادته، ويعيذه به منه.



(١) مقتبس من قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ علىٰ قراءة أبي عمرو التي كانت سائدة في بلاد الشام زمن المؤلف، انظر: «النشر» (٢/ ٣٢٦).

٢/ ١١٤

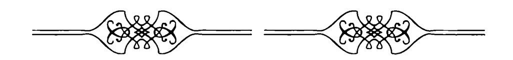
فصل

منزلة الفرار

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة الفرار**. قال تعالىٰ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾[الذاريات: ٥٠].

وحقيقة الفرار: الهرب من شيءٍ إلىٰ شيءٍ، وهو نوعان: فرار السُّعداء، وفرار الأشقياء. ففرار السُّعداء: الفرار إلىٰ الله تعالىٰ، وفرار الأشقياء: الفرار منه لا إليه.

وأمَّا الفرار منه إليه ففرارُ أوليائه، قال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما في قوله تعالىٰ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾: فِرُّوا منه إليه واعملوا بطاعته. وقال سهل بن عبد الله: فِرُّوا ممَّا سوىٰ الله إلىٰ الله. وقال آخرون: اهربوا من عذاب الله إلىٰ ثوابه بالإيمان والطّاعة[1].



(١) انظر: الأقوال في «معالم التنزيل» للبغوي (٧/ ٣٧٩).

فصل

٢/ ١٢٤

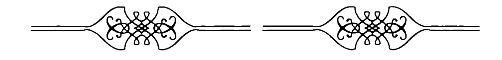
منزلة الرياضة

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **الرِّياضة**، وهي تمرين النفس علىٰ الصِّدق والإخلاص.

قال صاحب «المنازل» رحمه الله[1]: (**وهي تمرين النفس علىٰ قبول الصِّدق**).

وهذا يراد به أمران: تمرينها علىٰ قبول الصِّدق إذا عرضه عليها في أقواله وأفعاله وإرادته، فإذا عرض عليها الصِّدقَ قبلَتْه وانقادت له وأذعنت له.

والثاني: قبول الحقِّ ممَّن عرضه عليه، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[الزمر: ٣٣]، فلا يكفي صدقك، بل لا بدَّ من صدقك وتصديقك للصادقين، فكثيرٌ من النّاس يَصْدُق، ولكن يمنعه من التصديق كبر أو حسد أو غير ذلك.



٢/ ١٣١

فصل

منزلة السماع

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة السَّماع.**

وهو اسم مصدرٍ كالنَّبات، وقد أمر الله به في كتابه وأثنى على أهله، وأخبر أنَّ البشرى لهم، فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا﴾[المائدة: ١٠٨]، وقال: ﴿وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾[التغابن: ١٦]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾[النساء: ٤٦]، وقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[الزمر: ١٧-١٨]، وقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[الأعراف: ٢٠٤]، وقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾[المائدة: ٨٣].

وجعل الإسماعَ منه والسماعَ منهم دليلًا على عِلم الخير فيهم، وعدمَ ذلك دليلًا على عدم الخير فيهم، فقال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾[الأنفال: ٢٣].

وأخبر عن أعدائه أنَّهم هجروا السماع ونهوا عنه، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾[فصلت: ٢٦].

فالسَّماعُ رسولُ الإيمان إلى القلب وداعيه ومعلمه، وكم في القرآن من قوله: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾[القصص: ٧١]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[الحج: ٤٦].

فالسَّماع أصل العقل، وأساس الإيمان الذي انبنى عليه، وهو رائده وجليسه

ووزيره، ولكنَّ الشأن كلَّ الشأن في المسموع، وفيه وقع خبط الناس واختلافهم، وغلط من غلط منهم.

وحقيقة السماع تنبيه القلب علىٰ معاني المسموع، وتحريكه عنها طلبًا وهربًا وحبًّا وبغضًا، فهو حادٍ يحدو بكلِّ أحدٍ إلىٰ وطنه ومألفه.

وأصحاب السماع منهم من يسمع بطبعه ونفسه وهواه، فهذا حظُّه من مسموعه ما وافق طبعَه. ومنهم من يسمع بحاله وإيمانه ومعرفته وعقله، فهذا يُفتَح له من المسموع بحسب استعداده وقوَّته ومادَّته. ومنهم من يسمع بالله لا يسمع بغيره، كما في الحديث الإلهيِّ الصحيح: «**فبي يسمع، وبي يبصر**»[1]، وهذا أعلىٰ سماعًا وأصحُّ من كلِّ أحدٍ.

والكلامُ في السماع مدحًا وذمًّا يحتاج إلىٰ معرفة صورة المسموع وحقيقته، وسببه والباعث عليه، وثمرته وغايته، فبهذه الفصول الثلاثة يتحرَّر أمر السماع، ويتميَّز النافع منه والضارُّ، والحقُّ والباطل، والممدوح والمذموم.

فأمَّا المسموع فعلىٰ ثلاثة أضربٍ:

أحدها: مسموعٌ يحبُّه الله ويرضاه، وأمر به عباده، وأثنىٰ علىٰ أهله ورضي عنهم به.

والثاني: مسموعٌ يبغضه ويكرهه، ونهىٰ عنه، ومدح المعرضين عنه.

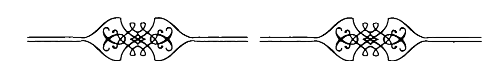
الثالث: مسموعٌ مباحٌ مأذونٌ فيه، لا يحبُّه ولا يبغضه، ولا مدح صاحبه ولا ذمَّه، فحكمه حكم سائر المباحات من المناظر والمشامِّ والمطعومات والملبوسات المباحة.

---

(١) يذكره شيخ الإسلام في كتبه والمؤلف تتمةً لحديث الولي الذي عند البخاري (٦٥٠٢)، ولكن ليست فيه هذه الزيادة. وقد ذكرها الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (١/ ٢٦٥، ٣٨٢) بدون سند، وهي في معنىٰ قوله: «كنت سمعه الذي يسمع به...» إلخ في حديث الولي.

فمن حرَّم هذا النوع الثالث فقد قال على الله ما لا يعلم، وحرَّم ما أحلَّ الله.

ومن جعله دينًا وقربةً يتقرَّب به إلى الله فقد كذب على الله، وشرع دينًا لم يأذن به الله، وضاهى بذلك المشركين.



فصل

النوع الأول من السماع هو الذي أثنىٰ عليه في القرآن

فأمَّا النوع الأوَّل فهو السماع الذي مدحه في كتابه، وأمر به وأثنىٰ علىٰ أصحابه، وذمَّ المعرضين عنه ولعنهم وجعلهم أضلَّ من الأنعام، وهم القائلون في النّار: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[الملك: ١٠].

وهو سماع آياته المتلوَّة التي أنزلها علىٰ رسوله ﷺ، فهذا السماع أساس الإيمان الذي عليه بناؤه. وهو علىٰ ثلاثة أنواعٍ: سماعُ إدراكٍ بحاسَّة الأذن، وسماعُ فهمٍ وعقلٍ، وسماعُ إجابةٍ وقبولٍ؛ والثلاثة في القرآن.

فأمَّا سماع الإدراك ففي قوله تعالىٰ حكايةً عن مؤمني الجنِّ قولَهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾[الجن: ١] وقولهم: ﴿يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠]، فهذا سماع إدراكٍ اتَّصل به الإيمان والإجابة.

وأمّا سماع الفهم فهو المنفيُّ عن أهل الإعراض والغفلة بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾[النمل: ٨٠]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾[فاطر: ٢٢]، فالتخصيص هاهنا لإسماع الفهم والعقل، وإلَّا فالسمع العامُّ الذي قامت به الحجَّة لا تخصيص فيه.

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾[الأنفال: ٢٣]، أي: لو علم الله في هؤلاء الكفَّار قبولًا وانقيادًا لأفهمهم، وإلَّا فهُمْ قد سمعوا سمع الإدراك، ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾، أي ولو أفهمهم لما انقادوا ولا انتفعوا بما فهموه، لأنَّ في قلوبهم من داعي التولِّي والإعراض ما يمنعهم عن الانتفاع بما سمعوه.

وأمَّا سماع القبول والإجابة ففي قوله تعالىٰ حكايةً عن عباده المؤمنين أنّهم قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾[البقرة: ٢٨٥]، فإنَّ هذا سماع قبولٍ وإجابةٍ مثمرٌ للطاعة. والتّحقيق أنَّه متضمِّن للأنواع الثّلاثة، وأنَّهم أخبروا بأنَّهم أدركوا المسموع وفهموه وأجابوا له.

ومِن سَمْع القبول: قوله تعالىٰ: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾[التوبة: ٤٧]، أي قابلون منهم مستجيبون لهم، هذا أصحُّ القولين في الآية[١].

وأمَّا قول من قال: عيونٌ لهم وجواسيسُ فضعيف.

والمقصود أنّ سماع خاصَّة الخاصَّة المقرَّبين هو سماع القرآن بالاعتبارات الثلاثة: إدراكًا، وفهمًا وتدبُّرًا، وإجابةً. وكلُّ سماعٍ في القرآن مدح الله أصحابه وأثنىٰ عليهم، وأمر به أولياءه، فهو هذا السماع.

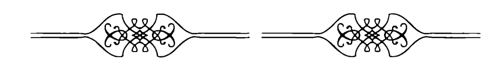
وهو سماع الآيات، لا سماع الأبيات؛ وسماع القرآن، لا سماع الشيطان؛ وسماع المراشد، لا سماع القصائد؛ وسماع الأنبياء والمرسلين والمؤمنين، لا سماع المغنِّين والمطربين؛ وسماع كلام ربِّ الأرض والسماء، لا سماع قصائد الشُّعراء.

فهذا السماع حادٍ يحدو القلوب إلىٰ جوار علَّام الغيوب، وسائقٌ يسوق الأرواح إلىٰ ديار الأفراح، ومحرِّكٌ يثير ساكن العزمات إلىٰ أعلىٰ المقامات وأرفع الدرجات، ومنادٍ ينادي للإيمان، ودليلٌ يدل بالركب في طريق الجنان، وداعٍ يدعو القلوب بالمساء والصباح من قِبَل فالق الإصباح: حيَّ علىٰ الفلاح، حيَّ علىٰ الفلاح.

(١) وهو قول قتادة وابن إسحاق، والآتي قول مجاهد وابن زيد، انظر: «تفسير الطبري» (١١/ ٤٨٦).

فلن تَعْدَم مِن هذا السّماع إرشادًا لحجَّة، وتبصرةً لعبرة، وتذكرةً لمعرفة، وفكرةً في آيةٍ، ودلالةً علىٰ رشد، وردًّا عن ضلالة، وإرشادًا من غيٍّ، وبصيرةً من عمًىٰ، وأمرًا بمصلحة، ونهيًا عن مضرَّةٍ ومفسدة، وهدايةً إلىٰ نور، وإخراجًا من ظلمة، وزجرًا عن هوًىٰ، وحثًّا علىٰ تُقًىٰ، وجلاءً لبصيرة، وحياةً لقلب وغذاءً، ودواءً وشفاءً، وعصمةً ونجاةً، وكشفَ شبهة، وإيضاحَ برهان، وتحقيقَ حقٍّ وإبطالَ باطل.

ونحن نرضىٰ بحكم أهل الذوق في سماع الأبيات والقصائد، ونناشدهم بالذي أنزل القرآن هدًىٰ وشفاءً ونورًا وحياةً: هل وجدوا ذلك أو شيئًا منه في الدُّفِّ والمزمار، ونغمةِ الشاهد[1] ومطربات الألحان، والغناءِ المشتمل علىٰ تهييج الحبِّ المطلق الذي يشترك فيه محبُّ الرَّحمن، ومحبُّ الأوطان، ومحبُّ الإخوان، ومحبُّ العلم والعرفان، ومحبُّ الأموال والأثمان، ومحبُّ النِّسوان، ومحبُّ المردان، ومحبُّ الصُّلبان؟ فهو يثير من قلب كلِّ مشتاقٍ ومحبٍّ إلىٰ شيءٍ ساكنَه، ويُزعج قاطنَه، فيثور وجدُه، ويبدو شوقُه، فيتحرَّك علىٰ حسب ما في قلبه من الحبِّ والشّوق والوَجْد بذلك المحبوب كائنًا ما كان، ولهذا تجد لهؤلاء كلِّهم ذوقًا في السماع وحالًا ووجدًا وبكاءً.



(١) «الشاهد» في اصطلاح القوم: ما يكون حاضر قلب الإنسان مستوليًا عليه، ويُطلَق علىٰ صاحب الوجه الوضيء والصوت الحسن الذي استولىٰ ذكره وحبُّه علىٰ القلب، انظر: «القشيرية» (ص٢٨٨-٢٨٩)، و«الاستقامة» لشيخ الإسلام (١/ ٣٢٠).

فصل

النوع الثاني من السماع هو سماع ما يضر القلب والبدن

القسم الثاني من السماع: ما يبغضه ويكرهه ويمدح المُعرِض عنه، وهو سماع كلِّ ما يضرُّه في قلبه ودينه، كسماع الباطل كلِّه، إلَّا إذا تضمَّن ردَّه وإبطالَه والاعتبارَ به بعلمه بحسن ضدِّه، فإن الضدَّ يُظهر حسنَه الضدُّ، كما قيل:

وإذا سمعتُ إلىٰ حديثك زادني حبًّا له سمعي حديثَ سواكا

وكسماع اللَّغو الذي مدح الله التاركين لسماعه والمُعرضين عنه بقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ﴾[القصص: ٥٥]، وقوله: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾[الفرقان: ٧٢]، قال محمَّد ابن الحنفيَّة ﷺ: هو الغناء، قال الحسن أو غيره: أكرموا نفوسهم عن سماعه[1].

قال ابن مسعودٍ ﷺ: «الغناء ينبت النِّفاق في القلب كما ينبت الماء البقل»[2].

وهذا كلام عارفٍ بأثر الغناء وثمرته، فإنَّه ما اعتاده أحدٌ إلَّا ونافق قلبُه وهو لا يشعر، ولو عرف حقيقة النِّفاق وغايته لأبصره في قلبه، فإنَّه ما اجتمع في قلبٍ قطُّ محبَّة الغناء ومحبَّة القرآن إلَّا وطردت إحداهما الأخرىٰ. وقد شاهدنا نحن وغيرُنا ثقل القرآن علىٰ أهل الغناء وسماعه، وتبرُّمَهم به، وصياحَهم بالقارئ إذا طوَّل عليهم، وعدمَ انتفاع قلوبهم بما يقرؤه، فلا تتحرَّك ولا تَطْرَب ولا يَهيج منها بواعثُ الطلب، فإذا جاء قرآن الشيطان فلا إله إلَّا الله، كيف تخشع منهم الأصوات، وتهدأ الحركات، وتسكن القلوب وتطمئن، ويقع البكاء والوَجْد، والحركةُ الظاهرة والباطنة، والسماحةُ بالأثمان والثِّياب، وطيبُ السَّهر وتمنِّي

(١) «معالم التنزيل» (٦/ ٩٨، ٩٩) بنحوه.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي» (٣٠، ٣٣، ٣٤، ٣٧)، عن ابن مسعود موقوفًا عليه، وروي مرفوعًا ولا يصحّ، وانظر: «إغاثة اللهفان» للمؤلف (١/ ٤٣٨-٤٣٩).

طول الليل! فإن لم يكن هذا نفاقًا فهو آخيَّة النِّفاق[1] وأساسه.

وكيف يكون السَّماعُ الذي يسمعه العبدُ بطبعه وهواه أنفعَ له من الذي يسمعه بالله ولله وعن الله؟ فإن زعموا أنَّهم يسمعون هذا السماع الغنائيَّ الشعريَّ كذلك، فهذا غاية اللَّبس علىٰ القوم، فإنَّه إنَّما يُسمع بالله ولله وعن الله ما يحبُّه الله ويرضاه. ولهذا قلنا: إنَّه لا يتحرَّر الكلام في هذه المسألة إلَّا بعد معرفة صورة المسموع وحقيقته ومرتبته، فقد جعل الله لكلِّ شيءٍ قدرًا، ولن يجعل الله مَن شِرْبُه ونصيبه وذوقه ووجده من سماع الآيات البيِّنات كمن نصيبه وشِرْبُه وذوقه ووجده من سماع الغناء والأبيات.

والذي يفصل النِّزاع في حكم هذه المسألة ثلاثُ قواعدَ مِن أهمِّ قواعد الإيمان والسُّلوك، فمن لم يَبْنِ عليها فبناؤه علىٰ شفا جرفٍ هارٍ.

القاعدة الأولىٰ: أنَّ الذوق والحال والوجد: هل هو حاكمٌ أو محكومٌ عليه، فيُحكم عليه بحاكمٍ آخر أو يُتحاكم إليه؟

فهذا منشأ ضلال من ضلَّ من المفسدين لطريق القوم الصَّحيحة، حيث جعلوه حاكمًا، فتحاكموا إليه فيما يسوغ ويمتنع، وفيما هو صحيح وفاسد، وجعلوه محكًّا للحقِّ والباطل، فنبذوا لذلك موجَب العلم والنُّصوص، وحكَّموا عليها الأذواق والأحوال والمواجيد، فعَظُم الأمرُ وتفاقم الفساد، وطَمَست معالمُ الإيمان والسُّلوك المستقيم، وانعكس السَّير، وكان إلىٰ الله فصيَّروه إلىٰ النُّفوس، فالنَّاس المحجوبون عن أذواقهم يعبدون الله، وهؤلاء يعبدون نفوسهم.

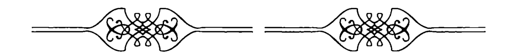
القاعدة الثانية: أنَّه إذا وقع النِّزاع في حكم فعلٍ من الأفعال، أو حالٍ من الأحوال، أو ذوقٍ من الأذواق: هل هو صحيحٌ أو فاسدٌ، وحقٌّ أو باطل= وجب الرُّجوع فيه

(١) أي: مَرْبطُه. الآخيَّة: عروة مثنيَّة يُدفن طرفاها في حائط أو في الأرض، تُربَط بها الدابَّة.

إلىٰ الحجَّة المقبولة عند الله وعند عباده المؤمنين، وهو وحيه الذي تُتلقَّىٰ أحكام النوازل والأحوال والواردات منه، وتُعرَض عليه وتوزن به، فما زكَّاه منها وقبله ورجَّحه وصحَّحه فهو المقبول، وما أبطله وردَّه فهو الباطل المردود، ومن لم يَبْنِ علىٰ هذا الأصل علمَه وسلوكَه فليس علىٰ شيءٍ وإنْ وإنْ، وإنَّما معه خَدْع وغرور ﴿ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[النور: ٣٩].

القاعدة الثالثة: إذا أشكل علىٰ الناظر أو السالك حكمُ شيءٍ هل هو الإباحة أو التحريم، فلينظر إلىٰ مفسدته وثمرته وغايته، فإن كان مشتملًا علىٰ مفسدةٍ راجحةٍ ظاهرةٍ فإنَّه يستحيل علىٰ الشارع الأمرُ به أو إباحته، بل العلم بتحريمه من شرعه قطعيٌّ، ولاسيَّما إذا كان طريقًا مفضيًا إلىٰ ما يبغضه الله ورسوله، مُوصِلًا إليه عن قربٍ، وهو رقيةٌ له ورائدٌ وبريد، فهذا لا يشكُّ في تحريمه أولو البصائر، فكيف يُظنُّ بالحكيم الخبير أن يحرِّم مثل رأس الإبرة من المسكر لأنَّه يسوق النفس إلىٰ المسكر الذي يسوقها إلىٰ المحرَّمات، ثمَّ يبيح ما هو أعظم سوقًا للنُّفوس إلىٰ المحرَّم بكثيرٍ؟! فإنَّ الغناء كما قال ابن مسعودٍ رضي الله عنه هو رقية الزِّنا[1].

ولا تستطِل كلامَنا في هذه المنزلة، فإنَّ لها عند القوم شأنًا عظيمًا.



(١) روي من قول الفضيل بن عياض كما في «ذم الملاهي» لابن أبي الدنيا (٥٤).

٢/ ١٦٩

فصل

منزلة الحزن

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة الحزن**، وليست من المنازل المطلوبة، ولا المأمور بنزولها وإن كان لا بدَّ للسالك من نزولها.

ولم يأت الحزنُ في القرآن إلَّا منهيًّا عنه أو منفيًّا، فالمنهيُّ كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾[آل عمران: ١٣٩]، وقولِه: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾في غير موضعٍ[1]، وقولِه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة: ٤٠]، والمنفيُّ كقوله: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[يونس: ٦٢].

وسرُّ ذلك أنّ الحزن مُوقِّفٌ غير مُسيِّرٍ، ولا مصلحة فيه للقلب، وأحبُّ شيءٍ إلىٰ الشيطان أن يَحزُن العبدَ ليقطعه عن سيره ويَقِفه عن سلوكه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[المجادلة: ١٠]. ونهىٰ النبيُّ ﷺ الثلاثة أن يتناجىٰ اثنانِ منهم دون الثالث لأنَّ ذلك يحزنه[2].

فالحزن ليس بمطلوبٍ ولا مقصود، ولا فيه فائدة. وقد استعاذ منه النبيُّ ﷺ فقال: «**اللهمّ إنِّي أعوذ بك من الهمِّ والحزن**»[3]، فهو قرين الهمِّ، والفرق بينهما أنّ المكروه الذي يَرِد علىٰ القلب، إن كان لِما يُستقبَل أورثه الهمَّ، وإن كان لما مضىٰ أورثه الحزن. وكلاهما مُضعف للقلب مُفتر للعزم.

ولكن نزول منزلته ضرورية بحسب الواقع، ولهذا يقول أهل الجنَّة إذا دخلوها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾[فاطر: ٣٤]، فهذا يدلُّ علىٰ أنّهم كان

---

(١) جاء ذلك في الحجر: (٨٨)، والنحل: (١٢٧)، والنمل: (٧٠).

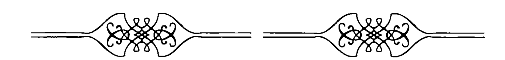
(٢)أخرجه مسلم (٢١٨٤)، من حديث ابن مسعود، وأخرجه البخاري (٦٢٨٨)، ومسلم (٢١٨٣)، من حديث ابن عمر مختصرًا دون ذكر علة النهي.

(٣) كما في حديث أنس عند البخاري (٢٨٩٣).

يصيبهم في الدُّنيا الحزن، كما تصيبهم سائر المصائب التي تجري عليهم بغير اختيارهم.

وأمَّا قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾[التوبة: ٩٢]، فلم يُمدَحوا علىٰ نفس الحزن، وإنّما مُدِحوا علىٰ ما دلَّ عليه الحزن من قوَّة إيمانهم حيث تخلَّفوا عن رسول الله ﷺ لعجزهم عن النفقة، ففيه تعريضٌ بالمنافقين الذين لم يحزنوا علىٰ تخلُّفهم وغبطوا نفوسهم به.

وأمَّا قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «**ما يصيب المؤمن من همٍّ ولا نصبٍ ولا حزنٍ إلَّا كفَّر الله به من خطاياه**»[1]، فهذا يدلُّ علىٰ أنَّه مصيبةٌ من الله يصيب بها العبدَ يكفِّر بها من سيِّئاته؛ لا يدلُّ علىٰ أنَّه مقامٌ ينبغي طلبه واستيطانه.



(١) أخرجه البخاري (٥٦٤١)، ومسلم (٢٥٧٣)، من حديث أبي سعيد وأبي هريرة.

٢/ ١٧٩

فصل

منزلة الخوف

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة الخوف**، وهي من أجلِّ منازلها وأنفعها للقلب.

وهو فرضٌ على كلِّ أحدٍ، قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾[البقرة: ٤١]، وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾[المائدة: ٤٤].

ومدح أهله في كتابه وأثنى عليهم فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾[المؤمنون: ٥٧- ٦١].

وفي «المسند» والترمذي[(١)] عن عائشة ﵂ قالت: قلتُ يا رسول الله، ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾أهو الذي يزني ويشرب الخمر ويسرق؟ قال: «**لا يا ابنة الصِّدِّيق، ولكنَّه الرجل يصوم ويصلِّي ويتصدَّق، ويخاف أن لا يُقبَل منه**».

قال الحسن ﵁: عملوا واللهِ بالطاعات واجتهدوا فيها، وخافوا أن تُردَّ عليهم؛ إنَّ المؤمن جمع إحسانًا وخشيةً، والمنافق جمع إساءةً وأمنًا[(٢)].

و«الوجل» و«الخوف» و«الخشية» و«الرهبة» **ألفاظ متقاربة غير مترادفة.**

---

(١) أحمد (٢٥٧٠٥)، والترمذي (٣١٧٥)، وأخرجه أيضًا ابن ماجه (٤١٩٨)، وفي سنده انقطاع. وله طرق أخرى لكنها معلولة، انظر: «المراسيل» لابن أبي حاتم (١٢٧)، «العلل» للدارقطني (٢٢١٦، ٣٦٧٥).

(٢) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٥/ ٤٢١)، والفقرة الأخيرة منه أخرجها الحسين بن الحسن المروزي في زوائده على «الزهد» لابن المبارك (٩٨٥).

قال أبو القاسم الجنيد ﵀: الخوف توقُّع العقوبة علىٰ مجاري الأنفاس[(١)].

وقيل: الخوف اضطراب القلب وحركته من تذكُّر المخوف.

وقيل: الخوف قوَّة العلم بمجاري الأحكام[(٢)]. وهذا سبب الخوف، لا أنّه نفسه.

وقيل: الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره.

والخشية أخصُّ من الخوف، فإنَّ الخشية للعلماء بالله، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[فاطر: ٢٨]، فهي خوفٌ مقرونٌ بمعرفة، وقال النبيُّ ﷺ: «**إنِّي أتقاكم لله وأشدُّكم له خشيةً**»[(٣)].

فالخوف حركة، والخشية انجماع وانقباض وسكون؛ فإنَّ الذي يرىٰ العدوَّ والسَّيل ونحو ذلك له حالتان:

إحداهما: حركته للهرب منه، وهي حالة الخوف.

والثانية: سكونه وقراره في مكانٍ لا يصل إليه، وهي الخشية. ومنه: انخشَّ الشيءُ[(٤)]، والمضاعف والمعتلُّ أخوان، كتقضَّىٰ البازيُّ وتقضَّض.

وأمّا **الرهبة** فهي الإمعان في الهرب من المكروه، وهي ضدُّ الرَّغبة التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه. وبين الرَّهب والهرب تناسبٌ في اللفظ والمعنىٰ، يجمعهما الاشتقاق الأوسط الذي هو عقدُ تقاليب الكلمة علىٰ معنًىٰ جامعٍ.

وأمَّا **الوجل** فرَجَفان القلب وانصداعُه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته، أو لرؤيته.

---

(١) أسنده القشيري (ص٣٥٢).

(٢) ذكره القشيري (ص٣٥٢).

(٣) أخرجه مسلم (١١٠٨)، من حديث عمر بن أبي سلمة بنحوه.

(٤) أي: دخل واستتر.

وأمَّا **الهيبة** فخوفٌ مقارنٌ للتعظيم والإجلال، وأكثر ما يكون مع المعرفة والمحبة. والإجلال: تعظيمٌ مقرونٌ بالحبِّ.

فالخوف لعامَّة المؤمنين، والخشية للعلماء العارفين، والهيبة للمحبِّين، والإجلال للمقرَّبين. وعلىٰ قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية، كما قال ﷺ: «**إنِّي لأعلمكم بالله وأشدُّكم له خشيةً**»(١)، وقال: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا، ولما تلذَّذتم بالنِّساء علىٰ الفرش، ولخرجتم إلىٰ الصُّعدات تجأرون إلىٰ الله تعالىٰ**»(٢).

فصاحب الخوف يلتجئ إلىٰ الهرب والإمساك، وصاحب الخشية يلتجئ إلىٰ الاعتصام بالعلم، ومَثَلُهما مثل من لا علم له بالطِّبِّ ومَثَل الطبيب الحاذق، فالأوَّل يلتجئ إلىٰ الحِمْية والهرب، والطبيب يلتجئ إلىٰ معرفته بالأدوية والأدواء.

قال أبو حفصٍ: الخوف سوط الله يقوِّم به الشَّارد عن بابه، وقال: الخوف سراجٌ في القلب، به يُبصر ما فيه من الخير والشرِّ(٣).

وكلُّ أحدٍ إذا خِفتَه هربتَ منه إلا الله تعالىٰ، فإنك إذ خِفتَه هربتَ إليه، فالخائف هاربٌ من ربِّه إلىٰ ربِّه.

قال أبو سليمان: ما فارق الخوف قلبًا إلا خرب(٤).

وقال إبراهيم بن شيبان: إذا سكن الخوف القلبَ أحرق مواضع الشهوات منه وطرد الدُّنيا عنه(٥).

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٠١)، ومسلم (٢٣٥٦)، من حديث عائشة بنحوه.
(٢) أخرجه أحمد (٢١٥١٦)، والترمذي وقال: حسن غريب (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠)، وأصله في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة وأنس وعائشة إلىٰ قوله: «ولبكيتم كثيرًا».
(٣) القولان أسندهما القشيري (ص٣٤٩، ٣٥٠). وأبو حفص هو: النيسابوري الحدَّاد، اختلف في اسمه، وهو أول من أظهر طريقة التصوف بنيسابور (ت ٢٦٤).
(٤) أسنده القشيري (ص٣٥٢).
(٥) أسنده السلمي في «طبقات الصوفية» (ص٤٠٤).

وقال ذو النُّون: الناس علىٰ الطريق ما لم يَزُل عنهم الخوف، فإذا زال عنهم الخوف ضلُّوا عن الطّريق[(١)].

وقال حاتم الأصمُّ: لا تغترَّ بمكانٍ صالحٍ، فلا مكان أصلح من الجنَّة ولقي آدم فيها ما لقي. ولا تغترَّ بكثرة العبادة، فإنَّ إبليس بعد طول العبادة لقي ما لقي. ولا تغترَّ بكثرة العلم، فإنَّ بَلْعام بن باعُورا[(٢)] لقي ما لقي وكان يعرف الاسم الأعظم. ولا تغترَّ بلقاء الصالحين ورؤيتهم، فلا شخص أصلح من النبيِّ ﷺ ولم ينتفع بلقائه أعداؤه والمنافقون[(٣)].

والخوف ليس مقصودًا لذاته، بل مقصودًا لغيره قصدَ الوسائل، ولهذا يزول بزوال المَخُوف، فإنَّ أهل الجنة لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون.

والخوف يتعلّق بالأفعال، والمحبَّة تتعلّق بالذات والصِّفات، ولهذا تتضاعف محبَّة المؤمنين لربِّهم إذا دخلوا دار النعيم، ولا يلحقهم فيها خوفٌ، ولهذا كانت منزلة المحبَّة ومقامُها أعلىٰ وأرفعَ من منزلة الخوف ومقامه.

والخوف المحمود الصادق: ما حال بين صاحبه وبين محارم الله، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط.

قال أبو عثمان ﵁: صِدقُ الخوف هو الورع عن الآثام ظاهرًا وباطنًا[(٤)].

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيميَّة ﵀ يقول: الخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله.

---

(١) ذكره القشيري (ص٣٥٢).

(٢) هو رجل من بني إسرائيل، قال كثير من مفسِّري السلف إنه المعنيُّ بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾، انظر: «تفسير الطبري» (١٠/ ٥٦٦-٥٨٥).

(٣) ذكره القشيري (ص٣٥٦).

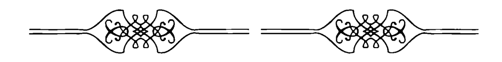
(٤) أسنده القشيري (ص٣٥٢). وهو أبو عُثمان هو: الحِيري النيسابوري.

فصل

القلب في سيره إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر

القلب في سيره إلىٰ الله ﷻ بمنزلة الطائر، فالمحبَّة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتىٰ سلم الرأس والجناحان فالطَّير جيِّد الطّيران، ومتىٰ قُطع الرأس مات الطائر، ومتىٰ عدم الجناحان فهو عرضةٌ لكلِّ صائدٍ وكاسرٍ، ولكنَّ السلف استحبُّوا أن يُقوَّىٰ في الصِّحة جناحُ الخوف علىٰ جناح الرجاء، وعند الخروج من الدُّنيا يُقوَّىٰ جناحُ الرجاء علىٰ جناح الخوف. هذه طريقة أبي سليمان[١] وغيره، قال: وينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف، فإنه إذا كان الغالب عليه الرجاء فسد.

وقال غيره: أكمل الأحوال اعتدالُ الرجاء والخوفِ وغلبةُ الحبِّ، فالمحبَّة هي المركب، والرجاء حادٍ، والخوف سائق، والله الموصل بمنِّه وكرمه.



(١) الداراني، ذكره عنه القشيري (ص٣٥٤).

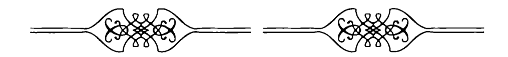
٢/ ١٨٩

﴿ فصل ﴾

منزلة الإشفاق

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة الإشفاق**؛ قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾[الأنبياء: ٤٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾[الطور: ٢٥ - ٢٧].

الإشفاق رقَّة الخوف، وهو خوفٌ برحمةٍ من الخائف لمن يخاف عليه، فنسبته إلىٰ الخوف نسبة الرَّأفة إلىٰ الرحمة، فإنَّها ألطف الرحمة وأرقُّها.



٢/ ١٩٣

فصل

منزلة الخشوع

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة الخشوع**؛ قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[الحديد: ١٦]. قال ابن مسعودٍ ﷺ: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتَبَنا اللهُ بهذه الآية إلا أربع سنين[(١)]. وقال ابن عباس ﷺ: إنَّ الله استبطأ قلوب المؤمنين، فعاتبهم علىٰ رأس ثلاث عشرة سنةً من نزول القرآن[(٢)].

وقال تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١].

والخشوع في أصل اللُّغة: الانخفاض والذلُّ والسُّكون. قال تعالىٰ: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾[طه: ١٠٨]، أي: سكنت وذلَّت وخضعت. ومنه وصف الأرض بالخشوع، وهو يُبْسها وانخفاضها وعدم ارتفاعها بالريِّ والنَّبات، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾[فصلت: ٣٩].

والخشوع: قيام القلب بين يدي الربِّ تعالىٰ بالخضوع والذلَّة والجمعيَّة عليه.

وقيل: الخشوع الانقياد للحقِّ، وهذا من موجَبات الخشوع، فمن علاماته أنَّ العبد إذا خولف أو رُدَّ عليه بالحقِّ استقبل ذلك بالقبول والانقياد.

وقيل: الخشوع خمود نيران الشَّهوة، وسكون دخان الصَّدر، وإشراق نور التعظيم في القلب[(٣)].

(١) أخرجه مسلم (٣٠٢٧).
(٢) رواه ابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» بإسناد واهٍ عن ابن عباس.
(٣) ذكره القشيري (ص٣٧٩)، عن الحكيم الترمذي.

وقال الجنيد رحمه الله: الخشوع تذلُّل القلوب لعلَّام الغيوب[(١)].

وأجمع العارفون على أنَّ الخشوع محلُّه القلب، وثمرته على الجوارح فهي تظهره. ورأى النبيُّ ﷺ رجلًا يعبث بلحيته في الصلاة فقال: **«لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه»**[(٢)].

ورأى بعضهم رجلًا خاشع المنكبين والبدن، فقال: يا فلان، الخشوع هاهنا وأشار إلى صدره، لا هاهنا وأشار إلى منكبيه[(٣)].

وكان بعض الصحابة رضي الله عنهم يقول: أعوذ بالله من خشوع النِّفاق، فقيل له: وما خشوع النِّفاق؟ فقال: أن ترى الجسد خاشعًا والقلبُ غير خاشعٍ[(٤)].

وقال الفضيل بن عياضٍ رحمه الله: كان يُكره أن يُري الرجلُ من الخشوع أكثر ممَّا في قلبه[(٥)].

وقال حذيفة رضي الله عنه: أوَّل ما تَفْقِدون من دينكم الخشوع، ويوشك أن تدخل مسجدَ الجماعة فلا ترى فيهم خاشعًا[(٦)].

وقال سهلٌ[(٧)]: من خشع قلبه لم يقرُبْ منه الشيطان.

---

(١) «القشيرية» (ص٣٧٩).

(٢) أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (١٣٠٥، ١٦٢٠)، من حديث أبي هريرة، وهو باطل مرفوعًا؛ وأخرجه عبد الرزاق (٣٣٠٨، ٣٣٠٩)، وابن أبي شيبة (٦٨٥٤)، موقوفًا على سعيد بن المسيب من قوله.

(٣) ذكره القشيري (٣٨٠)، روي نحوه عن عمر بن الخطاب في «المجالسة» للدينوري (١٦٩١)، ولكن إسناده واه.

(٤) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص١٧٦)، عن أبي الدرداء، وفي سنده انقطاع.

(٥) ذكره القشيري (ص٣٨٠).

(٦) أخرجه الآجري في «الشريعة» (١/ ٣٢٢-٣٢٣)، وإسناده صحيح.

(٧) التُّستَري، ذكره عنه القشيري (ص٣٧٩).

فصل

حكم صلاة من لم يخشع فيها

فإن قيل: فما تقولون في صلاةِ مَن عَدِم الخشوعَ في صلاته، هل يعتدُّ له بها أم لا؟

قيل: أمَّا الاعتداد بها في الثواب فلا يعتدُّ له منها إلا بما عَقَل فيه وخشع فيه لربِّه. قال ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما: ليس لك من صلاتك إلَّا ما عقلت منها[١].

وفي «السنن» و«المسند»[٢] مرفوعًا: «**إنَّ العبد ليصلِّي الصلاة ولم يُكتَب له إلا نصفُها، إلا ثلثُها، إلا رُبعُها**...» حتَّىٰ بلغ عُشرَها.

وقد علَّق الله فلاح المصلِّين بالخشوع في صلاتهم، فدلَّ علىٰ أنَّ مَن لم يخشع فيها فليس من أهل الفلاح، ولو اعتُدَّ له بها ثوابًا لكان من المفلحين.

وأمَّا الاعتداد بها في أحكام الدُّنيا وسقوط القضاء، فإن غلب عليها الخشوعُ وتعقُّلُها اعتُدَّ بها إجماعًا، وكانت السُّنن والأذكار عقيبها جوابرَ ومكمِّلاتٍ لنقصها. وإن غلب عليه عدمُ الخشوع فيها وعدمُ تعقُّلِها، فقد اختلف الفقهاء في وجوب إعادتها، فأوجبها أبو عبد الله بن حامدٍ من أصحاب أحمد[٣]، وأبو حامدٍ الغزاليُّ في «إحيائه»[٤]، لا في «وسيطه» و«بسيطه».

واحتجُّوا بأنَّها صلاةٌ لا يثاب عليها، ولم يضمن له فيها الفلاح، فلم تبرأ ذمَّته منها ولم يسقط القضاء عنه كصلاة المرائي.

قالوا: ولأنَّ الخشوع والعقل روح الصلاة ومقصودها ولبُّها، فكيف يعتَدُّ

---

(١) لم أجده عن ابن عباس، وصحَّ بنحوه من قول سفيان الثوري في «حلية الأولياء» (٧/ ٦١).

(٢) أبو داود (٧٩٦)، وأحمد (١٨٨٧٩، ١٨٨٩٤)، وقد سبق تخريجه.

(٣) وهو قول ابن الجوزي أيضًا، انظر: «الإنصاف» (٣/ ٦٧٥).

(٤) (١/ ١٥٩- ١٦١).

بصلاةٍ فقَدَتْ روحَها ولبَّها، وبقيت صورتُها وظاهرها؟

قالوا: ولو ترك العبد واجبًا من واجباتها عمدًا لأبطلها تركه، وغايته: أن يكون بعضًا من أبعاضها، بمنزلة فوات عضوٍ من أعضاء العبد المُعتَق في الكفَّارة؛ فكيف إذا عَدِمت روحَها ولبَّها ومقصودها، وصارت بمنزلة العبد الميِّت؟ فإذا لم يعتدَّ بالعبد المقطوع اليد يعتقه تقرُّبًا إلىٰ الله تعالىٰ في كفَّارةٍ واجبةٍ، فكيف يعتدُّ بالعبد الميِّت؟

قالوا: والأعضاء تابعةٌ للقلب، تصلح بصلاحه وتفسد بفساده، فإذا لم يكن قائمًا بعبوديَّته، فالأعضاء أولىٰ أن لا يُعتدَّ بعبوديتها. وإذا فسدت عبوديَّته بالغفلة والوسواس فأنَّىٰ تصحُّ عبودية رعيَّته وجنده، ومادَّتُهم منه، وعن أمره يصدرون، وبه يأتمرون؟

قالوا : ولأن عبودية من غلبت عليه الغفلةُ والسهو في الغالب لا تكون مصاحبةً للإخلاص، فإن الإخلاص قصدُ المعبود وحده بالتعبُّد، والغافلُ لا قصدَ له، فلا عبوديةَ له.

فهذا ما احتجَّت به هذه الطَّائفة، وهي حججٌ كما تراها قوةً وظهورًا.

قال أصحاب القول الآخر: قد ثبت عن النبيِّ ﷺ في «الصحيح»[(١)] أنَّه قال: **«إذا أذّن المؤذِّن أدبر الشّيطان له ضُراطٌ حتّىٰ لا يسمع التَّأذين، فإذا قُضي التأذين أقبل، فإذا ثوِّب بالصّلاة أدبر، فإذا قضي التثويب أقبل حتَّىٰ يَخطِر بين المرء وبين نفسه، فيذكِّره ما لم يكن يذكر، يقول: اذكر كذا، اذكر كذا، لِما لم يكن يذكر، حتَّىٰ يظَلَّ الرجل إنْ يدري كم صلَّىٰ، فإذا وجد ذلك أحدكم فليسجد سجدتين وهو جالس»**.

(١) للبخاري (١٢٣١)، ومسلم (٣٨٩/ ٨٣- ج ١/ ٣٩٨)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

قالوا: فأَمَرَه ﷺ في هذه الصَّلاة التي قد أغفله الشيطان فيها حتَّىٰ لم يدر كم صلّىٰ بأن يسجد سجدتي السهو، ولم يأمره بإعادتها، ولو كانت باطلةً كما زعمتم لأمره بإعادتها.

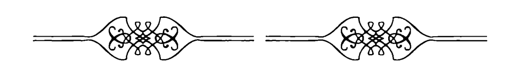
قالوا: ولأنَّ شرائع الإسلام علىٰ الأفعال الظاهرة، وأمَّا حقائق الإيمان الباطنة فتلك عليها شرائع الثواب والعقاب. فلله تعالىٰ حكمان: حكمٌ في الدُّنيا علىٰ الشرائع الظاهرة وأعمال الجوارح، وحكم الآخرة علىٰ الحقائق والبواطن. ولهذا كان النبيُّ ﷺ يقبل علانية المنافقين ويكل سرائرهم إلىٰ الله، ويناكحون ويرثون ويورثون، ويعتدُّ بصلاتهم في أحكام الدُّنيا، فلا يكون حكمهم حكم تارك الصلاة، إذ قد أتوا بصورتها الظاهرة. وأحكام الثواب والعقاب ليس إلىٰ البشر، بل إلىٰ الله يتولَّاه في الدار الآخرة.

قالوا: فنحن في حكم شرائع الإسلام نحكم بصحة صلاة المنافق والمُرائي مع أنها تُسقط عنه العقاب ولا يحصل له الثواب، فصلاة المسلم الغافل المبتلىٰ بالوسواس وغفلة القلب عن كمال حضوره أولىٰ بالصحة.

نعم، لا يحصل مقصود هذه الصلاة من ثواب الله عاجلًا ولا آجلًا، فإنَّ للصلاة مزيدًا عاجلًا في القلب من قوَّة إيمانه واستنارته، وانشراحه وانفساحه، ووَجْدِ حلاوة العبادة والفرح والسُّرور، واللذَّةِ التي تحصل لمن اجتمع قلبه وهمُّه علىٰ الله وحضر قلبُه بين يديه، كما يحصل لمن قرَّبه السُّلطان منه وخصَّه بمناجاته والإقبال عليه، والله أعلىٰ وأجلُّ. وكذلك ما يحصل لهذا من الدرجات العلىٰ في الآخرة ومرافقة المقرَّبين. كلُّ هذا يفوته بفوات الحضور والخشوع، وإنَّ الرجلين ليكون مقامهما في الصفِّ واحدًا، وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض.

وليس كلامنا في هذا كلِّه، فإن أردتم بوجوب الإعادة لتحصل هذه الثمرات والفوائد فذاك إليه، إن شاء أن يحصِّلها وإن شاء أن يفوِّتها علىٰ نفسه. وإن أردتم بوجوب الإعادة أنَّا نُلزمه بها ونُعاقبه علىٰ تركها ونرتِّب عليه أحكام تارك الصلاة، فلا.

وهذا القول الثاني أرجح القولين، والله أعلم.



٢/ ٢٠٩

فصل

منزلة الإخبات

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة الإخبات.**

قال الله تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾[الحج: ٣٤]، ثمَّ كشف عن معناهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[الحج: ٣٥].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[هود: ٢٣].

الخَبْت في أصل اللُّغة: المكان المنخفض من الأرض. وبه فسَّر ابن عباس ﷺ وقتادة لفظ ﴿ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ فقالا: هم المتواضعون. وقال مجاهد: المخبت: المطمئنُّ إلىٰ الله. وقال الأخفش: الخاشعون. وقال إبراهيم النخعيُّ: المخلصون. وقال الكلبيُّ: هم الرقيقة قلوبهم. وقال عمرو بن أوسٍ: هم الذين لا يظلمون، وإذا ظُلِموا لم ينتصروا[١].

وهذه الأقوال تدور علىٰ معنيين: التواضع، والسُّكون إلىٰ الله تعالىٰ. ولذلك عدِّي بـ «إلىٰ» تضمينًا لمعنىٰ الطُّمأنينة والإنابة والسُّكون إلىٰ الله.

قال صاحب «المنازل»[٢]: **(هو من أوَّل مقامات الطُّمأنينة).**

يعني بمقامات الطمأنينة: السكينة، واليقين، والثِّقة بالله تعالىٰ ونحوها. فالإخبات مقدِّمتها ومبدؤها.

قال: (وهو ورود المسافر من الرُّجوع والتردُّد).

---

(١) الأقوال السابقة كلها من «معالم التنزيل» للبغوي (٥/ ٣٨٦).

(٢) (ص٢٢).

لمَّا كان الإخبات أول مقامٍ يتخلَّص فيه السالك من التّردُّدِ الذي هو نوع شك، والرجوعِ الذي هو نوع غفلةٍ وإعراضٍ، والسالكُ مسافر إلىٰ ربِّه سائرٌ إليه علىٰ مدىٰ أنفاسه، لا ينتهي سيرُه إليه ما دام نَفَسه يصحبه= شبَّه حصول الإخبات له بالماء العذب الذي يَرِده المسافر علىٰ ظمأٍ وحاجةٍ في أوَّل مناهله، فيُروِّيه مَورِدُه ويزيل عنه خواطر تردُّده في إتمام سفره أو رجوعِه إلىٰ وطنه لمشقَّة السّفر، فإذا ورد ذلك الماء زال عنه التّردُّد وخاطر الرجوع. كذلك السالك إذا ورد مورد الإخبات تخلَّص من التردُّد والرجوع، ونزل أوَّل منازل الطُّمأنينة لسفره وجدَّ في السّير.

قال[1]: (**وهو علىٰ ثلاث درجاتٍ. الدرجة الأولىٰ: أن تستغرق العصمةُ الشهوةَ، وتستدرك الإرادةُ الغفلةَ، ويستهوي الطلبُ السَّلوة**).

المريد السالك تعرض له غفلةٌ عن مراده تُضعِف إرادتَه، وشهوةٌ تعارض إرادته فتصدُّه عن مراده، ورجوعٌ عن مراده سلوةً عنه.

فهذه الدرجة من الإخبات تحميه عن هذه الثلاثة، فـ(**تستغرق عصمته شهوته**)، والعصمة هي الحماية والحفظ، والشهوة: الميل إلىٰ مطالب النفس، والاستغراق للشيء: الاحتواء عليه والإحاطة به. يقول: تغلب عصمتُه شهوتَه وتقهرها، وتستوفي جميع أجزائها. فإذا استوفت العصمة جميع أجزاء الشَّهوة، فذلك دليل علىٰ إخباته ودخوله في مقام الطُّمأنينة ونزولِه منازلَها، وخَلاصِه في هذا المنزل من تردُّد الخواطر بين الإقبال والإدبار والرُّجوعِ والعزم، إلىٰ الاستقامة والعزم الجازم والجدِّ في السَّير. وذلك علامة السكينة.

و(**تستدرك إرادتُه غفلتَه**)، والإرادة عند القوم هي اسمٌ لأوَّل منازل القاصدين إلىٰ الله تعالىٰ، والمريد هو الذي قد خرج من وطن طبعِه ونفسِه وأَخَذَ في السير إلىٰ الله والدار الآخرة، فإذا نزل في منزلة الإخبات أحاطت إرادتُه بغفلته، فاستدركها واستدرك بها فارطها.

---

(١) «المنازل» (ص٢٢).

وأمَّا (**استهواء طلبه لسلوته**)، فهو قهر محبَّته لسلوته وغلبتُها له، بحيث تهوي السلوةُ وتسقط، كالذي يهوي في بئرٍ. وهذا علامة المحبَّة الصادقة أن تقهر واردَ السلوة وتدفنها في هُوَّةٍ لا تحيا بعدها أبدًا.

فالحاصل: أنَّ عصمته وحمايته تقهر شهوته، وإرادته تقهر غفلته، ومحبَّته تقهر سلوته.

قال[1]: (**الدرجة الثانية: أن لا ينقُضَ إرادتَه سببٌ، ولا يوحش قلبَه عارضٌ، ولا يقطع عليه الطريق فتنةٌ**).

هذه ثلاثة أمورٍ أخرىٰ تَعرِض لصاحب الإرادة: سببٌ يعرض له ينقض عزمه وإرادته، ووحشةٌ تعرض له في طريق طلبه ولا سيَّما عند تفرُّده، وفتنةٌ تخرج عليه تقصد قطع الطريق عليه.

فإذا تمكَّن من منزل الإخبات اندفعت عنه هذه الآفات، لأنَّ إرادته إذا قويت وجَدَّ به السيرُ لم ينقضها سببٌ من أسباب التخلُّف. والنقض هو الرُّجوع عن إرادته والعدول عن جهة سفره.

ولا يوحش أُنسَه بالله في طريقه عارضٌ من العوارض الشواغل للقلب والجواذب عمَّن هو متوجِّه إليه. والعارض هو المخالف، كالشيء الذي يعترضك في طريقك فيجيء في عرضها. ومِن أقوىٰ هذه العوارض عارض وحشة التفرُّد، فلا يلتفِتْ إليه، كما قال بعض الصادقين: انفرادك في طريق طلبك دليلٌ علىٰ صدق الطلب. وقال آخر: لا تستوحش في طريق الحق من قلَّة السالكين، ولا تغتَرَّ في الباطل بكثرة الهالكين.

وأمَّا (**الفتنة التي تقطع عليه الطريق**)، فهي الواردات التي ترد علىٰ القلوب،

---

(١) «المنازل» (ص٢٢).

تمنعها من مطالعة الحقِّ وقصده. فإذا تمكَّن من منزل الإخبات وصحَّة الإرادة والطلب لم يطمع فيه عارض الفتنة.

وهذه العزائم لا تصحُّ إلّا لمن أشرقت علىٰ قلبه أنوار آثار الأسماء والصِّفات، وتجلَّت عليه معانيها، وكافَحَ قلبُه حقيقة اليقين بها.

وقد قيل: من أخذ العلم من عين العلم ثبت، ومَن أخذه من جَرَيانه أخذَتْه أمواجُ الشُّبه ومالت به العبارات واختلفت عليه الأقوال.

قال[1]: **(الدرجة الثالثة: أن يستوي عنده المدح والذمُّ، وتدوم لائمته لنفسه، ويعمىٰ عن نقصان الخلق عن درجته).**

متىٰ استقرَّت قدمُ العبد في منزلة الإخبات وتمكَّن فيها ارتفعت همَّته وعَلَتْ نفسه عن خطفات المدح والذّمِّ، فلا يفرح بمدح الناس ولا يحزن لذمِّهم. هذا وصف من خرج عن حظِّ نفسه وتأهَّل للفناء في عبوديَّة ربِّه، وصار قلبه مَطْرحًا لأشعَّة أنوار الأسماء والصِّفات، وباشر حلاوةُ الإيمان واليقين قلبه.

والوقوفُ عند مدح الناس وذمِّهم علامةُ انقطاع القلب وخُلُوِّه من الله تعالىٰ، وأنّه لم تباشره روحُ محبَّته ومعرفته، ولم يَذُق حلاوة التعلُّق به والطُّمأنينة إليه.

قوله: **(وأن تدوم لائمته لنفسه)** فهو أنَّ صاحب هذا المنزل لا يرضىٰ عن نفسه، وهو مبغضٌ لها متمنٍّ لمفارقتها.

والمراد بالنَّفس عند القوم: ما كان معلولًا من أوصاف العبد، مذمومًا من أخلاقه وأفعاله، سواءٌ كان ذلك كسبيًّا له أو خلقيًّا؛ فهو شديد اللّائمة لها. وهذا أحد التأويلين في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾[القيامة: ٢]، قال سعيد بن جبيرٍ وعكرمة: تلوم علىٰ الخير والشرِّ، ولا تصبر علىٰ السرَّاء ولا علىٰ الضرَّاء.

---

(١) «المنازل» (ص٢٣).

وقال قتادة: اللوَّامة الفاجرة.

وقال مجاهد: تندم علىٰ ما فات وتقول: لو فعلتُ! ولو لم أفعل!

وقال الفرَّاء: ليس من نفسٍ برَّةٍ ولا فاجرةٍ إلا وهي تلوم نفسها، إن كانت عملت خيرًا قالت: هلَّا زدت! وإن عملت شرًّا قالت: ليتني لم أفعل!

وقال الحسن: هي النفس المؤمنة؛ إنَّ المؤمن واللهِ ما تراه إلَّا يلوم نفسه: ما أردت بكلامي؟ ما أردت بأَكْلَتي؟ وإنَّ الفاجر يمضي قُدُمًا قُدُمًا ولا يحاسب نفسه ولا يعاتبها[(١)].

وقال مقاتلٌ[(٢)]: هي النفس الكافرة، تلوم نفسها في الآخرة علىٰ ما فرَّطت في أمر الله في الدنيا.

والقصد: أنَّ من بذل نفسه لله بصدقٍ كره بقاءه معها، لأنَّه يريد أن يتقبَّلها من بُذلت له، لأنَّه قد قرَّبها له قربانًا. ومن قرَّب قربانًا فتُقبِّل منه ليس كمن رُدَّ عليه قربانه، فبقاء نفسه معه دليلٌ أنَّه لم يتقبَّل قربانه.

وأيضًا، فإنَّه من قواعد القوم المجمَع عليها بينهم، التي اتَّفقت كلمة أوَّلهم وآخرهم ومُحقِّهم ومبطلهم عليها: أن النفس حجابٌ بين العبد وبين الله تعالىٰ، وأنه لا يصل إلىٰ الله تعالىٰ حتَّىٰ يقطع هذا الحجاب، كما قال أبو يزيدٍ رحمه الله: رأيت ربَّ العزَّة في المنام فقلت: يا ربِّ كيف الطريق إليك؟ فقال: خلِّ نفسَك وتعال[(٣)].

فالنفس جبل عظيم شاقٌّ في طريق السير إلىٰ الله، وكلُّ سائرٍ فلا طريق له إلا علىٰ ذلك الجبل، فلابدَّ أن ينتهي إليه. وأكثر السائرين منه رجعوا علىٰ أعقابهم

---

(١) الأقوال كلها من «معالم التنزيل» (٨/ ٢٧٩-٢٨٠).

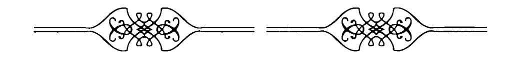
(٢) مقاتل بن سليمان البلخي، في «تفسيره» (٣/ ٤٢١).

(٣) «القشيرية» (ص٧٥٧).

لمَّا عجزوا عن قطعه واقتحام عقبته. والشيطان علىٰ قُلَّة الجبل يحذِّر النَّاس من صعوده وارتقائه ويخوِّفهم منه، فتتَّفق مشقَّة ذلك الجبل وقعودُ ذلك المخوِّف علىٰ قلَّته وضعفُ عزيمة السائر ونيته، فيتولَّد من ذلك الانقطاع والرُّجوع، والمعصوم من عصمه الله.

وكلَّما رقي السائرُ في ذلك الجبل اشتدَّ به صياح القاطع وتحذيره وتخويفه، فإذا قطعه وبلغ قلَّته «فإذا المخاوف كلُّهن أمانُ»[(١)]. وحينئذٍ يُسْهِل[(٢)] وتزول عنه عوارض الطريق ومشقَّةُ عِقابها، ويرىٰ طريقًا واسعًا آمنًا، به المنازلُ والمناهل، وعليه الأعلام، وفيه الإقامات، وفيه يَزَكُ الرحمن[(٣)].

فبين العبد وبين السعادة والفلاح قوةُ عزيمةٍ، وصبرُ ساعةٍ، وشجاعةُ نفسٍ، وثباتُ قلب، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.



(١) عجز بيتٍ للقاضي الفاضل البيساني، وهو:

إذا السعادة لاحظتْك عيونُها ... نم فالمخاوف كلُّهن أمانُ

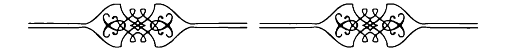
انظر: «وفيات الأعيان» (٣/ ١٦١)، و«الدر الفريد» (١٠/ ٣٠).

(٢) أي: ينزل في أرض سهلة، بعد أن كان يرتقي في مكان حَزْنٍ وَعِرٍ.

(٣) أي: جند الرحمن يحرسون الطريق.

فصل

قوله: (**ويعمىٰ عن نقصان الخلق عن درجته**) يعني أنَّه وإن كان أعلىٰ ممَّن دونه من الناقصين عن درجته، إلَّا أنَّه لاشتغاله بالله وامتلاء قلبه من محبَّته ومعرفته والإقبال عليه= يشتغل عن ملاحظة حال غيره، وعن شهود النِّسبة بين حاله وأحوال الناس، ويرىٰ اشتغاله بذلك والتفاته إليه نزولًا عن مقامه وانحطاطًا عن درجته ورجوعًا علىٰ عقبه. فإن هجم عليه ذلك بغير استدعاءٍ واختيارٍ فليُداوِه بشهود المنَّة وخوف المكر وعدم علمه بالعاقبة التي يوافي عليها. والله المستعان.



٢/ ٢١٨

فصل

منزلة الزهد

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة الزُّهد**. قال الله تعالىٰ: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾[النحل: ٩٦].

وقال تعالىٰ: ﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[الحديد: ٢٠].

وقال: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[يونس: ٢٤].

وقال: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ۝٤٥ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[الكهف: ٤٥- ٤٦].

وقال: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾[النساء: ٧٧].

وقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[طه: ١٣١].

وقال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾[الأعلى: ١٦].

وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾[الكهف: ٧- ٨].

وقال: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٥].

والقرآن مملوءٌ من التزهيد في الدُّنيا والإخبار بخسَّتها وقلَّتها وانقطاعها وسرعة فنائها، والتَّرغيبِ في الآخرة والإخبار بشرفها ودوامها وسرعة إقبالها.

فإذا أراد الله بعبدٍ خيرًا أقام في قلبه شاهدًا يعاين به حقيقة الدُّنيا والآخرة، ويؤثر منهما ما هو أولىٰ بالإيثار.

وقد أكثر الناس في الكلام في الزُّهد، وكلٌّ أشار إلىٰ ذوقه ونَطَق عن حاله وشاهده، فإنَّ غالب عبارات القوم عن أذواقهم وأحوالهم. والكلام بلسان العلم أوسعُ من الكلام بلسان الذوقِ وأقربُ إلىٰ الحجة والبرهان.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدَّس الله روحه يقول: الزُّهد ترك ما لا ينفع في الآخرة، والورع ترك ما يُخاف ضرره في الآخرة[١]. وهذه العبارة من أحسن ما قيل في الزُّهد والورع وأجمعها.

وقال سفيان الثوريُّ: الزُّهد في الدُّنيا قصر الأمل؛ ليس بأكل الغليظ، ولا لبس العباء[٢].

وقال الجنيد: سمعت سَريًّا يقول: إنّ الله تعالىٰ سلب الدُّنيا عن أوليائه، وحماها عن أصفيائه، وأخرجها من قلوب أهل وداده، لأنَّه لم يرضَها لهم[٣].

وقيل: الزُّهد في قوله تعالىٰ: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٠/ ٦١٥).
(٢) رواه وكيع في «الزهد» (٦).
(٣) أسنده البيهقي في «الزهد الكبير» (٦١).

تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾[الحديد: ٢٣]، فالزاهد لا يفرح من الدُّنيا بموجودٍ، ولا يأسف منها علىٰ مفقودٍ[(١)].

وقال يحيىٰ بن معاذٍ: الزُّهد يورث السخاء بالملك، والحبُّ يورث السّخاء بالرُّوح[(٢)].

وقال ابنُ الجَلَّاء: الزُّهد هو النظر إلىٰ الدُّنيا بعين الزوال لتصغر في عينك، فيسهل عليك الإعراض عنها[(٣)].

وقيل: هو عزوف القلب عن الدُّنيا بلا تكلُّفٍ.

وقال الجنيد: الزُّهد خلوُّ القلب عمَّا خلت منه اليد[(٤)].

وقال الإمام أحمد: الزُّهد في الدُّنيا قصر الأمل[(٥)].

وعنه روايةٌ ثانية أنَّه عدم فرحه بإقبالها وحزنه علىٰ إدبارها، فإنَّه سئل عن الرجل يكون معه ألف دينارٍ هل يكون زاهدًا؟ فقال: نعم، علىٰ شريطة أن لا يفرح إذا زادت ولا يحزن إذا نقصت[(٦)].

وقال عبد الله بن المبارك: هو الثِّقة بالله مع حبِّ الفقر[(٧)].

وقال عبد الواحد بن زيدٍ: ترك الدينار والدِّرهم[(٨)].

وقال أبو سليمان الداراني: ترك ما يَشْغَل عن الله. وهو قول الشِّبليِّ[(٩)].

---

(١) ذكره القشيري (ص٣٣٤).
(٢) ذكره القشيري (ص٣٣٥).
(٣) ذكره القشيري (ص٣٣٥).
(٤) ذكره القشيري (ص٣٣٥).
(٥) ذكره القشيري (ص٣٣٦).
(٦) انظر: «طبقات الحنابلة» (٣/ ٢٦)
(٧) ذكره القشيري (ص٣٣٦)، وأسنده البيهقي في «الزهد الكبير» (٧٣).
(٨) ذكره القشيري (ص٣٣٦).
(٩) ذكره عنهما القشيري (ص٣٣٦، ٣٣٧).

وسأل رُويمُ الجنيدَ عن الزُّهد؟ فقال: استصغار الدُّنيا، ومحو آثارها من القلب[(١)]. وقال مرَّةً: هو خلوٌّ اليد عن الملك، والقلب عن التَّتبُّع[(٢)].

وقال يحيىٰ بن معاذٍ: لا يبلغ أحدٌ حقيقة الزُّهد حتَّىٰ يكون فيه ثلاث خصالٍ: عملٌ بلا علاقة، وقول بلا طمع، وعزٌّ بلا رياسة.

وقيل: حقيقة الزهد هو الزُّهد في النفس. وهذا قول ذي النُّون المصريِّ.

وقيل: الزُّهد: الإيثار عند الاستغناء، والفتوَّة: الإيثار عند الحاجة. قال الله تعالىٰ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[الحشر: ٩][(٣)].

وقال رجلٌ ليحيىٰ بن معاذٍ: متىٰ أدخل حانوتَ التوكُّل وألبس رداء الزاهدين وأقعد معهم؟ فقال: إذا صرتَ من رياضتك لنفسك إلىٰ حدٍّ لو قطع الله الرِّزق عنك ثلاثة أيام لم تَضعُف نفسُك، فأمَّا ما لم تبلغ إلىٰ هذه الدرجة فجلوسك علىٰ بساط الزاهدين جهلٌ، ثمَّ لا آمَنُ أن تفتضح[(٤)].

وقد قال الإمام أحمد بن حنبلٍ رحمه الله: الزُّهد علىٰ ثلاثة أوجهٍ: ترك الحرام، وهو زهد العوامِّ. والثاني: ترك الفضول من الحلال، وهو زهد الخواصِّ. والثالث: ترك ما يَشْغَل عن الله، وهو زهد العارفين[(٥)].

وهذا الكلام من الإمام أحمد يأتي علىٰ جميع ما تقدَّم من كلام المشايخ رضي الله عنهم، مع زيادة تفصيله وتبيين درجاته. وهو من أجمع الكلام، وهو يدلُّ علىٰ أنَّه رضي الله عنه من هذا العلم بالمحلِّ الأعلىٰ. وقد شهد له الشافعيّ بإمامته في ثمانية أشياءَ أحدها الزُّهد[(٦)].

(١) أسنده البيهقي في «الزهد الكبير» (٢٠).
(٢) ذكره القشيري (ص٣٣٧)، وأسنده البيهقي في «الزهد» (١٩) بنحوه.
(٣) ذكرهما القشيري (ص٣٣٧).
(٤) ذكره القشيري (ص٣٣٨).
(٥) ذكره القشيري (ص٣٣٨).
(٦) والسبعة الأخرىٰ: الحديث، والفقه، واللغة، والقرآن، والفقر، والورع، والسنة. انظر:=

والذي أجمع عليه العارفون أن الزُّهد سفر القلب من وطن الدُّنيا وأَخْذُه في منازل الآخرة. وعلىٰ هذا صنَّف المتقدِّمون كتب الزُّهد. كـ«الزُّهد» لعبد الله بن المبارك، وللإمام أحمد، ولوكيع، ولهنَّاد بن السَّرِيّ، ولغيرهم.

ومتعلَّقه ستَّة أشياء، لا يستحقُّ العبد اسم الزهد حتَّىٰ يزهد فيها، وهي: المال، والصُّور، والرِّياسة، والناس، والنفس، وكلُّ ما دون الله. وليس المراد رَفْضَها من الملك. فقد كان سليمان وداود عليهما السلام من أزهد أهل زمانهما، ولهما من المال والنِّساء والملك ما لهما. وكان نبيُّنا ﷺ أزهد البشر علىٰ الإطلاق وله تسع نسوةٍ. وكان علي بن أبي طالبٍ وعبد الرحمن بن عوفٍ والزُّبير وعثمان من الزُّهَّاد مع ما لهم من الأموال. وكان الحسن بن عليٍّ رضي الله عنهما من الزهاد مع أنَّه كان من أكثر الأمَّة محبةً للنِّساء ونكاحًا لهنَّ وأغناهم. وكان عبد الله بن المبارك من أئمة الزُّهَّاد مع مالٍ كثيرٍ. وكذلك اللَّيث بن سعدٍ وسفيان من أئمَّة الزهَّاد، وكان له رأس مالٍ؛ يقول[1]: لولا هو لتَمَنْدَلَ بنا هؤلاء.

ومن أحسن ما قيل في الزُّهد كلامُ الحسن أو غيره[2]: «ليس الزُّهد في الدُّنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، ولكن أن تكون بما في يد الله أوثَقَ منك بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أُصبتَ بها أرغبَ منك فيها لو لم تُصِبْك». فهذا من أجمع كلامٍ في الزُّهد وأحسنه، وقد روي مرفوعًا.

=«طبقات الحنابلة» لابن أبي يعلىٰ (١/ ١٠).

(١) أي: سفيان الثوري، وقد أسنده عنه ابن أبي الدنيا في «إصلاح المال» (٦٨).

(٢) إنما هو قول التابعي المخضرم الزاهد أبي مسلم الخَولاني، أسنده عنه الإمام أحمد في «الزهد» (ص٢٥) بإسناد صحيح، وقد روي مرفوعًا عند الترمذي (٢٣٤٠)، وابن ماجه (٤١٠٠)، ولكن إسناده واهٍ بمرة.

فصل

هل الزهد ممكن في هذه الأزمنة؟

وقد اختلف الناس في الزُّهد هل هو ممكن في هذه الأزمنة؟

فقال أبو حفص[1]: الزُّهد لا يكون إلا في الحلال، ولا حلال في الدُّنيا، فلا زهد.

وخالفه الناسُ في هذا وقالوا: بل الحلال موجودٌ فيها، وفيها الحرام كثيرًا. وعلىٰ تقدير أن لا يكون فيها الحلال، فهذا أَدْعىٰ إلىٰ الزُّهد فيها وتناولِ ما يتناوله المضطرُّ منها، كتناوله للميتة والدم ولحم الخنزير.

ثمّ اختلف هؤلاء في متعلَّق الزُّهد، فقالت طائفة: الزُّهد إنما هو في الحلال، لأنَّ ترك الحرام فريضة.

وقالت فرقةٌ: بل الزُّهد لا يكون إلا في الحرام، وأمَّا الحلال فنعمةٌ من الله علىٰ عبده، والله يحبُّ أن يرىٰ أثر نعمته علىٰ عبده؛ فشُكره علىٰ نعمه، والاستعانةُ بها علىٰ طاعته، واتِّخاذُها طريقًا إلىٰ جنَّته= أفضل من الزُّهد فيها، والتخلِّي عنها، ومجانبة أسبابها.

والتحقيق: أنَّها إن شغَلَتْه عن الله فالزُّهد فيها أفضل. وإن لم تَشْغَله عن الله بل كان شاكرًا لله فيها فحاله أفضل، والزُّهد فيها يَحْرُس القلب عن التعلُّق بها والطُّمأنينة إليها.

---

(١) النيسابوري الحدَّاد. وقوله في «القشيرية» (ص٣٣٧).

فصل

الزهد هو عدم الرغبة فيما سوىٰ الله بالكية

قال صاحب «المنازل»[1]: **(الزُّهد هو إسقاط الرغبة عن الشيء بالكلِّيَّة)**.

يريد بالشَّيء المزهود فيه: ما سوىٰ الله تعالىٰ، والإسقاط عنه: إزالة تعلُّق الرَّغبة به.

وقوله: (**بالكلِّيَّة**)، أي بحيث لا يلتفت إليه ولا يتشوَّف إليه.

قال[2]: **(وهو للعامَّة قربة، وللمريد ضرورة، وللخاصَّة خشية)**.

يعني: أنَّ العامَّة تتقرَّب به إلىٰ الله تعالىٰ. والقربة: ما تقرَّب به المتقرِّبُ إلىٰ محبوبه.

وهو ضرورةٌ للمريد لأنَّه لا يحصل له التخلِّي بما هو بصدده إلَّا بإسقاط الرغبة فيما سوىٰ مطلوبه، فهو مضطرٌّ إلىٰ الزهد كضرورته إلىٰ الطعام والشراب، إذ التعلُّق بسوىٰ مطلوبه لا يعدم منه حجابًا أو وقفةً أو نكسةً علىٰ حسب بُعد ذلك الشيء من مطلوبه، وقوَّةِ تعلُّقه به وضعفه.

وإنّما كان خشيةً للخاصَّة لأنَّهم يخافون علىٰ ما حصل لهم من القرب والأنس بالله وقرَّةِ عيونهم به أن يتكدَّر عليهم صفوُه بالتفاتهم إلىٰ ما سوىٰ الله تعالىٰ، فزهدهم خشيةٌ وخوف.

قال[3]: **(وهو علىٰ ثلاث درجاتٍ. الدرجة الأولىٰ: الزُّهد في الشُّبهة بعد ترك الحرام، بالحذر من المَعْتَبة، والأنفة من المَنْقَصة، وكراهة مشاركة الفسَّاق)**.

(١) (ص٢٣).
(٢) «المنازل» (ص٢٣).
(٣) «المنازل» (ص٢٣).

أمَّا الزهد في الشُّبهة فهو ترك ما يشتبه على العبد هل هو حلالٌ أو حرامٌ؟ كما في حديث النُّعمان بن بشيرٍ عن النبيِّ ﷺ: «**الحلال بيِّنٌ والحرام بيِّن، وبين ذلك أمورٌ متشابهات لا يعلمهنَّ كثيرٌ من النَّاس، فمن اتَّقى الشُّبهات اتَّقى الحرام، ومن وقع في الشُّبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإنَّ لكلِّ ملكٍ حمى، ألا وإنَّ حمى الله محارمه. ألا وإنَّ في الجسد مضغةً إذا صَلَحت صَلَح لها سائرُ الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب**»[1].

فالشُّبهات برزخٌ بين الحلال والحرام. وقد جعل الله بين كلِّ متباينين برزخًا، كما جعل الموت وما بعده برزخًا بين الدُّنيا والآخرة، وجعل المعاصي برزخًا بين الإيمان والكفر، وجعل الأعراف برزخًا بين الجنَّة والنار.

وكذلك جعل بين كلِّ مَشْعرَين من مشاعر المناسك برزخًا حاجزًا بينهما ليس من هذا ولا من هذا، فمحسِّرٌ برزخٌ بين منًى ومزدلفة، ليس من واحدٍ منهما، فلا يبيت به الحاجُّ ليلة جمعٍ ولا ليالي منًى. وبطنُ عُرَنة برزخٌ بين عرفة وبين الحرم، فليس من الحرم ولا من عرفة.

وكذلك ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس برزخ بين الليل والنهار، فليس من اللَّيل لتصرُّمه بطلوع الفجر، ولا من النهار لأنه من طلوع الشمس، وإن دخل في اسم اليوم شرعًا.

وكذلك منازل السير، بين كلِّ منزلتين منها برزخٌ يعرفه السائر في تلك المنازل. وكثيرٌ من الأحوال والواردات تكون برازخ، فيظنُّها صاحبها غايةً، وهذا لم يتخلَّص منه إلا فقهاءُ الطريقِ والعلماءُ الأدلَّةُ فيها.

وقوله: (**بعد ترك الحرام**) أي: تركُ الشبهة لا يكون إلَّا بعد ترك الحرام.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩)، بنحوه.

قولـه: **(بالحـذر مـن المَعْتَبَـة)** يعنـي: أن يكـون سـبب تركـه للشُّـبهة الحـذر مـن توجُّـه عتـب الله عليـه.

وقولـه: **(والأنفـة مـن النقيصـة)** أي: يأنـف لنفسـه مِـن نقصـه عنـد ربِّـه وسـقوطه مـن عينـه، إلا أن أنفتَـه مـن نقصـه عنـد النَّـاس وسـقوطِه مـن عيونهـم وإن كان ذلـك ليس مذمومًـا محمـودٌ أيضًـا، ولكـنَّ المذمـوم أن تكـون أنفتـه كلُّهـا مـن ذلـك.

وقولـه: **(وكراهـة مشـاركة الفسَّـاق)** يعنـي: أنَّ الفسَّـاق يزدحمـون علىٰ مواضـع الرغبـة في الدُّنيـا، ولتلـك المواقـف كظيـظٌ من الزِّحـام، فالزاهد يأنف من مشـاركتهم في تلـك المواقـف ويرفع نفسـه عنها لخسَّـة شـركائه فيها، كما قيـل لبعضهـم: ما الذي زهَّـدك في الدُّنيـا؟ قـال: قلَّةُ وفائها، وكثرة جفائها، وخسَّـة شـركائها.

قـال[1]: **(الدرجـة الثانيـة: الزُّهـد في الفضـول، وهو مـا زاد علىٰ المُسـكة والبلاغ مـن القـوت، باغتنـام التفـرُّغ إلىٰ عمـارة الوقـت، وحسـمِ الجـأش، والتحلِّي بحليـة الأنبيـاء والصدِّيقيـن)**.

والفضـول: مـا يَفضُـل عـن قـدر الحاجـة. والمُسـكة: مـا يمسـك النَّفْسَ مـن القُـوت والشـراب واللِّبـاس والمسـكن والمنكـح إذا احتـاج إليه. والبلاغ: هـو البُلغة مـن ذلـك الـذي يتبلَّـغ بـه في منـازل السـفر، كـزاد المسـافر. فيزهـد فيمـا وراء ذلـك اغتنامًـا لتفرُّغـه لعمـارة وقتـه.

ولـمَّـا كان الزُّهـد لأهـل الدرجـة الأولىٰ خوفًـا من المعتبـة وحذرًا مـن المنقصة كان الزُّهـد لأهـل هـذه الدرجـة أعلىٰ وأرفـع. وهـو اغتنـام الفـراغ لعمـارة أوقاتهـم مـع الله تعالـىٰ، لأنَّـه إذا اشـتغل بفضـول الدُّنيـا فاتـه نصيبُـه مـن انتهـاز فرصـة الوقـت؛ فالوقـت سـيفٌ إن لـم تقطعـه قطعـك.

(١) «المنازل» (ص٢٣).

و(عمارة الوقت): الاشتغال في جميع آنائه بما يقرِّب إلىٰ الله تعالىٰ، أو يعين علىٰ ذلك من مأكلٍ أو مشربٍ أو منكحٍ أو منامٍ أو راحة، فإنَّه متىٰ أخذها بنيَّة القوَّة علىٰ ما يحبُّه الله وتجنُّبِ ما يسخطه كانت من عمارة الوقت وإن كان له فيها أتمُّ لذَّة؛ فلا تحسَبْ عمارةَ الوقت بهجر اللذَّات والطيِّبات.

فالمحبُّ الصادق ربَّما كان سيرُه القلبيُّ في حال أكله وشربه وجماع أهله وراحته أقوىٰ من سيره البدني في بعض الأحيان. ولقد حُكي عن بعضهم أنّه كان يَرِد عليه وهو علىٰ بطن امرأته حالٌ لا يعهدها في غيرها. ولهذا سببٌ صحيح، وهو اجتماع قوىٰ النفس وعدمُ التفاتها حينئذٍ إلىٰ شيءٍ، مع ما يحصل لها من السُّرور والفرحِ واللذة، والسُّرورُ يذكِّر بالسُّرور، واللذَّة تذكِّر باللّذّة، فتنهض الرُّوح من تلك الفرحة واللذَّة إلىٰ ما لا نسبةَ بينها وبينها بتلك الجمعيَّة والقوَّة والنشاط وقطعِ أسباب الالتفات، فيورثه ذلك حالًا عجيبةً.

ولا تعجل بالإنكار، وانظر إلىٰ قلبك عند هجوم أعظم محبوبٍ له عليه في هذه الحال، كيف تراه؟ فهكذا حال غيرك. ولا ريب أنَّ النفس إذا نالت حظًّا صالحًا من الدُّنيا قويت به وسرَّت، واستجمعَتْ قُواها وجمعيَّتها، وزال تشتُّتُها.

اللهم غَفرًا، فقد طغىٰ القلم وزاد الكلم، فعياذًا بك من مقتك.

وأمَّا (**حسم الجأش**)، فهو اضطراب القلب بالتعلُّق بأسباب الدُّنيا رغبةً ورهبةً وحبًّا وبغضًا وسعيًا، فلا يصحُّ الزهدُ للعبد حتَّىٰ يقطع هذا الاضطراب من قلبه بأن لا يلتفت إليها، ولا يتعلَّق بها في حالتَي مباشرته لها وتركه، فإنَّ الزُّهد زهدُ القلب لا زهدُ الترك من اليد، فهو تخلِّي القلب عنها لا خلوُّ اليد منها.

وأمَّا (**التحلِّي بحلية الأنبياء والصدِّيقين**)، فإنّهم أهل الزهد في الدُّنيا حقًّا، إذ هم مشمِّرون إلىٰ عَلَمٍ قد رفع لهم غيرُها فهم فيها زاهدون، وإن كانوا لها مباشرين.

فصل

من الزهد: الزهد في الزهد

قال[1]: (الدرجة الثالثة: الزُّهد في الزُّهد. وهو بثلاثة أشياء: باستحقار ما زهدتَ فيه، واستواء الحالات فيه عندك، والذهاب عن شهود الاكتساب ناظرًا إلىٰ وادي الحقائق).

قد فسَّر الشيخ مراده بالزُّهد في الزُّهد بثلاثة أشياء:

أحدها: احتقاره ما زهد فيه، فإنَّ من امتلأ قلبه بمحبَّة الله وتعظيمه لا يرىٰ أنَّ ما تركه لأجله من الدُّنيا يستحقُّ أن يُجعل قربانًا، لأنَّ الدُّنيا بحذافيرها لا تساوي عند الله جناحَ بعوضة، فالعارف لا يرىٰ زهدَه فيها كبيرَ أمرٍ يعتدُّ به ويحتفل به، فيستحيي مَن صحَّ له الزُّهد أن يَجعل لِما تركه اللهُ قدرًا يلاحظ زُهدَه فيه، بل يفنىٰ عن زهده فيه كما فني عنه، ويستحيي من ذكره بلسانه وشهوده بقلبه.

وأمَّا (**استواء الحالات فيه عنده**)، فهو أن يرىٰ أنَّ ترك ما زهد فيه وأَخْذَه متساويان عنده. إذ ليس له عنده قدر. وهذا من دقائق فقه الزُّهد، فيكون زاهدًا في حال أخذه، كما هو زاهدٌ في حال تركه، إذ هِمَّته أعلىٰ من ملاحظته أخذًا وتركًا لِصغره في عينه.

وأمَّا (**الذهاب عن شهود الاكتساب**)، فمعناه أنَّ من استصغر الدُّنيا بقلبه واستوت الحالات في أخذها وتركها عنده لم يَرَ أنَّه اكتسب بتركها عند الله درجةً البتَّة، لأنها أصغر في عينه من أن يرىٰ أنَّه اكتسب بتركها الدرجات.

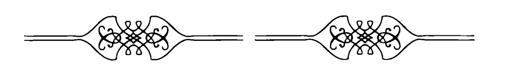
وفيه معنًىٰ آخر: وهو أن يشاهد تفرُّد الله ﷻ بالعطاء والمنع، فلا يرىٰ أنه ترك شيئًا ولا أخذ شيئًا، بل اللهُ وحده هو المعطي المانع، فما أخذه فهو مَجرًىٰ

(١) «المنازل» (ص٢٤).

لعطاء الله إيَّاه كمجرىٰ الماء في النهر، وما تركه لله فالله هو الذي منعه منه، فيذهب بمشاهدة الفعَّال وحدَه عن شهود كسبه وتركه، فإذا نظر الأشياء بعين الجمع وسلَكَ في وادي الحقيقة غاب عن شهود اكتسابه، وهو معنىٰ قوله: (**ناظرًا إلىٰ وادي الحقائق**). وهذا أليق المعنيين بكلامه.

فهذا زهد الخاصَّة. قال الشاعر[1]:

إذا زهَّدَتْني في الهوىٰ خشية الرَّدىٰ جَلَتْ ليَ عن وجهٍ يزهِّد في الزُّهدِ



(١) البيت لأبي تمام في «ديوانه مع شرح التبريزي» (٢/ ٦٢).

٢/ ٢٣٤

فصل

منزلة الورع

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة الورع**.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[المدثر: ٤]، قال مجاهدٌ وقتادة: نفسك فطهِّر من الذنب. فكنىٰ عن النفس بالثوب. وهذا قول إبراهيم، والضحَّاك، والشعبي، والزُّهري، والمحقِّقين من أهل التفسير.

قال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: لا تلبسها علىٰ معصيةٍ ولا غدرٍ، ثمَّ قال: أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي:

وإنِّي بحمد الله لا ثوبَ غادرٍ لبستُ ولا من غدرةٍ أتقنَّعُ

والعرب تقول في وصف الرجل بالصِّدق والوفاء: طاهر الثِّياب، وتقول للغادر والفاجر: دَنِسُ الثِّياب.

وقال أبيُّ بن كعبٍ رضي الله عنه: لا تلبسها علىٰ غدرٍ ولا ظلمٍ ولا إثم، البَسْها وأنت برٌّ طاهر.

وقال الضحَّاك: عملَك فأصلح. قال السُّدِّي: يقال للرجل إذا كان صالحًا: إنه لطاهر الثِّياب، وإذا كان فاجرًا: إنه لخبيث الثِّياب.

وقال سعيد بن جبير: وقلبك ونيتك فطهِّر. وقال الحسن والقرظيُّ: وخُلُقَك فحسِّن.

وقال ابن سيرين وابن زيدٍ: أمر بتطهير الثِّياب من النجاسات التي لا تجوز الصلاة معها، لأنَّ المشركين كانوا لا يتطهَّرون ولا يُطهِّرون ثيابهم. وقال طاوس: وثيابك فقصِّر[1]، لأنَّ تقصير الثِّياب طُهرة لها[2].

---

(١) المراد بالتقصير هنا: تحوير الثياب وتبييضها، وذلك بدقِّها بالقَصَرة، وهي قطعة من الخشب.

(٢) الأقوال السابقة كلها من «تفسير البغوي» (٨/ ٢٦٤-٢٦٥).

والقول الأوَّل أصحُّ الأقوال.

ولا ريب أنَّ تطهيرها من النجاسات وتقصيرَها من جملة التطهير المأمور به، إذ به تمام إصلاح الأعمال والأخلاق، لأنَّ نجاسة الظاهر تورث نجاسة الباطن، ولذلك أُمر القائم بين يدي الله بإزالتها والبعد عنها.

والمقصود: أنَّ الورع يطهِّر دنس القلب ونجاسته، كما يطهِّر الماء دنس الثوب ونجاسته. وبين الثِّياب والقلوب مناسبةٌ ظاهرةٌ وباطنةٌ، ولذلك تدلُّ ثياب المرء في المنام علىٰ قلبه وحاله. ويؤثِّر كلٌّ منهما في الآخر، ولهذا نُهي عن لباس الحرير والذهب وجلود السِّباع لِما تؤثِّر في القلب من الهيئة المنافية للعبوديَّة والخشوع. وتأثير القلب والنفس في الثياب أمرٌ خفيٌّ يعرفه أهل البصائر من نظافتها ودنسها ورائحتها وبهجتها وكَسْفتها، حتىٰ إنَّ ثوب البَرِّ ليُعرَف من ثوب الفاجر وليسا عليهما.

وقد جمع النبيُّ ﷺ الورع كلَّه في كلمةٍ واحدةٍ فقال: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»[١]، فهذا يعمُّ الترك لِما لا يعني من الكلام والنظر والاستماع، والبطش والمشي والفكر، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة؛ فهذه الكلمة شافيةٌ في الورع.

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: الورع ترك كلِّ شبهةٍ، وترك ما لا يعنيك هو ترك الفضلات[٢].

وفي «الترمذي»[٣] مرفوعًا إلىٰ النبيِّ ﷺ: «**يا أبا هريرة كن ورعًا، تكن أعبد الناس**».

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٧، ٢٣١٨)، وابن ماجه (٣٩٧٦)، وأعلّه الترمذي، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٤/ ٢٢٠)، والدارقطني في «العلل» (١٣٨٩، ٣١٠).

(٢) «القشيرية» (ص٣٢٥).

(٣) برقم (٢٣٠٥)، واللفظ المذكور لابن ماجه (٤٢١٧)، وقال الدارقطني في «العلل» (١٣٣٩): إنه غير ثابت.

قال الشِّبليّ رحمه الله: الورع أن تتورَّع عن كلِّ ما سوىٰ الله[١].

وقال إسحاق بن خلفٍ: الورع في المنطق أشدُّ منه في الذهب والفضَّة، والزُّهد في الرِّياسة أشدُّ منه في الذهب والفضَّة، لأنّهما يُبذَلان في طلب الرِّياسة[٢].

وقال أبو سليمان الداراني: الورع أوَّل الزُّهد، كما أنَّ القناعة أوَّل الرِّضا[٣].

وقال يحيىٰ بن معاذ: الورع الوقوف علىٰ حدِّ العلم من غير تأويلٍ. وقال: الورع علىٰ وجهين: ورعٌ في الظاهر أن لا يتحرَّك إلَّا لله، وورعٌ في الباطن وهو أن لا يدخل قلبك سواه. وقال: من لم ينظر في الدقيق من الورع لم يصل إلىٰ الجليل من العطاء[٤].

وقيل: من دقَّ في الدين ورعُه جلَّ في القيامة خَطَرُه[٥].

وقال يونس بن عبيدٍ: الورع الخروج من كلِّ شبهة، ومحاسبة النّفس مع كلِّ طرفة[٦].

وقال سفيان الثوريُّ: ما رأيتُ أسهل من الورع، ما حاك في نفسك تركته[٧].

وقال سهلٌ: الحلال: الذي لا يعصىٰ الله فيه، والصافي منه: الذي لا ينسىٰ الله فيه[٨].

---

(١) أسنده البيهقي في «الزهد الكبير» (٨٥٧)، والقشيري (ص٣٢٦).
(٢) أسنده البيهقي في «الزهد الكبير» (٨٦١)، والقشيري (ص٣٢٦).
(٣) أسنده ابن أبي الدنيا في «ذم الدنيا» (٣٨٢).
(٤) ذكرهن القشيري (ص٣٢٦-٣٢٧)، وأسند البيهقي الأول والثاني في «الزهد الكبير» (٨٤٨، ٨٥٦).
(٥) خطره: أي قدره ومنزلته، وذكره في «القشيرية» (ص٣٢٧).
(٦) ذكره القشيري (ص٣٢٧)، وأسنده البيهقي في «الزهد الكبير» (٨٤٠، ٨٤٩).
(٧) ذكره القشيري (ص٣٢٧).
(٨) ذكره الطوسي في «اللمع» (ص٤٥-٤٦)، والقشيري (ص٣٢٩).

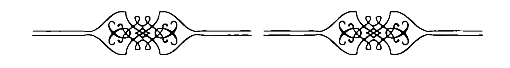
وسأل الحسن غلامًا فقال: ما مِلاك الدِّين؟ قال: الورع. قال: فما آفته؟ قال: الطَّمَع، فعجب الحسن منه[١].

وقال الحسن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: مثقال ذرَّةٍ من الورع خيرٌ من ألف مثقالٍ من الصوم والصلاة[٢].

وقال أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: جلساء الله غدًا أهل الورع والزُّهد[٣].

وقال بعض السَّلف: لا يبلغ العبد حقيقة التقوىٰ حتَّىٰ يدع ما لا بأس به حذرًا ممَّا به بأس[٤].

وقال بعض الصَّحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ: كنَّا ندع سبعين بابًا من الحلال مخافةَ أن نقع في بابٍ من الحرام[٥].



(١) «القشيرية» (ص٣٢٩).
(٢) «القشيرية» (ص٣٢٩).
(٣) «القشيرية» (ص٣٣٠).
(٤) روي بنحوه مرفوعًا إلىٰ النبي ﷺ عند الترمذي (٢٤٥١)، وابن ماجه (٤٢١٥)، وفي إسناده ضعف.
(٥) نسبه في «قوت القلوب» (٢/ ٢٩٦)، و«القشيرية» (ص٣٢٥) إلىٰ أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فصل

الورع ثمرة الخوف

الخوف يثمر الورع والاستقامة وقصر الأمل. وقوَّةُ الإيمان باللِّقاء تثمر الزُّهد. والمعرفة تثمر المحبَّة والخوف والرّجاء. والقناعة تثمر الرِّضاء. والذِّكر يثمر حياة القلب.

والإيمان بالقدر يثمر التّوكُّل. ودوام تأمُّل الأسماء والصِّفات يثمر المعرفة.

والورع يثمر الزُّهد أيضًا. والتوبة تثمر المحبَّة أيضًا، ودوام الذِّكر يثمرها. والرِّضا يثمر الشُّكر. والعزيمة والصبر يثمران جميع الأحوال والمقامات.

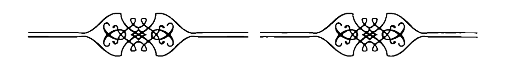
والإخلاص والصِّدق كلٌّ منهما يثمر الآخر ويقتضيه. والمعرفة تثمر حسن الخُلُق. والفكرة تثمر العزيمة. والمراقبة تثمر عمارة الوقت وحفظَ الأيام والحياء والخشية والإنابة.

وإماتة النَّفس وإذلالُها وكسرُها يوجب حياة القلب وعزَّه وجبره. ومعرفة النَّفس ومقتُها يثمر الحياء من الله تعالىٰ، واستكثارَ ما منه، واستقلالَ ما منك من الطاعات، ومحوَ أثر الدعوىٰ من القلب واللِّسان.

وصحَّةُ البصيرة تثمر اليقين. وحسنُ التأمُّل لما ترىٰ وتسمع من الآيات المشهودة والمتلوَّة يثمر صحة البصيرة.

وملاك ذلك كلِّه أمران: أحدهما أن تَنقل قلبك من وطن الدُّنيا فتُسكنه في وطن الآخرة. ثمَّ تُقبل به كلِّه علىٰ معاني القرآن واستجلائها وتدبُّرها، وفهمِ ما يراد منه وما نزل لأجله، وأخذِ نصيبك وحظِّك من كلِّ آيةٍ من آياته وتنزيلها علىٰ أدواء قلبك.

فهذه طريق مختصرة قريبة سهلة موصلة إلىٰ الرفيق الأعلىٰ، آمنةٌ لا يلحق سالكها خوفٌ ولا عطبٌ، ولا فيها آفةٌ من آفات سائر الطرق البتَّة، وعليها من الله حارس وحافظ يكلأ السالكين فيها ويحميهم ويدفع عنهم. ولا يعرف قدر هذه الطريق إلّا من عرف طرق الناس وغوائلها وقطَّاعها. والله المستعان.



٢/ ٢٤٩

فصل

منزلة التبتل

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ **منزلة التبتُّل**. قال الله تعالىٰ: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨].

والتّبتُّل: الانقطاع، وهو (تَفَعُّل) من البَتْل وهو القطع. وسمِّيت مريمُ «البتول» لانقطاعها عن الأزواج وعن نظراء زمانها، ففاقت نساء الزمان شرفًا وفضلًا وقُطعت منهنَّ.

ومصدرُ تبتَّل: «تبتُّلًا» كالتعلُّم والتفهُّم، ولكن جاء علىٰ التفعيل مصدرُ (تفَعَّلَ) لسرٍّ لطيفٍ، فإنَّ في هذا الفعل إيذانًا بالتدريج والتكلُّف والتعمُّل والتكثير والمبالغة؛ فأتىٰ بالفعل الدالِّ علىٰ أحدهما، والمصدر الدالِّ علىٰ الآخر، فكأنه قيل: بتِّلْ نفسك إليه تبتيلًا، وتبتَّلْ أنت إليه تبتُّلًا؛ ففُهم المعنيان من الفعل ومصدره. وهذا كثيرٌ في القرآن، وهو من أحسن الاختصار والإيجاز.

قال صاحب «المنازل» رحمه الله[1]: (**التبتُّل: الانقطاع إلىٰ الله تعالىٰ بالكلِّيَّة. وقوله**: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ [الرعد: ١٤] **أي التجريد المحض**).

ومراده بالتجريد المحض: تجريد التبتُّل عن ملاحظة الأعواض، بحيث لا يكون المتبتِّل كالأجير الذي لا يخدم إلَّا لأجل الأجرة، فإذا أخذها انصرف عن باب المستأجر، بخلاف العبد فإنَّه يخدم سيدَه بمقتضىٰ عبوديَّته لا للأجرة، فهو لا ينصرف عن بابه إلَّا إذا كان آبِقًا. والآبق قد خرج من شرف العبوديَّة ولم يحصل له إطلاق الحرِّيَّة، فصار بذلك موكوسًا[2] عند سيِّده وعند عبيده.

(١) «المنازل» (ص٢٥).
(٢) أي: مغبونًا خاسرًا.

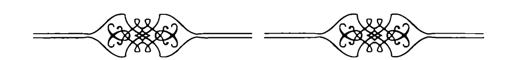
وغاية شرف النفس دخولها تحت رقِّ العبوديّة طوعًا واختيارًا ومحبَّةً، لا كرهًا وقهرًا، كما قيل:

شرف النُّفوس دخولها في رقِّهم والعبد يحوي الفخر بالمتملِّكِ

والذي حسَّن استشهاده بقوله: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ في هذا الموضع إرادةُ هذا المعنىٰ، وأنه سبحانه صاحب دعوة الحقِّ لذاته وصفاته. وإن لم يوجِب لداعيه بها ثوابًا، فإنَّه يستحقُّها لذاته، فهو أهلٌ أن يُعبَد وحده، ويُدعىٰ وحده، ويُقصد ويُشكر ويُحمد، ويُحبَّ ويُرجىٰ ويُخاف، ويُتوكَّل عليه، ويستعان به، ويستجار به، ويلجأ إليه، ويصمد إليه، فتكون الدعوة الإلهيَّة الحقُّ له وحده. ومن قام بقلبه هذا معرفةً وذوقًا وحالًا صحَّ له مقام التبتُّل والتجريد المحض.

وقد فسَّر السلف ﷺ دعوةَ الحقِّ بالتوحيد والإخلاص فيه والصِّدق، ومرادهم هذا المعنىٰ، فقال عليٌّ: دعوة الحق: التّوحيد. وقال ابن عباسٍ: شهادة أن لا إله إلا الله. وقيل: الدُّعاء بالإخلاص، والدُّعاء الخالص لا يكون إلّا لله[1].

ودعوة الحقِّ هي: دعوة الإلهيَّة وحقوقها وتجريدها وإخلاصها.



(١) هذه الأقوال من «معالم التنزيل» (٤/ ٣٠٥).

٢/ ٢٥٩

فصل

منزلة الرجاء

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة الرجاء.**

قال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾[الإسراء: ٥٧]، فابتغاء الوسيلة إليه: طلب القرب منه بالعبودية والمحبَّة، فذكر مقامات الإيمان الثلاثة التي عليها بناؤه: الحبَّ، والخوف، والرَّجاء.

وقال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ﴾[العنكبوت: ٥]. وقال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وفي «صحيح مسلم»[١] عن جابرٍ ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاثٍ: «**لا يموتنَّ أحدكم إلَّا وهو يحسن الظنَّ بربِّه**».

وفي «الصحيح»[٢] عنه ﷺ «**يقول الله ﷻ: أنا عند ظنِّ عبدي بي، فليظنَّ بي ما شاء**».

الرجاءُ حادٍ يحدو القلوب إلىٰ الله والدار الآخرة، ويطيب لها السَّير.

وقيل: هو الاستبشار بوجود فضل الربِّ تعالىٰ، والارتياح لمطالعة كرمه[٣].

وقيل: هو الثقة بجود الربِّ.

---

(١) برقم (٢٨٧٧).
(٢) للبخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥)، من حديث أبي هريرة، وليس فيه قوله: «فليظن بي ما شاء»، وبتمامه أخرجه أحمد (١٦٠١٦)، وإسناده صحيح.
(٣) ذكره في «القشيرية» (٣٦٠)، عن أبي عبد الله بن خفيف.

والفرق بينه وبين التمنِّي: أن التمنِّي يكون مع الكسل، ولا يسلك بصاحبه طريق الجدِّ والاجتهاد، والرجاء يكون مع بذل الجهد وحسن التوكُّل. فالأوَّل كحال من يتمنَّىٰ أن يكون له أرضٌ يَبْذُرها ويأخذ زرعها، والثاني كحال من يشقُّ أرضه ويَفْلَحها ويبذرها ويرجو طلوع الزرع.

ولهذا أجمع العارفون علىٰ أنَّ الرجاء لا يصحُّ إلَّا مع العمل. قال شاهُ الكرماني: علامة صحَّة الرجاء: حسن الطاعة[1].

والرجاء ثلاثة أنواع: نوعان محمودان، ونوعٌ غرور مذموم.

فالأوَّلان: رجاءُ رجلٍ عمل بطاعة الله علىٰ نورٍ من الله فهو راجٍ لثوابه، ورجلٍ أذنب ذنبًا ثمَّ تاب منه فهو راجٍ لمغفرته.

والثالث: رجلٌ مُتَمادٍ في التفريط والخطايا يرجو رحمة الله بلا عملٍ، فهذا هو الغرور والتمنِّي والرجاء الكاذب.

وللسالك نظران: نظر إلىٰ نفسه وعيوبه وآفات عمله، يفتح عليه بابَ الخوف. ونظرٌ إلىٰ سعة فضل ربِّه وكرمه وبرِّه، يفتح عليه بابَ الرّجاء. ولهذا قيل في حدِّ الرجاء: هو النظر إلىٰ سعة رحمة الله.

وقال أبو عليٍّ الرُّوذْباري رحمه الله: الخوف والرجاء كجناحي الطائر، إذا استويا استوىٰ الطير وتمَّ طيرانُه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص، وإذا ذهبا صار الطائر في حدِّ الموت[2].

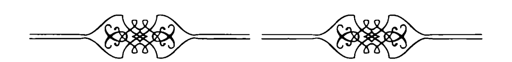
وسئل أحمد بن عاصمٍ: ما علامة الرجاء في العبد؟ فقال: أن يكون إذا أحاط به الإحسان أُلهِم الشُّكر، راجيًا لتمام النِّعمة من الله عليه في الدُّنيا وتمامِ عفوه عنه في الآخرة[3].

(١) «القشيرية» (ص٣٥٩).
(٢) أسنده البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٩٦).
(٣) أسنده القشيري (ص٣٦٠).

واختلفوا أيُّ الرجائين أكمل: رجاء المُحسنِ ثوابَ إحسانه، أو رجاء المذنب المسيء التائب مغفرةَ ربِّه وعفوه؟ فطائفةٌ رجَّحت رجاء المحسن لقوَّة أسباب الرجاء معه. وطائفةٌ رجَّحت رجاء المذنب لأنَّ رجاءه مجرَّدٌ عن علَّة رؤية العمل، مقرونٌ بذلَّة رؤية الذنب.

قال يحيىٰ بن معاذٍ: يكاد رجائي لك مع الذُّنوب يغلب علىٰ رجائي لك مع الأعمال، لأنِّي أجدني أعتمد في الأعمال علىٰ الإخلاص، وكيف أحرزها وأنا بالآفات معروفٌ! وأجدني في الذُّنوب أعتمد علىٰ عفوك، وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوفٌ!

وقال أيضًا: إلهي، أحلىٰ العطايا في قلبي رجاؤك، وأعذب الكلام علىٰ لساني ثناؤك، وأحبُّ الساعات إليَّ ساعةٌ يكون فيها لقاؤك[1].



(١) ذكرهما القشيري (ص٣٦١).

فصل

الرجاء من أجل المنازل

الرجاء من أجلِّ منازلهم وأعلاها وأشرفها. وعليه وعلىٰ الحبِّ والخوف مدارُ السَّير إلىٰ الله. وقد مدح الله أهله وأثنىٰ عليهم فقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾[الأحزاب: ٢١].

وفي الحديث الصحيح الإلهيِّ عن النبيِّ ﷺ فيما يروي عن ربِّه عزَّ وجلَّ: «**ابنَ آدم، إنَّك ما دعوتَني ورجوتَني غفرتُ لك علىٰ ما كان منك ولا أبالي**»[1].

وقد روىٰ الأعمش عن أبي صالحٍ عن أبي هريرة ﷺ عن النبيِّ ﷺ قال: «**يقول الله ﷻ: أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، إن ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، وإن ذكرني في ملإٍ ذكرتُه في ملإٍ هو خيرٌ منهم، وإن اقترب إليَّ شبرًا اقتربتُ إليه ذراعًا، وإن أتاني يمشي أتيتُه هرولةً**». رواه مسلم[2].

وقد أخبر تعالىٰ عن خواصِّ عباده الذين كان المشركون يزعمون أنَّهم يتقرَّبون بهم إلىٰ الله: أنَّهم كانوا راجين له خائفين منه، فقال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۞ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٦]. يقول تعالىٰ: هؤلاء الذين تدعونهم من دوني هم عبادي، يتقرَّبون إليَّ بطاعتي ويرجون رحمتي ويخافون عذابي، فلماذا تدعونهم من دوني؟

والرجاء عبوديَّةٌ وتعلُّقٌ بالله من حيث اسمُه المُحسن البَرُّ، فذلك التعلُّق والتعبُّد بهذا الاسم والمعرفةُ بالله هو الذي أوجب له الرجاءَ مِن حيث يدري

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠).

(٢) برقم (٢٦٧٥/ ٢)، وهو عند البخاري (٧٤٠٥).

ومن حيث لا يدري، فقوَّة الرجاء علىٰ حسب قوَّة المعرفة بالله وأسمائه وصفاته وغلبةِ رحمته غضبَه.

ولولا رَوح الرجاء لعطِّلت عبوديّةُ القلب والجوارح، وهدِّمت صوامعُ وبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يذكر فيها اسم الله كثيرًا. بل لولا رَوح الرجاء لما تحرَّكت الجوارح بالطاعة. ولولا ريحه الطِّيِّبة لما جرت سفن الأعمال في بحر الإرادات. ولي من أبياتٍ:

لولا التعلُّل بالرجاء تقطَّعت ... نفسُ المحبِّ تحسُّرًا وتمزُّقا

وكذاك لولا بَردُه لحرارة الْـ ... أكباد ذابت بالحجاب تحرُّقا

أيكون قطُّ حليفُ حبٍّ لا يُرىٰ ... برجائه لحبيبه متعلِّقا؟!

أم كلَّما قويت محبَّته له ... قوي الرجاء فزاد فيه تشوُّقا

لولا الرجا يحدو المطيَّ لما سرت ... بحمولها لديارهم ترجو اللِّقا

وعلىٰ حسب المحبَّة وقوَّتها يكون الرجاء. وكلُّ محبٍّ راجٍ خائفٌ بالضرورة، فهو أرجىٰ ما يكون لحبيبه أحبَّ ما كان إليه. وكذلك خوفه، فإنَّه يخاف سقوطَه من عينه، وطردَ محبوبه له وإبعادَه، واحتجابَه عنه؛ فخوفُه أشدُّ خوفٍ.

ورجاؤه لمحبوبه ذاتيٌّ للمحبَّة، فإنَّه يرجوه قبل لقائه والوصولِ إليه، فإذا لقيه ووصل إليه اشتدَّ الرجاء له لِما يحصل به حياةُ روحه ونعيمُ قلبه من ألطاف محبوبه، وبرِّه وإقبالِه عليه، ونظرِه إليه بعين الرِّضا، وتأهيلِه لمحبَّته، وغيرِ ذلك ممَّا لا حياة للمحبِّ ولا نعيمَ ولا فوزَ إلا بوصوله إليه من محبوبه؛ فرجاؤه أعظم رجاءٍ وأجلُّه وأتمُّه.

فتأمَّل هذا الموضع حقَّ التّأمُّل يُطلعْك علىٰ أسرارٍ عظيمةٍ من أسرار العبودية والمحبة، فكلُّ محبة فهي مصحوبةٌ بالخوف والرجاء، وعلىٰ قدر تمكُّنها من قلب المحبِّ يشتدُّ خوفه ورجاؤه. لكنَّ خوف المحبِّ لا تصحبه وحشة بخلاف خوف المسيء، ورجاء المحبِّ لا تصحبه علَّةٌ بخلاف رجاء الأجير، فأين رجاء المحبِّ من رجاء الأجير؟ بينهما كما بين حالَيهما.

وبالجملة: فالرجاء ضروريٌّ للمريد والسالك والعارف، ولو فارقه لحظةً لتلف أو كاد، فإنَّه دائرٌ بين ذنبٍ يرجو غفرانه، وعيبٍ يرجو صلاحه، وعملٍ صالحٍ يرجو قبولَه، واستقامةٍ يرجو حصولَها أو دوامَها، وقربٍ من الله ومنزلةٍ عنده يرجو وصولَه إليها؛ ولا ينفكُّ أحدٌ من السالكين عن هذه الأمور أو عن بعضها.

وإن التنزيل نطق به لفوائد كثيرةٍ:

منها: إظهار العبودية والفاقة والحاجة إلىٰ ما يرجوه من ربِّه ويستشرفه من إحسانه، وأنَّه لا يستغني عن فضله طرفةَ عينٍ.

ومنها: أنَّه سبحانه يحبُّ من عباده أن يؤمِّلوه ويرجوه ويسألوه من فضله، لأنَّه المَلِك الحقُّ الجواد، أجوَدُ من سئل وأوسع من أعطىٰ، وأحبُّ ما إلىٰ الجواد أن يُرجىٰ ويؤمَّل ويُسأل. وفي الحديث: «**من لم يسأل الله يغضَبْ عليه**»[1]، والسائل راجٍ وطالب، فمن لم يَرجُ الله يغضب عليه، فهذه فائدة أخرىٰ من فوائد الرجاء: التخلُّص به من غضب الله.

ومنها: أنَّ الرجاء حادٍ يحدو به في سيره إلىٰ الله، ويطيِّب له المسير، ويحثُّه عليه، ويبعثه علىٰ ملازمته. فلولا الرجاء لما سرىٰ أحدٌ، فإن الخوف وحده لا

(١) أخرجه أحمد (٩٧٠١)، والترمذي (٣٣٧٣)، وابن ماجه (٣٨٢٧)، وانظر: «الصحيحة» (٢٦٥٤).

يحرِّك العبد، وإنّما يحرِّكه الحبُّ، ويزعجه الخوف، ويحدوه الرجاء.

ومنها: أنَّ الرجاء يطرحه على عتبة المحبَّة ويلقيه في دِهليزها، فإنَّه كلَّما اشتدَّ رجاؤه وحصل له ما يرجوه ازداد حبًّا لله وشكرًا له ورضًا عنه.

ومنها: أنَّه يبعثه على أعلى المقامات، وهو مقام الشُّكر الذي هو خلاصة العبوديّة، فإنَّه إذا حصل له مرجوُّه كان ذلك أدعى لشكره.

ومنها: أنَّه يوجب له المزيد من معرفته بأسمائه ومعانيها والتعلُّق بها، فإنَّ الرجاء تعلُّقٌ بأسماء الإحسان وتعبُّدٌ بها ودعاءٌ بها، وقد قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف: ١٨٠]، فلا ينبغي أن يعطَّل دعاؤه بأسماء الإحسان التي هي أعظم ما يدعوه بها الداعي، فالقدح في مقام الرجاء تعطيلٌ لعبودية هذه الأسماء والدُّعاء بها.

ومنها: أنَّ المحبة لا تنفكُّ عن الرّجاء كما تقدّم، فكلُّ واحدٍ منهما يمدُّ الآخر ويقوِّيه.

ومنها: أنَّ الخوف مستلزمٌ للرجاء، والرجاء مستلزمٌ للخوف، فكلُّ راجٍ خائف، وكلُّ خائفٍ راجٍ. ولأجل هذا حَسُن وقوعُ الرجاء في موضعٍ يحسن فيه وقوع الخوف؛ قال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾[نوح: ١٣]، قال كثيرٌ من المفسِّرين: المعنى ما لكم لا تخافون لله عظمةً؟ قالوا: والرجاء بمعنى الخوف[(١)]. والتحقيق أنَّه ملازمٌ له، فكلُّ راجٍ خائفٌ من فوات مرجوِّه، والخوف بلا رجاءٍ يأسٌ وقنوطٌ. وقال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾[الجاثية: ١٤]، قالوا في تفسيرها: لا يخافون وقائعَ الله بهم، كوقائعه بمن قبلهم من الأمم.

ومنها: أنَّ العبد إذا تعلَّق قلبُه برجاء ربِّه فأعطاه ما رجاه، كان ذلك ألطفَ

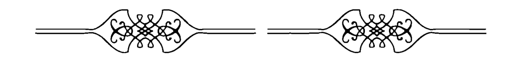
---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٧/ ٤٥٦، ٢٣/ ٢٩٧).

موقعًا وأحلىٰ عند العبد وأبلغَ من حصول ما لم يرجه. وهذا أحد الأسباب والحكم في جعل المؤمنين بين الرجاء والخوف في هذه الدار، فعلىٰ قدر رجائهم وخوفهم يكون فرحهم في القيامة بحصول مرجوِّهم واندفاع مَخُوفهم.

ومنها: أنَّ الله سبحانه يريد من عباده تكميلَ مراتبِ عبوديته من الذُّلِّ والانكسار، والتّوكُّل والاستعانة، والخوف والرجاء، والصَّبر والشُّكر، والرِّضا والإنابة وغيرها. ولهذا قدَّر عليه الذنب وابتلاه به ليُكمِّل مراتبَ عبوديَّته بالتوبة التي هي من أحبِّ عبوديَّات عبده إليه، فكذلك يُكمِّلها بالرجاء والخوف.

ومنها: أنَّ في الرجاء من الانتظار والترقُّب والتوقُّع لفضل الله ما يوجب تعلُّقَ القلب بذكره، ودوامَ الالتفات إليه بملاحظة أسمائه وصفاته، وتنقُّلَ القلب في رياضها الأنيقة، وأخذَه بنصيبه من كلِّ اسم وصفةٍ.



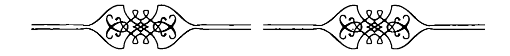
٢/ ٢٩٠

فصل

منزلة الرغبة

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة الرغبة**؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

والفرق بين الرجاء والرغبة أنَّ الرجاء طمعٌ والرغبةَ طلب، فهي ثمرة الرّجاء، فإنَّه إذا رجا الشيء طلبه. والرغبة من الرجاء كالهرب من الخوف، فمن رجا شيئًا طلبه ورغب فيه، ومن خاف شيئًا هرب منه.



٢/ ٢٩٧

فصل

منزلة الرعاية

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة الرِّعاية**. وهي مراعاة العلم وحفظُه بالعمل، ومراعاةُ العمل بالإحسان والإخلاص وحفظه من المفسدات، ومراعاةُ الحال بالموافقة وحفظه بقطع التفرُّق؛ فالرِّعاية صيانةٌ وحفظٌ.

ومراتب العلم والعمل ثلاثة:

- روايةٌ، وهي مجرَّد النّقل وحَمْل المرويِّ.

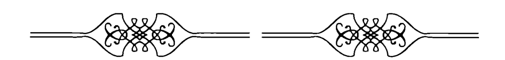
- ودرايةٌ، وهي فهمه وتعقُّل معناه.

- ورعايةٌ، وهي العمل بموجب ما علمه ومقتضاه.

فالنَّقَلة همَّتهم الرِّواية، والعلماء همَّتهم الدِّراية، والعارفون همَّتهم الرِّعاية.

وقد ذمَّ الله تعالىٰ من لم يرعَ ما اختاره وابتدعه من الرهبانيَّة حقَّ رعايته، فقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ۚ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ﴾ [الحديد: ٢٧].

والقصد: أنَّ الله سبحانه ذمَّ من لم يرعَ قربةً ابتدعها لله حقَّ رعايتها، فكيف بمن لم يرعَ قربةً شرعها الله ورضيها لعباده؟!



فصل

الرعاية الأعمال والأحوال والأوقات

قال صاحب «المنازل»[١]: (**الرِّعاية: صونٌ بالعناية، وهي علىٰ ثلاث درجاتٍ، الأولىٰ: رعاية الأعمال، والثانية: رعاية الأحوال، والثالثة: رعاية الأوقات. فأمَّا رعاية الأعمال فتوفيرُها بتحقيرها، والقيامُ بها من غير نظرٍ إليها، وإجراؤها علىٰ مجرىٰ العلم لا علىٰ التزيُّن بها من غير نظرٍ إليها**).

أمّا قوله: (**صون بالعناية**) أي حفظٌ بالاعتناء، والقيامُ بحقِّ الشيء الذي يرعاه، ومنه راعي الغنم.

وأما قوله: (**رعاية الأعمال فتوفيرها بتحقيرها**)، فالتوفير: سلامةٌ من طرفَي التفريط بالنقص، والإفراط بالزِّيادة علىٰ الوجه المشروع في حدودها وصفاتها وشروطها وأوقاتها. وأمَّا تحقيرُها فاستصغارُها في عينه واستقلالها، وأنَّ ما يليق بعظمة الله وجلاله وحقوق عبوديَّته أمرٌ آخر، وأنَّه لم يوفِّه حقَّه، ولا يرضىٰ لربِّه بعمله ولا بشيءٍ منه.

وقد قيل: علامة رضا الله عنك سخطك علىٰ نفسك، وعلامة قبول العمل احتقاره واستقلاله وصغره في قلبك، حتىٰ إنَّ العارف ليستغفر الله عقيب طاعاته. وقد كان رسول الله ﷺ إذا سلَّم من الصّلاة استغفر ثلاثًا[٢]. وأمر الله عباده بالاستغفار عقيب الحجِّ، ومدحهم علىٰ الاستغفار عقيب قيام الليل بالأسحار. وشرع النبيُّ ﷺ للأمة عقيب الطُّهور التوبة والاستغفار[٣].

---

(١) (ص٢٨).

(٢) كما في حديث ثوبان عند مسلم (٥٩١).

(٣) وذلك بقول: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك»، فإذا قالها: «طبع الله عليها بطابع، ثم رُفعت تحتَ العرش فلم تُكسَر إلىٰ يوم القيامة»،=

فمن شهد واجبَ ربِّه ومقدارَ عمله وعيبَ نفسه لم يجد بدًّا من استغفار ربِّه منه واحتقاره إيَّاه واستصغاره.

وأمّا (**القيام بها**)، فهو توفية حقِّها وجعلُها قائمةً كالشهادة القائمة والصلاة القائمة والشجرةِ القائمة علىٰ ساقها التي ليست ساقطة.

وقوله: (**من غير نظرٍ إليها**)، أي من غير أن يلتفت إليها ويعدِّدها ويذكرها مخافةَ العُجب والمنَّةِ بها، فيسقط من عين الله وتَحبَط أعمالُه.

وقوله: (**وإجراؤها علىٰ مجرىٰ العلم**) أي: يكون العمل علىٰ مقتضىٰ العلم المأخوذ من مشكاة النبوَّة، إخلاصًا وإرادةً لوجهه وطلبًا لمرضاته، لا علىٰ وجه التزيُّن بها عند الناس.

قال[1]: (**وأمَّا رعاية الأحوال فهو أن يَعُدَّ الاجتهادَ مُراياةً، واليقين تشبُّعًا، والحال دعوىٰ**).

أي: يتَّهم نفسه في اجتهاده أنَّه رياء للناس، فلا يطغىٰ به ولا يسكن إليه ولا يَعتدُّ به.

وأمَّا عَدُّه (**اليقين تشبُّعًا**)؛ التشبُّع: افتخار الإنسان بما لا يملكه، ومنه قول النبيِّ ﷺ: «**المتشبِّع بما لم يُعطَ كلابس ثوبَي زورٍ**»[2]، وعدُّه اليقين تشبُّعًا يحتمل وجهين:

أحدهما: أنَّ ما حصل له من اليقين لم يكن به ولا منه، ولا استحقَّه بعوضٍ. وإنَّما هو فضل الله وعطاؤه، ووديعته عنده، ومجرَّد منَّته عليه، فهي خلعةٌ خلعها

=أخرجه ابن أبي شيبة (١٩)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٩٨٢٩-٩٨٣١)، ورجح وقفه النسائي والدارقطني في «العلل» (٢٣٠١)، علىٰ أن مثله مما لا يُقال من قِبَل الرأي، فله حكم الرفع.

(١) «المنازل» (ص٢٨).

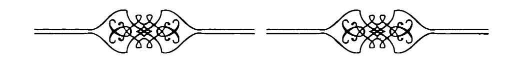
(٢) أخرجه البخاري (٥٢١٩)، ومسلم (٢١٣٠).

علىٰ عبده، والعبدُ وخلعتُه كلُّ ملكُه ولـه، فما للعبد في البَيْن مدخل، وإنّما هو متشبِّعٌ بما هو ملكٌ لله وفضلٌ منه ومنَّته علىٰ عبده.

والوجه الثاني: أن يتَّهم يقينَه، وأنَّه لم يحصل له اليقين علىٰ الوجه الذي ينبغي، بل ما حصل له منه كالعارية غير الملك المستقرِّ، فهو متشبِّعٌ به تزعم نفسُه أنَّ اليقين مَلَكةٌ له، وليس كذلك. وهذا لا يختصُّ باليقين، بل بسائر الأحوال، فالصادق يَعُدُّ صدقه تشبُّعًا، وكذا المخلص وكذا العالِم، لاتِّهامه لصدقه وإخلاصه وعلمه، وأنَّه لم ترسخ قدمُه في ذلك، ولم تَحصُل له فيه مَلَكة، فهو كالمتشبِّع به. ولمَّا كان اليقينُ روح الأعمال وعمودَها وذروةَ سنامها خصَّه بالذِّكر تنبيهًا علىٰ ما دونه.

والحاصل أنّه يتَّهم نفسه في حصول اليقين، فإذا حصل فليس به ولا منه، ولا له فيه شيءٌ، فهو يذمُّ نفسه في عدم حصوله، ولا يحمدها عند حصوله.

وأمَّا عدُّه (**الحال دعوىٰ**)، أي دعوىٰ كاذبةً، اتِّهامًا لنفسه، وتطهيرًا لها من رعونة الدَّعاوىٰ، وتخليصًا للقلب من نصيب الشيطان، فإنَّ الدعوىٰ من أنصباء الشيطان منه.



فصل

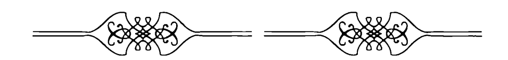
رعاية الأوقات

قال[1]: (**وأمَّا: رعاية الأوقات فأن يقف مع كلِّ خطوةٍ، ثمَّ أن يغيب عن خَطْوه بالصَّفاء من رسمه، ثمَّ أن يذهب عن شهود صفوه**).

أي يقف مع كل حركة ظاهرة وباطنة بمقدار ما يُصحِّحُها نيَّةً وقصدًا وإخلاصًا ومتابعةً، فلا يخطو هَمَجًا، بل يقف قبل الخطوة حتَّىٰ يصحِّح الخطوة ثمَّ ينقل قدم عزمه.

فإذا صحَّت له ونقل قدمه، انفصل عنها وقد صحَّت بالغيبة عن شهودها ورؤيتها، فيغيب عن شهود تقدُّمه بنفسه، فإنَّ «رسمه» هو نفسُه. فإذا غاب عن شهوده نفسَه وتقدُّمَه بها في كلِّ خطوةٍ، فذلك عين (**الصَّفاء من رسمه**) الذي هو نفسه. ولمَّا كانت النفس محلَّ الأكدار سمَّىٰ انفصاله عنها صفاءً. وهذه الأمور تستدعي لطف إدراكٍ واستعدادًا من العبد، وذلك عين المنَّة عليه.

وأمَّا (**ذهابه عن شهود صفوه**) أي لا يستحضِرْ في قلبه ويشهَدْ ذلك الصفو المطلوب ويقفَ عنده، فإنَّ ذلك من بقايا النفس وأحكامها، وهو نوع كدرٍ. فإذا تخلّص من الكدر لا ينبغي له الالتفات والرُّجوع إليه، فيصفوَ من الرسم ويغيبَ عن الصفو بمشاهدة المطلب الأعلىٰ والمقصد الأسنىٰ.



(١) «المنازل» (ص٢٩).

٢/ ٣٠٥

فصل

منزلة المراقبة

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة المراقبة**. قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾[البقرة: ٢٣٥]. وقال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾[الأحزاب: ٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

وفي حديث جبريل ﷺ أنَّه سأل النبيَّ ﷺ عن الإحسان؟ فقال: «**أن تعبد الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[١].

المراقبة: دوامُ علم العبد وتيقُّنه باطِّلاع الحقِّ سبحانه علىٰ ظاهره وباطنه، فاستدامته لهذا العلم واليقين هي المراقبة، وهي ثمرةُ علمِه بأنَّ الله سبحانه رقيبٌ عليه، ناظرٌ إليه، سامعٌ لقوله، مطَّلعٌ علىٰ عمله كلَّ وقتٍ وكلَّ لحظةٍ. والغافل عن هذا بمعزلٍ عن حال أهل البدايات، فكيف بحال المريدين؟ فكيف العارفين؟!

قال الجُرَيريُّ: من لم يُحكِّم بينه وبين الله تعالىٰ التَّقوىٰ والمراقبةَ لم يصل إلىٰ الكشف والمشاهدة[٢].

وقيل: من راقب اللهَ في خواطره عَصَمه في جوارحه[٣].

وقيل لبعضهم: متىٰ يهشُّ الراعي غنمَه بعصاه عن مراتع الهلكة؟ فقال: إذا علم أنَّ عليه رقيبًا[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، من حديث أبي هريرة ﷺ، وأخرجه مسلم (٨)، من حديث عمر ﷺ.
(٢) «القشيرية» (ص٤٤٨).
(٣) «القشيرية» (ص٤٤٩).
(٤) أسنده البيهقي في «شعب الإيمان» (٨٥٤)، عن أبي العباس بن سريج.

قال الجنيد: من تحقَّق في المراقبة خاف علىٰ فوت حظِّه من ربِّه لا غير[(١)].

وقال ذو النُّون: علامة المراقبة إيثار ما أنزل الله، وتعظيم ما عظَّم الله، وتصغير ما صغَّر الله[(٢)].

وقيل: الرجاء يجرُّك إلىٰ الطاعة، والخوف يبعدك عن المعاصي، والمراقبة تؤدِّيك إلىٰ طريق الحقائق.

وقيل: المراقبة مراعاة القلب لملاحظة الحقِّ مع كلِّ خطرةٍ وخطوةٍ.

قال الجريريُّ: أمرُنا هذا مبنيٌّ علىٰ فصلين: أن تلزم نفسك المراقبةَ لله، ويكونَ العلم علىٰ ظاهرك قائمًا[(٣)].

وقال إبراهيم الخوَّاص: المراقبة خلوص السِّرِّ والعلانية لله ﷻ[(٤)].

وقيل: أفضل ما يُلزم الإنسان نفسَه في هذه الطريق: المحاسبة والمراقبة، وسياسة عمله بالعلم[(٥)].

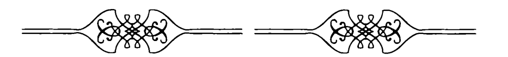
وقال أبو حفصٍ لأبي عثمان النَّيسابوريِّ رحمهما الله: إذا جلست للناس فكن واعظًا لقلبك ولنفسك، ولا يغرَّنَّك اجتماعُهم عليك، فإنَّهم يراقبون ظاهرك والله يراقب باطنك[(٦)].

وأرباب الطريق مجمعون علىٰ أنَّ مراقبة الله في الخواطر: سببٌ لحفظه في حركات الظواهر، فمن راقب الله في سرِّه حفظه الله في حركاته وعلانيته.

---

(١) «القشيرية» (ص٤٤٩).
(٢) «القشيرية» (ص٤٤٩)، وأسنده البيهقي في «الشعب» (١٥٢٨).
(٣) «القشيرية» (ص٤٥٠).
(٤) «القشيرية» (ص٤٥٠).
(٥) أسنده القشيري (ص٤٥٠) عن أبي عثمان المغربي النيسابوري.
(٦) أسنده القشيري (ص٤٥٠).

والمراقبة هي التعبُّد باسمه الرقيب، الحفيظ، العليم، السميع، البصير؛ فمن عقل هذه الأسماء وتعبَّد بمقتضاها حصلت له المراقبة.



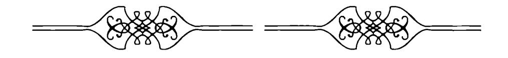
٢/ ٣١٩
منزلة تعظيم حرمات الله

فصل

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة تعظيم حرمات الله.**

قال تعالىٰ: ﴿يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾[الحج: ٣٠].
قال جماعةٌ من المفسِّرين ﵃: حرمات الله هاهنا معاصيه وما نهىٰ عنه، وتعظيمُها ترك ملابستها. قال اللَّيث ﵀[(١)]: حرمات الله: ما لا يحلُّ انتهاكها. وقال قوم: الحرمات هي الأمر والنهي. قال الزجَّاج[(٢)]: الحرمة ما وجب القيام به وحَرُم التفريط فيه. وقال قوم: الحرمات هاهنا المناسك ومشاعر الحجِّ زمانًا ومكانًا[(٣)].

والصواب: أنَّ الحرمات تعمُّ هذا كلَّه. وهي جمع حرمةٍ، وهي ما يجب احترامه وحفظُه من الحقوق والأشخاص والأزمنة والأماكن، فتعظيمها توفيتُها حقَّها وحفظُها من الإضاعة.



(١) في «كتاب العين» (٣/ ٢٢٢).
(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٤٢٤).
(٣) الأقوال المذكورة كلها من «تفسير البغوي» (٥/ ٣٨٢-٣٨٣).

٢/ ٣٤٤

منزلة الإخلاص

فصل

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة الإخلاص.**

قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[البينة: ٥].

وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾[الزمر: ٢ - ٣].

وقال: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٢ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٣ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ۝١٤ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾[الزمر: ١١ - ١٥].

وقال: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

وقال: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[الملك: ٢]؛ قال الفُضَيل بن عياض ﷺ: هو أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا عليٍّ، ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إنَّ العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتىٰ يكون خالصًا صوابًا، فالخالص: أن يكون لله، والصَّواب أن يكون علىٰ السُّنَّة. ثمّ قرأ قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾[الكهف: ١١٠][(١)].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥]؛ فإسلام الوجه لله تعالىٰ: إخلاص القصد والعمل له، والإحسان

---

(١) سبق تخريجه.

فيه: متابعة رسوله ﷺ وسنَّته.

وقال تعالىٰ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[الفرقان: ٢٣]، وهي الأعمال التي كانت علىٰ غير السُّنّة أو أريد بها غير وجه الله.

وقال النبيُّ ﷺ لسعدٍ: **«إنَّك لن تُخلَّفَ فتعملَ عملًا تبتغي به وجه الله إلَّا ازددتَ به درجةً ورفعة»**(١).

وفي «الصحيح»(٢) من حديث أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاثٌ لا يَغِلُّ عليهنَّ قلبُ مسلمٍ: إخلاصُ العمل لله، ومناصحةُ ولاة الأمر، ولزومُ جماعة المسلمين، فإنَّ دعوتهم تحيط مِن ورائهم»**. أي: لا يبقىٰ فيه غلٌّ، ولا يحمل الغلَّ مع هذه الثلاثة، بل تنفي عنه غلَّه وتخرجه منه، فإنَّ القلب يَغلُّ علىٰ الشِّرك أعظم غلٍّ، وكذلك يغلُّ علىٰ الغشِّ، وعلىٰ خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلالة؛ فهذه الثلاثة تملؤه غلًّا ودغلًا. ودواء هذا الغلِّ واستفراغُ أخلاطه بتجريد الإخلاص والنُّصح ومتابعة السُّنّة.

وسئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل رياءً، ويقاتل شجاعةً، ويقاتل حميَّةً، فأيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال: **«مَن قاتل لتكون كلمةُ الله هي العُليا فهو في سبيل الله»**(٣).

وأخبر عن أوَّل ثلاثةٍ تسعَّر بهم النار: قارئ القرآن، والمجاهد، والمتصدِّق بماله، الذين فعلوا ذلك ليقال: فلانٌ قارئ، وشجاع، ومتصدِّق؛ لم تكن أعمالهم لله(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨/ ٥).
(٢) كذا، ولم يخرجه الشيخان، وإنما أخرجه أحمد (١٣٣٥٠)، والحديث صحيح، انظر: «أنيس الساري» (٨/ ٥٥٢٨-٥٥٤٧).
(٣) أخرجه البخاري (٧٤٥٨)، ومسلم (١٩٠٤).
(٤) أخرجه مسلم (١٩٠٥).

وفي الحديث الصحيح الإلهيِّ يقول الله ﷻ: «**أنا أغنىٰ الشُّركاء عن الشِّرك، من عمل عملًا أشرك فيه غيري فهو للَّذي أشرك به، وأنا منه بريء**»(١).

وفي أثرٍ آخر: «**يقول له يوم القيامة: اذهب فخذ أجرك ممَّن عملتَ له، لا أجر لك عندنا**»(٢).

وفي «الصحيح»(٣) عنه: «**إنَّ الله لا ينظر إلىٰ أجسامكم ولا إلىٰ صوركم، ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم**».

وقال تعالىٰ: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

وفي أثرٍ مرويٍّ إلهيٍّ: «**الإخلاص سرٌّ من سرِّي، استودعتُه قلبَ من أحببتُه مِن عبادي**»(٤).

وقد تنوَّعت عباراتُهم في الإخلاص، والقصد واحدٌ. فقيل: هو إفراد الحقِّ سبحانه بالقصد في الطاعة.

وقيل: تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين.

وقيل: التوقِّي عن ملاحظة الخلق، والصِّدقُ: التنقِّي من مطالعة النفس، فالمخلص لا رياء له، والصادق لا إعجاب له(٥). ولا يتمُّ الإخلاص إلا بالصِّدق، ولا الصِّدق إلا بالإخلاص، ولا يتمَّان إلا بالصبر(٦).

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥).
(٢) أخرجه أحمد بن منيع في «مسنده» كما في «المطالب العالية» (٣٢١٥)، وإسناده ضعيف.
(٣) لمسلم (٢٥٦٤/ ٣٣).
(٤) أسنده القشيري في «الرسالة» (ص٤٧٧)، وهو حديث واهٍ جدًّا كما قال الحافظ في «الفتح» (٤/ ١٠٩).
(٥) إلىٰ هنا قول شيخ القشيري أبي علي الدقَّاق، «القشيرية» (ص٤٧٧).
(٦) بنحوه قال ذو النون المصري، كما في «تفسير السلمي» (٢/ ٤١٠)، و«القشيرية» (ص٤٧٨).

وقيل: من شهد في إخلاصه الإخلاصَ احتاج إخلاصُه إلىٰ إخلاصٍ[١]. فنقصان كلِّ مخلصٍ في إخلاصه بقدر رؤية إخلاصه، فإذا سقط عن نفسه رؤيةُ إخلاصه صار مخلِصًا مخلَصًا[٢].

وقيل: الإخلاص: استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن. والرِّياء: أن يكون ظاهره خيرًا من باطنه. والصِّدق في الإخلاص: أن يكون باطنه أعمر من ظاهره.

وقيل: الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلىٰ الخالق[٣]. ومن تزيَّن للناس بما ليس فيه سقط من عين الله[٤].

ومن كلام الفُضَيل رحمه الله: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص: أن يعافيك الله منهما[٥].

وقال الجنيد رضي الله عنه: الإخلاص سرٌّ بين الله وبين العبد، لا يعلمه مَلَك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوًىٰ فيميله[٦].

وقيل لسهلٍ: أيُّ شيءٍ أشدُّ علىٰ النفس؟ فقال: الإخلاص، لأنه ليس لها فيه نصيبٌ[٧].

وقال بعضهم: الإخلاص أن لا تطلب علىٰ عملك شاهدًا غير الله، ولا مجازيًا سواه.

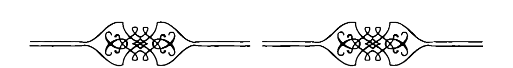
وقال مكحولٌ: ما أخلص عبدٌ قطُّ أربعين يومًا إلا ظهرت ينابيع الحكمة من

(١) قاله أبو يعقوب السُّوسي، كما في «تفسير السلمي» (٢/ ١٩٤)، و«القشيرية» (ص٤٧٨).
(٢) «القشيرية» (ص٤٧٨) من قول أبي بكر الزقَّاق بنحوه.
(٣) قاله أبو عثمان الحِيري، كما في «شعب الإيمان» (٦٤٧٥)، و«القشيرية» (ص٤٧٩).
(٤) قاله السَّرِيُّ السَّقَطي، أسنده عنه السلمي في «الطبقات» (ص٥٤).
(٥) أسنده البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٤٦٩)، والقشيري (ص٤٧٩).
(٦) ذكره السلمي في «تفسيره» (٢/ ٢٠٧)، والقشيري (ص٤٧٩).
(٧) «القشيرية» (ص٤٨٠).

قلبه علىٰ لسانه[1].

وقال يوسف بن الحسين: أعزُّ شيءٍ في الدُّنيا: الإخلاص، وكم أجتهد في إسقاط الرِّياء عن قلبي فكأنَّه ينبت علىٰ لونٍ آخر[2].

وقال أبو سليمان الدارانيُّ: إذا أخلص العبد انقطع عنه كثرة الوساوس والرِّياء[3].



(١) أسنده القشيري (ص٤٨٠).
(٢) أسنده القشيري (ص٤٨١).
(٣) أسنده القشيري (ص٤٨١).

فصل

الإخلاص تصفية العمل من كل شوب

قال صاحب «المنازل» رحمه الله[(١)]: **(الإخلاص: تصفية العمل من كلِّ شوبٍ)**.

أي لا يمازج عملَه ما يشوبه من شوائب إرادات النفس: إمَّا طلب التزيُّن في قلوب الخلق، وإمَّا طلب مدحهم والهرب من ذمِّهم، أو طلب تعظيمهم، أو طلب أموالهم أو خدمتهم وقضائهم حوائجه، أو طلب محبَّتهم له، أو غير ذلك من العلل والشوائب التي عقدُ متفرِّقاتها هو إرادة ما سوىٰ الله بعمله كائنًا ما كان.

قال[(٢)]: (وهو علىٰ ثلاث درجاتٍ. الدرجة الأولىٰ: إخراج رؤية العمل من العمل، والخلاص من طلب العوض علىٰ العمل، والنُّزول عن الرِّضا بالعمل).

يعرض للعامل في عمله ثلاث آفاتٍ: رؤيته وملاحظته، وطلب العوض عليه، ورضاه به وسكونه إليه. ففي هذه الدرجة يتخلَّص من هذه الثلاثة.

فالذي يخلِّصه من رؤية عمله: مشاهدتُه لمنَّة الله عليه وفضله وتوفيقه له، وأنَّه بالله لا بنفسه، وأنَّه إنَّما أوجب عملَه مشيئةُ الله لا مشيئته هو، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[التكوير: ٢٩]. فهنا ينفعه شهود الجبر، وأنَّه آلة محضة، وأنَّ فعله كحركات الأشجار وهُبُوب الرِّياح، وأنَّ المحرِّك غيرُه والفاعلَ فيه سواه، وأنَّه ميِّت والميِّت لا يفعل شيئًا، وأنَّه لو خلِّي ونفسَه لم يكن من فعله الصالح شيءٌ البتَّة، فإنَّ النفس جاهلة ظالمة، طبعها الكسل وإيثار الشهوات والبطالة، وهي منبع كلِّ شرٍّ ومأوىٰ كلِّ سوءٍ. وما كان هكذا لم يصدر منه خيرٌ، ولا هو من شأنه.

(١) (ص٣١).
(٢) «المنازل» (ص٣١).

فالخير الذي صدر منها إنَّما هو من الله تعالىٰ وبه، لا من العبد ولا به. كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٢١].

وقال أهل الجنَّة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[الأعراف: ٤٣].

وقال تعالىٰ لرسوله ﷺ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾[الإسراء: ٧٤].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾[الحجرات: ٧].

فكلُّ خيرٍ في العبد فهو مجرَّد فضل الله ومنَّته وإحسانه ونعمته، وهو المحمود عليه، فرؤية العبد لأعماله في الحقيقة كرؤيته لصفاته الخَلْقيَّة من سمعه وبصره وإدراكه وقوَّته، بل من صحَّته وسلامة أعضائه، ونحو ذلك؛ فالكلُّ مجرَّد عطاء الله ونعمته وفضله. فالذي يخلِّص العبدَ من هذه الآفة معرفةُ ربِّه ومعرفة نفسه.

والّذي يخلِّصه من طلب العوض علىٰ العمل: علمه بأنَّه عبدٌ محض، والعبد لا يستحقُّ علىٰ خدمته لسيِّده عوضًا ولا أجرةً، إذ هو يخدمه بمقتضىٰ عبوديَّته. فما يناله من سيِّده من الأجر والثواب تفضُّلٌ منه وإحسانٌ إليه وإنعامٌ عليه، لا معاوضة؛ إذ الأجرة إنَّما يستحقُّها الحرُّ أو عبد الغير، فأمَّا عبدُه نفسِه فلا.

والذي يخلِّصه من رضاه بعمله وسكونه إليه أمران:

أحدهما: مطالعة عيوبه وآفاته وتقصيره فيه، وما فيه من حظِّ النفس ونصيب الشّيطان؛ فقلَّ عملٌ من الأعمال إلّا وللشيطان فيه نصيبٌ وإن قلَّ، وللنَّفس فيه حظٌّ. سئل النبيُّ ﷺ عن التفات الرجل في صلاته فقال: «**هو اختلاسٌ يختلسه**

الشيطان من صلاة العبد»[(١)]. فإذا كان هذا التفاتُ طَرْفِه ولحظِه، فكيف التفاتُ قلبه إلىٰ ما سوىٰ الله؟ هذا أعظم نصيب الشيطان من العبوديَّة.

وقال ابن مسعودٍ رضي الله عنه: لا يجعل أحدكم للشيطان حظًّا من صلاته، يرىٰ أنَّ حقًّا عليه أن لا ينصرف إلَّا عن يمينه[(٢)]؛ فجعل هذا القدر اليسير النزر حظًّا ونصيبًا للشيطان من صلاة العبد، فما الظنُّ بما فوقه؟

وأمَّا حظُّ النفس من العمل فلا يعرفه إلا أهل البصائر الصادقون.

الثاني: علمه بما يستحقُّه الربُّ جلَّ جلاله من حقوق العبوديَّة وآدابها الظاهرة والباطنة وشروطها، وأنَّ العبد أضعف وأعجز وأقلُّ من أن يوفِّيها حقَّها وأن يرضىٰ بها لربِّه، فالعارف لا يرضىٰ بشيءٍ من عمله لربِّه، ولا يرضىٰ نفسه لله تعالىٰ طرفة عينٍ، ويستحيي من مقابلة الله بعمله. فسوء ظنِّه بنفسه وعمله وبغضه لها، وكراهته لأنفاسه وصعودها إلىٰ الله يحول بينه وبين الرِّضا بعمله والرِّضا عن نفسه.

وكان بعض السلف يصلِّي في اليوم والليلة أربعمائة ركعةٍ، ثمَّ يقبض علىٰ لحيته ويهزُّها ويقول: يا مأوىٰ كلِّ سوءٍ، وهل رضيتُك لله طرفة عينٍ؟![(٣)].

وقال بعضهم: آفة العبد رضاه عن نفسه[(٤)]. ومن نظر إلىٰ نفسه باستحسان شيءٍ منها فقد أهلكها، ومن لم يتَّهم نفسه علىٰ دوام الأوقات فهو مغرور[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥١)، من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٢) أخرجه البخاري (٨٥٢)، ومسلم (٧٠٧).
(٣) روي ذلك عن كَهْمَس بن الحسن البصري، أسنده عنه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢١١).
(٤) قاله إسماعيل بن نُجيد السُّلمي، أسنده عنه البيهقي في «الزهد الكبير» (٣٣٢)، والقشيري (ص٣٩٢).
(٥) قاله أبو حفص الحدَّاد، كما في «القشيرية» (ص٣٩٠).

فصل

الدرجة الثانية من الإخلاص

قال[١]: (**الدرجة الثانية: الخجل من العمل مع بذل المجهود، وتوفير الجهد بالاحتماء من الشُّهود، ورؤية العمل في نور التوفيق من عين الجود**).

هذه ثلاثة أمور:

خجله من عمله: وهو شدَّة حيائه من الله، إذ لم يَرَ ذلك العمل صالحًا له، مع بذل مجهوده فيه. قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾[المؤمنون: ٦٠]، قال النبيُّ ﷺ: «**هو الرجل يصوم ويصلِّي ويتصدَّق، ويخاف أن لا يقبل منه**»[٢]. فالمؤمن: جمع إحسانًا في مخافةٍ وسوءَ ظنٍّ بنفسه، والمغرور: حسن الظنِّ بنفسه مع إساءته.

الثاني: (**توفير الجهد باحتمائه من الشُّهود**)، أي تأتي بجهد الطاقة في تصحيح العمل، محتميًا عن شهوده منك وبك.

الثَّالث: أن تحتمي بنور التوفيق الذي ينوِّر الله به بصيرة العبد، فترىٰ في ضوء ذلك النُّور أنَّ عملك من عين جوده، لا بك ولا منك.

فقد اشتملت هذه الدرجة علىٰ خمسة أشياء: عمل، واجتهاد فيه، وخجل وحياء من الله فيه، وصيانة عن شهوده منك، ورؤيته من عين جود الله ومنَّته.

(**الدرجة الثالثة: إخلاص العمل بالخلاص من العمل، تدعه يسيرُ سيرَ العلم. وتسير أنت مشاهدًا للحُكم حرًّا من رقِّ الرسم**)[٣].

(١) «المنازل» (ص٣١).
(٢) كما في حديث عائشة عند الترمذي وغيره، وقد سبق تخريجه.
(٣) «المنازل» (ص٣١).

قد فسَّر مراده بإخلاص العمل من العمل بقوله: (**تدعه يسير سير العلم وتسير أنت مشاهدًا للحكم**). ومعنىٰ كلامه: أنَّك تجعل عملك تابعًا للعلمِ، موافقًا له، مؤتمًّا به، تسير بسيره وتقف بوقوفه، وتتحرَّك بحركته، نازلًا منازله، مرتويًا من موارده، فتكون ناظرًا إلىٰ الحكم الدينيِّ الأمري، متقيِّدًا به فعلًا وتركًا وطلبًا وهربًا، ناظرًا إلىٰ ترتُّب الثواب والعقاب عليه سببًا وكسبًا.

ومع ذلك فتسير أنت بقلبك، مشاهدًا للحكم الكونيِّ القضائيِّ، الذي تنطوي فيه الأسباب والمسبَّبات والحركات والسكنات، ولا يبقىٰ هناك غير محض المشيئة وتفرُّدِ الربِّ وحده بالأفعال، ومصدرِها عن إرادته ومشيئته.

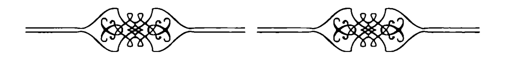
فيكون قائمًا بالأمر والنهي فعلًا وتركًا سائرًا بسيره، وبالقضاء والقدر إيمانًا وشهودًا وحقيقةً؛ فهو ناظرٌ إلىٰ الحقيقة قائمٌ بالشريعة.

وهذان الأمران هما عبوديَّة هاتين الآيتين: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[التكوير: ٢٨ - ٢٩]، وقال: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ۝٢٩ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾[الإنسان: ٢٩ - ٣٠]. فتَرْكُ العمل يسير سير العلم: مشهد ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾، وسير صاحبه مشاهدًا للحكم: مشهد ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾.

وأمّا قوله: (**حرًّا من رقِّ الرسم**)؛ الحرِّيَّة التي يشيرون إليها: عدم الدُّخول تحت عبوديَّة الخلق والنفس، والدُّخولُ تحت رقِّ عبوديَّة الحقِّ وحده. ومرادهم بالرَّسم: ما سوىٰ الله، فكلُّه رسومٌ، فإنَّ الرُّسوم هي الآثار، ورسوم المنازل والدِّيار هي الآثار التي تبقىٰ بعد سكَّانها، والمخلوقات بأسرها في منزل الحقيقة رسومٌ وآثارٌ للقدرة.

أي: فتُخلِّص نفسك من عبوديَّة كلِّ ما سوىٰ الله، وتكون بقلبك مع القادر الحقِّ وحده، لا مع آثار قدرته التي هي رسوم، فلا تشتغل بغيره اشتغالًا بعبوديَّته. ولا تطلب بعبوديَّتك له حالًا ولا مقامًا، ولا مكاشفةً، ولا شيئًا سواه.

فهذه أربعة أمورٍ: بذل الجهد، وتحكيم العلم، والنظر إلىٰ الحقيقة، والتخلُّص من الالتفات إلىٰ غيره. والله الموفِّق.



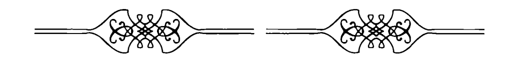
فصل

أركان السير: الخلاص، والصدق، والمتابعة

الإخلاص عدم انقسام المطلوب، والصِّدق عدم انقسام الطلب. فحقيقة الإخلاص: توحيد المطلوب، وحقيقة الصِّدق: توحيد الطلب والإرادة، ولا يثمران إلَّا بالاستسلام المحض للمتابعة.

فهذه الأركان الثلاثة هي أركان السَّير وأصول الطريق التي من لم يبن عليها سلوكهَ وسيرَه فهو مقطوعٌ وإن ظنَّ أنه سائر، فسَيره: إمَّا إلىٰ عكس جهة مقصوده، وإمَّا سير المقعد والمقيَّد؛ فإنْ عَدِم الإخلاص والمتابعة انعكس سيره إلىٰ خلفٍ، وإن لم يبذل جهده ويوحِّد طلبه سار سير المقيَّد.

وإن اجتمعت له الثلاثة: فذلك الذي لا يجارىٰ في مضمار سيره، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.



٢/ ٣٥٨

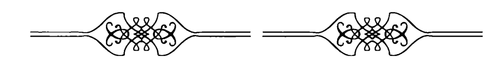
فصل

منزلة التهذيب والتصفية

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة التهذيب والتصفية**. وهو سبك العبوديَّة في كِير الامتحان طلبًا لإخراج ما فيها من الخبث والغشِّ.

قال صاحب «المنازل» رحمه الله[1]: **(التهذيب: محنة أرباب البدايات، وهو شريعةٌ من شرائع الرِّياضة)**.

يريد أنَّه صعبٌ على المبتدي فهو له كالمحنة، وطريقةٌ[2] للمرتاض الذي قد مرَّن نفسه حتى اعتادت قبوله وانقادت إليه.



(١) (ص٣١).
(٢) أي: وأنَّه سهل مطروق مذلَّل.

٢/ ٣٦٨

فصل

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة الاستقامة.**

منزلة الاستقامة

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١٣ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣- ١٤].

وقال لرسوله ﷺ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢]، فبيَّن أنَّ الاستقامة بعدم الطُّغيان، وهو مجاوزة الحدود.

وقال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦].

سئل صدِّيق الأمة وأعظمُها استقامةً أبو بكرٍ الصدِّيق رضي الله عنه عن الاستقامة، فقال: أن لا تشرك بالله شيئًا(١)؛ يريد الاستقامة علىٰ محض التوحيد.

وقال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: الاستقامة: أن تستقيم علىٰ الأمر والنهي، ولا تَرُوغ رَوَغان الثعالب(٢).

---

(١) قاله تفسيرًا لقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾، أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٣٢٦)، والمؤلف صادر عن «معالم التنزيل» (٧/ ١٧٢) هنا وفي الأقوال الآتية.

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٣٢٥)، عن الزهري عن عمر مرسلاً. وأخرجه سعيد بن منصور (١٨٩٢- التفسير) من طريق آخر متصل بنحوه.

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: ﴿ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ أخلصوا العمل لله.

وقال عليٌّ بن أبي طالب وابن عبَّاسٍ رضي الله عنهم: ﴿ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ أدَّوا الفرائض[(١)].

وقال الحسن: استقاموا علىٰ أمر الله، فعملوا بطاعته واجتنبوا معصيته[(٢)].

وقال مجاهدٌ: استقاموا علىٰ شهادة أن لا إله إلَّا الله حتىٰ لحقوا بالله[(٣)].

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيميَّة يقول: استقاموا علىٰ محبَّته وعبوديَّته، فلم يلتفتوا عنه يمنةً ولا يسرةً[(٤)].

وفي «صحيح مسلمٍ»[(٥)] عن سفيان بن عبد الله قال: قلت: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا غيرك، قال: «**قل آمنت بالله، ثمَّ استقم**».

وفيه[(٦)] عن ثوبان عن النبيِّ ﷺ قال: «**استقيموا ولن تُحْصُوا، واعلموا أنَّ خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ علىٰ الوضوء إلَّا مؤمن**».

والمطلوب من العبد: الاستقامة وهي السَّداد، فإن لم يقدر عليها فالمقاربة، فإن نزل عنها فالتَّفريط والإضاعة. كما في «صحيح مسلم»[(٧)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ: «**سدِّدوا وقاربوا، واعلموا أنَّه لن ينجوَ أحدٌ منكم بعمله**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمَّدني الله برحمةٍ منه وفضل**».

---

(١) قول ابن عباس أسنده الطبري (٢٠/ ٤٢٥).

(٢) أسنده الثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٢٨٨).

(٣) أسنده الطبري (٢٠/ ٤٢٤) بنحوه.

(٤) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٢٨/ ٣٢).

(٥) برقم (٣٨) بنحوه، واللفظ لأحمد (١٥٤١٦).

(٦) كذا، ولم يخرجه مسلم، وإنما أخرجه ابن ماجه (٢٧٧)، وهو حديث صحيح بطرقه وشواهده، انظر: «أنيس الساري» (١/ ٥٥٣-٥٥٧).

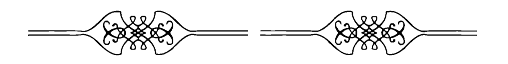
(٧) برقم (٢٨١٦/ ٧٦)، وأخرجه البخاري (٥٦٧٣) أيضًا.

فجمع في هذا الحديث مقامات الدِّين كلَّها، فأمر بالاستقامة وهي السَّدادُ والإصابةُ في النيَّات والأقوال والأعمال، وأخبر في حديث ثوبان أنَّهم لا يطيقونها، فنقلهم إلىٰ المقاربة وهي أن يقربوا من الاستقامة بحسب طاقتهم، كالذي يرمي إلىٰ الغرض، فإن لم يصبه يقاربه. ومع هذا فأخبرهم أنَّ الاستقامة والمقاربة لا تنجي يوم القيامة، فلا يركن أحدٌ إلىٰ عمله ولا يرىٰ أنَّ نجاته به، بل إنَّما نجاته برحمة الله وعفوه وفضله.

فالاستقامة كلمةٌ جامعةٌ، آخذةٌ مجامعَ الدِّين، وهي القيام بين يدي الله علىٰ حقيقة الصِّدق والوفاء بالعهد. والاستقامة تتعلَّق بالأقوال والأفعال والأحوال والنِّيات، فالاستقامة فيها: وقوعها لله وبالله وعلىٰ أمر الله.

قال بعض العارفين: كن صاحب الاستقامة، لا طالب الكرامة، فإنَّ نفسك متحرِّكة في طلب الكرامة، وربُّك يطالبك بالاستقامة[١].

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدَّس الله تعالىٰ روحه يقول: أعظم الكرامة لزوم الاستقامة[٢].



(١) ذكره القشيري (ص٤٧٣)، عن أبي علي الجوزجاني.
(٢) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١١/ ٢٩٨).

٢/ ٣٨١

فصل

منزلة التوكل

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة التوكُّل**.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[المائدة: ٢٣]، وقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[آل عمران: ١٢٢].

وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[الطلاق: ٣].

وقال عن أوليائه: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[الممتحنة: ٤]، وقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾[الملك: ٢٩].

وقال لرسوله ﷺ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾[النمل: ٧٩]، وقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾[النساء: ٨١]، وقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾[الفرقان: ٥٨]، وقال: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[آل عمران: ١٥٩].

وقال عن أنبيائه ورسله: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢]، وقال عن أصحاب نبيِّه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[آل عمران: ١٧٣].

وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾[الأنفال: ٢].

وفي «الصحيحين»[1] حديث السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنَّة بغير حسابٍ: **«هم الذين لا يَسْتَرقُون ولا يتطيَّرون، وعلىٰ ربِّهم يتوكَّلون»**.

---

(١) البخاري (٦٤٧٢) واللفظ له ومسلم (٢٢٠)، من حديث ابن عباس.

وفي «صحيح البخاري»[(١)] عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: (حسبنا الله ونعم الوكيل) قالها إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار، وقالها محمَّدٌ ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾.

وفي «الصحيحين»[(٢)]: أنّ رسول الله ﷺ كان يقول: **«اللهمَّ لك أسلمت وبك آمنت، وعليك توكَّلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، اللهمَّ أعوذ بعزَّتك لا إله إلّا أنت أن تضلَّني، أنت الحيُّ الذي لا يموت والجنُّ والإنس يموتون»**.

وفي «الترمذي»[(٣)] عن عمر رضي الله عنه مرفوعًا: **«لو أنَّكم تتوكَّلون علىٰ الله حقَّ توكُّله لرزقكم كما يرزق الطَّير، تغدو خِماصًا وتروح بِطانًا»**.

وفي «السُّنن»[(٤)] عن أنسٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من قال** يعني إذا خرج من بيته **بسم الله، توكَّلت علىٰ الله، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله، يقال له: هُديت وكُفيت ووُقيت، فيقول الشيطان لشيطانٍ آخر: كيف لك برجلٍ قد هُدي وكُفي ووُقي؟»**.

التّوكُّل نصف الدِّين، ونصفه الثاني الإنابة، فإنَّ الدين استعانة وعبادة، فالتوكُّل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة.

ومنزلته أوسع المنازل وأجمعها، ولا تزال معمورةً بالنازلين لسعة متعلَّق التوكُّل، وكثرةِ حوائج العالمين، وعمومِ التوكُّل، ووقوعِه من المؤمنين والكفار، والأبرار والفجَّار، والطير والوحش والبهائم. فأهل السماوات والأرض المكلَّفون وغيرهم في مقام التوكُّل وإن تباين متعلَّق توكُّلهم:

---

(١) برقم (٤٥٦٣).

(٢) البخاري (٧٣٨٣)، ومسلم (٢٧١٧)، من حديث ابن عباس، واللفظ لمسلم.

(٣) برقم (٢٣٤٤)، وقال: حسن صحيح.

(٤) لأبي داود (٥٠٩٥)، والنسائي (٩٨٣٧ الكبرىٰ)، والترمذي (٣٤٢٦)، وصححه ابن حبان (٨٢٢)، ولكن في سنده انقطاع، انظر: «العلل» للدارقطني (٢٣٤٦).

فأولياؤه وخاصَّته متوكِّلون عليه في حصول ما يرضيه منهم وفي إقامته في الخَلْق، فيتوكلون عليه في الإيمان ونصرة دينه وإعلاء كلمته وجهاد أعدائه، وفي محابِّه وتنفيذ أوامره.

ودون هؤلاء من يتوكَّل عليه في استقامته في نفسه، وحفظ حاله مع الله، فارغًا من الناس.

ودون هؤلاء من يتوكَّل عليه في معلومٍ يناله منه من رزقٍ، أو عافيةٍ، أو نصرٍ علىٰ عدوٍّ، أو زوجةٍ أو ولدٍ، ونحو ذلك.

ودون هؤلاء من يتوكَّل عليه في حصول ما لا يحبه ويرضاه من الظلم والعُدوان وحصول الإثم والفواحش، فإنَّ أصحاب هذه المطالب لا ينالونها غالبًا إلَّا باستعانتهم بالله وتوكُّلهم عليه، بل قد يكون توكُّلهم أقوىٰ من توكُّل كثيرٍ من أصحاب الطاعات. ولهذا يُلقون أنفسهم في المتالف والمهالك معتمدين علىٰ الله أن يسلِّمهم ويُظْفِرهم بمطالبهم.

فأفضل التوكُّل: التوكُّل في الواجب، أعني: واجبَ الحقِّ، وواجبَ الخلق، وواجبَ النفس. وأوسعه وأنفعه: التوكُّل في التأثير في الخارج في مصلحةٍ دينيَّةٍ، أو في دفع مفسدةٍ دينيَّةٍ، وهو توكُّل الأنبياء في إقامة دين الله ودفع فساد المفسدين في الأرض، وهذا توكُّل ورثتهم. ثمَّ الناس بعدُ في التوكُّل علىٰ حسب هممهم ومقاصدهم، فمن متوكِّلٍ علىٰ الله في حصول الملك، ومتوكِّلٍ في حصول رغيفٍ.

ومن صدق توكُّله علىٰ الله في حصول شيءٍ ناله، فإن كان محبوبًا له مرضيًّا كانت له فيه العاقبة المحمودة، وإن كان مسخوطًا مبغوضًا كان ما حصل له بتوكُّله مضرَّةً عليه، وإن كان مباحًا حصلت له مصلحة التوكُّل دون مصلحة ما توكَّل فيه إن لم يستعن به علىٰ طاعة.

فصل

معنىٰ التوكل ودرجاته

فلنذكر معنىٰ التوكُّل ودرجاته وما قيل فيه.

قال الإمام أحمد رضي الله عنه: التوكُّل عمل القلب[١]. ومعنىٰ ذلك أنَّه عملٌ قلبيٌّ، ليس بقول اللِّسان ولا عمل الجوارح، ولا هو من باب العلوم والإدراكات.

ومن الناس من يجعله من باب المعارف والعلوم فيقول: هو علم القلب بكفاية الربِّ للعبد.

ومنهم من يفسِّره بالسُّكون وخمود حركة القلب، فيقول: التوكُّل هو انطراح القلب بين يدي الله، كانطراح الميِّت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء[٢].

أو تركِ الاختيار والاسترسالِ مع مجاري الأقدار[٣].

قال سهلٌ: التوكُّل الاسترسال مع الله علىٰ ما يريد[٤].

ومنهم من يفسِّره بالرِّضا، فيقول: هو الرِّضا بالمقدور.

قال بشرٌ الحافي رحمه الله: يقول أحدهم: توكَّلت علىٰ الله؛ يكذب علىٰ الله، لو توكَّل علىٰ الله رضي بما يفعل الله[٥].

وسُئل يحيىٰ بن معاذٍ رضي الله عنه: متىٰ يكون الرجل متوكلًا؟ فقال: إذا رضي بالله وكيلًا[٦].

---

(١) هذا القول للجنيد، كما نقله عنه القشيري (ص٩٦).
(٢) هو قول سهل بن عبد الله التستري كما أسنده البيهقي في «شعب الإيمان» (١٢٥٠).
(٣) أسنده البيهقي في «الشعب» (١٢٣٦)، عن أبي يعقوب النَّهرَجُوري (ت٣٣٠).
(٤) ذكره الطوسي في «اللمع» (ص٥٢).
(٥) «القشيرية» (ص٤١٠).
(٦) «القشيرية» (ص٤١٠).

ومنهم من يفسِّره بالثِّقة بالله، والطُّمأنينة إليه، والسُّكون إليه.

قال ابن عطاءٍ رضي الله عنه: التوكُّل أن لا يظهر فيك انزعاجٌ إلىٰ الأسباب مع شدَّةِ فاقتك إليها، ولا تزول عن حقيقة السُّكون إلىٰ الحقِّ مع وقوفك عليها[(١)].

وقال ذو النُّون: هو ترك تدبير النفس والانخلاعُ من الحول والقوَّة[(٢)]. وإنَّما يقوىٰ العبد علىٰ التوكُّل إذا علم أنَّ الحقَّ سبحانه يعلم ويرىٰ ما هو فيه.

وقال بعضهم: التوكُّل التعلُّق بالله في كلِّ حالٍ[(٣)].

وقيل: التوكُّل أن تَرِد عليك موارد الفاقات، فلا تسمو إلَّا إلىٰ من إليه الكفايات[(٤)].

وقيل: نفي الشُّكوك والتفويض إلىٰ مالك الملوك.

وقال ذو النُّون رحمه الله: خلع الأرباب وقطع الأسباب[(٥)]؛ يريد قطعها من تعلُّق القلب بها، لا من ملابسة الجوارح لها.

ومنهم من جعله مركَّبًا من أمرين أو أمورٍ.

فقال أبو سعيدٍ الخرَّاز رحمة الله عليه: التوكُّل اضطرابٌ بلا سكونٍ وسكونٌ بلا اضطرابٍ[(٦)]. يريد: حركةَ ذاته في الأسباب بالظاهر والباطن، وسكونًا إلىٰ المسبِّب وركونًا إليه، فلا يضطرب قلبه معه، ولا تسكن حركته في الأسباب الموصلة إلىٰ رضاه.

---

(١) «القشيرية» (ص٤١٠).
(٢) إلىٰ هنا في «اللمع» (ص٥٢)، وما بعده عند القشيري (ص٤١١)، وهو من كلام القشيري لا تتمة كلام ذي النون.
(٣) ذكره القشيري (ص٤١٢)، عن أبي عبد الله القُرَشي.
(٤) انظر: «القشيرية» (ص٤١٦).
(٥) أسنده السلمي في «تفسيره» (١/ ١٧٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٣٨٠).
(٦) «القشيرية» (ص٤١٣).

وقال أبو ترابٍ النَّخشبيُّ: هو طرح البدن في العبوديَّة، وتعلُّق القلب بالرُّبوبيَّة، والطُّمأنينة إلىٰ الكفاية، فإن أعطي شكر وإن مُنع صبر[(١)]. فجعله مركَّبًا من خمسة أمورٍ: القيام بحركات العبوديَّة، وتعلُّق القلب بتدبير الربِّ وسكونُه إلىٰ قضائه وقدره، وطمأنينته بكفايته، وشكره إذا أُعطي، وصبره إذا مُنع.

قال أبو يعقوب النَّهرَجُوريُّ: التوكُّل علىٰ الله بكمال الحقيقة وقع لإبراهيم الخليل ﷺ في الوقت الذي قال لجبريل عليه السَّلام: أمَّا إليك فلا؛ لأنَّه غابت نفسه بالله، فلم ير مع الله غير الله[(٢)].

وأجمع القوم علىٰ أنَّ التوكُّل لا ينافي القيام بالأسباب، بل لا يصحُّ التوكُّل إلَّا مع القيام بها، وإلَّا فهو بطالة وتوكُّل فاسد.

وقيل: التوكُّل قطع علائق القلب بغير الله. سئل سهلٌ عن التوكُّل فقال: قلبٌ عاش مع الله بلا علاقةٍ[(٣)].

وقيل: التوكُّل هجر العلائق ومواصلة الحقائق.

ومنهم من قال: التوكُّل هو التسليم لأمر الربِّ وقضائه.

ومنهم من قال: هو التفويض إليه في كلِّ حالٍ.

ومنهم من جعل التّوكُّل بدايةً، والتسليم وساطةً، والتفويض نهايةً.

قال أبو علي الدَّقَّاق رحمه الله: التوكُّل ثلاث درجاتٍ: التوكُّل، ثم التسليم، ثم التفويض؛ فالمتوكِّل يسكن إلىٰ وعده، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه، وصاحب التفويض يرضىٰ بحكمه؛ فالتوكُّل بداية، والتسليم وساطة، والتفويض نهاية.

---

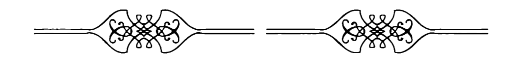
(١) ذكره الطوسي في «اللمع» (ص٥١).

(٢) «القشيرية» (ص٤١٢)، وأما خبر جبريل مع الخليل فلم يثبت مرفوعًا، انظر: «تفسير الطبري» (١٦/ ٣٠٩).

(٣) «القشيرية» (ص٤١٣).

فالتوكُّل صفة المؤمنين، والتسليم صفة الأولياء، والتفويض صفة الموحِّدين.
التوكُّل صفة العوامِّ، والتسليم صفة الخواصِّ، والتفويض صفة خاصَّة الخاصَّة.
التوكُّل صفة الأنبياء، والتسليم صفة إبراهيم الخليل، والتفويض صفة نبيِّنا ﷺ.
هذا كلُّه كلام الدَّقَّاق[1].

ومعنىٰ هذا أن التوكُّل اعتمادٌ علىٰ الوكيل، وقد يعتمد الموكِّل علىٰ وكيله مع نوع اقتراحٍ عليه وإرادةٍ وشائبةِ منازعةٍ، فإذا سلَّم إليه زال عنه ذلك، ورضي بما يفعله وكيله. وحال المفوِّض فوق هذا، فإنَّه طالبٌ مريدٌ ممَّن فوَّض إليه ملتمسٌ منه أن يتولَّىٰ أموره، فهو رضًا واختيار وتسليم واعتماد؛ فالتوكُّل يندرج في التسليم، وهو والتسليم يندرجان في التفويض.



(١) «القشيرية» (ص٤١٣، ٤١٥) متفرقًا.

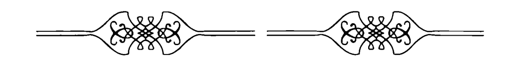
فصل

درجة الرضا

وحقيقة الأمر: أنَّ التوكُّل حالٌ مركَّبةٌ من مجموع أمورٍ، لا تتمُّ حقيقة التوكُّل إلا بها. وكلٌّ أشار إلىٰ واحدٍ من هذه الأمور أو اثنين أو أكثر.

فأوَّل ذلك: معرفةٌ بالربِّ وصفاته من قدرته، وكفايته، وقيُّوميَّته، وانتهاء الأمور إلىٰ علمه، وصدورها عن مشيئته وقدرته. وهذه المعرفة أوَّل درجةٍ يضع بها العبد قدمه في مقام التوكُّل.

قال شيخنا رحمه الله: ولذلك لا يصحُّ التوكُّل ولا يُتصوَّر من فيلسوف، ولا من القدريَّة النُّفاة القائلين بأنه يكون في ملكه ما لا يشاؤه، ولا يستقيم أيضًا من الجهميَّة النُّفاة لصفات الربِّ، ولا يستقيم التوكُّل إلّا من أهل الإثبات. فأيُّ توكُّلٍ لمن يعتقد أنَّ الله لا يعلم جُزويَّات العالم، ولا هو فاعل باختياره، ولا له إرادة ولا مشيئة، ولا يقوم به صفة؟! فكلُّ من كان بالله وصفاته أعلم وأعرف كان توكُّله أصحَّ وأقوىٰ.

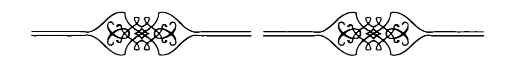


فصل

الدرجة الثانية: إثبات الأسباب والمسبَّبات، فإنَّ من نفاها فتوكُّله مدخول. وهذا عكس ما يظهر في بَدَوات الرَّأي: أنَّ إثبات الأسباب يقدح في التوكُّل، وأنَّ بنفيها تمام التوكُّل.

فالتوكُّل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب، ويندفع بها المكروه، فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التّوكُّل. ولكن من تمام التوكُّل عدم الرُّكون إلىٰ الأسباب، وقطعُ علاقة القلب بها؛ فيكون حالُ قلبِه قيامَه بالله لا بها، وحالُ بدنه قيامَه بها.

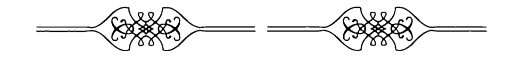
فالأسباب محلُّ حكمة الله وأمره ودينه، والتوكُّل متعلِّقٌ بربوبيَّته وقضائه وقدره، فلا تقوم عبوديَّة الأسباب إلّا علىٰ ساق التوكُّل، ولا يقوم ساق التوكُّل إلّا علىٰ قدم العبوديَّة.



فصل

الدرجة الثالثة: رسوخ القلب في مقام التوحيد، فإنَّه لا يستقيم توكُّل العبد حتىٰ يصحَّ له توحيده، بل حقيقة التّوكُّل توحيد القلب، فما دامت فيه علائق الشِّرك فتوكُّله معلول مدخول.

وعلىٰ قدر تجريد التوحيد تكون صحَّة التوكُّل، فإنَّ العبد متىٰ التفت إلىٰ غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبةً من شعب قلبه، فنقص من توكُّله علىٰ الله بقدر ذهاب تلك الشُّعبة، ومن هاهنا ظنَّ من ظنَّ أنَّ التوكُّل لا يصحُّ إلا برفض الأسباب. وهذا حق، لكن رفضها عن القلب أو عن الجوارح؟ فالتوكُّل لا يتمُّ إلا برفض الأسباب عن القلب وتعلُّق الجوارح بها، فيكون منقطعًا منها متصلًا بها.



فصل

الدرجة الرابعة: اعتماد القلب علىٰ الله واستناده إليه وسكونه إليه، بحيث لا يبقىٰ فيه اضطراب من تشويش الأسباب، ولا سكونٌ إليها، بل يخلع السُّكون إليها من قلبه، ويلبس السُّكون إلىٰ مسبِّبها.

وعلامة هذا أنَّه لا يبالي بإقبالها وإدبارها، ولا يضطرب قلبُه ويخفق عند إدبار ما يحبُّ منها وإقبالِ ما يكره، لأنَّ اعتمادَه علىٰ الله وسكونَه إليه واستنادَه إليه قد حصَّنه مِن خوفها ورجائها. فحالُه حال من خرج عليه عدوٌّ عظيمٌ لا طاقة له به، فرأىٰ حصنًا مفتوحًا، فأدخله ربُّه إليه، وأغلق عليه بابَ الحصن، فهو يشاهد عدوَّه خارج الحصن، فاضطرابُ قلبه وخوفُه منهم في هذه الحال لا معنىٰ له.

وكذلك من أعطاه ملِكٌ درهمًا، فسُرق منه، فقال له الملك: عندي أضعافه، لا تهتمَّ، متىٰ جئت إليَّ أعطيتك من خزائني أضعافه. فإذا علم صحَّة قول الملك، ووثق به، واطمأنَّ إليه، وعلم أنَّ خزائنه مليَّة بذلك= لم يحزنه فوتُه.

وقد مثَّل ذلك بحال الطِّفل الرضيع في اعتماده وسكونه وطمأنينته بثدي أمِّه لا يَعرف غيره، وليس في قلبه التفاتٌ إلىٰ غيره. كما قال بعض العارفين: المتوكِّل كالطِّفل، لا يعرف شيئًا يأوي إليه إلَّا ثدي أمِّه، كذلك المتوكِّل لا يأوي إلَّا إلىٰ ربِّه ﷻ[1].

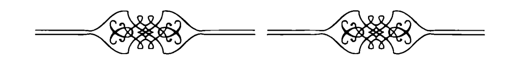
---

(١) «القشيرية» (ص٤١٦).

فصل

الدرجة الخامسة: حسن الظنِّ بالله تعالىٰ، فعلىٰ قدر حسن ظنِّك به ورجائك له يكون توكُّلك عليه. ولذلك فسّر بعضهم التوكُّل بحسن الظن فقال: التوكل حسن الظنِّ بالله[1].

والتحقيق: أن حسن الظنِّ به يدعوه إلىٰ التوكُّل عليه، إذ لا يتصوَّر التوكُّل علىٰ من تُسيء ظنَّك به، ولا التوكُّل علىٰ من لا ترجوه.



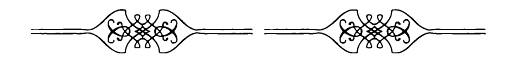
(١) هو قول عبد الله بن داود الخُريبي (ت٢١٣). أسنده ابن أبي الدنيا في «التوكل» (٣٠).

فصل

الدرجة السادسة: استسلام القلب له، وانجذاب دواعيه كلِّها إليه، وقطع منازعاته. وبهذا فسَّره من قال: أن يكون العبد بين يدي الله كالميِّت بين يدي الغاسل يقلبه كيف أراد، لا يكون له حركة ولا تدبير.

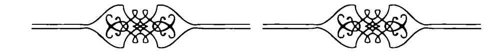
وهذا معنىٰ قول بعضهم: التوكُّل إسقاط التدبير، يعني الاستسلام لتدبير الربِّ لك. وهذا في غير باب الأمر والنهي، بل فيما يفعله بك، لا فيما أمرك بفعله.

فالاستسلام كتسليم العبد الذليل نفسه لسيِّده، وانقياده له، وترك منازعات نفسه وإراداتها مع سيِّده.



فصل

الدرجة السابعة: التفويض. وهو روح التوكُّل ولبُّه وحقيقته. وهو إلقاء أموره كلِّها إلىٰ الله، وإنزالُها به طلبًا واختيارًا، لا كرهًا واضطرارًا، بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب أمورَه إلىٰ أبيه، العالمِ بشفقته عليه ورحمته، وتمام كفايته، وحسن ولايته له وتدبيره له؛ فهو يرىٰ أنَّ تدبيره له خيرٌ من تدبيره لنفسه، وقيامَه بمصالحه وتولِّيَه لها خيرٌ من قيامه هو بمصالح نفسه وتولِّيه لها، فلا يجد له أصلح ولا أوفق من تفويضه أمورَه كلَّها إلىٰ أبيه، وراحتِه من حمل كَلِّها وثقل حملها، مع عجزه عنها وجهله بوجوه المصالح فيها، وعلمِه بكمالِ مَن فَوَّض إليه وقدرته وشفقته.



فصل

درجة الرضا

فإذا وضع قدمه في هذه الدرجة، انتقل منها إلىٰ **درجة الرِّضا**. وهي ثمرة التوكُّل. ومن فسَّر التّوكُّل بها فإنّما فسَّره بأجلِّ ثمراته وأعظم فوائده، فإنَّه إذا توكَّل حقَّ التوكُّل رضي بما يفعله وكيله.

وكان شيخنا ﷺ يقول: المقدور يكتنفه أمران: التوكُّل قبله، والرِّضا بعده، فمن توكَّل علىٰ الله قبل الفعل ورضي بالمقضيِّ له بعد الفعل فقد قام بالعبودية. أو معنىٰ هذا[1].

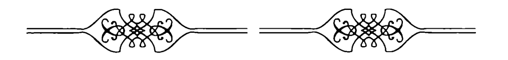
قلت: وهذا معنىٰ قوله ﷺ في دعاء الاستخارة: «**اللهمَّ إنِّي أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك**»، فهذا توكُّل وتفويض. ثمَّ قال: «**فإنَّك تعلم ولا أعلم، وتقدر ولا أقدر، وأنت علَّام الغيوب**»، فهذا تبرُّؤٌ إليه من العلم والحول والقوَّة، وتوسُّلٌ إليه سبحانه بصفاته التي هي أحبُّ ما توسَّل إليه بها المتوسِّلون. ثمَّ سأل ربَّه أن يقضي له ذلك الأمر إن كان فيه مصلحته عاجلًا وآجلًا، وأن يصرفه عنه إن كان فيه مضرَّته عاجلًا وآجلًا. فهذا هو حاجته التي سألها، فلم يبق عليه إلّا الرِّضا بما يقضيه له فقال: «**واقدر لي الخير حيث كان ثمَّ رضِّني به**».

فقد اشتمل هذا الدُّعاء علىٰ هذه المعارف الإلهيَّة والحقائق الإيمانيَّة التي من جملتها التوكُّل والتفويض قبل وقوع المقدور، والرِّضا بعده، وهو ثمرة التوكُّلِ والتفويضِ وعلامةُ صحَّته، فإن لم يرض بما قضىٰ له فتفويضه معلول فاسد.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٨/ ٧٦، ١٠/ ٣٧).

فباستكمال هذه الدرجات الثمان يستكمل العبد مقامَ التوكُّل، وتثبت قدمُه فيه. وهذا معنىٰ قول بشرٍ الحافي: يقول أحدهم: توكَّلتُ علىٰ الله؛ يكذب علىٰ الله، لو توكَّل علىٰ الله لرضي بما يفعل الله. وقولِ يحيىٰ بن معاذٍ رضي الله عنه وقد سئل: متىٰ يكون الرجل متوكِّلًا؟ فقال: إذا رضي بالله وكيلًا[1].



(١) قد سبق القولان، وهما في «القشيرية» (ص٤١٠).

فصل

الفرق بين التفويض والتضييع

وكثيرًا ما يشتبه في هذا البابِ المحمودُ الكامل بالمذموم الناقص، فيشتبه التفويض بالإضاعة، فيضيِّع العبد حظَّه ظنًّا أنَّ ذلك منه تفويض وتوكُّل، وإنَّما هو تضييعٌ لا تفويض، فالتضييع في حقِّ الله، والتفويض في حقِّك.

ومنه: اشتباه التوكُّل بالراحة وإلقاء حَمْل الكَلِّ، فيظنُّ صاحبه أنَّه متوكِّل، وإنَّما هو عاملٌ علىٰ قدم الراحة. وعلامة ذلك أنَّ المتوكِّل مجتهد في الأسباب المأمور بها غايةَ الاجتهاد، مستريحٌ من غيرها لتعبه بها، والعاملُ علىٰ الراحة آخذٌ من الأمر مقدار ما تندفع به الضرورة وتسقط به عنه مطالبة الشرع؛ فهذا لون، وهذا لون.

ومنه: اشتباه خلع الأسباب بتعطيلها. فخلعها توحيد، وتعطيلها إلحاد وزندقة، فخلعها عدمُ اعتماد القلب عليها ووثوقِه بها وركونِه إليها مع قيامه بها، وتعطيلُها إلغاؤها من الجوارح.

ومنه: اشتباه الثِّقة بالله بالغرَّة والعجز. والفرق بينهما: أنَّ الواثق بالله قد فعل ما أُمر به، ووثق بالله في طلوع ثمرته وتنميتها وتزكيتها، كغارس الشجر وباذر الأرض؛ والمغترُّ العاجز قد فرَّط فيما أُمر به، وزعم أنَّه واثقٌ بالله. والثِّقة إنما تصحُّ مع بذل المجهود.

ومنه: اشتباه الطُّمأنينة إلىٰ الله والسُّكون إليه بالطُّمأنينة إلىٰ المعلوم وسكون القلب إليه. ولا يميِّز بينهما إلَّا صاحب البصيرة، كما يُذكر عن أبي سليمان الداراني رضي الله عنه أنه رأىٰ رجلًا بمكَّة أعزَّها الله لا يتناول شيئًا إلا شربةً من ماء زمزم، فمضىٰ عليه أيام، فقال له أبو سليمان يومًا: أرأيت لو غارت زمزم، أيشٍ كنت

تشرب؟ فقام وقبَّل رأسه وقال: جزاك الله خيرًا حيث أرشدتَني، فإنِّي كنت أعبد زمزم منذ أيام، ومضىٰ[1].

وأكثر المتوكِّلين سكونُهم وطمأنينتُهم إلىٰ المعلوم، وهم يظنُّون أنه إلىٰ الله، وعلامة ذلك أنّه متىٰ انقطع معلومُ أحدهم حضره همُّه وبثُّه وخوفُه. فعُلِم أنَّ طمأنينته وسكونه لم يكن إلىٰ الله.

ومنه: اشتباه الرِّضا عن الله بكلِّ ما يفعل بعبده ممَّا يحبُّه ويكرهه بالعزم علىٰ ذلك وحديث النفس به، وذلك شيءٌ والحقيقة شيءٌ آخر. كما يحكىٰ عن أبي سليمان رضي الله عنه أنَّه قال: أرجو أن أكون قد أُعطيت طرفًا من الرِّضا، لو أدخلني النَّار كنت بذلك راضيًا! **فسمعت شيخ الإسلام ابن تيميَّة** رحمه الله **يقول**: هذا عزمٌ منه علىٰ الرِّضا وحديثُ نفسٍ به، ولو أدخله النار لم يكن من ذلك شيء، وفرقٌ بين العزم علىٰ الشيء وبين حقيقته[2].

ومنه: اشتباه علم التوكُّل بحال التوكُّل، فكثيرٌ من الناس يعرف التوكُّل وحقيقته وتفاصيله، فيظنُّ أنَّه بذلك متوكِّلٌ، وليس من أهل التوكُّل، فحال التوكُّل أمرٌ وراء العلم به. وهذا كمعرفة المحبَّة والعلم بها وأسبابها ودواعيها وحال المحبِّ العاشق، ومعرفةِ علم الخوف وحال الخوف. وهو شبيهٌ بمعرفة المريض ماهيَّة الصحَّة وحقيقتها وحالُه بخلافها.

فهذا الباب يكثر اشتباه الدعاوي فيه بالحقائق، والعوارض بالمطالب، والآفات القاطعة بالأسباب الموصلة، والله يهدي من يشاء إلىٰ صراطٍ مستقيمٍ.

---

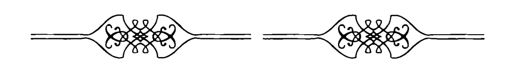
(١) «القشيرية» (ص٤١٦).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٠/ ٣٧، ٦٨٩)، و«الاستقامة» (٢/ ٨٦- ٨٧).

فصل

التوكل من أعم المقامات تعلقًا بالأسماء الحسنىٰ

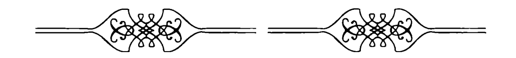
والتوكُّل من أعمِّ المقامات تعلُّقًا بالأسماء الحسنىٰ، فإنَّ له تعلُّقًا خاصًّا بعامَّة أسماء الأفعال وأسماء الصِّفات. فله تعلُّقٌ باسم الغفَّار، والتوَّاب، والعفوِّ، والرحيم. وتعلُّقًا باسم الفتَّاح، والوهَّاب، والرزَّاق، والمعطي، والمحسن. وتعلُّقًا باسم المعزِّ المذلِّ، الخافض الرَّافع، المانع، من جهة توكُّله عليه في إذلال أعداء دينه وخفضِهم ومنعِهم أسباب النصر. وتعلُّقًا بأسماء القدرة والإرادة. وله تعلُّق عامٌّ بجميع الأسماء الحسنىٰ، ولهذا فسَّره من فسَّره من الأئمة بأنَّه المعرفة بالله. وإنَّما أراد أنَّه بحسب معرفة العبد يصحُّ له مقام التوكُّل، فكلَّما كان بالله أعرف كان توكُّله عليه أقوىٰ.



فصل

الغبن في التوكل

وكثيرٌ من المتوكِّلين يكون مغبونًا في توكُّله، وقد توكَّل حقيقةَ التوكُّل وهو مغبونٌ، كمن صرف توكُّله إلىٰ حاجةٍ جزويَّةٍ استفرغ فيها قوَّة توكُّله، ويمكنه نيلها بأيسر شيءٍ، وتفريغُ قلبه للتوكُّل في زيادة الإيمان والعلم ونصرة الدِّين والتأثير في العالم خيرًا؛ فهذا توكُّل العاجز القاصر الهمَّة. كما يصرف بعضهم همَّته وتوكُّله ودعاءَه إلىٰ وجعٍ يُمكن مداواتُه بأدنىٰ شيءٍ، أو جوعٍ يمكن زوالُه بنصف درهمٍ، ويدع صَرْفه إلىٰ نصرة الدِّين وقمع المبتدعين ومصالح المسلمين.



فصل

الأصل حرمة الطلب من الخلق

الطلب من الخلق في الأصل محظور، وغايته أن يباح للضرورة كإباحة الميتة للمضطرِّ، ونصَّ أحمد رضي الله عنه على أنَّه لا يجب[١]. **وكذلك كان شيخنا يشير إليه؛ أنَّه** لا يجب الطلب والسُّؤال[٢].

وسمعته يقول في السُّؤال: «ظلمٌ في حقِّ الربوبيَّة، وظلمٌ في حقِّ الخلق، وظلمٌ في حقِّ النفس.

أمَّا في حقِّ الربوبية فلِما فيه من الذُّلِّ لغير الله، وإراقة ماء الوجه لغير خالقه، والتعوُّض عن سؤاله بسؤال المخلوقين.

وأمَّا في حقِّ الناس فبمنازعتهم ما في أيديهم بالسُّؤال واستخراجه منهم. وأبغض ما إليهم من يسألهم، وأحبُّ ما إليهم من لا يسألهم، فإنَّ أموالهم محبوباتُهم، ومن سألك محبوبك تعرَّض لمَقْتِك وبغضك.

وأمَّا في ظلم السَّائل لنفسه: حيث امتهنها وأقامها في مقام ذلِّ السُّؤال، ورضي لها بذلِّ الطّلب وأهانها بذلك، ورضي أن يكون شحَّاذًا مِن شحَّاذٍ مثله، فإنَّ من تشحذه فهو أيضًا شحَّاذ مثلك، واللهُ وحده هو الغنيُّ، فسؤال المخلوق للمخلوق سؤال الفقير للفقير»[٣].

والربُّ تعالى كلَّما سألته كَرُمتَ عليه ورضي عنك وأحبَّك، والمخلوق

---

(١) أي: لا يجب سؤال الناس عند الضرورة، مع إيجابه الأكلَ من الميتة عند الضرورة.
(٢) انظر: «الرد على البكري» (ص١٩٠)، و«جامع المسائل» (٤/ ٣٥٨).
(٣) ذكر شيخ الإسلام نحوه في «قاعدة في التوسل والوسيلة» ضمن «مجموع الفتاوى» (١/ ١٩٤-١٩٥).

كلَّما سألته هنت عليه وأبغضك وقلاك، كما قيل[(١)]:

الله يغضب إن تركت سؤاله وبُنيُّ آدمَ حين يُسأل يغضبُ

وقبيحٌ بالعبد المريد، أن يتعرَّض لسؤال العبيد، وهو يجد عند مولاه كلَّ ما يريد. وفي «صحيح مسلم»[(٢)] عن عوف بن مالكٍ الأشجعيِّ ﷺ قال: كنا عند رسول الله ﷺ تسعةً أو ثمانيةً أو سبعةً فقال: «**ألا تُبايِعُون رسول الله ﷺ ؟**»، وكنَّا حديثَ عهدٍ ببيعةٍ فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثمَّ قال: «**ألا تبايعون رسول الله؟**»، فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فعلامَ نبايعك؟ فقال: «**أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئًا، والصَّلوات الخمس**» وأسرَّ كلمةً خفيَّةً: «**ولا تسألوا الناس شيئًا**»، ولقد رأيت بعض أولئك النّفر يسقط سوطُ أحدهم فما يسأل أحدًا يناوله إيَّاه.

وفي «الصحيحين»[(٣)] عن ابن عمر عن النبيِّ ﷺ قال: «**لا تزال المسألةُ بأحدكم حتىٰ يلقىٰ اللهَ وليس في وجهه مُزعة لحمٍ**».

وفيهما[(٤)] أيضًا عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال وهو علىٰ المنبر وذكر الصَّدقة والتعفُّف عن المسألة: «**اليد العليا خيرٌ من اليد السُّفلىٰ. واليد العليا هي المنفقة، والسُّفلىٰ هي السائلة**».

وفي «صحيح مسلم»[(٥)] عن أبي هريرة ﷺ عن النبيِّ ﷺ: «**من سأل الناس تكثُّرًا فإنَّما يسأل جمرًا، فليستقلَّ أو ليستكثِرْ**».

---

(١) أنشده الأصمعي كما في «الدر الفريد» (٢/ ٤٣)، وفي «العزلة» للخطابي (ص١٨٠): أنشدني الخُزيمي.
(٢) برقم (١٠٤٣).
(٣) البخاري (١٤٧٤)، ومسلم (١٠٤٠/ ١٠٣)، واللفظ له.
(٤) البخاري (١٤٢٩)، ومسلم (١٠٣٣).
(٥) برقم (١٠٤١).

وفي «الترمذي»[(١)] عن سمرة بن جندبٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ المسألة كدٌّ يكُدُّ بها الرجل وجهه**[(٢)]**، إلاَّ أن يسأل الرجل سلطانًا، أو في أمرٍ لا بدَّ منه**». قال الترمذي: حديث صحيح.

وفيه[(٣)] عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه مرفوعًا: «**من أصابته فاقةٌ فأنزلها بالنَّاس لم تُسَدَّ فاقتُه، ومن أنزلها بالله فيوشك الله له برزقٍ عاجلٍ أو آجلٍ**».

وفي «السُّنن» و«المسند»[(٤)] عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من يَكْفُلُ لي أن لا يسأل الناس شيئًا أتكفَّلُ له بالجنَّة؟**»، فقلت: أنا. فكان لا يسأل أحدًا شيئًا.

وفي «صحيح مسلم»[(٥)] عن قبيصة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ: «**إنَّ المسألة لا تحلُّ إلّا لأحد ثلاثةٍ: رجلٌ تحمَّل حَمالةً، فحلَّت له المسألة حتَّىٰ يصيبها ثمَّ يُمْسِك. ورجلٌ أصابته جائحةٌ اجتاحت ماله فحلّت له المسألة حتىٰ يصيب قِوامًا من عيشٍ** أو قال: **سدادًا من عيشٍ. ورجل أصابته فاقةٌ حتَّىٰ يقول ثلاثةٌ من ذوي الحِجىٰ من قومه: لقد أصابت فلانًا فاقةٌ، فحلَّت له المسألة حتّىٰ يصيب قِوامًا من عيشٍ** أو قال: **سدادًا من عيشٍ. فما سِواهنَّ من المسألة يا قبيصةُ فسحتٌ يأكلها صاحبها سحتًا**».

فالتوكُّل مع إسقاط هذا الطلب والسُّؤال هو محض العبوديَّة.

---

(١) برقم (٦٨١)، وأخرجه أيضًا أبو داود (١٦٣٩)، والنسائي (٢٥٩٩).

(٢) أي: ذلٌّ يذل بها وجهه، ويُريق بها ماءه.

(٣) برقم (٢٣٢٦)، وقال: «حديث حسن صحيح غريب». وأخرجه أيضًا أبو داود (١٦٤٥)، انظر: «الصحيحة» (٢٧٨٧).

(٤) أبو داود (١٦٤٣)، وأحمد (٢٢٣٦٦)، وأخرجه أيضًا النسائي (٢٥٩٠)، وابن ماجه (١٨٣٧)، والحاكم (١/ ٤١٢). انظر: «صحيح أبي داود الأم» للألباني (٥/ ٣٤٢).

(٥) برقم (١٠٤٤).

٢/ ٤٢٢

فصل

منزلة التفويض

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة التفويض**.

قال صاحب «المنازل»[(١)]: **(وهو ألطف إشارةً وأوسع معنًىٰ من التوكُّل، فإنَّ التوكُّل بعد وقوع السبب، والتفويض قبل وقوعه وبعده. وهو عين الاستسلام، والتوكُّل شعبةٌ منه)**.

يعني: أنَّ المفوِّض يتبرَّأ من الحول والقوَّة، ويفوِّض الأمر إلىٰ صاحبه، من غير أن يقيمه مقام نفسه في مصالحه، بخلاف التوكُّل، فإنَّ الوكالة تقتضي أن يقوم الوكيل مقام الموكِّل. فالتفويض: براءةٌ وخروجٌ من الحول والقوَّة، وتسليمُ الأمر كلِّه إلىٰ مالكه[(٢)].

فيقال: وكذلك التوكُّل أيضًا. بل لو قال القائل: التوكُّل فوق التفويض وأجلُّ منه وأرفع، لكان مصيبًا. ولهذا، القرآنُ مملوء به أمرًا وإخبارًا عن خاصَّة الله وأوليائه وصفوته المؤمنين بأنَّه حالهم.

وأمر الله به رسولَه في أربعة مواضع من كتابه، وسمَّاه المتوكِّل كما في «صحيح البخاري»[(٣)] عن عبد الله بن عمرو قال: قرأت في التوراة[(٤)] صفة النبيِّ ﷺ: «محمَّدٌ رسول الله، سمَّيته المتوكِّل، ليس بفظٍّ ولا غليظٍ، ولا صخَّابٍ في الأسواق».

وأخبر عن رسله بأنَّ حالهم كان التوكُّل، وبه انتصروا علىٰ قومهم[(٥)].

---

(١) (ص٣٤).

(٢) ملخَّص من كلام التلمساني في «شرحه» (ص٢٠٣).

(٣) برقم (٢١٢٥، ٤٨٣٨).

(٤) انظر: سفر إشَعْياء، الإصحاح (٤٢).

(٥) كما في قوله تعالىٰ: ﴿مَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ

وأخبر النبيُّ ﷺ عن السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنَّة بغير حسابٍ أنَّهم أهل مقام التوكُّل[١].

ولم يجئ التفويضُ في القرآن إلَّا فيما حكاه عن مؤمن آل فرعون من قوله: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾[غافر: ٤٤].

وقد أمر الله رسوله ﷺ بأن يتَّخذه وكيلًا، فقال: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾[المزمل: ٩]. وهذا يُبطل قول من قال من جهلة القوم[٢]: إنَّ توكيل الربِّ فيه جسارةٌ على الباري، لأنَّ التوكيل يقتضي إقامة الوكيل مقام الموكِّل، وذلك عين الجسارة. قال: ولولا أنَّ الله أباح ذلك وندب إليه لما جاز للعبد تعاطيه.

وهذا من أعظم الجهل، فإنَّ اتِّخاذه وكيلًا هو محض العبوديَّة وخالص التوحيد إذا قام به صاحبه حقيقةً.

ولله درُّ سيِّد القوم وشيخ الطائفة سهل بن عبد الله إذ يقول: العلم كلُّه بابٌ من التعبُّد، والتعبُّد كلُّه باب من الورع، والورعُ كلُّه باب من الزهد، والزهد كلُّه باب من التوكُّل[٣].

فالذي نذهب إليه: أنَّ التوكُّل أوسع من التفويض وأعلى وأرفع.

قوله: (**فإنَّ التوكُّل بعد وقوع السبب، والتفويض قبل وقوعه وبعده**).

يعني بالسبب: الاكتساب، فالمفوِّض قد فوَّض أمره إلى الله قبل اكتسابه وبعد اكتسابه، والمتوكِّل قد قام بالسبب وتوكَّل فيه على الله، فصار التفويض أوسع.

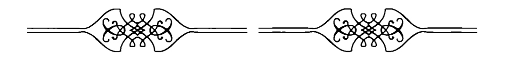
ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[إبراهيم: ١٢- ١٣].

(١) كما عند البخاري (٦٤٧٢)، ومسلم (٢٢٠)، من حديث ابن عباس.

(٢) يعني به التلمساني في «شرحه» (ص٢٠٣).

(٣) ذكره أبو طالب في «قوت القلوب» (٢/ ٣).

فيقال: والتوكُّل قد يكون قبل السبب ومعه وبعده، فيتوكَّل علىٰ الله أن يقيمه في سببٍ يوصله إلىٰ مطلوبه، فإذا قام به توكَّلَ علىٰ الله حال مباشرته، فإذا أتمَّه توكَّل علىٰ الله في حصول ثمرته؛ فيتوكَّل علىٰ الله قبله ومعه وبعده. فعلىٰ هذا هو أوسع من التفويض علىٰ ما ذكر.



٢/ ٤٣٠

فصل

منزلة الثقة بالله

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة الثِّقة بالله.**

قال صاحب «المنازل»[١]: (**الثقة: سواد عين التوكُّل، ونقطة دائرة التفويض، وسويداء قلب التسليم**).

وصدَّر الباب بقوله تعالىٰ لأمِّ موسىٰ: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّ﴾[القصص: ٧]، فإنَّ فعلها هذا هو عينُ ثقتها بالله، إذ لولا كمال ثقتها بربِّها لما ألقَتْ ولدَها وفلذةَ كبدِها في تيَّار الماء، تتلاعب به أمواجُه وجِرْياتُه إلىٰ حيث ينتهي أو يقف.

ومراده: أنَّ الثقة خلاصةُ التوكُّل ولبُّه، كما أنَّ سواد العين أشرف ما في العين.

وأشار بأنَّه (**نقطة دائرة التوكل**) إلىٰ أنَّ مدار التوكُّل عليه، وهو في وسطه كحال النقطة من الدائرة، فإنَّ النقطة هي المركز الذي عليه استدارة المحيط، ونسبة جهات المحيط إليه نسبة واحدة، وكلُّ جزءٍ من أجزاء المحيط مقابلٌ لها، كذلك الثقة هي النقطة التي يدور عليها التفويض.

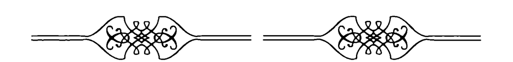
وكذلك قوله: (**سويداء قلب التسليم**)، فإنَّ القلب أشرف ما فيه سويداؤه، وهي المُهجة التي تكون بها الحياة، وهي في وسطه. فلو كان التّفويض قلبًا لكانت الثِّقة سويداءه، ولو كان عينًا لكانت سوادَها، ولو كان دائرةً لكانت نقطتها.

وقد تقدَّم أنَّ كثيرًا من الناس يفسِّر التوكُّل بالثقة ويجعله حقيقتَها، ومنهم من يفسِّره بالتفويض، ومنهم من يفسِّره بالتسليم، فعلمتَ أنَّ مقام التوكُّل يجمع ذلك كلَّه.

---

(١) (ص٣٥).

وكأنَّ الثقة عند الشّيخ هي روح التوكل، والتوكُّل كالبدن الحامل لها، ونسبتها إلىٰ التوكُّل كنسبة الإحسان إلىٰ الإيمان.



٢/ ٤٣٦

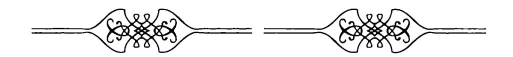
فصل

منزلة التسليم

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة التسليم**، وهي نوعان: تسليمٌ لحكمه الدينيِّ الأمريِّ، وتسليمٌ لحكمه الكوني القدري.

فأمَّا الأوَّل فهو تسليم المؤمنين العارفين. قال تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[النساء: ٦٥]، فهذه ثلاث مراتب: التحكيم، وسعة الصدر بانتفاء الحرج، والتسليم.

وأما التسليم للحكم الكوني فمزلَّة أقدام، ومضلَّة أفهام، حيَّر الأنام، وأوقع الخصام. وهي مسألة الرِّضا بالقضاء، وقد تقدَّم الكلام عليها بما فيه كفاية [(١)]، وبينَّا أنَّ التسليم للقضاء يُحمَد إذا لم يؤمر العبد بمنازعته ودفعه ولم يقدر علىٰ ذلك، كالمصائب التي لا قدرة له علىٰ دفعها. وأمَّا الأحكام التي أُمِر بدفعها، فلا يجوز له التسليم إليها، بل العبوديَّة مدافعتُها بأحكامٍ أُخَر أحبَّ إلىٰ الله منها.



(١) تقدم في أصل الكتاب (١/ ٣٩١- ٣٩٩)، وسيأتي أيضًا في منزلة الرضا.

فصل

التسليم هو الخلاص من الشبهة والشهوة

اعلم أنَّ التسليم هو الخلاص من شُبهةٍ تعارض الخبر، أو شهوةٍ تعارض الأمر، أو إرادةٍ تعارض الإخلاص، أو اعتراضٍ يعارض القدر والشرع.

وصاحب هذا التخلُّص هو صاحب القلب السليم الذي لا ينجو إلَّا من أتىٰ الله به، فإنَّ التسليم ضدُّ المنازعة.

والمنازعة إمَّا **بشبهةٍ فاسدةٍ تعارض الإيمان بالخبر** عمَّا وصف الله تعالىٰ به نفسه من صفاته وأفعاله، أو ما أخبر به من اليوم الآخر، وغير ذلك. فالتسليم له ترك منازعته بشبهات المتكلِّمين الباطلة.

وإمَّا بشهوةٍ تعارض أمر الله. فالتسليم للأمر بالتخلُّص منها.

أو إرادةٍ تعارض مراد الله من عبده، فتعارِضُه إرادةٌ تتعلَّق بمراد العبد من الربِّ. فالتسليم بالتخلُّص منها.

أو اعتراضٍ يعارض حكمته في خلقه وأمره، بأن يظنَّ أنَّ مقتضىٰ الحكمة خلاف ما شرع، وخلاف ما قضىٰ وقدَّر.

فالتسليم: التخلُّص من هذه المنازعات كلِّها.

وبهذا يتبيَّن أنَّه من أجلِّ مقامات الإيمان وأعلىٰ طرق الخاصَّة، وأنَّ التسليم هو محض الصدِّيقيَّة التي هي بعد درجة النبوَّة، وأنَّ أكمل الناس تسليمًا أكملُهم صدِّيقيَّةً.

٢/ ٤٤٥

﴿ فصل ﴾

منزلة الصبر

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة الصبر.**

قال الإمام أحمد: ذكر اللهُ الصبر في القرآن في نحوٍ من تسعين موضعًا[(١)].

وهو واجب بإجماع الأمَّة. وهو نصف الإيمان[(٢)]، فإنَّ الإيمان نصفان: نصفٌ صبرٌ ونصفٌ شكرٌ.

وهو في القرآن علىٰ ستَّة عشر نوعًا.

الأوَّل: الأمر به، نحو قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾[البقرة: ١٥٣]، وقوله: ﴿ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾[آل عمران: ٢٠٠]، وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾[النحل: ١٢٧].

الثاني: النهي عن ضدِّه، كقوله: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ﴾[الأحقاف: ٣٥]، وقوله: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾[الأنفال: ١٥]، فإنَّ تولية الأدبار تركٌ للصبر والمصابرة. وقوله: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾[محمد: ٣٣]، فإنَّ إبطالها ترك للصبر علىٰ إتمامها. وقوله: ﴿وَلَا تَهِنُواْ﴾[آل عمران: ١٣٩]، فإنَّ الوهن من عدم الصبر.

الثالث: الثناء علىٰ أهله، كقوله: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾[آل عمران: ١٧]، وقوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[البقرة: ١٧٧]. وهو كثيرٌ في القرآن.

---

(١) سبق ذكره.

(٢) كما قال ابن مسعود فيما أخرجه عنه وكيع في «الزهد» (٢٠٣).

الرابع: إيجابه سبحانه محبَّته لهم، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[آل عمران: ١٤٦].

الخامس: إيجاب معيَّته لهم، وهي معيَّة خاصَّة تتضمَّن حفظهم ونصرهم وتأييدهم، ليست معيَّةً عامَّةً وهي معيَّة العلم والإحاطة، كقوله: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[الأنفال: ٤٦]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[البقرة: ٢٤٩].

السادس: إخباره بأنَّ الصبر خيرٌ لأصحابه، كقوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾[النحل: ١٢٦]، وقوله: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[النساء: ٢٥].

السابع: إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم، كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[النحل: ٩٦].

الثامن: إيجابه الجزاء لهم بغير حساب، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[الزمر: ١٠].

التاسع: إطلاق البشرىٰ لأهل الصبر، كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[البقرة: ١٥٥].

العاشر: ضمان النصر والمدد لهم، كقوله: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[آل عمران: ١٢٥]. ومنه قول النبي ﷺ: «**إنَّ النصر مع الصبر**»[١].

الحادي عشر: الإخبار أنَّ أهل الصبر هم أهل العزائم، كقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[الشورىٰ: ٤٣].

الثَّاني عشر: الإخبار أنَّه ما يُلقَّىٰ الأعمالَ الصالحة وجزاءها والحظوظ إلَّا

---

(١) أخرجه أحمد (٢٨٠٣)، الحاكم (٣/ ٥٤١، ٥٤٢)، وغيرهما، من طرق فيها لينٌ، من حديث ابن عبَّاس. وأصل الحديث مروي بإسناد حسن عند الترمذي (٢٥١٦) دون هذه اللفظة، انظر: «جامع العلوم والحكم» (الحديث التاسع عشر).

أهلُ الصبر، كقوله: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠]، وقوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥].

الثالث عشر: الإخبار أنَّه إنَّما ينتفع بالآيات والعبر أهلُ الصبر، كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥]، وقوله في أهل سبإٍ: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٩]، وقوله في سورة الشُّورىٰ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورىٰ: ٣٢].

الرابع عشر: الإخبار بأنَّ الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب ودخول الجنَّة إنَّما نالوه بالصبر، كقوله تعالىٰ: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣].

الخامس عشر: أنَّه يورث صاحبه درجة الإمامة. سمعتُ شيخ الإسلام ابن تيميّة قدَّس الله روحه يقول: بالصَّبر واليقين تُنال الإمامة في الدِّين، ثمَّ تلا قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤][(١)].

السادس عشر: اقترانُه بمقامات الإسلام والإيمان، كما قرنه سبحانه باليقين وبالإيمان، وبالتقوىٰ والتوكُّل والشُّكر والعمل والمرحمة.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ٣٥٨، ٦/ ٢١٥، ١٠/ ٣٩)، و«جامع المسائل» (١/ ١٦٨).

ولهذا كان الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له، كما أنَّه لا جسد لمن لا رأس له. قال عمر بن الخطَّاب: خير عيشٍ أدركناه بالصبر[(١)].

وأخبر النبيُّ ﷺ في الحديث الصحيح أنَّه ضياء[(٢)]. وقال: «**من يتصبَّر يصبِّرْه الله**»[(٣)].

وفي «الصحيح»[(٤)] عنه: «**عجبًا لأمرِ المؤمن، إنَّ أمرَه كلَّه خير، وليس ذلك لأحدٍ إلَّا للمؤمن؛ إن أصابته سرَّاء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيرًا له**».

وقال للمرأة السَّوداء التي كانت تُصرَع فسألته أن يدعو لها: «**إن شئت صبرت ولك الجنّة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك**»، فقالت: إنِّي أتكشَّف فادع الله أن لا أتكشَّف، فدعا لها[(٥)].

وأمر الأنصار بأن يصبروا علىٰ الأَثَرة التي يَلقَونها بعده، حتَّىٰ يلقوه علىٰ الحوض[(٦)].

وأمر عند ملاقاة العدوِّ بالصبر[(٧)].

وأمر بالصبر عند المصيبة وأخبر أنَّه عند الصدمة الأولىٰ[(٨)].

وأمر المصاب بأنفع الأمور له وهو الصبر والاحتساب[(٩)]، فإنَّ ذلك يخفِّف مصيبته ويوفِّر أجره، والجزع والسخط والتشكِّي يزيد المصيبة ويُذهب الأجر.

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٦٣٠)، وضعفه ابن كثير في «مسند الفاروق» (٣/ ٥٤).

(٢) كما في حديث أبي مالك الأشعري عند مسلم (٢٢٣).

(٣) أخرجه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣)، من حديث أبي سعيد الخدري.

(٤) «صحيح مسلم» (٢٩٩٩)، من حديث صهيب.

(٥) أخرجه البخاري (٥٦٥٢)، ومسلم (٢٥٧٦)، من حديث ابن عباس.

(٦) كما في حديثي أنس وعبد الله بن زيد بن عاصم عند البخاري (٣١٤٧، ٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٥٩، ١٠٦١).

(٧) كما في حديث عبد الله بن أبي أوفىٰ عند البخاري (٢٩٦٥)، ومسلم (١٧٤٢).

(٨) كما في حديث أنس عند البخاري (١٢٨٣)، ومسلم (٩٢٦).

(٩) كما في أمره ﷺ ابنته بذلك حين احتُضر ابنها، أخرجه البخاري (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣)، من حديث أسامة بن زيد.

فصل

الصبر هو حبس النفس عن الجزع والتسخط

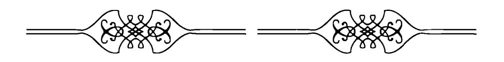
الصبر في اللُّغة: الحبس والكفُّ. ومنه: قُتِل فلان صبرًا، إذا أُمسك وحُبِس للقتل. ومنه قوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[الكهف: ٢٨]، أي: احْبِس نفسك معهم.

فالصبر: حبس النفس عن الجزع والتسخُّط، وحبس اللِّسان عن الشكوىٰ، وحبس الجوارح عن التشويش.

وهو ثلاثة أنواعٍ: صبر علىٰ طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر علىٰ امتحان الله. فالأوَّلان: صبرٌ علىٰ ما يتعلَّق بالكسب، والثالث: صبرٌ علىٰ ما لا كسب للعبد فيه.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيميَّة قدَّس الله روحه يقول: وكان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز عن شأنها أكملَ من صبره علىٰ إلقاء إخوته له في الجُبِّ وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه، فإنَّ هذه أمورٌ جرت عليه بغير اختياره، لا كسب له فيها، ليس للعبد فيها حيلةٌ غير الصبر. وأمَّا صبره عن المعصية، فصبرُ اختيارٍ ورضًا ومحاربةٍ للنفس، ولا سيَّما مع الأسباب التي يَقْوىٰ معها داعي المُواقعة، فإنَّه كان شابًّا وداعية الشباب إليها قويَّةٌ، وعزَبًا ليس له ما يعوِّضه ويبرِّد شهوته، وغريبًا والغريبُ لا يستحيي في بلد غربته ممَّا يستحيي منه بين أصحابه ومعارفه وأهله، ومملوكًا والمملوكُ أيضًا ليس وازعه كوازع الحرِّ؛ والمرأةُ جميلة وذات منصبٍ وهي سيِّدته، وقد غاب الرقيب، وهي الداعية له إلىٰ نفسها والحريصة علىٰ ذلك أشدَّ الحرص، ومع ذلك توعَّدته إن لم يفعل بالسِّجن والصَّغار؛ ومع هذه الدواعي كلِّها صبر اختيارًا وإيثارًا لما عند الله. وأين هذا من صبره في الجبِّ علىٰ ما ليس من كسبه؟!

وكان يقول: الصبر علىٰ أداء الطاعات أكملُ من الصبر عن اجتناب المحرَّمات وأفضل، فإنَّ مصلحة فعل الطاعة أحبُّ إلىٰ الشارع من مصلحة ترك المعصية، ومفسدةَ عدم الطاعة أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية. وله في ذلك مصنَّفٌ قرَّره فيه بنحوٍ من عشرين وجهًا[1]، ليس هذا موضع ذكرها. والمقصود: الكلام علىٰ الصبر وحقيقته ودرجاته ومرتبته.



(١) هي مطبوعة ضمن «مجموع الفتاوىٰ» (٢٠/ ٨٥-١٥٨) علىٰ نقص في آخرها.

فصل

الصبر ثلاثة أنواع

وهو ثلاثة أنواعٍ: صبرٌ بالله، وصبرٌ لله، وصبرٌ مع الله.

فالأوَّل: الاستعانة به، ورؤية أنَّه هو المصبِّر، وأنَّ صبر العبد بربِّه لا بنفسه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾[النحل: ١٢٧]، يعني: إن لم يصبِّرك هو لم تصبر.

والثاني: أن يكون الباعث علىٰ الصَّبر محبَّةَ الله وإرادةَ وجهِه والتقرُّبِ إليه، لا إظهارَ قوَّة النفس، والاستحمادَ إلىٰ الخلق، وغيرَ ذلك من الأغراض.

والثالث: دوران العبد مع مراد الله الدِّينيِّ منه، ومع أحكامه الدِّينيَّة، صابرًا نفسه معها، سائرًا بسيرها، مقيمًا بإقامتها، يتوجَّه معها أين توجَّهت ركائبها، وينزل معها أين استقلَّت مضاربها. فهذا معنىٰ كونه صابرًا مع الله، أي قد جعل نفسه وقفًا علىٰ أوامره ومحابِّه. وهو أشدُّ أنواع الصبر وأصعبُها، وهو صبر الصِّدِّيقين.

قال الجنيد: المسير من الدُّنيا إلىٰ الآخرة سهل هيِّن علىٰ المؤمن، وهجران الخلق في جنب الله شديد، والمسير من النفس إلىٰ الله صعب شديد، والصَّبر مع الله أشدُّ[1].

وسئل عن الصبر، فقال: تجرُّع المرارة من غير تعبيسٍ[2].

وقال ذو النُّون: الصبر: التباعد من المخالفات، والسُّكون عند تجرُّع غُصَص البليَّة، وإظهار الغنىٰ مع حلول الفقر بساحات المعيشة[3].

---

(١) «القشيرية» (ص٤٣٨).

(٢) «القشيرية» (ص٤٣٩).

(٣) «تفسير السلمي» (٢/ ١٨٩)، و«القشيرية» (ص٤٣٩)، وأسنده أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٣٦١-٣٦٢)، والبيهقي في «الشعب» (٩٣٦٥) بنحوه.

وقيل: الصبر: الوقوف مع البلاء بحسن الأدب[(١)].

وقيل: هو الفناء في البلوىٰ، بلا ظهور شكوىٰ[(٢)].

وقيل: تعويد النفس الهجوم علىٰ المكاره[(٣)].

وقيل: المقام مع البلاء بحسن الصُّحبة، كالمقام مع العافية[(٤)].

وقال عمرو بن عثمان: هو الثبات مع الله، وتلقِّي بلائه بالرحب والدَّعة[(٥)].

وقال الخوَّاص: هو الثبات علىٰ أحكام الكتاب والسنة[(٦)].

وقال يحيىٰ بن معاذٍ: صبر المحبِّين أشدُّ من صبر الزاهدين، وا عجبي كيف يصبرون؟! وأنشد:

والصبر يَجمُل في المواطن كلِّها ... إلَّا عليك فإنَّه لا يجمُلُ[(٧)]

وقيل: الصبر هو الاستعانة بالله[(٨)].

وقيل: هو ترك الشكوىٰ[(٩)].

وقيل[(١٠)]:

الصَّبر مثل اسمه مُرٌّ مذاقتُه ... لكن عواقبه أحلىٰ من العسلِ

(١) ذكره القشيري (ص٤٣٩)، عن ابن عطاء الأدمي (ت٣٠٩).
(٢) «القشيرية» (ص٤٣٩) بلا نسبة.
(٣) ذكره السلمي في «تفسيره» (٢/ ١٣٤)، والقشيري (ص٤٤٠)، عن أبي عثمان.
(٤) ذكره السلمي في «تفسيره» (٢/ ١١٩)، والقشيري (ص٤٤٠) بلا نسبة.
(٥) «القشيرية» (ص٤٤٠).
(٦) «تفسير السلمي» (١/ ٣٦٦)، و«القشيرية» (ص٤٤٠).
(٧) «القشيرية» (ص٤٤٠).
(٨) ذكره القشيري (ص٤٤٠)، عن ذي النون.
(٩) ذكره القشيري (ص٤٤٠)، عن رويم، وأسنده عنه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٣٠١)، والبيهقي في «الشعب» (٩٦٠٧).
(١٠) البيت لمحمود بن الحسين «كشاجم» في ديوانه (ص٤٦٠) مع اختلاف في الصدر.

وقيل: الصبر أن ترضىٰ بتلف نفسك في رضا من تحبُّه، كما قيل[1]:

سأصبر كي ترضىٰ وأَتلَفُ حسرةً وحسبيَ أن ترضىٰ ويُتلفني صبري

وقيل: مراتب الصبر خمسة: صابر، ومُصطبِر، ومتصبِّر، وصَبور، وصبَّار. فالصابر أعمُّها، والمصطبر: المكتسب الصبر المليء به، والمتصبِّر: متكلِّف الصبر حاملٌ نفسَه عليه، والصبور: العظيم الصبر الذي صبره أشدُّ من صبر غيره، والصبَّار: الكثيرُ الصبرِ، فهذا في القدر والكمِّ، والذي قبله في الوصف والكيف.

وقال عليُّ بن أبي طالبٍ: الصبر مطيَّة لا تكبو[2].

وقال الجُرَيريُّ: الصبر أن لا يفرِّق بين حال النعمة وحال المحنة، مع سكون الخاطر فيهما. والتصبُّر هو السُّكون مع البلاء، مع وجدان أثقال المحنة[3].

قال أبو عليٍّ الدقَّاق: فاز الصابرون بعزِّ الدارين، لأنهم نالوا من الله معيَّته، فإنَّ الله مع الصّابرين[4].

وقيل في قوله: ﴿ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] إنَّه انتقالٌ من الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ، فالصبر دون المصابرة، والمصابرة دون المرابطة. والمرابطة مفاعلة من الربط وهو الشدُّ، وسمِّي المرابط مرابطًا لأنَّ المرابطين يربطون خيولهم ينتظرون الفزع، ثمَّ قيل لكلِّ منتظرٍ قد ربط نفسه لطاعةٍ ينتظرها: مرابطٌ، ومنه قول النبي ﷺ: **«ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟ إسباغ الوضوء علىٰ المكاره، وكثرة الخُطا إلىٰ المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة؛ فذلكم الرِّباط، فذلكم الرِّباط»**[5].

---

(١) البيت لابن عطاء الأدمي في «القشيرية» (ص٤٤١)
(٢) ذكره القشيري (ص٤٤١).
(٣) أسنده القشيري (ص٤٤١).
(٤) ذكره القشيري (ص٤٤١) سماعًا منه، وهو شيخه.
(٥) أخرجه مسلم (٢٥١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقيل: اصبروا بنفوسكم علىٰ طاعة الله، وصابروا بقلوبكم علىٰ البلوىٰ في الله، ورابطوا بأسراركم علىٰ الشوق إلىٰ الله.

وقيل: اصبروا في الله، وصابروا بالله، ورابطوا مع الله[(١)].

وقيل: اصبروا علىٰ النعماء، وصابروا علىٰ البأساء والضراء، ورابطوا في دار الأعداء، واتقوا إله الأرض والسماء لعلَّكم تفلحون في دار البقاء[(٢)].

فالصبر: مع نفسك، والمصابرة: بينك وبين عدوِّك، والمرابطة: الثبات وإعداد العدَّة. وكما أنّ الرِّباط لزوم الثغر لئلَّا يهجم منه العدوُّ، فكذلك المرابطة أيضًا لزوم ثغر القلب لئلَّا يهجم عليه الشيطان، فيملكه أو يُخربه أو يشعِّثه.

وقيل: تجرَّعِ الصبرَ، فإن قتلك قتلك شهيدًا، وإن أحياك أحياك عزيزًا[(٣)].

وقيل: الصبر لله عناء، وبالله بقاء، وفي الله بلاء، ومع الله وفاء، وعن الله جفاءٌ. والصَّبر علىٰ الطلب عنوان الظَّفَر، وفي المحن عنوانُ الفَرَج[(٤)].

وفي كتاب «الأدب»[(٥)] للبخاري: سئل رسول الله ﷺ عن الإيمان؟ فقال: «**الصبر والسماحة**». ذكره عن موسىٰ بن إسماعيل، قال: حدثنا سُوَيد، حدثنا عبد الله بن عبيد بن عميرٍ عن أبيه عن جدِّه فذكره.

وهذا من أجمع الكلام وأعظمه برهانًا، وأوعبه لمقامات الإيمان من أوَّلها إلىٰ آخرها. فإنَّ النفس يراد منها شيئان:

- بذل ما أُمِرت به وإعطاؤه، فالحامل عليه السماحة.

---

(١) هذا القول والذي قبله ذكرهما القشيري (ص٤٤٢) بلا نسبة.
(٢) أورده الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٥٩٧)، والبغوي في «معالم التنزيل» (٢/ ١٥٧).
(٣) «القشيرية» (ص٤٤٢) بلا نسبة.
(٤) «القشيرية» (ص٤٤٢) بلا نسبة.
(٥) أي المفرد، وليس فيه، وهو في «التاريخ الكبير» (٥/ ٢٥)، معلَّقًا عن سويد به، وله شواهد قد يرتقي بمجموعها إلىٰ درجة الحسن، انظر: «الصحيحة» للألباني (٥٥١، ١٤٩١، ١٤٩٥).

- وترك ما نُهيت عنه والبعدُ منه، فالحامل عليه الصبر.

وقد أمر الله سبحانه في كتابه بالصبر الجميل والصفح الجميل والهجر الجميل، فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدَّس الله روحه يقول: الصبر الجميل الذي لا شكوىٰ معه، والصفح الجميل: الذي لا عتاب معه، والهجر الجميل: الذي لا أذىٰ معه[١].

وفي أثرٍ إسرائيلي: أوحىٰ الله إلىٰ نبيٍّ من أنبيائه: أنزلتُ بعبدي بلائي فدعاني، فماطلته بالإجابة فشكاني، فقلت: عبدي، كيف أرحمك من شيءٍ به أرحمك؟![٢].

وقال ابن عيينة في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤]: أخذوا برأس الأمر فجعلهم رؤوسًا[٣].

وقيل: صبر العابدين أحسنه أن يكون محفوظًا، وصبر المحبِّين أحسنه أن يكون مرفوضًا، كما قيل[٤]:

تبيَّن يومَ البَينِ أنَّ اعتزامه ... علىٰ الصبر من إحدىٰ الظُّنون الكواذبِ

والشكوىٰ إلىٰ الله ﷻ لا تنافي الصبر، فإنَّ يعقوب ﵇ وعد بالصبر الجميل، والنبيُّ إذا وعد لا يخلف، ثمَّ قال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]. وكذلك أيُّوب أخبر الله عنه أنَّه وجده صابرًا مع قوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[الأنبياء: ٨٣].

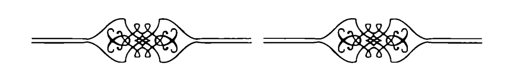
وإنّما ينافي الصبر شكوىٰ الله، لا الشكوىٰ إليه. كما رأىٰ بعضهم رجلًا يشكو إلىٰ آخر فاقةً وضرورةً، فقال: يا هذا، تشكو مَن يرحمك إلىٰ من لا يرحمك؟

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٠/ ٦٦٦).
(٢) «القشيرية» (ص٤٤٥).
(٣) ذكره القشيري (ص٤٤٥).
(٤) «القشيرية» (ص٤٤٦)، والبيت للأمير عبد الله بن طاهر في «الأغاني» (٥/ ٤٢٧).

ثمَّ أنشده[1]:

وإذا عرتك بليَّةٌ فاصبر لها   صبرَ الكريم فإنَّه بك أعلم

وإذا شكوت إلىٰ ابن آدم إنَّما   تشكو الرحيم إلىٰ الذي لا يرحم



(١) الخبر مع البيتين في «طريق الهجرتين» (١/ ١٣٥)، والبيتان نُسبتا في «الكشكول» (١/ ٧٤) إلىٰ علي زين العابدين.

فصل

درجات الصبر

قال صاحب «المنازل»[1]: (**وهو على ثلاث درجاتٍ. الدرجة الأولى: الصبر عن المعصية، بمطالعة الوعيد، إبقاءً على الإيمان وحذرًا من الحرام. وأحسن منها: الصبر عن المعصية حياءً**).

ذكر للصبر عن المعصية سببين وفائدتين.

أمَّا السببان: فالخوف من لحوق الوعيد المترتِّب عليها. والثَّاني: الحياء من الربِّ تعالى أن يستعان على معاصيه بنعمه، وأن يبارز بالعظائم.

وأمَّا الفائدتان: فالإبقاء على الإيمان، والحذر من الحرام.

فأمَّا مطالعة الوعيد والخوف منه، فيبعث عليه قوَّةُ الإيمان بالخبر والتصديقُ بمضمونه.

وأمّا الحياء، فيبعث عليه قوَّةُ المعرفة ومشاهدةُ معاني الأسماء والصفات. وأحسن من ذلك: أن يكون الباعث عليه وازع الحبِّ، فيترك معصيته محبَّةً له، كحال الصُّهَيبيِّين[2].

وأمّا الفائدتان، فالإبقاء على الإيمان يبعث على ترك المعصية، لأنها لا بدَّ أن تَنقصه، أو تَذهب به، أو تُذهب رونقَه وبهجته، أو تطفئ نوره، أو تُضعف قوَّتَه، أو تَنقص ثمرته. وهذا أمرٌ ضروريٌّ بين المعصية وبين الإيمان، يُعلم بالوجود والخبر والعقل، كما صحَّ عنه ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا**

(١) (ص٣٨).

(٢) إشارة إلى ما ذُكر عن عمر أنه قال: «نعم العبد صُهَيب، لو لم يخف الله لم يعصِه»، قال ابن كثير في «مسند الفاروق» (٣/ ١١٥): «لم أره إلى الآن بإسنادٍ عن عمر»، وانظر: «الضعيفة» للألباني (١٠٠٦، ٣١٧٩).

يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يَنْتَهِبُ نُهبةً ذاتَ شرفٍ يرفع إليه الناسُ فيها أبصارَهم حين يَنْتَهِبُها وهو مؤمن، فإيَّاكم إيَّاكم، والتوبة معروضةٌ بعد»[١].

وأمَّا الحذر عن الحرام، فهو الصبر عن كثيرٍ من المباح حذرًا من أن يسوقه إلىٰ الحرام.

ولمَّا كان الحياء من شِيَم الأشراف وأهل الكرم والنُّفوس الزكيَّة، كان صاحبُه أحسنَ حالًا من أهل الخوف.

ولأنَّ في الحياء من الله ما يدلُّ علىٰ مراقبته وحضور القلب معه.

ولأنَّ فيه من تعظيمه وإجلاله ما ليس في وازع الخوف، فمَن وازِعُه الخوف: قلبه حاضرٌ مع العقوبة، ومَن وازعه الحياء: قلبه حاضرٌ مع الله. والخائف مراعٍ جانبَ نفسه وحمايتِها، والمستحيي مراعٍ جانبَ ربِّه وملاحظة عظمته.

وكلا المقامين من مقامات أهل الإيمان، غير أنَّ الحياء أقرب إلىٰ مقام الإحسان وألصق به، فإنه إذا نزَّل نفسَه منزلةَ مَن كأنَّه يرىٰ اللهَ نبعَتْ ينابيعُ الحياء من عين قلبه وتفجَّرت عيونها.

قال[٢]: **(الدرجة الثانية: الصبر علىٰ الطاعة بالمحافظة عليها دوامًا، وبرعايتها إخلاصًا، وبتحسينها علمًا).**

هذا يدلُّ علىٰ أنَّ عنده: أنَّ فعل الطاعة آكد من ترك المعصية، فيكون الصبر عليها فوق الصبر علىٰ ترك المعصية في الدرجة. وهذا هو الصواب كما تقدَّم، فإنَّ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧)، من حديث أبي هريرة، وزيادة «فإيَّاكم إيَّاكم» جاءت في بعض الطرق عند مسلم (٥٧/ ١٠٣)، والظاهر أنها من لفظ أبي هريرة كما جاء مصرَّحًا عند عبد الرزاق (١٣٦٨٤).

(٢) «المنازل» (ص٣٨).

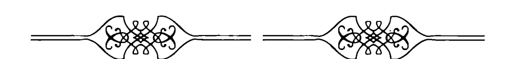
تـرك المعصيـة إنَّمـا كان لتكميـل الطاعـة، والنهيُ مقصـودٌ للأمـر، فالمنهـيُّ عنـه لمَّـا كان يُضعـف المأمـور بـه ويَنقصـه ويُهَجِّنـه= نهىٰ عنـه حمايـةً وصيانـةً لجانـب الأمر، فجانـبُ الأمر أقـوىٰ وآكـد. وهـو بمنزلـة الصحَّـة والحيـاة، والنهـي بمنزلـة الحِمْيـة التي تـراد لحفظ الصِّحَّـة وأسباب الحياة.

وذكـر الشـيخ أنَّ الصَّـبر في هذه الدرجة بثلاثة أشـياء: دوام الطاعة، والإخلاص فيهـا، ووقوعها علىٰ مقتضىٰ العلم وهو (**تحسـينها علمًا**).

فـإنَّ الطاعـة تتخلَّـف مـن فـوات واحدٍ من هذه الثلاثـة، فإنَّه إن لـم يحافظ عليها دوامًـا عطَّلهـا، وإن حافـظ عليها دوامًا عـرض لها آفتان.

إحداهمـا: تـرك الإخـلاص فيها، بأن يكـون الباعث عليها غير وجـه الله وإرادتِه والتقـرُّب إليـه. فحفظهـا من هذه الآفـة برعاية الإخلاص.

الثانيـة: أن لا تكـون مطابقـةً للعلـم، بحيـث لا تكون علىٰ اتِّباع السـنَّة. فحفظها مـن هـذه الآفـة بتجريـد المتابعـة، كمـا أنَّ حفظهـا مـن تلك بتجريـد القصـد والإرادة. فلذلـك قـال: (**بالمحافظـة عليها دوامًـا، ورعايتهـا إخلاصًا، وتحسـينها علمًا**).



فصل

قال[١]: **(الدرجة الثالثة: الصبرُ في البلاء بملاحظة حسن الجزاء، وانتظارِ رَوح الفرج، وتهوينِ البليَّة بِعَدِّ أيادي المنن وتذكُّر سوالف النِّعم)**.

هذه ثلاثة أشياء تبعث علىٰ الصبر في البلاء.

أحدها: ملاحظة حسن الجزاء، وعلىٰ حسب ملاحظته والوثوق به ومطالعته يخِفُّ حملُ البلاء لشهود العوض. وهذا كما يخفُّ علىٰ كلِّ متحمِّلٍ مشقَّةً عظيمةً حملُها لِما يلاحظه من لذَّة عاقبتها وظفره بها. ولولا ذلك لتعطَّلت مصالح الدُّنيا والآخرة. وما أقدم أحدٌ علىٰ تحمُّل مشقَّةٍ عاجلةٍ إلَّا لثمرةٍ مؤجَّلةٍ؛ فالنفس مُوكَّلةٌ بحبِّ العاجل، وإنَّما خاصَّة العقل تلمُّح العواقبِ ومطالعةُ الغايات.

وأجمع العقلاء من كلِّ أمَّةٍ علىٰ أنَّ النعيم لا يُدرَك بالنعيم، وأنَّ من رافق الراحة فارق الراحة، وأن علىٰ قدر التعب تكون الراحة.

علىٰ قدر أهل العزم تأتي العزائمُ ... وتأتي علىٰ قدر الكريم الكرائم

ويَكبُر في عين الصغير صغيرُها ... وتصغر في عين العظيم العظائمُ[٢]

والقصد: أنَّ ملاحظة حسن العاقبة تُعين علىٰ الصبر فيما تتحمَّله باختيارك وغير اختيارك.

والثاني: انتظار رَوح الفرج، يعني راحته ونسيمه ولذَّته، فإنَّ انتظاره ومطالعته وترقُّبه يخفِّف حمل المشقَّة، ولا سيَّما عند قوَّة الرجاء والقطع بالفَرَج، فإنَّه يجد

---

(١) «المنازل» (ص٣٩).
(٢) البيتان للمتنبي في «ديوانه» (٤/ ٩٤).

في حشو البلاء من رَوح الفرج ونسيمه وراحته ما هو مِن خفيٍّ الألطاف، وما هو فرجٌ معجَّل. وبه وبغيره يُفهَم معنىٰ اسمه اللطيف.

والثالث: تهوين البليَّة بأمرين:

أحدهما: أن يَعُدَّ نعم الله عليه وأياديه عنده. فإذا عجَز عن عدِّها وأيس من حصرها، هان عليه ما هو فيه من البلاء، ورآه بالنِّسبة إلىٰ أيادي الله ونعمه كقطرةٍ من بحرٍ.

الثّاني: أن يذكر سوالف النِّعم التي أنعم الله بها عليه. فهذا يتعلَّق بالماضي، وتعداد أيادي المنن يتعلَّق بالحال، وملاحظة حسن الجزاء وانتظار رَوح الفرج يتعلق بالمستقبل، وأحدهما في الدُّنيا والثاني يوم الجزاء.

ويُحكىٰ عن امرأةٍ من العُبَّاد أنَّها عثرت فانقطعت إصبعها، فضحكت، فقال لها بعض من معها: أتضحكين وقد انقطعت إصبعك؟ فقالت: أخاطبك علىٰ قدر عقلك: حلاوةُ أجرها أنْسَتْني مرارةَ ذكرها[1]. أشارت إلىٰ أنَّ عقله لا يحتمل ما فوق هذا المقام مِن ملاحظة المُبلي، ومشاهدةِ حسن اختياره لها في ذلك البلاء، وتلذُّذها بالشُّكر له والرِّضا عنه، ومقابلة ما جاء من قِبَله بالحمد والشُّكر. كما قيل[2]:

لئن ساءني أن نلتَني بمساءةٍ لقد سرَّني أنِّي خطرتُ ببالكا

---

(١) أسنده الدِّينَوَري في «المجالسة» (٣٠٦١)، عن امرأة فتح المَوصلي الكبير زاهد زمانه ت١٧٠ بنحوه.

(٢) البيت لابن الدمينة في «الحماسة» (٢/ ٦٢)، و«ديوانه» (١٧).

فصل

أي أنواع الصبر أكمل وأرفع درجةً؟

قال[1]: (**وأضعف الصبر الصبر لله، وهو صبر العامَّة. وفوقه الصبر بالله، وهو صبر المريدين. وفوقه الصبر على الله، وهو صبر السالكين**).

معنىٰ كلامه: أنَّ صبر العامَّة لله، أي رجاءَ ثوابه وخوفَ عقابه. وصبرَ المريدين بالله، أي بقوَّة الله ومعونته، فهم لا يرون لأنفسهم صبرًا، ولا قوَّةً عليه، بل حالهم التحقُّق بـ «لا حول ولا قوّة إلّا بالله» علمًا ومعرفةً وحالًا.

وفوقهما: الصبر علىٰ الله، أي علىٰ أحكامه، إذ صاحبه يشهد المتصرِّف فيه، فهو يصبر علىٰ أحكامه الجارية عليه، جالبةً عليه ما جلبت من محبوبٍ ومكروهٍ؛ فهذه درجة صبر السالكين.

هذا تقرير كلامه.

والصواب: أنَّ الصبر لله فوق الصبر بالله وأعلىٰ درجةً وأجلُّ، فإنَّ الصبر لله متعلِّق بالإلهيَّة، والصبر به متعلِّق بربوبيَّته، وما تعلَّق بإلهيَّته أكمل وأعلىٰ ممَّا تعلَّق بربوبيَّته.

ولأنَّ الصبر له عبادة والصبرَ به استعانة، والعبادةُ غاية والاستعانة وسيلة، والغاية مرادةٌ لنفسها والوسيلة مرادةٌ لغيرها.

ولأنَّ الصبر به مشترك بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر، فكلُّ من شهد الحقيقة الكونيَّة صبر به. وأمَّا الصبر له فمنزلة الرُّسل والأنبياء والصِّدِّيقين؛ أصحابُ مشهد ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

ولأنَّ الصبر له صبر فيما هو حقٌّ له محبوبٌ له مرضيٌّ له، والصبرَ به قد

(١) «المنازل» (ص٣٩).

يكون في ذلك وقد يكون فيما هو مسخوطٌ له، وقد يكون في مكروهٍ أو مباحٍ؛ فأين هذا من هذا؟

وأمَّا تسمية الصبر علىٰ أحكامه صبرًا عليه، فلا مشاحَّة في العبارة بعد معرفة المعنىٰ؛ فهذا هو الصبر علىٰ أقداره. وقد جعله الشيخ في الدرجة الثالثة، وقد عرفت بما تقدَّم أن الصبر علىٰ طاعته والصبرَ عن معصيته أكملُ من الصبر علىٰ أقداره كما ذكرنا، فإنَّ الصبر فيهما صبرُ اختيارٍ وإيثارٍ ومحبَّة، والصبر علىٰ أحكامه الكونيَّة صبر ضرورةٍ، وبينهما من البون ما قد عرفت.

ولذلك كان صبرُ إبراهيم وموسىٰ ونوحٍ علىٰ ما نالهم في الله باختيارهم وفعلهم ومقاومتِهم قومَهم= أكملَ من صبر أيُّوب علىٰ ما ناله في الله من ابتلائه وامتحانه بما ليس مسبَّبًا عن فعله.

وكذلك صبرُ إسماعيلَ الذبيحِ وصبرُ أبيه إبراهيم علىٰ تنفيذ أمر الله أكملُ من صبر يعقوب علىٰ فقد يوسف.

فعلمت أنَّ الصبر لله أكمل من الصبر بالله، والصبرَ علىٰ طاعته والصبر عن معصيته أكملُ من الصبر علىٰ قضائه وقدره.

والله المستعان، وعليه التُّكلان، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله.

فإن قلت: الصبر بالله أقوىٰ من الصبر لله، فإنَّ ما كان بالله كان بحوله وقوَّته، وما كان به لم يقاومه شيءٌ ولم يَقُم له. وهو صبر أرباب الأحوال والتأثير، والصبر لله صبر أهل العبادة والزُّهد. ولهذا هم مع إخلاصهم وصبرهم لله أضعف من الصابرين به، فلهذا قال: (**وأضعف الصبر: الصبر لله**).

قيل: المراتب أربعة:

أحدها: مرتبة الكمال ومرتبة أولي العزائم، وهي الصبر لله وبالله، فيكون

في صبره مبتغيًا وجه الله، صابرًا به، متبرِّئًا من حوله وقوَّته. فهذا أقوىٰ المراتب وأفضلها.

الثاني: أن لا يكون فيه لا هذا ولا هذا، فهذا أخسُّ المراتب، وأردئ الخلق، وهو جديرٌ بكلِّ خذلانٍ وبكلِّ حرمانٍ.

الثالث: من فيه صبرٌ بالله، وهو مستعينٌ متوكِّلٌ علىٰ حول الله وقوَّته، متبرِّئٌ من حوله هو وقوَّته. ولكنَّ صبره ليس لله، إذ ليس صبره فيما هو مراد الله الدِّينيُّ منه. فهذا ينال مطلوبه ويظفر به، ولكن لا عاقبة له، وربَّما كانت عاقبته شرَّ العواقب.

وفي هذا المقام خُفَراء الكفَّار وأرباب الأحوال الشيطانيَّة، فإنَّ صبرهم بالله، لا لله ولا في الله. ولهم من الكشف والتأثير بحسب قوَّة أحوالهم. وهم من جنس الملوك الظلمة، فإنَّ الحال كالمُلك يُعطاه البرُّ والفاجر والمؤمن والكافر.

الرابع: من فيه صبرٌ لله، لكنَّه ضعيف النصيب من الصبر به والتوكُّلِ عليه، والثِّقةِ به والاعتماد عليه. فهذا له عاقبةٌ حميدة، ولكنَّه ضعيفٌ عاجز مخذولٌ في كثيرٍ من مطالبه لضعف نصيبه من ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فنصيبه مِن «لله» أقوىٰ من نصيبه مِن «بالله». فهذا حال المؤمن الضعيف.

وصاحبُ بالله لا لله حال الفاجر القويِّ، وصاحب لله وبالله حال المؤمن القويِّ، «والمؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلىٰ الله من المؤمن الضعيف»[(١)].

فصاحب لله وبالله عزيزٌ حميد، ومن ليس لله ولا بالله مذمومٌ مخذول، ومن هو بالله لا لله قادرٌ مذموم، ومن هو لله لا بالله عاجزٌ محمود.

فبهذا التفصيل يزول الاشتباه في هذا الباب، ويتبيَّن فيه الخطأ من الصواب. والله أعلم.

---

(١) اقتباس من حديث أبي هريرة عند مسلم (٢٦٦٤)، وغيره.

فصل

٢/ ٤٧٦

منزلة الرضا

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة الرِّضا**.

وقد أجمع العلماء علىٰ أنه مستحبٌّ مؤكَّدٌ استحبابُه، واختلفوا في وجوبه علىٰ قولين. **وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدَّس الله روحه** يحكيهما قولين لأصحاب أحمد. وكان يذهب إلىٰ القول باستحبابه، قال: ولم يجئ الأمر به كما جاء الأمر بالصبر، وإنما جاء الثناء علىٰ أصحابه ومدحُهم. قال: وأمَّا ما يُروىٰ من الأثر: «من لم يصبر علىٰ بلائي، ولم يرضَ بقضائي، فليتَّخذ ربًّا سواي»[1]، فهذا أثرٌ إسرائيليٌّ، ليس يصحُّ عن النبي ﷺ[2].

قلت: ولا سيَّما عند من يرىٰ أنّه من جملة الأحوال التي ليست مكتسبة، وأنه مَوهِبة محضة، فكيف يؤمر به وليس مقدورًا؟

وهذه مسألةٌ اختلف فيها أرباب السُّلوك علىٰ ثلاث طرقٍ، فالخراسانيُّون قالوا: إن الرِّضا من جملة المقامات، وهو نهاية التّوكُّل. فعلىٰ هذا يمكن أن يتوصَّل إليه العبد باكتسابه.

والعراقيُّون قالوا: هو من جملة الأحوال، وليس كسبيًّا للعبد، بل هو نازلةٌ تحلُّ بالقلب كسائر الأحوال. والفرق بين المقامات والأحوال: أنَّ المقامات عندهم من المكاسب، والأحوال مجرَّد المواهب.

وحكمت فرقة ثالثة بين الطائفتين منهم صاحب «الرِّسالة»[3] وغيره فقالوا:

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٢/ ٣٢٠)، وقال الحافظ في «اللسان» (٣/ ٤٥٤): باطل.

(٢) انظر: «منهاج السنة» (٣/ ٢٠٤)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٨/ ١٩١، ١٠/ ٤٠).

(٣) أي: «الرسالة القشيرية» (ص٤٥٣).

يمكن الجمع بينهما بأن يقال: بداية الرِّضا مكتسبةٌ للعبد، وهي من جملة المقامات، ونهايته من جملة الأحوال وليست مكتسبةً، فأوَّله مقامٌ ونهايته حالٌ.

واحتجَّ من جعله من جملة المقامات بأنَّ الله مدح أهله وأثنىٰ عليهم وندبهم إليه، فدلَّ ذلك علىٰ أنه مقدورٌ لهم.

وقال النبيُّ ﷺ: «**ذاق طعمَ الإيمان من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمَّدٍ رسولًا**»[1].

وقال: «**من قال حين يسمع النِّداء: رضيت بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمَّدٍ رسولًا، غفرت له ذنوبه**»[2].

وهذان الحديثان عليهما مدار مقامات الدِّين، وإليهما ينتهي. وقد تضمَّنا الرِّضا بربوبيَّته سبحانه وإلهيَّته، والرِّضا برسوله والانقياد له، والرِّضا بدينه والتسليم له. ومن اجتمعت له هذه الأربعة فهو الصِّدِّيق حقًّا. وهي سهلةٌ بالدعوىٰ واللِّسان، ومِن أصعب الأمور عند الحقيقة والامتحان. ولا سيَّما إذا جاء ما يخالف هوىٰ النفس ومرادها من ذلك، تبيَّن أنَّ الرضا كان علىٰ لسانه لا علىٰ حاله.

فالرِّضا بإلهيَّته يتضمَّن الرِّضا بمحبَّته وحده، وخوفه، ورجائه، والإنابة إليه، والتَّبتُّل إليه، وانجذاب قوىٰ الإرادة والحبِّ كلِّها إليه؛ فِعْلَ الراضي بمحبوبه كلَّ الرِّضا. وذلك يتضمَّن عبادته والإخلاص له.

والرِّضا بربوبيته يتضمَّن الرِّضا بتدبيره لعبده، ويتضمَّن إفراده بالتوكُّل عليه، والاستعانة به، والثِّقة به، والاعتماد عليه، وأن يكون راضيًا بكلِّ ما يفعله به. فالأوَّل يتضمّن رضاه بما يأمره به، والثاني يتضمَّن رضاه بما يُقدِّر عليه.

---

(١) أخرجه مسلم (٣٤)، من حديث العبَّاس بن عبد المطلب.
(٢) أخرجه مسلم (٣٨٦)، من حديث سعد بن أبي وقاص.

وأمّا الرِّضا بنبيِّه رسولًا، فيتضمَّن كمال الانقياد له، والتسليم المطلق إليه، بحيث يكون أولىٰ به من نفسه، فلا يتلقَّىٰ الهدىٰ إلا من مواقع كلماته، ولا يحاكم إلا إليه، ولا يحكِّم عليه غيرَه، ولا يرضىٰ بحكم غيره البتَّة، لا في شيءٍ من أسماء الربِّ وصفاته وأفعاله، ولا في شيءٍ من أذواق حقائق الإيمان ومقاماته، ولا في شيءٍ من أحكامِ ظاهرِه وباطنه؛ لا يرضىٰ في ذلك بحكم غيره، ولا يرضىٰ إلَّا بحكمه، فإن عجز عنه كان تحكيمُه غيرَه من باب غذاء المضطرِّ إذا لم يجد ما يُقيته إلَّا من الميتة والدم، وأحسنُ أحواله أن يكون من باب التُّراب الذي إنَّما يتيمَّم به عند العجز عن استعمال الماء الطهور.

وأمّا الرِّضا بدينه، فإذا قال أو حكم أو أمر أو نهىٰ رضي كلَّ الرِّضا، ولم يبق في قلبه حرجٌ من حكمه، وسلَّم له تسليمًا ولو كان مخالفًا لمراد نفسه وهواها، وقول مقلَّده وشيخه وطائفته.

وهاهنا يُوحشك الناس كلُّهم إلَّا الغرباء في العالم، فإيَّاك وأن تستوحش من الاغتراب والتفرُّد، فإنَّه واللهِ عينُ العزِّ، والصُّحبة مع الله تعالىٰ ورسوله، ورَوح الأنس به والرِّضا به ربًّا وبمحمَّدٍ رسولًا وبالإسلام دينًا.

بل الصادق كلَّما وجد أُنس الاغتراب، وذاق حلاوته، وتنسَّم رَوحه= قال: اللهمَّ زدني اغترابًا، ووحشةً من العالم، وأنسًا بك.

وكلَّما ذاق حلاوة هذا الاغتراب وهذا التّفرُّد رأىٰ الوحشة عين الأنس بالناس، والذلَّ عين العزِّ بهم، والجهل عين الوقوف مع آرائهم وزُبالة أذهانهم، والانقطاع عين التقيُّد برسومهم وأوضاعهم؛ فلم يؤثر بنصيبه من الله أحدًا من الخلق، ولم يبع حظَّه من الله بموافقتهم فيما لا يُجدي عليه إلَّا الحرمان وغايتُه مودَّة بينهم في الحياة الدُّنيا؛ فإذا تقطَّعت الأسباب، وحقَّت الحقائق، وبعثر ما في

القبور، وحصِّل ما في الصُّدور، وبُليت السرائر، ولم يجد من دون مولاه الحقِّ من قوَّةٍ ولا ناصرٍ= تبيَّن له حينئذٍ مواقع الرِّبح من الخسران، وما الذي يخفُّ أو يرجح به الميزان. والله المستعان، وعليه التُّكلان.

والتحقيق في المسألة: أنَّ الرضا كسبيٌّ باعتبار سببه، موهبيٌّ باعتبار حقيقته، فيمكن أن يُنال بالكسب لأسبابه. فإذا تمكَّن في أسبابه وغرس شجرته اجتنىٰ منها ثمرة الرِّضا، فإنَّ الرضا آخر التوكُّل، فمن رسخ قدمُه في التوكُّل والتسليم والتفويض حصل له الرضا ولا بدَّ. ولكن لعزَّته، وعدم إجابة أكثر النُّفوس له، وصعوبته عليها= لم يوجبه الله علىٰ خلقه رحمةً بهم وتخفيفًا عنهم، لكن ندبهم إليه، وأثنىٰ علىٰ أهله، وأخبر أنَّ ثوابه رضاه عنهم، الذي هو أعظم وأكبر وأجلُّ من الجنات وما فيها.

فمن رضي عن ربِّه رضي الله عنه، بل رضا العبد عن الله من نتائج رضا الله عنه، فهو محفوفٌ بنوعين من رضاه عن عبده: رضًا قبلَه أوجب له أن يرضىٰ عنه، ورضًا بعده هو ثمرة رضاه عنه. ولذلك كان الرِّضا باب الله الأعظم، وجنَّة الدُّنيا، ومستراح العارفين، وحياة المحبِّين، ونعيم العابدين، وقرَّة عيون المشتاقين.

ومن أعظم أسباب حصول الرِّضا: أن يلزم ما جعل الله رضاه فيه، فإنَّه يوصله إلىٰ مقام الرِّضا ولا بدَّ.

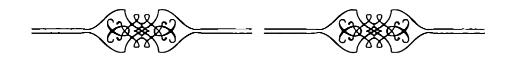
قيل ليحيىٰ بن معاذٍ رحمه الله: متىٰ يبلغ العبد إلىٰ مقام الرِّضا؟ فقال: إذا أقام نفسه علىٰ أربعة أصولٍ فيما يعامل به ربَّه، فيقول: إن أعطيتني قبلت، وإن منعتني رضيت، وإن تركتني عبدت، وإن دعوتني أجبت[1].

(١) لم أجده علىٰ هذا الوجه. وأخرج أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٦٦) هذه الكلمات: «إن أعطيتني قبلت...» في ثنايا دعاء له وابتهال.

وقال الجنيد رحمه الله: الرِّضا هو صحّة العلم الواصل إلىٰ القلب، فإذا باشر القلب حقيقة العلم أدَّاه إلىٰ الرِّضا.

وليس الرِّضا والمحبة كالرجاء والخوف، فإنَّ الرِّضا والمحبَّة حالان من أحوال أهل الجنَّة، لا يفارقان في الدُّنيا، ولا في البرزخ، ولا في الآخرة؛ بخلاف الخوف والرجاء فإنَّهما يفارقان أهل الجنّة بحصول ما كانوا يرجونه وأَمْنِهم ممَّا كانوا يخافونه. وإن كان رجاؤهم لما ينالون من كرامته دائمًا، لكنَّه ليس رجاءً مشوبًا بشكٍّ، بل رجاءُ واثقٍ بوعدٍ صادقٍ من حبيبٍ قادرٍ، فهذا لونٌ ورجاؤهم في الدُّنيا لون.

وقال ابن عطاءٍ رحمه الله: الرِّضا سكون القلب إلىٰ قديم اختيار الله للعبد أنَّه اختار له الأفضل، فيرضىٰ به[1]. **قلت**: وهذا الرضا بما منه، وأمَّا الرِّضا به فأعلىٰ من هذا وأفضل، ففرقٌ بين من هو راضٍ بمحبوبه، وبين رضاه فيما يناله من محبوبه من حظوظ نفسه.



(١) ذكره الطوسي في «اللمع» (ص٥٣-٥٤).

فصل

الحس بالألم لا ينافي الرضا

وليس من شرط الرِّضا أن لا يحسَّ بالألم والمكاره، بل أن لا يعترض علىٰ الحكم ولا يتسخَّطه. ولهذا أشكل علىٰ بعض الناس الرِّضا بالمكروه، وطعنوا فيه وقالوا: هذا ممتنعٌ علىٰ الطبيعة، وإنما هو الصبر، وإلَّا فكيف يجتمع الرِّضا والكراهة وهما ضدَّان؟

والصواب: أنَّه لا تناقض بينهما، وأنَّ وجود التألُّم وكراهةَ النفس له لا ينافي الرِّضا، كرضا المريض شربَ الدواء الكريه، ورضا الصائم في اليوم الشديد الحرِّ بما يناله من ألم الجوع والظمأ، ورضا المجاهد بما يحصل له في سبيل الله من ألم الجراح، وغيرها.

وطريق الرِّضا طريق مختصرة، قريبة جدًّا، موصلة إلىٰ أجلِّ غايةٍ، ولكن فيها مشقَّة. ومع هذا فليست مشقَّتها بأصعب من مشقَّة طريق المجاهدة، ولا فيها من العَقَبات والمَفاوِز ما فيها، وإنَّما عقبتُها همَّة عالية ونفس زكيَّة، وتوطين للنفس علىٰ كلِّ ما يَرِد عليها من الله. ويسهِّل ذلك علىٰ العبد علمُه بضعفه وعجزه، ورحمةِ ربه وشفقتِه عليه وبرِّه به. فإذا شهد هذا وهذا، ولم يطرح نفسه بين يديه، ويرضىٰ به وعنه، وتنجذب دواعي حبِّه ورضاه كلُّها إليه= فنفسه نفسٌ مطرودةٌ عن الله بعيدةٌ عنه، ليست مؤهَّلةً لقربه وموالاته، أو نفسٌ ممتحَنةٌ مبتلاةٌ بأصناف البلايا والمحن.

فطريق الرِّضا والمحبَّة تُسيِّر العبدَ وهو مستلقٍ علىٰ فراشه، فيصبح أمام الرَّكب بمراحل.

وثمرة الرِّضا: الفرح والسُّرور بالربِّ تبارك وتعالىٰ. ورأيت شيخ الإسلام

ابن تيمية قدَّس الله روحه في المنام، وكأنِّي ذكرت له شيئًا من أعمال القلب وأخذت في تعظيمه ومنفعته، لا أذكره الآن، فقال: أمَّا أنا فطريقتي: الفرحُ بالله والسُّرور به، أو نحو هذا من العبارة. وهكذا كانت حاله في الحياة، يبدو ذلك علىٰ ظاهره وينادي به عليه حالُه.

لكن قد قال الواسطيّ رحمه الله: استعمل الرِّضا جهدك، ولا تدع الرِّضا يستعملك، فتكونَ محجوبًا بلذَّته ورؤيته عن حقيقة ما تطالع[1].

وهذا الذي أشار إليه الواسطيُّ هو عقبةٌ عظيمة عند القوم ومقطعٌ لهم؛ فإنَّ مساكنة الأحوال، والسُّكون إليها، والوقوف عندها استلذاذًا ومحبَّةً= حجابٌ بينهم وبين ربِّهم بحظوظهم عن مطالعة حقوق محبوبهم ومعبودهم، وهي عقبةٌ لا يجوزها إلَّا أولو العزائم. وكان الواسطيُّ كثير التحذير من هذه العقبة، شديدَ التنبيه عليها. ومن كلامه: إيَّاكم واستحلاء الطاعات، فإنَّها سمومٌ قاتلة[2].

فهذا معنىٰ قوله: «استعمل الرِّضا، لا تدع الرِّضا يستعملك»، أي لا يكون عملك لأجل حصول حلاوة الرِّضا، بحيث تكون هي الباعثة لك عليه، بل اجعله آلةً لك وسببًا مُوصِلًا إلىٰ مقصودك ومطلوبك، فتكونَ مستعملًا له، لا أنَّه مستعملٌ لك.

وهذا لا يختصُّ بالرِّضا، بل هو عامٌّ في جميع الأحوال والمقامات القلبيَّة التي يسكن إليها القلب، حتَّىٰ إنَّه أيضًا لا يكون عاملًا علىٰ المحبَّة لأجل المحبَّة وما فيها من اللذَّة والسُّرور والنعيم، بل يستعمل المحبَّة في مراضي المحبوب؛ لا يقف عندها، فهذا من علل المحبَّة.

وقال ذو النُّون: ثلاثةٌ من أعلام الرِّضا: ترك الاختيار قبل القضاء، وفِقْدان

---

(١) «اللمع» (ص٥٤)، و«القشيرية» (ص٤٥٥).

(٢) «القشيرية» (ص٤٥٥).

المرارة بعد القضاء، وهَيَجان الحبِّ في حشو البلاء[(١)].

وقيل للحسين بن عليٍّ رضي الله عنهما: إنَّ أبا ذرٍّ يقول: الفقر أحبُّ إليَّ من الغنىٰ، والسَّقَم أحبُّ إليَّ من الصحة، فقال: رحم الله أبا ذرٍّ؛ أمَّا أنا فأقول: من اتَّكل علىٰ حسن اختيار الله له لم يتمنَّ غير ما اختار الله له[(٢)].

وقال الفضيل بن عياضٍ لبشرٍ الحافيِّ: الرِّضا أفضل من الزُّهد في الدُّنيا، لأنَّ الراضي لا يتمنَّىٰ فوق منزلته[(٣)].

وسئل أبو عثمان[(٤)] عن قول النبيِّ ﷺ «**أسألك الرِّضا بعد القضاء**»[(٥)]، فقال: لأن الرِّضا قبل القضاء عزمٌ علىٰ الرِّضا، والرِّضا بعد القضاء هو الرِّضا.

وقيل: الرِّضا ارتفاع الجزع في أيِّ حكمٍ كان[(٦)].

وقيل: رفع الاختيار[(٧)].

وقيل: استقبال الأحكام بالفرح[(٨)].

وقيل: سكون القلب تحت مجاري الأحكام[(٩)].

وقيل: نظر القلب إلىٰ قديم اختيار الله تعالىٰ للعبد، وهو ترك السخط[(١٠)].

وكتب عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه إلىٰ أبي موسىٰ رضي الله عنه: أمَّا بعد، فإنَّ الخير كلَّه في

---

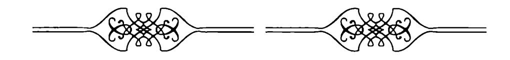
(١) أسنده أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٣٤١)، والقشيري (ص٤٥٦).
(٢) أسنده القشيري (ص٤٥٦) بسند منقطع معضل.
(٣) «القشيرية» (ص٤٥٦).
(٤) الحيري، أسنده عند البيهقي في «الشعب» (١٩٣)، وذكره القشيري (ص٤٥٦).
(٥) أخرجه النسائي (١٣٠٥، ١٣٠٦)، من حديث عمَّار بن ياسر، وهو حديث صحيح.
(٦) ذكره القشيري (ص٤٥٧)، عن أبي عمرو الدمشقي (ت٣٢٠).
(٧) ذكره الطوسي في «اللمع» (ص٥٣)، والقشيري (ص٤٥٧)، عن الجنيد.
(٨) ذكره الكلاباذي في «التعرُّف» (ص٧٢)، والقشيري (ص٤٥٧)، عن رُويم.
(٩) ذكره الكلاباذي (ص٧٢)، والقشيري (ص٤٥٧)، عن الحارث المحاسبي.
(١٠) ذكره القشيري (ص٤٥٧)، عن ابن عطاء.

الرِّضا، فإن استطعت أن ترضىٰ وإلَّا فاصبر[(١)].

وقال أبو عليٍّ الدقَّاق رحمه الله: الإنسان خَزَفٌ، وليس لخزف من الخَطَر[(٢)] ما يعارض فيه حكم الحقِّ تعالىٰ[(٣)].

وقال أبو عثمان الحِيريُّ: منذ أربعين سنةً ما أقامني الله في حالٍ فكرهته، وما نقلني إلىٰ غيره فسخطته[(٤)].

والرِّضا ثلاثة أقسامٍ: رضا العوامِّ بما قسمه الله وأعطاه، ورضا الخواصِّ بما قدَّره الله وقضاه، ورضا خواصِّ الخواصِّ به بدلًا من كلِّ ما سواه.



---

(١) ذكره القشيري (ص٤٥٨)، ولم أجد من أسنده.

(٢) أي: الشرف والمكانة والمنزلة.

(٣) ذكره القشيري (ص٤٥٨)، عنه سماعًا.

(٤) «القشيرية» (ص٤٥٨)، وأسنده أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٤٤).

فصل

درجات الرضا

قال صاحب «المنازل» رحمه الله[1]: (**وهو على ثلاث درجاتٍ. الدرجة الأولى: رضا العامَّة، وهو الرِّضا بالله ربًّا، وتسخُّطُ عبادة ما دونه. وهذا قطب رحى الإسلام، وهو يطهِّر من الشِّرك الأكبر**).

الرِّضا بالله ربًّا: أن لا يتَّخذ ربًّا غير الله تعالى يسكن إلى تدبيره وينزل به حوائجه. قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾[الأنعام: ١٦٤]، قال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: سيِّدًا وإلهًا[2]، يعني فكيف أطلب ربًّا غيره وهو ربُّ كلِّ شيءٍ؟

وقال في أوّل السُّورة: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الأنعام: ١٤] يعني معبودًا وناصرًا ومعينًا وملجًا، وهو من الموالاة التي تتضمَّن الحبَّ والطاعة.

وقال في وسطها: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾[الأنعام: ١١٤] أي: أفغير الله أبتغي من يحكم بيني وبينكم، فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه؟ وهذا كتابه سيِّد الحكّام، فكيف نتحاكم إلى غير كتابه، وقد أنزله مفصَّلًا مبيَّنًا كافيًا شافيًا؟

وأنت إذا تأمَّلت هذه الآيات الثلاث حقَّ التأمُّل، رأيتها هي نفس الرِّضا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمَّدٍ رسولًا، ورأيت الحديث مترجم عنها مشتقٌّ منها. فكثيرٌ من الناس يرضى به ربًّا فلا يبغي ربًّا سواه، لكنَّه لا يرضى به وحده وليًّا، بل يوالي من دونه أولياء ظنًّا منه أنَّهم يقرِّبونه إلى الله، وأنَّ موالاتهم كموالاة

(١) (ص٣٩-٤٠).
(٢) «تفسير البغوي» (٣/ ٢١٢).

خواصِّ الملك، وهذا عين الشِّرك. بل التوحيد: أن لا يتَّخذ من دونه أولياء، والقرآن مملوءٌ من وصف المشركين بأنَّهم اتخذوا من دونه أولياء.

وهذا غير موالاة أنبيائه ورسله وعباده المؤمنين فيه، فإنَّ هذا من تمام الإيمان وتمام موالاته، فموالاة أوليائه لونٌ واتِّخاذ الوليِّ من دونه لون. ومَن لم يفهم الفرقان بينهما فليطلب التوحيد من رأس، فإنَّ هذه المسألة أصل التوحيد وأساسه.

وكثيرٌ من الناس يبتغي غيره حكمًا؛ يُحاكم إليه، ويخاصم إليه، ويرضىٰ بحكمه. وهذه المقامات الثلاثة هي أركان التوحيد: أن لا يتَّخذ سواه ربًّا، ولا إلهًا، ولا غيره حكمًا.

وتفسيره الرِّضا بالله ربًّا **(أن يسخط عبادة ما دونه)**، هذا هو الرِّضا بالله إلهًا، وهو من تمام الرِّضا بالله ربًّا، فمن أعطىٰ الرِّضا به ربًّا حقَّه سخط عبادة ما دونه قطعًا، لأنَّ الرِّضا بتجريد ربوبيته يستلزم تجريد عبادته، كما أنَّ العلم بتوحيد الرُّبوبية يستلزم العلم بتوحيد الإلهيَّة.

وقوله: **(وهو قطب رحىٰ الإسلام)**، يعني أنَّ مدار رحىٰ الإسلام علىٰ أن يرضىٰ بعبادته وحده، ويسخط عبادة غيره. وقد تقدَّم أنَّ العبادة هي الحبُّ مع الذُّلِّ، فكلُّ من ذَلَلْتَ له وأطعتَه وأحببتَه دون الله فأنت عبدٌ له.

وقوله: **(وهو يطهِّر من الشِّرك الأكبر)**، يعني أنَّ الشِّرك نوعان: أكبر وأصغر، فهذا الرِّضا يطهِّر صاحبه من الأكبر. وأمَّا الأصغر، فيطهِّره نزوله منزلة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

فصل

شروط صحة الرضا بالله ربا

قال[١]: **(وهو يصحُّ بثلاثة شروطٍ: أن يكون الله ﷻ أحبَّ الأشياء إلىٰ العبد، وأولىٰ الأشياء بالتعظيم، وأحقَّ الأشياء بالطاعة)**.

يعني أنَّ هذا النوع من الرِّضا إنَّما يصحُّ بثلاثة أشياء أيضًا:

أحدها: أن يكون الله ﷻ أحبَّ شيءٍ إلىٰ العبد. وهذه تُعرف بثلاثة أشياء أيضًا:

أحدها: أن تسبق محبَّتُه إلىٰ القلب كلَّ محبَّةٍ، فتتقدَّم محبَّتُه المحابَّ كلَّها.

الثاني: أن تقهر محبَّته كلَّ محبةٍ، فتكون محبَّة غيرِه مقهورةً مغلوبةً منطويةً في محبَّته.

الثّالث: أن تكون محبَّة غيره تابعةً لمحبَّته، فيكون هو المحبوبَ بالذات والقصد الأول، وغيره محبوبًا تبعًا لحبِّه، كما يطاع تبعًا لطاعته؛ فهو في الحقيقة المطاع المحبوب.

وهذه الثلاثة في كونه أولىٰ الأشياء بالتّعظيم والطّاعة أيضًا.

فالحاصل: أن يكون وحدَه المحبوبَ المعظَّم المطاع، فمن لم يحبَّه ولم يعظِّمْه ولم يطِعْه فهو متكبِّرٌ عليه. ومتىٰ أحبَّ معه سواه، وعظَّم معه سواه، وأطاع معه سواه= فهو مشركٌ. ومتىٰ أفرده وحده بالحبِّ والتعظيم والطاعة فهو عبدٌ موحِّد.

---

(١) «المنازل» (ص٤٠).

فصل

الدرجة الثانية: الرضا عن الله

قال[١]: (**الدرجة الثانية: الرِّضا عن الله. وبهذا الرضا نطقت آيات التنزيل، وهو الرِّضا عنه في كلِّ ما قضىٰ وقدَّر. وهذا من أوائل مسالك أهل الخصوص**).

الشيخ جعل هذه الدرجة أعلىٰ من الدرجة التي قبلها، ووجه قوله أنَّه لا يدخل في الإسلام إلا بالدرجة الأولىٰ، فإذا استقرَّ قدمه عليها دخل في مقام الإسلام. وأمَّا هذه الدرجة، فمن معاملات القلوب، وهي لأهل الخصوص، وهي الرِّضا عنه في أحكامه وأقضيته.

وإنَّما كان من أوَّل مسالك أهل الخصوص لأنَّه مقدِّمةٌ للخروج عن النفس، والذي هو طريق أهل الخصوص، فمقدِّمته بداية سلوكهم، لأنَّه يتضمَّن خروج العبد عن حظوظه، ووقوفَه مع مراد الله، لا مع مراد نفسه.

هذا تقرير كلامه. وفي جعله هذه الدرجةَ أعلىٰ من التي قبلها نظرٌ لا يخفىٰ، وهو نظير جعله الصبر بالله أعلىٰ من الصبر لله. والذي ينبغي: أن تكون الدرجة الأولىٰ أعلىٰ شأنًا وأرفع قدرًا، فإنَّها مختصَّةٌ وهذه الدرجة مشتركة، فإنَّ الرِّضا بالقضاء يصحُّ من المؤمن والكافر، وغايته التسليم لقضاء الله وقدره، فأين هذا من الرِّضا به ربًّا وإلهًا ومعبودًا وحكمًا؟

وأيضًا: فالرِّضا به ربًّا فرض، بل هو من آكد الفروض باتِّفاق الأمَّة، فمن لم يرض به ربًّا، لم يصحَّ له إسلامٌ ولا عمل. وأمَّا الرِّضا بقضائه، فأكثر الناس علىٰ أنَّه مستحبٌّ وليس بواجبٍ، وقيل: بل هو واجب، وهما قولان في مذهب أحمد.

فالفرق بين الدرجتين فرق ما بين الفرض والنفل. وفي الحديث الإلهيِّ

---

(١) «المنازل» (ص٤٠).

الصحيح يقول الله ﷻ: «**ما تقرَّب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضتُ عليه**»(١)، فدلَّ علىٰ أنَّ التقرُّب إليه سبحانه بأداء الفرض أفضل وأعلىٰ من التقرُّب إليه بالنوافل.

وأيضًا: فإنَّ الرِّضا به ربًّا يتضمَّن الرِّضا عنه ويستلزمه، فإنَّ الرِّضا بربوبيته هو رضا العبد بما يأمره به وينهاه عنه، ويقسمه له ويقدِّره عليه، ويعطيه إيَّاه ويمنعه منه. فمتىٰ لم يرض بذلك كلِّه لم يكن قد رضي به ربًّا من جميع الوجوه وإن كان راضيًا به ربًّا من بعضها. فالرِّضا به ربًّا من كلِّ وجهٍ يستلزم الرِّضا عنه ويتضمَّنه بلا ريبٍ.

وأيضًا: فالرِّضا به ربًّا يتعلَّق بذاته وصفاته وأسمائه وربوبيَّته العامَّة والخاصَّة، فهو الرِّضا به خالقًا ومدبِّرًا، وآمرًا وناهيًا وملكًا، ومعطيًا ومانعًا، وحكمًا ووكيلًا ووليًّا، وناصرًا ومعينًا، وكافيًا وحسيبًا، ورقيبًا ومبتليًا ومعافيًا، وقابضًا وباسطًا، إلىٰ غير ذلك من صفات ربوبيته. وأمَّا الرِّضا عنه، فهو رضا العبد بما يفعله به ويعطيه إيَّاه. ولهذا إنما جاء في الثواب والجزاء، كقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾[الفجر: ٢٧- ٢٨] فهذا رضاها عنه بما حصل لها من كرامته، وكقوله تعالىٰ: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾[البينة: ٨].

فالرِّضا به أصلٌ للرِّضا عنه، والرِّضا عنه ثمرة الرِّضا به. وسرُّ المسألة: أنّ الرِّضا به متعلِّق بأسمائه وصفاته، والرِّضا عنه متعلِّق بثوابه وجزائه.

وأيضًا: فإنَّ النبي ﷺ علَّق ذوق طعم الإيمان بمن رضي به ربًّا، ولم يعلِّقه بمن رضي عنه، كما قال ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمَّدٍ رسولًا**»(٢)، فجعل الرِّضا به قرين الرِّضا بدينه ونبيِّه. وهذه الثلاثة هي

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).
(٢) أخرجه مسلم (٣٤)، من حديث العباس.

أصول الإسلام التي لا يقوم إلَّا بها.

قال: (**وبهذا الرِّضا نطق التنزيل**)، يشير إلىٰ قوله ﷻ: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[المائدة: ١١٩].

وقال تعالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾[المجادلة: ٢٢].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾[البينة: ٧-٨].

فتضمَّنت هذه الآيات جزاءهم علىٰ صدقهم وإيمانهم، وأعمالهم الصالحة، ومجاهدة أعدائه وعدم ولايتهم= بأن رضي الله عنهم، فأرضاهم فرضوا عنه. وإنَّما حصل لهم هذا بعد الرِّضا به ربًّا، وبمحمَّدٍ نبيًّا، وبالإسلام دينًا.

وقوله: (**وهو الرِّضا عنه في كلِّ ما قضىٰ**)، هاهنا ثلاثة أمورٍ: الرِّضا بالله، والرِّضا عن الله، والرِّضا بقضاء الله.

فالرِّضا به فرضٌ، والرِّضا عنه وإن كان من أجلِّ الأمور وأشرف أنواع العبوديَّة فلم يطالب به العموم، لعجزهم عنه ومشقَّته عليهم. وأوجَبْته طائفةٌ كما أوجبوا الرِّضا به.

وأمَّا الرِّضا بالقضاء فالرِّضا بالقضاء الديني الشرعي واجب، وهو أساس الإسلام وقاعدة الإيمان. فيجب علىٰ العبد أن يكون راضيًا به بلا حرجٍ ولا

منازعة، ولا معارضةٍ ولا اعتراض. قال تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾[النساء: ٦٥]، فأقسم أنَّهم لا يؤمنون حتَّىٰ يحكِّموا رسوله، ويرتفع الحرج من نفوسهم من حكمه، ويسلِّموا لحكمه. وهذا حقيقة الرِّضا بحكمه. فالتحكيمُ في مقام الإسلام، وانتفاءُ الحرج في مقام الإيمان، والتسليمُ في مقام الإحسان.

ومتىٰ خالط القلبَ بشاشةُ الإيمان، واكتحلت بصيرته بحقيقة اليقين، وحَيِيَ بروح الوحي، وتمهَّدت طبيعتُه، وانقلبت النفس الأمَّارة مطمئنَّةً رِّيضةً وادعةً، وتلقَّىٰ أحكامَ الربِّ تعالىٰ بصدرٍ واسعٍ منشرحٍ مسلِّمٍ= فقد رضي كلَّ الرِّضا بهذا القضاء الدينيِّ المحبوب لله ورسوله.

والرِّضا بالقضاء الكوني القدري الموافقِ لمحبَّة العبد وإرادته ورضاه، مِن الصحَّة والغنىٰ والعافية واللذَّة= أمرٌ لازمٌ بمقتضىٰ الطبيعة، فإنَّه ملائم للعبد محبوبٌ له. فليس في الرِّضا عبوديَّة، بل العبوديَّة في مقابلته بالشُّكر والاعترافِ بالمنَّة، ووضع النِّعمة مواضعها التي يحبُّ الله أن توضع فيها، وأن لا يُعصىٰ المنعمُ بها.

والرِّضا بالقضاء الكوني القدريِّ الجاري علىٰ خلاف مراد العبد ومحبَّته ممَّا لا يلائمه ولا يدخل تحت اختياره= مستحبٌّ، وهو من مقامات الإيمان، وفي وجوبه قولان. وهذا كالمرض والفقر، وأذىٰ الخلق له، والحرِّ والبرد، والآلام ونحو ذلك.

والرِّضا بالقدر الجاري عليه باختياره ممَّا يكرهه الله ويسخطه وينهىٰ عنه كأنواع الظُّلم والفسوق والعصيان= حرامٌ يعاقَب عليه. وهو مخالفةٌ لربِّه تعالىٰ،

فإنَّ الله لا يرضىٰ بذلك ولا يحبُّه، فكيف تتَّفق المحبَّة ورضا ما يسخطه الحبيب ويبغضه؟ **فعليك بهذا التفصيل في مسألة الرِّضا بالقضاء.**

قوله[1]: (**ويصحُّ بثلاث شرائط: باستواء الحالات عند العبد، وسقوط الخصومة مع الخلق، وبالخلاص من المسألة والإلحاح**).

يعني: أنَّ الرِّضا عن الله إنَّما يتحقَّق بهذه الأمور الثلاثة، فإنَّ الراضي الموافق تستوي عنده الحالات من النِّعمة والبليَّة في رضاه بحسن اختيار الله له. وليس المراد استواؤها عنده في ملاءمته ومنافرته، فإنَّ هذا خلاف الطبع البشريِّ، بل الحيوانيِّ. وليس المراد أيضًا استواء الحالات عنده في الطاعة والمعصية، فإنَّ هذا منافٍ للعبوديَّة من كلِّ وجهٍ.

وإنَّما تستوي النِّعمة والبليَّة عنده في الرِّضا بهما لوجوهٍ:

أحدها: أنه مفوِّض، والمفوِّض راضٍ بكلِّ ما اختاره له مَن فوَّض إليه، ولا سيَّما إذا علم كمال حكمته ورحمته ولطفه وحسن اختياره له.

الثاني: أنَّه جازمٌ بأنَّه لا تبديل لكلمات الله ولا رادَّ لحكمه، وأنَّه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فهو يعلم أنَّ كلًّا من البليَّة والنِّعمة بقضاءٍ سابقٍ وقدَرٍ حَتْم.

الثالث: أنَّه عبدٌ محض، والعبد المحض لا يتسخَّط جريان أحكام سيِّده المشفق البارِّ الناصح المحسن، بل يتلقَّاها كلَّها بالرضا به وعنه.

الرابع: أنَّه محبٌّ، والمحبُّ الصادق مَن رضي بما يعامله به حبيبه.

الخامس: أنَّه جاهلٌ بعواقب الأمور، وسيِّده أعلم بمصلحته وما ينفعه.

السادس: أنَّه لا يريد مصلحته من كلِّ وجهٍ ولو عرَفَ أسبابها، فهو جاهل

---

(١) «المنازل» (ص٤٠).

ظالم، وربُّه تعالىٰ يريد مصلحته ويسوق إليه أسبابَها، ومِن أعظم أسبابها: ما يكرهه العبد، فإنَّ مصلحته فيما يكرهه أضعافُ مصلحته فيما يحبُّه. قال تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]. وقال تعالىٰ: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[النساء: ١٩].

السابع: أنَّه مسلمٌ، والمسلم من قد سلَّم نفسه لله، ولم يعترض عليه في جريان أحكامه عليه، ولم يتسخط بذلك.

الثامن: أنَّه عارفٌ بربِّه حَسَنُ الظنِّ به، لا يتَّهمه فيما يجريه عليه من أقضيته وأقداره، فحُسن ظنِّه به يوجب له استواء الحالات عنده، ورضاه بما يختاره له سيِّده.

التّاسع: أنّه يعلم أنَّ حظَّه من المقدور ما يتلقَّاه به من رضًا أو سخطٍ، فلا بدَّ له منه، فإن رضي فله الرِّضا وإن سخط فله السخط[(١)].

العاشر: علمه بأنَّه إذا رضي به انقلب في حقِّه نعمةً ومنحةً، وخفَّ عليه حمله وأُعِين عليه. وإذا سخطه تضاعف عليه ثقلُه وكَلُّه، ولم يزدد إلَّا شدَّة. فلو أنَّ السخط يجدي عليه شيئًا لكان له فيه راحة، فلا أنفع له من الرِّضا به. ونكتة المسألة: إيمانه بأنَّ قضاء الربِّ تعالىٰ خيرٌ له، كما قال النبيُّ ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلَّا كان خيرًا له؛ إن أصابَتْه سرَّاءُ شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاءُ صبر فكان خيرًا له، وليس ذلك إلَّا للمؤمن**»[(٢)].

---

(١) إشارة إلىٰ ما روي عن أنس مرفوعًا: «إن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط»، أخرجه الترمذي (٢٣٩٦)، وابن ماجه (٤٠٣١) بإسناد فيه لين.
(٢) أخرجه مسلم (٢٩٩٩)، من حديث صهيب بنحوه. وأما قوله: «لا يقضي الله للمؤمن قضاءً=

الحادي عشر: أن يعلم أنَّ تمام عبوديَّته في جريان ما يكرهه من الأحكام عليه. ولو لم يجرِ عليه منها إلَّا ما يحبُّ لكان أبعدَ شيءٍ عن عبوديَّة ربِّه. فلا تتمُّ له عبوديَّته من الصبر، والتوكُّل، والرِّضا، والتّضرُّع، والافتقار، والذُّلِّ، والخضوع، وغيرها إلَّا بجريان القدر له بما يكرهه. وليس الشأن في الرِّضا بالقضاء الملائم للطبيعة، إنَّما الشأن في الرضا بالقضاء المؤلم المنافر للطبع.

الثاني عشر: أن يعلم أنّ رضاه عن ربِّه في جميع الحالات يثمر له رضا ربِّه عنه، فإذا رضي عنه بالقليل من الرِّزق رضي ربُّه عنه بالقليل من العمل. وإذا رضي عنه في جميع الحالات واستوت عنده، وجده أسرع شيءٍ إلىٰ رضاه إذا ترضَّاه وتملَّقه.

الثالث عشر: أن يعلم أنَّ أعظم راحته وسروره ونعيمه في الرِّضا عن ربِّه في جميع الحالات، فإنَّ الرِّضا باب الله الأعظم، ومستراح العارفين، وجنَّة الدُّنيا. فجديرٌ بمن نصح نفسه أن تشتدَّ رغبته فيه، ولا يستبدل بغيره منه.

قال بعض السلف: ذروا التدبير والاختيار تكونوا في طيبٍ من العيش، فإنَّ التدبير والاختيار يكدِّر علىٰ الناس عيشهم[(١)].

وقال أبو العبَّاس بن عطاءٍ: الفرحُ في تدبير الله لنا، والشقاء كلُّه في تدبيرنا.

وقال سفيان بن عيينة: من لم يصلُحْ علىٰ تقدير الله لم يصلُحْ علىٰ تقديره لنفسه[(٢)].

وقال أبو العبَّاس الطُّوسي: من ترك التدبير عاش في راحة[(٣)].

=إلَّا كان خيرًا له» فروي بنحوه من حديث أنس عند أحمد (١٢١٦٠)، وابن حبان (٧٢٨).

(١) أسنده البيهقي في «الشعب» (٢١٦)، عن أبي العباس بن عطاء، وكذا قوله الآتي.

(٢) «الشعب» (٢١٧)، وأسنده أبو نعيم أيضًا في «الحلية» (٧/ ٢٧٨).

(٣) «الشعب» (٢١٨).

وقال بعضهم: لا تجد السلامة حتىٰ تكون في التدبير كأهل القبور، وقال: الرِّضاء ترك الخلاف علىٰ الله فيما يجريه علىٰ العبد[١].

وقال عمر بن عبد العزيز: لقد تركَتْني هؤلاء الدعوات وما لي في شيءٍ من الأمور كلِّها أربٌ إلَّا في مواقع قدر الله، وكان كثيرًا ما يدعو: اللهم رضِّني بقضائك، وبارك لي في قدرك، حتىٰ لا أحبَّ تعجيل شيءٍ أخَّرتَه، ولا تأخير شيءٍ عجَّلتَه[٢].

وقال: ما أصبح لي هوًىٰ في شيءٍ سوىٰ ما قضىٰ الله ﷻ[٣].

وقال شعبة: قال لي يونس بن عبيدٍ: ما تمنَّيت شيئًا قطُّ[٤].

وقال الفضيل: الراضي لا يتمنَّىٰ فوق منزلته[٥].

وقال ذو النُّون: ثلاثةٌ من أعلام التسليم: مقابلة القضاء بالرِّضا، والصبر عند البلاء، والشُّكر عند الرخاء. وثلاثةٌ من أعلام التفويض: تعطيل إرادتك لمراده، والنظر إلىٰ ما يقع من تدبيره لك، وترك الاعتراض علىٰ الحكم. وثلاثةٌ من أعلام التوحيد: رؤية كلِّ شيءٍ من الله، وقبول كلِّ شيءٍ عنه، وإضافة كلِّ شيءٍ إليه[٦].

وقال بعض العارفين: أصل العبادة ثلاثةٌ: لا تردَّ من أحكامه شيئًا، ولا تسأَلْ غيره حاجة، ولا تدَّخِرْ عنه شيئًا[٧].

وسئل ابن سَمْعُون عن الرِّضا؟ فقال: أن ترضىٰ به مدبِّرًا ومختارًا، وترضىٰ

---

(١) «الشعب» (٢١٦، ٢٢٣)، عن أبي العباس بن عطاء.
(٢) «الشعب» (٢٢٤)، ومن قبله ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله بقضائه» (٤٦).
(٣) «الشعب» (٢٢٥).
(٤) «الشعب» (٢٢٦).
(٥) «الشعب» (٢٢٧)، وأسنده أيضًا ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله بقضائه» (١٦).
(٦) «الشعب» (٢٢٨) بتصرُّف.
(٧) «الشعب» (٢٢٩)، عن سعيد بن بُريد النِّباجي الزاهد، وأسنده أيضًا القشيري (٤٦٢).

عنه قاسمًا ومعطيًا ومانعًا، وترضاه إلهًا ومعبودًا وربًّا[(١)].

وقال بعض العارفين: الرِّضا ترك الاختيار، وسرور القلب بمرِّ القضاء، وإسقاط التدبير من النفس حتىٰ يحكم الله لها وعليها[(٢)].

وقيل: الراضي من لم يندم علىٰ فائتٍ من الدُّنيا، ولم يتأسَّف عليها[(٣)].

ولله در القائل[(٤)]:

العبد ذو ضجرٍ والربُّ ذو قدرٍ والدَّهر ذو دولٍ والرِّزق مقسومُ

والخير أجمع فيما اختار خالقُنا وفي اختيار سواه اللَّوم والشُّومُ

ولمَّا قدم سعد بن أبي وقَّاصٍ إلىٰ مكَّة وقد كُفَّ بصره جعل الناس يُهرَعون إليه ليدعوَ لهم، فجعل يدعو لهم. قال عبد الله بن السائب: فأتيتُه وأنا غلام فتعرَّفتُ إليه فعرفني، فقلت: يا عمُّ، أنت تدعو للناس، فلو دعوتَ لنفسك لردَّ الله عليك بصرك، فتبسَّم ثمَّ قال: يا بُنيَّ، قضاء الله عندي أحبُّ إليَّ من بصري[(٥)].

وقد اختلف أرباب هذا الشأن في مسألةٍ وهي: هل للرِّضا حدٌّ ينتهي إليه أم لا؟ فقال أبو سليمان الداراني: ثلاث مقاماتٍ لا حدَّ لها: الزُّهد، والورع، والرِّضا. وخالفه سليمان ابنه وكان عارفًا حتىٰ إنَّ من الناس من كان يقدِّمه علىٰ أبيه فقال: بل من تورَّع في كلِّ شيءٍ فقد بلغ حدَّ الورع، ومن زهد في غير الله فقد بلغ حدَّ الزُّهد، ومن رضي عن الله في كلِّ شيءٍ فقد بلغ حدَّ الرِّضا[(٦)].

---

(١) «الشعب» (٢٣٠) باختصار وتصرف.
(٢) «الشعب» (٢٣١)، عن ابن الفَرَجي الزاهد.
(٣) «الشعب» (٢٣٢)، عن أبي عثمان البِيكندي.
(٤) انظر: «الشعب» (٢٥٠)، و«تفسير الثعلبي» (٢٠/ ٤٨٥).
(٥) «قوت القلوب» (٢/ ٤٣).
(٦) أسند قوليهما ابن أبي الدنيا في «الرضاء عن الله بقضائه» (١٠٢).

وقد اختلفوا في مسألةٍ تتعلَّق بذلك، وهي أهل مقاماتٍ ثلاثةٍ، أحدهم: يحبُّ الموت شوقًا إلىٰ الله ولقائه، والثَّاني: يحبُّ البقاء للخدمة والتقرُّب، والثالث قال: لا أختار شيئًا، بل أرضىٰ بما يختار لي مولاي، إن شاء أحياني وإن شاء أماتني. فتحاكموا إلىٰ بعض العارفين، فقال: صاحب الرِّضا أفضلهم، لأنَّه أقلُّهم فضولًا[1].

ولا ريب أنَّ مقام الرِّضا فوق مقام الشَّوق والزُّهد في الدُّنيا. بقي النظر في مقامَي الآخَرين: أيُّهما أعلىٰ؟ فرجَّحت طائفةٌ مقام من أحبَّ الموت، لأنَّه في مقام الشوق إلىٰ لقاء الله ومحبَّة لقائه؛ «ومن أحبَّ لقاء الله أحبَّ الله لقاءه»[2].

ورجَّحت طائفةٌ مقامَ مريد البقاء لتنفيذ أوامر الربِّ تعالىٰ. واحتجُّوا بأنَّ الأوَّل محبٌّ لحظِّه من الله، وهذا محبٌّ لمراد الله منه، لم يشبع منه ولم يقض منه وطرًا.

قالوا: وهذا حال موسىٰ صلوات الله وسلامه عليه حين لطم وجه ملك الموت ففقأ عينه[3]، لا محبَّةً للدُّنيا، ولكن لينفِّذ أوامر الله ومراضيه في الناس، فكأنَّه قال: أنت عبده وأنا عبده، وأنت في طاعته وأنا في طاعته وتنفيذ أوامره.

قال: (**الثاني: سقوط الخصومة مع الخلق**).

يعني: أنَّ الرِّضا إنَّما يصحُّ بسقوط الخصومة مع الخلق، فإنَّ الخصومة تنافي حال الرِّضا، وتنافي نسبة الأشياء كلِّها إلىٰ من بيده أزمَّة القضاء والقدر. ففي الخصومة آفاتٌ:

---

(١) «قوت القلوب» (١/ ٤٤).

(٢) جزء من حديث عبادة بن الصامت وأبي موسىٰ المتفق عليهما، ورواه مسلم أيضًا عن عائشة وأبي هريرة، البخاري (٦٥٠٧، ٦٥٠٨)، ومسلم (٢٦٨٣-٢٦٨٦).

(٣) كما في حديث أبي هريرة عند البخاري (١٣٣٩)، ومسلم (٢٣٧٢).

أحدها: المنازعة التي تضادُّ الرضا.

الثّاني: نقص التوحيد بنسبة ما يخاصم فيه إلىٰ العبد دون الخالق.

الثّالث: نسيان الموجِب والسبب الذي جرَّ إلىٰ الخصومة. فلو رجع العبد إلىٰ السبب والموجِب لكان اشتغالُه بدفعه أجدىٰ إليه وأنفعَ له من خصومةِ مَن جرىٰ علىٰ يديه، فإنَّه وإن كان ظالمًا فهو الذي سلَّطه علىٰ نفسه بظلمه. قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾[آل عمران: ١٦٥]، فأخبر أن أذىٰ عدوِّهم لهم وغلبتَهم بسبب ظلمهم. وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾[الشورىٰ: ٣٠].

فإذا اجتمعَتْ بصيرةُ العبد علىٰ مشاهدة القدر والتوحيد والحكمة والعدل= انسدَّ عنه باب خصومة الخلق، إلَّا فيما كان حقًّا لله ورسوله. فالراضي لا يخاصم ولا يعاتب إلَّا فيما يتعلَّق بحقِّ الله. وهذه كانت حال رسول الله ﷺ، فإنَّه لم يكن يخاصم أحدًا ولا يعاتبه إلَّا فيما يتعلَّق بحقِّ الله، كما أنَّه كان لا يغضب لنفسه، فإذا انتُهكت محارمُ الله لم يقم لغضبه شيءٌ حتَّىٰ ينتقم لله[1]. فالمخاصمة لحظِّ النّفس تطفئ نور الرِّضا، وتُذهب بهجته، وتبدِّل بالمرارة حلاوتَه، وتكدِّر صفوه.

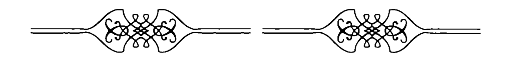
(الشرط الثالث: الخلاص من المسألة لهم والإلحاح).

وذلك لأنَّ المسألة والإلحاح فيها ضربٌ من الخصومة والمنازعة والمحاربة والرُّجوع عن مالك الضرِّ والنفع إلىٰ من لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا إلّا بربِّه. وفيها الغَيبة عن المعطي المانع.

والإلحاح ينافي حال الرِّضا ووصفه. وقد أثنىٰ سبحانه علىٰ الذين لا يسألون

(١) كما قالت عائشة: «ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم لله بها»، أخرجه البخاري (٣٥٦٠)، ومسلم (٢٣٢٨).

النّاس، فقال: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾[البقرة: ٢٧٣].



فصل

٢/ ٥٦٨

الأصل في المسألة أنه محرم

والمسألة في الأصل حرام، وإنَّما أبيحت للحاجة والضرورة، لأنَّها ظلم في حقِّ الربوبيَّة، وظلم في حقِّ المسؤول، وظلم في حقِّ السائل.

أمَّا الأوَّل: فلأنَّه بذَلَ سؤاله وفقره وذلَّه واستعطاءه لغير الله، وذلك نوع عبوديَّة. فوضع المسألة في غير موضعها وأنزلها بغير أهلها، وظلم توحيده وإخلاصه وفقره إلىٰ الله وتوكُّله عليه ورضاه بقَسْمه، واستغنىٰ بسؤال الخلق عن مسألته، وذلك كلُّه هضم من التوحيد، ويطفئ نوره ويضعف قوَّته.

وأمَّا ظلمه للمسؤول: فلأنَّه سأله ما ليس له عنده، فأوجب له بسؤاله عليه حقًّا لم يكن عليه، وعرَّضه لمشقَّة البذل أو لؤم المنع، فإن أعطاه أعطاه علىٰ كراهةٍ، وإن منعه منعه علىٰ استحياء. هذا إذا سأله ما ليس عليه. وأمَّا إذا سأله حقًّا هو له عنده، لم يدخل في ذلك ولم يظلمه بسؤاله.

وأمَّا ظلمه لنفسه: فإنَّه أراق ماء وجهه، وذلَّ لغير خالقه، وأنزل نفسه أدنىٰ المنزلتين، ورضي لها بأبخس الحالتين، ورضي بإسقاط شرف نفسه وعزَّة تعفُّفِه وراحة قناعته، وباع صبرَه ورضاه وتوكُّله وقَنَعَه بما قسم له واستغناءَه عن الناس= بسؤالهم. وهذا عينُ ظلمه لنفسه، إذ وضعها في غير موضعها، وأخمل شرفها، ووضع قدرها، وأذهب عزَّها، وصغَّرها وحقَّرها، ورضي أن تكون نفسه تحت نفس المسؤول، ويدُه تحت يده، ولولا الضرورة لم يُبَح ذلك في الشرع.

وقد ثبت في «الصحيحين»[1] من حديث أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«والذي نفسي بيده، لأن يأخذَ أحدُكم حبلَه فيحتَطِب علىٰ ظهره خيرٌ له من أن**

---

(١) البخاري (١٤٧٠) واللفظ له ومسلم (١٠٤٢).

يأتي رجلًا فيسأله، أعطاه أو منعه».

وفي «الصحيحين»[(١)] عن أبي سعيدٍ الخدري أنَّ ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثمَّ سألوه فأعطاهم، ثمَّ سألوه فأعطاهم، حتَّىٰ نفِدَ ما عنده، فقال لهم حين أنفق كلَّ شيءٍ بيديه: «**ما يكون عندي من خيرٍ فلن أدَّخره عنكم، ومن يستعِفَّ يُعِفَّه الله، ومن يستغنِ يُغنه الله، ومن يتصبَّر يصبِّرْه الله. وما أعطي أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر**».

وعن حكيم بن حزام قال: سألت رسول الله ﷺ فأعطاني، ثمَّ سألته فأعطاني، ثمَّ قال: «**يا حكيم، إنَّ هذا المال خَضِرةٌ حُلْوةٌ، فمن أخذه بسخاوةِ نفسٍ بورك له فيه، ومن أخذه بإشرافِ نفسٍ لم يُبارَك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خيرٌ من اليد السُّفلىٰ**». قال حكيم: فقلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحقِّ، لا أَرْزَأُ أحدًا بعدك شيئًا حتىٰ أفارق الدُّنيا. وكان أبو بكرٍ يدعو حكيمًا إلىٰ العطاء فيأبىٰ أن يقبله منه، ثمَّ إنَّ عمر دعاه ليعطيه فأبىٰ أن يقبل منه شيئًا، فقال عمر: إنِّي أُشهدكم يا معشر المسلمين علىٰ حكيمٍ: أنِّي أَعرِض عليه حقَّه من هذا الفيء فيأبىٰ أن يأخذه. فلم يرزأ حكيمٌ أحدًا من الناس بعد رسول الله ﷺ حتَّىٰ توفِّي. متفق علىٰ صحَّته[(٢)].

وعن الشعبي قال: حدَّثني كاتب المغيرة بن شعبة قال: كتب معاوية إلىٰ المغيرة بن شعبة: أن اكتب إليَّ بشيءٍ سمعتَه من رسول الله ﷺ، فكتب إليه: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «**إنّ الله كره لكم ثلاثًا: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السُّؤال**». رواه البخاريُّ ومسلمٌ[(٣)].

---

(١) البخاري (١٤٦٩، ٦٤٧٠)، ومسلم (١٠٥٣).
(٢) البخاري (١٤٧٢، ٢٧٥٠، ٣١٤٣)، ومسلم (١٠٣٥).
(٣) البخاري (١٤٧٧)، ومسلم (٥٩٣ بعد الحديث ١٧١٥).

وعن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تُلْحِفوا في المسألة، فوالله لا يسألني أحدٌ منكم شيئًا فتُخرج له مسألتُه منِّي شيئًا وأنا كارهٌ فيُبارَكَ له فيما أعطيتُه**». وفي لفظٍ: «**إنَّما أنا خازنٌ، فمن أعطيتُه عن طيب نفسٍ فيبارَكُ له فيه، ومن أعطيته عن مسألةٍ وشَرَهٍ كان كالذي يأكل ولا يشبع**». رواه مسلمٌ[١].

فهذا أحد المعنيين في قوله[٢]: إنَّ من شرط الرِّضا ترك الإلحاح في المسألة، وهو أليق المعنيين وأولاهما، لأنَّه قرنه بترك الخصومة مع الخلق، فلا يخاصمهم في حقِّه ولا يطلب منهم حقوقه.

والمعنىٰ الثاني: أنَّه لا يلحُّ في الدعاء ولا يبالغ فيه، فإنَّ ذلك يقدح في رضاه. وهذا يصحُّ من وجهٍ دون وجهٍ، فيصحُّ إذا كان الداعي يلحُّ في الدُّعاء بأغراضه وحظوظه العاجلة. وأمَّا إذا ألحَّ علىٰ الله في سؤاله ما فيه رضاه والقرب منه، فإنّ ذلك لا يقدح في مقام الرِّضا أصلًا.

وفي الأثر: «**إنَّ الله يحبُّ المُلحِّين في الدعاء**»[٣].

وقال أبو بكرٍ الصدِّيق للنبيِّ ﷺ يوم بدر: يا رسول الله، قد ألححتَ علىٰ ربِّك، كفاك بعض مناشدتك لربِّك[٤]. فهذا الإلحاح عين العبوديَّة.

وفي «سنن ابن ماجه»[٥] من حديث أبي صالحٍ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من لم يسأل الله يغضب عليه**».

فإذا كان سؤاله يُرضيه لم يكن الإلحاح فيه منافيًا لرضاه، وحقيقة الرِّضا:

---

(١) برقم (١٠٣٨، ١٠٣٧).
(٢) أي: قول صاحب «المنازل».
(٣) روي عن عائشة مرفوعًا، ولا يصحُّ، أخرجه العُقيلي في «الضعفاء» (٦/ ٤٣٧).
(٤) أخرجه البخاري (٢٩١٥) وفيه موضع الشاهد ومسلم (١٧٦٣)، من حديث ابن عباس بنحوه.
(٥) برقم (٣٨٢٧)، وقد تقدم.

موافقته سبحانه في رضاه. بل الذي ينافي الرِّضا: أنه يلحُّ عليه متحكِّمًا عليه، متخيِّرًا عليه ما لا يعلم هل يرضيه أم لا؟ كمن يلحُّ علىٰ ربِّه في ولاية شخصٍ، أو إغنائه، أو قضاء حاجته. فهذا ينافي الرِّضا، لأنَّه ليس علىٰ يقينٍ أنَّ مرضاة الربِّ في ذلك.

فإن قيل: فقد يكون للعبد حاجةٌ يباح له سؤالها، فيلحُّ علىٰ ربِّه في طلبها حتَّىٰ يُفتَح له من لذيذ مناجاته وسؤاله، والذُّلِّ بين يديه وتملُّقِه، والتوسُّلِ إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده، وتفريغ القلب له، وعدم تعلُّقه في حاجته بغيره= ما لم يحصل له بدون الإلحاح، فهل يُكرَه له هذا الإلحاحُ وإن كان المطلوب حظًّا من حظوظه؟

قيل: هاهنا ثلاثة أمورٍ:

أحدها: أن يفنىٰ بمطلوبه وحاجته عن مراد ربِّه ورضاه منه، ويجعل الربَّ تعالىٰ وسيلةً إلىٰ مطلوبه، بحيث يكون أهمَّ إليه منه. فهذا ينافي كمال الرِّضا به وعنه.

الثّاني: أن يُفتَح علىٰ قلبه حالَ السُّؤال مِن معرفته ومحبَّته والذُّلِّ له والخضوع والتّملُّق ما ينسيه حاجته، ويكون ما فُتح له من ذلك أحبَّ إليه من حاجته بحيث يحبُّ أن تدوم له تلك الحال، وتكون آثر عنده من حاجته، وفرحُه بها أعظم من فرحه بحاجته لو عجِّلت له وفاته ذلك. فهذا لا ينافي رضاه.

قال بعض العارفين: إنَّه لتكون لي الحاجة إلىٰ الله، فأسأله إيَّاها، فيفتح عليَّ من مناجاته ومعرفته والتذلُّل له والتملُّق بين يديه ما أُحبُّ معه أن يؤخِّر قضاءها، وتدوم لي تلك الحال.

وفي أثرٍ: «إنَّ العبد ليدعو ربَّه، فيقول الله لملائكته: اقضوا حاجةَ عبدي

وأخِّروها، فإنِّي أحبُّ أن أسمع دعاءه. ويدعوه آخر فيقول الله لملائكته: اقضوا حاجته وعجِّلوها له، فإنِّي أكره صوته»[١].

وقد روى الترمذي وغيرُه[٢] عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ الله يحبُّ أن يُسأل، وأفضلُ العبادة انتظار الفرج»**.

وروى أيضًا[٣] من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«من سرَّه أن يستجيب اللهُ له عند الشدائد، فليكثر الدعاءَ في الرخاء»**.

وروى أيضًا[٤] من حديث أنسٍ أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«ليسألْ أحدُكم ربَّه حاجتَه، حتى يسأله الملح، وحتى يسأله شسعَ نعلِه إذا انقطع»**.

وفيه أيضًا[٥] عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما سئل الله شيئًا أحبَّ إليه من أن يُسأل العافية. وإنَّ الدُّعاءَ لينفع ممَّا نزل وممَّا لم ينزل، فعليكم عبادَ الله بالدُّعاء»**.

فإذا كان هذا محبَّة الربِّ للدُّعاء، فلا ينافي الإلحاحُ فيه الرِّضا.

الثالث: أن ينقطع طمعه عن الخلق، ويتعلَّق بربِّه في طلب حاجته، قد أفرده بالطَّلب، لا يلوي على ما وراء ذلك. فهذا قد يُنشئ له المصلحةَ مِن نفس الطلب وإفراد الربِّ بالقصد.

والفرق بينه وبين الذي قبله: أنَّ ذلك قد فتح عليه بما هو أحبُّ إليه من حاجته، فهو لا يبالي بفواتها بعد ظفره بما فتح عليه. وبالله التوفيق.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٠٥٠٨) بإسناد صحيح عن ثابت البُناني عن عبيد الله بن عبيد مقطوعًا من قوله بنحوه. وروي مرفوعًا ولا يصحُّ.

(٢) الترمذي (٣٥٧١)، والطبراني في «الكبير» (١٠/ ١٠١)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٨٦)، وأعلَّه الترمذي.

(٣) أي: الترمذي (٣٣٨٢)، وضعَّفه بقوله: هذا حديث غريب.

(٤) برقم (٣٦٠٤)، وأعلَّه الترمذي.

(٥) برقم (٣٥٤٨)، وضعفه الترمذي.

فصل

الدرجة الثالثة: الرضا برضا الله

قال[1]: (**الدرجة الثالثة: الرِّضا برضا الله، فلا يرىٰ العبد لنفسه سخطًا ولا رضًا، فيبعثه علىٰ ترك التحكُّم وحسم الاختيار وإسقاط التمييز ولو أُدخِل النار**).

إنَّما كانت هذه الدرجة أعلىٰ ممَّا قبلها من الدرجات عنده لأنَّها درجة صاحب الجمع، الفاني بربِّه عن نفسه وعمَّا منها، قد غيَّبه شاهدُ رضا الله بالأشياء في وقوعها علىٰ مقتضىٰ مشيئته عن شاهد رضاه هو، فيشهد الرِّضا لله ومنه حقيقةً، ويرىٰ نفسه فانيًا ذاهبًا مفقودًا. فهو يستوحش من نفسه، ومن صفاتها، ومن رضاها، ومن سخطها، فهو عاملٌ علىٰ التغيُّب عن وجوده وعمَّا منه، مترامٍ إلىٰ العدم المحض، قد تلاشىٰ وجوده ونفسه وصفاتها في وجود مولاه الحقِّ وصفاته وأفعاله، كما يتلاشىٰ ضوءُ السِّراج الضعيف في جرم الشمس، فغاب برضا ربِّه عن رضاه هو عن ربِّه في أقضيته وأقداره، وغاب بصفات ربِّه عن صفاته، وبأفعاله عن أفعاله، فتلاشىٰ وجوده وصفاته وأفعاله في جنب وجود ربِّه وصفاته، بحيث صار كالعدم المحض.

وفي هذا المقام لا يرىٰ لنفسه رضًا ولا سخطًا. فيوجب له هذا الفناء تركَ التحكُّم علىٰ الله بأمرٍ من الأمور، وتركَ التخيُّر عليه، فتذهب مادَّةُ التحكُّم وتفنىٰ، وتنحسم مادَّة الاختيار وتتلاشىٰ، وعند ذلك يسقط تمييز العبد ويتلاشىٰ.

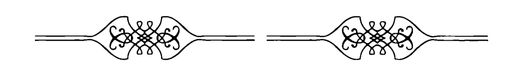
هذا تقرير كلامه.

وبعدُ فهذا حالٌ يَعرِض لا مقامٌ يُطلَب ويُشمَّر إليه، فإن هذه الحال متىٰ عرضت له وارت عنه تمييزَه، ولا يمكن أن يدوم له ذلك، بل يَقْصُر زمنُه ويطول ثم يرجع إلىٰ تمييزه وعقله.

(١) «المنازل» (ص٤١).

والكمالُ وراء ذلك، وهو أن يكون فناؤه عن إرادته بإرادةِ ربِّه منه، فيكون باقيًا باللهِ وللهِ ومع اللهِ، وصاحب هذا في مقام «**فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش**»[1]، قد فني عن وجوده الطبيعي والنفسي وبقي بهذا الوجود العُلْوي القُدْسي، فيعود عليه تمييزُه وفرقانُه، ورضاه عن ربِّه تعالىٰ، ومقاماتُ إيمانه. وهذا أكمل وأعلىٰ من فنائه عنها كالسكران.

وصاحب هذا المقام هو في رضاه عن ربِّه: بربِّه لا بنفسه، فيرىٰ ذلك كلَّه من عين المنَّة والفضل، مستعمَلًا فيه، قد أُقيم فيه لا أنه قد قام هو به. فهو واقف بين مشهدِ ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ ومشهدِ ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[التكوير: ٢٨ - ٢٩]. والله المستعان.



(١) جزء من حديث تقدَّم تخريجه.

٢/ ٥٨٦

فصل

منزلة الشكر

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة الشُّكر**. وهي من أعلىٰ المنازل. وهي فوق منزلة الرِّضا، فإنه يتضمَّن الرضا وزيادة، فالرضا مندرجٌ في الشكر، إذ يستحيل وجود الشكر بدونه.

وهو نصف الإيمان كما تقدَّم، والإيمان نصفان: نصفٌ شكر، ونصفٌ صبر.

وقد أمر الله به ونهىٰ عن ضدِّه، وأثنىٰ علىٰ أهله، ووصف به خواصَّ خلقه. وجعله غاية خلقه وأمره، ووعد أهله بأحسن جزائه، وجعله سببًا للمزيد من فضله، وحارسًا وحافظًا لنعمته.

وأخبر أنَّ أهله هم المنتفعون بآياته، واشتقَّ لهم اسمًا من أسمائه، فإنَّه سبحانه هو الشَّكور، وهو موصل للشاكر إلىٰ مشكوره، بل يعيد الشاكر مشكورًا. وهو غاية رضا الربِّ من عبده، وأهلُه هم القليل من عباده.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[البقرة: ١٧٢]. وقال: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[البقرة: ١٥٢].

وقال عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾[النحل: ١٢٠ - ١٢١]. وقال عن نوحٍ عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾[الإسراء: ٣].

وقال: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النحل: ٧٨]. وقال: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ

﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[البقرة: ١٥١-١٥٢].

وقال: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[آل عمران: ١٤٤]. وقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾[إبراهيم: ٧]. وقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[إبراهيم: ٥].

وسمَّىٰ نفسه شاكرًا وشَكورًا، وسمَّىٰ الشاكرين بهذين الاسمين، فأعطاهم من وصفه وسمَّاهم باسمه، وحسبك بهذا محبَّةً للشاكرين وفضلًا.

وإعادتُه للشاكر مشكورًا كقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢].

ورضا الربِّ عن عبده به كقوله: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ﴾[الزمر: ٧].

وقلَّة أهله في العالمين تدلُّ علىٰ أنّهم هم خواصُّه، كقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾[سبأ: ١٣].

وفي «الصحيح»[(١)] عن النبيِّ ﷺ أنَّه قام حتَّىٰ تورَّمت قدماه، فقيل له: تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟ قال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا؟**».

وقال لمعاذٍ: «**والله يا معاذ إنِّي لأحبُّك، فلا تنسَ أن تقول في دبر كلِّ صلاةٍ: اللهمَّ أعنِّي علىٰ ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»[(٢)].

وفي «المسند» و«الترمذي»[(٣)] عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما أنَّ النبي ﷺ كان يدعو بهؤلاء

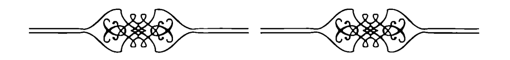
---

(١) البخاري (٤٨٣٦، ٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨١٩، ٢٨٢٠)، من حديث المغيرة بن شعبة واللفظ له وعائشة رضي الله عنهما.

(٢) حديث صحيح، أخرجه أبو داود وغيره، وقد سبق تخريجه.

(٣) أحمد (١٩٩٧)، والترمذي (٣٥٥١)، وقال: حسن صحيح.

الكلمات: «**اللهمَّ أعنِّي ولا تُعِن عليَّ، وانصرني ولا تنصر عليَّ، وامْكُرْ لي ولا تَمْكُر عليَّ، واهدني ويسِّر الهدىٰ لي، وانصرني علىٰ من بغىٰ عليَّ. ربِّ اجعلني لك شكَّارًا، لك ذكَّارًا، لك رهَّابًا، لك مِطْواعًا، لك مُخْبتًا، إليك أوَّاهًا منيبًا. ربِّ تقبَّل توبتي، واغسل حَوبتي، وأجب دعوتي، وثبِّت حجَّتي، واهدِ قلبي، وسدِّد لساني، واسْلُل سخيمة صدري**».



فصل

حقيقة الشكر ظهور أثر نعمة الله علىٰ عبده

وأصل الشُّكر في وضع اللِّسان: ظهور أثر الغذاء في أبدان الحيوان ظهورًا بيِّنًا، يقال: شَكِرت الدابَّةُ تَشْكَر شَكَرًا علىٰ وزن (سَمِنت تَسْمَن سِمَنًا): إذا ظهر عليها أثرُ العلف، ودابَّة شَكُور: إذا ظهر عليها من السِّمَن فوقَ ما تُعطىٰ من العلف.

وفي «صحيح مسلم»[1]: «... **حتَّىٰ إنَّ الدوابَّ لتَشْكَرُ من لحومهم**»، أي: تسمن من كثرة ما تأكل منها.

وكذلك حقيقته في العبوديَّة، وهو ظهور أثر نعمة الله علىٰ لسان عبده ثناءً واعترافًا، وعلىٰ قلبه شهودًا ومحبَّةً، وعلىٰ جوارحه انقيادًا وطاعة.

والشُّكر مبنيٌّ علىٰ خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبُّه له، واعترافه بنعمته، والثناء عليه بها، وأن لا يستعملها فيما يكره.

فهذه الخمسة هي أساس الشُّكر، وبناؤه عليها، فمتىٰ عدم منها واحدةً اختلَّ مِن قواعد الشكر قاعدة. وكلُّ من تكلَّم في الشكر وحدِّه، فكلامه إليها يرجع وعليها يدور.

فقيل حدُّه: أنَّه الاعتراف بنعمة المنعم علىٰ وجه الخضوع[2].

وقيل: الثناء علىٰ المحسن بذكر إحسانه.

وقيل: هو عكوف القلب علىٰ محبَّة المنعم، والجوارح علىٰ طاعته، وجريان اللِّسان بذكره والثناء عليه.

---

(١) ليس فيه، وإنما أخرجه أحمد (١٠٦٣٢)، والترمذي (٣١٥٣)، وابن ماجه (٤٠٨٠)، من حديث أبي هريرة في وصف الأرض عند هلاك يأجوج ومأجوج في آخر الزمان.

(٢) به عرَّفه القُشيري في «الرسالة» (ص٤٢٤).

وقيل: هو مشاهدة المنَّة، وحفظ الحرمة[١].

وما ألطف ما قال حمدون القصَّار: شكر النِّعمة أن ترىٰ نفسك فيها طفيليًّا[٢].

وقال أبو عثمان: الشُّكر معرفة العجز عن الشُّكر[٣].

وقيل: الشُّكر إضافة النِّعم إلىٰ موليها بنعت الاستكانة له.

وقال الجنيد: الشُّكر أن لا ترىٰ نفسك أهلًا للنِّعمة[٤]. هذا معنىٰ قول حمدون أن يرىٰ نفسه فيها طفيليًّا.

وقال رُوَيمٌ: الشُّكر استفراغ الطاقة[٥].

وقيل: الشُّكر قيد النِّعم الموجودة، وصيد النِّعم المفقودة.

وشكر العامَّة علىٰ المطعم والملبس وقوت الأبدان، وشكر الخاصَّة علىٰ التوحيد والإيمان وقوت القلوب.

وقال داود: يا ربِّ، كيف أشكرك؟ وشكري نعمةٌ عليَّ مِن عندك تستوجب بها شكرًا، فقال: الآن شكرتني يا داود[٦].

وقال الجنيد وقد سأله سَرِيٌّ عن الشُّكر وهو صبيٌّ بعدُ: الشُّكر أن لا يستعان بشيءٍ من نعم الله علىٰ معاصيه. فقال: من أين لك هذا؟ قال: من مجالستك[٧].

---

(١) ذكره القشيري (ص٤٢٥)، عن أبي بكر الورَّاق.

(٢) «القشيرية» (ص٤٢٥).

(٣) «القشيرية» (ص٤٢٦). أبو عثمان هو الحِيري.

(٤) «القشيرية» (ص٤٢٦).

(٥) «القشيرية» (ص٤٢٦).

(٦) «القشيرية» (ص٤٢٧)، وأسند أحمد في «الزهد» (ص٩١)، عن أبي الجَلْد البصري أحد التابعين أنه قرأ في بعض الكتب نحوه.

(٧) أسنده أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١١٩)، والقشيري في «الرسالة» (ص٤٢٦، ٤٢٨) واللفظ له من طرق عن الجنيد به.

وقيل: من قَصُرت يدُه عن المكافاة فليَطُل لسانه بالشكر.

والشُّكر معه المزيد أبدًا، لقوله تعالىٰ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، فمتىٰ لم تر حالك في مزيدٍ فاستقبل الشُّكر.

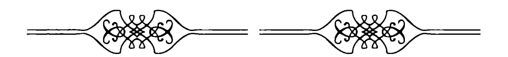
وفي أثرٍ إلهيٍّ يقول الله تعالىٰ: «أهل ذكري أهل مجالستي، وأهل شكري أهل زيادتي، وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهل معصيتي لا أقنِّطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهِّرهم من المعايب»[١].

وقيل: من كتم النِّعمة فقد كفرها، ومن أظهرها ونشرها فقد شكرها. وهذا من قوله: ﷺ «**إنَّ الله إذا أنعم علىٰ عبدٍ بنعمةٍ أحبَّ أن يرىٰ أثر نعمته علىٰ عبده**»[٢].

وفي هذا قيل[٣]:

ومن الرزيَّة أنَّ شكري صامتٌ ... عمَّا فعلتَ وأنَّ برَّك ناطقُ

أأرىٰ الصنيعةَ منك ثمّ أُسِرُّها ... إنِّي إذًا لندىٰ الكريم لسارقُ



(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد (١٩٩٣٤)، من حديث عمران بن حُصين بإسناد جيِّد، انظر: «أنيس الساري» (١٢١٩).

(٣) البيتان لأبي تمَّام في «ديوانه» (٢/ ٤٥٤)، و«القشيرية» (ص٤٢٩).

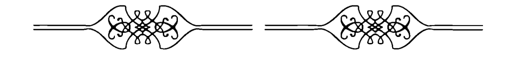
فصل

الفرق بين الحمد والشكر

وتكلَّم الناس في الفرق بين الحمد والشُّكر أيُّهما أعلىٰ وأفضل؟ وفي الحديث: «**الحمد رأس الشُّكر، فمن لم يحمَدِ الله لم يشكُرْه**»[1].

والفرق بينهما: أنَّ الشُّكر أعمُّ من جهة أنواعه وأسبابه وأخصُّ من جهة متعلَّقاته، والحمد أعمُّ من جهة المتعلَّقات وأخصُّ من جهة الأسباب.

ومعنىٰ هذا: أنَّ الشُّكر يكون بالقلب خضوعًا واستكانةً، وباللِّسان ثناءً واعترافًا، وبالجوارح طاعةً وانقيادًا. ومتعلَّقه: النِّعم دون الأوصاف الذاتيَّة، فلا يقال: شكرنا الله علىٰ حياته وسمعه وبصره وعلمه، وهو المحمود عليها كما هو محمودٌ علىٰ إحسانه وعدله، والشُّكر يكون علىٰ الإحسان والنِّعم. فكلُّ ما يتعلَّق به الشُّكر يتعلَّق به الحمدُ من غير عكسٍ. وكلُّ ما يقع به الحمد يقع به الشُّكر من غير عكسٍ، فإنَّ الشُّكر يقع بالجوارح، والحمد بالقلب واللِّسان.



(١) أخرجه عبد الرزاق (٢٠٤٨١)، عن قتادة عن عبد الله بن عمرو. وهو منقطع بين قتادة وابن عمرو.

٢/ ٦١١

فصل

منزلة الحياء

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة الحياء.**

قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾[العلق: ١٤].

وفي «الصحيحين»[(١)] من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ مرَّ برجل وهو يعظ أخاه في الحياء، فقال: «**دعه، فإنَّ الحياء من الإيمان**».

وفيهما[(٢)] عن عمران بن الحصينِ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الحياء لا يأتي إلَّا بخيرٍ**».

وفيهما[(٣)] عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ: «**الإيمان بضعٌ وسبعون أو: بضعٌ وستُّون شعبةً، فأفضلها: قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق، والحياء شعبةٌ من الإيمان**».

وفيهما[(٤)] عن أبي سعيد رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ أشدَّ حياءً من العذراء في خدرها، فإذا رأىٰ شيئًا يكرهه عرفناه في وجهه.

وفي «الصحيح»[(٥)] عنه ﷺ: «**إنَّ ممَّا أدرك الناسُ من كلام النُّبوَّة الأولىٰ: إذا لم تستَحْيِ فاصنع ما شئت**». وفي هذا قولان:

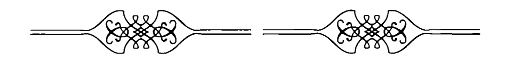
أحدهما: أنَّه أمرُ تهديدٍ، ومعناه الخبر، أي: من لم يستحي صنع ما شاء.

والثّاني: أنَّه أمر إباحةٍ، أي: انظر إلىٰ الفعل الذي تريد أن تفعله، فإن كان ممَّا

(١) البخاري (٢٤)، ومسلم (٣٦).
(٢) البخاري (٦١١٧)، ومسلم (٣٧).
(٣) البخاري (٩)، ومسلم (٣٥).
(٤) البخاري (٦١٠٢)، ومسلم (٢٣٢٠).
(٥) للبخاري (٦١٢٠)، من حديث أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري رضي الله عنه.

لا تستحيي منه فافعله. والأوَّل أصحُّ، وهو قول الأكثرين.

وفي «الترمذيِّ»[1] مرفوعًا: «**استحيُوا من الله حقَّ الحياء**»، قالوا: إنَّا نستحيي يا رسول الله، قال: «**ليس ذلك، ولكنَّ من استحيا من الله حقَّ الحياء فليحفظ الرأس وما وعىٰ، وليحفظ البطن وما حوىٰ، وليذكر الموت والبلىٰ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدُّنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حقَّ الحياء**».



(١) برقم (٢٤٥٨)، من حديث ابن مسعود، وضعفه الترمذي فقال: «هذا حديث غريب». وقد روي من وجوه أخرىٰ مرفوعًا، ولكنها طرق واهية لا يُفرح بها، انظر: تخريج محققي «المسند»، و«أنيس الساري» (٣٥٠٣).

فصل

الحياء من الحياة

والحياء من الحياة، ومنه «الحيا» للمطر، لكن هو مقصور. وعلىٰ حسب حياة القلب يكون فيه قوَّةُ خُلُق الحياء، وقلَّةُ الحياء من موت القلب والرُّوح، فكلَّما كان القلب أحيىٰ كان الحياء أتمَّ.

قال الجنيد رحمه الله: الحياء رؤية الآلاء، ورؤية التقصير، فيتولَّد بينهما حالةٌ تسمَّىٰ الحياء[1].

وحقيقته: خلقٌ يبعث علىٰ ترك القبائح، ويمنع من التفريط في حقِّ صاحب الحقِّ.

ومن كلام بعض الحكماء: أحيوا الحياء بمجالسة من يُستحيا منه[2].

وعمارة القلب بالهيبة والحياء، فإذا ذهبا من القلب لم يبق فيه خيرٌ[3].

وقال ذو النُّون: الحياء وجود الهيبة في القلب مع وحشة ما سبق منك إلىٰ ربِّك. والحبُّ يُنطق، والحياء يُسكت، والخوف يُقلق[4].

وقال السَّرِيُّ: إنَّ الحياء والأنس يَطرُقان القلب، فإن وجدا فيه الزُّهد والورع وإلَّا رحلا[5].

---

(١) «شعب الإيمان» (٧٣٤٨)، و«القشيرية» (ص٤٩٣).
(٢) «القشيرية» (ص٤٨٩)، وأسنده البيهقي في «شعب الإيمان» (٨٦٦٢)، عن ابن الأعرابي قال: كان يقال.
(٣) أسنده القشيري (ص٤٨٩)، عن ابن عطاء بنحوه.
(٤) «القشيرية» (ص٤٨٩)، والشطر الأول أسنده البيهقي أيضًا في «الشعب» (٧٣٥٠)، والشطر الثاني أسنده ابن عساكر في «تاريخه» (١٧/ ٤٣٠).
(٥) أسنده القشيري (ص٤٨٩).

وفي أثرٍ إلهيٍّ يقول الله ﷻ: «ابنَ آدم، إنَّك ما استحييتَ منِّي أنْسيتَ الناس عيوبَك، وأَنسيت بقاعَ الأرض ذنوبَك، ومحوتُ من أمِّ الكتاب زلَّاتك. وإلَّا ناقشتُك الحساب يوم القيامة»[(١)].

وفي أثرٍ آخر: «أوحىٰ الله إلىٰ عيسىٰ عليه السَّلام: عِظْ نفسك، فإن اتعظتَ، وإلَّا فاستحْيِ منِّي أن تعظ الناس»[(٢)].

وقال الفضيل بن عياضٍ رحمه الله: خمسٌ من علامات الشِّقوة: القسوة في القلب، وجمود العين، وقلَّة الحياء، والرغبة في الدُّنيا، وطول الأمل[(٣)].

وفي أثرٍ إلهيٍّ: «ما أنصفني عبدي، يدعوني فأستحيي أن أردَّه، ويعصيني ولا يستحيي منِّي»[(٤)].

وقال يحيىٰ بن معاذٍ رحمه الله: من استحيا من الله مطيعًا استحيا الله منه وهو مذنب[(٥)]. وهذا الكلام يحتاج إلىٰ شرحٍ. ومعناه: أنَّ من غلب عليه خلقُ الحياء من الله حتَّىٰ في حال طاعته فقلبُه مُطرِقٌ بين يديه إطراق مستحيٍ خجلٍ، فإنَّه إذا واقع ذنبًا استحيا اللهُ ﷻ من نظره إليه في تلك الحال لكرامته عليه، فيستحيي أن يرىٰ مِن وليِّه ومَن يكرُم عليه ما يشينه عنده. وفي الشاهد شاهدٌ بذلك، فإنَّ الرجل إذا اطَّلع علىٰ أخصِّ الناس به، وأحبِّهم إليه، وأقربهم منه من صاحبٍ أو ولدٍ أو من يحبُّه، وهو يخونه، فإنَّه يلحقه من ذلك الاطِّلاع عليه حياءٌ عجيب، حتَّىٰ كأنَّه هو الجاني، وهذا غاية الكرم.

---

(١) أسنده البيهقي في «الشعب» (٧٣٦١)، والقشيري (ص٤٩٠)، عن أبي سليمان الداراني.
(٢) «القشيرية» (ص٤٩١)، وأسنده أحمد في «الزهد» (ص٧١) عن مالك بن دينار.
(٣) أسنده ابن أبي الدنيا في «ذم الدنيا» (٢٢١)، والقشيري (ص٤٩٢).
(٤) «القشيرية» (ص٤٩٢)، عن بعض الكتب.
(٥) «القشيرية» (ص٤٩٢).

وقد قيل: إنَّ سبب هذا الحياء أنّه يمثِّل نفسه أنه الخائن، فيلحقه الحياء، كما إذا شاهد الرجل مضروبًا، أو من حَصِر علىٰ المنبر عن الكلام، فإنَّه يخجل أيضًا تمثيلًا لنفسه بتلك الحالة.

وهذا قد يقع، ولكنَّ حياء من اطّلع علىٰ محبوب له يخونه ليس من هذا، فإنّه لو اطَّلع علىٰ غيره ممَّن هو فارغ البال منه لم يلحقه هذا الحياء، ولا قريبٌ منه، وإنَّما يلحقه مقتُه وسقوطُه من عينه. وإنَّما سببه والله أعلم شدَّة تعلُّق قلبه ونفسه به، فينزل الوهمُ فعلَه بمنزلة فعله هو، ولا سيَّما إن قُدِّر حصول المكاشفة بينهما، فإنَّ عند حصولها يهيج خُلُق الحياء منه تكرُّمًا، فعند تقديرها ينبعث ذلك الحياء. هذا في حقِّ الشاهد.

وأمَّا حياءُ الربِّ من عبده تبارك وتعالىٰ فذاك نوعٌ آخر، لا تدركه الأفهام ولا تكيِّفه العقول، فإنَّه حياء كرمٍ وبرٍّ وجودٍ وجلالٍ، فإنَّه حييٌّ كريمٌ يستحيي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردَّهما صفرًا [1]، ويستحيي أن يعذِّب ذا شيبةٍ شابت في الإسلام [2].

وكان يحيىٰ بن معاذ رحمه الله يقول: سبحان من يذنب عبده ويستحيي هو [3].

وفي أثرٍ: «من استحيا من الله استحيا الله منه» [4].

وقد قُسِّم الحياء علىٰ عشرة أوجهٍ: حياء جنايةٍ، وحياء تقصيرٍ، وحياء جلالٍ،

---

(١) يشير إلىٰ حديث سلمان مرفوعًا عند أحمد (٢٣٧١٤)، وأبي داود (١٤٨٨)، والترمذي (٣٥٥٦)، والصواب أنه موقوف علىٰ سلمان من قوله.

(٢) لعله يشير إلىٰ حديث أنس مرفوعًا: «يقول الله: إني لأستحيي من عبدي وأمتي يشيبان في الإسلام فأعذبهما بعد ذلك»، أخرجه ابن أبي الدنيا في «العمر والشيب» (٢)، وهو ضعيف، انظر: «الموضوعات» لابن الجوزي (١/ ٢٧٩).

(٣) «القشيرية» (ص٤٩٢).

(٤) قال ﷺ في قصة النفر الثلاثة الذين أقبلوا علىٰ مجلسه، فجلس اثنان وذهب واحد: «وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه»، أخرجه البخاري (٦٦)، ومسلم (٢١٧٦).

وحياء كرمٍ، وحياء حشمةٍ، وحياء استصغارٍ للنفس واحتقارٍ لها، وحياء محبَّةٍ، وحياء عبوديَّةٍ، وحياء شرفٍ وعزَّةٍ، وحياء المستحيي من نفسه.

فأمَّا حياء الجناية: فمنه حياء آدم لمَّا فرَّ هاربًا في الجنَّة، قال الله: أفرارًا منِّي يا آدم؟ قال: لا يا ربِّ، بل حياءً منك[1].

وحياء التقصير: كحياء الملائكة الذين يسبِّحون الليل والنهار لا يفترون، فإذا كان يوم القيامة قالوا: سبحانك! ما عبدناك حقَّ عبادتك[2].

وحياء الإجلال: هو حياء المعرفة، وعلىٰ حسب معرفة العبد بربِّه يكون حياؤه منه.

وحياء الكرم: كحياء النبيِّ ﷺ من القوم الذين دعاهم إلىٰ وليمة زينب، وطوَّلوا عنده، فقام واستحيا أن يقول لهم: انصرفوا[3].

وحياء الحشمة: كحياء عليِّ بن أبي طالبٍ أن يسأل رسول الله ﷺ عن المذي لمكان ابنته منه[4].

وحياء الاستحقار واستصغار النفس: كحياء العبد من ربِّه حين يسأله حوائجه، احتقارًا لشأن نفسه واستصغارًا لها. وفي أثرٍ إسرائيليٍّ: إنَّ موسىٰ قال: يا ربِّ، إنَّه لتعرض لي الحاجة من الدُّنيا، فأستحيي أن أسألك يا ربِّ، فقال الله تعالىٰ: «سلني حتَّىٰ ملح عجينك وعلف شاتك»[5].

---

(١) «القشيرية» (ص٤٩١). أخرجه الحاكم (٢/ ٢٦٢)، عن أبي بن كعب مرفوعًا، وهو معلول. وروي أيضًا عن مجاهد مقطوعًا من قوله، أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة» (٣٢٦)، بإسناد حسن.

(٢) «القشيرية» (ص٤٩١)، وأخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٣٥٧)، عن سلمان الفارسي موقوفًا عليه من قوله، وإسناده صحيح.

(٣) كما في حديث أنس عند البخاري (٥١٦٣)، ومسلم (١٣٦٥/ ٨٧) عقب الحديث (١٤٢٧).

(٤) كما في حديثه عند البخاري (٢٦٩)، ومسلم (٣٠٣).

(٥) «القشيرية» (ص٤٩٢).

وقد يكون لهذا النوع من الحياء سببان. أحدهما: استحقار السائل نفسه. والثاني: استعظامه مسؤولَه.

وأمَّا حياء المحبة: فهو حياء المحبِّ من محبوبه، حتَّىٰ إنَّه إذا خطر علىٰ قلبه في حال غيبته هاج الحياء من قلبه، وأحسَّ به في وجهه، ولا يدري ما سببه. وكذلك يعرض للمحبِّ عند ملاقاته محبوبه ومناجاته له روعةٌ شديدةٌ، ومنه قولهم: جمالٌ رائع. وسبب هذا الحياء والرَّوعة ممَّا لا يعرفه أكثر الناس. ولا ريب أنَّ للمحبة سلطانًا قاهرًا للقلب أعظم من سلطان من يقهر البدن، فأين من يقهر قلبَك ورُوحَك إلىٰ من يقهر بدنك؟ ولذلك تعجَّبت الملوك والجبابرة من قهرهم للخلق، وقهر المحبوب لهم وذلِّهم له. فإذا فاجأ المحبوبُ مُحِبَّه ورآه بغتةً أحسَّ القلب بهجوم سلطانه عليه، فاعتراه روعةٌ وخوف. **وسألنا يومًا شيخ الإسلام ابن تيمية عن هذه** المسألة، فذكرت أنا هذا الجواب، فتبسَّم ولم يقل شيئًا.

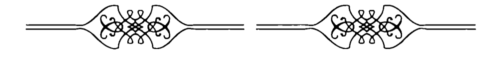
وأمَّا الحياء الذي يعتريه منه وإن كان قادرًا عليه كأَمَته وزوجته، فسببه والله أعلم أنَّ هذا السُّلطان لمَّا زال خوفُه عن القلب بقيَتْ هيبتُه واحتشامُه، فتولَّد منها الحياء. وأمَّا حصول ذلك له في غيبة المحبوب فظاهر، لاستيلائه علىٰ قلبه، فوهمُه يغالطه عليه ويكابره حتَّىٰ كأنَّه معه.

وأمَّا حياء العبودية: فهو حياءٌ ممتزجٌ بين محبَّةٍ وخوفٍ، ومشاهدةِ عدم صلاح عبوديَّته لمعبوده، وأنَّ قدره أعلىٰ وأجلُّ منها. فعبوديَّته له توجب استحياءه منه لا محالة.

وأمَّا حياء الشرف والعزَّة: فحياء النفس العظيمة الكبيرة إذا صدر منها ما هو دون قدرها من بذلٍ أو عطاءٍ وإحسانٍ، فإنَّه يستحيي مع بذله حياءَ شرفِ نفسٍ وعزَّةٍ. وهذا له سببان:

أحدهما هذا. والثاني: استحياؤه من الآخِذ، حتَّىٰ إنَّ بعض أهل الكرم لا تطاوعه نفسه بمواجهته لمن يعطيه حياءً منه. وهذا يدخل في حياء التكرُّم، لأنَّه يستحيي من خجلة الآخذ.

وأمَّا حياء المرء من نفسه: فهو حياء النُّفوس الشريفة العزيزة مِن رضاها لنفسها بالنقص وقَنَعِها بالدُّون، فيجد نفسه مستحييًا من نفسه، حتَّىٰ كأنَّ له نفسان، يستحيي بإحداهما من الأخرىٰ. وهذا أكمل ما يكون من الحياء، فإنَّ العبد إذا استحيا من نفسه، فهو بأن يستحيي من غيره أجدر.



٢/ ٦٢٧

فصل

منزلة الصدق

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة الصِّدق**. وهي منزلة القوم الأعظم الذي منه تنشأ جميع منازل السالكين، والطريق الأقوم الذي مَن لم يَسِرْ عليه فهو من المنقطعين الهالكين.

وبه تميَّز أهل النِّفاق من أهل الإيمان، وسكَّان الجنان من أهل النِّيران. وهو سيف الله في أرضه الذي ما وضع علىٰ شيءٍ إلَّا قطعه، ولا واجه باطلًا إلَّا أرداه وصرعه. من صال به لم تردَّ صولته، ومن نطق به علت علىٰ الخصوم كلمته. فهو روح الأعمال، ومحكُّ الأحوال، والحامل علىٰ اقتحام الأهوال، والباب الذي منه دخل الواصلون إلىٰ حضرة ذي الجلال.

وهو أساس بناء الدِّين، وعمود فسطاط اليقين. ودرجته تاليةٌ لدرجة النُّبوَّة التي هي أرفع درجات العالمين، ومن مساكنهم في الجنان تجري العيون والأنهار إلىٰ مساكن الصِّدِّيقين، كما كان من قلوبهم إلىٰ قلوبهم في هذه الدار مددٌ متَّصلٌ ومعينٌ.

وقد أمر الله سبحانه أهل الإيمان أن يكونوا مع الصادقين، وخصَّ المُنعَم عليهم بالنبيِّين والصدِّيقين والشُّهداء والصالحين، فقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[التوبة: ١١٩]، وقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾، فهم أهل الرفيق الأعلىٰ، ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

ولا يزال الله يمدُّهم بنعمه وألطافه ومزيده إحسانًا منه وتوفيقًا، ولهم مزيَّة

المعيَّة مع الله، فإنَّ الله مع الصادقين. ولهم منزلة القرب منه، إذ درجتهم منه ثاني درجة النبيِّين.

وأخبر تعالىٰ أنَّ من صدَقَه فهو خيرٌ له، فقال: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾[محمد: ٢١].

وأخبر تعالىٰ عن أهل البرِّ وأثنىٰ عليهم بأحسن أعمالهم من الإيمان والإسلام والصدقة والصَّبر بأنَّهم أهل الصِّدق، فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾إلىٰ قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[البقرة: ١٧٧]. وهذا صريحٌ في أنَّ الصِّدق بالأعمال الظاهرة والباطنة، وأنَّ الصِّدق هو مقام الإسلام والإيمان.

وقَسَم سبحانه الناسَ إلىٰ صادقٍ ومنافقٍ، فقال: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ﴾[الأحزاب: ٢٤].

والإيمان أساسه الصِّدق، والنِّفاق أساسه الكذب، فلا يجتمع كذبٌ وإيمانٌ إلَّا وأحدهما محاربٌ الآخرَ.

وأخبر سبحانه أنَّه في يوم القيامة لا ينفع العبد وينجيه من عذابه إلَّا صدقُه، قال الله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[المائدة: ١١٩]، وقال: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[الزمر: ٣٣-٣٥]، فالذي جاء بالصِّدق هو مَن شأنه الصِّدق في قوله وعمله وحاله، فالصِّدق: في هذه الثلاثة.

فالصِّدق في الأقوال: استواء اللِّسان علىٰ الأقوال، كاستواء السُّنبلة علىٰ ساقها.

والصِّدق في الأعمال: استواء الأفعال علىٰ الأمر والمتابعة، كاستواء الرأس علىٰ الجسد.

والصِّدق في الأحوال: استواء أعمال القلب والجوارح علىٰ الإخلاص، واستفراغُ الوسع وبذل الطاقة.

فبذلك يكون العبد من الذين جاؤوا بالصِّدق. وبحسب كمال هذه الأمور فيه وقيامها به تكون صدِّيقيَّته. ولذلك كان لأبي بكرٍ الصِّدِّيق ذروةُ سنام الصدِّيقيَّة حتىٰ سمِّي «الصِّدِّيق» علىٰ الإطلاق. والصدِّيق أبلغ من الصدوق، والصدوق أبلغ من الصادق.

فأعلىٰ مراتب الصِّدق: مرتبة الصدِّيقيَّة، وهي كمال الانقياد للرسول مع كمال الإخلاص للمُرسِل.

وقد أمر الله سبحانه رسوله أن يسأله أن يجعل مَدْخَله ومَخْرَجه علىٰ الصِّدق، فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾[الإسراء: ٨٠].

وأخبر عن خليله إبراهيم ﷺ أنَّه سأله أن يهب له لسان صدقٍ في الناس، فقال: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾[الشعراء: ٨٤].

وبشَّر عباده أنَّ لهم عنده قدم صدقٍ ومقعد صدقٍ، فقال تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[يونس: ٢]، وقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾[القمر: ٥٤ - ٥٥].

فهذه خمسة أشياء: مدخل الصِّدق، ومخرج الصِّدق، ولسان الصِّدق، وقدم الصِّدق، ومقعد الصِّدق.

وحقيقة الصِّدق في هذه الأشياء: هو الحقُّ الثابت، المتَّصل بالله، الموصل

إلىٰ الله. وهو ما كان به وله، من الأعمال والأقوال. وجزاء ذلك في الدُّنيا والآخرة.

فمدخل الصِّدق ومخرج الصِّدق: أن يكون دخوله وخروجه حقًّا ثابتًا بالله وفي مرضاته، متَّصلًا بالظفر بالبغية وحصول المطلوب، ضدُّ مخرج الكذب ومدخله الذي لا غاية له يوصل إليها، ولا له ساقٌ ثابتةٌ يقوم عليها، كمخرج أعدائه يوم بدرٍ، ومخرجُ الصِّدق كمخرجه هو وأصحابه في تلك الغزوة.

وكذلك مدخله المدينة كان مدخل صدقٍ بالله ولله وابتغاء مرضاة الله، فاتَّصل به التأييدُ والظفر والنصر وإدراكُ ما طلبه في الدُّنيا والآخرة، بخلاف مدخل الكذب الذي رام أعداؤه أن يدخلوا به المدينة يوم الأحزاب، فإنَّه لم يكن بالله ولا لله، بل محادَّةً لله ورسوله، فلم يتَّصل به إلَّا الخِذلان والبوار.

وكذلك مدخل من دخل من اليهود المحاربين لرسول الله ﷺ حصن بني قريظة، فإنَّه لمَّا كان مدخل كذبٍ أصابه معهم ما أصابهم.

فكلُّ مَدخلٍ ومَخرجٍ كان بالله ولله، وصاحبه ضامنٌ علىٰ الله= فهو مدخل صدقٍ، ومَخرج صدقٍ.

وكان بعض السلف إذا خرج من داره رفع رأسه إلىٰ السماء، وقال: «اللهمَّ إنِّي أعوذ بك أن أَخرُج مَخرجًا لا أكون فيه ضامنًا عليك»[1]، يريد: أن لا يكون المخرج مخرج صدقٍ.

ولذلك فُسِّر مدخل الصدق ومخرجه: بخروجه ﷺ من مكَّة ودخوله المدينة. ولا ريب أنَّ هذا علىٰ سبيل التمثيل، فإنَّ هذا المدخل والمخرج من أجلِّ مداخله ومخارجه ﷺ، وإلَّا فمداخله ومخارجه كلُّها مداخل صدقٍ ومخارج صدقٍ، إذ هي بالله ولله، وبأمره ولابتغاء مرضاته.

---

(١) روىٰ ابن المبارك في «الزهد» (١٨ رواية نعيم) أن أبا هريرة قال: إنِّي لأكره أن أركب مركبًا لا أكون فيه ضامنًا علىٰ الله.

وما خرج أحدٌ من بيته ودخل سوقه أو مدخلًا آخر إلَّا بصدقٍ أو كذب، فمخرج كلِّ أحدٍ ومدخله لا يعدو الصِّدق والكذب. والله المستعان.

وأمَّا لسان الصِّدق: فهو الثناء الحسن عليه من سائر الأمم بالصِّدق، ليس ثناءً بالكذب، كما قال عن أنبيائه ورسله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾[مريم: ٥٠]. والمراد باللِّسان هاهنا: الثناء الحسن، فلمَّا كان باللِّسان وهو محلُّه عَبَّر به عنه. فإنَّ اللِّسان يراد به ثلاثة معانٍ: هذا، واللُّغة كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾[إبراهيم: ٤]، وقوله: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾[الروم: ٢٢]، وقوله: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾[النحل: ١٠٣]، ويراد به الجارحة نفسها كقوله تعالىٰ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾[القيامة: ١٦].

وأمَّا قدم الصِّدق: ففُسِّر بالجنَّة، وفسِّر بمحمَّدٍ ﷺ، وفسِّر بالأعمال الصالحة[1]. وحقيقة القدم ما قدَّموه، ويَقْدَمون عليه يوم القيامة. وهم قدَّموا الأعمال والإيمان بمحمَّدٍ ﷺ، ويَقْدَمون علىٰ الجنَّة التي هي جزاء ذلك، فمن فسَّره بها أراد ما يَقْدَمون عليه. ومن فسَّره بالأعمال وبالنبيِّ ﷺ فلأنَّهم قدَّموها وقدَّموا الإيمان به بين أيديهم. فالثلاثة قَدَمُ صدقٍ.

وأمَّا مقعد الصِّدق: فهو الجنة عند الربِّ تبارك وتعالىٰ.

ووصفُ ذلك كلِّه بالصِّدق مستلزمٌ ثبوتَه واستقرارَه، وأنَّه حقٌّ، ودوامَه، ونفعَه، وكمالَ عائدته؛ فإنَّه متَّصلٌ بالحقِّ سبحانه، كائنٌ به وله، فهو صدقٌ غير كذبٍ، وحقٌّ غير باطلٍ، ودائمٌ غير زائلٍ، ونافعٌ غير ضارٍّ، وما للباطل ومتعلَّقاته إليه سبيلٌ ولا مدخل.

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (١٢/ ١٠٨-١١١).

ومن علامات الصِّدق: طمأنينة القلب إليه، ومن علامات الكذب: حصول الرِّيبة، كما في «الترمذي»(١) مرفوعًا من حديث الحسن بن عليٍّ رضي الله عنهما: «**الصِّدق طمأنينة، والكذب ريبة**».

وفي «الصحيحين»(٢) من حديث عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «**إنَّ الصِّدق يهدي إلىٰ البرِّ، وإنَّ البرَّ يهدي إلىٰ الجنَّة، وإنَّ الرجل ليصدق حتَّىٰ يكتب عند الله صدِّيقًا، وإنَّ الكذب يهدي إلىٰ الفجور، وإنَّ الرجل ليكذب حتَّىٰ يكتب عند الله كذَّابًا**». فجعل الصِّدق مفتاحَ الصدِّيقيَّة ومبدأَها، وهي غايته، فلا ينال درجتَها كاذبٌ البتَّة لا في قوله، ولا في عمله، ولا في حاله. ولا سيَّما كاذبٌ علىٰ الله في أسمائه وصفاته بنفي ما أثبته لنفسه، أو إثبات ما نفاه عن نفسه، فليس في هؤلاء صدِّيقٌ أبدًا.

وكذلك الكذب عليه في دينه وشرعه بتحليل ما حرَّمه، وتحريم ما لم يحرِّمه، وإسقاط ما أوجبه، وإيجاب ما لم يوجبه، وكراهة ما أحبَّه، واستحباب ما لم يحبَّه؛ كلُّ ذلك منافٍ للصدِّيقيَّة.

وكذلك الكذب معه في الأعمال بالتحلِّي بحلية الصادقين المخلصين الزاهدين المتوكِّلين وليس منهم.

فلذلك كانت الصِّدِّيقيَّة: كمال الإخلاص والانقياد والمتابعةِ للخبر والأمر ظاهرًا وباطنًا، حتَّىٰ إنَّ صِدْقَ المتبايعين يُحِلُّ البركةَ في بيعهما، وكذبَهما يَمْحَقُ بركة بيعهما، كما في «الصحيحين»(٣) عن حكيم بن حزامٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**البيِّعان بالخيار ما لم يتفرَّقا، فإن صدقا وبيَّنا بورك لهما في بيعهما، وإن كذبا وكتما مُحقت بركة بيعهما**».

---

(١) برقم (٢٥١٨)، وصححه.

(٢) البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).

(٣) البخاري (٢٠٧٩)، ومسلم (١٥٣٢).

فصل

في كلماتٍ في حقيقة الصِّدق

قال عبد الواحد بن زيدٍ رحمه الله: الصِّدق: الوفاء لله بالعمل[1].

وقيل: موافقة السِّرِّ النُّطق[2].

وقيل: استواء السِّرِّ والعلانية[3]. يعني: أنَّ الكاذب علانيته خيرٌ من سريرته، كالمنافق الذي ظاهره خيرٌ من باطنه.

وقيل: الصِّدق: القول بالحقِّ في مواطن الهلكة[4].

وقيل: كلمة الحقِّ عند من تخافه وترجوه.

وقال الجنيد رحمه الله: الصادق يتقلَّب في اليوم أربعين مرَّةً، والمُرائي يثبت علىٰ حالةٍ واحدةٍ أربعين سنةً[5].

وهذا الكلام يحتاج إلىٰ شرحٍ، وقد يسبق إلىٰ الذِّهن خلافُه وأنَّ الكاذب متلوِّنٌ، لأنَّ الكذب ألوان فهو يتلوَّن بتلوُّنه، والصادق مستمرٌّ علىٰ حالةٍ واحدةٍ، فإنَّ الصِّدق واحدٌ في نفسه وصاحبُه لا يتلوَّن ولا يتغيَّر.

لكنَّ مراد أبي القاسم صحيحٌ غير هذا. فإنَّ العارضات والواردات التي ترد علىٰ الصادق لا ترد علىٰ الكذَّاب المرائي، بل هو فارغٌ منها، فإنَّه لا يرد عليه من قِبَل الحقِّ مواردُ الصادق، ولا يعارضه الشيطان كما يعارض الصادق، فإنَّه لا أَرَبَ له في خربةٍ لا شيء فيها.

---

(١) «القشيرية» (ص٤٨٣).
(٢) «القشيرية» (ص٤٨٣).
(٣) ذكره القشيري (ص٤٨٢) بأنه أقل الصدق.
(٤) «القشيرية» (ص٤٨٣).
(٥) أسنده القشيري (ص٤٨٣).

وهذه الواردات توجب تقلُّب الصادق بحسب اختلافها وتنوُّعها، فلا تراه إلَّا هاربًا من مكانٍ إلىٰ مكانٍ، ومن عملٍ إلىٰ عملٍ، ومن حالٍ إلىٰ حالٍ، ومن سببٍ إلىٰ سببٍ؛ لأنَّه يخاف في كلِّ حالٍ يطمئنُّ إليها ومكانٍ وسببٍ أن يقطعه عن مطلوبه، فهو لا يساكن حالةً ولا شيئًا دون مطلوبه، فهو كالجوَّال في الآفاق في طلب الغنىٰ الذي يفوق به الأغنياء، فالأحوال والأسباب تتقلَّب به، وتقيمه وتقعده، وتحرِّكه وتسكِّنه، حتَّىٰ يجد فيها ما يعينه علىٰ مطلبه. وهذا عزيزٌ فيها، فقلبُه في تقلُّبٍ وحركةٍ شديدةٍ بحسب سعة مطلوبه وعظمته، وهمَّتُه أعلىٰ من أن يقف دون مطلبه علىٰ رسمٍ أو حالٍ أو يساكن شيئًا غيره، فهو كالمحبِّ الصادق، الذي همَّته التفتيش علىٰ محبوبه.

وهكذا حال الصادق في طلب العلم، وحال الصادق في طلب الدُّنيا؛ فكلُّ صادقٍ في طلب شيءٍ لا يستقرُّ له قرار، ولا يدوم علىٰ حالة واحدة.

وأيضًا: فإنَّ الصادق مطلوبه: رضا ربِّه، وتنفيذُ أوامره، وتتبُّع محابِّه. فهو متقلِّبٌ فيها يسير معها أين توجَّهت ركائبها، ويستقلُّ معها أنَّىٰ استقلَّت مضاربها، فبينا هو في صلاةٍ إذ رأيتَه في ذكرٍ، ثمَّ في غزوٍ، ثمَّ في حجٍّ، ثمَّ في إحسانٍ للخلق بالتعليم وغيره من أنواع النفع، ثمَّ في أمرٍ بمعروفٍ أو نهيٍ عن منكرٍ، أو في قيامٍ بسببٍ فيه عمارةٌ للدِّين والدُّنيا.

فهو في تفرُّقٍ دائمٍ لله، وجمعيَّةٍ علىٰ الله، لا يملكه رسمٌ ولا عادةٌ ولا وضع، ولا يتقيَّد بقيدٍ ولا إشارة، ولا بمكانٍ معيَّنٍ لا يصلِّي إلا فيه، وزيٍّ معيَّنٍ لا يلبس سواه، وعبادةٍ معيَّنةٍ لا يلتفت إلىٰ غيرها مع فضلها عليها في الدرجة؛ وبُعدُ ما بينهما كبعد ما بين السماء والأرض. فإنَّ البلاء والآفاتِ، والرِّياءَ والتصنُّع، وعبادةَ النفس وإيثارَ مرادها والإشارةَ إليها= كلَّها في هذه الأوضاع والرُّسوم والقيود التي

حبست أربابها عن السَّير إلىٰ قلوبهم، فضلًا عن السَّير من قلوبهم إلىٰ الله تعالىٰ. فإذا خرج أحدهم عن رسمه ووضعه وزيِّه وقيده وإشارته ولو إلىٰ أفضل منه استهجن ذلك، ورآه نقصًا، وسقوطًا من أعين النَّاس، وانحطاطًا لرتبته عندهم.

وهذا شأن الكذَّاب العامل علىٰ عمارة نفسه ومرتبته. ولو كان عاملًا علىٰ مراد الله منه، وعلىٰ الصِّدق مع الله= لأثقلَتْه تلك القيود، وحبَسَتْه تلك الرُّسوم، ولرأىٰ الوقوفَ عندها ومعها عينَ الانقطاع عن الله لا إليه.

فكلام أبي القاسم الجنيد رحمه الله حقٌّ، كلامُ راسخٍ في الصِّدق، عالمٍ بتفاصيله وآفاته ومواضع اشتباهه بالكذب.

وأيضًا: فحمل الصِّدق كحمل الجبال الرواسي، لا يطيقه إلَّا أصحاب العزائم، فهم يتقلَّبون تحته تقلُّبَ الحامل بحمله الثقيل. والرِّياء والكذب خفيفٌ كالرِّيشة لا يجد له صاحبه ثقلًا البتَّة، فهو حاملٌ له في أيِّ موضعٍ اتَّفق، بلا تعبٍ ولا كلفةٍ ولا مشقَّة، ولا يتقلَّب تحت حمله ولا يجد ثقله.

وقال بعضهم: لم يَشَمَّ روائح الصِّدق عبدٌ داهَنَ نفسه أو غيره[1].

وقال بعضهم: الصادق: الذي يتهيَّأ له أن يموت ولا يستحيي مِن سرِّه لو كشف، قال تعالىٰ: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾[البقرة: ٩٤][2].

وقال إبراهيم الخوَّاص: الصَّادق لا تراه إلَّا في فرضٍ يؤدِّيه، أو فضلٍ يعمل فيه[3].

وقال الجنيد رحمه الله: حقيقة الصِّدق: أن تصدق في موطنٍ لا ينجيك منه إلَّا الكذب[4].

---

(١) أسنده السلمي في «آداب الصحبة» (٨٣)، عن سهل بن عبد الله التستري.
(٢) ذكره القشيري عن أبي سعيد القرشي الرازي (ت ٣٨٢).
(٣) أسنده القشيري (ص٤٨٥).
(٤) أسنده القشيري (ص٤٨٥).

وقيل: ثلاثٌ لا تخطئ الصّادق: الحلاوة، والهيبة، والملاحة.

وفي أثرٍ إلهيٍّ: «من صَدَقني في سريرته صدقتُه في علانيته عند خلقي».

وقال سهل بن عبد الله رحمه الله: أوَّل خيانة الصِّدِّيقين: حديثهم مع أنفسهم.

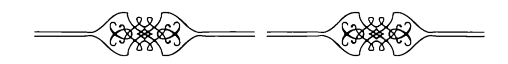
وقال يوسف بن أسباطٍ رحمه الله: لأن أبيت ليلةً أعامل الله بالصِّدق أحبُّ إليَّ من أن أضرب بسيفي في سبيل الله.

وقال بعضهم: من لم يؤدِّ الفرض الدائم لم يقبل منه الفرض المؤقَّت. قيل: وما الفرض الدائم؟ قال: الصِّدق.

وقيل: من طلب الله بالصِّدق أعطاه مرآةً يبصر فيها الحقَّ والباطل.

وقيل: عليك بالصِّدق حيث تخاف أنَّه يضرُّك، فإنَّه ينفعك. ودع الكذب حيث ترىٰ أنَّه ينفعك، فإنَّه يضرُّك.

وقيل: ما أملق تاجرٌ صدوقٌ[1].



(١) الأقوال السابقة كلها من «القشيرية» (ص٤٨٥ - ٤٨٧).

٣/ ٣

فصل

منزلة الإيثار

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة الإيثار**. قال الله تعالىٰ في مدح أهله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[الحشر: ٩].

فالإيثار ضدّ الشُّحِّ، فإنّ المُؤْثِرَ علىٰ نفسه تاركٌ لما هو محتاجٌ إليه، والشّحيح حريصٌ علىٰ ما ليس بيده، فإذا حصل بيده شَحَّ عليه وبَخِلَ بإخراجه. فالبخل ثمرة الشُّحِّ، والشُّحُّ يأمر بالبخل، كما قال النبيُّ ﷺ: «**إيّاكم والشُّحَّ، فإنّ الشُّحّ أهلك مَن كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخِلُوا، وأمرهم بالقطيعة فقطَعوا**»[(١)].

فالبخيل: مَن أجاب داعيَ الشُّحِّ، والمُؤثِر: من أجاب داعيَ الجود.

وكذلك السخاء عمَّا في أيدي الناس هو السخاء، وهو أفضلُ من سخاء البذل. قال عبد الله بن المبارك ﷺ: سخاء النفس عمَّا في أيدي الناس أفضلُ من سخاء النفس بالبذل[(٢)].

وهذا المنزل هو منزل الجود والسخاء والإحسان، وسمِّي بمنزل «الإيثار» لأنّه أعلىٰ مراتبه، فإنَّ المراتب ثلاثةٌ[(٣)]:

إحداها: أن لا ينقصه البذل، ولا يصعب عليه. فهو منزلة «السخاء».

الثّانية: أن يُعطي الأكثر، ويُبقي له شيئًا، أو يُبقي مثل ما أعطىٰ. فهو «الجود».

(١) أخرجه أحمد (٦٤٨٧)، وابن حبان (٥١٧٦)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ. وإسناده صحيح.

(٢) «الرسالة القشيرية» (ص٥٤٥).

(٣) هذه المراتب مذكورة في «الرسالة القشيرية» (ص٥٣٦).

الثالثة: أن يُؤثِر غيره بالشيء مع حاجته إليه، فهي مرتبة «الإيثار».

وعكسها الأَثَرة، وهو استئثاره عن أخيه بما هو محتاجٌ إليه، وهي المرتبة التي قال فيها النبي ﷺ للأنصار: «**إنَّكم ستَلْقَون بعدي أَثَرةً، فاصبروا حتَّىٰ تَلْقَوني علىٰ الحوض**»[١]. والأنصار: هم الذين وصفهم الله بالإيثار في قوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[الحشر: ٩]، فوصفهم بأعلىٰ مراتب السخاء، وكان ذلك فيهم معروفًا.

وكان قيس بن سعد بن عُبادة رضي الله عنهما من الأجواد المعروفين، حتَّىٰ إنّه مرِض مرَّةً، فاستبطأ إخوانَه في العيادة، فسأل عنهم، فقالوا: إنَّهم يَستحْيُون ممَّا لك عليهم من الدَّين، فقال: أخزىٰ الله مالًا يمنع الإخوان من الزِّيارة! ثمَّ أمر مَن ينادي: من كان لقيسٍ عليه مالٌ فهو منه في حلٍّ. فما أمسىٰ حتَّىٰ كُسِرتْ عَتبةُ بابه، لكثرة من عاده[٢].

وقالوا له يومًا: هل رأيتَ أسخىٰ منك؟ قال: نعم، نزلنا بالبادية علىٰ امرأةٍ، فحضر زوجها، فقالت: إنَّه نزل بك ضِيفانٌ. فجاء بناقةٍ فنحرها، وقال: شأْنكم! فلمَّا كان من الغد جاء بأخرىٰ فنحرَها، فقلنا: ما أكلنا من التي نحرتَ البارحةَ إلّا اليسير، فقال: إنِّي لا أُطعِم أضيافي البائتَ. فبقينا عنده يومين أو ثلاثةً، والسّماء تُمطِر، وهو يفعل ذلك. فلمَّا أردنا الرحيلَ وضعنا مائة دينارٍ في بيته، وقلنا للمرأة: اعتذري لنا إليه. ومضينا، فلمّا مَتَعَ[٣] النّهارُ إذا نحن برجل يصيح خلفنا: قِفُوا أيُّها الرَّكْبُ اللِّئام، أعطيتموني ثمنَ قِرَايَ؟ لحِقَنا، وقال: لتأْخُذُنَّه أو لأُطاعِننَّكم برمحي، فأخذناه وانصرف[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١)، من حديث عبد الله بن زيد، وأخرجاه من حديث أسيد بن حضير وأنس بن مالك.

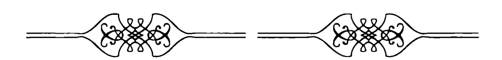
(٢) الخبر في «الرسالة القشيرية» (ص٥٤٠)، و«المستجاد» للتنوخي (ص١٣٥).

(٣) أي بلغ غاية ارتفاعه، وهو ما قبل الزوال.

(٤) «الرسالة القشيرية» (ص٥٣٩)، والخبر في «قرىٰ الضيف» لابن أبي الدنيا (١٧).

فتأمّلْ سرَّ التقدير، حيث قدَّر الحكيم الخبير سبحانَه استئثارَ الناس علىٰ الأنصار بالدُّنيا وهم أهل الإيثار ليجازِيَهم علىٰ إيثارهم في الدُّنيا علىٰ نفوسهم بالمنازل العالية في جنّاتِ عدنٍ علىٰ النّاس، فيظهر حينئذٍ فضيلةُ إيثارهم ودرجتُه، ويَغْبِطُهم من استأثر عليهم بالدُّنيا أعظمَ غِبْطةٍ. وذلك فضلُ الله يُؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

فإذا رأيتَ الناس يستأثرون عليك مع كونك من أهل الإيثار فاعلَمْ أنَّه لخيرٍ يُراد بك.



فصل

مراتب الجود عشرة

والجود عشر مراتبَ:

إحداها: الجود بالنفس، وهو أعلىٰ مراتبه، كما قال الشاعر[(١)]:

يجودُ بالنفس إذ ضَنَّ الجوادُ بها والجودُ بالنفسِ أقصىٰ غايةِ الجُودِ

الثّانية: الجود بالرِّئاسة، وهو ثاني مراتب الجود، فيَحمِلُ الجوادَ جودُه علىٰ امتهانِ رئاسته، والجودِ بها، والإيثارِ في قضاء حاجة الملتمس.

الثّالثة: الجود براحته ورفاهيتِه وإجمامِ نفسه، فيجود بها نَصَبًا وكَدًّا في مصلحة غيره. ومن هذا جود الإنسان بنومه ولذّته لمُسامِرِه، كما قيل[(٢)]:

مُتيَّمٌ بالنَّدىٰ لو قال سائلُه هَبْ لي جميعَ كَرَىٰ عينيكَ لم يَنَمِ

الرّابعة: الجود بالعلم وبذْله، وهو من أعلىٰ مراتب الجود، والجودُ به أفضلُ من الجود بالمال؛ لأنّ العلم أشرف من المال.

والناس في الجود به علىٰ مراتب متفاوتةٍ، وقد اقتضت حكمةُ الله وتقديرُه النافذ أن لا ينفعَ به بخيلًا أبدًا.

ومن الجود به: أن تبذله لمن لم يسألك عنه، بل تَطْرحه عليه طَرْحًا.

ومن الجود به: أنَّ السائل إذا سألك عن مسألةٍ استقصيتَ له جوابَها شافيًا، لا يكون جوابك له بقدرِ ما تُدفع به الضّرورة، كما كان بعضهم يكتب في جواب الفتيا «نعم» أو «لا»، مقتصرًا عليها.

---

(١) هو مسلم بن الوليد، والبيت من قصيدة طويلة له في «ديوانه» (ص١٦٤).
(٢) البيت لأبي إسحاق الغزّي في «ديوانه» (ص٥٧٩).

ولقد شاهدتُ من شيخ الإسلام ابن تيمية في ذلك أمرًا عجيبًا: كان إذا سُئل عن مسألةٍ حكميَّةٍ، ذكر في جوابها مذاهبَ الأئمَّة الأربعة إذا قدَرَ عليه، ومأخذَ الخلاف، وترجيحَ القول الراجح، وذكر متعلَّقاتِ المسألة التي ربَّما تكون أنفعَ للسائل من مسألته، فيكون فرحُه بتلك المتعلَّقات واللَّوازم أعظمَ من فرحه بمسألته.

وهذه فتاواه بين الناس، فمن أحبَّ الوقوفَ عليها رأىٰ ذلك.

فمِن جود الإنسان بالعلم: أنّه لا يقتصر علىٰ مسألة السائل، بل يذكر له نظيرَها ومتعلَّقها ومأخذَها، بحيث يشفيه ويكفيه.

وقد سأل الصحابة رضي الله عنهم النبيَّ ﷺ عن التَّوضِّي بماء البحر؟ فقال: «**هو الطَّهور ماؤه، الحلُّ مَيتتُه**»[1]. فأجابهم عن سؤالهم، وجاد عليهم بما لعلَّهم في الأحيان إليه أحوجُ ممَّا سألوه عنه.

وكانوا إذا سألوه عن الحكم نبَّهَهم علىٰ علَّته وحكمته، كما سألوه عن بيع الرُّطَب بالتَّمر؟ فقال: «**أينقُصُ الرُّطَب إذا جَفَّ؟**»، قالوا: نعم. قال: «**فلا إذَنْ**»[2].

ولم يكن يخفىٰ عليه ﷺ نقصان الرُّطب بجفافه، ولكن نبَّههم علىٰ علَّة الحكم.

وهذا كثيرٌ جدًّا في أجوبته ﷺ، مثل قوله: «**إن بِعتَ من أخيك ثَمَرًا فأصابتْها جائحةٌ، فلا يحلُّ لك أن تأخذ من مال أخيك شيئًا، بِمَ يأخذُ أحدكم مالَ أخيه بغير حقٍّ؟**»[3]. وفي لفظٍ: «**أرأيتَ إن منعَ الله الثَّمرة بِمَ يأخذ أحدُكم مالَ أخيه بغير حقٍّ؟**»[4]، فصرَّح بالعلَّة التي يَحرُم لأجلها إلزامُه بالثمن، وهي

---

(١) أخرجه أحمد (٧٢٣٣)، وأبو داود (٨٣)، والنسائي (٥٨)، والترمذي (٦٩)، وابن ماجه (٣٨٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الترمذي.

(٢) أخرجه أحمد (١٥١٥)، وأبو داود (٣٣٥٩)، والنسائي (٤٥٤٥)، والترمذي (١٢٢٥)، وابن ماجه (٢٢٦٤)، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وصححه الترمذي.

(٣) أخرجه مسلم (١٥٥٤)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري (٢١٩٨)، ومسلم (١٥٥٥)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

منعُ اللهِ الثمرة الـذي ليس للمشـتري فيـه صنـعٌ.

وكان خصومه[١] يعيبونه بذلك، ويقولون: يسأله السائل عن طريق مصر مثلًا، فيذكر له معها طريق مكَّة والمدينة وخراسان والعراق والهند، وأيُّ حاجةٍ بالسائل إلىٰ ذلك؟

ولَعَمرُ الله ليس ذلك بعيبٍ، وإنَّما العيب: الجهل والكبر، وهذا موضع المثل المشهور[٢]:

لَقَّبوه بحامضٍ وهو حُلْوٌ ... مثلَ من لم يَصِلْ إلىٰ العُنْقودِ

الخامسة: الجود بالنفع بالجاه، كالشفاعة والمشي مع الرَّجل إلىٰ ذي سلطانٍ ونحوه. وذلك زكاة الجاه المُطالَبُ بها العبد، كما أنَّ التعليمَ وبذْلَ العلم زكاتُه.

السّادسة: الجود بنفع البدن علىٰ اختلاف أنواعه، كما قال النبي ﷺ: «**يصبح علىٰ كلِّ سُلَامىٰ من أحدكم صدقةٌ كلَّ يومٍ تَطلُع فيه الشّمس، يَعدِلُ بين الاثنين: صدقةٌ، ويعين الرجل في دابّته فيحمِله عليها أو يرفع له عليها متاعَه: صدقةٌ، والكلمة الطّيِّبة: صدقةٌ، وبكلِّ خطوةٍ يمشيها الرجل إلىٰ الصّلاة: صدقةٌ، ويُمِيط الأذىٰ عن الطريق: صدقةٌ**». متّفقٌ عليه[٣].

السّابعة: الجود بالعِرض، كجود أبي ضَمْضمٍ من الصحابة رضي الله عنهم، كان إذا أصبح قال: اللهمَّ إنَّه لا مالَ لي فأتصدَّقَ به علىٰ الناس، وقد تصدَّقتُ عليهم بعِرضي، فمن شَتَمني أو قَذَفني فهو في حِلٍّ. فقال النبيُّ ﷺ: «**مَن يستطيع منكم أن يكون كأبي ضَمْضَمٍ؟**»[٤].

---

(١) يعني شيخ الإسلام ابن تيمية.

(٢) البيت لصدر الدين ابن الوكيل (ت٧١٦) في «فوات الوفيات» (٤/ ١٩)، ولعلاء الدين الوداعي (ت٧١٦) في «الوافي بالوفيات» (٢٢/ ٢٠٢).

(٣) البخاري (٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرج أبو داود (٤٨٨٧)، وهو مرسل.

وفي هذا الجود من سلامة الصّدر، وراحة القلب، والتّخلُّص من معاداة الخلق= ما فيه.

الثّامنة: الجود بالصّبر والاحتمالِ والإغضاءِ. وهذه مرتبةٌ شريفةٌ من مراتبه، وهي أنفعُ لصاحبها من الجود بالمال، وأعزُّ له وأنصرُ، وأملكُ لنفسه، وأشرفُ لها. ولا يقدِر عليها إلّا النُّفوس الكبار.

فمن صعُبَ عليه الجود بماله فعليه بهذا الجود، فإنّه يَجتني ثمرةَ عواقبه الحميدة في الدُّنيا قبل الآخرة. وهذا جود الفُتوَّة، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾[المائدة: ٤٥]. وفي هذا الجود قال تعالىٰ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الشورىٰ: ٤٠]، فذكر المقاماتِ الثّلاثةَ في هذه الآية: مقام العدل، وأذِن فيه. ومقام الفضل، وندَبَ إليه. ومقام الظُّلم، وحرَّمه.

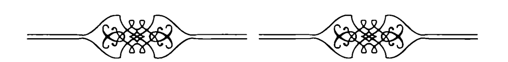
التّاسعة: الجود بالخُلُق والبِشْر والبَسْطة، وهو فوق الجود بالصبر والاحتمالِ والعفوِ، وهو الذي بلغ بصاحبه درجةَ الصائم القائم، وهو أثقلُ ما يوضع في الميزان. قال النبيُّ ﷺ: «**لا تَحْقِرنَّ من المعروف شيئًا، ولو أن تَلقىٰ أخاك ووجهُك منبسطٌ إليه**»[1]. وفي هذا الجود من المنافع والمسارِّ وأنواعِ المصالح ما فيه، والعبد لا يُمكِنه أن يسعَ الناسَ بماله، ويُمكِنُه أن يَسَعَهم بخُلقه واحتماله.

العاشرة: الجود بتَرْفيهِ ما في أيدي الناس عليهم[2]، فلا يلتفت إليه، ولا يَستشرِف له بقلبه، ولا يتعرَّض له بحاله ولا لسانه. وهذا هو الذي قال عبد الله بن المبارك: إنَّه أفضلُ من جُود البذل[3].

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٦)، من حديث أبي ذر ﷺ بنحوه. وأخرجه بلفظ المؤلف: البخاري في «الأدب المفرد» (١١٨٢)، من حديث جابر بن سليم أو سليم بن جابر، وإسناده صحيح.
(٢) أي: بتوفير ما في أيدي الناس عليهم، وإبقائه لهم.
(٣) تقدم.

فلسان حال القدر يقول للفقير الجواد: إن لم أُعطِك مالًا تَجود به علىٰ النّاس، فجُدْ عليهم بأموالهم؛ تُزاحِمْهم في الجود، وتنفرِدْ عنهم بالرّاحة.

ولكلِّ مرتبةٍ من مراتب الجود مَزِيَّةٌ وتأثيرٌ خاصٌّ في القلب والحال، والله سبحانه قد ضَمِنَ المزيدَ للجواد، والإتلافَ علىٰ الممسِك [1]. والله المستعان.



(١) إشارة إلىٰ حديث أبي هريرة الذي أخرجه البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠) مرفوعًا بلفظ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللّهم أعطِ منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللّهم أعطِ ممسكًا تلَفًا».

فصل

درجات الإيثار

قال صاحب «المنازل» رحمه الله[١]: **(وهو على ثلاث درجاتٍ، الدرجة الأولى: أن تُؤثِرَ الخلقَ على نفسك فيما لا يَخْرِم عليك دِينًا، ولا يقطع عليك طريقًا، ولا يُفسِد عليك وقتًا)**.

يعني: أن تُقدِّمهم على نفسك في مصالحهم، مثل أن تُطعِمهم وتجوع، وتكسوهم وتَعْرى، وتَسقيهم وتَظْمأ، بحيث لا يؤدِّي ذلك إلى ارتكاب ثلاث لا يجوز في الدِّين، مثل أن تُؤثِرهم بمالك وتقعد كَلًّا مضطرًّا، مستشرفًا للناس أو سائلًا، وكذلك إيثارهم بكلِّ ما يَخرِم على المؤثر دِينَه، فإنَّه سَفَهٌ وعَجْزٌ يُذَمُّ المؤثِرُ به عند الله وعند النّاس.

وأمَّا قوله: **(ولا يقطع عليك طريقًا)**، أي لا يقطع عليك طريق الطَّلب والمسيرِ إلى الله تعالى، مثل أن تُؤثِر جليسَك على ذكرِك بتوجُّهك وجمعيَّتك على الله، فتكون قد آثرتَه على الله، وآثرتَ بنصيبك من الله مَن لا يستحقُّ الإيثار، فيكون مَثَلُك كمَثَلِ مسافرٍ سائرٍ على الطريق لقيه رجلٌ فاستوقفه، وأخذ يُحدِّثه ويُلهِيه حتَّى فاتَه الرِّفاق. وهذا حال أكثر الخلق مع الصادق السائر إلى الله تعالى، فإيثارهم عليه عَيْنُ الغَبْن. وما أكثرَ المؤثرين على الله تعالى غيرَه، وما أقلَّ المؤثرين الله على غيره!

وكذلك الإيثار بما يُفْسِد على المؤثِرِ وقتَه قبيحٌ أيضًا، مثل أن يُؤثِر بقُوتِه ويتفرَّق قلبه في طلبِ خَلَفه، أو يؤثر بأمرٍ قد جمع قلبَه وهمَّه على الله، فيتفرَّق قلبُه عليه بعد جمعيَّته ويتشتَّت خاطرُه. فهذا أيضًا إيثارٌ غير محمودٍ.

---

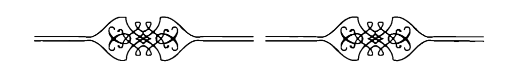
(١) (ص٤٤).

وكذلك الإيثار باشتغال القلب والفكر في مهمَّاتهم ومصالحهم التي لا تتعيَّن عليك، علىٰ الفكرِ في العلم النافع واشتغالِ القلب بالله. ونظائر ذلك لا تخفىٰ، بل ذلك حالُ الخلق الغالبُ عليهم.

وكلُّ سببٍ يعود بصلاح قلبك وحالك مع الله: فلا تُؤثِرْ به أبدًا، فإنَّما تُؤثِر الشّيطانَ علىٰ الله وأنت لا تعلم.

وتأمَّلْ أحوالَ أكثر الخلق في إيثارهم علىٰ الله من يضرُّهم إيثارُهم له ولا ينفعهم، وأيُّ جهالةٍ وسَفَهٍ فوق هذا؟

ومِن هذا تكلَّم الفقهاء في الإيثار بالقُرَب، وقالوا: إنَّه مكروهٌ أو محرَّم[1]. كمن يُؤثِر بالصفِّ الأوّل غيرَه ويتأخَّر هو، أو يُؤثِر بقربه من الإمام يومَ الجمعة، أو يُؤثِر غيرَه بالأذان والإمامة، أو يُؤثره بعلمٍ يَحرِمُه نفسَه ويُرفِّهُه عليه، فيفوز به دونه.



(١) انظر: «طريق الهجرتين» (٢/ ٦٤٩- ٦٥٣)، و«الروح» (٢/ ٣٨٦- ٣٨٨)، و«زاد المعاد» (٣/ ٦٣٢- ٦٣٣).

فصل

الدرجة الثانية: إيثار رضا الله

قال[(١)]: (**الدّرجة الثّانية: إيثار رضا الله علىٰ رضا غيره، وإن عظُمتْ فيه المِحَن، وثَقُلَتْ فيه المُؤَن، وضعُفَ عنه الطَّوْلُ والبدن**).

إيثار رضا الله ﷻ علىٰ غيره: هو أن يريد ويفعل ما فيه مرضاتُه، ولو أغضب الخلق. وهذه هي درجة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأعلاها لأولي العزم منهم، وأعلاها لنبيِّنا محمد ﷺ، فإنّه قاومَ العالمَ كلّه، وتجرَّد للدعوة إلىٰ الله، واحتملَ عداوةَ القريب والبعيد في الله تعالىٰ، وآثَرَ رضا الله علىٰ الخلقِ من كلِّ وجهٍ، ولم يأخذْه في إيثار رضاه لومةُ لائمٍ. بل كان همُّه وعزمُه وسعْيُه كلُّه مقصورًا علىٰ إيثار مرضاة الله، وتبليغِ رسالاته، وإعلاءِ كلماته، وجهادِ أعدائه، حتَّىٰ ظهر دينُ الله علىٰ كلِّ دينٍ، وقامت حُجَّتُه علىٰ العالمين، وتمَّتْ نعمتُه علىٰ المؤمنين. فبلَّغ الرِّسالة، وأدَّىٰ الأمانةَ، ونصحَ الأمّة، وجاهد في الله حقَّ الجهاد، وعبَدَ الله حتَّىٰ أتاه اليقينُ، فلم ينَلْ أحدٌ من درجة هذا الإيثار ما نالَه صلوات الله وسلامه عليه.

وأمَّا قوله: (**وإن عظُمتْ فيه المِحَن، وثَقُلَتْ فيه المُؤَن**)، فإنَّ المحنة تعظُم فيه أولًا ليتأخَّر من ليس من أهله، فإذا احتملَها وتقدَّم انقلبتْ تلك المِحَنُ مِنَحًا، وصارت تلك المُؤَنُ عونًا. وهذا معروفٌ بالتجربة الخاصَّة والعامَّة، فإنَّه ما آثَرَ عبدٌ مرضاةَ الله علىٰ مرضاة الخلق، وتحمَّلَ ثِقَلَ ذلك ومُؤْنَتَه، وصبرَ علىٰ محنتِه= إلَّا أنشأَ الله من تلك المحنة والمُؤْنةِ نعمةً ومسرَّةً ومعونةً بقدر ما تحمَّلَه من مرضاته. فانقلبتْ مخاوِفُه أمانًا، ومظانُّ عَطَبِه نجاةً، وتعبُه راحةً، ومُؤْنته

(١) «منازل السائرين» (ص٤٥).

معونةً، وبليَّتُه نعمةً، ومحنته مِنْحةً، وسَخَطه رضًا. فيا خيبةَ المتخلِّفين، ويا ذِلَّةَ المتهيِّبين!

هذا، وقد جرت سنَّةُ الله التي لا تبديلَ لها أنَّ من آثرَ مرضاةَ الخلق علىٰ مرضاته: أن يَسخَطَ عليه مَن آثرَ رضاه، ويَخْذُلَه مِن جهته، ويجعلَ مِحنتَه علىٰ يديه، فيعودَ حامدُه ذامًّا. ومن آثرَ مرضاتَه ساخطًا، فلا علىٰ مقصوده منهم حصلَ، ولا إلىٰ ثوابِ مرضاةِ ربِّه وصلَ. وهذا أعجزُ الخلق وأحمقُهم.

هذا مع أنَّ رضا الخلق لا مقدورٌ ولا مأمورٌ، فهو مستحيلٌ، بل لا بدَّ من سَخَطِهم عليك، فلَأَنْ يَسخَطُوا عليك وتفوزَ برضا الله عنك أحبُّ إليك وأنفعُ لك من أن يَسخطوا عليك والله عنك غيرُ راضٍ. فإذا كان سَخَطُهم لا بدَّ منه علىٰ التّقديرين، فآثِرْ سَخَطَهم الذي تَنال به رضا الله، فإن هم رَضُوا عنك بعد هذا، وإلّا فأهونُ شيءٍ رضا من لا ينفعك رضاه، ولا يضرُّك سخطُه في دينك ولا في إيمانك ولا في آخرتك، وإن ضَرَّك في أمرٍ يسيرٍ في الدُّنيا فمضرّةُ سَخَطِ الله أعظمُ وأعظمُ.

وخاصَّةُ العقلِ: احتمالُ أدنىٰ المفسدتينِ لدفع أعلاهما، وتفويتُ أدنىٰ المصلحتينِ لتحصيل أعلاهما. فوازِنْ بعقلك، ثمّ انظُرْ أيُّ الأمرينِ خيرٌ فآثِرْه، وأيُّهما شرٌّ فابعدْ عنه. فهذا برهانٌ قطعيٌّ ضروريٌّ في إيثار رضا الله علىٰ رضا الخلق.

هذا مع أنَّه إذا آثرَ رضا الله كفاه الله مُؤْنةَ غضبِ الخلق، وإذا آثرَ رضاهم لم يَكْفُوه مُؤنةَ غضبِ الله عليه.

قال بعض السَّلف[1]: لَمصانعةُ وجهٍ واحدٍ أيسرُ عليك من مصانعة وجوهٍ

(١) هو التابعي الجليل أبو حازم سلمة بن دينار، انظر: «حلية الأولياء» (٣/ ٢٣٩).

كثيرةٍ، إنَّك إذا صانعتَ ذلك الوجهَ الواحدَ كفاك الوجوهَ كلَّها.

وقال الشافعيُّ ﷺ[(١)]: رِضا الناس غايةٌ لا تُدْرَك، فعليك بما فيه صلاحُ نفسك فالزَمْه.

ومعلومٌ أنّه لا صلاحَ للنّفس إلّا بإيثار رضا بارِئها ومولاها علىٰ غيره. ولقد أحسن أبو فراسٍ رحمه الله في قوله، إلَّا أنّه أساء كلَّ الإساءة إذ يقوله لمخلوقٍ لا يملك له ولا لنفسِه ضَرًّا ولا نفعًا:

فليتك تَحْلُو والحياةُ مَرِيرةٌ ... وليتك تَرضىٰ والأنامُ غِضابُ

وليتَ الذي بيني وبينك عامرٌ ... وبيني وبين العالمين خَرابُ

إذا صحَّ منك الودُّ فالكلُّ هيِّنٌ ... وكلُّ الذي فوقَ التُّراب ترابُ[(٢)]

قلت: ومِلاك ذلك أمران: الزُّهد في الحياة والثناء. فما ضعُفَ من ضعُفَ وتأخَّر من تأخَّر إلّا بحبِّه للحياة والبقاء، وثناءِ الخلق عليه، ونفرتِه من ذمِّهم له. فإذا زَهِد في هذين الشّيئين تأخّرتْ عنه العوارضُ كلُّها، وانغمس حينئذٍ في العساكر.

ومِلاكُ هذين الشيئين بشيئين: صحَّة اليقين، وقوَّة المحبّة.

ومِلاكُ هذين بشيئين أيضًا: بصدق اللَّجأ والطلب، والتصدِّي للأسباب الموصلة إليهما.

فإلىٰ هاهنا تنتهي معرفة الخلق وقدرتهم، والتوفيق بعدُ بيدِ مَن أزِمَّةُ الأمور كلِّها بيدَيْه، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ٣٠ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا﴾[الإنسان: ٣٠ - ٣١].

---

(١) انظر: «آداب الشافعي ومناقبه» (ص٢٧٨، ٢٧٩).

(٢) الأولان من قصيدة طويلة لأبي فراس الحمداني في «ديوانه» (١/ ٢٤)، والبيت الثالث ضمن قصيدة للمتنبي (ص٦٨٧ بشرح الواحدي).

فصل

الدرجة الثالثة: إيثار إيثار الله

قال[١]: (**الدرجة الثالثة: إيثارُ إيثارِ الله، فإنَّ الخوض في الإيثار دعوىٰ في المُلْك، ثمّ تَرْكُ شهودِ رؤيتك إيثارَ الله، ثمَّ غَيْبتُك عن التّرك**).

معنىٰ إيثار إيثار الله: أن تَنسُب إيثارك إلىٰ الله دون نفسك، وأنّه هو الذي تفرَّد بالإيثار لا أنت، فكأنّك سلَّمتَ الإيثار إليه، فإذا آثرتَ غيرَك بشيءٍ فإنّ الذي آثره هو الحقُّ لا أنت، فهو المؤثِر حقيقةً، إذ هو المعطي حقيقةً.

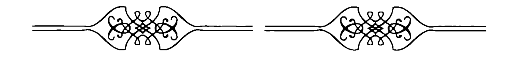
ثمّ بيَّن الشيخ رحمه الله السّببَ الذي يصحُّ به نسبةُ الإيثار إلىٰ الله، وتركُ نسبتِه إلىٰ نفسه، فقال: (**فإنَّ الخوضَ في الإيثار دعوىٰ في المُلك**). فإذا ادّعىٰ العبد أنّه مُؤثِرٌ فقد ادَّعىٰ مُلْكَ ما آثر به غيره، والملك في الحقيقة إنّما هو لله الذي له كلُّ شيءٍ، فإذا خرج العبدُ عن دعوىٰ الملك فقد آثر إيثارَ الله وهو إعطاؤه علىٰ إيثارِ نفسه، وشهد أنّ الله وحده هو المُؤثِر بملكه، وأمَّا من لا مُلكَ له فأيُّ إيثارٍ له؟

وقوله: (**ثمّ تَرْكُ شهودِ رؤيتك إيثارَ الله**)، يعني أنَّك إذا آثرتَ إيثارَ الله بتسليمك معنىٰ الإيثار إليه، بَقِيَتْ عليك من نفسك بقيَّةٌ أخرىٰ لا بدَّ من الخروج عنها، وهو أن تُعرِض عن شهودك ورؤيتِك أنَّك آثرتَ الحقَّ بإيثارك، وأنّك نسبتَ الإيثار إليه لا إليك، فإنَّ في شهودِك ذلك ورؤيتِك له دعوىٰ أخرىٰ هي أعظمُ من دعوىٰ المُلْك، وهي أنَّك ادَّعيتَ أنّ لك شيئًا آثرتَ به الله وقدَّمتَه علىٰ نفسك فيه، بعدَ أن كان لك. وهذه الدَّعوىٰ أصعبُ من الأولىٰ، فإنَّها تتضمَّنُ ما تضمَّنَتْه الأولىٰ من الملك، وتزيد عليها برؤية الإيثار به، فالأوّل مُدَّعٍ للملك مؤثرٌ به، وهذا مُدَّعٍ للملك ومُدَّعٍ للإيثار به. فإذنْ يجب عليه تركُ شهود رؤيته

(١) «منازل السائرين» (ص٤٥).

لهذا الإيثار، فلا يعتقد أنّه آثرَ الله بهذا الإيثار، بل الله هو الذي استأثر به دونك، فإنَّ الأَثَرة واجبةٌ له بإيجابه إيَّاها لنفسه، لا بإيجاب العبد إيَّاها له.

قوله: (**ثمّ غيبتُك عن التّرك**)، يريد: أنّك إذا تركتَ هذا الشُّهود وهذه الرُّؤية بقيتْ عليك بقيّةٌ أخرىٰ، وهي رؤيتك لهذا الترك المتضمِّنةُ لدعوىٰ ملكك للترك، وهي دعوىٰ كاذبةٌ، إذ ليس للعبد شيءٌ من الأمر، ولا بيده فعلٌ ولا تركٌ، وإنّما الأمر كلُّه لله.



٣/ ٢٤

فصل

منزلة الخلق

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة الخُلُق.**

قال الله تعالىٰ لنبيِّه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم: ٤].

قال ابنُ عبّاسٍ ومجاهدٌ: لعلىٰ دينٍ عظيمٍ، لا دينَ أحبُّ إليَّ ولا أرضىٰ عندي منه، وهو دين الإسلام[١].

وقال الحسن: هو آداب القرآن[٢].

وقال قتادة: هو ما كان يأتمر به من أمرِ الله، وينتهي عنه من نهيِ الله[٣].

والمعنىٰ: إنّك لعلىٰ الخُلق الذي آثرك الله به في القرآن.

وفي «الصّحيحين»[٤]: أنّ هشام بن حكيمٍ سأل عائشة رضي الله عنها عن خُلُق رسول الله ﷺ، فقالت: كان خُلُقُه القرآن، فقال: لقد هممتُ أن أقومَ فلا أسألَ شيئًا.

وقد جمع الله له مكارم الأخلاق في قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[الأعراف: ١٩٩].

قال جعفر بن محمَّدٍ رضي الله عنهما: أمر الله نبيّه ﷺ بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آيةٌ أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية[٥]. وقد ذُكر أنّه لمّا نزلتْ هذه الآية قال رسول الله ﷺ لجبريل: «ما هذا؟»، قال: لا أدري حتّىٰ أسأل، ثمّ رجع إليه فقال: إنّ الله يأمرك أن تَصِلَ مَن قطعَك، وتُعطِي من حَرَمَك، وتَعفُوَ عمَّن ظلمك[٦].

---

(١) «تفسير البغوي» (٤/ ٣٧٥).
(٢) «تفسير البغوي» (٤/ ٣٧٥).
(٣) المصدر السابق، وانظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٢٧).
(٤) أخرجه مسلم (٧٤٦) فقط.
(٥) انظر: «تفسير البغوي» (٢/ ٢٢٤)، و«تفسير القرطبي» (٧/ ٣٤٥)، وغيرهما.
(٦) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٤٦)، والطبري (١٠/ ٦٤٣، ٦٤٤)، وابن أبي حاتم=

ولا ريبَ أنّ للمُطَاع مع النّاس ثلاثةَ أحوالٍ:

أحدها: أمرُهم ونهيُهم بما فيه مصلحتهم.

الثّاني: أخذُه منهم ما يبذلونه ممَّا عليهم من الطّاعة.

الثّالث: أنّ النّاس معه قسمان: مُوافقٌ له مُوالٍ، ومُعادٍ معارضٌ.

وعليه في كلِّ واحدٍ من هذه الأحوال واجبٌ.

فواجبُه في أمرهم ونهيهم: أن يأمر بالمعروف، وهو المعروف الذي به صلاحُهم وصلاح شأنهم، وينهاهم عن ضدِّه.

وواجبُه فيما يبذلونه له من الطّاعة: أن يأخذ منهم ما سهُلَ عليهم، وطَوَّعتْ له به أنفسُهم سَماحةً واختيارًا، ولا يَحمِلهم على العَنَت والمشقّة فيُفسِدهم.

وواجبُه عند جهل الجاهلين عليه: الإعراض عنهم، وعدمُ مقابلتِهم والانتقامِ منهم لنفسه، . فقال الله لنبيِّه: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾، قال عبد الله بن الزُّبير رضي الله عنهما: أمر الله نبيَّه أن يأخذَ العَفْو من أخلاق النّاس[1].

وقال مجاهدٌ: يعني خذ العفْوَ من أخلاقِ النّاس وأعمالِهم من غير تجسيس[2]. مثل قبول الاعتذار، والعفو والمساهلة، وترك الاستقصاءِ والبحثِ والتّفتيشِ عن حقائق بواطنهم.

وقال ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما: خُذْ ما عفا لك من أموالهم[3]. وهو الفضل عن العيال، وذلك معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾[البقرة: ٢١٩].

=(٥/ ١٦٣٨) مرسلًا.

(١) رواه البخاري (٤٦٤٤)، وأبو داود (٤٧٨٧)، وغيرهما.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٤١)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٣٧)، وغيرهما.

(٣) رواه الطبري (١٠/ ٦٤١)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٤٨).

ثـمَّ قـال تعالىٰ: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾، وهـو كلُّ معروفٍ، وأعرَفُه: التَّوحيد، ثمَّ حقوقُ العبوديَّة وحقوق العبيد.

ثـمّ قـال تعالىٰ: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، يعني إذا تَسَفَّهَ عليك الجاهلُ فلا تُقابِلْه بالسَّفه، كقوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾[الفرقان: ٦٣]. وعلىٰ هذا فليست بمنسوخةٍ، بل يُعرِض عنه مع إقامة حقِّ الله عليه، ولا ينتقم لنفسه.

وهكذا كان خُلُقه ﷺ. قال أنسٌ رضي الله عنه: «كان رسولُ الله ﷺ أحسنَ النّاس خُلُقًا»[(١)]. وقال: «ما مَسِسْتُ ديباجًا ولا حريرًا ألينَ من كفِّ رسول الله ﷺ، ولا شَمِمْتُ رائحةً قطُّ أطيبَ من رائحة رسول الله ﷺ، ولقد خَدمتُ رسول الله ﷺ عشرَ سنين، فما قال لي أفٍّ قطُّ، ولا قال لشيءٍ فعلتُه: لِمَ فعلتَه؟ ولا لشيءٍ لم أفعلْه: ألا فعلتَ كذا؟». متّفقٌ عليهما[(٢)].

وأخبر ﷺ أنّ البرَّ هو حسنُ الخلق، ففي «صحيح مسلمٍ»[(٣)] عن النَّوّاس بن سَمْعان رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن البرِّ والإثم؟ فقال: «**البرُّ حسنُ الخلق، والإثمُ ما حاكَ في صدرك، وكرهتَ أن يطّلعَ عليه النّاسُ**». فقابلَ البرَّ بالإثم، وأخبر أنّ البرَّ حسنُ الخُلق، والإثم حَوَازُّ[(٤)] الصُّدور. وهذا يدلُّ علىٰ أنّ حسن الخلق هو الدِّين كلُّه، وهو حقائق الإيمان، وشرائع الإسلام، ولهذا قابلَه بالإثم.

وفي حديثٍ آخر: «**البرُّ ما اطمأنّتْ إليه النّفسُ، والإثم ما حاك في الصَّدر**»[(٥)]،

(١) أخرجه البخاري (٦٢٠٣)، ومسلم (٦٥٩، ٢١٥٠).
(٢) البخاري (٣٥٦١، ٦٠٣٨)، ومسلم (٢٣٣٠، ٢٣٠٩)، وهو مجموع من حديثين.
(٣) برقم (٢٥٥٣).
(٤) جمع حازّ، وحوازُّ الصدور: الأمور التي تحزُّ فيها، أي تؤثّر كما يؤثِّر الحزُّ في الشيء، وهو ما يخطر فيها من أن تكون معاصي، انظر: «النهاية» (١/ ٣٧٧، ٣٧٨).
(٥) أخرجه أحمد (١٨٠٠١، ١٨٠٠٦)، وإسناده ضعيف. انظر حواشي المحققين علىٰ «المسند».

وقد فَسَّر حسنَ الخلق بأنّه البرُّ، فدلَّ علىٰ أنّ حسنَ الخلق طمأنينةُ النّفس والقلب. والإثم حَوَازُّ الصُّدور، وما حاكَ فيها، واسترابتْ به. وهذا غيرُ حسنِ الخلق وسوئِه في عُرف كثيرٍ من النَّاس، كما سيأتي.

وفي «الصّحيحين»[1] عنه: «**خِيارُكم أحاسِنُكم أخلاقًا**».

وفي التِّرمذيِّ[2] عنه ﷺ: «**ما من شيءٍ أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق، وإنَّ الله تعالىٰ يُبغِضُ الفاحشَ البذيء**». قال التِّرمذيُّ: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

وفيه أيضًا وصحّحه[3]: أنّ رسول الله ﷺ سُئل عن أكثر ما يُدخِل النّاسَ الجنَّة؟ فقال: «**تقوىٰ الله وحسنُ الخلق**». وسئل عن أكثر ما يُدخِلُ النّاسَ النّار؟ فقال: «**الفم والفرج**».

وفيه أيضًا وصحّحه[4]: «**أكملُ المؤمنين إيمانًا أحسنُهم خُلقًا وخيارُكم خيارُكم لنسائهم**».

وفي «الصّحيح»[5] عنه ﷺ: «**إنّ المؤمن ليُدْرِك بحسنِ خُلقِه درجةَ الصّائم القائم**».

وفيه[6] عنه ﷺ: «**أنا زعيمٌ ببيتٍ في رَبَضِ الجنَّة لمن ترك المِراءَ وإن كان مُحِقًّا، وببيتٍ في وسط الجنّة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وببيتٍ في أعلىٰ**

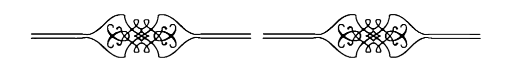
---

(١) البخاري (٣٥٥٩، ٦٠٣٥)، ومسلم (٢٣٢١)، من حديث عبد الله بن عمرو.
(٢) برقم (٢٠٠٢)، من حديث أبي الدرداء.
(٣) برقم (٢٠٠٤)، من حديث أبي هريرة.
(٤) برقم (١١٦٢)، من حديث أبي هريرة.
(٥) لم يروه البخاري ومسلم، بل رواه أحمد (٢٥٠١٣، ٢٥٥٣٧)، وأبو داود (٤٧٩٨)، وهو حديث صحيح.
(٦) ليس في «الصحيحين». وأخرجه أبو داود (٤٨٠٠)، وله شواهد يرتقي بها إلىٰ الحسن، انظر: «الصحيحة» (٢٧٣).

الجنّة لمن حسُن خلقُه». وإسناده صحيحٌ. فجعل البيت العُلْويّ جزاءً لأعلىٰ المقامات الثّلاثة، وهي حسن الخلق؛ والأوسط لأوسطها، وهو ترك الكذب؛ والأدنىٰ لأدناها، وهو ترك المماراة وإن كان معه حقٌّ. ولا ريبَ أنّ حسن الخلق مشتملٌ علىٰ هذا كلِّه.

وفي التِّرمذي[1] عنه ﷺ: «**إنَّ من أحبِّكم إليَّ وأقربِكم منِّي مجلسًا يوم القيامة: أحاسِنَكم أخلاقًا. وإنَّ أبغضَكم إليَّ وأبعدَكم منِّي يومَ القيامة: الثَّرثارون والمتشدِّقون والمتفيهقون**». قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون والمتشدِّقون، فما المتفيهقون؟ قال: «**المتكبِّرون**».

الثّرثار: هو كثير الكلام بغير فائدةٍ دينيّةٍ. والمتشدِّق: المتكلِّم بمِلْء فيه تفاصحًا وتعاظمًا وتطاولًا، وإظهارًا لفضله علىٰ غيره، وأصله من الفَهْق وهو الامتلاء.



(١) برقم (٢٠١٨)، من حديث جابر، وقال: حسن غريب.

فصل

الدين كله خلق

الدِّين كلُّه خُلقٌ، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدِّين. وكذلك التّصوُّف، قال الكَتَّانيُّ: هو الخُلق، فمن زاد عليك في الخُلق فقد زاد عليك في التّصوُّف(١).

وقد قيل: إنَّ أحسنَ الخُلُق بذلُ النّدىٰ، وكفُّ الأذىٰ، واحتمال الأذىٰ(٢).

وقيل: حسنُ الخُلق: بذلُ الجميل، وكفُّ القبيح.

وقيل: التّخلِّي من الرّذائل، والتّحلِّي بالفضائل.

وحسنُ الخُلق يقوم علىٰ أربعة أركانٍ لا يُتصوَّر قيامُ ساقِه إلّا عليها: الصّبر، والعفّة، والشّجاعة، والعدل.

فالصّبر: يحمله علىٰ الاحتمال، وكَظْمِ الغيظ، وكفِّ الأذىٰ، والحِلْمِ والأناة والرِّفق، وعدمِ الطَّيش والعَجَلة.

والعفَّة: تحمله علىٰ اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل، وتحمله علىٰ الحياء، وهو رأس كلِّ خيرٍ. وتمنعه من الفُحش، والبخل والكذب والغيبة والنميمة.

والشّجاعة: تحمله علىٰ عزَّة النفس، وإيثارِ معالي الأخلاق والشِّيَم، وعلىٰ البذل والنَّدَىٰ الذي هو شجاعة النفس وقوَّتها علىٰ إخراج المحبوب ومفارقتِه، وتحمله علىٰ كظْم الغيظ والحِلم، فإنَّه بقوَّة نفسه وشجاعتها أمسكَ عِنانَها، وكبَحَها بلجامها عن التسرُّع والبَطْش، كما قال النبيُّ ﷺ: «**ليس الشّديدُ**

(١) «الرسالة القشيرية» (ص٥٧٨).

(٢) انظر: «حلية الأولياء» (٣/ ٣٧)، و«إحياء علوم الدين» (٣/ ٥٣).

بالصُّرَعة، إنّما الشَّديد الذي يملك نفسَه عند الغضب»[١]. وهذه حقيقة الشّجاعة، وهي ملكةٌ يقتدر بها علىٰ قَهْر خصمه.

والعدل: يحمله علىٰ اعتدال أخلاقه، وتوسُّطِه فيها بين طرفَي الإفراط والتفريط، فيحمله علىٰ خُلُق الجود والسخاء الذي هو توسُّطٌ بين الإمساك والإسراف والتبذير، وعلىٰ خُلق الحياء الذي هو توسُّطٌ بين الذُّلِّ والقِحَة، وعلىٰ خُلق الشجاعة الذي هو توسُّطٌ بين الجُبْن والتهوُّر، وعلىٰ خُلق الحِلم الذي هو توسُّطٌ بين الغضب والمَهانة وسقوط النّفس.

ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة.

ومنشأ جميع الأخلاق السافلة وبناؤها علىٰ أربعة أركانٍ: الجهل، والظُّلم، والشّهوة، والغضب.

فالجهل: يُرِيه الحَسنَ في صورة القبيح، والقبيحَ في صورة الحسن، والكمالَ نقصًا والنّقصَ كمالًا.

والظُّلم: يحمله علىٰ وضع الشّيء في غير موضعه، فيغضب في موضع الرِّضا، ويعجل في موضع الأناة، ويبخل في موضع البذل، ويُحجِم في موضع الإقدام، أو يُقدِم في موضع الإحجام، ويَلِين في موضع الشِّدّة، ويشتدُّ في موضع اللِّين، ويتواضع في موضع العزّة، ويتكبّر في موضع التّواضع.

والشّهوة: تحمله علىٰ الحرص، والشُّحِّ والبخل، وعدمِ العفَّة، والنَّهْمة والجَشَع، والذُّلِّ، والدَّناءاتِ كلِّها.

والغضب: يحمله علىٰ الكِبر والحِقد والحسد والعدوان والسَّفَه.

ويتركَّب من بين كلِّ خُلقينِ من هذه أخلاقٌ مذمومةٌ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

ومِلَاك هذه الأربعة أصلان: إفراط النفس في الضعف، وإفراطها في القوَّة. فيتولَّد من إفراطها في الضعف: المَهانةُ والبخل، والخِسَّة واللُّؤم، والذُّلُّ والحرص، والشُّحُّ وسَفْسَاف الأمور والأخلاق.

ويتولَّد من إفراطها في القوَّة: الظُّلم والغضب والحدَّة والفُحش والطَّيش.

ويتولَّد من تزوُّج أحدِ الخُلقين بالآخر أولادُ غِيَّةٍ[1] كثيرون، فإنّ النّفس قد تجمع قوّةً وضعفًا، فيكون صاحبها أجبرَ النّاس إذا قَدر، وأذلَّهم إذا قُهِر، ظالم عَسُوفٌ جَبَّار، فإذا قُهِر صار أذلَّ من امرأةٍ، جَبانٌ عن القويِّ، جريء علىٰ الضعيف.

فالأخلاق الذميمة تُولِّد بعضها بعضًا، كما أنَّ الأخلاق الحميدة تُولِّد بعضها بعضًا.

وكلُّ خُلقٍ محمودٍ مكتنَفٌ بخُلُقين ذميمين، وهو وسطٌ بينهما، وطرفاه خُلقان ذميمان، كالجود: الذي يكتنفه خُلُقا البخل والتّبذير، والتّواضع: الذي يكتنفه خُلُقا الذُّلِّ والمَهانة والكِبر والعلوِّ. فإنّ النّفس متىٰ انحرفت عن الوسط انحرفت إلىٰ أحد الخُلقين الذّميمين ولا بدَّ، فإذا انحرفت عن خُلق «التّواضع» انحرفت: إمَّا إلىٰ كبرٍ وعلوٍّ، وإمّا إلىٰ ذلٍّ ومَهانةٍ وحقارةٍ. وإذا انحرفت عن خُلق «الحياء» انحرفت: إمَّا إلىٰ قِحَةٍ وجرأةٍ، وإمَّا إلىٰ عَجْزٍ وخَوَرٍ ومهانةٍ، بحيث يُطمِع في نفسه عدوَّه، ويفوته كثيرٌ من مصالحه، ويزعم أنَّ الحامل له علىٰ ذلك الحياء. وإنّما هو المهانة والعجز وموتُ النَّفس.

وكذلك إذا انحرفتْ عن خُلق «الصَّبر» المحمود انحرفتْ: إمَّا إلىٰ جَزَعٍ وهَلَعٍ وجَشَعٍ وتسخُّطٍ، وإمّا إلىٰ غِلظةِ كبدٍ وقسوةِ قلبٍ وحَجريَّةِ طبعٍ، كما قال بعضهم[2]:

(١) يقال: هو ولدُ غِيَّة أي ولدُ زِنية، كما يقال في نقيضه: ولدُ رِشْدَة.
(٢) هو مهلهل، كما في «ديوان المعاني» (١/ ١٧٣)، و«شرح الحماسة» للمرزوقي (٢/ ٥٩١).

يُبكَىٰ علينا ولا نَبكِي علىٰ أحدٍ أنحنُ أغلظُ أكبادًا أم الإبلُ

وإذا انحرفَتْ عن خلق «الحِلْم» انحرفت: إمَّا إلىٰ الطَّيش والنَّزَق[1] والحدَّة والخفَّة، وإمَّا إلىٰ الذُّلِّ والمَهانة والحَقارة. ففرقٌ بين مَن حِلْمُه حِلْمُ ذلٍّ ومهانةٍ وحقارةٍ وعجزٍ، وبين مَن حِلمه حلمُ اقتدارٍ وعزَّةٍ وشرفٍ، كما قيل[2]:

كلُّ حِلْمٍ أتىٰ بغيرِ اقتدارٍ حجّةٌ لاجئٌ إليها اللِّئامُ

وإذا انحرفت عن خلق «الأَناة والرِّفق» انحرفت: إمَّا إلىٰ عَجَلةٍ وطَيْشٍ وعُنْفٍ، وإمَّا إلىٰ تفريطٍ وإضاعةٍ، والرِّفق والأناة بينهما.

وإذا انحرفت عن خلق «العِزّة» التي وهبَها الله للمؤمنين، انحرفت: إمّا إلىٰ كِبْرٍ، وإمّا إلىٰ ذُلٍّ، والعزّة المحمودة بينهما.

وإذا انحرفت عن خلق «الشّجاعة» انحرفت: إمَّا إلىٰ تهوُّرٍ وإقدامٍ غيرِ محمودٍ، وإمّا إلىٰ جُبْنٍ وتأخُّرٍ مذمومٍ.

وإذا انحرفت عن خلق «المنافسة في المراتب العالية والغِبطة» انحرفت: إمّا إلىٰ حسدٍ، وإمّا إلىٰ مَهانةٍ وعَجزٍ وذُلٍّ ورضًا بالدُّون.

وإذا انحرفت عن «القناعة» انحرفت: إمَّا إلىٰ حِرصٍ وكَلَب، وإمَّا إلىٰ خِسَّةٍ ومَهانةٍ وإضاعةٍ.

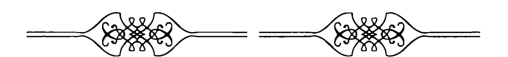
وإذا انحرفت عن خلق «الرحمة» انحرفت: إمَّا إلىٰ قسوةٍ، وإمَّا إلىٰ ضعف قلبٍ وجُبْن نفسٍ، كمن لا يُقدِم علىٰ ذبح شاةٍ ولا إقامةِ حدٍّ ولا تأديبِ ولدٍ، ويزعم أنَّ الرّحمة تحمله علىٰ ذلك. وقد ذبحَ أرحمُ الخلق بيده في موقفٍ واحدٍ ثلاثًا وستِّين بدنةً، وقطعَ الأيديَ من الرِّجال والنِّساء، وضربَ الأعناق،

(١) النَّزَق: الطيش والخفّة.

(٢) البيت للمتنبي في «ديوانه» (٤/ ٢١٧) بشرح البرقوقي.

وأقام الحدودَ، ورجمَ بالحجارة حتَّىٰ مات المرجوم. وكان أرحمَ خلقِ الله علىٰ الإطلاق وأرأفَهم.

وكذلك «طلاقةُ الوجه والبِشْرُ المحمود»، فإنَّه وسطٌ بين التعبيس والتقطيبِ وتصعيرِ الخدِّ وطَيِّ البِشْر عن البَشَر، وبين الاسترسال بذلك مع كلِّ أحدٍ، بحيث يُذهِب الهيبةَ ويُزِيل الوقارَ ويُطمِع في الجانب، كما أنّ الانحراف الأوَّل يُوقِع الوحشةَ والبِغْضةَ والنُّفرةَ في قلوب الخلق. وصاحب الخلق الوسط: مَهِيبٌ محبوبٌ، عزيزٌ جانبه، حبيبٌ لقاؤه. وفي صفة النبي ﷺ: «من رآه بديهةً هَابَه، ومن خالطَه عِشْرةً أحبَّه»[1].



(١) أخرجه الترمذي (٣٦٣٨)، من حديث علي بن أبي طالب، وضعَّفه.

فصلٌ نافعٌ جدًا

عظيمُ النفع للسالك، يُوصِله عن قُربٍ، ويُسيِّره بأخلاقه التي لا يمكنه إزالتُها، فإنَّ أصعبَ ما علىٰ الطبيعة الإنسانيَّة تغيُّر الأخلاق التي طُبِعتْ عليها. وأصحابُ الرِّياضات الصَّعبة والمجاهدات الشاقَّة إنَّما عملوا عليها، ولم يَظْفَر أكثرهم بتبديلها، لكنَّ النفس اشتغلتْ بتلك الرِّياضات عن ظهور سلطانها، فإذا جاء سلطانُ تلك الأخلاق وبرزَ، كسرَ جيوشَ الرِّياضة وشتَّتَها، واستولىٰ علىٰ مملكة الطَّبع.

وهذا فصلٌ يَصِل به السالك مع تلك الأخلاق، ولا يحتاج إلىٰ علاجها وإزالتها، ويكون سَيره أقوىٰ وأجلَّ وأسرعَ من سَيْرِ العامل علىٰ إزالتها.

ونُقدِّم قبلَ هذا مثلًا نضربه، مطابقًا لما نريده، وهو: نهرٌ جارٍ في صَبَبِه ومنحدَرِه، مُنتهٍ إلىٰ تغريقِ أرضٍ وعُمرانٍ ودُورٍ، وأصحابها يعلمون أنَّه لا ينتهي حتَّىٰ يُخرِّب دورَهم، ويُتلِف أراضيَهم وأموالَهم. فانقسموا ثلاثَ فِرقٍ:

ففرقةٌ صرفتْ قواها وقوىٰ أعمالها إلىٰ سَكْره وحَبْسِه وإيقافِه، فلم تصنع هذه الفرقةُ كبيرَ أمرٍ، فإنَّه يوشك أن يجتمع ويَحمِل علىٰ السَّكْر، فيكون إفسادُه وتخريبُه أعظمَ.

وفرقةٌ رأتْ هذه الحالَ، وعلمتْ أنَّه لا يُغني عنها شيئًا، فقالت: لا خلاصَ من محذوره إلَّا بقطعه من أصلِ المنبوع، فرامتْ قطْعه من أصله، فتعذَّر عليها ذلك غايةَ التعذُّر، وأَبَتِ الطبيعةُ النَّهريَّة ذلك أشدَّ الإباء، فهم دائمًا في قطع المنبوع، وكلَّما سدُّوه من موضعٍ نَبعَ من موضعٍ، فاشتغل هؤلاء بشأن هذا النهر عن الزِّراعات والعمارة وغِراس الأشجار.

فجاءت فرقةٌ ثالثةٌ خالفتْ رأيَ الفرقتين، وعلموا أنّهم قد ضاعتْ عليهم كثيرٌ من مصالحهم، فأخذوا في صرف ذلك النّهر عن مجراه المنتهي إلىٰ خراب العمران، وصرفوه إلىٰ موضعٍ ينتفعون بوصوله إليه ولا يتضرَّرون، فصَرَفوه إلىٰ أرضٍ قابلةٍ للنبات، وسَقَوها به، فأنبتتْ لهم أنواعَ العُشْب والكَلَأ والثِّمارِ المختلفة الأصناف، فكانت هذه الفرقة هم أصوب الفرق في شأن هذا النّهر.

فإذا تبيَّن هذا المثل، فالله سبحانه قد اقتضت حكمته: أن ركَّب الإنسان بل سائر الحيوان علىٰ طبيعةٍ محمولةٍ علىٰ قوَّتين: غضبيَّةٍ، وشهوانيَّةٍ وهي الإراديَّة. وهاتان القوَّتان هما الحاملتان لأخلاق النّفس وصفاتها، وهما مركوزتان في جبلّة كلِّ حيوانٍ. فبقوّة الشّهوة والإرادة: يَجذِب المنافعَ إلىٰ نفسه، وبقوَّةِ الغضب: يدفع المضارَّ عنها. فإذا استعمل الشّهوة في طلب ما يحتاج إليه تولَّدَ منها الحرص، وإذا استعمل الغضب في دفع المضرَّة عن نفسه تولَّدَ منه القوَّة والعزَّة. فإذا أعجزَه ذلك المضادُّ أورثه قوَّة الحقد، وإن أعجزه وصولُ ما يحتاج إليه ورأىٰ غيره مستبدًّا به أورثه الحسد. وإن ظَفِرَ به أورثَتْه شهوتُه وإرادته خُلقَ البخل والشُّحِّ، وإن اشتدَّ حرصه وشهوته علىٰ الشّيء ولم يُمكِنه تحصيلُه إلَّا بالقوَّة الغضبيَّة، فاستعملَها فيه= أورثه ذلك العدوانَ والبغيَ والظُّلم، ومنه يتولَّدُ الكِبر والفخر والخُيَلاء، فإنّها أخلاقٌ متولّدةٌ من بين قوَّتي الشّهوة والغضب، وتزوُّجِ أحدهما بصاحبه.

فإذا تبيَّن هذا فالنهر مثال هاتين القوَّتين، وهو مُنْصَبٌّ في حَدُورِ الطَّبيعة، ومجراها إلىٰ دور القلب وعمرانه وحواصله يُذْهِبُها ويُتلِفها ولا بدَّ. فالنُّفوس الجاهلة الظالمة تركتْه ومَجراه، فخرَّبَ ديار الإيمان، وقلعَ آثارَه، وَهدَم عُمرانَه، وأنبتَ موضعَها كلَّ شجرةٍ خبيثةٍ، من حَنْظلٍ وضَريعٍ وشَوْكٍ وزَقُّومٍ، وهو الذي يأكله أهل النار يومَ المعاد.

وأمّا النُّفوس الزّكيّة الفاضلة: فإنّها رأتْ ما يؤولُ إليه أمرُ هذا النهر، فافترقوا ثلاثَ فِرقٍ:

فأصحاب الرِّياضات والمجاهدات والخَلَوات والتمزُّقات راموا قطْعه من ينبوعه، فأبتْ ذلك حكمة الله تعالىٰ وما طبع عليه الجبلَّة البشريَّة، ولم تَنْقَد له الطبيعة، فاشتدَّ القتال، ودام الحرب، وحَمِي الوطيس، وصارت الحربُ دُوَلًا وسِجالًا. وهؤلاء صرفوا قواهم إلىٰ مجاهدة النّفس علىٰ إزالة تلك الصِّفات.

وفرقةٌ أعرضوا عنها، وشَغَلوا نفوسَهم بالأعمال، ولم يجيبوا داعيَ تلك الصِّفات، مع تخليتهم إيَّاها علىٰ مجراها، لكن لم يُمكِّنوا نهرَها من إفساد عُمرانهم، بل اشتغلوا بتحصين العُمران، وإحكامِ بنائه وأساسه، ورأوا أنَّ ذلك النهر لا بدَّ أن يصل إليه، فإذا وصل إلىٰ بناءٍ محكمٍ لم يَهدِمْه، بل يأخذ عنه يمينًا وشمالًا. فهؤلاء صرفوا قوَّة عزيمتهم وإرادتهم في العمارة وإحكامِ البناء، وأولئك صرفوها في قطع المادَّة الفاسدة من أصلها، خوفًا علىٰ هدم البناء.

وسألت يومًا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن هذه المسألة، وقطعِ الآفات والاشتغالِ بتنقية الطريق وتنظيفها؟

فقال لي في جملة كلامه: النفس مثل الباطوس وهو جُبُّ القَذَر كلَّما نَبشْتَه ظهر وخرج، ولكن إن أمكنك أن تَسْقُفَ عليه وتَعْبُره وتَجُوزَه فافعل، ولا تشتغلْ بنبشِه، فإنَّك لن تصل إلىٰ قراره، وكلّما نبشتَ شيئًا ظهر غيره.

فقلت: سألت عن هذه المسألة بعض الشُّيوخ، فقال لي: مثال آفات النفس مثال الحيَّات والعقارب التي في طريق المسافر، فإن أقبلَ علىٰ تفتيش الطريق عنها والاشتغال بقتلها انقطع، ولم يُمكِنه السَّفَرُ قطُّ. ولكن لِتكنْ همَّتُك المسيرَ، والإعراضَ عنها، وعدمَ الالتفات إليها، فإذا عرضَ لك فيها ما يَعُوقُك عن السير

فاقتلْه، ثـمَّ امضِ علىٰ سيرك.

فاستحسن شيخُ الإسلام ذلك جدًّا، وأثنىٰ علىٰ قائله.

إذا تبيَّن هـذا، فهـذه الفرقـة الثّالثـة رأتْ أنّ هـذه الصِّفـات مـا خُلِقت سـدًىٰ ولا عبثًـا، وأنّهـا بمنزلـة مـاءٍ يُسقىٰ به الـورد والشّـوك والثِّمار والحطـب، وأنّها صِـوَانٌ[١] وأصـدافٌ لجواهـرَ منطويـةٍ عليهـا، وأنَّ مـا خـاف منه أولئك هو نفس سبب الفلاح والظَّفَـر، فـرأوا أنّ الكِبْـر نهـرٌ يُسقىٰ بـه العلـوُّ والفخـر والبَطَـر والظُّلـم والعـدوان، ويُسقىٰ بـه علـوُّ الهمَّـة والأنفـة والحميَّـة، والمراغمـةُ لأعـداء الله، وقهرُهـم والعلـوُّ عليهـم. وهـذه درَّةٌ في صَدَفتِـه، فصرفـوا مجـراه إلـىٰ هـذا الغِـراس، واستخرجوا هذه الـدُّرَّة مـن صَدفتـه، وأبقَـوه علـىٰ حالـه في نفوسـهم، لكـن استعملوه حيـث يكـون استعماله أنفع.

وقـد رأىٰ النبيُّ ﷺ أبـا دُجانـة يتبختر بيـن الصّفَّين، فقـال: «**إنّها لَمِشْـيةٌ يُبغِضها الله إلّا في مثـلِ هـذا الموضـع**»[٢]. فانظر كيـف خَلَّـىٰ مجرىٰ هـذه الصِّفة وهـذا الخلقِ يجـري في أحسـن مواضعه.

وفي الحديـث الآخـر وأظنُّـه في «المسـند»[٣]: «**إنَّ مـن الخُيـلاءِ مـا يُحِبُّهـا الله، ومنهـا مـا يُبغِضهـا، فالخيـلاء التـي يحبُّهـا الله: اختيـال الرّجـل في الحـرب، وعنـد الصّدقـة**». فانظر كيف صـارت الصِّفـة المذمومـة عبوديّـةً؟ وكيـف استحال القاطعُ مُوصِـلًا؟

فصاحـبُ الرِّياضـات والعامـلُ علـىٰ قطـعِ أصـول هـذه الصفـات مجتهـدٌ علـىٰ

---

(١) الصوان (بضم الصاد وكسرها): ما يصان به وفيه الأشياء.

(٢) أخرجه الطبراني (٦٥٠٨)، وفي إسناده ضعف، انظر: «مجمع الزوائد» (٦/ ١٠٩)، وأصل القصة في «صحيح مسلم» (٢٤٧٠).

(٣) برقم (٢٣٧٤٧، ٢٣٧٥٠، ٢٣٧٥٣)، من حديث جابر بن عتيك. وهو حسن في الشواهد.

قطع مادة الخُيلاء والكِبر، وهذا قد أقرَّها في موضعها وأعدَّها لأقرانها، وهو مصرِّفٌ لها في مصرفٍ يُعينه علىٰ مطلبه يُوصِله إليه.

وكذلك خُلق الحسد فإنه لا يُذَمّ، وهو كالصَّدفَة لدُرَّة الغِبطة والمنافسة، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح [(١)]: «**لا حسدَ إلا في اثنتين: رجلٌ آتاه الله مالاً فسلَّطه علىٰ هَلكَته في الحق، ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار**». فالحسد يُوصِل إلىٰ المنافسة التي يحبُّها الله ويأمر بها في قوله: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾[المطففين: ٢٦]، فلا تَعملْ علىٰ إعدام هذا الخُلقِ من نفسك، بل اصرِفْه إلىٰ الحسد المحمود، الحامل علىٰ المنافسة في الرتب العالية وتزاحُم أهلها بالركَب. نعم، لا تَتمنَّ زوالَ نعمة الله عن عبد فتزولَ عنك ويُبقِيها عليه.

وكذلك خُلق الحِرص، فإنه من أنفع الأخلاق وأَوصلِها إلىٰ كل خير، وشدةُ الطلب بحسب قوة الحرص، فلا تعملْ علىٰ قطعها، ولكن علِّقْها بما ينفع النفسَ في معادها ويُكمِلها ويزكّيها، كما قال النبي ﷺ: «**احرِصْ علىٰ ما ينفعك، واستعنْ بالله ولا تَعجِزْ**» [(٢)]. فقوة الحرص لا تُذَمُّ، وإنما يُذَمُّ صرفُها إلىٰ ما يضرُّ الحرص عليه، أو لا ينفع وغيرُه أنفعُ للعبد منه.

وكذلك قوةُ الشهوة من أنفع القوىٰ للعبد، وأَوصلِها إلىٰ كماله وسعادته، فإنها تُثمِر المحبة. وبحسب شهوة العبد للكمال يكون طلبه له، وبحسب قوة شهوته للذة العيش ووصال الأحبَّة وقرة العين يكون طلبه لذلك في الجنة إن كان مؤمنًا بها موقنًا مصدقًا. فصِدْقُ الشهوة وقوتُها تَحمله علىٰ بيع مُشتهًىٰ دنيٍّ خسيسٍ بمشتهًىٰ أعلىٰ منه وأجلَّ وأرفعَ.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٢٥، ٥٠٢٦، ٧٥٢٩)، ومسلم (٨١٥)، من حديث ابن عمر ﷺ.
(٢) أخرجه مسلم (٢٦٦٤)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

وكذلك قوة الشُّحِّ والبخل محمودة جدًّا نافعةٌ للعبد، فإنها تحمله علىٰ بخله وشُحِّه بزمانه ووقته وأنفاسه أن يُضيِّعها ويَسمَح بها لمن لا يُساوي، ويَشِحُّ أيضًا غايةَ الشحِّ علىٰ حظّه ونصيبه من الله أن يبيعَه أو يهبَه لأحدٍ من الخلق، ويشحُّ أيضًا بماله ويبخل به كلَّ البخل أن لا يكون في ميزانه، وأن يتركه لغيره يتنعَّم به، ويفوتَه هو أجره وثوابه. فالشحيح بماله المحبُّ له هو الذي لا يَسمح به لغيره، بل يأخذه بين يديه زادًا لمعاده. ومَن لا يحبُّه ولا له قدرٌ عنده يرىٰ أن يُضيعَه ويَدَعَه للوارث أو الجائحةِ والتَّلَفِ، ولا يستصحبه أمامَه. فهذا هو الزاهد في المال، والأول هو الراغب فيه المحبُّ له. وكان عبد الله بن عمر ﵄ إذا أعجبه شيءٌ من ماله قدَّمَه بين يديه[1].

وهذه قاعدة مطَّردة في جميع الصفات والأخلاق، فالرسل صلوات الله وسلامه عليهم جاؤوا بصرفها عن مجاريها المذمومة إلىٰ مجارٍ محمودة، وجاؤوا بصرف قوة الشهوة إلىٰ النكاح والتسرِّيْ، حتىٰ كان لسليمان ﵇ مائة امرأة، ولداود ﵇ تسع وتسعون، وجمع رسول الله ﷺ بين تسع، وأباح للأمة أربعًا مما طاب لهم من النساء ومن السراري بلا حصرٍ، صرفًا لقوة هذه الشهوة عن مجرىٰ الحرام إلىٰ مجرىٰ الحلال الذي يحبُّه الله، وهو أحبُّ إليه من نفْلِ العبادة عند أكثر الفقهاء.

وكذلك جاؤوا بصرف القوة الغضبية إلىٰ جهاد أعداء الله والغِلظة عليهم والانتقام منهم.

وكذلك جاؤوا بصرف قوة اللهو والركوب ونحوه إلىٰ اللهو بالرمي والمسابقةِ علىٰ الخيل وركوبِها في سبيل الله، واللهو في العُرس.

وكذلك شهوة استماع الأصوات المطربة اللذيذة لا تُذمُّ بل تُحمد. وقد

---

(١) انظر: «طبقات ابن سعد» (٤/ ١٦٦)، و«حلية الأولياء» (١/ ٢٩٥).

وقف النبي ﷺ على أبي موسى الأشعري رضي الله عنه واستمع قراءته، وقال: «**لقد أُوتي هذا مِزمارًا من مزامير آل داود**»[١]. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأمره إذا حضر عنده مع الصحابة أن يُسمِعهم قراءتَه، فيقرأ وهم يسمعون[٢].

هذا كان سماع القوم، فمَن حرَّم هذا السماع أو مَن كرهه؟ وهل هذا إلّا سماع خواصّ الأولياء؟ فأين هذا من سماع المكاء والتصدية، وقرآنِ الشيطان، وآلاتِ المعازف بنغمات الشاهد[٣]؟ فلابد للروح من سَماع طيِّب تتغذَّىٰ به، ولكن لا يستوي مَن غذاؤه العسلُ والحلوىٰ والطيبات، ومَن غذاؤه الرجيعُ والميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهِلَّ به لغير الله. ويا عجبًا إن كان أهل هذا الغذاء لا يرون آثاره علىٰ شِفاههم ووجوههم! أفلا يستحيون من معاينة أرباب البصائر ذلك عليهم؟

والمقصود أن رسوم الطبيعة وقُواها لا يمكن تعطيلُها في دار الابتلاء والامتحان، فالبصير العارف يستعملها في مواضعها النافعة له، التي لا تُحرِّم عليه دِينًا، ولا تَقطع عليه طريقًا، ولا تُفسِد عليه حالَه مع الله، ولا تُسْقِطه من عينه.

وهذا الفصل من أنفع فصول الكتاب لمن هو معتن بهذا الشأن، وعاملٌ علىٰ صلاح قلبه وتزكية نفسه. وإنما دخل الداخل حيث ظنَّ أن تزكية النفس وتهذيب الأخلاق يتيسَّر بطريق الرِّياضات والمجاهدات والخلوات، هيهات هيهات! إنّما يُوقِع ذلك في الآفات والشُّبهات والضلالات، فإنَّ تزكية النُّفوس مسلَّمٌ إلىٰ الرُّسل صلوات الله وسلامُه عليهم، وإنَّما بعثَهم الله لهذه التّزكية وولَّاهم إيّاها، وجعلَها علىٰ أيديهم دعوةً وتعليمًا وبيانًا وإرشادًا، لا خَلْقًا ولا إلهامًا، فهم المبعوثون

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٤٨)، ومسلم (٧٩٣)، من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الدارمي (٢/ ٤٧٢) بإسناد مرسَل.

(٣)سبق أن «الشاهد» في اصطلاح المتصوفة هو المُنشد الحسنُ الوجهِ والصوت.

لعلاج نفوس الأمم. قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[الجمعة: ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[البقرة: ١٥١ - ١٥٢].

وتزكية النُّفوس أصعبُ من علاج الأبدان وأشدُّ، فمن زكَّىٰ نفسَه بالرِّياضة والمجاهدة والخلوة التي لم يجئ بها الرُّسل= فهو كالمريض الذي يعالج نفسَه برأيه دونَ معرفة الطَّبيب. فالرُّسل أطبّاءُ القلوب، فلا سبيل إلىٰ صلاحها وتزكيتها إلّا علىٰ أيديهم، وبمحض الانقيادِ والتّسليم لهم. والله المستعان.

فإن قلت: هل يمكن أن يكون الخُلق كسبيًّا، أو هو أمرٌ خارجٌ عن الكسب؟

قلت: يُمكِن أن يقع كسبيًّا بالتّخلُّق والتّكلُّف، حتّىٰ يصيرَ له سَجِيَّةً ومَلَكةً، وقد قال النبيُّ ﷺ لأشجِّ عبد القيس: «إن فيك لخُلُقَينِ يحبُّهما الله: الحلم والأناة». فقال: أخُلقينِ تخلّقتُ بهما أم جَبلنَي الله عليهما؟ فقال: «بل جَبَلَك الله عليهما». فقال: الحمد لله الذي جَبَلَني علىٰ خُلقينِ يُحِبُّهما الله ورسوله[1]. فدلّ علىٰ أنّ من الخلق ما هو طبيعةٌ وجِبلَّةٌ، وما هو مكتسَبٌ.

وكان النبيُّ ﷺ يقول في دعاء الاستفتاح: **«اللهمَّ اهْدِني لأحسنِ الأخلاق، لا يهدي لأحسنِها إلّا أنت، واصرِفْ عنِّي سيِّئ الأخلاق، لا يَصرِف عنِّي سيِّئها إلّا أنت»**[2]. فذكر الكسب والقَدَر.

(١) أخرجه أبو داود (٥٢٢٥)، وأحمد (٣٩/ ٤٩٠)، وإسناده حسن في الشواهد.

(٢) أخرجه مسلم (٧٧١)، من حديث علي بن أبي طالب ﷺ.

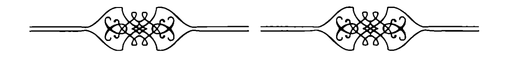
فصل

للعبد عشرة مشاهد فيما يصيبه من أذىٰ الخلق وجنايتهم عليه.

مَشاهد العبد في جناية الخلق عليه

أحدها: مشهد القَدَر، وأنَّ ما جرىٰ عليه بمشيئة الله وقضائه وقدره، يراه كالتّأذّي بالحرِّ والبرد، والمرضِ والألم، وهبوبِ الرِّياح، وانقطاعِ الأمطار، فإنَّ الكلَّ أوجبتْه مشيئةُ الله، فما شاء الله كان ووجب وجودُه، وما لم يشأ لم يكن وامتنع وجودُه. وإذا شهد هذا استراح، وعلِمَ أنّه كائنٌ لا مَحالةَ، فما للجَزَع منه وجهٌ، وهو كالجزع من الحرِّ والبرد والمرض والموت.

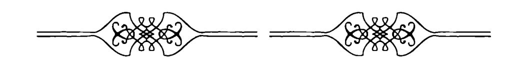
المشهد الثّاني: مشهد الصَّبر، فيشهده ويشهد وجوبَه، وحسنَ عاقبته، وجزاءَ أهله، وما يترتَّب عليه من الغبطة والسُّرورِ وتخلُّصِه من ندامة المقابلة والانتقام، فما انتقم أحدٌ لنفسه قطُّ إلّا أعقبَه ذلك ندامةً، وعلمَ أنّه إن لم يصبر اختيارًا علىٰ هذا وهو محمودٌ صبر اضطرارًا علىٰ أكثرَ منه وهو مذمومٌ.



فصل

المشهد الثّالث: مشهد العفو والصّفح والحِلم، فإنّه متىٰ شهدَ ذلك وفضْلَه وحلاوتَه وعِزَّتَه= لم يَعدِلْ عنه إلَّا لغَبَشٍ في بصيرته، فإنَّه ما زاد الله عبدًا بعفوٍ إلَّا عِزًّا كما صحَّ ذلك عن النبيِّ ﷺ [1]، وعُلِمَ بالتَّجربة والوجود. وما انتقَم أحدٌ لنفسِه إلّا ذلَّ.

هذا، وفي الصّفح والعفو والحلم: من الحلاوة والطُّمأنينة والسّكينة، وشرفِ النّفس وعزِّها ورفعتِها عن تشفِّيها بالانتقام= ما ليس شيءٌ منه في المقابلة والانتقام.



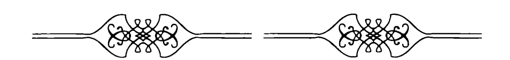
(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فصل

المشهد الرّابع: مشهد الرِّضا، وهو فوق مشهد العفو والصّفح، وهذا لا يكون إلّا للنُّفوس المطمئنّة، سيَّما إن كان ما أُصيبتْ به سببُه القيامُ لله، فإذا كان ما أصيبتْ به في الله وفي مرضاته ومحبَّته رضيتْ بما نالها في الله. وهذا شأنُ كلِّ محبٍّ صادقٍ يرضىٰ بما يناله في رضا محبوبه من المكاره، ومتىٰ تسخَّط به وتشكّىٰ منه كان ذلك دليلًا علىٰ كذبه في محبّته، والواقع شاهدٌ بذلك. والمحبُّ الصّادق كما قال[1]:

من أجلك قد جعلتُ خَدِّي أرضَا   للشّامت والحسود حتّىٰ تَرضَىٰ

ومن لم يرضَ بما يُصيبه في سبيل محبوبه فلينزِلْ عن درجة المحبِّ وليتأخَّر، فليس مِن ذا الشّأن!



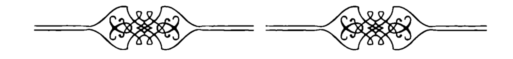
(١) البيت بلا نسبة في «المدهش» (ص١٨١).

فصل

المشهد الخامس: مشهد الإحسان، وهو أرفع ممَّا قبله. وهو أن يُقابِل إساءةَ المسيء إليه بالإحسان، فيُحسِن إليه كلَّما أساء هو إليه، ويُهوِّن هذا عليه علمُه بأنَّه قد ربِحَ عليه، وأنَّه قد أهدىٰ إليه حسناتِه، ومحاها من صحيفته، فأثبتها في صحيفة من أساء إليه، فينبغي لك أن تشكره، وتُحسِن إليه بما لا نسبةَ له إلىٰ ما أحسن به إليك.

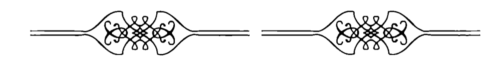
وهاهنا ينفع استحضارُ مسألة اقتضاءِ الهبة الثّوابَ. وهذا المسكين قد وهبَك حسناتِه، فإن كنتَ من أهل الكرم فأَثِبْه عليها، لتثبتَ الهبة، وتأمنَ رجوعَ الواهب فيها. وفي هذا حكاياتٌ معروفةٌ عن أرباب المكارم وأهلِ العزائم.

ويُهوِّنه عليك أيضًا: علمُك بأنَّ الجزاء من جنس العمل. فإن كان هذا عملك في إساءة المخلوق إليك عفوتَ عنه، وأحسنتَ إليه، مع حاجتك وضعفك وفقرِك وذُلِّك. فهكذا يفعل المحسن القادر العزيز الغنيُّ بك في إساءتك، يقابلها بما قابلتَ به إساءةَ عبده إليك، فهذا لا بدَّ منه. وشاهِدُه في السُّنّة من وجوهٍ كثيرةٍ لمن تأمّلَها.



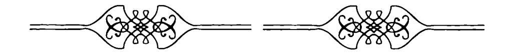
فصل

المشهد السّادس: مشهد السلامة وبِرِّ القلب، وهذا مشهدٌ شريفٌ جدًّا لمن عرفه وذاقَ حلاوته. وهو أن لا يَشْغَل قلْبَه وسِرَّه بما ناله من الأذىٰ، وطلبِ الوصول إلىٰ دَركِ ثأره وشفاءِ نفسه، بل يُفرِّغ قلبه من ذلك، ويرىٰ أنّ سلامته وبِرَّه وخُلوَّه منه أنفعُ له وألذُّ وأطيبُ، وأعوَنُ علىٰ مصالحه. فإنّ القلب إذا اشتغل بشيءٍ فاتَه ما هو أهمُّ عنده وخيرٌ له منه، فيكون بذلك مغبونًا، والرشيد لا يرضىٰ بذلك، ويراه من تصرُّفات السّفيه. فأين سلامة القلب من امتلائه بالغَبْن والوساوس، وإعمال الفكر في إدراك الانتقام؟



فصل

المشهد السّابع: مشهد الأمن، فإنَّه إذا ترك المقابلة والانتقام أَمِنَ ما هو شرٌّ من ذلك، وإذا انتقم واقَعَه الخوفُ ولا بدَّ، فإنّ ذلك يزرع العداوة، والعاقل لا يأمن عدوَّه ولو كان حقيرًا، فكم من حقيرٍ أردىٰ عدوَّه الكبير. فإذا غفر ولم ينتقم ولم يُقابِل أمِنَ من تولُّد العداوة أو زيادتها. ولا بدَّ أنَّ عفوه وحلمه وصفْحَه يكسِر عنه شوكةَ عدوِّه، ويَكُفُّ من غَرْبِه، بعكس الانتقام. والواقع شاهدٌ بذلك أيضًا.



فصل

المشهد الثّامن: مشهد الجهاد، وهو أن يشهد تولُّدَ أذىٰ النّاس له عن جهاده في سبيل الله، وأمرِهم بالمعروف، ونهيِهم عن المنكر، وإقامةِ دين الله، وإعلاءِ كلماته.

وصاحب هذا المقام قد اشترىٰ الله منه نفسَه ومالَه وعِرْضه بأعظم الثّمن، فإن أراد أن يُسلَّم إليه الثّمنُ فليسلِّم هو السِّلعةَ ليستحقَّ ثمنَها. فلا حقَّ له علىٰ من آذاه، ولا شيء له قِبَلَه، إن كان قد رضي بعقد هذا التّبايع، فإنّه قد وجب أجره علىٰ الله.

وهذا ثابتٌ بالنّصِّ وإجماع الصحابة رضي الله عنهم، ولهذا منع النبيُّ ﷺ المهاجرين من سكنىٰ مكّة أعزّها الله[1]، ولم يَرُدَّ علىٰ أحدٍ منهم داره ولا مالَه الذي أخذه الكفّار، ولم يُضمِّنهم ديةَ من قتلوه في سبيل الله.

ولمّا عزم الصِّدِّيق رضي الله عنه علىٰ تضمين أهل الرِّدَّة ما أتلفوه من نفوس المسلمين وأموالهم، قال له عمر بن الخطّاب رضي الله عنه بمشهدٍ من الصّحابة رضي الله عنهم: تلك دماءٌ وأموالٌ ذهبتْ في الله، وأجورُها علىٰ الله، ولا ديةَ لشهيدٍ. فأصفقَ[2] الصّحابةُ علىٰ قول عمر، ووافقَه عليه الصِّدِّيق[3].

فمن قام لله حتّىٰ أُوذِي في الله حَرُم عليه الانتقام، كما قال لقمان لابنه: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾[لقمان: ١٧].

---

(١) أخرج البخاري (٣٩٣٣)، ومسلم (١٣٥٢).

(٢) أصفق القوم علىٰ كذا: أطبقوا عليه واجتمعوا.

(٣) أخرجه أبو عبيد في «الأموال» (٥٢٣)، وإسناده صحيح.

﴿ فصل ﴾

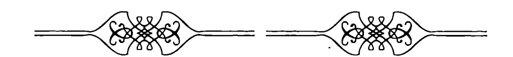
المشهد التّاسع: مشهد النِّعمة، وذلك من وجوهٍ:

أحدها: أن يشهد نعمة الله عليه في أن جعلَه مظلومًا يرتقب النّصر، ولم يجعله ظالمًا يرتقب المَقْت والأخذ، فلو خُيِّر العاقل بين الحالتين ولا بدّ من إحداهما لاختار أن يكون مظلومًا.

ومنها: أن يشهد نعمة الله عليه في التّكفير بذلك من خطاياه، فإنّه ما أصاب المؤمنَ من همٍّ ولا غمٍّ ولا أذًىٰ إلّا كفّر الله به من خطاياه[(١)].

ومنها: أن يشهد كون تلك البليّة أهونَ وأسهلَ من غيرها، فإنّه ما محنةٌ إلّا وفوقها ما هي أقوىٰ منها وأمرُّ.

ومنها: توفية أجرها وثوابها يومَ الفقر والفاقة.



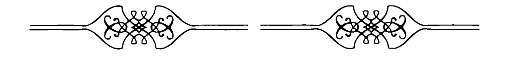
(١) كما في حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة الذي أخرجه البخاري (٥٦٤١)، ومسلم (٢٥٧٣).

فصل

المشهد العاشر: مشهد الأسوة، وهو مشهدٌ لطيفٌ شريفٌ جدًّا، فإنّ العاقل اللّبيب يرضىٰ أن يكون له أسوةٌ برسل الله وأنبيائه وأوليائه وخاصَّتِه من خلقه، فإنّهم أشدُّ الخَلْق امتحانًا بالناس، وأذىٰ النّاسِ إليهم أسرعُ من السَّيل في الحَدُور. ويكفي تدبُّر قصص الأنبياء ﷺ مع أممهم، وشأنِ نبيِّنا ﷺ وأذىٰ أعدائه له بما لم يُؤذَ به مَن قبله. وقد قال له ورقةُ بن نَوفلٍ: لَتُكذَّبَنَّ ولتُخْرَجَنَّ ولَتُؤْذَيَنَّ[(١)]. وقال له: ما جاء أحدٌ بمثل ما جئتَ به إلّا عُودِيَ[(٢)]. وهذا مستمرٌّ في ورثته كما كان في موروثهم ﷺ.

أفلا يرضىٰ العبد أن يكون له أسوةٌ بخيار خَلْق الله وخواصِّ عباده: الأمثل فالأمثل؟

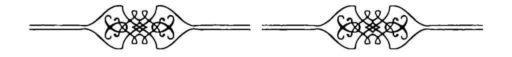
ومن أحبَّ معرفة ذلك فليقفْ علىٰ مِحَن العلماء، وأذىٰ الجهَّال لهم. وقد صنَّف في ذلك ابن زَبْر[(٣)] كتابًا سمَّاه «مِحَن العلماء».



(١) كما رواه ابن إسحاق في «سيرته» (ص١٠٢).
(٢) أخرجه البخاري (٣، ٦٩٨٢)، ومسلم (١٦٠)، من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٣) هو الحافظ أبو سليمان محمد بن عبد الله بن زَبْر الربعي (ت٣٧٩).

فصل

المشهد الحادي عشر: وهو أجلُّ المشاهد وأرفعها: مشهد التوحيد، فإذا امتلأ قلبه بمحبَّة الله تعالىٰ، والإخلاصِ له ومعاملته، وإيثارِ مرضاته، والتّقرُّب إليه، وقرّتْ عينه بالله، وابتهجَ قلبه بحبِّه والأنسِ به، واطمأنَّ إليه، وسكنَ إليه، واشتاق إلىٰ لقائه، واتّخذه وليًّا دونَ ما سواه، بحيث فوَّض إليه أمورَه كلَّها، ورضي به وبأقضيته، وفَنِيَ بحبِّه وخوفه ورجائه وذكرِه والتوكُّل عليه عن كلِّ ما سواه= فإنَّه لا يبقىٰ في قلبه متَّسَعٌ لشهودِ أذىٰ الناس له البتّةَ، فضلًا عن أن يشتغل قلبُه وفكرُه وسِرُّه بتطلُّب الانتقام والمقابلة، فهذا لا يكون إلّا من قلبٍ ليس فيه ما يُغنِيه عن ذلك ويُعوِّضه منه، فهو قلبٌ جائعٌ غير شَبعانَ، فإذا رأىٰ أيَّ طعامٍ هَفَتْ إليه نوازِعُه، وانبعثتْ إليه دواعِيه. وأمّا من امتلأ قلبه بأعلىٰ الأغذية وأشرفها فإنَّه لا يلتفت إلىٰ ما دونها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.



فصل

مدار حسن الخلق مع الخلق

ومدار حسن الخلق مع الخلق ومع الحق: علىٰ حرفين، ذكرهما الشيخ عبد القادر الكيلاني رحمه الله فقال: كُنْ مع الحقِّ بلا خَلْقٍ، ومع الخَلْق بلا نفسٍ[1].

فتأمّلْ، ما أجلَّ هاتين الكلمتين مع اختصارهما، وما أجمعَهما لقواعد السُّلوك ولكلِّ خلقٍ جميلٍ! وفساد الخُلق إنَّما ينشأ من توسُّطِ الخَلق بينك وبين الله، وتوسُّطِ النّفس بينك وبين خلقه. فمتىٰ عزلتَ الخَلق حالَ كونك مع الله، وعزلتَ النّفس حالَ كونك مع الخَلق= فقد فُزتَ بكلِّ ما أشار إليه القوم، وشَمَّروا إليه، وحاموا حولَه. والله المستعان.

(١) ذكره شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوىٰ» (٨/ ٣٣٨).

٣/ ٦٥

فصل

منزلة التواضع

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة التواضع**. قال الله تعالىٰ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾[الفرقان: ٦٣]، أي سكينةً ووقارًا، متواضعين، غير أَشِرِين، ولا مَرِحين، ولا متكبِّرين. قال الحسن رضي الله عنه: علماء حلماء[(١)]. وقال محمَّد بن الحنفيّة رضي الله عنه: أصحاب وقارٍ وعفَّةٍ لا يَسفَهون، وإن سُفِه عليهم حَلُموا[(٢)].

والهَوْن بالفتح في اللُّغة: الرِّفق واللِّين، والهُوْن بالضّمِّ: الهَوان. فالمفتوح صفة أهل الإيمان، والمضموم صفة أهل الكفران وجزاؤهم من الله.

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[المائدة: ٥٤].

وفي «صحيح مسلمٍ»[(٣)] من حديث عِياض بن حِمارٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ الله أوحىٰ إليَّ أن تواضَعُوا، حتَّىٰ لا يفخرَ أحدٌ علىٰ أحدٍ، ولا يَبغِي أحدٌ علىٰ أحدٍ**».

وفي «صحيح مسلمٍ»[(٤)] عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يدخلُ الجنّةَ من كان في قلبه مثقالُ ذرَّةٍ من كِبْرٍ**».

وفي «الصحيحين»[(٥)] مرفوعًا: «**ألا أُخبِركم بأهل النّار؟ كلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُستكبرٍ**».

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٤٩٢، ٤٩٣).

(٢) «تفسير البغوي» (٣/ ٣٧٥).

(٣) برقم (٢٨٦٥).

(٤) برقم (٩١).

(٥) البخاري (٤٩١٨)، ومسلم (٢٨٥٣)، من حديث حارثة بن وهب الخزاعي رضي الله عنه.

وفي حديث احتجاج الجنَّة والنَّار: أنَّ النار قالت: «**ما لي لا يَدخلني إلّا الجبّارون، والمتكبِّرون؟**» وهو في «الصّحيح»[1].

وفي «صحيح مسلمٍ»[2] عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله ﷻ: العزَّة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني فقد عذَّبتُه**».

وفي جامع التِّرمذيِّ[3] مرفوعًا: «**لا يزال الرّجلُ يذهبُ بنفسه حتَّىٰ يُكتَب في ديوان الجَبَّارين، فيُصِيبه ما أصابهم**».

وكان النبيُّ ﷺ يمرُّ علىٰ الصِّبيان فيُسَلِّم عليهم[4].

وكانت الأَمة تأخذُ بيده ﷺ، فتَنْطلِقُ به حيثُ شاءت[5].

وكان إذا أكلَ لَعِقَ أصابعَه الثلاث[6].

وكان يكون في بيته في خدمة أهله[7]. ولم يكن ينتقم لنفسه قطُّ[8].

وكان يَخْصِفُ نعلَه، ويُرقِّع ثوبَه، ويَحلُب الشاة لأهله، ويَعْلِف البعيرَ، ويأكل مع الخادم، ويجالس المساكينَ، ويمشي مع الأرملة واليتيم في حاجتهما، ويبدأ من لَقِيَه بالسلام، ويجيب دعوةَ من دعاه ولو إلىٰ أيسرِ شيءٍ[9].

وكان هَيِّنَ المُؤنة، ليِّن الخُلق، كريمَ الطَّبع جميلَ المعاشرة، طَلْقَ الوجه، بسَّامًا، متواضعًا من غير ذلَّةٍ، جوادًا من غير سَرَفٍ، رقيقَ القلب، رحيمًا بكلِّ

---

(١) البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) برقم (٢٦٢٠).

(٣) رقم (٢٠٠٠)، من حديث سلمة بن الأكوع ﷺ. قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب».

(٤) أخرجه البخاري (٦٢٤٧)، ومسلم (٢١٦٨)، من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٥) أخرجه البخاري (٦٠٧٢)، من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٦) أخرجه مسلم (٢٠٣٤)، من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٧) أخرجه البخاري (٦٧٦، ٥٣٦٣، ٦٠٣٩)، من حديث عائشة ﷺ.

(٨) أخرجه البخاري (٣٥٦٠، ٦١٢٦)، ومسلم (٢٣٢٧)، من حديث عائشة ﷺ.

(٩) وردت هذه الصفات في عدة أحاديث في «الصحيحين» و«شمائل» الترمذي وغيرها.

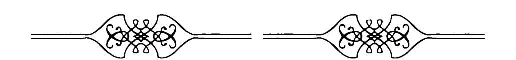
مسلمٍ، خافضَ الجَناح للمؤمنين، ليِّنَ الجانب لهم.

وقال: «**ألا أُخبِركم بمن يَحْرُم علىٰ النّار أو تَحرُم عليه النّار ؟ تحرم علىٰ كلِّ قريبٍ هيِّنٍ ليِّنٍ سَهْلٍ**». رواه التِّرمذيُّ[1]، وقال: حسنٌ.

وقال: «**لو دعيت إلىٰ كُراعٍ أو ذِراعٍ لأجبتُ، ولو أُهدِي إليَّ ذراعٌ أو كُراعٌ لقبلتُ**». رواه البخاريُّ[2].

وكان يعود المريض، ويشهد الجنازة، ويركب الحمار، ويجيب دعوة العبد.

وكان يومَ قُريظةَ علىٰ حمارٍ مَخْطومٍ بحبلٍ من لِيفٍ، عليه إكَافٌ من لِيفٍ[3].



(١) برقم (٢٤٨٨)، من حديث ابن مسعود ﷺ.
(٢) برقم (٢٥٦٨، ٥١٧٨)، من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٣) أخرجه الترمذي (١٠١٧)، من حديث أنس بن مالك ﷺ، وضعفه الترمذي.

فصل

تعريف التواضع

سئل الفُضيل بن عياضٍ رضي الله عنه عن التواضع؟ فقال: تَخضع للحقِّ، وتنقاد له، وتقبله ممَّن قاله[١].

وقيل: التواضع أن لا ترىٰ لنفسك قيمةً، فمن رأىٰ لها قيمةً فليس له في التّواضع نصيبٌ[٢].

وهذا مذهب الفضيل وغيره.

وقال الجنيد رحمه الله: هو خَفْض الجَناح، ولينُ الجانب[٣].

وقال أبو يزيد رحمه الله: هو أن لا يرىٰ لنفسه مقامًا ولا حالًا، ولا يرىٰ في الخلق شرًّا منه[٤].

وقال ابن عطاءٍ رحمه الله: هو قبول الحقِّ ممَّن كان[٥].

والعزُّ في التواضع، فمن طلبَه في الكِبْر فهو كتطلُّبِ الماء من النّار.

قال إبراهيم بن شَيبان: الشَّرف في التّواضع، والعزُّ في التّقوىٰ، والحرِّيَّة في القناعة[٦].

ويُذكر عن سفيان الثَّوريِّ رضي الله عنه أنّه قال: أعزُّ الخلق خمسةُ أنفُسٍ: عالمٌ زاهدٌ، وفقيهٌ صوفيٌّ، وغنيٌّ متواضعٌ، وفقيرٌ شاكرٌ، وشريفٌ سنِّيٌّ[٧].

---

(١) «الرسالة القشيرية» (ص٣٨٢)، وهو في «التواضع والخمول» لابن أبي الدنيا (٨٨).
(٢) المصدر السابق (ص٣٨٢)، ونسبه إلىٰ الفضيل، وهو في «تاريخ دمشق» (٤٨/ ٤١٩).
(٣) المصدر السابق (ص٣٨٣)، وهو في «طبقات الشافعية» (٢/ ٢٦٣).
(٤) المصدر السابق (ص٣٨٣). وأبو يزيد هو البِسطامي.
(٥) المصدر السابق (ص٣٨٤)، وهو في «طبقات الصوفية» (ص٣٩٦) للقرميسيني.
(٦) المصدر السابق (ص٣٨٣)، وهو في «عيون الأخبار» (١/ ٢٦٨) بلا نسبة.
(٧) المصدر السابق (ص٣٨٤).

وقال عروة بن الزُّبير رضي الله عنهما: رأيت عمر بن الخطّاب رضي الله عنه علىٰ عاتقِه قِرْبةُ ماءٍ، قلت: يا أمير المؤمنين، لا ينبغي لك هذا، فقال: لمَّا أتاني الوفود سامعين مطيعين دخلتْ نفسي نَخْوةٌ، فأحببتُ أن أكسِرها[1].

وولي أبو هريرة رضي الله عنه إمارةً مرَّةً، فكان يحمل حُزْمةَ الحطب علىٰ ظهره، وهو يقول: طرِّقوا للأمير[2].

وركب زيد بن ثابتٍ رضي الله عنه، فدنا ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما ليأخذ بركابه، فقال: مَهْ يا ابنَ عمِّ رسول الله! فقال: هكذا أُمِرنا أن نفعل بكُبرائنا، فقال زيد: أَرِني يدَك، فأخرجها إليه فقبّلَها وقال: هكذا أُمِرنا أن نفعل بأهل بيت رسول الله ﷺ[3].

ورأىٰ محمَّد بن واسعٍ ابنًا له يمشي مِشيةً منكرةً، فقال: تدري بكم اشتريتُ أمَّك؟ بثلاثمائة درهمٍ، وأبوك لا أكثرَ الله في المسلمين مثلَه أنا، وأنت تمشي هذه المِشية[4]!

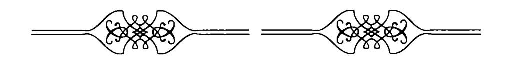
وقال حَمْدون القصَّار رحمه الله: التواضع أن لا ترىٰ لأحدٍ إلىٰ نفسك حاجةً، لا في الدِّين ولا في الدُّنيا[5].

وقال إبراهيم بن أدهم: ما سُرِرتُ في إسلامي إلَّا ثلاثَ مرَّاتٍ: كنت في سفينةٍ، وفيها رجلٌ مِضحاكٌ كان يقول: كنَّا في بلاد التُّرك نأخذ العِلْجَ هكذا، وكان يأخذ بشعر رأسي ويَهُزُّني، لأنَّه لم يكن في تلك السفينة أحدٌ أحقر منِّي. والأخرىٰ: كنتُ عليلًا في مسجدٍ، فدخل المؤذِّن وقال: اخرجْ. فلم أُطِقْ، فأخذ

(١) «الرسالة القشيرية» (ص٣٨٤).
(٢) «الرسالة القشيرية» (ص٣٨٤).
(٣) «الرسالة القشيرية» (ص٣٨٤)، ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٤٧٤٦).
(٤) «الرسالة القشيرية» (ص٣٨٦)، ورواه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٥٠).
(٥) «الرسالة القشيرية» (ص٣٨٧).

برجلي وجرَّني إلىٰ خارجٍ. والأخرىٰ: كنت بالشام وعليَّ فَرْوٌ، فنظرتُ فيه، فلم أميِّز بين شَعره وبين القَمْل لكثرته، فسرَّني ذلك[1].

وبلغ عمرَ بن عبد العزيز رضي الله عنه: أنَّ ابنًا له اشترىٰ خاتمًا بألف درهمٍ، فكتب إليه عمر: بلغني أنّك اشتريتَ فَصًّا بألف درهمٍ، فإذا أتاك كتابي فبِعِ الخاتم، وأشبِعْ به ألفَ بطنٍ، واتَّخِذْ خاتمًا بدرهمين، واجعَلْ فَصَّه حديدًا صينيًّا، واكتب عليه: رحم الله امرءًا عرفَ قدْرَ نفسه[2].



(١) «الرسالة القشيرية» (ص٣٨٧).
(٢) المصدر نفسه (ص٣٨٦).

فصل

أول ذنب عصي الله به هو الكبر

أوّل ذنبٍ عصىٰ الله به أبوا الثَّقلين: الكِبر والحرص. فكان الكبر ذنب إبليس اللعين، فآل أمره إلىٰ ما آل إليه. وذنب آدم صلىٰ الله علىٰ نبيِّنا وعليه وسلَّم كان من الحرص والشَّهوة، فكان عاقبته التّوبة والهداية. وذنب إبليس حمله علىٰ الاحتجاج بالقدر والإصرار، وذنب آدم ﷺ أوجب له إضافتَه إلىٰ نفسه، والاعتراف به والاستغفار.

فأهل الكبر والإصرار والاحتجاج بالأقدار: مع شيخهم وقائدهم إلىٰ النار إبليس. وأهل الشهوة المستغفرون التائبون المعترفون بالذُّنوب، الذين لا يحتجُّون عليها بالقدر: مع أبيهم آدم في الجنَّة.

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: المتكبِّر شرٌّ من المشرك فإنَّ المتكبِّر متكبِّر عن عبادة الله تعالىٰ، والمشرك يعبد الله وغيره.

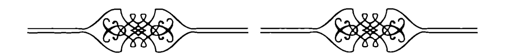
قلت: ولذلك جعل الله النَّار دار المتكبِّرين، كما قال تعالىٰ في سورة غافرٍ: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾[آية: ٧٦]، وقال في سورة النّحل: ﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾[آية: ٢٩]، وقال في سورة تنزيل: ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾[الزمر: ٦٠].

وأخبر أنَّ أهل الكبر والتّجبُّر هم الذين طبع الله علىٰ قلوبهم، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾[غافر: ٣٥].

وقال ﷺ: «**لا يدخل الجنّةَ من كان في قلبه مِثقالُ ذرّةٍ من كِبْرٍ**». رواه مسلمٌ رحمه الله[1].

(١) رقم (٩١)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾[النساء: ٤٨]، تنبيه علىٰ أنَّه لا يغفر الكِبر الذي هو أعظم من الشِّرك، وكما أنَّ من تواضع لله رفعه الله، فكذلك من تكبَّر عن الانقياد للحقِّ أذلَّه ووضعَه. ومن تكبَّر عن الانقياد للحقِّ ولو جاءه علىٰ يد صغيرٍ، أو من يبغضه ويعاديه= فإنَّما تكبَّر علىٰ الله، فإنَّ الله هو الحقُّ، وكلامه حقٌّ، ودينه حقٌّ، والحقُّ صفته ومنه وله. فإذا ردَّه العبدُ وتكبَّر عن قبوله، فإنَّما ردَّ علىٰ الله، وتكبَّر عليه.



٣/ ٨٦

فصل

منزلة الفتوة

ومِن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة الفُتُوَّة**، هذه المنزلة حقيقتها هي منزلة الإحسان إلىٰ الناس، وكفِّ الأذىٰ عنهم، واحتمالِ أذاهم. فهي استعمال حُسن الخلق معهم، فهي في الحقيقة نتيجة حسن الخلق واستعماله.

والفرق بينها وبين المروءة: أنَّ المروءة أعمُّ منها. فالفتوَّة نوعٌ من أنواع المروءة، فإنَّ المروءة استعمال ما يُجمِّل ويَزِين ممّا هو مختصٌّ بالعبد أو متعدٍّ إلىٰ غيره، وتركُ ما يُدنِّس ويَشِين ممَّا هو مختصٌّ أيضًا به أو متعلِّقٌ بغيره. والفتوَّة إنَّما هي استعمال الأخلاق الكريمة مع الخَلْق.

فهي ثلاثة منازل: منزلة التخلُّق وحسن الخُلق، ومنزلة الفتوَّة، ومنزلة المروءة. وقد تقدَّمت منزلة الخُلق.

وهذه منزلةٌ شريفةٌ، لم تُعبِّر عنها الشريعة باسم الفتوَّة، بل عبَّرت عنها باسم «مكارم الأخلاق»، كما في حديث يوسف بن محمَّد بن المنكدر عن أبيه عن جابرٍ رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ: «**إنَّ الله بعثني لتمام مكارم الأخلاق، ومحاسن الأفعال**»[(١)].

أصل الفتوَّة من الفتىٰ، وهو الشابُّ الحديث السِّنِّ. قال تعالىٰ عن أهل الكهف: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾[الكهف: ١٣]. وقال عن قوم إبراهيم إنَّهم قالوا فيه: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾[الأنبياء: ٦٠]. وقال تعالىٰ عن يوسف عليه السلام: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾[يوسف: ٣٦]، ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ﴾[يوسف: ٦٢].

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٨٩٥)، بإسناد ضعيف، وانظر: «مجمع الزوائد» (٨/ ١٨٨).

فاسم «الفتىٰ» لا يُشعِر بمدحٍ ولا ذمٍّ، كاسم الشابِّ والحَدَث. ولذلك لم يجئ اسم الفتوَّة في القرآن ولا في السُّنّة ولا في لسان السَّلف، وإنَّما استعمله مَن بعدهم في مكارم الأخلاق. وأصلها عندهم: أن يكون العبد أبدًا في أمر غيره.

وأقدمُ من علمتُه تكلَّم في الفتوَّة: جعفر بن محمَّدٍ، ثمَّ الفضيل بن عياضٍ، والإمام أحمد، وسهل بن عبد الله، والجنيد، ثمَّ الطائفة.

فيذكر أنَّ جعفر بن محمَّدٍ سُئل عن الفتوَّة، فقال للسائل: ما تقول أنت؟ فقال: إن أُعطِيتُ شَكرتُ، وإن مُنِعتُ صبرتُ. فقال: الكلاب عندنا كذلك. فقال السائل: يا ابنَ رسول الله، فما الفتوَّة عندكم؟ فقال: إن أُعطِينا آثَرْنا، وإن مُنِعْنا شَكَرْنا[1].

وقال الفُضَيل بن عياضٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: الفتوَّة: الصَّفْح عن عَثَرات الإخوان[2].

وقال الإمام أحمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في رواية ابنه عبد الله عنه، وقد سئل ما الفتوّة؟ فقال: تركُ ما تهوىٰ لما تخشىٰ[3].

ولا أعلم لأحدٍ من الأئمَّة الأربعة كلامًا فيها سواه.

وسئل الجنيد عن الفتوَّة؟ فقال: أن لا تُنافِرَ فقيرًا، ولا تُعارِضَ غنيًّا[4].

وقيل: الفتوَّة أن لا ترىٰ لنفسك فضلًا علىٰ غيرك[5].

وقال الدَّقَّاق: هذا الخُلق لا يكون كماله إلّا لرسول الله ﷺ، فإنّ كلّ أحدٍ يقول يوم القيامة: نفسي نفسي، وهو يقول: «أمَّتي أمَّتي»[6].

وقيل: الفتوَّة: كَسْر الصّنم الذي بينك وبين الله تعالىٰ، وهو نفسك، فإنَّ الله

(١) «الرسالة القشيرية» (ص٥١٢).
(٢) «الرسالة القشيرية» (ص٥٠٧)،
(٣) «الرسالة القشيرية» (ص٥٠٨)، وانظر: «الآداب الشرعية» (٢/ ٢٣١).
(٤) «الرسالة القشيرية» (ص٥٠٧).
(٥) المصدر نفسه (ص٥٠٧).
(٦) المصدر نفسه (ص٥٠٦)، وقول النبي ﷺ ضمن حديث الشفاعة الطويل الذي أخرجه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣)، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

حكىٰ عن خليله إبراهيم أنَّه جعل الأصنام جُذَاذًا. فكسرُ الأصنام له. فالفتىٰ من كسرَ صنمًا واحدًا في الله[(١)].

وقال الجنيد: الفتوَّة كفُّ الأذىٰ وبذل النَّدىٰ[(٢)].

وقال سهل: هي اتِّباع السُّنّة[(٣)].

وقيل: هي الوفاء والحِفاظ[(٤)].

وقيل: فضيلةٌ تأتيها، ولا ترىٰ نفسك فيها[(٥)].

وقيل: تزوّج رجلٌ بامرأةٍ، فلمّا دخلتْ عليه رأىٰ بها الجُدَريّ. فقال: اشتكتْ عيني، ثمَّ قال: عَمِيتْ. فبعد عشرين سنةً ماتت، ولم تعلم أنَّه بصيرٌ. فقيل له في ذلك، فقال: كرهتُ أن يَحزُنها رؤيتي لما بها. فقيل له: سَبَقْتَ الفتيان[(٦)].

وقيل: ليس من الفتوَّة أن تربح علىٰ صديقك[(٧)].

ومن الفتوَّة التي لا تُلْحَق: ما يُذكر أنَّ رجلًا نام من الحاجِّ في المدينة، ففقد هِمْيانًا فيه ألف دينارٍ، فقام فَزِعًا، فوجد جعفر بن محمَّدٍ رضي الله عنهما، فعلقَ به وقال: أخذتَ هِمْياني! فقال: أيشٍ كان فيه؟ فقال: ألف دينارٍ. فأدخلَه دارَه ووزنَ له ألف دينارٍ. ثمّ إنَّ الرّجل وجدَ هِميانه، فجاء إلىٰ جعفرٍ رضي الله عنه معتذرًا بالمال، فأبىٰ أن يقبله منه، وقال: شيءٌ أخرجتُه من يدي لا أستردُّه أبدًا. فقال الرّجل للناس: مَن هذا؟ فقالوا: هذا جعفر بن محمَّدٍ رضي الله عنهما[(٨)].

---

(١) «الرسالة القشيرية» (ص٥٠٧).
(٢) المصدر نفسه (ص٥٠٨).
(٣) المصدر نفسه (ص٥٠٨).
(٤) «الرسالة القشيرية» (ص٥٠٨).
(٥) المصدر نفسه (ص٥٠٨).
(٦) المصدر نفسه (ص٥٠٩).
(٧) المصدر نفسه (ص٥١٠)، وفيه: قاله بعض أصدقائنا.
(٨) «الرسالة القشيرية» (ص٥١١).

فصل

نكتة الفتوة أن لا تشهد لك فضلا

قال صاحب «المنازل» رحمه الله[1]: (**نكتة الفتوَّة: أن لا تشهد لك فضلاً، ولا ترىٰ لك حقًّا**).

يقول: قلبُ الفتوّة وإنسانُ عينها: أن تفنىٰ بشهادة نقصِك وعيبِك عن فضلك، وتغيبَ بشهادة حقوق الخلق عليك عن شهادة حقوقك عليهم.

وللناس في هذا مراتب، فأشرفها: أهل هذه المرتبة، وأخسُّها: عكسهم، وهم أهل الفناء في شهود فضائلهم عن عيوبهم، وبشهودِ حقوقهم علىٰ النّاس عن حقوق النّاس عليهم. وأوسطهم: من شهد هذا وهذا، فيشهد ما فيه من العيب والكمال، ويشهد حقوق النّاس عليه وحقوقه عليهم.

قال[2]: (**وهي علىٰ درجاتٍ. الدّرجة الأولىٰ: ترك الخصومة، والتّغافل عن الزّلّة، ونسيان الأذيّة**).

هذه الدّرجة من باب التّرك والتّخلّي، وهي أن لا يخاصم أحدًا، فلا يُنصِّب نفسَه خصمًا لأحدٍ غيرها، فهي خصمه.

وهذا المنزل أيضًا ثلاث درجاتٍ: لا يخاصم بلسانه، ولا ينوي الخصومة بقلبه، ولا يُخطِرها علىٰ باله. هذا في حقِّ نفسه.

وأمّا في حقِّ ربِّه: فالفتوَّة أن يخاصم بالله وفي الله، ويحاكم إلىٰ الله، كما كان النبيُّ ﷺ يقول في دعاء الاستفتاح: «**وبكَ خاصمتُ، وإليك حاكمتُ**»[3]. وهذه

(١) (ص٤٧).

(٢) «المنازل» (ص٤٨).

(٣) أخرجه البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

درجة فتوَّة العلماء الدُّعاة إلىٰ الله تعالىٰ.

وأمَّا التغافل عن الزلَّة، فهو أنّه إذا رأىٰ من أحدٍ زلَّةً لم يوجب عليه الشّرع أخْذَه بها أظهر أنّه لم يرَها، لئلّا يُعرِّض صاحبَها للوحشة، ويُرِيحَه من تحمُّلِ العذر.

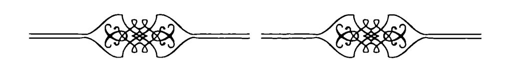
وفتوَّة التغافل أرفعُ من فتوَّة الكتمان مع الرُّؤية.

قال أبو عليٍّ الدّقّاق رحمه الله: جاءت امرأةٌ فسألتْ حاتمًا عن مسألةٍ، فاتّفق أنّه خرج منها صوتٌ في تلك الحالة، فخجلت. فقال حاتمٌ: ارفعي صوتك. فأوهمها أنّه أصمُّ، فسُرَّت المرأة بذلك وقالت: إنَّه لم يسمع الصّوت. فلقِّب بحاتمٍ الأصمِّ[1]. وهذا التغافل هو نصف الفتوَّة.

وأمَّا نسيان الأذيَّة فهو أنك تنسىٰ أذيَّةَ من نالك بأذىٰ، ليصفوَ قلبك له، ولا تستوحشَ منه.

قلت: وهنا نسيانٌ آخر أيضًا، وهو من الفتوَّة، وهو نسيان إحسانك إلىٰ من أحسنتَ إليه، حتَّىٰ كأنّه لم يصدُرْ منك. وهذا النِّسيان أكمل من الأوّل، وفيه قيل[2]:

ينسىٰ صنائعَه والله يُظهِرها ... إنّ الجميلَ إذا أخفيتَه ظَهرَا



(١) «الرسالة القشيرية» (ص١٣٦).
(٢) البيت لسهل بن هارون في «أدب الدنيا والدين» (ص٣٢٧).

فصل

الدرجة الثانية من الفتوة

قال[١]: (**الدّرجة الثّانية: أن تُقرِّبَ من يُقصِيك، وتُكرمَ من يؤذيك، وتعتذرَ إلىٰ من يَجني عليك، سماحةً لا كظمًا، ومُوادَّةً لا مصابرةً**).

هذه الدرجة أعلىٰ ممَّا قبلها وأصعب، فإنّ الأولىٰ تتضمّن ترْكَ المقابلة والتّغافل، وهذه تتضمّن الإحسانَ إلىٰ من أساء إليك، ومعاملتَه بضدِّ ما عاملك به. فيكون الإحسان والإساءة بينك وبينه خُطَّتينِ، فخُطَّتك: الإحسان، وخُطَّته: الإساءة. وفي مثلها قال القائل[٢]:

إذا مرِضْنا أتيناكم نعودكُمُ ... وتُذنِبون فنأتيكم ونَعتذرُ

ومن أراد فهْمَ هذه الدرجة كما ينبغي فلينظر إلىٰ سيرة النبيِّ ﷺ مع النّاس، يجدها هذه بعينها. ولم يكن كمال هذه الدرجة لأحدٍ سواه، ثمَّ للورثة منها بحسب سهامهم من التَّركة. وما رأيت أحدًا قطُّ أجمعَ لهذه الخصال من شيخ الإسلام ابن تيميّة قدّس الله روحه، وكان بعضُ أصحابه الأكابر يقول: ودِدتُ أنِّي لأصحابي مثلُه لأعدائه وخصومه.

وما رأيته يدعو علىٰ أحدٍ منهم قطُّ، وكان يدعو لهم.

وجئتُ يومًا مبشِّرًا له بموتِ أكبرِ أعدائه وأشدِّهم عداوةً وأذًىٰ له، فنهَرَني وتنكَّر لي واسترجع، ثمَّ قام من فورِه إلىٰ بيت أهله فعزَّاهم، وقال: أنا لكم مكانه، ولا يكون لكم أمرٌ تحتاجون فيه إلىٰ مساعدةٍ إلَّا وساعدتُكم فيه. ونحو هذا الكلام. فَسُرُّوا به، ودَعَوا له، وعظّموا هذه الحالَ منه. فرحمه الله ورضي عنه.

---

(١) «المنازل» (ص٤٨).
(٢) البيت للمؤمّل بن أميل في «التمثيل والمحاضرة» (ص٩٠).

وهذا مفهومٌ، إلّا الاعتذار إلىٰ من يجني عليك، فإنَّه غير مفهومٍ في بادي الرّأي، إذ لم يصدر منك جنايةٌ توجب اعتذارًا، وغايتك: أنّك لم تؤاخذه، فهل تعتذر إليه من ترك المؤاخذة؟

ومعنىٰ هذا: أنّك تُنزل نفسَك منزلةَ الجاني لا المَجْنيِّ عليه، والجاني خليقٌ بالعذر.

والذي يُشهِدك هذا المشهد: أن تعلم أنَّه إنّما سلِّط عليك بذنبٍ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾[الشورىٰ: ٣٠].

فإذا علمتَ أنّك بدأتَ بالجناية فانتقم الله منك علىٰ يده= كنت في الحقيقة أولىٰ بالاعتذار.

والّذي يُهوِّن عليك هذا كلَّه: مشاهدة تلك المشاهد العشرة المتقدِّمة[(١)]، فعليك بها، فإنَّ فيها كنوزَ المعرفة والبرِّ.

وقوله: **(سماحةً لا كظمًا، وتوادًّا لا مصابرةً)**.

يعني: اجعلْ هذه المعاملة منك صادرةً عن سماحٍ، وطِيبةِ نفسٍ، وانشراح صدرٍ، لا عن كظمٍ وضيقٍ ومصابرةٍ، فإنّ ذلك دليلٌ علىٰ أنّ هذا ليس في خلقك، وإنّما هو تكلُّفٌ يُوشِك أن يزول ويظهر حكم الخلق فتفتضح، وليس المقصود إلّا إصلاح الباطن والسِّرِّ والقلب.

وهذا الذي قاله الشّيخ لا يمكن إلّا بعد العُبور علىٰ جِسر المصابرة والكظم، فحينئذٍ إذا تمكّن فيه أفضىٰ به إلىٰ هذه المنزلة بعون الله.

---

(١) فيما يصيب العبد من أذىٰ الخلق، تقدمت في منزلة الخلق.

٣/ ١٠٤

فصل

منزلة المروءة

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾: **منزلة المروءة.**

المروءة فُعولةٌ من لفظ المرء، كالفتوَّة من الفتىٰ، والإنسانيَّة من الإنسان. ولهذا كانت حقيقتها: اتِّصاف النّفس بصفات الإنسان التي فارق بها الحيوانَ البهيم والشيطانَ الرجيم، فإنَّ في النّفس ثلاثة دواعٍ متجاذبةٍ:

داعٍ يدعوها إلىٰ الاتصاف بأخلاق الشَّيطان: من الكبر، والحسد، والعلوِّ، والبغي، والشّرِّ، والأذىٰ، والفساد، والغِشِّ.

وداعٍ يدعوها إلىٰ أخلاق الحيوان، وهو داعي الشَّهوة.

وداعٍ يدعوها إلىٰ أخلاق المَلَك: من الإحسان، والنُّصح، والبرِّ، والعلم، والطاعة.

فحقيقة المروءة: عِصيانُ ذينك الدَّاعيين، وإجابة هذا الداعي الثالث. وقلَّة المروءة وعدمُها: هو الاسترسال مع ذينك الداعيين، والتوجُّه لدعوتهما أين كانت.

فالإنسانيَّة والمروءة والفتوَّة: كلُّها في عصيان الدَّاعيينِ، وإجابة الدَّاعي الثالث. كما قال بعض السّلف[1]: خلق الله الملائكة عقولاً بلا شهوةٍ، وخلق البهائم شهوةً بلا عقولٍ، وخلق ابنَ آدم وركَّب فيه العقل والشّهوة. فمن غلب عقلُه شهوتَه التحقَ بالملائكة، ومن غلبت شهوتُه عقلَه التحق بالبهائم.

ولهذا قيل في حدِّ المروءة: إنّها غلبة العقل للشّهوة.

وقال الفقهاء في حدِّها: هي استعمال ما يُجمِّل العبدَ ويَزِينه، وترك ما يُدنِّسه ويَشِينه.

---

(١) عزاه المؤلف إلىٰ قتادة في «عدة الصابرين» (ص٣٧).

وقيل: المروءة استعمال كلِّ خُلقٍ حسنٍ، واجتناب كلِّ خُلقٍ قبيحٍ.

وحقيقة المروءة تجنُّب الدَّنايا والرذائل، من الأقوال والأخلاق والأعمال.

فمروءة الإنسان: حلاوته وطيبه ولينه، واجتناء الثِّمار منه بسهولةٍ ويُسرٍ.

ومروءة الخُلق: سعتُه وبسطُه وبذلُه للحبيب والبغيض.

ومروءة المال: الإصابة ببذله مواقعَه المحمودة عقلًا وعرفًا وشرعًا.

ومروءة الجاه: بذلُه للمحتاج إليه.

ومروءة الإحسان: تعجيله وتيسيره وتوفيره، وعدم رؤيته حالَ وقوعه، ونسيانه بعد وقوعه. فهذه مروءة البذل.

وأمّا مروءة الترك: فكترك الخصام والمعاتبة والمطالبة والمماراة، والإغضاءِ عن عيبِ ما تأخذه من حقِّك، وتركِ الاستقصاء في طلبه، والتغافلِ عن عَثَرات النّاس، وإشعارِهم أنَّك لا تعلم لأحدٍ منهم عثرةً، والتوقيرِ للكبير، وحفظِ حرمة النّظير، ورعايةِ أدب الصّغير.

وهي علىٰ ثلاث درجاتٍ:

الدرجة الأولىٰ: مروءة المرء مع نفسه، وهي أن يَحمِلَها سِرًّا علىٰ مراعاةِ ما يُجمِّل ويَزِين، وتَرْكِ ما يُدنِّس ويَشِين، ليصير لها ملكة في العلانية. فمن اعتادَ شيئًا في سرِّه وخلوته ملكه في علانيته وجهره، فلا يكشف عورتَه في الخلوة، ولا يتجشَّأ بصوتٍ مزعجٍ ما وجد إلىٰ خلافه سبيلًا، ولا يُخرِج الرِّيح بصوتٍ وهو يقدر علىٰ خلافه، ولا يَجْشَع ويَنْهَم عند أكله وحده.

وبالجملة، فلا يفعل خاليًا ما يستحيي من فعله في الملأ، إلَّا ما لا يَحْظُره الشرع والعقل، ولا يكون إلَّا في الخلوة، كالجماع والتّخلِّي ونحو ذلك.

الدّرجة الثّانية: المروءة مع الخَلْق، بأن يستعمل معهم شروطَ الأدب والحياء والخُلق الجميل، ولا يُظهِر لهم ما يكرهه هو من غيره، وليتَّخذ النّاسَ مرآةً لنفسه، فكلُّ ما كرِهه ونَفَر عنه من قولٍ أو فعلٍ أو خُلقٍ فلْيجتنبه، وما أحبَّه من ذلك واستحسنه فليفعله.

وصاحب هذه البصيرة ينتفع بكلِّ من خالطَه وصحِبَه من كاملٍ وناقصٍ، وسيِّئ الخلق وحسَنِه، وعديمِ المروءة وغزيرِها.

وكثيرٌ من النَّاس يتعلَّم المروءة ومكارم الأخلاق من الموصوفين بأضدادها. رُئي عند بعض الأكابر مملوكٌ سيِّئ الخلق فظٌّ غليظٌ لا يناسبه، فسُئل عن ذلك، فقال: أدرسُ عليه مكارمَ الأخلاق.

وهذا يكون بمعرفة مكارم الأخلاق من ضدِّ أخلاقه، ويكون بتمرين النفس علىٰ مصاحبته ومعاشرته والصّبرِ عليه.

الدّرجة الثّالثة: المروءة مع الحقِّ سبحانه، بالاستحياء من نظرِه إليك، واطِّلاعِه عليك في كلِّ لحظةٍ ونفسٍ، وبإصلاح عيوب نفسك جهدَ الإمكان، فإنَّه قد اشتراها منك، وأنت سَاعٍ في تسليم المبيع وتقاضي الثمن، وليس من المروءة: تسليمه علىٰ ما فيه من العيوب وتقاضي الثمنِ كاملًا، ورؤيتِك شهودَ منتِه في هذا الإصلاح، وأنَّه هو المتولِّي له لا أنت؛ فيُغْنِيك الحياءُ منه عن رسوم الطّبيعة، والاشتغالُ بإصلاح عيوب نفسك عن التفاتك إلىٰ عيب غيرك، وشهودُ الحقيقة عن رؤية فعلك وإصلاحك.

وكلُّ ما تقدَّم في منزلة الخُلق والفُتوَّة فإنّه بعينه في هذه المنزلة، فلذلك اقتصرنا منها علىٰ هذا القدر. وصاحب «المنازل» رحمه الله استغنىٰ عنها بما ذكره في الفتوَّة. والله أعلم.

٣/ ١٠٨

فصل

منزلة البسطة

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة البسطة، والتّخلّي عن القبض.**

وهي منزلةٌ شريفةٌ لطيفةٌ، وهي صِوانٌ على الحال، وداعيةٌ لمحبَّة الخلق.

وقد غلِطَ صاحب «المنازل» رحمه الله حيث صدَّرها بقوله تعالى حكايةً عن كليمه موسى عليه السّلام أنه قال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾[الأعراف: ١٥٥]. وكأنّه فهِمَ من هذا الخطاب: انبساطٌ بين موسى وبين الله تعالى حَمَلَه على أن قال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾.

وهذا خلاف المقصود، فالفتنة هاهنا: هي الامتحان والاختبار، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾[الأنعام: ٥٣]، وقوله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝١٦ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾[الجن: ١٦- ١٧].

والمعنى: أنَّ هذه الفتنة اختبارٌ منك لعبدك وامتحانٌ، تُضِلُّ بها من تشاء وتَهدي من تشاء. فأيُّ تعلُّقٍ لهذا بالانبساط؟ وهل هذا إلَّا توحيدٌ، وشهودٌ للحكمة، وسؤالٌ للعصمة والمغفرة؟ وليس للعارف في هذه المنزلة حظٌّ مع الله، وإنّما هي متعلِّقةٌ بالخلق.

قال[1]: **(الانبساط: إرسال السَّجِيَّة، والتَّحاشي من وحشة الحِشْمة).**

السّجيَّة: الطَّبع، وجمعُها سجايا، يقال: سجيَّةٌ وسليقةٌ وطبيعةٌ وغريزةٌ. وإرسالها: تركها ومجراها.

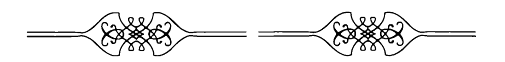
---

(١) «المنازل» (ص٤٩).

و(**التّحاشي من وحشة الحشمة**).

التّحاشي: هو تجنُّب الوحشة الواقعة بينك وبين من تحبُّه وتخدمه، فإنَّ مرتبته تقتضي احتشامَه، والحياءَ منه، وإجلالَه عن انبساطك إليه. وذلك نوع وحشةٍ، فالانبساط: إزالة تلك الوحشة، لا تُسقِطك من عينه، بل تزيدك حبًّا إليه، ولا سيَّما إذا وقع في موقعه.

قال[1]: (**وهو السَّير مع الجبلّة**)، أي المشي مع ما جَبلَ الله عليه العبد من الأخلاق من غير تكلُّفٍ.



(١) «المنازل» (ص٤٩).

٣/ ١١٦

فصل

منزلة العزم

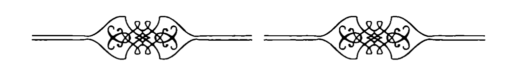
ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة العَزْم**، وقد ذكرنا في أوّل الكتاب أنّه نوعان:

أحدهما: عزم المريد على الدُّخول في الطريق، وهو بدايةٌ.

والثّاني: عزم السالك. وهو مقامٌ ذكره صاحب «المنازل» في وسط كتابه في قسم الأصول، فقال[1]: (**هو تحقيق القصد طوعًا أو كَرهًا**).

أمّا قوله: (**تحقيق القصد**) فهو أن يكون قصده محقّقًا، لا يَشُوبه شيءٌ من التّردُّد.

وأمَّا تقسيمه هذا التحقيق إلى طوعٍ وكَرهٍ فصحيحٌ، فإنَّ المختار: تحقيقُ قصدِه طوعًا، وأمَّا المُكْرَه: فتحقيقُ قصدِه كَرهًا، فإنَّه إذا أكره على فعلٍ، وعزم عليه: قد حقَّق قصده كرهًا لا طوعًا.



(١) (ص٥١).

٣/ ١٢٢

فصل

منزلة الإرادة

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة الإرادة**. قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾[الأنعام: ٥٢]. وقال: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۝ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾[الليل: ١٩ - ٢٠]. وقال: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب: ٢٩].

والطّلب والإرادة عند أرباب السُّلوك: هي التّجرُّد عن الإرادة، فلا تصحُّ عندهم الإرادة إلّا لمن لا إرادةَ له. ولا تظنَّ هذا تناقضًا، بل هو محض الحقِّ. واتِّفاقُ كلمة القوم عليه.

وقد تنوّعت عبارات القوم عنها. وغالبهم يخبر عنها بأنّها ترك العادة[1].

ومعنىٰ هذا: أنّ عادة النّاس غالبًا التعريجُ علىٰ أوطان الغفلة، وإجابةُ داعي الشهوة، والإخلاد إلىٰ أرض الطّبيعة. والمريد منسلخٌ عن ذلك. فصار خروجه عنه أمارةً ودلالةً علىٰ صحَّة الإرادة، فسمِّي انسلاخه وتركه إرادةً.

وقيل: نهوض القلب في طلب الحقِّ[2].

ويقال: لوعةٌ تُهوِّن كلَّ روعةٍ[3].

وقال الدَّقَّاق رحمه الله: الإرادة لَوعةٌ في الفؤاد، لَدْغةفي القلب، غرامٌ في الضمير، انزعاجٌ في الباطن، نيرانٌ تأَجَّجُ في القلوب[4].

---

(١) «الرسالة القشيرية» (ص٤٦٦).

(٢) «الرسالة القشيرية» (ص٤٦٦).

(٣) المصدر نفسه (ص٤٦٦).

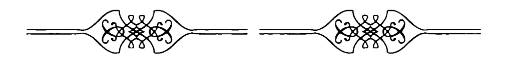
(٤) «الرسالة القشيرية» (ص٤٦٧).

وقيل: من صفات المريدين: التّحبُّب إلىٰ الله بالنوافل، والإخلاص في نصيحة الأمَّة، والأُنس بالخلوة، والصبر علىٰ مقاساة الأحكام، والإيثار لأمره، والحياء من نظره، وبذْل المجهود في محبوبه، والتعرُّض لكلِّ سببٍ يُوصِل إليه، والقناعة بالخمول، وعدم قرار القلب حتّىٰ يصل إلىٰ وليِّه ومعبوده[1].

قلت: إذا صدق المريد، وصحَّ عقدُ صدقِه مع الله، فتح الله علىٰ قلبه ببركة الصِّدق، وحسنِ المعاملة مع الله: ما يغنيه عن العلوم التي هي نتائج أفكار النّاس وآرائهم، وعن العلوم التي هي فضلةٌ ليست من زاد القبر، وعن كثيرٍ من إشارات الصُّوفيّة وعلومهم التي أفْنَوا فيها أعمارهم: من معرفة النّفس وآفاتها وعيوبها، ومعرفة مفسِدات الأعمال وأحكام السُّلوك، حتىٰ كان حال سلوكه وصدقه وصحّة طلبه: يُرِيه ذلك كلّه بالفعل.

وأيضًا فإنَّ المريد الصّادق يفتح الله علىٰ قلبه، ويُنوِّره بنورٍ من عنده، مضافٍ إلىٰ ما معه من نور العلم، يعرف به كثيرًا من أمر دينه، فيستغني به عن كثيرٍ من علم الناس. فإنَّ العلم نورٌ، وقلبُ الصَّادق ممتلئٌ بنور الصِّدق، ومعه نور الإيمان، والنُّور يهدي إلىٰ النُّور.

والمريد الصّادق هو الذي قرأ القرآن وحفظ السُّنَّة، والله يرزقه ببركة صدقه ونور قلبه فهمًا في كتابه وسنَّة رسوله يُغنيه عن تقليد فهمِ غيره.



(١) «الرسالة القشيرية» (ص٤٦٧، ٤٦٨).

فصل

كل عامل يعمل علىٰ شاكلة إرادته

قال صاحب «المنازل» رحمه الله[1]: (**باب الإرادة: قال الله تعالىٰ:** ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾[الإسراء: ٨٤]).

في تصديره الباب بهذه الآية دلالةٌ علىٰ عِظَم قدرِه، وجلالةِ محلِّه من هذا العلم، فإنَّ معنىٰ الآية: كلٌّ يعمل علىٰ ما يشاكله ويناسبه ويليق به. فالفاجر يعمل علىٰ ما يليق به، وكذلك الكافر والمنافق، ومريد الدُّنيا وجِيفَتِها عاملٌ علىٰ ما يناسبه، ولا يليق به سواه، ومحبُّ الصُّور عاملٌ علىٰ ما يناسبه ويليق به.

فكلُّ امرئٍ يَهْفُو إلىٰ من يُحِبُّه وكلُّ امرئٍ يَصْبو إلىٰ من يُناسِبُه[2]

فالمريد الصّادق المحبُّ لله يعمل ما هو اللّائق به والمناسب له، فهو يعمل علىٰ شاكلة إرادته، وما هو الأليقُ به والأنسبُ لها.

قال[3]: (**الإرادة من قوانين هذا العلم وجوامعِ أبنيتِه، وهي الإجابة لدواعي الحقيقة، طوعًا أو كَرْهًا**).

يريد: أنَّ هذا العلم مبنيٌّ علىٰ الإرادة، فهي أساسُه ومجمعُ بنائه، وهو مشتملٌ علىٰ تفاصيل أحكام الإرادة، وهي حركة القلب، ولهذا سمِّي علم الباطن. كما أنّ علم الفقه يشتمل علىٰ تفاصيل أحكام الجوارح، ولهذا سمَّوه علم الظّاهر. فهاتان حركتان اختياريَّتان. وللعبد حركةٌ طبيعيَّةٌ اضطراريَّةٌ، فالعلم المشتمل علىٰ تفاصيلها وأحكامها هو علم الطِّبِّ. فهذه العلوم الثّلاثة هي الكفيلة بمعرفة

---

(١) (ص٥٢).
(٢) البيت بلا نسبة في «بدائع الفوائد» (٢/ ٦٧٣).
(٣) «المنازل» (ص٥٢).

حركات النّفس والقلب، وحركات اللّسان والجوارح، وحركات الطّبيعة.

فالطّبيب ينظر في تلك الحركات من جهة تأثُّرِ البدن عنها صحَّةً واعتلالًا، وفي لوازم ذلك ومتعلّقاته.

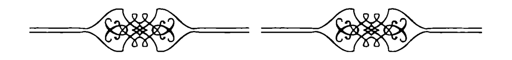
والفقيه ينظر في تلك الحركات من جهة موافقتها لأمر الشَّرع ونهيه، وإذنه وكراهته، ومتعلّقات ذلك.

والصُّوفيُّ ينظر في تلك الحركات من جهة كونها مُوصِلةً له إلىٰ مراده أو قاطعةً عنه، ومُفسِدةً لقلبه أو مصحِّحةً له.

وأمَّا قوله: **(وهي الإجابة لداعي الحقيقة)**، فالإجابة هي الانقياد والإذعان. والحقيقة عندهم: مشاهدة الرُّبوبيَّة. والشريعة: التزام العبوديَّة. فالشريعة أن تعبدَه، والحقيقة أن تشهدَه، فالشريعة قيامُك بأمره، والحقيقة شهودُك لوصفه، وداعي الحقيقة هو صحَّة المعرفة، فإنَّ من عرفَ الله أحبَّه ولا بدَّ.

ولا بدَّ في هذه الإجابة من ثلاثة أشياء: نفسٌ مستعدَّةٌ قابلةٌ لا تُعْوِز إلَّا الداعيَ، ودعوةٌ مُسمِعةٌ، وتخليةَ الطريق من المانع. فما انقطع من انقطع إلَّا من جهةٍ من هذه الجهات الثلاث.

وقوله: **(طوعًا أو كرهًا)**، يشير إلىٰ المجذوب المختطَف من نفسه، والسَّالك إرادةً واختيارًا ومجاهدةً.



٣/ ١٤٠

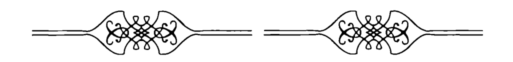
فصل

منزلة الأدب

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة الأدب**. قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]. قال ابن عبّاسٍ وغيره: علِّموهم وأدِّبوهم [١].

وهذه اللفظة مُؤذِنةٌ بالاجتماع، فالأدب اجتماع خصال الخير في العبد، ومنه المأدبة، وهو الطعام الذي يُجمع عليه النّاس.

وعلم الأدب: هو علم إصلاح اللِّسان والخطاب، وإصابة مواقعه، وتحسين ألفاظه، وصيانته عن الخطأ والخلل. وهو شعبةٌ من الأدب العامِّ.



(١) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٣٠٣)، عن علي بن أبي طالب، وعزاه السراج في «اللمع» (ص١٤١، ١٤٢)، والقشيري في «الرسالة» (ص٥٩٣) إلىٰ ابن عباس.

فصل

أنواع الأدب

والأدب ثلاثة أنواعٍ: أدبٌ مع الله، وأدبٌ مع رسوله وشرعه، وأدبٌ مع خَلْقه.

فالأدب مع الله ثلاثة أنواعٍ:

أحدها: صيانة معاملته أن يشوبها بنقيصةٍ.

الثّاني: صيانة قلبك أن يلتفت إلىٰ غيره.

الثّالث: صيانة إرادتك أن تتعلّق بما يَمْقُتك عليه.

قال أبو عليٍّ الدّقَّاق: العبدُ يصل بطاعة الله إلىٰ الجنَّة، ويصل بأدبه في طاعته إلىٰ الله[١].

وقال أبو علي: تركُ الأدب يُوجِب الطَّرد، فمن أساء الأدبَ علىٰ البِساط رُدَّ إلىٰ الباب، ومن أساء الأدبَ علىٰ الباب رُدَّ إلىٰ سياسة الدَّوابِّ[٢].

وقال يحيىٰ بن معاذ: من تأدَّبَ بأدبِ الله صار من أهل محبَّة الله[٣].

وقال ابنُ المبارك: نحن إلىٰ قليلٍ من الأدب أحوجُ منَّا إلىٰ كثيرٍ من العلم[٤].

وسئل الحسن البصريُّ ﷺ عن أنفع الآداب؟ فقال: التفقُّه في الدِّين، والزُّهد في الدُّنيا، والمعرفة بما لله عليك[٥].

وقال سهل: القوم استعانوا بالله علىٰ أمر الله، وصبروا لله علىٰ آداب الله[٦].

---

(١) «الرسالة القشيرية» (ص٥٩٤).
(٢) المصدر السابق (ص٥٩٥).
(٣) المصدر السابق (ص٥٩٥).
(٤) المصدر السابق (ص٥٩٦)، و«اللمع» (ص١٤٢).
(٥) المصدر السابق (ص٥٩٥)، و«اللمع» (ص١٤٢).
(٦) المصدر السابق (ص٥٩٦)، و«اللمع» (ص١٤٣).

وقال ابن المبارك: طلبنا الأدبَ حين فاتنا المؤدِّبون[١].

وقال: الأدب للعارف كالتّوبة للمستأنف[٢].

وقال أبو حفص لمَّا قال له الجنيد: لقد أدَّبتَ أصحابك أدبَ السلاطين فقال: حسنُ الأدب في الظاهر عنوان حسن الأدب في الباطن[٣].

فالأدب مع الله حسن الصُّحبة معه، بإيقاع الحركات الظاهرة والباطنة علىٰ مقتضىٰ التعظيم والإجلال والحياء، كحال مُجالِسي الملوك ومُصاحِبيهم.

وقال أبو نصرٍ السَّرَّاج[٤]: الناس في الأدب علىٰ ثلاث طبقاتٍ:

أمَّا أهل الدُّنيا: فأكثر آدابِهم في الفصاحة والبلاغة، وحفظ العلوم، وأَسْمارِ الملوك، وأشعارِ العرب.

وأمَّا أهل الدِّين: فأكثرُ آدابهم في رياضة النفوس، وتأديب الجوارح، وحفظ الحدود، وترك الشهوات.

وأما أهل الخصوصية: فأكثرُ آدابهم في طهارة القلوب، ومراعاة الأسرار، والوفاء بالعهود، وحفظ الوقت، وقلّةِ الالتفات إلىٰ الخواطر، وحسنِ الأدب في مواقفِ الطّلب وأوقاتِ الحضور ومقاماتِ القرب.

وقال سهل: من قهرَ نفسَه بالأدب فهو يعبد الله بالإخلاص[٥].

وقال ابن المبارك: قد أكثر النّاس القولَ في الأدب، ونحن نقول: إنّه معرفة النّفس[٦]. أراد: أن أصله معرفة النفس ورُعوناتِها، وتجنُّبُ تلك الرُّعونات.

---

(١) «الرسالة القشيرية» (ص٥٩٦)، و«حلية الأولياء» (٨/ ١٦٩).
(٢) المصدر السابق (ص٥٩٦)، و«اللمع» (ص١٤٢).
(٣) المصدر السابق (ص٥٩٦).
(٤) في «اللمع» (ص١٤٢، ١٤٣).
(٥) «الرسالة القشيرية» (ص٥٩٧).
(٦) المصدر السابق(ص٥٩٧).

وقال أبو عثمان: إذا صحَّت المحبَّة تأكَّدتْ علىٰ المحبِّ ملازمةُ الأدب[(١)].

وقال النُّوريُّ: من لم يتأدَّب للوقت فوقتُه مَقْتٌ[(٢)].

وقال ذو النُّون: إذا خرج المريد عن استعمال الأدب فإنَّه يرجع من حيث جاء[(٣)].

وتأمَّلْ أحوالَ الرُّسل مع الله، وخطابَهم وسؤالَهم، كيف تجدها كلَّها مشحونةً بالأدب قائمةً به.

قال المسيح: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾[المائدة: ١١٦]، ولم يقل: «لم أقله». وفرقٌ بين الجوابين في حقيقة الأدب. ثمَّ أحال الأمر علىٰ علمه بالحال وبسِرِّه فقال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾. ثمّ برَّأ نفسَه عن علمه بغيب ربِّه وما يختصُّ به، فقال: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾. ثمَّ أثنىٰ علىٰ ربِّه، ووصفه بتفرُّده بعلم الغيوب كلِّها، فقال: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾. ثمّ نفىٰ أن يكون قال لهم غير ما أمره به وهو محض التوحيد فقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾. ثمَّ أخبر عن شهادته عليهم مدَّةَ مُقامِه فيهم، وأنّه بعد وفاته لا اطِّلاعَ له عليهم، وأنّ الله ﷻ وحدَه المنفردُ بعد الوفاة بالاطِّلاع عليهم، فقال: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾. ثمّ وصفه بأنّ شهادته سبحانه فوق كلِّ شهادةٍ وأعمُّ، وأنه علىٰ كلِّ شهيدٌ، فقال: ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾. ثمّ قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾، وهذا من أبلغ الأدب مع الله في مثل هذا المقام، أي: شأنُ السيِّد رحمةُ عبيده والإحسانُ إليهم، وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيدًا لغيرك، فإذا عذَّبتَهم مع كونهم عبيدَك فلولا أنّهم عبيدُ سوءٍ من أخسِّ العبيد وأعتاهم علىٰ

(١) المصدر نفسه (ص٥٩٩).
(٢) المصدر نفسه (ص٥٩٩).
(٣) المصدر نفسه (ص٥٩٩).

سيِّدهم وأعصاهم له= لم تُعذِّبهم، لأنّ مرتبة العبوديَّة تستدعي إحسان السيِّد إلىٰ عبده ورحمته، فلماذا يُعذِّب أرحم الراحمين وأجودُ الأجودين وأعظم المحسنين إحسانًا عبيدَه؟ لولا فرطُ عُتوِّهم وإبائهم عن طاعته، وكمالُ استحقاقهم للعذاب.

وقد تقدَّم قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾. أي: هم عبادك، وأنت أعلم بسرِّهم وعلانيتهم، فإذا عذَّبتَهم عذّبتَهم علىٰ علمٍ منك بما تُعذِّبهم عليه، فهم عبادك وأنت أعلم بما جَنَوه واكتسبوه، فليس في هذا استعطافٌ لهم كما يظنُّه الجهَّال، ولا تفويضٌ إلىٰ محض المشيئة والملك المجرَّد عن الحكمة كما تظنُّه القدريّة. وإنّما هو إقرارٌ واعترافٌ وثناءٌ عليه بحكمته وعدله، وكمالِ علمه بحالهم، واستحقاقهم للعذاب.

ثمّ قال: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، ولم يقل: «الغفور الرّحيم». وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالىٰ، فإنّه في وقت غضب الرّبِّ عليهم، والأمرِ بهم إلىٰ النّار، فليس مقام استعطافٍ ولا شفاعةٍ، بل مقام براءةٍ منهم. فلو قال: «فإنّك أنت الغفور الرّحيم» لأشعرَ باستعطافه علىٰ أعدائه الذين قد اشتدّ غضبه عليهم، فالمقام مقام موافقةٍ للرّبِّ في غضبه علىٰ من غضِبَ الرّبُّ عليهم، فعدَلَ عن ذكر الصِّفتين اللّتين يسأل بهما عطْفَه ورحمتَه ومغفرتَه إلىٰ ذكرِ العزّة والحكمة المتضمِّنتين لكمال القدرة وكمال العلم.

والمعنىٰ: إن غفرتَ لهم فمغفرتك تكون عن كمال القدرة والعلم، ليست عن عجزٍ عن الانتقام منهم، ولا عن خفاءٍ عليك بمقدار جرائمهم، وهذا لأنّ العبد قد يغفر لغيره لعجزه عن الانتقام منه، ولجهله بمقدار إساءته إليه. والكمال هو مغفرة القادر العالم، وهو العزيز الحكيم. فكان ذكر هاتين الصِّفتين في هذا المقام عينَ الأدب في الخطاب.

وفي بعض الآثار: «حملة العرش أربعةٌ: اثنان يقولان: سبحانك اللهمّ ربّنا وبحمدك، لك الحمدُ علىٰ حِلمك بعد علمك. واثنان يقولان: سبحانك اللهمّ ربّنا وبحمدك، لك الحمد علىٰ عفوِك بعد قدرتك»[1]. ولهذا يقترن كلٌّ من هاتين الصِّفتين بالأخرىٰ، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾[النساء: ١٢]، وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾[النساء: ١٤٩].

وكذلك قول إبراهيم الخليل ﷺ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[الشعراء: ٧٨- ٨٠]، ولم يقل: «وإذا أمرضني» حفظًا للأدب مع الله.

وكذلك قول الخضر عليه السَّلام في السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾[الكهف: ٧٩]، ولم يقل: «فأراد ربُّك أن أعيبها». وقال في الغلامين: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾[الكهف: ٨٢].

وكذلك قول مؤمني الجنِّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾[الجن: ١٠]، ولم يقولوا: «أراده بهم». ثمَّ قالوا: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾.

وألطف من هذا قول موسىٰ عليه السّلام: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[القصص: ٢٤]، ولم يقل: «أطعِمْني».

وقول آدم: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[الأعراف: ٢٣]، ولم يقل: «ربِّ قدَّرتَ عليّ وقَضيتَ عليّ».

وقول أيُّوب عليه السّلام: ﴿مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[الأنبياء: ٨٣]، ولم يقل: «فعافِني واشْفِني».

---

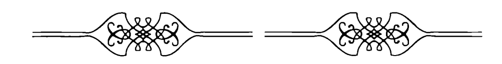
(١) هذا الأثر مروي بلفظ: «حملة العرش ثمانية، أربعة يقولون...». رواه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٧٤)، عن التابعي الجليل حسان بن عطية، وقال الذهبي: إسناده قوي، ووافقه الألباني في «مختصر العلو» (ص١٠١).

ومن هذا أَمْر النبيِّ ﷺ الرجلَ أن يستُرَ عورتَه وإن كان خاليًا لا يراه أحدٌ، أدبًا مع الله [1]، علىٰ حسب القرب منه، وتعظيمه وإجلاله، وشدَّة الحياء منه، ومعرفة وقاره.

وقال بعضهم: التزمِ الأدبَ ظاهرًا وباطنًا، فما أساء أحدٌ الأدبَ في ظاهرٍ إلّا عُوقِب ظاهرًا، وما أساء أحدٌ الأدبَ باطنًا إلّا عُوقِب باطنًا [2].

وقال عبد الله بن المبارك: من تهاونَ بالأدب عُوقب بحرمان السُّنن، ومن تهاونَ بالسُّنن عُوقب بحرمان الفرائض، ومن تهاونَ بالفرائض عُوقب بحرمان المعرفة [3].

وقيل: الأدب في العمل علامة قبول العمل.



(١) أخرجه أحمد (٢٠٠٣٤، ٢٠٠٤٠)، وأبو داود (٤٠١٧)، والترمذي (٢٧٩٤)، وابن ماجه (١٩٢٠)، وإسناده حسن.
(٢) نسبه السلمي في «ذكر النسوة المتعبدات» (ص٨٥) إلىٰ عائشة بنت أبي عثمان الحيري.
(٣) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣٠١٧).

فصل

كمال الأدب أن لا يلتفت الناظر عن يمينه وشماله

وجرت عادةُ القوم أن يذكروا في هذا المقام قوله تعالىٰ عن نبيِّه ﷺ حين أراه ما أراه: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾[النجم: ١٧]. وأبو القاسم القشيريُّ رحمه الله صدَّر بابَ الأدب بهذه الآية[١]، وكذلك غيره.

وكأنّهم نظروا إلىٰ قول من قال من أهل التّفسير[٢]: إنّ هذا وصفٌ لأدبه ﷺ في ذلك المقام، إذ لم يلتفت جانبًا، ولا تجاوز ما رآه، وهذا كمال الأدب. والإخلالُ به: أن يلتفت الناظر عن يمينه وعن شماله، أو يتطلَّع إلىٰ ما أمامَ المنظور، فالالتفات زَيْغٌ، والتطلُّع إلىٰ ما أمامَ المنظور طغيانٌ ومجاوزةٌ. فكمال الأدب إقبالُ الناظر علىٰ المنظور، لا يَصرِف بصرَه عنه يَمْنةً ولا يَسْرةً، ولا يتجاوزه.

هذا معنىٰ ما حصَّلتُه عن شيخ الإسلام ابن تيميَّة قدَّس الله روحه.

وفي هذه الآية أسرارٌ عجيبةٌ، وهي من غوامض الآداب اللَّائقة بأكمل البشر صلوات الله وسلامه عليه: تواطأ هناك بصرُه وبصيرتُه وتوافقا وتصادقا، فما شاهده بصرُه فالبصيرة مُواطئةٌ له، وما شاهدتْه بصيرتُه فهو أيضًا حقٌّ مشهودٌ بالبصر، فتواطأ في حقِّه مشهدُ البصر والبصيرة.

ولهذا قال سبحانه: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ [النجم: ١١ - ١٢]. أي: ما كذب الفؤاد ما رآه ببصره.

وللقلب زَيغٌ وطغيانٌ، كما للبصر زيغٌ وطغيان، وكلاهما منتفٍ عن قلبه وبصره. فلم يَزِغْ قلبه التفاتًا عن الله إلىٰ غيره، ولم يَطْغَ بمجاوزته مقامَه الذي

---

(١) «الرسالة القشيرية» (ص٥٩٣).

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٣، ٤٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٩٧، ٩٨).

أقيم فيه.

وهذا غاية الكمال والأدب مع الله الذي لا يلحقه فيه سواه، فإنَّ عادة النُّفوس إذا أُقيمت في مقامٍ عالٍ رفيعٍ: أن تتطلّع إلىٰ ما هو أعلىٰ منه وفوقه. ألا ترىٰ أنَّ موسىٰ ﷺ لمَّا أُقيم في مقامِ التكلُّم والمناجاة طلبتْ نفسُه الرُّؤية؟ ونبيُّنا ﷺ لمَّا أقيم في ذلك المقام وفَّاه حقَّه، ولم يلتفت بصرُه ولا قلبه إلىٰ غير ما أُقيم فيه البتَّةَ.

ولأجل هذا ما عاقه عائقٌ، ولا وقفَ به مرادٌ، حتَّىٰ جاوز السَّماوات السّبع حتَّىٰ عاتب موسىٰ ربَّ العزَّة، وقال: «تقول بنو إسرائيل: إنِّي أكرمُ الخلق علىٰ الله...»[(١)]، فلم تَعُقْه إرادةٌ، ولم يقِفْ به دونَ كمال العبوديَّة همّةٌ.

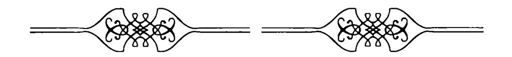
ولهذا كان مركوبه في مَسْراه يسبق خَطْوُه الطَّرْفَ، فيضع قدمَه عند منتهىٰ طَرْفه، مشاكلًا لحالِ راكبه، وبُعْدِ شَأْوِه الذي سبقَ به العالمَ أجمعَ في سيره، فكان قَدمُ البُراقِ لا تتخلَّف عن موضع نظره، كما كان قَدمُه ﷺ لا يتأخَّر عن محلِّ معرفته.

فلم يزل ﷺ في خَفَارةِ كمال أدبه مع الله سبحانه، وتكميل مرتبة عبوديّته له، حتَّىٰ خرقَ حُجُبَ السماوات، وجاوز السَّبْع الطِّباق، وجاوز سدرة المنتهىٰ، ووصل إلىٰ محلٍّ من القرب سبقَ به الأوَّلين والآخرين. فانصبَّتْ إليه هناك أقسامُ القرب انصبابًا، وانقشعَتْ عنه سحائب الحُجب ظاهرًا وباطنًا حجابًا حجابًا، وأُقيمَ مقامًا غَبَطَه به الأنبياء والمرسلون. فإذا كان في المعاد أُقيم مقامًا من القرب ثانيًا يَغْبِطه به الأوَّلون والآخرون، واستقام هناك علىٰ صراطٍ مستقيمٍ من كمال أدبه مع الله، ما زاغَ البصر عنه وما طغىٰ. فأقامه في هذا العالم علىٰ أقومِ صراطٍ من الحقِّ والهدىٰ، وأقسمَ بكلامه علىٰ ذلك في الذِّكر الحكيم، فقال: ﴿يسٓ ①

---

(١) قطعة من حديث طويل يرويه أبو هارون العبدي وهو متروك عن أبي سعيد الخدري، أخرجه الطبري في «التفسير» (١٤/ ٤٣٦- ٤٤١).

وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[يس: ١ - ٤]. فإذا كان يوم المعاد أقامه علىٰ الصِّراط يسأله السّلامةَ لأتباعه وأهل سنَّته، حتَّىٰ يَجُوزوه إلىٰ جنّات النّعيم. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.



فصل

الأدب هو الدين كله

والأدب هو الدِّين كلُّه، فإنَّ ستر العورة من الأدب، والوضوء وغسل الجنابة والتطهُّر من الخبث من الأدب، حتَّىٰ يقف بين يدي الله طاهرًا. ولهذا كانوا يستحبُّون أن يتجمَّل الرجل في صلاته للوقوف بين يدي ربِّه.

وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله يقول: أمرَ الله بقدرٍ زائدٍ علىٰ ستر العورة في الصّلاة، وهو أخذ الزِّينة، فقال: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[الأعراف: ٣١]. فعلَّق الأمر باسم الزِّينة لا بستر العورة، إيذانًا بأنَّ العبد ينبغي له أن يلبسَ أزينَ ثيابه وأجملَها في الصلاة.

وكان لبعض السَّلف حُلَّةٌ بمبلغٍ عظيمٍ من المال، وكان يلبسها وقتَ الصّلاة ويقول: ربِّي أحقُّ مَن تَجمَّلتُ له في صلاتي[١].

ومعلومٌ أنّ الله يُحِبُّ أن يرىٰ أثرَ نعمته علىٰ عبده، ولاسيَّما إذا وقفَ بين يديه، فأحسن ما وقف بين يديه بملابسه ونعمته التي ألبسه إيّاها ظاهرًا وباطنًا.

ومن الأدب: نهيُ النبيِّ ﷺ المصلِّي أن يرفع بَصَرَه إلىٰ السَّماء[٢].

فسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيميّة قدَّس الله روحه يقول: هذا من كمال أدب الصلاة: أن يقف العبد بين يدي ربِّه مُطرِقًا، خافضًا طرْفَه إلىٰ الأرض، ولا يرفع بصرَه إلىٰ فوق.

---

(١) صحَّ عن تميم الداري رضي الله عنه أنه اشترىٰ حلَّةً بألفٍ كان يقوم فيها الليل، أخرجه الدِّينوَري في «المجالسة» (٧٦١).

(٢) كما في حديث أنس بن مالك الذي أخرجه البخاري (٧٥٠)، وحديث جابر بن سمرة عند مسلم (٤٢٨)، وحديث أبي هريرة عنده (٤٢٩).

وسمعته يقول في نهيه ﷺ عن قراءة القرآن في الرُّكوع والسُّجود[(١)]: إنَّ القرآن أشرف الكلام، وهو كلام الله، وحالتا الرُّكوع والسُّجود حالتا ذُلٍّ وانخفاضٍ من العبد، فمن الأدب مع كلام الله: أن لا يقرأ في هاتين الحالتين، ويكون حال القيام والانتصاب أولىٰ به.

ومن الأدب مع الله: أن لا يستقبل بيته ولا يستدبره عند قضاء حاجته، كما ثبت عن النبيِّ ﷺ في حديث أبي أيُّوب وسلمان وأبي هريرة[(٢)] وغيرهم. والصحيح: أنَّ هذا الأدب يعمُّ الفضاءَ والبنيان. كما ذكرناه في غير هذا الموضع[(٣)].

ومن الأدب مع الله في الوقوف بين يديه في الصلاة: وضعُ اليمنىٰ علىٰ اليسرىٰ حالَ قيام القراءة، ففي «الموطَّأ»[(٤)] لمالكٍ عن سهل بن سعدٍ أنَّه من السُّنَّة وكان النَّاس يُؤمرون به. ولا ريبَ أنَّه من آداب الوقوف بين يدي الملوك والعظماء، فعظيمُ العظماء أحقُّ به.

ومنها: السُّكون في الصلاة، وهو الدَّوام الذي قال الله فيه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾[المعارج: ٢٣].

وأدبه في استماع القراءة: أن يُلقِي السّمعَ وهو شهيدٌ.

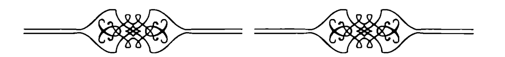
وأدبه في الرُّكوع: أن يستوي ويُعظِّم الله حتَّىٰ لا يكون في قلبه شيءٌ أعظمَ منه، ويتضاءلَ ويتصاغرَ في نفسه حتَّىٰ يكون أقلَّ من الهَباء.

والمقصود: أنَّ الأدب مع الله هو القيام بدينه، والتَّأدُّب بآدابه ظاهرًا وباطنًا.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٧٩، ٤٨٠)، من حديث ابن عباس وعلي بن أبي طالب ﵃.
(٢) حديث أبي أيوب أخرجه البخاري (١٤٤، ٣٩٤)، ومسلم (٢٦٤)، وحديث سلمان أخرجه مسلم (٢٦٢)، وحديث أبي هريرة أخرجه مسلم (٢٦٥).
(٣) انظر: «أعلام الموقعين» (٣/ ٧٥)، و«تهذيب السنن» (١/ ١٠)، و«زاد المعاد» (٢/ ٤٥٨).
(٤) برقم (٤٣٧)، وهو من طريق مالك عند البخاري (٧٤٠).

ولا يستقيم لأحدٍ قطُّ الأدبُ مع الله إلَّا بثلاثة أشياء: معرفةٌ به وبأسمائه وصفاته، ومعرفةٌ بدينه وشرعِه وما يُحبُّ وما يكره، ونفسٌ مستعدّةٌ قابلةٌ ليِّنةٌ، متهيِّئةٌ لقبول الحقِّ علمًا وعملًا وحالًا. والله المستعان.



فصل

الأدب مع الرسول ﷺ

وأمَّا الأدب مع رسول الله ﷺ: فالقرآن مملوءٌ به.

فرأس الأدب معه: كمالُ التسليم له، والانقياد لأمره، وتلقِّي خبره بالقبول والتصديق، دون أن يُحمِّلَه معارضةَ خيالٍ باطلٍ يسمِّيه معقولًا، أو يُحمِّله شبهةً أو شكًّا، أو يُقدِّم عليه آراء الرِّجال وزُبالاتِ أذهانهم. فيوحِّده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان، كما وحَّد المرسِلَ بالعبادة والخضوع والذُّلِّ والإنابة والتّوكُّل.

فهما توحيدان لا نجاةَ للعبد من عذاب الله إلَّا بهما: توحيد المرسِل، وتوحيد متابعة الرسول.

ومن الأدب مع الرسول ﷺ: أن لا يتقدَّم بين يديه بأمرٍ ولا نهيٍ ولا إذنٍ ولا تصرُّفٍ، حتَّىٰ يأمر هو وينهىٰ ويأذن، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[الحجرات: ١]. وهذا باقٍ إلىٰ يوم القيامة لم يُنسَخ، فالتّقدُّم بين يَدَيْ سنَّته بعد وفاته كالتّقدُّم بين يديه في حياته، لا فرقَ بينهما عند ذي عقلٍ سليمٍ.

قال مجاهدٌ رضي الله عنه: لا تَفْتاتُوا علىٰ رسول الله ﷺ بشيءٍ حتىٰ يَقضيه الله علىٰ لسانه[1].

ومن الأدب معه: أن لا تُرفَع الأصوات فوقَ صوته، فإنَّه سببٌ لحبوط الأعمال. فما الظّنُّ برفع الآراء ونتائج الأفكار علىٰ سنَّته وما جاء به؟ أترىٰ ذلك موجبًا لقبول الأعمال، ورفع الصَّوت فوق صوته موجبًا لحبوطها؟

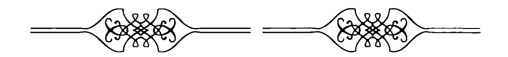
---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣٣٦).

ومن الأدب معه: أن لا يُجعَل دعاؤه كدعاء غيره. قال تعالىٰ: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾[النور: ٦٣].

ومن الأدب معه: أنَّهم إذا كانوا معه علىٰ أمرٍ جامعٍ من خطبةٍ أو جهادٍ أو رِباطٍ لم يذهب أحدٌ مذهبًا في حاجةٍ له حتَّىٰ يستأذنه، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾[النور: ٦٢]. فإذا كان هذا مذهبًا مقيَّدًا لحاجةٍ عارضةٍ لم يُوسَّع لهم فيه إلَّا بإذنه، فكيف بمذهبٍ مطلقٍ في تفاصيل الدِّين: أصوله وفروعه، دقيقه وجليله؟ هل يُشرَع الذّهاب إليه بدون استئذانه؟ ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[النحل: ٤٣].

ومن الأدب معه: أن لا يُستَشْكَل قولُه، بل تُستَشْكَل الآراءُ لقوله، ولا يُعارَض نصُّه بقياسٍ، بل تُهْدَر الأقيسةُ وتُلْغَىٰ لنصوصه، ولا يُحرَّف كلامُه عن حقيقته لخيالٍ يُسمِّيه أصحابه معقولًا، نعم هو مجهولٌ، وعن الصواب معزولٌ، ولا يُوقَف قبولُ ما جاء به ﷺ علىٰ موافقة أحدٍ، فكلُّ هذا من قلّةِ الأدب معه، وهو عينُ الجرأة.



فصل

الأدب مع الخلق

وأمّا الأدب مع الخلق: فهو معاملتهم علىٰ اختلاف مراتبهم بما يليقُ بهم، فلكلِّ مرتبةٍ أدبٌ، وللمراتب فيها أدبٌ خاصٌّ. فمع الوالدين: أدبٌ خاصٌّ، وللأب منهما: أدبٌ هو أخصُّ به، ومع العالم: أدبٌ آخر، ومع السُّلطان: أدبٌ يليق به. وله مع الأقران أدبٌ يليق بهم، ومع الأجانب: أدبٌ غير أدبه مع أصحابه وذوي أُنْسِه، ومع الضَّيف: أدبٌ غير أدبه مع أهل بيته.

ولكلِّ حالٍ أدبٌ: فللأكل آدابٌ، وللشُّرب آدابٌ، وللرُّكوب وللدُّخول وللخروج وللسّفر وللإقامة وللنّوم آدابٌ، وللبول آدابٌ، وللكلام آدابٌ، وللسُّكوت والاستماع آدابٌ.

وأدبُ المرء: عنوانُ سعادته وفلاحه، وقلَّةُ أدبِه: عنوانُ شقاوته وبَوارِه.

فما استُجْلِب خيرُ الدُّنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا استُجْلِب حرمانُهما بمثل قلَّة الأدب.

فانظر إلىٰ الأدب مع الوالدين كيف نَجَّىٰ صاحبَه من حَبْس الغار حين أطبقَتْ عليهم الصّخرة؟[1] والإخلالُ به مع الأمِّ تأويلاً وإقبالاً علىٰ الصّلاة كيف امتحنَ صاحبَه بهدْمِ صَومعتِه، وضَرْبِ النّاس له، ورَمْيِه بالفاحشة؟[2].

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيميّة يقول: حدُّ الخوف ما حَجَزَك عن معاصي الله، فما زاد علىٰ ذلك فهو غير محتاجٍ إليه.

---

(١) كما في قصة أصحاب الغار الثلاثة عند البخاري (٢٢١٥، ٢٢٧٢)، ومسلم (٢٧٤٣)، من حديث ابن عمر ﵄.

(٢) كما في قصة جريج الراهب التي أخرجها البخاري (٣٤٣٦)، ومسلم (٢٥٥٠)، من حديث أبي هريرة ﵁.

٣/ ١٧٠

فصل

منزلة اليقين

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة اليقين**. وهو من الإيمان بمنزلة الرُّوح من الجسد، وفيه تفاضل العارفون، وفيه تنافسَ المتنافسون، وإليه شَمَّر العاملون، وعملُ القوم إنَّما كان عليه، وإشارتهم كلُّها إليه. وإذا تزوَّج الصّبرُ باليقين وُلِد بينهما حصولُ الإمامة في الدِّين. قال تعالىٰ وبقوله يهتدي المؤمنون: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

وخصَّ سبحانه أهلَ اليقين بانتفاعهم بالآيات والبراهين، فقال وهو أصدق القائلين: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾[الذاريات: ٢٠].

وخصّ أهلَ اليقين بالهدىٰ والفلاح من بين العالمين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٤ - ٥].

وأخبر عن أهل النّار بأنّهم لم يكونوا من أهل اليقين، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾[الجاثية: ٣٢].

فاليقين روح أعمال القلوب التي هي أرواح أعمال الجوارح، وهو حقيقة الصِّدِّيقيّة، وهو قطبُ رَحا هذا الشّأن الذي عليه مداره.

وروىٰ خالد بن يزيد عن السُّفيانين عن التَّيميِّ[1] عن خَيثمة عن عبد الله عن النبيِّ ﷺ قال: «**لا تُرضِينَّ أحدًا بسَخَطِ الله، ولا تَحْمدنَّ أحدًا علىٰ فضل الله، ولا**

(١) كذا. والصواب أنه «سليمان الأعمش» كما في مصادر التخريج.

تَذُمَّنَّ أحدًا علىٰ ما لم يُؤتِك الله. فإنّ رِزْقَ الله لا يَسُوقه حِرصُ حريصٍ، ولا يَرُدُّه عنك كراهيةُ كارهٍ، وإنَّ الله بعدله وقسطِه جعلَ الرُّوحَ والفرحَ في الرِّضا واليقين، وجعل الهمَّ والحزنَ في الشّكِّ والسّخط»[1].

واليقين قرين التوكُّل، ولهذا فُسِّر التوكُّل بقوَّة اليقين.

والصواب: أنَّ التوكُّل ثمرته ونتيجته، ولهذا حَسُن اقتران الهدىٰ به.

قال تعالىٰ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾[النمل: ٧٩]. فالحقُّ هو اليقين. وقالت رسل الله: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢].

ومتىٰ وصل اليقين إلىٰ القلب امتلأ به نورًا وإشراقًا، وانتفىٰ عنه كلُّ ريبٍ وشكٍّ وسخطٍ وهمٍّ وغمٍّ. فامتلأ محبّةً لله، وخوفًا منه، ورضًا به، وشكرًا له، وتوكُّلًا عليه، وإنابةً إليه. فهو مادَّةُ جميع المقامات والحامل لها.

واختلف فيه: هل هو كسبيٌّ أو موهبيٌّ؟

فقيل: هو العلم المستودَعُ في القلوب. يشير إلىٰ أنّه غير كسبيٍّ[2].

وقال سهل: اليقين من زيادة الإيمان[3]. ولا ريبَ أنَّ الإيمان كسبيٌّ.

والتّحقيق: أنّه كسبيٌّ باعتبار أسبابه، موهبيٌّ باعتبار نفسه وذاته.

وقال ذو النُّون: اليقين يدعو إلىٰ قِصَر الأمل، وقِصَرُ الأمل يدعو إلىٰ الزُّهد، والزُّهد يُورِث الحكمة، وهي تُورِث النظر في العواقب[4].

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠/ ٢١٥)، وخالد بن يزيد متهم بالوضع. وأخرجه البيهقي في «الشعب» (٢٠٥) موقوفًا علىٰ ابن مسعود، وهو أشبه.

(٢) «الرسالة القشيرية» (ص٤٣٢).

(٣) المصدر نفسه (ص٤٣٢).

(٤) «الرسالة القشيرية» (ص٤٣٣)، و«تهذيب الأسرار» للخركوشي (ص١٤١).

وقال الجنيد: اليقين هو استقرار العلم الذي لا ينقلب ولا يُحوَّل ولا يتغيَّر في القلب[(١)].

وقال ابن عطاء: علىٰ قَدْرِ قُربهم من التقوىٰ أدركوا من اليقين. وأصل التقوىٰ مباينة النهي، وهو مباينة النفس، فعلىٰ قدر مفارقتهم النفس وصلوا إلىٰ اليقين[(٢)].

وقيل: اليقين هو المكاشفة. وهي علىٰ ثلاثة أوجهٍ: مكاشفةٌ في الأخبار، ومكاشفةٌ بإظهار القدرة، ومكاشفة القلوب بحقائق الإيمان[(٣)].

ومراد القوم بالمكاشفة: ظهور الشيء للقلب بحيث تصير نسبتُه إليه كنسبة المرئيِّ إلىٰ العين، فلا يبقىٰ معك شكٌّ ولا ريبٌ أصلًا. وهذا نهاية الإيمان، وهو مقام الإحسان.

وقال النَّهرَجُوري: إذا استكمل العبد حقائقَ اليقين صار البلاء عنده نعمةً، والرخاء مصيبةً[(٤)].

وقال أبو بكرٍ الورَّاق: اليقين علىٰ ثلاثة أوجهٍ: يقين خبرٍ، ويقين دلالةٍ، ويقين مشاهدةٍ[(٥)].

يريد بيقين الخبر: سكونَ القلب إلىٰ خبر المخبر ووثوقَه به، وبيقين الدلالة: ما هو فوقه، وهو أن يُقِيم له مع وثوقه بصدقه الأدلَّة الدالَّة علىٰ ما أخبر به. وهذا كعامَّة أخبار الإيمان والتوحيد في القرآن، فإنّه سبحانه مع كونه أصدق الصّادقين يقيم لعباده الأدلّة والأمثال والبراهين علىٰ صدق أخباره، فيحصل لهم

---

(١) «الرسالة القشيرية» (ص٤٣٤)، و«طبقات الشافعية» للسبكي (٢/ ٢٦٤).
(٢) «الرسالة القشيرية» (ص٤٣٤)، وهو لسهل بن عبد الله في «حلية الأولياء» (١٠/ ١٩٩).
(٣) المصدر نفسه (ص٤٣٤).
(٤) «الرسالة القشيرية» (ص٤٣٦).
(٥) المصدر نفسه (ص٤٣٦).

اليقين من الوجهين: من جهة الخبر، ومن جهة الدليل. فيرتفعون من ذلك إلىٰ الدرجة الثالثة، وهي يقين المكاشفة، بحيث يصير المُخبَر به لقلوبهم كالمرئيِّ لعيونهم، فنسبة الإيمان بالغيب حينئذٍ إلىٰ القلب كنسبة المرئيِّ إلىٰ العين. وهذا أعلىٰ أنواع المكاشفة، وهي التي أشار إليها عامرُ بن عبد قيسٍ في قوله: لو كُشِف الغطاء ما ازددتُ يقينًا[1]. وليس هذا من كلام رسول الله ﷺ ولا من قول عليٍّ، كما يظنُّه من لا علمَ له بالمنقولات[2].

وقال بعضهم: رأيت الجنَّة والنَّار حقيقةً. قيل له: كيف؟ قال: رأيتهما بعيني رسول الله ﷺ. ورؤيتي لهما بعينيه أوثقُ عندي من رؤيتي لهما بعيني، فإنّ بصري قد يُخطئ ويَزِيغ، بخلاف بصره ﷺ.

واليقين يحمل علىٰ الأهوال وركوب الأخطار، وهو يأمر بالتّقدُّم دائمًا، فإن لم يقارِنْه العلم حمل علىٰ المعاطب.

والعلم يأمر بالتّأخُّر والإحجام، فإن لم يصحبه اليقين قعدَ بصاحبه عن المكاسب والغنائم.

وتأمَّلْ حالَ ذلك الصّحابيِّ الذي أخذ تمراتِه، وقعد يأكلها علىٰ حاجةٍ وجوعٍ وفاقةٍ إليها، فلمَّا عاينَ سُوقَ الشهادة قد قامت ألقىٰ قُوتَه من يده، وقال: إنَّها لحياةٌ طويلةٌ، إن بقيتُ حتَّىٰ آكلَ هذه التمرات! وألقاها من يده، وقاتل حتّىٰ قُتِل[3].

---

(١) المصدر نفسه (ص٤٣٢).

(٢) نُسِب هذا إلىٰ علي في «الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة» (ص١٤٩).

(٣) أخرجه مسلم (١٩٠١)، من حديث أنس بن مالك ﷺ. والصحابي هو عمير بن الحمام الذي استشهد في بدر، فكان أول قتيل قُتل في سبيل الله في الحرب.

فصل

٣/ ١٨٤

منزلة الأنس بالله

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة الأنس بالله**.

قال صاحب «المنازل»[1]: (وهو روحُ القُرب). ولهذا صدَّر منزلته بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فاستحضارُ القلب هذا البرَّ واللُّطف والإحسانَ يُوجِب قربَه من الرّبِّ تعالىٰ، وقربُه منه يوجب له الأنسَ، والأنسُ ثمرة الطّاعة والمحبّة. فكلُّ مطيعٍ مستأنسٌ، وكلُّ عاصٍ مستوحشٌ، كما قيل[2]:

فإن كنتَ قد أوحشَتْك الذُّنوب ... فدَعْها إذا شئتَ واستأنسِ

والقرب يوجب الأنس والهيبة والمحبّة.

وهو الحامل له علىٰ استحلاء الذِّكر، طلبًا لظَفَره بحصول المذكور، فهو يستأنس بالذِّكر طلبًا لاستئناسه بالمذكور، ويتغذَّىٰ بالسماع كما يتغذَّىٰ الجسم بالطّعام والشّراب.

فإن كان محبًّا صادقًا، طالبًا لله، عاملًا علىٰ مرضاته= كان غذاؤه بالسّماع القرآنيِّ، الذي كان غذاءَ سادات العارفين من هذه الأمّة، وأبرِّها قلوبًا، وأصحِّها أحوالًا، وهم الصّحابة رضي الله عنهم.

وهذا السّماع القرآنيُّ سماع أهل المعرفة بالله والاستقامة، ويحصل للأذهان الصّافية منه معانٍ وإشاراتٌ ومعارفُ وعلومٌ، تتغذّىٰ بها القلوب المشرقة بنور

---

(١) (ص٥٤).

(٢) أنشده المؤلف في «الداء والدواء» (ص١٣٣، ١٨٣).

الأنس، فتجد بها لذَّةً روحانيَّةً يصل نعيمها إلىٰ القلوب والأرواح، وربّما فاض حتّىٰ وصل إلىٰ الأجسام، فيجد من اللّذّة ما لم يعهد مثله من اللّذّات الحسِّيّة.

وللتّغذّي بالسماع سرٌّ لطيفٌ، نذكره للُطفِ موقعه. وهو الذي أوقع كثيرًا من السالكين في إيثار سماع الأبيات، لِما رأىٰ فيه من غذاء القلب وقوته ونعيمه، فلو جئتَه بألف آيةٍ وألف خبرٍ لما أعارك شطرًا من إصغائه، وكان ذلك عنده أعظمَ من الظّواهر التي يعارضُ بها الفلاسفة وأرباب الكلام.

اعلم أنّ الله جعل للقلوب نوعين من الغذاء:

نوعًا من الطّعام والشّراب الحسِّيّ، وللقلب منه خلاصتُه وصَفْوه، ولكلِّ عضوٍ منه بحسب استعداده وقبوله.

والثّاني: غذاءٌ روحانيٌّ معنويٌّ، خارجٌ عن الطّعام والشّراب: من السُّرور والفرح، والابتهاج واللّذّة، والعلوم والمعارف. وبهذا الغذاء كان سماويًّا عُلْويًّا، وبالغذاء المشترك كان أرضيًّا، وقِوامُه بهذين الغذاءين.

وله ارتباطٌ بكلِّ واحدةٍ من الحواسِّ الخمس، وغذاءٌ يصل إليه منها. فله ارتباطٌ بحاسَّة اللّمس، ويصل إليه منها غذاءٌ. وكذلك بحاسَّة الشّمِّ. وكذلك حاسَّة الذّوق. وكذلك ارتباطُه بحاسَّتَي السّمع والبصر أشدُّ من ارتباطه بغيرهما، ووصول الغذاء منهما إليه أكملُ وأقوىٰ من سائر الحواسِّ، وانفعالُه عنهما أشدُّ من انفعاله عن غيرهما.

فهذه الحواسُّ الخمس لها أشباحٌ وأرواحٌ، وأرواحها حظُّ القلب ونصيبُه منها. فمن ليس لقلبه منها نصيبٌ إلّا كنصيب الحيوانات البهيميَّة منها فهو بمنزلتها، وبينه وبينها أَوَّلُ درجة الإنسانيَّة. ولهذا شبَّه الله أولئك بالأنعام، بل جعلهم أضلَّ، فقال: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا

كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[الفرقان: ٤٤].

فإنَّهم كانوا يسمعون القرآن من حيث السمعُ الحسِّيُّ المشترك، كالغنم التي لا تسمع إلَّا نعيقَ الرّاعي بها دعاءً ونداءً. ولم يسمعوه بالرُّوح الحقيقيِّ، الذي هو روح حاسَّة السّمع التي هي حظُّ القلب. فلو سمعوه من هذه الجهة لحصلتْ لهم الحياة الطّيِّبة، التي منشؤها من السماع المتَّصلِ أثرُه بالقلب، ولزالَ عنهم الصَّمَم والبَكَم، ولأنقذوا نفوسَهم من السّعير بمفارقةِ مَن عَدِمَ السّمعَ والعقلَ.

فحصولُ السّمع الحقيقيِّ مبدأٌ لظهور آثار الحياة الطّيِّبة، التي هي أكملُ أنواعِ الحياة في هذا العالم، فإنَّ بها يصلُح غذاء القلب ويعتدل، فيتمُّ قوَّته وحياته، وسروره ونعيمه وبهجته. وإذا فَقدَ غذاءه الصالح احتاج إلىٰ أن يعتاض عنه بغذاءٍ خبيثٍ. وإذا فسدَ غذاؤه وخبُثَ نقصَ من حياته وقوَّته وسروره ونعيمه بحسب ما فسد من غذائه، كالبدن إذا فسد غذاؤه.

وقد يكون هذا المسموع شديدَ التّأثير في القلب، ولا يشعُر به صاحبه لاشتغاله بغيره، ولمباينة ظاهره لباطنه ذلك الوقتَ، فإذا حصل له نوعُ تجرُّدٍ ورياضةٍ ظهرتْ قوَّة ذلك التأثير والتأثُّر. فكلَّما تجرَّدت الرُّوح والقلب، وانقطعت عن علائق البدن، كان حظُّهما من ذلك السماع أوفىٰ، وتأثُّرهما به أقوىٰ.

فإن كان المسموع معنًىٰ شريفًا بصوتٍ لذيذٍ= حصل للقلب حظُّه ونصيبُه من إدراك المعنىٰ، وابتهجَ به أتمَّ ابتهاجٍ علىٰ حسب إدراكه له. وللرُّوح حظُّها ونصيبُها من لذَّة الصَّوت ونغمتِه وحسنِه، فابتهجتْ به، فتتضاعف اللّذَّة، ويتمُّ الابتهاج، ويحصل الارتياح، حتَّىٰ ربَّما فاض علىٰ البدن والجوارح وعلىٰ الجليس.

وهذا لا يحصل علىٰ الكمال في هذا العالم ولا يحصل إلّا عند سماع كلام الله. فإذا تجرَّدت الرُّوح، وكانت مستعدَّةً، وباشر القلب روح المعنىٰ، وأقبلَ

بكلِّيّته على المسموع، فألقى السمعَ وهو شهيدٌ، وساعده طِيبُ صوت القارئ= كاد القلب يفارقُ هذا العالمَ، ويَلِجُ عالمًا آخر، ويجد له لذّةً وحالًا لا يعهدها في شيءٍ البتَّةَ. وذلك رقيقةٌ من حالِ أهل الجنَّة في الجنَّة. فيا له من غذاءٍ ما أصلَحَه وما أنفَعَه!

وحرامٌ على قلبٍ قد تربَّى على غذاء السَّماع الشيطانيِّ: أن يجد شيئًا من ذلك في سماع القرآن، بل إن حصلَ له نوعُ لذَّةٍ فهو من قِبَلِ الصوت المشترك، لا من قِبَلِ المعنى الخاصِّ.

وليس في نعيم أهل الجنَّة أعلى من رؤية وجه محبوبهم عيانًا، وسماع كلامه منه.

وذكر عبد الله بن الإمام أحمد في كتاب «السُّنّة»[1] أثرًا لا يحضرني الآن هل هو موقوفٌ أو مرفوعٌ: إذا سمع الناسُ القرآنَ يومَ القيامة من الرّحمن فكأنَّهم لم يسمعوه قبلَ ذلك.

وأكملُ السماع: سماع من يسمع بالله ما هو مسموعٌ من الله، وهو كلامه. وهو سماع المحبِّين المحبوبين، كما في الحديث الذي في «صحيح البخاريِّ»[2] عن رسول الله ﷺ فيما يَروي عن ربِّه تبارك وتعالى أنّه قال: «**ما تقرَّبَ إليّ عبدي بمثل أداء ما افترضتُ عليه. ولا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنّوافل حتّى أحبّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمْعَه الذي يسمع به، وبصَرَه الذي يبصر به، ويدَه التي يبطش بها، ورِجْلَه التي يمشي بها. فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي**».

والقلب يتأثّر بالسّماع بحسب ما فيه من المحبّة، فإذا امتلأ من محبّة الله وسمع كلام محبوبه به أي بمصاحبته وحضوره في قلبه فله من سماعه هذا شأنٌ، ولغيره شأنٌ آخر.

---

(١) رقم (١٠٤)، موقوفًا على محمد بن كعب القرظي.
(٢) رقم (٦٥٠٢)، وقد تقدَّم التنبيه على أنه ليس فيه زيادة: «فبي يسمع...» إلخ.

فصل

أنواع الناس في السماع

والثاني على ثلاثة أقسامٍ:

أحدهم: من اتَّصف قلبه بصفات نفسه، بحيث صار قلبه نفسًا محضةً، فغلبتْ عليه آفاتُ الشهوات ودَواعي الهوىٰ. فهذا حظُّه من السّماع كحظِّ البهائم لا تَسمع إلَّا دعاءً ونداءً، والفرق الذي بينها وبينه غير طائلٍ.

القسم الثاني: من اتَّصفت نفسُه بصفات قلبه، فصارت نفسه قلبًا محضًا، فغلبت عليه المعرفة والمحبَّة والعقل واللُّبُّ، وعشِقَ صفاتِ الكمالِ، فاستنارت نفسُه بنور القلب، واطمأنَّت إلىٰ ربِّها، وقرَّتْ عينُها بعبوديَّته، وصار نعيمها في حبِّه وقربه. فهذا حظُّه من السَّماع مثل أو قريبٌ من حظِّ الملائكة، وسماعه غذاء قلبه وروحه، وقُرَّة عينه ونعيمه من الدُّنيا، ورياضه التي سَرَحَ فيها، وحياته التي بها قِوامُه. وإلىٰ هذا المعنىٰ قصد أرباب سماع القصائد والأبيات، ولكن أخطؤوا الطَّريقَ، وأخذوا عن الدَّرْب شمالًا ووراءً.

القسم الثَّالث: من له منزلةٌ بين المنزلتين، وقلبه باقٍ علىٰ فطرته الأولىٰ، ولكن ما تصرَّف في نفسه تصرُّفًا أحالها إليه، وأزالَ به رسومها، وجَلَّىٰ عنه ظُلْمتَها، ولا قَوِيت النّفسُ علىٰ القلب بإحالته إليها، وتصرَّفت فيه تصرُّفًا أزالت عنه نورَه وصحَّته وفِطرته.

فبين القلب والنفس مُنازَلاتٌ ووقائع، والحرب بينهما دُولٌ وسِجالٌ، تُدال النفس عليه تارةً، ويُدال عليها تارةً.

فهذا حظُّه من السّماع حظٌّ بين الحظَّين، ونصيبه منه بين النصيبين، فإن صادفه وقتُ دولةِ القلب كان حظُّه منه قويًّا، وإن صادفه وقت دولة النّفس

كان ضعيفًا. ومن هاهنا يقع التفاوت بين الناس في الفقه عن الله، والفهمِ عنه، والابتهاجِ والنعيم بسماع كلامه.

وصاحب هذه الحال في حال سماعه يشتغل القلب بالحرب بينه وبين النفس، فيفوتُه من روح المسموع ونعيمه ولذّته بحسب اشتغاله عنه بالمحاربة، ولا سبيلَ له إلىٰ حصول ذلك بتمامه حتّىٰ تضَعَ الحرب أوزارها. وربَّما صادفه في حال السماع واردُ حقٍّ، أو الظَّفرُ بمعنًىٰ بديعٍ لا يقدر فكره علىٰ صيده كلَّ وقتٍ، فغابَ به واستغرق فيه عمَّا يأتي بعده، فيَعْجِز عن صيد تلك المعاني، ويُدْهِشه ازدحامُها، فيبقىٰ قلبه باهتًا. كما يُحكىٰ أنَّ بعض العرب أرسل صائدًا له علىٰ صيدٍ، فخرج الصّيدُ عليه من أمامه وخلفه وعن يمينه وعن يساره، فوقفَ باهتًا ينظر يمينًا وشمالًا، ولم يصطد شيئًا. فقال:

تفرَّقت الظِّباءُ علىٰ خِراشٍ فما يدري خِراشٌ ما يصيدُ[1]

فوظيفته في مثل هذا الحال: أن يَفنىٰ عن وارِده، ويُعلِّق قلبَه بالمتكلِّم وكأنّه يسمع كلامه منه، ويجعل قلبه نهرًا لجريان معانيه، ويُفرغه من سوىٰ فهم المراد، ويَنصبّ إليه انصبابًا، يتلقّىٰ فيه معانِيَه كتلقِّي المحبِّ للأحباب القادمين عليه، لا يَشْغَلُه حبيبٌ منهم عن حبيبٍ، بل يُعطي كلَّ قادمٍ حقَّه. وكتلقِّي الضُّيوف والزُّوّار. وهذا إنَّما يكون مع سعة القلب، وقوَّة الاستعداد، وكمال الحضور.

فإذا سمع خطاب الترغيب والتشويق واللُّطف والإحسان: لا يفنىٰ به عمَّا يجيء بعده من خطاب التخويف والترهيب والعدل، بل يتلقَّىٰ الخطاب الثّاني مستصحبًا لحكم الخطاب الأوَّل، ويَمزِج هذا بهذا، ويسيرُ بهما جميعًا، عاكفًا بقلبه علىٰ المتكلِّم وصفاته.

---

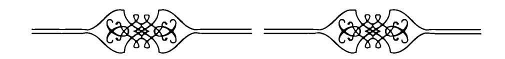
(١) البيت لعبد الله بن معاوية في «تاريخ الطبري» (٧/ ٣٠٣)، و«الأغاني» (١٢/ ٢٢٩).

وهذا سيرٌ في الله، وهو نوعٌ آخر أرفع وأعلىٰ من مجرّد المسير إليه، ولا ينقطع بذلك سيره إليه، بل يُدَرِّج سيرَه، فإنّ سير القلب في معاني أسمائه وصفاته وتوحيده ومعرفته.

ومتىٰ بقيت للقلب في ذلك ملكةٌ، واشتدّ تعلُّقه به= لم تَحْجُبه معاني المسموع وصفات المتكلِّم بعضها عن بعضٍ، ولكن في الابتداء يعسُر عليه ذلك، وفي التّوسُّط يَهُون عليه، ولا انتهاءَ هاهنا البتّة. والله المستعان.

فهذه كلماتٌ تشير إلىٰ معاني سماع أهل المعرفة والإيمان والأحوال المستقيمة.

وأمّا السّماع الشّيطانيُّ: فبالضِّدِّ من ذلك، وهو مشتملٌ علىٰ أكثر من مائة مفسدةٍ ولولا الإطالة لسُقْناها مفصّلةً. وسنفرد لها مصنَّفًا مستقلًّا[1] إن شاء الله.



(١) للمؤلف «الكلام علىٰ مسألة السماع»، وبحث مطول في «إغاثة اللهفان» (١/ ٤٠٠ - ٤٧٣).

٣/ ٢٠٧

فصل

منزلة الذكر

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾: **منزلة الذِّكر**. وهي منزلة القوم الكبرىٰ، التي منها يتزوَّدون، وفيها يتَّجرون، وإليها دائمًا يتردَّدون.

والذِّكر منشور الولاية الذي من أُعطِيه اتّصل، ومن مُنِعه عزل، وهو قوت قلوب القوم الذي متىٰ فارقها صارت الأجساد لها قبورًا، وعمارةُ ديارهم فمتىٰ تعطَّلت عنه صارت بُورًا، وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قُطَّاعَ الطّريق، وماؤهم الذي يُطفِئون به التهابَ الحريق ودواءُ أسقامهم الذي متىٰ فارقهم انتكستْ منهم القلوب، والسّبب الواصل والعِلاقة التي بينهم وبين علّام الغيوب.

إذا مرِضنا تداوينا بذكرِكُم فنترك الذِّكرَ أحيانًا فننتكسُ[1]

به يستدفعون الآفاتِ، ويستكشفون الكُرُبات، وتهون عليهم به المصيبات، إذا أظلَّهم البلاءُ فإليه ملجؤهم، وإذا نزلت بهم النّوازلُ فإليه مفزَعُهم. فهو رياضُ جنّتهم التي فيها يتقلّبون، ورؤوس أموال سعادتهم التي بها يتّجرون. يَدَعُ القلبَ الحزين ضاحكًا مسرورًا، ويُوصِل الذّاكر إلىٰ المذكور، بل يعيد الذّاكر مذكورًا.

وعلىٰ كلِّ جارحةٍ من الجوارح عبوديّةٌ موقَّتةٌ، والذِّكر عبوديّة القلب واللِّسان وهي غير موقَّتةٍ، بل هم مأمورون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كلِّ حالٍ: قيامًا وقعودًا وعلىٰ جنوبهم.

وكما أنَّ الجنَّة قِيعانٌ وهو غِراسُها[2]، فكذلك القلوب بُورٌ خَرابٌ وهو عمارتها وأساسها. وهو جلاء القلوب وصِقالها ودواؤها إذا غشِيَها اعتلالُها،

(١) أنشده المؤلف في «الكافية الشافية» (١/ ١٠)، و«الوابل الصيب» (ص١٧٢)، ولعله له.

(٢) أشار إلىٰ حديث ابن مسعود الذي أخرجه الترمذي (٣٤٦٢)، وسيأتي لفظه قريبًا. وقيعان: جمع قاعٍ، وهي أرض واسعة مستوية لا شجر فيها.

وكلّما ازداد الذّاكر في ذكره استغراقًا ازداد لمذكورِه محبّةً وإلىٰ لقائه اشتياقًا، وإذا واطأ في ذكره قلبُه للسانه نسي في جنْبِ ذكرِه كلَّ شيءٍ، وحَفِظ اللهُ عليه كلَّ شيءٍ، وكان له عوضًا من كلِّ شيءٍ.

به يزول الوَقْر عن الأسماع، والبَكَمُ عن الألسن، وتنقشع الظُّلمة عن الأبصار. زيَّن الله به ألسنةَ الذاكرين كما زيَّن بالنُّور أبصار الناظرين، فاللِّسان الغافل كالعين العمياء والأُذن الصَّمَّاء واليد الشَّلَّاء.

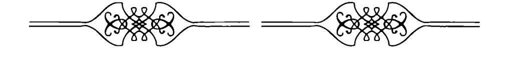
وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده ما لم يُغلِقه العبد بغفلته.

قال الحسن البصريُّ ﵀: تفقَّدوا الحلاوةَ في ثلاثة أشياء: في الصّلاة والذِّكر وقراءة القرآن، فإن وجدتم وإلَّا فاعلموا أنَّ الباب مغلقٌ[(١)].

وبالذِّكر يَصرع العبدُ الشّيطانَ كما يَصرع الشّيطانُ أهلَ الغفلة والنِّسيان.

قال بعض السّلف: إذا تمكَّن الذِّكرُ من القلب فإن دنا منه الشّيطان صُرِعَ كما يُصرَع الإنسان إذا دنا منه الشيطان، فتجتمع عليه الشّياطين فيقولون: ما لهذا؟ فيقال: قد مسَّه الإنسيُّ[(٢)].

وهو روح الأعمال الصّالحة، فإذا خلا العمل عن الذِّكر كان كالجسد الذي لا روح فيه.



(١) «الرسالة القشيرية» (ص٥٠٣)، ورواه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٧١، ١٠/ ١٤٦).

(٢) «الرسالة القشيرية» (ص٥٠٤).

فصل

أوجه ورود الذكر في القرآن

وهو في القرآن علىٰ عشرة أوجهٍ:

الأوّل: الأمر به مطلقًا ومقيّدًا.

الثّاني: النّهي عن ضدِّه من الغفلة والنِّسيان.

الثّالث: تعليق الفلاح باستدامته وكثرته.

الرّابع: الثّناء علىٰ أهله والإخبار بما أعدّ لهم من الجنّة والمغفرة.

الخامس: الإخبار عن خُسران من لَها عنه بغيره.

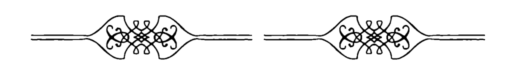
السّادس: أنّه جعل ذكره سبحانه لهم جزاءً لذكرهم له.

السّابع: الإخبار أنّه أكبر من كلِّ شيءٍ.

الثّامن: أنّه جعله خاتمة الأعمال الصّالحة كما كان مفتاحها.

التّاسع: الإخبار عن أهله بأنّهم هم أهل الانتفاع بآياته، وأنّهم أولو الألباب دون غيرهم.

العاشر: أنّه جعله قرينَ جميع الأعمال الصّالحة وروحها، فمتىٰ عَدِمَتْه كانت كالجسد بلا روحٍ.



فصل

في تفصيل ذلك

أمّا الأوّل، فقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾[الأحزاب: ٤١ - ٤٣]. وقوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾[الأعراف: ٢٠٥].

وفيه قولان[1]، أحدهما: في سِرِّك وقلبك، والثّاني: بلسانك بحيث تُسمِع نفسك.

وأمّا النّهي عن ضدِّه، فكقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾[الأعراف: ٢٠٥]، ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ﴾[الحشر: ١٩].

وأمّا تعليق الفلاح بالإكثار منه، فكقوله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[الجمعة: ١٠].

وأمّا الثّناء علىٰ أهله وحسن جزائهم، فكقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾إلىٰ قوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب: ٣٥].

وأمّا خسران من لَها عنه، فكقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[المنافقون: ٩].

وأمّا جعلُ ذكرِه لهم جزاءً لذكرهم، فكقوله: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[البقرة: ١٥٢].

---

(١) انظر: «النكت والعيون» (٢/ ٧٨)، و«زاد المسير» (٣/ ٣١٣).

وأمّا الإخبار بأنّه أكبر من كلِّ شيءٍ، فكقوله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾[العنكبوت: ٤٥].

وأمّا ختم الأعمال الصّالحة به، فكما ختم به عمل الصِّيام بقوله: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾[البقرة: ١٨٥].

وختم به الحجّ بقوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ﴾[البقرة: ٢٠٠].

وختم به الصّلاة كقوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ﴾[النساء: ١٠٣].

وختم به الجمعة كقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[الجمعة: ١٠].

ولهذا إذا كان خاتمةَ الحياة الدُّنيا وآخرَ كلام العبد أدخلَه الجنّة.

وأمّا اختصاص الذّاكرين بالانتفاع بآياته وهم أولو الألباب والعقول، فكقوله: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾[آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

وأمّا مصاحبته لجميع الأعمال واقترانُه بها وأنّه روحها، فإنّه سبحانه قرنَه بالصّلاة كقوله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾[طه: ١٤]، وقرنَه بالصِّيام وبالحجِّ ومناسكه، بل هو روح الحجِّ ولبُّه ومقصوده، كما قال ﷺ: «**إنّما جُعِل الطّوافُ بالبيت والسّعيُ بين الصّفا والمروة ورمْيُ الجمار لإقامة ذكرِ الله**»[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٣٥١، ٢٤٤٦٨، ٢٥٠٨٠)، وأبو داود (١٨٨٨)، والترمذي (٩٠٢)، وصححه ابن خزيمة (٢٧٣٨، ٢٨٨٢، ٢٩٧٠).

وقرنَه بالجهاد، وأمرَ بذكره عند ملاقاة الأقران ومكافحة الأعداء فقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[الأنفال: ٤٥]. وفي أثرٍ إلهيٍّ يقول الله تعالىٰ: «**إنَّ عبدي كلَّ عبدي الذي يذكرني وهو مُلاقي قِرْنه**»[(١)].

سمعت شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله يستشهد به، وسمعته يقول: المحبُّون يفتخرون بذكر من يحبُّونه في هذه الحال، كما قال عنترة[(٢)]:

ولقد ذكرتُكِ والرِّماحُ كأنّها ... أشطانُ بئرٍ في لَبانِ الأَدْهمِ

وقال الآخر[(٣)]:

ذكرتُكِ والخَطِّيُّ يَخْطِر بيننا ... وقد نَهِلَتْ منَّا المثقَّفةُ السُّمْرُ

وقال الآخر[(٤)]:

ولقد ذكرتُكِ والرِّماحُ شَواجِرٌ ... نَحْوي وبِيضُ الهندِ تَقْطُر من دَمي

وهذا كثيرٌ في أشعارهم، وهو ممَّا يدلُّ علىٰ قوّة المحبّة، فإنّ ذكر المحبِّ محبوبه في تلك الحال التي لا يهمُّ المرء فيها غيرَ نفسه يدلُّ علىٰ أنّه عنده بمنزلة نفسه أو أعزُّ منها، وهذا دليلُ صدقِ المحبّة.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٨٠)، وهو ضعيف، وانظر: «السلسلة الضعيفة» (٣١٣٥).

(٢) في معلقته، انظر «ديوانه» (ص٢١٦)، والأشطان جمع شطن، وهو حبل البئر. واللبان: الصدر. والأدهم يقصد به الفرس.

(٣) هو أبو عطاء السندي كما في «الحماسة» (١/ ٦٦)، وغيره. والخطي: الرماح. «نهلت منّا» أي: رويت الرماحُ من دمائنا. والمثقَّفة وصف للرماح، وهي المقوَّمة المسوَّاة.

(٤) هو عنترة، والبيت من معلقته في «جمهرة أشعار العرب» (ص١٦٨). شواجر: مختلطة متداخلة. البيض: السيوف.

فصل

الذاكرون هم أهل السبق

والذّاكرون هم أهل السَّبْق، كما روىٰ مسلمٌ في «صحيحه»[(١)] من حديث العلاء عن أبيه عن أبي هريرة ﷺ قال: كان رسول الله يسير في طريق مكّة، فمرَّ علىٰ جبلٍ يقال له جُمْدان، فقال: «**سِيروا، هذا جُمدانُ، سَبقَ المفرِّدون**». قالوا: وما المفرِّدون يا رسول الله؟ قال: «**الذّاكرون الله كثيرًا والذّاكرات**». والمفرِّدون: إمّا الموحِّدون، وإمّا الآحاد الفُرادىٰ.

وفي «المسند»[(٢)] مرفوعًا من حديث أبي الدّرداء ﷺ: «**ألا أنبِّئكم بخيرِ أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعِها في درجاتكم، وخيرٌ لكم من إعطاء الذّهب والفضّة وأن تَلْقَوا عدوَّكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟**» قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «**ذِكر الله**».

وروىٰ شعبة عن أبي إسحاق قال: سمعتُ الأغرَّ قال: أشهد علىٰ أبي هريرة وأبي سعيدٍ ﷺ أنّهما شهدا علىٰ رسول الله ﷺ قال: «**لا يقعدُ قومٌ يذكرون الله إلّا حَفَّتْهم الملائكة، وغشِيتْهم الرّحمة، ونزلت عليهم السّكينة، وذكرهم الله فيمن عنده**». وهو في «صحيح مسلم»[(٣)].

ويكفي في شرف الذِّكر أنّ الله يباهي ملائكته بأهله، كما في «صحيح مسلم»[(٤)] عن معاوية: أنّ رسول الله ﷺ خرج علىٰ حَلْقةٍ من أصحابه فقال: «**ما أجلسَكم؟**»

---

(١) برقم (٢٦٧٦).

(٢) برقم (٢١٧٠٢)، وأخرجه أيضًا الترمذي (٣٣٧٧)، وابن ماجه (٣٧٩٠). والصواب أنه موقوف. انظر: «الموطأ» رقم (٥٦٤).

(٣) برقم (٢٧٠٠).

(٤) برقم (٢٧٠١).

قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومَنَّ به علينا. قال: «**آللهِ ما أجلسَكم إلّا ذلك؟**» قالوا: آللهِ ما أجلسَنا إلّا ذلك. قال: «**أما إنِّي لم أستحلْفكم تهمةً لكم، ولكن أتاني جبريل عليه السلام فأخبرني: أنّ الله يُباهِي بكم الملائكةَ**».

وسأل أعرابيٌّ رسول الله ﷺ: أيُّ الأعمال أفضل؟ فقال: «**أن تفارقَ الدُّنيا ولسانك رَطْبٌ من ذكر الله**»[1].

وقال له رجلٌ: إنّ شرائع الإسلام قد كثرتْ عليَّ، فمُرْني بأمرٍ أتشبَّثُ به. فقال: «**لا يزال لسانُك رَطْبًا من ذكر الله**»[2].

وروى النبيُّ ﷺ عن أبيه إبراهيم ﷺ أنّه قال: «**أَقرِئْ أمّتَك منِّي السّلام، وأخبِرْهم أنَّ الجنّة طيِّبة التُّربة عذبةُ الماء، وأنّها قِيعانٌ، وأنَّ غِراسَها: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر**». رواه التِّرمذيُّ وأحمد وغيرهما[3].

وفي «الصحيحين»[4] من حديث أبي موسى رضي الله عنه عن النّبيِّ ﷺ: «**مَثَلُ الذي يذكر ربّه والّذي لا يذكره مَثل الحيِّ والميِّت**». ولفظ مسلمٍ: «**مَثَلُ البيت الذي يُذكَر الله فيه والبيت الذي لا يُذكَر الله فيه: مَثَلُ الحيِّ والميِّت**».

فجعل بيت الذاكر بمنزلة بيت الحيِّ، وبيت الغافل بمنزلة بيت الميِّت وهو القبر. وفي اللفظ الأوَّل جعل الذّاكر بمنزلة الحيِّ، والغافل بمنزلة الميِّت. فتضمَّنَ اللّفظان أنّ القلب الذّاكر كالحيِّ في بيوت الأحياء، والغافل كالميِّت في بيوت

(١) أخرجه البخاري في «خلق أفعال العباد» (٢٨١)، وابن حبان (٨١٨)، من حديث معاذ بن جبل، وإسناده حسن.
(٢) أخرجه أحمد (١٧٦٩٨)، والترمذي (٢٣٢٩، ٣٣٧٥)، وابن ماجه (٣٧٩٣)، من حديث عبد الله بن بسر رضي الله عنه، وإسناده صحيح.
(٣) أخرجه بهذا اللفظ الترمذي (٣٤٦٢)، من حديث ابن مسعود، وحسَّنه، وأخرجه أحمد (٢٣٥٥٢)، وابن حبان (٨٢١)، من حديث أبي أيوب رضي الله عنه، وحسَّنه المنذري في «الترغيب» (٢/ ٤٤٥)، وابن حجر في «نتائج الأفكار» (١/ ١٠٠).
(٤) البخاري (٦٤٠٧)، ومسلم (٧٧٩).

الأموات. ولا ريبَ أنَّ أبدان الغافلين قبورٌ لقلوبهم، وقلوبهم فيها كالأموات في القبور، كما قيل[(١)]:

فنسيانُ ذكرِ الله موتُ قلوبهم وأجسامُهم قبلَ القبورِ قبورُ
وأرواحُهم في وحشةٍ من جُسومهم وليس لهم حتّىٰ النُّشورِ نشورُ

وكما قيل[(٢)]:

فنسيانُ ذكرِ الله موتُ قلوبهم وأجسامهم فهي القبور الدَّوارِسُ
وأرواحهم في وحشةٍ من حبيبهم ولكنّها عند الخبيث أوانسُ

وفي «الصحيح»[(٣)] في الأثر الذي يرويه رسول الله ﷺ عن ربِّه تبارك وتعالىٰ: «**مَن ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، ومن ذكرني في ملأٍ ذكرتُه في ملأٍ خيرٍ منهم**».

وقد ذكرنا في الذِّكر نحو مائة فائدةٍ في كتاب «الوابل الصّيِّب ورافع الكلم الطّيِّب»[(٤)]. وذكرنا هناك أسرار الذِّكر وعِظَمَ نفعه وطِيب ثمرته، وذكرنا فيه أنّ الذِّكر ثلاثة أنواعٍ[(٥)]: ذكر الأسماء والصِّفات ومعانيها، والثناء علىٰ الله بها، وتوحيد الله بها. وذكر الأمر والنّهي والحلال والحرام. وذكر الآلاء والنّعماء والإحسان والأيادي.

وأنّه ثلاثة أنواعٍ أيضًا[(٦)]: ذكرٌ يتواطأ عليه القلب واللِّسان، وهو أعلاها. وذكرٌ بالقلب وحده، وهو في الدّرجة الثّانية. وذكرٌ باللِّسان المجرّد، وهو في الدّرجة الثّالثة.

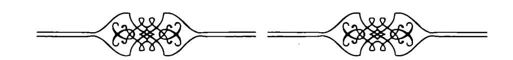
---

(١) البيتان يُنسبان لعلي بن أبي طالب في «ديوانه» (ص٤٦- طبع الهند ١٢٩٣هـ).
(٢) لم أجدهما في المصادر، ولعلهما للمؤلف.
(٣) البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) (ص٩٤- ٢١٥).
(٥) (ص٢١٦- ٢٢١).
(٦) (ص٢٢١).

وذِكر العبد لربِّه محفوفٌ بذكرين من ربِّه له: ذكرٍ قبلَه به صار العبد ذاكرًا له، وذكرٍ بعدَه به صار العبد مذكورًا، كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]. وقال فيما يروي عنه نبيُّه ﷺ: «**من ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، ومن ذكرني في ملأٍ ذكرتُه في ملأٍ خيرٍ منه**»[(١)].

والذِّكر الذي ذكره الله به بعد ذِكْره له: نوعٌ غير الذِّكر الذي ذكره به قبل ذِكْرِه له، ومن كَثُف فهمُه عن هذا فليجاوزْه إلىٰ غيره، فقد قيل[(٢)]:

إذا لم تستطعْ شيئًا فدَعْه ... وجاوِزْه إلىٰ ما تستطيعُ



(١) تقدَّم قريبًا.

(٢) البيت لعمرو بن معدي كرب من قصيدة له في «الأصمعيات» (رقم ٦١)، و«ديوانه» (ص١٣٢- ١٣٣).

فصل

٣/ ٢٣١

منزلة الفقر

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة الفقر**. هذه المنزلة من أشرف منازل الطّريق وأعلاها وأرفعها، بل هي روح كلِّ منزلةٍ وسرُّها ولبُّها وغايتها.

وهذا إنّما يُعرف بمعرفة حقيقة الفقر. والّذي تريد به هذه الطّائفة أخصّ من معناه الأصليِّ، فإنّ لفظ الفقر وقع في القرآن في ثلاث مواضع.

أحدها: قوله تعالىٰ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾[البقرة: ٢٧٣] أي الصّدقات لهؤلاء. وكانوا فقراء المهاجرين نحو أربعمائةٍ، لم يكن لهم مساكن بالمدينة ولا عشائر، وكانوا قد حبسوا أنفسَهم علىٰ الجهاد في سبيل الله، فكانوا وقفًا علىٰ كلِّ سريّةٍ يبعثها رسول الله ﷺ، وهم أهل الصُّفّة.

والموضع الثّاني: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾الآية [التوبة: ٦٠].

والموضع الثّالث: قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾[فاطر: ١٥].

فالصِّنف الأوّل: خواصُّ الفقراء. والثّاني: فقراء المسلمين خاصُّهم وعامُّهم. والثّالث: الفقر العامُّ لأهل الأرض كلِّهم: غنيِّهم وفقيرِهم، مؤمنِهم وكافرِهم.

فالفقراء الموصوفون في الآية الأولىٰ: يقابلهم أصحاب الجِدَة، ومن ليس مُحصَرًا في سبيل الله، ومن لا يكتم فقره تعففًا. فمقابلهم أكثر من مقابل الصِّنف الثّاني.

والصِّنف الثّاني: يقابلهم الأغنياء أهل الجِدَة. ويدخل فيهم المتعفِّف وغيره، والمُحصَر في سبيل الله وغيره.

والصِّنف الثّالث: لا مقابلَ لهم. بل الله وحدَه الغنيُّ، وكلُّ ما سواه فقيرٌ إليه.

ومراد القوم بالفقر شيءٌ أخصُّ من هذا كلِّه. وهو تحقيق العبوديَّة والافتقار إلىٰ الله تعالىٰ في كلِّ حالةٍ.

وهذا المعنىٰ أجلُّ من أن يسمَّىٰ فقرًا، بل هو حقيقة العبوديَّة ولبُّها، وعزْلُ النّفس عن مزاحمة الرُّبوبيّة.

وسئل عنه يحيىٰ بن معاذٍ ﵀ فقال: حقيقته أن لا يستغني إلَّا بالله، ورسمُه: عدمُ الأسبابِ كلِّها[1].

يقول: عدم الوثوق بها والوقوف معها. وهو كما قال بعض المشايخ: شيءٌ لا يضعه الله إلّا عند من يحبُّه، ويسوقه إلىٰ من يريد[2].

وسئل رُوَيمٌ عن الفقر؟ فقال: إرسال النّفس في أحكام الله[3].

وهذا إنّما يُحمَد في إرسالها في أحكامه الدِّينيّة والقدريَّة التي لا يُؤمَر بمدافعتها والتّحرُّز منها.

وسئل أبو حفصٍ: بما يَقدَم الفقيرُ علىٰ ربِّه؟ فقال: وما للفقير أن يقدَم علىٰ ربِّه بسوىٰ فقرِه[4].

وحقيقة الفقر وكماله أن لا تكون لنفسك، ولا يكون لها منك شيءٌ، بحيث يكون كلُّك لله. وإذا كنتَ لنفسك فثَمَّ ملكٌ واستغناءٌ منافٍ للفقر.

---

(١) «الرسالة القشيرية» (ص٥٧٢).
(٢) «القشيرية» (ص٥٧٢)، و«اللمع» (ص٢٠٢).
(٣) «الرسالة القشيرية» (ص٥٧٣).
(٤) «الرسالة القشيرية» (ص٥٧٤).

وهذا الفقر الذي يشيرون إليه لا تُنافيه الجِدَة ولا الأملاك، فقد كان رسل الله وأنبياؤه في ذروته مع جِدَتِهم ومُلْكهم، كإبراهيم الخليل عليه السلام كان أبا الضِّيفان، وكانت له الأموال والمواشي. وكذلك كان سليمان وداود، وكذلك كان نبيُّنا ﷺ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾[الضحىٰ: ٨]. فكانوا أغنياء في فقرهم، فقراء في غناهم.

فالفقر الحقيقيُّ: دوام الافتقار إلىٰ الله تعالىٰ في كلِّ حالٍ، وأن يشهد العبد في كلِّ ذرَّةٍ من ذرَّاته الظاهرة والباطنة فاقةً تامَّةً إلىٰ الله تعالىٰ من كلِّ وجهٍ.

فالفقر ذاتيٌّ للعبد، وإنّما يتجدَّد له شهودُه ووجوده حالًا، وإلَّا فهو حقيقته. كما قال شيخ الإسلام ابن تيميّة قدَّس الله روحه[١]:

والفقر لي وصفُ ذاتٍ لازمٌ أبدًا ... كما الغِنىٰ أبدًا وصفٌ له ذاتي

وله آثارٌ وعلاماتٌ وموجباتٌ وأسبابٌ أكثر إشارات القوم إليها. كقول بعضهم[٢]: الفقير لا تَسبِقُ هِمَّتُه خُطوتَه.

يريد: أنّه ابنُ حالِه ووقته، فهمّته مقصورةٌ علىٰ وقته لا تتعدّاه.

وقيل: أركان الفقر أربعةٌ: علمٌ يَسُوسه، وورعٌ يَحجِزُه، ويقينٌ يَحمِله، وذِكرٌ يُؤنِسه[٣].

وقال الشِّبليُّ رحمه الله: حقيقة الفقر أن لا يستغني بشيءٍ دون الله[٤].

وسئل سهل بن عبد الله رحمه الله: متىٰ يستريح الفقير؟ فقال: إذا لم يرَ لنفسه غيرَ الوقت الذي هو فيه[٥].

---

(١) انظر: «العقود الدرية» لابن عبد الهادي (ص ٤٥١).
(٢) هو المرتعش، كما في «الرسالة القشيرية» (ص٥٧٧).
(٣) «الرسالة القشيرية» (ص٥٧٨)، والقائل محمد بن منصور الطوسي في «تهذيب الأسرار» (ص٢٤٨).
(٤) «الرسالة القشيرية» (ص٥٧٨).
(٥) المصدر نفسه (ص٥٨٠)، ورواه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١٩٢).

وقال أبو حفصٍ ﷺ: أحسنُ ما يتوسَّل به العبدُ إلىٰ الله: دوامُ الافتقار إليه علىٰ جميع الأحوال، وملازمة السُّنَّة في جميع الأفعال، وطلب القُوتِ من وجهٍ حلالٍ[١].

وقيل: من حُكم الفقير أن لا تكون له رغبةٌ، فإن كان ولا بدَّ فلا تُجاوز رغبتُه كفايتَه[٢].

واتَّفقت كلمة القوم علىٰ أنَّ دوام الافتقار إلىٰ الله مع التخليط خيرٌ من دوام الصفاء مع رؤية النّفس والعُجْب، مع أنّه لا صفاء معهما.

وإذا عرفت معنىٰ الفقر عرفتَ أنَّه عينُ الغنىٰ بالله، فلا معنىٰ لسؤال مَن سأل: أيُّ الحالينِ أكمل؟ الافتقار إلىٰ الله أم الاستغناء به؟ فهذه مسألةٌ غير صحيحةٍ، فإنّ الاستغناء به هو عين الافتقار إليه.

وسئل عن ذلك محمَّد بن عبد الله الفَرغانيُّ ﷺ فقال: إذا صحَّ الافتقار إلىٰ الله فقد صحَّ الاستغناء بالله، وإذا صحَّ الاستغناء بالله كمل الغنىٰ به. فلا يقال: أيُّهما أتمُّ: الافتقار أم الغنىٰ؟ لأنّهما حالتان لا تتمُّ إحداهما إلّا بالأخرىٰ[٣].

وأمّا كلامهم في مسألة الفقير الصابر والغنيِّ الشاكر وترجيح أحدهما علىٰ صاحبه[٤]، فعند أهل التحقيق والمعرفة: أنَّ التفضيل لا يرجع إلىٰ ذات الفقر والغنىٰ، وإنَّما يرجع إلىٰ الأعمال والأحوال والحقائق. فالمسألة أيضًا فاسدةٌ في نفسها. فإنَّ التفضيل عند الله بالتقوىٰ وحقائق الإيمان، لا بفقرٍ ولا غنًىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾[الحجرات: ١٣]، ولم يقل: أفقركم ولا أغناكم.

---

(١) المصدر نفسه (ص٥٧٦).

(٢) المصدر نفسه (ص٢٠٧، ٥٨١)، والقائل أبو بكر عبد الله بن طاهر الأبهري، ورواه السلمي في «الطبقات» (ص٣٩٤)، والبيهقي في «الشعب» (٣٢٥٥).

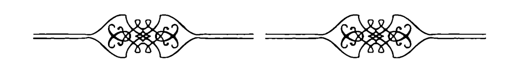
(٣) «الرسالة القشيرية» (ص٥٧٣).

(٤) انظر كلام المؤلف عليها في «عدة الصابرين» (ص٣٣٨ وما بعدها).

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله: والفقر والغنىٰ ابتلاءٌ من الله لعبده. كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥ - ١٦]. أي: ليس كلُّ من أعطيتُه ووسَّعتُ عليه: أكون قد أكرمتُه، ولا كلُّ من ضيَّقتُ عليه وقتَّرتُ: أكون قد أهنتُه. فالإكرام: أن يُكرم العبد بطاعته، والإيمان به، ومحبّته ومعرفته. والإهانة: أن يسلبه ذلك.

قال: ولا يقع التفاضل بالغنىٰ والفقر، بل بالتّقوىٰ، فإن استويا في التقوىٰ استويا في الدرجة. سمعتُه يقول ذلك[١].

وتذاكروا هذه المسألة عند يحيىٰ بن معاذ رحمه الله، فقال: لا يُوزن غدًا الفقر ولا الغنىٰ، وإنّما يُوزن الصّبر والشُّكر[٢].



(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١١/ ١٢٢- ١٣٢، ١٩٥)، و«مختصر الفتاوىٰ المصرية» (ص٩٥، ٥٧٢).
(٢) «الرسالة القشيرية» (ص٥٨٠).

فصل

أول قدم الفقر الخروج عن النفس

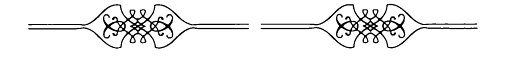
قال صاحب «المنازل» رحمه الله[١]: **(الفقر اسمٌ للبراءة من الملكة)**.

عدل الشيخ رحمه الله عن لفظ «عدم الملكة» إلىٰ قوله: «البراءة من الملكة»، لأنَّ عدم الملكة ثابتٌ في نفس الأمر لكلِّ أحدٍ سوىٰ الله تعالىٰ، فالله سبحانه هو المالك حقيقةً. فعدمُ الملكة أمرٌ ثابتٌ لكلِّ ما سواه لذاته. والكلام في الفقر الذي يُمدَح به صاحبه: هو فقر الاختيار، وهو أخصُّ من مطلق الفقر، وهو براءة العبد من دعوىٰ الملك، بحيث لا يُنازِع مالكَه الحقَّ.

ولمَّا كانت نفس الإنسان ليست له، وإنّما هي ملكٌ لله. فما لم يخرج عنها ويُسلِّمها لمالكِها الحقِّ: لم يثبتْ له في الفقر قدمٌ. فلذلك كان أوّلُ قَدَمِ الفقر الخروجَ عن النّفس، وتسليمها لمالكها ومولاها، فلا يخاصم لها، ولا يتوكّل لها، ولا يُحاجُّ عنها ولا ينتصر لها، بل يُفوِّض ذلك لمالكها وسيِّدها.

قال بُندار بن الحسين رحمه الله: لا تُخاصِمْ لنفسك، فإنَّها ليست لك، دَعْها لمالكها يفعَلْ بها ما يريد[٢].

وقد أجمعت هذه الطّائفة أنّه لا وصولَ إلىٰ الله إلّا من طريق الفقر، ولا دخولَ عليه إلّا من بابه.



(١) (ص٥٦).
(٢) «الرسالة القشيرية» (ص٢٢١).

٣/ ٢٤٨

فصل

منزلة الغنىٰ العالي

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة الغنىٰ العالي**.

وهو نوعان: غنًىٰ بالله، وغنًىٰ عن غير الله، وهما حقيقة الفقر. ولكنَّ أرباب الطّريق أفردوا للغنىٰ منزلةً.

قال صاحب «المنازل» رحمه الله[1]: (**باب الغنىٰ. قال الله تعالىٰ: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾**[الضحىٰ: ٨]).

وفي الآية ثلاثة أقوالٍ[2]:

أحدها: أنّه أغناه من المال بعد فقره. وهذا قول أكثر المفسِّرين. لأنّه قابله بقوله: «عائلًا»، والعائل هو المحتاج، ليس ذا العَيْلة، فأغناه.

والثّاني: أنّه رضّاه بما أعطاه، وأغناه به عن سواه. فهو غنىٰ قلبٍ ونفسٍ، لا غنىٰ مالٍ. وهو حقيقة الغنىٰ.

والثّالث وهو الصّحيح: أنّه يعمُّ نوعَي الغنىٰ؛ فأغنىٰ قلبَه وأغناه من المال.

ثمّ قال[3]: (**الغنىٰ اسمٌ للملك التّامِّ**).

يعني: أن من كان مالكًا من وجهٍ دون وجهٍ فليس بغنيٍّ، وعلىٰ هذا فلا يستحقُّ اسم الغنيّ بالحقيقة إلّا الله، وكلُّ ما سواه فقيرٌ إليه بالذّات.

---

(١) (ص٥٧).

(٢) انظر: «تفسير البغوي» (٤/ ٤٩٩)، و«زاد المسير» (٩/ ١٥٩، ١٦٠).

(٣) «المنازل» (ص٥٧).

٣/ ٢٥٤

فصل

منزلة المراد

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة المراد.**

أفردها القوم بالذِّكر. وفي الحقيقة فكلُّ مريدٍ مرادٌ، بل لم يصر مريدًا إلَّا بعد أن كان مرادًا، لكنّ القوم خصُّوا المريد بالمبتدئ، والمراد بالمنتهي.

قال أبو عليٍّ الدّقّاق رحمه الله: المريد متحمِّلٌ، والمراد محمولٌ[(١)].

وقال: كان موسىٰ مريدًا، إذ قال: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾[طه: ٢٥]، ونبيُّنا ﷺ مرادًا، إذ قيل له: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾[الشرح: ١][(٢)].

وسئل الجنيد رحمه الله عن المريد والمراد، فقال: المريد يتولَّاه سياسةُ العلم، والمراد يتولَّاه رعايةُ الحقِّ. لأنّ المريد يسير، والمراد يطير، فمتىٰ يلحق السّائرُ الطّائرَ؟[(٣)].

وقد مُثِّل المريد والمراد بقومٍ بعث إليهم سلطانهم يستدعيهم إلىٰ حضرته من بلادٍ نائيةٍ، وأرسل إليهم بالأدلّة والأموال، والمراكب وأنواع الزّاد، وأمرهم بأن يتجشَّموا إليه قَطْع السُّبل والمفاوز، ويجتهدوا في المسير حتّىٰ يلحقوا به، وبعث خيلًا له ومماليكَ إلىٰ طائفةٍ منهم، فقال: احمِلُوهم علىٰ هذه الخيل التي تَسبِق الرِّكاب، واخْدُموهم في طريقهم، ولا تَدَعُوهم يُعانوا مؤنةَ الشّدِّ والرَّبط، بل إذا نزلوا فأَرِيحُوهم، ثمّ احْمِلوهم حتّىٰ تُقدِّموهم عليّ. فلم يجد هؤلاء من مجاهدةِ السَّير ومكابدتِه ووَعْثَاء السّفر ما وجده غيرهم.

---

(١) «الرسالة القشيرية» (ص٤٧٠).
(٢) المصدر السابق (ص٤٧٠).
(٣) المصدر السابق (ص٤٧١).

فصل

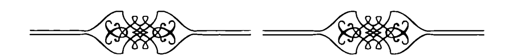
درجات المراد

قال[(١)]: **(وللمراد ثلاث درجاتٍ: الدرجة الأولىٰ: أن يُعصَم العبد وهو يستشرِف للجفاء اضطرارًا، بتنغيص الشهوات، وتعويقِ الملاذِّ، وسدِّ مسالك المعاطبِ عليه إكراهًا)**.

يعني: أنّ العبد إذا استشرفت نفسه للجفاء بينه وبين سيِّده بموافقة شهواته عصَمَه سيِّده اضطرارًا، بأن يُنغِّص عليه الشهوات، فلا تصفو له البتّةَ. بل لا ينال ما ينال منها إلّا مَشُوبًا بأنواع التنغيص الذي ربَّما أربىٰ علىٰ لذَّتها واستهلكها، بحيث تكون اللذَّة في جنب التنغيص كالخِلْسة والغَفْوة.

وكذلك يُعوِّق الملاذَّ عليه، بأن يحول بينه وبينها، حتّىٰ لا يركَنَ إليها ويطمئنَّ إليها ويساكنها، فيحول بينه وبين أسبابها. فإن هُيِّئت له قَيَّضَ له مدافِعَ تحولُ بينه وبين استيفائها، فيقول: من أين دُهِيتُ؟ وإنّما هي عينُ العناية والحِمية والصِّيانة.

وكذلك يَسُدُّ عنه طُرقَ المعاصي فإنّها طُرق المعاطب وإن كان كارهًا، عنايةً به وصيانةً له.



(١) «المنازل» (ص٥٨).

فصل

(الدّرجة الثّانية: أن يضعَ عن العبد عوارضَ النّقص، ويُعافِيَه من سِمَة اللّائمة، ويُملِّكه عواقبَ الهفوات. كما فعل بسليمان عليه السّلام حين قتلَ الخيلَ فحملَه على الرِّيح الرُّخاء، فأغناه عن الخيل. وفعل بموسىٰ عليه السّلام حين ألقىٰ الألواحَ وأخذ برأس أخيه، ولم يَعتِب عليه كما عتَبَ علىٰ آدم عليه السّلام وداود ويونس عليهم الصلاة والسّلام) [1].

الفرق بين هذه الدّرجة والّتي قبلها: أنَّ في التي قبلها منعَ من مواقعة أسباب الجفاء اضطرارًا، وفي هذه: إذا عرضتْ له أسبابُ النقيصة التي يستحقُّ عليها اللائمة، لم يَعتِبْه عليها ولم يَلُمْه. وهذا نوعٌ من الدَّلال، وصاحبه من ضَنائن الله وأحبابه. فإنَّ الحبيب يُسامَح بما لا يُسامَح به سواه، لأنَّ المحبّة أكبر شفعائه. وإذا هفا هفوةً ملَّكه عاقبتَها، بأن جعلها سببًا لرِفعته وعلوِّ درجته، فيجعل تلك الهفوة سببًا لتوبةٍ نصوحٍ، وذلٍّ خاصٍّ، وانكسارٍ بين يديه، وأعمالٍ صالحةٍ تزيد في قربه منه أضعافَ ما كان عليه قبل الهفوة. فتكون تلك الهفوة أنفعَ له من حسناتٍ كثيرةٍ. وهذا من علامات اعتناء الله بالعبد، وكونِه من أحبّائه وحزبه.

وقد استشهد الشّيخ رحمه الله بقصَّة سليمان عليه السّلام [2]، حين ألهَتْه الخيل عن صلاة العصر، فأخذتْه الغضبة لله والحميَّة، وحملتْه علىٰ أن مَسَحَ عراقيبها وأعناقها بالسَّيف، وأتلفَ مالًا شَغلَه عن الله في الله، فعوَّضه الله منه أن حمَلَه علىٰ متن الرِّيح. فملّكه الله تعالىٰ عاقبةَ هذه الهفوة. وجعلها سببًا لنيل تلك المنزلة الرّفيعة.

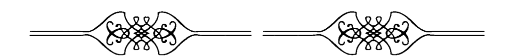
---

(١) «المنازل» (ص٥٨).

(٢) المُشار إليها في سورة ص: ٣٠- ٣٦.

واستشهد بقصّة موسىٰ عليه السلام، حين ألقىٰ الألواحَ وفيها كلام الله عن رأسه وكسَرها، وجرَّ بلحيةِ أخيه وهو نبيٌّ مثله، ولم يَعتِبْه الله علىٰ ذلك كما عتبَ علىٰ آدم عليه السّلام في أكل لقمةٍ من الشجرة، وعلىٰ نوحٍ حين سأل ربَّه في ابنه أن يُنجِيه، وعلىٰ داود في شأن امرأة أوريا، وعلىٰ يونس في شأن المغاضبة.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله يقول: وكذلك لطَمَ عينَ ملك الموت عليه السلام ففقأها، ولم يَعتب عليه ربُّه. وفي ليلة الإسراء عاتبَ ربَّه في النبيِّ ﷺ إذ رفع فوقه، ورفع صوته بذلك، ولم يَعتبه. قال: لأنَّ موسىٰ عليه الصلاة والسلام قام تلك المقاماتِ العظيمةَ التي أوجبت له هذا الدَّلال، فإنّه قاومَ أكبرَ أعداء الله تعالىٰ فرعون، وتصدَّىٰ له ولقومه، وعالج بني إسرائيل أشدَّ المعالجة، وجاهد في الله أعداء الله أشدَّ الجهاد، وكان شديد الغضب لربِّه، فاحتملَ له ما لا يحتمله لغيره. وذو النُّون لمَّا لم يكن في هذا المقام سَجَنَه في بطن الحوت من غضبه، وقد جعل الله لكلِّ شيءٍ قدرًا.



فصل

قال[1]: **(الدّرجة الثّالثة: اجتباء الحقِّ عبدَه، واستخلاصه إيّاه بخالصته. كما ابتدأ موسىٰ وقد خرج يقتبس نارًا، فاصطنعه لنفسه وأبقىٰ منه رسمًا مُعارًا)**.

الاجتباء: الاصطفاء والإيثار والتخصيص، وهو افتعال مِن جَبَيتُ الشّيء: إذا حُزتَه إليك، كجباية المال وغيره.

والاصطناع أيضًا: الاصطفاء والاختيار، يعني أنّه اصطفىٰ موسىٰ ﵇، واستخلصه لنفسه، وجعله له خالصًا من غير سببٍ كان من موسىٰ ولا وسيلةٍ. فإنّه خرج ليقتبس النار، فرجع وهو كليم الواحد القهّار، وأكرمُ الخلق عليه، ابتداءً منه سبحانه، من غير سابقةِ استحقاقٍ، ولا تقدُّمِ وسيلةٍ. وفي مثل هذا قيل[2]:

أيُّها العبد كُنْ لما لستَ ترجو ... من صلاحٍ أرجىٰ لما أنت راجي
إنَّ موسىٰ أتىٰ ليقبِسَ نارًا ... من ضياءٍ رآه والليلُ داجي
فانثنىٰ راجعًا، وقد كلَّم اللّـ ... ـه وناجاه وَهْو خير مُناجي

وقوله: **(وأبقىٰ منه رسمًا معارًا)**.

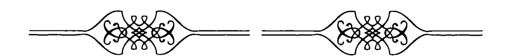
يحتمل أن يريد بالرسم: البقيَّة التي تقدَّمه بها محمَّدٌ ﷺ، ورُفِع فوقه بدرجاتٍ لأجل بقائها معه.

ويحتمل وهو الأظهر أنّه أخذه من نفسه، واصطنعه لنفسه، واختاره من بين العالمين، وخصَّه بكلامه، ولم يُبْقِ له من نفسه إلَّا رسمًا مجرَّدًا يصحب به

---

(١) «المنازل» (ص٥٩).
(٢) الأبيات بلا نسبة في «الفرج بعد الشدة» للتنوخي (٥/ ٧٤)، و«سراج الملوك» للطرطوشي (ص٦٦٣)، و«تاريخ دمشق» (٦١/ ٥٦).

الخلقَ، وتجري عليه فيه أحكام البشريّة، إتمامًا لحكمته، وإظهارًا لقدرته. فهو عاريةٌ معه، فإذا قضىٰ ما عليه استردَّ منه ذلك الرسم، وجعله من ماله، فتكمَّلتْ إذ ذاك مرتبة الاجتباء ظاهرًا وباطنًا، حقيقةً ورسمًا، ورجعت العاريَّة إلىٰ مالكها الحقِّ، الذي إليه يرجع الأمر كلُّه. فكما ابتدأتْ منه عادتْ إليه.



٣/ ٢٦٣

فصل

منزلة الإحسان

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة الإحسان**. وهي لبُّ الإيمان وروحه وكماله، وهذه المنزلة تجمع جميعَ المنازل، فجميعها منطويةٌ فيها. وكلُّ ما قيل من أوّل الكتاب إلىٰ هاهنا فهو من الإحسان.

قال صاحب «المنازل» رحمه الله[(١)] وقد استشهد علىٰ هذه المنزلة بقوله تعالىٰ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾[الرحمن: ٦٠] : **(فالإحسان: جامعٌ لجميع أبواب الحقائق، وهو أن تعبد الله كأنّك تراه)**.

فأمّا الآية، فقال ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما والمفسِّرون: هل جزاء من قال: لا إله إلّا الله وعمل بما جاء به محمّدٌ ﷺ إلّا الجنّة؟[(٢)].

وقد رُوي عن النبيِّ ﷺ أنّه قرأ ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ ثمّ قال: «**هل تدرون ما قال ربُّكم؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: **(يقول: هل جزاء من أنعمت عليه بالتّوحيد إلّا الجنّة؟)**[(٣)].

وأمّا الحديث فإشارةٌ إلىٰ كمال الحضور مع الله ومراقبته، الجامع لخشيته ومحبّته ومعرفته، والإنابة إليه، والإخلاص له، ولجميع مقامات الإيمان.

قال[(٤)]: **(وهو علىٰ ثلاث درجاتٍ. الدّرجة الأولىٰ: الإحسان في القصد، بتهذيبه علمًا، وإبرامه عزمًا، وتصفيته حالًا)**.

---

(١) (ص٦٠).
(٢) انظر: «تفسير البغوي» (٤/ ٢٧٦)، و«الدر المنثور» (١٤/ ١٥٠).
(٣) أخرجه البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٧٦)، من حديث أنس رضي الله عنه، وفي إسناده بشر بن الحسين وهو متروك، انظر: «السلسلة الضعيفة» (٤٩٨٤).
(٤) «المنازل» (ص٦٠).

يعني: إحسان القصد بثلاثة أشياء:

أحدها: تهذيبه علمًا، بأن يُجعل تابعًا للعلم علىٰ مقتضاه، مهذَّبًا به، مُنقًّىٰ من شوائب الحظوظ، فلا يَقصِد إلّا ما يجوز في العلم. والعلم هو اتِّباع الأمر والشّرع.

والثاني: إبرامه عزمًا. والإبرام: الإحكام والقوَّة. أي يُقارِنه عزمٌ يُمضِيه، ولا يصحَبه فتورٌ وتَوانٍ يُضعِفه ويُوهِنه.

الثّالث: تصفيته حالًا. أي يكون حال صاحبه صافيًا من الأكدار والشّوائب التي تدلُّ علىٰ كَدَر قصده، فإنّ الحال مظهر القصد وثمرتُه، وهو أيضًا مادّته وباعثه، فكلٌّ منهما ينفعل عن الآخر. فصفاؤه وتخليصه من تمام صفاء الآخر وتخليصه.

(الدّرجة الثّانية: الإحسان في الأحوال. وهو أن يراعيها غيرةً، ويسترها تظرُّفًا، ويصحِّحها تحقيقًا)[١].

يريد بمراعاتها حفظَها وصونَها، غيرةً عليها أن تحول، فإنَّها تمرُّ مرَّ السحاب، فإن لم يَرْعَ حقوقَها حالت. ومراعاتها: بدوام الوفاء، وتجنُّب الجفاء.

ويراعيها أيضًا بإكرام نُزُلِها، فإنّها ضيفٌ، والضّيف إن لم يُكْرَم نُزُلُه ارتحل.

ويراعيها أيضًا بضبطِها ملكةً، وشدِّ يديه عليها، وأن لا يسمح بها لقاطعٍ ولا نَاهبٍ.

ويراعيها أيضًا بالانقياد إلىٰ حكمها، والإذعانِ لسلطانها إذا وافق الأمر.

ويراعيها أيضًا بسترِها تظرُّفًا، وهو أن يسترها عن النّاس ما أمكنَه لئلَّا يعلموا بها، ولا يُظهرها إلَّا لحجَّةٍ أو حاجةٍ أو مصلحةٍ راجحةٍ، فإنّ في إظهارها بدون

---

(١) «المنازل» (ص٦٠).

ذلك آفاتٍ عديدةً، مع تعريضها للُّصوص والسُّرَّاق والمُغِيرين.

وإظهار الحال للناس عند الصادقين حمقٌ وعجزٌ، وهو من حظوظ النفس والشيطان. وأهل الصِّدق والعزم لها أسترُ وأكتَمُ من أرباب الكنوز من الأموال لأموالهم، حتّىٰ إنّ منهم من يُظهِر أضدادها نفيًا وجحدًا، وهم أصحاب الملامة، ولهم طريقةٌ معروفةٌ، وكان شيخ هذه الطائفة أبو عبد الله[1] بن مَنازل.

واتَّفقت الطائفة علىٰ أنَّ من أطلعَ النَّاسَ علىٰ حاله مع الله فقد دنَّس طريقته، إلَّا لحجَّةٍ أو حاجةٍ أو ضرورةٍ.

وقوله: (**وتصحيحها تحقيقًا**)، أي يجتهد في تحقيق أحواله وتصحيحها وتخليصها، فإنّ الحال قد يمتزج بحقٍّ وباطلٍ، ولا يُميِّزه إلّا أولو البصائر والعلم.

وأهل هذه الطريقة يقولون: إنّ الوارد الذي يبتدئ العبدَ من جانبه الأيمن والهواتف والخطاب يكون في الغالب حقًّا، والّذي يبتدئ من الجانب الأيسر يكون في الغالب باطلًا وكذبًا. فإنَّ أهل اليمين هم أهل الحقِّ، وبأيمانهم يأخذون كتبهم، ونورهم الظَّاهر علىٰ الصِّراط يكون بأيمانهم. وكان رسول الله ﷺ يُعجِبه التيمُّن في تنعُّله وترجُّلِه وطهورِه وشأنِه كلِّه[2]. والله وملائكته يُصلُّون علىٰ مَيامنِ الصُّفوف[3]. وأخبر أنَّ الشَّيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله[4]، وحظُّه من ابن آدم جهة الشِّمال. ولهذا تكون اليد الشِّمال للاستنجاء وإزالة النّجاسة والأذىٰ، ويُبدأ بها عند دخول الخلاء.

---

(١) كذا. والصواب: أبو محمد عبد الله بن منازل، شيخ الملامتية، مات بنيسابور سنة ٣٢٩، انظر: «الرسالة القشيرية» (ص١٩٩).

(٢) كما في حديث عائشة الذي أخرجه البخاري (١٦٨)، ومسلم (٢٦٨).

(٣) أخرجه أبو داود (٦٧٦)، وابن ماجه (١٠٠٥)، وابن حبان (٢١٦٠)، وحسَّنه الحافظ في «الفتح» (٢/ ٢١٣).

(٤) كما في حديث ابن عمر الذي أخرجه مسلم (٢٠٢٠).

ومن الفرقان أيضًا: أنّ كلّ واردٍ يبقىٰ الإنسانُ بعد انفصاله نشيطًا مسرورًا نشوانَ فإنَّه واردٌ مَلَكيٌّ. وكلُّ واردٍ يبقي بعد انفصاله خبيثَ النفس كسلانَ، ثقيلَ الأعضاء والرُّوح، يجنح إلىٰ فتورٍ= فهو واردٌ شيطانيٌّ.

ومن الفرقان أيضًا: أنَّ كل واردٍ أعقبَ في القلب معرفةً بالله، ومحبةً له، وأُنسًا به، وطمأنينةً بذكره، وسكونًا إليه= فهو مَلكي إلهي، وخلافه بخلافه.

ومن الفرقان أيضًا: أنَّ كلَّ واردٍ أعقب صاحبه تقدُّمًا إلىٰ الله والدار الآخرة، وحضورًا فيها، حتَّىٰ كأنَّه يشاهد الجنَّة قد أُزلِفتْ، والجحيم قد سُعِّرت= فهو إلهيٌّ ملكيٌّ، وخلافه شيطانيٌّ نفسانيٌّ.

ومن الفرقان أيضًا: أنَّ كلَّ واردٍ كان سببه النصيحة في امتثال الأمر، والإخلاص والصِّدق فيه= فهو إلهيٌّ ملكيٌّ، وإلّا فهو شيطانيٌّ.

ومن الفرقان أيضًا: أنَّ كلّ واردٍ استنار به القلب، وانشرح له الصّدر، وقوي به القلب= فهو إلهيٌّ، وإلّا فهو شيطانيٌّ.

ومن الفرقان أيضًا: أنَّ كلّ واردٍ جمعَك علىٰ الله فهو منه، وكلّ واردٍ فرَّقك عنه وأخذك منه فمن الشّيطان.

ومن الفرقان أيضًا: أنَّ الوارد الإلهيّ لا يُصرَف إلّا في قربةٍ وطاعةٍ، ولا يكون سببه إلّا قربةً وطاعةً. فمستخرِجه الأمر، ومصروفه الأمر. والشّيطانيُّ بخلافه.

ومن الفرقان أيضًا: أنَّ الوارد الرّحمانيّ لا يتناقض ولا يتفاوت ولا يختلف، بل يُصدِّق بعضه بعضًا، والشّيطانيّ بخلافه يُكذِّب بعضه بعضًا.

فصل

قال[١]: (الدّرجة الثّالثة: الإحسان في الوقت. وهو أن لا تُزايل المشاهدة أبدًا، ولا تَخلِط بهمَّتك أحدًا، وتجعل هجرتك إلىٰ الحقِّ سَرْمدًا).

أي لا تفارق حال الشُّهود. وهذا إنَّما يقدر عليه أهل التمكين الذين ظَفِروا بنفوسهم، وقطعوا المسافاتِ التي بين النّفس وبين القلب، والمسافاتِ التي بين القلب وبين الله، بمجاهدة القُطَّاع التي علىٰ تلك المسافات.

قوله: (وأن لا تَخلِط بهمّتك أحدًا).

يعني: أن تُعلِّق همَّتك بالحقِّ وحده، ولا تُعلِّق بأحدٍ غيره، فإنَّ ذلك شركٌ في طريق الصادقين.

وقوله: «وأن تجعل هجرتك إلىٰ الحقِّ سَرمدًا».

يعني: أنَّ كلَّ متوجِّهٍ إلىٰ الله بالصِّدق والإخلاص فإنَّه من المهاجرين إليه، فلا ينبغي أن يتخلَّف عن هذه الهجرة، بل يصحبها سرمدًا حتّىٰ يلحَقَ بالله.

فما هي إلّا ساعةٌ ثمّ تنقضي ويَحمَدُ غِبَّ السَّيرِ مَن هو سائرُ

ولله علىٰ كلِّ قلبٍ هجرتان، وهما فرضٌ لازمٌ له علىٰ الأنفاس:

هجرةٌ إلىٰ إلهه بالتّوحيد والإخلاص، والإنابة والحبِّ، والخوف والرّجاء، والعبوديّة.

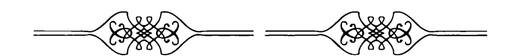
وهجرةٌ إلىٰ رسوله بالتّحكيم له، والتّسليم والتّفويض والانقياد لحكمه، وتلقِّي أحكام الظّاهر والباطن من مشكاته. فيكون تقيُّده به أعظمَ من تقيُّدِ الرَّكْب

---

(١) «المنازل» (ص٦١).

بالدّليل الماهر في ظُلَم اللّيل ومتاهاتِ الطّريق.

فما لم يكن لقلبه هاتان الهجرتان فلْيَحْثُ علىٰ رأسه الرّماد، ولْيراجعِ الإيمانَ من أصله، فيرجع وراءه يقتبس نورًا، قبلَ أن يُحال بينه وبينه ويُقال له ذلك علىٰ الصِّراط من وراء السُّور. والله المستعان.



فصل

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة العلم.**

وهذه المنزلة إن لم تصحب السّالكَ من أوّل قدمٍ يضعه في الطّريق إلىٰ آخر قدمٍ ينتهي إليه فسلوكُه علىٰ غير طريقٍ، وهو مقطوعٌ عليه طريقُ الوصول، مسدودٌ عليه سبلُ الهدىٰ والفلاح، مغلَقةٌ عنه أبوابها. وهذا إجماعٌ من الشُّيوخ العارفين، ولم ينهَ عن العلم إلّا قُطّاع الطّريق منهم، ونُوّاب إبليس وشُرَطُه.

قال سيِّد الطّائفة وشيخهم الجنيد بن محمّدٍ رحمه الله: الطُّرق كلُّها مسدودةٌ علىٰ الخلق إلّا علىٰ من اقتفىٰ أثر الرّسول ﷺ[1].

وقال: من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يُقتَدىٰ به في هذا الأمر، لأنّ علْمنا مقيّدٌ بالكتاب والسُّنّة[2].

وقال: مذهبنا هذا مقيّدٌ بالأصول: الكتاب والسُّنّة[3].

وقال أبو حفصٍ رحمه الله: من لم يَزِنْ أفعالَه وأحوالَه في كلِّ وقتٍ بالكتاب والسُّنّة، ولم يتّهم خواطِرَه= فلا يُعدُّ في ديوان الرِّجال[4].

وقال أبو سليمان الدّارانيُّ رحمه الله: ربّما يقع في قلبي النُّكتة من نُكَت القوم أيامًا، فلا أقبلُ منه إلّا بشاهدين عدلين: الكتاب والسُّنّة[5].

وقال سهل بن عبد الله رضي الله عنه: كلُّ فعلٍ يفعله العبد بغير اقتداءٍ طاعةً كان أو

(١) «الرسالة القشيرية» (ص١٥٥)، ورواه السلمي في «طبقاته» (ص١٥٩).
(٢) «الرسالة القشيرية» (ص١٥٥)، ورواه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٥٥).
(٣) «الرسالة القشيرية» (ص١٥٥).
(٤) «الرسالة القشيرية» (ص١٤٤)، ورواه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٣٠).
(٥) «الرسالة القشيرية» (ص١٣٣)، ورواه السلمي في «طبقاته» (ص٧٨).

معصيةً فهو عيشُ النّفس، وكلُّ فعلٍ يفعله العبد بالاقتداء فهو عذابٌ علىٰ النّفس[١].

وقال أبو يزيد رحمه الله: عمِلتُ في المجاهدة ثلاثين سنةً، فما وجدت شيئًا أشدَّ عليّ من العلم ومتابعته، ولولا اختلاف العلماء لبقيتُ، واختلاف العلماء رحمةٌ إلّا في تجريد التّوحيد[٢].

وقال: لقد هممتُ أن أسأل الله أن يكفيني مُؤنةَ النِّساء، ثمّ قلتُ: كيف يجوز أن أسأل الله هذا ولم يسأله رسول الله ﷺ؟ ولم أسأله. ثمّ إنّ الله كفاني مؤنة النِّساء، حتّىٰ لا أبالي أَسْتقبلَتْني امرأةٌ أو حائطٌ[٣].

وقال: لو نظرتم إلىٰ رجلٍ أُعطِي من الكرامات أن يرفع في الهواء فلا تغترُّوا به، حتّىٰ تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظِ الحدود وأداء الشّريعة[٤].

وقال أحمد بن أبي الحواريِّ: من عمل عملًا بلا اتِّباع سنّةٍ فباطلٌ عملُه[٥].

وقال أبو عثمان النّيسابوريُّ رحمه الله: الصُّحبة مع الله: بحسن الأدب، ودوام الهيبة والمراقبة. والصُّحبة مع الرّسول ﷺ: باتِّباع سنّته، ولزوم ظاهر العلم. ومع أولياء الله: بالاحترام والخدمة. ومع الأهل: بحسن الخلق. ومع الإخوان: بدوام البِشْر ما لم يكن إثمًا. ومع الجهَّال: بالدُّعاء لهم والرّحمة[٦].

زاد غيره: ومع الحافظَينِ: بإكرامهما واحترامهما وإملائهما ما يحمدانك عليه، ومع النفس: بالمخالفة، ومع الشيطان: بالعداوة.

---

(١) «الرسالة القشيرية» (ص١٣٢).
(٢) «الرسالة القشيرية» (ص١٢٧)، ورواه السلمي في «طبقاته» (ص٧٠).
(٣) «الرسالة القشيرية» (ص١٢٨)، ورواه السراج في «اللمع» (ص١٠٤).
(٤) «الرسالة القشيرية» (ص١٢٩)، ورواه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٤٠).
(٥) «الرسالة القشيرية» (ص١٤٢)، ورواه السلمي في «طبقاته» (ص١٠١).
(٦) «الرسالة القشيرية» (ص١٥٨)، ورواه السلمي في «آداب الصحبة» (٥٩).

وقال أبو الحسين النُّوريُّ رحمه الله: من رأيتموه يدّعي مع الله حالةً تُخرِجه عن حدِّ العلم الشّرعيِّ فلا تَقربوا منه[(١)].

وقال محمَّد بن الفضل البلخيُّ من مشايخ القوم الكبار رحمه الله: ذهابُ الإسلام من أربعةٍ: لا يعملون بما يعلمون، ويعملون بما لا يعلمون، ولا يتعلّمون ما يعملون، ويمنعون النّاس عن التّعلُّم أو التّعليم[(٢)].

وقال عمرو بن عثمان المكِّيُّ رحمه الله: العلم قائدٌ، والخوف سائقٌ، والنّفس حَرُونٌ بين ذلك جَمُوحٌ خدَّاعةٌ روَّاغةٌ، فاحذَرْها وراعِها بسياسة العلم، وسُقْها بتهديدِ الخوف، يتمَّ لك ما تريد[(٣)].

وقال أبو سعيدٍ الخرّاز رحمه الله: كلُّ باطنٍ يخالفه الظّاهر فهو باطلٌ[(٤)].

وقال ابن عطاءٍ رحمه الله: من ألزم نفسَه آدابَ السُّنّة نوَّر الله قلبَه بنور المعرفة. ولا مقامَ أشرفُ من مقام متابعة الحبيب في أوامره وأفعاله وأخلاقه[(٥)].

وقال: كلُّ ما سُئِلتَ عنه فاطلُبْه في مفازة العلم، فإن لم تجدْه ففي ميدان الحكمة، فإن لم تجدْه فزِنْه بالتّوحيد، فإن لم تجدْه في هذه المواضع الثّلاثة فاضرِبْ به وجهَ الشّيطان[(٦)].

وقال أبو حمزة البغداديُّ من أكابر الشُّيوخ، وكان أحمد بن حنبلٍ رحمه الله يقول له في المسائل: ما تقول يا صوفيُّ[(٧)]: مَن علِمَ طريقَ الحقِّ سهُلَ عليه سلوكُه، ولا

(١) «الرسالة القشيرية» (ص١٥٩)، ورواه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٥٢).
(٢) «الرسالة القشيرية» (ص١٦٥، ١٦٦)، ورواه السلمي في «طبقاته» (ص٢١٤).
(٣) «الرسالة القشيرية» (ص١٦٨)، ورواه السلمي في «طبقاته» (ص٢٠٣).
(٤) «الرسالة القشيرية» (ص١٧٦).
(٥) «الرسالة القشيرية» (ص١٨٢)، ورواه السلمي في «طبقاته» (ص٢٦٨).
(٦) «الرسالة القشيرية» (ص١٨٢).
(٧) كما في «طبقات الصوفية» للسلمي (ص٢٩٥)، و«تاريخ بغداد» (١/ ٣٩٠).

دليلَ علىٰ الطّريق إلىٰ الله إلّا متابعةُ الرّسول ﷺ في أحواله وأفعاله وأقواله[1].

وقال أبو يعقوب النَّهرَجُوريُّ: أفضلُ الأحوال ما قارنَ العلمَ[2].

وقال أبو القاسم النّصراباذيُّ شيخُ خراسانَ في وقته: أصلُ التصوُّف ملازمة الكتاب والسُّنّة، وتركُ الأهواء والبدع، وتعظيم كرامات المشايخ، ورؤيةُ أعذارِ الخلق، والمداومةُ علىٰ الأوراد، وتركُ ارتكاب الرُّخَص والتّأويلات[3].

وقال أبو بكرٍ الطَّمَسْتانيُّ من كبار شيوخ الطّائفة: الطّريق واضحٌ، والكتاب والسُّنّة قائمٌ بين أظهُرِنا، وفضلُ الصحابة معلومٌ، لسَبْقِهم إلىٰ الهجرة ولصحبتهم. فمن صحِبَ الكتاب والسُّنّة، وتغرَّبَ عن نفسه وعن الخلق، وهاجر بقلبه إلىٰ الله= فهو الصادق المصيب[4].

وقال أبو عمرو بن نُجَيدٍ رحمه الله: كلُّ حالٍ لا يكون عن نتيجة علمٍ فإنّ ضررَه علىٰ صاحبه أكثرُ من نفعه[5].

وأمّا الكلمات التي تروىٰ عن بعضهم: من التزهيد في العلم، والاستغناء عنه، كقول من قال: نحن نأخذ علمنا عن الحيِّ الذي لا يموت، وأنتم تأخذونه عن حيٍّ يموت.

وقول آخر وقد قيل له: ألا ترحل حتّىٰ تسمع من عبد الرّزّاق فقال: ما يَصنع بالسّماع من عبد الرّزّاق من يسمع من الخلّاق؟

وقول آخر: العلم حجابٌ بين القلب وبين الله ﷻ[6].

---

(١) «الرسالة القشيرية» (ص١٨٦).
(٢) «الرسالة القشيرية» (ص٢٠٣).
(٣) «الرسالة القشيرية» (ص٢٢٦)، ورواه السلمي في «طبقاته» (ص٤٨٨).
(٤) «الرسالة القشيرية» (ص٢٢٢).
(٥) «الرسالة القشيرية» (ص٢١٧)، ورواه السلمي في «طبقاته» (ص٤٥٥).
(٦) انظر: «الإحياء» (٢/ ١٥٤).

وقال آخر: إذا رأيت الصوفي يشتغل بـ«أخبرنا» و«حدثنا» فاغسِلْ يدك منه.

وقول آخر: لنا علم الخِرَق، ولكم علم الورق[١].

ونحو هذا من الكلمات التي أحسنُ أحوالِ قائلها: أن يكون جاهلًا يُعذَر بجهله، أو شاطحًا معترفًا بشَطْحه. وإلّا فلولا عبد الرزّاق وأمثاله، ولولا «أخبرنا» و«حدّثنا» لَمَا وصل إلىٰ هذا وأمثالِه شيءٌ من الإسلام. ومن أحالك علىٰ غير «أخبرنا» و«حدّثنا» فقد أحالك: إمَّا علىٰ خيال صوفيٍّ، أو قياس فلسفيٍّ، أو رأي نفسيٍّ. فليس بعد القرآن و«أخبرنا» و«حدّثنا» إلّا شبهات المتكلِّمين، وآراء المتخرصين، وخيالات المتصوِّفين، وقياسات المتفلسفين.

ومن فارق الدليلَ ضلَّ عن سواء السبيل، ولا دليلَ إلىٰ الله والجنّة سوىٰ الكتاب والسُّنّة، وكلُّ طريقٍ لم يَصحَبْها دليل السُّنّة والقرآن فهي من طرق الجحيم والشّيطان.

والعلم ما قام عليه الدليل، والنّافع ما جاء به الرسول. والعلم خيرٌ من الحال:

العلم حاكمٌ، والحال محكومٌ عليه.

العلم هادٍ، والحال تابعٌ.

العلم آمرٌ ناهٍ، والحال منفِّذٌ قابلٌ.

والحال سيفٌ، إن لم يصحبه علمٌ فهو مِخراقٌ في يدِ لاعبٍ.

الحال مركوبٌ لا يُجارىٰ، فإن لم يصحبه علمٌ ألقىٰ صاحبه في المهالك والمتالف.

الحال بلا علمٍ كالسُّلطان الذي لا يَزَعُه عن سطوته وازعٌ.

---

(١) انظر نحوه عن بعض الصوفية في «تلبيس إبليس» (ص٢٩١).

الحال بلا علمٍ كالنار التي لا سائسَ لها.

والحال كالمال يُؤتاه البرُّ والفاجر، فإن لم يصحبه نورُ العلم كان وبالًا علىٰ صاحبه.

نفع الحال لا يتعدَّىٰ صاحبَه، ونفعُ العلم كالغيث يقع علىٰ الظِّراب والآكام وبطون الأودية ومنابت الشّجر.

دائرة العلم تسَعُ الدُّنيا والآخرة، ودائرة الحال تَضِيق عن غير صاحبه، وربَّما ضاقت عنه.

العلم هادٍ، والحال الصحيح مهتدٍ به. وهو تِركة الأنبياء وتُراثهم، وأهله عصبتهم وورّاثهم. وهو حياة القلوب، ونور البصائر، وشفاء الصُّدور، ورياض العقول، ولذّة الأرواح، وأنس المستوحشين، ودليل المتحيِّرين.

وهو الميزان الذي به تُوزن الأقوال والأعمال والأحوال.

وهو الحاكم المفرِّق بين الشّكِّ واليقين، والغيِّ والرّشاد، والهدىٰ والضّلال.

به يُعرف الله ويُعبد، ويذكر ويُوحَّد، ويُحمد ويمجَّد. وبه اهتدىٰ إليه السالكون، ومن طريقه وصل إليه الواصلون، ومن بابه دخل عليه القاصدون.

به تُعرف الشرائع والأحكام، ويتميّز الحلال من الحرام، وبه تُوصَل الأرحام، وبه تُعرف مَراضي الحبيب، وبمعرفتها ومتابعتها يُوصل إليه من قريبٍ.

وهو إمامٌ، والعمل مأمومٌ. وقائدٌ، والعمل تابعٌ.

مذاكرته تسبيحٌ، والبحث عنه جهادٌ، وطلبه قُربةٌ، وبذله صدقةٌ، ومدارسته تَعدِل بالصِّيام والقيام، والحاجة إليه أعظم منها إلىٰ الشّراب والطّعام.

قال الإمام أحمد رضي الله عنه: النّاس إلىٰ العلم أحوجُ منهم إلىٰ الطعام والشراب، لأنّ الرّجل يحتاج إلىٰ الطعام والشراب في اليوم مرّةً أو مرّتين، وحاجته إلىٰ العلم بعددِ أنفاسه[1].

---

(١) انظر: «مسائل الإمام أحمد» لحرب (٣٤٣)، و«طبقات الحنابلة» (١/ ٣٩٠).

وروِّينا عن الشّافعيِّ ﷺ أنّه قال: طلب العلم أفضل من صلاة النّافلة[١].

ونصّ علىٰ ذلك أبو حنيفة رحمه الله[٢].

وقال ابن وهبٍ رحمه الله: كنت بين يدي مالكٍ ﷺ، فوضعتُ ألواحي وقمتُ أصلِّي، فقال: ما الذي قمتَ إليه بأفضلَ ممَّا قمتَ عنه. ذكره ابن عبد البرِّ[٣] وغيره.

واستشهد الله ﷻ بأهل العلم علىٰ أجلِّ مشهودٍ به وهو التوحيد، وقرنَ شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وفي ضمنِ ذلك تعديلُهم، فإنّه لا يستشهد بمجروحٍ. ومن هاهنا والله أعلم يُؤخذ الحديث المعروف «**يَحمِلُ هذا العلمَ من كلِّ خَلَفٍ عُدولُه، ينفون عنه تحريفَ الغالين، وتأويل المبطلين**»[٤].

وهو حجَّة الله في أرضه، ونوره بين عباده، وقائدهم ودليلهم إلىٰ جنّته، ومُدنِيهم من كرامته.

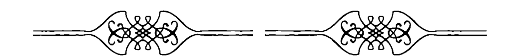
ويكفي في شرفه: أنَّ فضل أهله علىٰ العباد كفضل القمر ليلة البدر علىٰ سائر الكواكب، وأنَّ الملائكة تضع لهم أجنحتها، وتُظِلُّهم بها، وأنَّ العالم يستغفر له من في السماوات ومن في الأرض، حتَّىٰ الحيتان في البحر[٥]، وحتَّىٰ النملة في جُحْرها، وأنَّ الله وملائكته يصلُّون علىٰ معلِّمِ النّاسِ الخيرَ[٦].

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «آداب الشافعي ومناقبه» (ص٩٧).
(٢) انظر: «الكسب» لمحمد بن الحسن بشرحه للسرخسي (ص١٠٢، ١٤٨، ١٥٤).
(٣) في «جامع بيان العلم» (١/ ١٢٢).
(٤) أخرجه ابن حبان في «الثقات» (٤/ ١٠)، وابن عدي في «الكامل» (١/ ١١٨)، والخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (٥٥)، وهو ضعيف.
(٥) كما في حديث أبي الدرداء الذي أخرجه أحمد (٢١٧١٥)، وأبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وصححه ابن حبان (٨٨).
(٦) كما في حديث أبي أمامة الذي أخرجه الترمذي (٢٦٨٥).

ولقد رحل كليم الرحمن موسىٰ بن عمران ﷺ في طلب العلم هو وفتاه، حتّىٰ مَسَّهم النَّصَبُ في سفرهم في طلب العلم، حتّىٰ ظفر بثلاث مسائل. وهو أكرم الخلق علىٰ الله وأعلمهم به.

وأمر الله رسوله أن يسأله المزيد منه فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[طه: ١١٤].

وحرَّم الله صيد الجوارح الجاهلة، وإنّما أباح للأمَّة صيدَ الجوارح العالمة. فهكذا جوارح الإنسان الجاهل لا يُجدِي عليه صيدُها من الأعمال شيئًا.



٣/ ٢٩٢

فصل

منزلة الحكمة

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة الحكمة.**

قال الله تعالىٰ: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[البقرة: ٢٦٩]. وقال: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[النساء: ١١٣]. وقال عن المسيح عليه السّلام: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨].

الحكمة في كتاب الله نوعان: مفردةٌ، ومقرونةٌ بالكتاب. فالمفردة فُسِّرت بالنُّبوّة، وفُسِّرت بعلم القرآن. قال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: هي علم القرآن ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدَّمه ومؤخَّره، وحلاله وحرامه، وأمثاله[١].

وقال الضحَّاك: القرآن والفهم فيه[٢].

وقال مجاهدٌ: هي القرآن والعلم والفقه[٣]. وفي روايةٍ أخرىٰ عنه: هي الإصابة في القول والفعل[٤].

وقال النّخعيُّ: هي معرفة معاني الأشياء وفهمها[٥].

وقال الحسن: الورع في دين الله[٦]. كأنّه فسَّرها بثمرتها ومقتضاها.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٥٣١).
(٢) «تفسير البغوي» (١/ ٢٥٦).
(٣) أخرجه الطبري (٥/ ٩)، وابن أبي حاتم (٢/ ٥٣١).
(٤) أخرجه الطبري (٥/ ١٠)، وابن أبي حاتم (٢/ ٥٣٢).
(٥) «تفسير البغوي» (١/ ٢٥٧)، وأخرجه الطبري (٥/ ١١)، وابن أبي حاتم (٢/ ٥٣٢).
(٦) ذكره الثعلبي في «الكشف والبيان» (٢/ ٢٧٢).

وأمّا الحكمة المقرونة بالكتاب فهي السُّنّة. كذلك قال الشّافعيُّ وغيره من الأئمّة[(١)]. وقيل: هي القضاء بالوحي[(٢)]. وتفسيرها بالسُّنّة أعمُّ وأشهر.

وأحسن ما قيل في الحكمة قول مجاهدٍ ومالكٍ: إنَّها معرفة الحقِّ والعمل به، والإصابة في القول والعمل[(٣)]. وهذا لا يكون إلاّ بفهم القرآن، والفقه في شرائع الإسلام وحقائق الإيمان.

والحكمة حكمتان: علميَّةٌ وعمليَّةٌ. فالعلميَّة: الاطِّلاع علىٰ بواطن الأشياء، ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبَّباتها خلقًا وأمرًا، قدرًا وشرعًا.

والعملية كما قال صاحب «المنازل»[(٤)]: **(هي وضع الشّيء في موضعه)**.

قال[(٥)]: **(وهي علىٰ ثلاث درجاتٍ. الدرجة الأولىٰ: أن تُعطي كلّ شيءٍ حقَّه ولا تُعدِّيه حدّه، ولا تُعجِّله عن وقته، ولا تُؤخِّره عنه)**.

لمّا كانت الأشياء لها مراتب وحقوقٌ تقتضيها شرعًا وقدرًا، ولها حدودٌ ونهاياتٌ تصل إليها ولا تتعدَّاها، ولها أوقاتٌ لا تتقدَّم عنها ولا تتأخَّر= كانت الحكمة مراعاة هذه الجهات الثلاث: بأن يُعطي المرتبةَ حقَّها الذي أحقَّه الله لها بشرعه وقدره، ولا يتعدَّىٰ بها حدَّها فيكون متعدِّيًا مخالفًا للحكمة، ولا يطلب تعجيلها عن وقتها فيخالف الحكمة، ولا تأخيرها عنه فيفوتها.

وهذا حكمٌ عامٌّ لجميع الأسباب مع مسبَّباتها شرعًا وقدرًا، فإضاعتها تعطيلٌ للحكمة بمنزلة إضاعة البذر وسَقْي الأرض.

---

(١) انظر: «الرسالة» (ص٢٧، ٧٢).

(٢) روي ذلك عن ابن عباس، كما في «زاد المسير» (٢/ ١٩٧).

(٣) رواه ابن وهب في «جامعه» (٢/ ١٣٠- التفسير)، وانظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٧٠).

(٤) (ص٦٢).

(٥) «المنازل» (ص٦٢).

وتعدِّي الحقِّ: كسَقْيها فوقَ حاجتها، بحيث يغرق البذر والزّرع ويفسد.

وتعجيلها عن وقتها: كحصاده قبل إدراكه وكماله.

وكذلك تركُ الغذاء والشّراب واللّباس إخلالٌ بالحكمة، وتعدِّي الحدِّ المحتاج إليه خروجٌ عنها أيضًا، وتعجيل ذلك قبل وقته إخلالٌ بها أو تأخيره عن وقته.

فالحكمة إذًا: فعلُ ما ينبغي، علىٰ الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي.

والله تعالىٰ أورث الحكمة آدمَ وبنيه. فالرجل مَن له إرثٌ كاملٌ من أبيه، ونصفُ الرجل كالمرأة له نصف ميراثٍ، والتفاوت في ذلك لا يحصيه إلّا الله تعالىٰ.

وأكمل الخلق في هذا هم الرُّسل، وأكملهم أولو العزم، وأكملهم محمَّدٌ ﷺ. ولهذا امتنَّ سبحانه عليه وعلىٰ أمَّته بما آتاهم من الحكمة، كما قال: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾[النساء: ١١٣]. وقال تعالىٰ: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ١٥١].

وكلُّ نظام الوجود مرتبطٌ بهذه الصِّفة، وكلُّ خللٍ في الوجود وفي العبد فسببه: الإخلال بها. فأكملُ النّاس أوفرهم منها نصيبًا، وأنقصُهم وأبعدُهم عن الكمال أقلُّهم منها ميراثًا.

ولها ثلاثة أركانٍ: العلم، والحلم، والأناة.

وآفتها وأضدادها: الجهل، والطَّيش، والعَجَلة. فلا حكمةَ لجاهلٍ ولا طائشٍ ولا عَجولٍ.

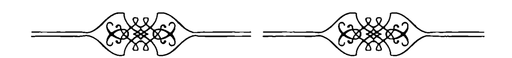
فصل

قال(١): (الدرجة الثانية: أن تشهد نظر الله في وعده، وتعرف عدلَه في حكمه، وتلحظَ برَّه في منعِه).

أي تعرف الحكمة في الوعد والوعيد، وتشهد حكمه في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠]. فتشهد عدله في وعيده، وإحسانَه في وعده، وكلٌّ قائمٌ بحكمته.

وكذلك تعرف عدله في أحكامه الشرعيَّة والكونيَّة الجارية علىٰ الخلائق، فإنَّه لا ظلمَ فيها ولا حيفَ ولا جورَ، وإن أجراها علىٰ أيدي الظّلمة. فهو أعدل العادلين، ومن جرتْ علىٰ يديه هو الظّالم.

وكذلك تعرف برَّه في منعه، فإنَّه سبحانه هو الجواد الذي لا يَنقُص خزائنَه الإنفاقُ، ولا يَغيض ما في يمينه سعةُ عطائه. فما منع مَن منعَه فضلَه إلّا لحكمةٍ كاملةٍ في ذلك، فإنّه الجواد الحكيم، وحكمته لا تناقض جودَه. فهو لا يضع برَّه وفضلَه إلّا في موضعه ووقته، بقدر ما تقتضيه حكمته.

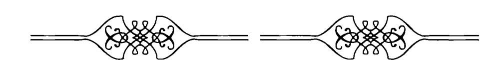


(١) «المنازل» (ص٦٢).

فصل

قال[1]: (**الدرجة الثالثة: أن تَبلُغ في استدلالك البصيرةَ، وفي إرشادك الحقيقةَ، وفي إشارتك الغايةَ**).

يريد: أن تصل باستدلالك إلىٰ أعلىٰ درجات العلم، وهي البصيرة التي تكون نسبة العلوم فيها إلى القلب كنسبة المرئيِّ إلىٰ البصر. وهذه هي الخَصِيصة التي اختصّ بها الصّحابة عن سائر الأمّة، وهي أعلىٰ درجات العلماء. قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾[يوسف: ١٠٨].



(١) «المنازل» (ص٦٣).

فصل

٣/ ٣٠٠

منزلة الفراسة

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة الفراسة.**

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[الحجر: ٧٥]. قال مجاهدٌ رحمه الله: للمتفرِّسين. وقال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: للناظرين. وقال قتادة: للمعتبرين. وقال مقاتلٌ: للمتفكِّرين[١].

ولا تَنافِيَ بين هذه الأقوال، فإنَّ الناظر متىٰ نظر في آثار ديار المكذِّبين ومنازلهم وما آل إليه أمرهم= أورثه فراسةً وعبرةً وفكرةً. وقال تعالىٰ في حقِّ المنافقين: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ﴾[محمد: ٣٠]. فالأوَّل: فراسة النظر والعين. والثاني: فراسة الأذن والسّمع.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله يقول: علَّق معرفته إيَّاهم بالنظر علىٰ المشيئة، ولم يُعلِّق تعريفهم بلحن خطابهم علىٰ شرطٍ، بل أخبر به خبرًا مؤكَّدًا بالقسم، فقال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ﴾، وهو تعريض الخطاب وفحوىٰ الكلام ومغزاه.

والمقصود: أنَّه سبحانه أقسم علىٰ معرفتهم من لحن خطابهم، فإنّ معرفة المتكلِّم وما في ضميره من كلامه أقربُ من معرفته بسيماه وما في وجهه، فإنَّ دلالة الكلام علىٰ قصد قائله وضميره أظهرُ من دلالة السِّيما المرئيّة. والفراسة تتعلّق بالنّوعين بالنّظر والسّماع. وفي التِّرمذيِّ[٢] من حديث أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه عن النّبيِّ ﷺ قال: «**اتّقوا فراسةَ المؤمن، فإنّه ينظر بنور الله**». ثمّ قرأ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[الحجر: ٧٥].

---

(١) «تفسير البغوي» (٣/ ٥٥).

(٢) رقم (٣١٢٧). قال الترمذي: «هذا حديث غريب».

فصل

أنواع الفراسة

والفراسة ثلاثة أنواعٍ:

إيمانيّةٌ، وهي المتكلَّم فيها في هذه المنزلة.

وسببها: نور يَقذِفه الله في قلب عبده، يُفرِّق به بين الحقِّ والباطل، والحالي والعاطل، والصّادق والكاذب.

وحقيقتها: أنّها خاطرٌ يَهجُم على القلب ينفي ما يضادُّه، يَثِبُ على القلب كوثوب الأسد على الفريسة، لكنّ الفريسة فعيلةٌ بمعنى مفعولة، وبناء الفراسة كبناء الولاية والإمارة والسِّياسة.

وهذه الفراسة على حسب قوَّة الإيمان. فمن كان أقوى إيمانًا فهو أحدُّ فراسةً.

قال أبو سعيدٍ الخرَّاز: من نظر بنور الفراسة نظر بنور الحقِّ، وتكون موادُّ علمه من الحقِّ بلا سهوٍ ولا غفلةٍ. بل حكم حقٍّ جرى على لسان عبده[1].

وقال الدّارانيُّ رحمه الله: الفراسة مكاشفة النّفس ومعاينة الغيب، وهي من مقامات الإيمان[2].

وقال أبو عمرو بن نُجيدٍ: كان شاه الكرمانيُّ حادَّ الفراسة، لا يخطئ، ويقول: من غضَّ بصرَه عن المحارم، وأمسك نفسَه عن الشّهوات، وعَمَرَ باطنَه بدوام المراقبة وظاهرَه باتِّباع السُّنّة، وتعوَّدَ أكلَ الحلال= لم تُخطِئ فراسته[3].

---

(١) «الرسالة القشيرية» (ص٥١٤).

(٢) «الرسالة القشيرية» (ص٥١٥).

(٣) المصدر نفسه (ص١٧٢، ٥١٨)، ورواه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٣٧).

وقال أبو جعفرٍ الحدَّاد: الفراسة أوَّل خاطرٍ بلا مُعارضٍ، فإن عارضه معارضٌ من جنسه فهو خاطرٌ وحديثُ نفسٍ[(١)].

وقال أبو حفصٍ النّيسابوريُّ: ليس لأحدٍ أن يدَّعي الفراسة، ولكن يتّقي الفراسة من الغير، لأنَّ النبيّ ﷺ قال: «**اتَّقوا فراسةَ المؤمن، فإنّه ينظر بنور الله**». ولم يقل: «تفرَّسوا». وكيف تصحُّ دعوىٰ الفراسة لمن هو في محلِّ اتِّقاء الفراسة؟[(٢)].

وقال أحمد بن عاصمٍ الأنطاكيُّ: إذا جالستم أهلَ الصِّدق فجالسوهم بالصِّدق، فإنّهم جواسيسُ القلوب، يدخلون في قلوبكم ويخرجون من حيث لا تحتسبون[(٣)].

وكان الجنيد رحمه الله يومًا يتكلَّم علىٰ الناس، فوقف عليه شابٌّ نصرانيٌّ متنكِّرًا، فقال: أيُّها الشَّيخ ما معنىٰ قول رسول الله ﷺ: «**اتَّقوا فراسة المؤمن، فإنّه ينظر بنور الله**»، فأطرق الجنيد، ثمَّ رفع إليه رأسه وقال: أسلِمْ فقد حانَ وقتُ إسلامك. فأسلم الغلام[(٤)].

ويقال في بعض الكتب القديمة: إنَّ الصِّدِّيق لا تُخطئ فراستُه[(٥)].

وقال ابن مسعودٍ رضي الله عنه: أفرسُ الناس ثلاثةٌ: العزيز في يوسف، حيث قال لامرأته: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾[يوسف: ٢١]. وابنة شعيبٍ حين قالت لأبيها في موسىٰ: ﴿ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُ﴾[القصص: ٢٦]. وأبو بكرٍ في عمر حيث استخلفه. وفي روايةٍ أخرىٰ: وامرأة فرعون حين قالت: ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ

---

(١) المصدر نفسه (ص٥١٩)، ورواه السلمي في «تفسيره» (١/ ٣٥٩).

(٢) «الرسالة القشيرية» (ص٥١٩).

(٣) المصدر نفسه (ص٥١٩).

(٤) المصدر نفسه (ص٥٢٧).

(٥) المصدر نفسه (ص٥٢٤).

﴿لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾[القصص: ٩][١].

وكان الصِّدِّيق رضي الله عنه أعظمَ الأمَّة فراسةً. وبعده عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، ووقائع فراسته مشهورةٌ، فإنَّه «ما قال لشيءٍ: أظنُّه كذا، إلَّا كان كما قال»[٢]. ويكفي في فراسته موافقتُه ربَّه في المواضع المعروفة[٣].

ومرَّ به سَواد بن قاربٍ ولم يكن يعرفه، فقال: لقد أخطأ ظنِّي، أو أنَّ هذا كاهنٌ، أو كان يعرف الكهانة في الجاهليّة. فلمَّا جلس بين يديه قال له ذلك عمر. فقال: سبحان الله! يا أمير المؤمنين، ما استقبلتَ أحدًا من جلسائك بمثل ما استقبلتَني به. فقال له عمر رضي الله عنه: ما كنَّا عليه في الجاهليَّة أعظم من ذلك. ولكن أخبرني عمَّا سألتُك. فقال: صدقتَ يا أمير المؤمنين، كنتُ كاهنًا في الجاهليَّة. ثمّ ذكر القصّة[٤].

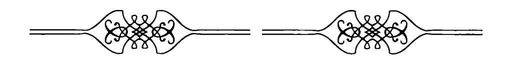
وكذلك عثمان بن عفَّان رضي الله عنه كان صادقَ الفراسة. قال أنس بن مالكٍ رضي الله عنه: دخلتُ علىٰ عثمان بن عفَّان رضي الله عنه، وكنت رأيتُ في الطريق امرأةً تأمَّلتُ محاسنَها، فقال عثمان رضي الله عنه: يدخل عليَّ أحدكم وأثر الزِّنا ظاهرٌ في عينيه. فقلت: أوَحْيٌ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: لا، ولكن تبصرةٌ وبرهانٌ وفراسةٌ صادقةٌ[٥].

وفراسة الصَّحابة رضي الله عنهم أصدق الفراسة.

وأصلُ هذا النوع من الفراسة: من الحياة والنُّور اللّذين يهبهما الله لمن يشاء من عباده، فيحيا القلب بذلك ويستنير، فلا تكاد فراسته تخطئ. قال تعالىٰ:

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٣/ ٢٧٣)، وصححه الحاكم (٣/ ٩٠)، ووافقه الذهبي.
(٢) قاله ابن عمر، كما في البخاري (٣٨٦٦). وانظر: «الطرق الحكمية» (١/ ٧٣- ٧٨).
(٣) نظمها السيوطي في قصيدة سماها «قطف الثمر في موافقات عمر»، مطبوعة ضمن «الحاوي للفتاوي» (٢/ ١١٣).
(٤) أخرجها ابن منده في «معرفة الصحابة» (٢/ ٨٠٣)، وأصلها عند البخاري (٣٨٦٦).
(٥) أورده الغزالي في «الإحياء» (٣/ ٢٥).

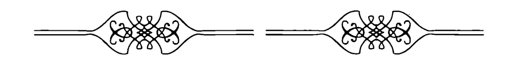
﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[الأنعام: ١٢٢]. كان ميتًا بالكفر والجهل، فأحياه بالعلم والإيمان، وجعل له بالقرآن والإيمان نورًا يستضيء به في النّاس علىٰ قَصْد السّبيل، ويمشي به في الظُّلَم.



فصل

الفراسة الثّانية: فراسة الرِّياضة والجوع والسَّهَر والتّخلِّي، فإنَّ النّفس إذا تجرَّدت عن العوائق صار لها من الفراسة والكشف بحسب تجرُّدها. وهذه فراسةٌ مشتركةٌ بين المؤمن والكافر، ولا تدلُّ علىٰ إيمانٍ ولا علىٰ ولايةٍ. وكثيرٌ من الجهَّال يَغتَرُّ بها، وللرُّهبان فيها وقائع معلومةٌ. وهي فراسةٌ لا تكشف عن حقٍّ نافعٍ، ولا عن طريقٍ مستقيمٍ. بل كشفها جزئيٌّ من جنس فراسة الوُلاة وأصحابِ عبارة الرُّؤيا والأطبّاءِ ونحوهم.

وللأطبّاء فراسةٌ معروفةٌ مِن حِذْقهم في صناعتهم. ومن أحبَّ الوقوف عليها فليطالع تواريخهم وأخبارهم. وقريبٌ من نصف الطِّبِّ فراسةٌ صادقةٌ يقترِنُ بها تجربةٌ.



فصل

الفراسة الثّالثة: الفراسة الخَلْقيَّة. وهي التي صنَّف فيها الأطبّاء وغيرهم، واستدلُّوا بالخَلْق على الخُلق لما بينهما من الارتباط الذي اقتضتْه حكمة الله. كالاستدلال بصغر الرّأس الخارج عن العادة على صغر العقل، وبكِبَرِه على كِبَرِه.

ومعظم تعلُّق الفراسة بالعين، فإنَّها مرآة القلب وعنوان ما فيه. ثمَّ باللِّسان، فإنّه رسوله وترجمانه.

وأصل هذه الفراسة: أنَّ اعتدال الخلقة والصُّورة هو من اعتدال المزاج والرُّوح، وعن اعتدالها يكون اعتدالُ الأخلاق والأفعال، وبحسب انحراف الخلقة والصُّورة عن الاعتدال يقع الانحرافُ في الأخلاق والأعمال.

هذا إذا خُلِّيت النّفس وطبيعتَها.

ولكنَّ صاحب الصُّورة والخلقة المعتدلة يكتسب بالمقارنة والمعاشرة أخلاقَ من يقارنه ويعاشره، ولو أنَّه من الحيوان البهيم. فيصير من أخبث النّاس أخلاقًا وأفعالًا، وتعود له تلك طباعًا، ويتعذَّر أو يتعسَّر عليه الانتقالُ عنها.

وكذلك صاحب الخلقة والصُّورة المنحرفة عن الاعتدال، يكتسب بصحبة الكاملين وخُلطتِهم أخلاقًا وأفعالًا شريفةً تصير له كالطبيعة، فإنّ العوائد والمزاولات تُعطي الملكاتِ والأخلاق.

فليتأمَّل هذا الموضع، ولا يُعجِّل بالقضاء بالفراسة دونه، فإنَّ القاضي حينئذٍ يكون خطؤه كثيرًا. فإنَّ هذه العلامات أسبابٌ لا موجبةٌ، وقد تتخلَّف عنها أحكامها لفَواتِ شرطٍ أو لوجود مانعٍ.

وفراسة المتفرِّس تتعلّق بثلاثة أشياء: بعينه، وأُذنه، وقلبه. فعينه: للسِّيما والعلامات. وأذنه: للكلام وتصريحه وتعريضه، ومنطوقه ومفهومه، وفحواه وإشارته، ولحنه وإيمائه ونحو ذلك. وقلبه: للعبور والاستدلال من المنظور والمسموع إلىٰ باطنه وخفيِّه، فيَعبُر إلىٰ ما وراء ظاهره، كعبور النُّقّاد من ظاهر النّقش والسِّكّة إلىٰ باطن النّقد والاطِّلاع عليه: هل هو صحيحٌ أو زَغَلٌ[١]؟ وكذلك عبور المتفرِّس من ظاهر الهيئة والدَّلِّ إلىٰ باطن الرُّوح والقلب، فنسبةُ نقدِه للأرواح من الأشباح كنسبة نقد الصّيرفيِّ للجوهر من ظاهر السِّكّة والنّقد.

وكذلك نقد أهل الحديث، فإنَّه يمرُّ بهم إسنادٌ ظاهرٌ كالشمس علىٰ متنٍ مكذوبٍ، فيُخرِجه نقدهم كما يُخرِج الصّيرفيُّ الزّغلَ تحت الظّاهر من الفضّة.

وكذلك فراسة التمييز بين الصادق والكاذب في أقواله وأفعاله وأحواله.

وللفراسة سببان:

أحدهما: جودة ذهن المتفرِّس، وحِدَّة قلبه، وحسن فِطنته.

والثّاني: ظهور العلامات والأدلَّة علىٰ المتفرَّس فيه.

فإذا اجتمع السببان لم تكد تُخطئ للعبد فراسةٌ، وإذا انتفيا لم تكد تصحُّ له فراسةٌ، وإذا قوي أحدهما وضعف الآخر كانت فراستُه بينَ بينَ.

وكان إياس بن معاوية من أعظم الناس فراسةً، وله الوقائع المشهورة[٢]. وكذلك الشّافعيُّ رحمه الله[٣]. وقيل: إنَّ له فيها تواليف[٤].

---

(١) أي: مغشوش.

(٢) انظرها في «أخبار القضاة» لوكيع (١/ ٣٤٣- ٣٧٤).

(٣) انظر «مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ١٣٠- ١٣٧).

(٤) انظر: «آداب الشافعي ومناقبه» لابن أبي حاتم (ص١٢٩)، و«مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ١٣٤).

ولقد شاهدتُ من فراسة شيخ الإسلام ابن تيميّة أمورًا عجيبةً، وما لم أشاهده منها أعظم وأعظم. ووقائُع فراسته تستدعي سِفرًا ضخمًا.

وأخبر أصحابَه بدخول التّتار الشّام سنة تسعٍ وتسعين وستِّمائةٍ، وأنّ جيوش المسلمين تُكْسَر، وأنّ دمشق لا يكون بها قتلٌ عامٌّ ولا سبيٌ عامٌّ، وأنّ كَلَب الجيش وحدَّته في الأموال. هذا قبل أن يَهُمَّ التّتار بالحركة.

ثمّ أخبر النّاسَ والأمراءَ سنة اثنتين وسبعمائةٍ لمَّا تحرّك التّتار وقصدوا الشام: أنَّ الدائرة عليهم والهزيمة، والظّفر والنّصر للمسلمين. وأقسم علىٰ ذلك أكثر من سبعين يمينًا، فيقال له: قُل إن شاء الله. فيقول: إن شاء الله تحقيقًا لا تعليقًا[1]. سمعتُه يقول ذلك. قال: فلمَّا أكثروا عليَّ قلت: لا تُكثروا، كتب الله تعالىٰ في اللّوح المحفوظ أنّهم مهزومون في هذه الكرَّة، وأنّ النّصر لجيوش الإسلام. قال: وأطعمتُ بعضَ الأمراء والعسكر حلاوةَ النّصر قبل خروجهم إلىٰ لقاء العدوِّ.

وكانت فراساته الجزئيَّة في خلال هاتين الوقعتين مثل المطر.

ولمَّا طُلِب إلىٰ الدِّيار المصريَّة وأُريد قتله بعد أن أُنضِجت له القدور، وقُلِّبت له الأمور اجتمع أصحابُه لوداعه، وقالوا: قد تواترت الكتب بأنّ القوم عاملون علىٰ قتلك. فقال: واللهِ لا يَصِلُون إلىٰ ذلك أبدًا. قالوا: فتُحْبَس؟ قال: نعم، ويطول حبسي، ثمَّ أَخرُج وأتكلَّمُ بالسُّنّة علىٰ رؤوس المنابر. سمعته يقول ذلك.

ولمَّا تولّىٰ عدوُّه الملقَّب بالمظفَّر الجاشَنْكير الملك أخبروه بذلك، وقالوا: الآن بلغ مراده منك، فسجد لله شكرًا وأطال. فقيل له: ما سببُ هذه السّجدة؟ فقال: هذا بداية ذُلِّه، وفارقَه عزُّه من الآن، وقرُبَ زوالُ أمره. فقيل له: متىٰ هذا؟

---

(١) انظر: «البداية والنهاية» (١٨/ ٢٣، ٢٧).

فقال: لا تُربَطُ خيولُ الجند على القُرْط[١] حتَّى تُقلَب دولته. فوقع الأمر مثلَ ما أخبر به[٢]. سمعت ذلك منه وعنه.

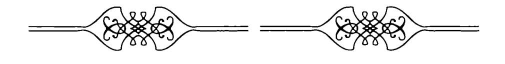
وقال مرَّةً: يدخل عليَّ أصحابي وغيرهم، فأرى في وجوههم وأعينهم أمورًا لا أذكرها لهم. فقلتُ له أو غيري: لو أخبرتَهم؟ فقال: أتريدون أن أكون معرِّفًا كمعرِّفَ الولاة؟

وقلت له يومًا: لو عاملْتَنا بذلك لكان أدعى إلى الاستقامة والصّلاح، فقال: لا تصبرون معي على ذلك جمعةً، أو قال: شهرًا.

وأخبرني غير مرَّةٍ بأمورٍ باطنةٍ تختصُّ بي، ممَّا عزمتُ عليه ولم ينطِقْ به لساني.

وأخبرني ببعض حوادثَ كبارٍ تجري في المستقبل، ولم يُعيِّن أوقاتَها. وقد رأيتُ بعضها وأنا أنتظر بقيَّتها.

وما شاهده كبار أصحابه من ذلك أضعافُ أضعافِ ما شاهدتُه.



(١) قرَّط الفرسَ: وضع اللجام وراء أُذنِه عند الركض. وقد جهَّز الجاشنكير خيول الجند لقتال الملك الناصر، فلم يتم له ما أراد؛ بسبب تخلِّي أنصاره عنه.

(٢) انظر: «النجوم الزاهرة» (٨/ ٢٣٢- ٢٧٦)، و«السلوك» للمقريزي (٢/ ٤٥- ٧١، ٨٠).

٣/ ٣١٩

فصل

منزلة التعظيم

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة التعظيم**.

وهذه المنزلة تابعةٌ للمعرفة. فعلىٰ قدر المعرفة يكون تعظيم الرّبِّ تعالىٰ في القلب، وأعرفُ النّاس به أشدُّهم له تعظيمًا وإجلالًا. وقد ذمّ الله من لم يُعظِّمه حقَّ عظمته، ولا عرفوه حقَّ معرفته، ولا وصفوه حقَّ صفته. وأقوالهم تدور علىٰ هذا.

وقال تعالىٰ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾[نوح: ١٣]. قال ابن عبّاسٍ ومجاهدٌ: لا ترجون لله عظمةً. وقال سعيد بن جبيرٍ: ما لكم لا تعظِّمون الله حقّ عظمته؟ وقال الكلبيُّ: لا تخافون لله عظمةً[1].

قال البغويُّ رحمه الله[2]: والرَّجاء بمعنىٰ الخوف. والوقار: العظمة، اسمٌ من التوقير، وهو التعظيم. وقال الحسن: لا يعرفون لله حقًّا، ولا يشكرون له نعمةً. وقال ابن كيسان رحمه الله: لا ترجون في عبادة الله أن يثيبكم علىٰ توقيركم إيّاه خيرًا.

وروحُ العبادة هو الإجلال والمحبَّة، فإذا خَلا أحدهما عن الآخر فسدت العبودية. فإذا اقترن بهذين الثّناءُ علىٰ المحبوب المعظّم فذلك حقيقة الحمد.

---

(١) انظر: «تفسير البغوي» (٤/ ٣٩٨).

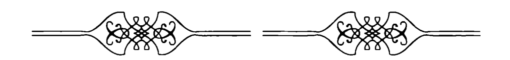
(٢) في «تفسيره» (٤/ ٣٩٨).

٣/ ٣٣٠

فصل

منزلة الإلهام

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة الإلهام**، والإفهام، والوحي، والتحديث، والرُّؤيا الصَّادقة. وقد تقدَّمت في أوَّل الكتاب عند الكلام علىٰ مراتب الهداية.



٣/ ٣٣١

فصل

منزلة السكينة

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة السكينة**.

هذه المنزلة من منازل المواهب، لا من منازل المكاسب. وقد ذكر الله سبحانه السّكينة في كتابه في ستّة مواضع:

الأوّل: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[البقرة: ٢٤٨].

الثّاني: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝٢٥ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾[التوبة: ٢٥- ٢٦].

الثّالث: قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾[التوبة: ٤٠].

الرّابع: قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤].

الخامس: قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[الفتح: ١٨].

السّادس: قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ

ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الآية [الفتح: ٢٦].

وكان شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله إذا اشتدّت عليه الأمور قرأ آياتِ السّكينة.

وسمعته يقول في واقعةٍ عظيمةٍ جرت له في مرضه، تَعجِز العقول والقُوىٰ عن حملها من محاربة أرواحٍ شيطانيَّةٍ ظهرت له إذ ذاك في حال ضعف القوَّة قال: فلمَّا اشتدَّ عليَّ الأمر قلت لأقاربي ومن حولي: اقرؤوا آيات السكينة، قال: ثمَّ أقلعَ عنِّي ذلك الحالُ، وجلستُ وما بي قَلَبة.

وقد جرَّبتُ أنا قراءةَ هذه الآيات عند اضطراب القلب مما يرِد عليه، فرأيتُ لها تأثيرًا عظيمًا في سكونه وطُمأنينته.

وأصل السكينة هي الطُّمأنينة والوقار، والسُّكون الذي يُنزِله الله في قلب عبده، عند اضطرابه من شدّة المخاوف، فلا ينزعج بعد ذلك لما يرِد عليه، ويوجب له زيادةَ الإيمان وقوّةَ اليقين والثّبات.

ولهذا أخبر سبحانه وتعالىٰ عن إنزالها علىٰ رسوله وعلىٰ المؤمنين في مواضع القلق والاضطراب. كيوم الهجرة، هو وصاحبه في الغار والعدوُّ فوق رؤوسهم، لو نظر أحدهم إلىٰ ما تحت قدميه لرآهما. وكيوم حنينٍ، وَلَّوا مُدبِرين من شدّة بأس الكفّار، لا يَلْوِي أحدٌ علىٰ أحدٍ. وكيوم الحديبية حين اضطربتْ قلوبهم من تحكُّمِ الكفّار عليهم، ودخولِهم تحت شروطهم التي لا تَحمِلها النُّفوس. وحسبك بضعف عمر عن حملها وهو عمر، حتَّىٰ ثبَّته الله بالصِّدِّيق.

قال ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما: كلُّ سكينةٍ في القرآن فهي طمأنينةٌ، إلّا التي في سورة البقرة[1].

(١) «تفسير البغوي» (٤/ ١٨٩)، و«القرطبي» (١٦/ ٢٦٤).

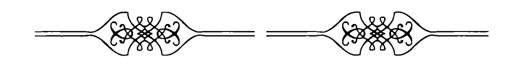
وفي «الصحيحين»[١] عن البراء بن عازبٍ رضي الله عنه قال: رأيتُ النبيّ ﷺ ينقل من تراب الخندق، حتَّىٰ وارىٰ التُّرابُ جِلدَ بطنِه، وهو يرتجزُ بكلمة عبد الله بن رواحة:

اللهمّ لولا أنتَ ما اهتدَينا ... ولا تصدَّقْنا ولا صَلَّينا

فأنزِلنْ سكينةً علينا ... وثبِّتِ الأقدامَ إن لاقينا

إنّ الأُلىٰ قد بَغَوا علينا ... وإن أرادوا فتنةً أبينا

وفي صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدِّمة: إنِّي باعثٌ نبيًّا أمِّيًّا، ليس بفَظٍّ ولا غليظٍ، ولا صَخَّابٍ في الأسواق، ولا متزيِّنٍ بالفحش، ولا قَوَّالٍ للخنا. أُسدِّده لكلِّ جميلٍ، وأَهَبُ له كلَّ خُلقٍ كريمٍ، ثمّ أجعلُ السّكينة لباسَه، والبرَّ شعارَه، والتّقوىٰ ضميرَه، والحكمةَ معقولَه، والصِّدقَ والوفاء طبيعتَه، والعفوَ والمعروفَ خلقَه، والعدلَ سيرتَه، والحقَّ شريعتَه، والهدىٰ إمامَه، والإسلامَ مِلَّتَه، وأحمدَ اسْمَه[٢].



(١) البخاري (٤١٠٦)، ومسلم (١٨٠٣).
(٢) أخرجه أبو نعيم في «دلائل النبوة» (٣٣)، عن وهب بن مُنبّه.

فصل

سكينة المعاملة مع الخالق ومع الخلق

الدرجة التي يحوم عليها أهل التصوُّف، والعَلم الذي يُشمِّرون إليه، وهي سكينة المعاملة التي بينهم وبين الله، وبينهم وبين خلقه، بثلاثة أشياء:

أحدها: محاسبة النّفس، حتّىٰ تَعرف ما لها وما عليها، ولا يَدَعها تسترسل في الحقوق استرسالًا، فيضيِّعها ويُهمِلها.

وأيضًا، فإنَّ زكاءها وطهارتها موقوفٌ علىٰ محاسبتها، فلا تزكو ولا تطهر ولا تَصلُح البتَّةَ إلّا بمحاسبتها.

قال الحسن رضي الله عنه: إنّ المؤمن واللهِ لا تراه إلَّا قائمًا علىٰ نفسه: ما أردتُ بهذا؟ ما لي ولهذا؟ ونحو هذا من الكلام[1].

فبمحاسبتها يَطَّلع علىٰ عيوبها ونقائصها، فيُمكِنه السّعيُ في إصلاحها.

الثّاني: ملاطفة الخلق، وهي معاملتهم بما يحبُّ أن يعاملوه به من اللُّطف. ولا يعاملهم بالعنف والشِّدّة والغلظة، فإنّ ذلك يُنفِّرهم عنه، ويُغريهم به، ويُفسِد عليه قلبه وحاله مع الله ووقتَه، فليس للقلب أنفعُ من معاملة النّاس باللُّطف. فإنّ مُعامِله بذلك: إمّا أجنبيٌّ فيكسِب مودَّتَه ومحبّته، وإمّا صاحبٌ وحبيبٌ فيستدِيمُ صحبتَه ومحبتَه، وإمَّا عدوٌّ ومُبغِضٌ فتُطفِئ بلطفك جمرتَه، وتَستكفي شرَّه، ويكون احتمالُك لمَضَضِ لطفك به دون احتمالك لضررِ ما ينالك من الغِلظة عليه والعُنْفِ به.

الثالث: مراقبة الحقِّ سبحانه، وهي الموجبة لكلِّ صلاحٍ وخيرٍ عاجلٍ وآجلٍ. ولا تصحُّ الدّرجتان الأوليان إلّا بهذه، وهي المقصود لذاته، وما قبله وسيلةٌ إليه وعونٌ عليه. فمراقبة الحقِّ سبحانه تُوجب إصلاحَ النّفس واللُّطفَ بالخلق.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس» (١٧).

٣/ ٣٤٧

فصل

منزلة الطمأنينة

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة الطُّمأنينة.**

قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[الرعد: ٢٨]. وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾[الفجر: ٢٧- ٣٠].

الطُّمأنينة: سكون القلب إلىٰ الشيء، وعدمُ اضطرابِه وقلَقِه. ومنه الأثر المعروف: «**الصِّدق طمأنينةٌ، والكذِبُ ريبةٌ**»[١]، أي الصِّدق يطمئنُّ إليه قلب السامع، ويجد عنده سكونًا إليه، والكذب يُوجب له اضطرابًا وارتيابًا. ومنه قوله ﷺ: «**البرُّ ما اطمأنّ إليه القلب**»[٢]، أي سَكَن إليه وزال عنه اضطرابه وقَلَقُه.

وفي ذكر الله هاهنا قولان[٣]:

أحدهما: أنّه ذكرُ العبد ربَّه، فإنّه يطمئنُّ إليه قلبه ويسكن. فإذا اضطرب القلب وقلِقَ فليس له ما يطمئنُّ به سوىٰ ذكر الله.

ثمّ اختلف أصحاب هذا القول فيه.

فمنهم من قال: هذا في الحلف واليمين. إذا حلف المؤمن علىٰ شيءٍ سكنت قلوب المؤمنين إليه واطمأنَّتْ، ويُروىٰ هذا عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما[٤].

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٢٣)، والترمذي (٢٥١٨)، من حديث الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما. وصححه الترمذي، وابن حبان (٧٢٢).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٠٠١)، من حديث وابصة بن معبد رضي الله عنه.، وله شاهد من حديث أبي ثعلبة الخشني أخرجه أحمد (١٧٧٤٢)، وجوَّد إسنادَه المنذري في «الترغيب» (٢/ ٣٥١).

(٣) انظر: «تفسير البغوي» (٣/ ١٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٢٧).

(٤) ذكره البغوي (٣/ ١٧).

ومنهم من قال: بل هو ذكرُ العبد ربّه بينه وبينه، يسكُن إليه قلبه ويطمئنُّ.

والقول الثّاني: أنّ ذِكر الله هاهنا القرآن، وهو ذِكرُه الذي أنزله علىٰ رسوله، به طمأنينةُ قلوب المؤمنين. فإنّ القلب لا يطمئنُّ إلّا بالإيمان واليقين، ولا سبيلَ إلىٰ حصول الإيمان واليقين إلّا من القرآن، فإنّ سكون القلب وطمأنينته من يقينه، واضطرابه وقلقَه من شكِّه. والقرآن هو المحصِّل لليقين، الدّافع للشُّكوك والظُّنون والأوهام، فلا تطمئنُّ قلوب المؤمنين إلّا به. وهذا القول هو المختار.

وكذلك القولان أيضًا في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾[الزخرف: ٣٦].

والصّحيح: أنه ذِكره الذي أنزله علىٰ رسوله، وهو كتابه، مَن أعرض عنه قيّضَ له شيطانًا يُضِلُّه ويَصُدُّه عن السّبيل، وهو يحسب أنّه علىٰ هدًىٰ.

وكذلك القولان في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[طه: ١٢٤].

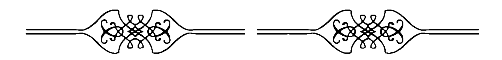
والصحيح: أنّه ذِكره الذي أنزله، وهو كتابه[(١)]، ولهذا يقول المعرض عنه: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾[طه: ١٢٥].

وأمّا تأويل من تأوّله علىٰ الحلف ففي غاية البعد عن المقصود، فإنّ ذكر الله بالحلف يجري علىٰ لسان الصّادق والكاذب، والبرِّ والفاجر، والمؤمنون تطمئنُّ قلوبهم إلىٰ الصادق ولو لم يحلف، ولا تطمئنُّ قلوبهم إلىٰ من يرتابون به ولو حلف. وجعل سبحانه الطُّمأنينةَ في قلوب المؤمنين ونفوسهم، وجعل الغِبطةَ والمِدحةَ والبشارةَ بدخول الجنّة لأهل الطُّمأنينة، فطوبىٰ لهم وحسنُ مآبٍ.

---

(١) انظر: «تفسير البغوي» (٣/ ٢٣٥).

وفي قولـه: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[الفجر: ٢٧-٢٨] دليلٌ علىٰ أنّها لا ترجع إليه إلّا إذا كانت مطمئنّةً، فهناك ترجع إليه، وتدخل في عباده وتدخل جنّته. وكان من دعاء بعض السّلف: اللهمّ هَبْ لي نفسًا مطمئنّةً إليك(١).



(١) أخرج الطبراني في «الكبير» (٧٤٩٠)، من حديث أبي أمامة مرفوعًا، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٨٠): فيه مَن لم أعرفه، وأخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله بقضائه» (٩٣)، من حديث عمر مرفوعًا، وإسناده ضعيف.

٣/ ٣٦٠

فصل

منزلة الهمة

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة الهمّة.**

وقد صدّرها صاحب «المنازل» بقوله تعالىٰ: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾[النجم: ١٧]. وقد تقدَّم أنّه صدّر بها باب الأدب، وذكرنا وجهه. وأمَّا وجه تصدير «الهمَّة» بها فهو الإشارة إلىٰ أنّ همَّتَه ما تعلَّقتْ بسوىٰ مشهودِه وما أُقيم فيه، ولو تجاوزتْه همَّتُه لَتبِعَها بصرُه.

والهمَّة فِعْلةٌ من الهمِّ، وهو مبدأ الإرادة، ولكن خَصُّوها بنهاية الإرادة. فالهَمُّ مبدؤها، والهِمَّة نهايتها.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله يقول: في بعض الآثار الإلهيَّة: «**إنِّي لا أنظر إلىٰ كلام الحكيم، وإنّما أنظر إلىٰ هِمَّته**»[(١)].

قال[(٢)]: والعامّة تقول: قيمةُ كلِّ امرئٍ ما يُحسِن. والخاصَّة تقول: قيمةُ كلِّ امرئٍ ما يَطلُب. يريد: أنَّ قيمة المرء همَّته ومطلبه.

قال صاحب «المنازل» رحمه الله[(٣)]: **(الهمَّة: ما يملك الانبعاثَ للمقصود صرفًا، لا يتمالك صاحبها، ولا يلتفت عنها).**

قوله: **(يملك الانبعاث للمقصود)**، أي يستولي عليه كاستيلاء المالك علىٰ المملوك.

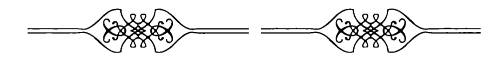
---

(١) عزاه شيخ الإسلام إلىٰ بعض الكتب المتقدمة في «الجواب الصحيح» (٦/ ٣٥)، وإلىٰ الإسرائيليات في «النبوات» (١/ ٤١٠)، و«جامع المسائل» (٥/ ٢٦٥).

(٢) في المصادر السابقة، و«قيمة كل امرئ ما يحسن» يُنسب إلىٰ علي رضي الله عنه كما في «البيان والتبيين» (١/ ٨٣)، قال شيخ الإسلام في «درء التعارض» (٩/ ٤١٠): ولا يصح هذا عن علي.

(٣) (ص٦٩).

و«صِرْفًا» أي خالصًا صرفًا. والمراد أنَّ همَّة العبد إذا تعلَّقت بالحقِّ تعالىٰ طلبًا خالصًا صادقًا محضًا، فتلك هي الهمَّة العالية التي لا يتمالك صاحبها، أي لا يقدر علىٰ المهلة، ولا يتمالك صبره، لغلبة سلطان الهمة عليه، وشدَّةِ إلزامها إيَّاه بطلب المقصود، ولا يلتفت عنها إلىٰ ما سوىٰ أحكامها. وصاحبُ هذه الهمَّة سريعٌ وصوله وظفَرُه بمطلوبه، ما لم تَعُقْه العوائق، وتقطَعْه العلائق.



٣/ ٣٦٥

فصل

منزلة المحبة

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة المحبَّة.**

وهي المنزلة التي فيها يتنافَسُ المتنافسون، وإليها شَخَصَ العاملون، وإلىٰ علمها شَمَّر السّابقون، وعليها تفانىٰ المُحِبُّون، وبرَوْحِ نَسيمها تروَّح العابدون. فهي قُوتُ القلوب، وغذاء الأرواح، وقُرَّة العيون. وهي الحياة التي من حُرِمَها فهو من جملة الأموات، والنُّور الذي من فَقَدَه ففي بحار الظُّلمات، والشِّفاء الذي من عَدِمَه حلَّتْ بقلبه جميعُ الأسقام، واللّذّة التي من لم يظفر بها فعيشُه كلُّه همومٌ وآلامٌ.

وهي روح الإيمان والأعمال والمقامات والأحوال، التي متىٰ خلَتْ منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه، تَحمِلُ أثقالَ السّائرين إلىٰ بلادٍ لم يكونوا إلَّا بشِقِّ الأنفس بالِغِيها، وتُوصِلهم إلىٰ منازلَ لم يكونوا بدونها أبدًا واصلِيها، وتُبوِّئهم من مقاعد الصِّدق مقاماتٍ لم يكونوا لولا هي داخلِيها. وهي مطايا القوم التي مَسْراهم في ظهورها دائمًا إلىٰ الحبيب، وطريقُهم الأقوم الذي يُبلِّغهم إلىٰ منازلهم الأولىٰ من قريبٍ.

تاللهِ لقد ذهب أهلُها بشرف الدُّنيا والآخرة، إذ لهم من معيَّة محبوبهم أوفرُ نصيبٍ. وقد قضىٰ الله يوم قدَّر مقاديرَ الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة أنّ المرء مع من أحبّ. فيا لها نعمة علىٰ المحبِّين سابغة!

تالله لقد سبقَ القومُ السُّعاةَ وهم علىٰ ظهور الفُرُشِ نائمون، ولقد تقدَّموا الرّكب بمراحلَ وهم في سيرِهم واقفون.

مَنْ لي بمثلِ سَيْرِك المُدلَّلِ ... تَمشِي رُويدًا وتَجِي في الأوّلِ[1]

---

(١) أنشده المؤلف في «طريق الهجرتين» (٢/ ٥٠٤)، و«مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٢٧).

أجابوا مؤذِّنَ الشّوق إذ نادىٰ بهم: حيَّ علىٰ الفلاح. وبذلوا أنفسَهم في طلب الوصول إلىٰ محبوبهم، وكان بذلُهم بالرِّضا والسّماح. وواصلوا إليه المسيرَ بالإدلاج والغدوِّ والرَّواح. تالله لقد حَمِدوا عند الوصول مَسْراهم، وإنّما يَحمد القومُ السُّرىٰ عند الصباح.

فحيَّهلًا إن كنتَ ذا همَّةٍ فقد ... حَدا بك حادِي الشَّوقِ فَاطْوِ المراحلا
وقلْ لمنادي حبِّهمْ ورضاهمُ ... إذا ما دعا لبَّيكَ ألفًا كَوامِلا
ولا تنظرِ الأطلالَ من دونهم فإن ... نظرتَ إلىٰ الأطلالِ عُدْنَ حوائلا
ولا تنتظِرْ بالسَّير رُفْقةَ قاعدٍ ... ودَعْه فإنَّ الشَّوقَ يكفيك حاملا
وخذْ منهمُ زادًا إليهم وسِرْ علىٰ ... طريقِ الهدىٰ والفقرِ تُصبِحُ واصلا
وأَحْيِ بذكراهم سُراك إذا وَنَتْ ... رِكابُك فالذِّكرىٰ تُعِيدك عاملا
وإمّا تَخافنَّ الكَلالَ فقلْ لها ... أمامَك وِردُ الوصلِ فابْغِي المناهلا
وخذْ قَبَسًا من نورهم ثمّ سِرْ به ... فنورُهمُ يهديك ليس المشاعلا
وحيَّ علىٰ وَادي الأراكِ فقِلْ به ... عساك تَراهم فيه إن كنتَ قائلا
وإلّا ففي نَعْمَانَ عند مُعرَّف الـ ... أَحبَّةِ فاطلُبْهم إذا كنتَ سائلا
وإلّا ففي جَمْعٍ بليلتِه فإنْ ... تَفُتْ فمتىٰ يا وَيْحَ من كان غافلا
وحيَّ علىٰ جنّاتِ عدنٍ بقربهم ... منازِلُك الأولىٰ بها كنتَ نازلا
ولكن سَباك الكاشحون لأجْلِ ذا ... وقفتَ علىٰ الأطلالِ تَبكي المنازلا
وحَيَّ علىٰ يومِ المزيد بجنَّة الـ ... خلودِ فجُدْ بالنَّفسِ إن كنتَ باذلا
فدَعْها رُسومًا دارساتٍ فما بها ... مَقِيلٌ فجاوِزْها فليست منازلا
رسومٌ عَفَتْ يَنتابُها الخلقُ كَمْ بها ... قَتيلٌ وكَمْ فيها لذا الخَلْقِ قاتلا

وخُذْ يَمْنَةً عنها علىٰ المنهجِ الذي ... عليه سَرَىٰ وفدُ المَحبّةِ آهلا

وقلْ سَاعِدي يا نفسُ بالصّبرِ ساعةً ... فعند اللِّقَا ذَا الكدُّ يصبِح زائلا

فما هيَ إلّا ساعةٌ ثمّ تنقضي ... ويُصبِحُ ذُو الأحزانِ فَرحَانَ جَاذلا

أوّل نَقْده من أثمان المحبَّة: بذلُ الرُّوح، فما للمفلسِ الجَبانِ وسَوْمِها؟

بِدَمِ المُحبِّ يُباع وصلُهمُ ... فمن الذي يَبتاع بالثَّمَنِ[1]

تالله ما هُزِلَتْ فيَسْتامها المفلسون، ولا كسدتْ فيُنفِّقها بالنّسيئة المعسرون، لقد أُقيمتْ للعرض في سوق من يزيد، فلم يرضَ لها بثمنٍ دون بذل النُّفوس، فتأخَّر البطَّالون، وقام المحبُّون ينظرون: أيُّهمُّ يصلح أن يكون ثمنًا؟ فدارت السِّلعةُ بينهم، ووقعتْ في يدِ ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[المائدة: ٥٤].

لمَّا كثر المُدَّعون للمحبَّة طولبوا بإقامة البيِّنة علىٰ صحَّة الدعوىٰ، فلو يُعطىٰ الناسُ بدعواهم لادَّعىٰ الخليُّ حُرقةَ الشّجيِّ. فتنوَّع المدَّعون في الشُّهود، فقيل: لا تثبت هذه الدّعوىٰ إلّا ببيِّنةٍ ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[آل عمران: ٣١].

فتأخَّر الخلقُ كلُّهم، وثبت أتباعُ الحبيب في أفعاله وأقواله وأخلاقه. فطولبوا بعدالة البيِّنة بتزكيةِ ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾[المائدة: ٥٤].

فتأخَّر أكثر المحبِّين وقام المجاهدون، فقيل لهم: إنّ نفوس المحبِّين وأموالهم ليست لهم، فهلُمُّوا إلىٰ بيعةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾[التوبة: ١١١].

فلمَّا عرفوا عظمةَ المشتري، وفضلَ الثمن، وجلالةَ من جرىٰ علىٰ يديه عقدُ التّبايع= عرفوا قدْرَ السِّلعة، وأنَّ لها شأنًا. فرأوا مِن أعظم الغَبْن أن يبيعوها لغيره بثمنٍ بخسٍ، فعقدوا معه بيعةَ الرِّضوان بالتّراضي من غير ثبوت خيارٍ، وقالوا:

(١) هو لصردر في «ديوانه» (ص١٧٧).

والله لا نُقِيلك ولا نَستقيلك.

فلمّا تمَّ العقدُ وسلَّموا المبيعَ، قيل لهم: مُذْ صارت نفوسكم وأموالكم لنا رددناها عليكم أوفرَ ما كانت وأضعافها معًا. ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧٠].

إذا غُرِست شجرة المحبَّة في القلب، وسُقِيت بماء الإخلاص ومتابعة الحبيب، أثمرتْ أنواعَ الثِّمار، وآتتْ أُكُلَها كلَّ حينٍ بإذن ربِّها. أصلها ثابتٌ في قرار القلب، وفرعُها متّصلٌ بسِدْرة المنتهىٰ.

لا يزال سعْيُ المحبِّ صاعدًا إلىٰ حبيبه، لا يَحجُبه دونه شيءٌ. ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ﴾ [فاطر: ١٠].

لا تُحَدُّ المحبَّة بحدٍّ أوضحَ منها، فالحدود لا تزيدها إلَّا خفاءً وجفاءً. فحدُّها وجودها، ولا تُوصَف المحبَّة بوصفٍ أظهر من «المحبَّة».

وإنّما يتكلَّم النّاس في أسبابها وموجِباتها، وعلاماتها وشواهدها، وثمراتها وأحكامها. فحدودهم ورسومهم دارت علىٰ هذه السِّتَّة، وتنوَّعتْ بهم العبارات، وكثرت الإشارات، بحسب إدراك الشخص ومقامه وحاله ومِلْكِه للعبارة.

وهذه المادَّة تدور في اللُّغة علىٰ خمسة أشياء:

أحدها: الصّفاء والبياض. ومنه قولهم لصفاء بياض الأسنان ونَضَارتها: حَبَب الأسنانِ.

الثّاني: العلوُّ والظُّهور. ومنه: حَبَبُ الماء وحَبابُه، وهو ما يعلوه عند المطر الشديد. وحَبَبُ الكأسِ منه.

الثّالث: اللُّزوم والثَّبات. ومنه: حَبَّ البعيرُ وأَحبَّ، إذا بَركَ فلم يقم. قال

الشاعر[١]:

حُلْتَ عليه بالفَلاةِ ضَرْبَا ضربَ بعيرِ السَّوءِ إذْ أَحبَّا

الرّابع: اللُّبُّ. ومنه: حَبَّة القلب، للُبِّه وداخلِه. ومنه الحَبَّة لواحدة الحبوب، إذ هي أصل الشّيء ومادَّته وقِوامُه.

الخامس: الحفظ والإمساك. ومنه: حُبُّ الماءِ، للوعاء الذي يحفظ فيه ويمسكه. وفيه معنىٰ الثُّبوت أيضًا.

ولا ريبَ أنّ هذه الخمسة من لوازم المحبَّة. فإنَّها صفاء المودَّة، وهَيَجانُ إرادات القلب وعلوُّها وظهورُها منه لتعلُّقها بالمحبوب المراد، وثبوت إرادة القلب للمحبوب ولزومُها لزومًا لا تفارق، ولإعطاء المحبِّ محبوبَه لُبَّه وأشرفَ ما عنده، وهو قلبه، ولاجتماع عَزَماتِه وإرادتِه وهمومِه علىٰ محبوبه. فاجتمعت فيها المعاني الخمسة.

ووضعوا لمعناها حرفين مناسبين للمسمَّىٰ غايةَ المناسبة: «الحاء» التي هي من أقصىٰ الحلق، و«الباء» الشفهية التي هي نهايته. فللحاء الابتداء، وللباء الانتهاء. وهذا شأن المحبَّة وتعلُّقها بالمحبوب، فإنَّ ابتداءها منه وانتهاءها إليه. وقالوا في فعلها: حَبَّه وأَحبَّه. قال الشّاعر[٢]:

فواللهِ لولا تَمْرُه ما حَبَبْتُه ولا كان أدنىٰ من عُبَيد ومُشْرِقِ

ثمّ اقتصروا علىٰ اسم الفاعل من «أحبَّ» فقالوا: محبٌّ، ولم يقولوا: حابٌّ، واقتصروا علىٰ اسم المفعول من «حَبَّ»، فقالوا: محبوبٌ، ولم يقولوا: مُحَبٌّ إلّا قليلًا، كما قال الشّاعر[٣]:

---

(١) هو الراجز أبو محمد الفقعسي، كما في «لسان العرب» (حبب، قرشب، قفل).

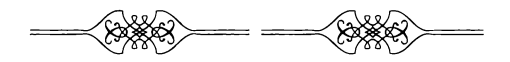
(٢) البيت لغيلان بن شجاع النهشلي في «الاشتقاق» (ص٣٨).

(٣) عنترة في معلقته، انظر: «ديوانه» (ص١٨٧).

ولقـد نَزلْـتِ فـلا تَظُنِّـي غيـرَه   منِّـي بمنزلـةِ المُحَـبِّ المُكْـرَمِ

وأعطَوا الحُبَّ حركة الضمِّ التي هي أشدُّ الحركات وأقواها، مطابقةً لشدَّة حركة مسمَّاه وقوَّتها. وأعطَوا الحِبَّ وهو المحبوب حركةَ الكسر لخفَّتها عن الضمَّة، وخفَّةِ المحبوب وذكرِه علىٰ قلوبهم وألسنتهم، مع إعطائه حُكمَ نظائره: كنِهْبٍ بمعنىٰ منهوبٍ، وذِبْحٍ للمذبوحٍ، وحِمْلٍ للمحمول. بخلاف الحَمْل الذي هو مصدرٌ، لخفَّته. ثمّ ألحقوا به حملًا لا يَشُقُّ علىٰ حاملِه حَملُه، كحمل الشّجرة والولد.

فتأمَّلْ هذا اللُّطف والمطابقة والمناسبة العجيبة بين الألفاظ والمعاني تُطلِعْك علىٰ قدر هذه اللُّغة، وأنّ لها شأنًا ليس لسائر اللُّغات.



فصل

ما قيل في تعريف المحبة

في ذكر رسومٍ وحدودٍ قيلتْ في المحبَّة بحسب آثارِها وشواهدها[(١)]:

الأوَّل: قيل: المحبّة الميل الدّائم، بالقلب الهائم.

الثّاني: إيثار المحبوب، على جميع المصحوب.

الثّالث: موافقة الحبيب، في المشهد والمَغِيب.

الرّابع: مَحْو المحبِّ لصفاته، وإثبات المحبوب لذاته.

الخامس: مُواطأة القلب لمرادات المحبوب.

السّادس: خوفُ تركِ الحرمة، مع إقامة الخدمة.

السّابع: استقلال الكثير من نفسك، واستكثار القليل من حبيبك.

الثّامن: استكثار القليل من جنايتك، واستقلال الكثير من طاعتك[(٢)].

التّاسع: معانقة الطّاعة، ومباينة المخالفة.

العاشر: دخول صفاتِ المحبوب على البدل من صفات المحبِّ.

الحادي عشر: أن تَهَبَ كُلَّك لمن أحببتَ، فلا يبقى لك منك شيءٌ.

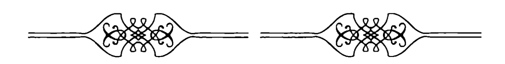
الثّاني عشر: أن تمحو من القلب ما سوى المحبوب.

الثّالث عشر: وهو من أجمع ما قيل فيها، قال أبو بكرٍ الكتّانيُّ رحمه الله: جرتْ مسألةٌ في المحبّة بمكّة أعزّها الله أيّامَ الموسم، فتكلَّم الشُّيوخ فيها، وكان الجنيد أصغرَهم سنًّا. فقالوا: هاتِ ما عندك يا عراقيُّ! فأطرقَ رأسَه، ودَمَعتْ عيناه، ثمَّ

(١) كلها من «الرسالة القشيرية» (ص٦٥٢- ٦٥٣)، إلا ما سيأتي التنبيه عليه.
(٢) لم أجده في «القشيرية». وهو مأخوذ من القول السابع.

قال: عبد ذاهبٌ عن نفسه، متّصلٌ بذكر ربِّه، قائمٌ بأداء حقوقه، ناظرٌ إليه بقلبه، أحرقَ قلبَه أنوارُ هيبته، وصفا شربُه من كأس وُدِّه، وانكشفَ له الجبّار من أستارِ غيبه. فإن تكلَّم فبالله، وإن نطقَ فعن الله، وإن تحرَّكَ فبأمر الله، وإن سكَنَ فمعَ الله، فهو بالله ولله ومع الله.

فبكىٰ الشُّيوخ وقالوا: ما علىٰ هذا مزيدٌ! جَبَرَك الله يا تاجَ العارفين[1].



(١) الخبر في «الرسالة القشيرية» (ص٦٦١).

فصل

الأسباب الجالبة للمحبة

في الأسباب الجالبة للمحبَّة والموجبة لها، وهي عشرةٌ:

أحدها: قراءة القرآن بالتدبُّر والتفهُّم لمعانيه وما أُريد به، كتدبُّر الكتاب الذي يحفظه العبد ويشرحه ليتفهَّم مراد صاحبه منه.

الثّاني: التّقرُّب إلىٰ الله بالنّوافل بعد الفرائض، فإنّها تُوصِله إلىٰ درجة المحبوبيّة بعد المحبّة.

الثّالث: دوام ذكره علىٰ كلِّ حالٍ: باللِّسان والقلب، والعمل والحال. فنصيبُه من المحبّة علىٰ قدر نصيبه من هذا الذِّكر.

الرّابع: إيثار مَحابِّه علىٰ مَحابِّك عند غلبات الهوىٰ، والتسنُّم إلىٰ مَحابِّه وإن صعُبَ المرتقىٰ.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها، وتقلُّبه في رياض هذه المعرفة وميادينها. فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبَّه لا محالةَ. ولهذا كانت المعطِّلة والفرعونيّة والجهميّة قُطّاعَ الطّريق علىٰ القلوب بينها وبين الوصول إلىٰ المحبوب.

السّادس: مشاهدة بِرِّه وإحسانه وآلائه ونِعَمِه الباطنة والظّاهرة، فإنّها داعيةٌ إلىٰ محبّته.

السّابع: وهو من أعجبها، انكسار القلب بكلِّيّته بين يديه، وليس في التّعبير عن هذا المعنىٰ غير الأسماء والعبارات.

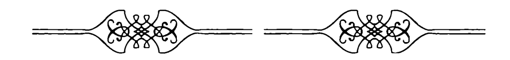
الثّامن: الخلوة به وقتَ النُّزول الإلهيِّ، لمناجاتِه وتلاوة كلامه، والوقوف

بالقلب والتّأدُّب بين يديه. ثمّ خَتْم ذلك بالاستغفار والتّوبة.

التّاسع: مجالسة المحبِّين الصّادقين، والتقاط أطايبِ ثمراتِ كلماتهم كما تنتقي أطايبَ الثّمر، ولا تتكلَّم إلّا إذا ترجّحتْ مصلحة الكلام، وعلمتَ أنّ فيه مزيدًا لحالك ومنفعةً لغيرك.

العاشر: مباعدة كلِّ سببٍ يحول بين القلب وبين الله ﷻ.

فمن هذه الأسباب العشرة وصَلَ المحبُّون إلىٰ منازل المحبَّة، ودخلوا علىٰ الحبيب. ومِلاكُ ذلك كلِّه أمران: استعداد الرُّوح لهذا الشّأن، وانفتاح عين البصيرة. وبالله التّوفيق.



فصل

إثبات المحبة بين الرب وعبده

والكلام في هذه المنزلة يتعلق بطرفين: طرف محبَّة العبد لربِّه، وطرف محبَّة الربِّ لعبده.

وجميع طرق الأدلَّة عقلًا ونقلًا وفطرةً، وقياسًا واعتبارًا، وذوقًا ووجدًا تدلُّ علىٰ إثبات محبَّة العبد لربِّه والربِّ لعبده.

وقد ذكرنا من ذلك قريبًا من مائة طريقٍ في **كتابنا الكبير في المحبّة**[1]، وذكرنا فيه فوائد المحبَّة، وما تُثمِر لصاحبها من الكمالات، وأسبابها وموجِباتها، والردَّ علىٰ من أنكرها، وبيان فساد قوله، وأنّ المنكرين لذلك قد أنكروا خاصّة الخلق والأمر، والغاية التي وُجِدا لأجلها، فإنّ الخلق والأمر والثّواب والعقاب إنّما نشأ عن المحبّة ولأجلها، وهي الحقُّ الذي خُلِقت به السّماوات والأرض، وهي الحقُّ الذي تضمَّنه الأمر والنّهي، وهي سرُّ التألُّه.

وتوحيدُها هو شهادة أن لا إله إلّا الله، وليس كما زعم المنكرون أنَّ الإله هو الربُّ الخالق، فإنَّ المشركين كانوا مقرِّين بأنّه لا ربَّ إلّا الله، ولا خالقَ سواه، وأنَّه وحدَه المنفردُ بالخلق والرُّبوبيَّة، ولم يكونوا مقرِّين بتوحيد الإلهيَّة، وهو المحبَّة والتعظيم، بل كانوا يتألَّهون مع الله غيرَه. وهذا هو الشِّرك الذي لا يغفره الله، وصاحبه ممّن اتّخذ من دون الله أندادًا.

قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. فأخبر أنَّ من أحبَّ من دون الله شيئًا كما يحبُّ الله تعالىٰ فهو ممَّن اتّخذ من دون الله أندادًا، فهذا نِدٌّ في المحبَّة، لا في الخلق والرُّبوبيَّة، فإنّ أحدًا

(١) هو غير «روضة المحبين» كما في مقدمة تحقيقه (ص٨).

من أهل الأرض لم يُثبِت هذا النِّدّ، بخلاف ندِّ المحبّة، فإنّ أكثر أهل الأرض قد اتّخذوا من دون الله أندادًا في الحبِّ والتّعظيم.

ثمَّ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[البقرة: ١٦٥]، وفي تقدير الآية قولان[١]:

أحدهما: والّذين آمنوا أشدُّ حبًّا لله من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم، التي يحبُّونها ويعظِّمونها من دون الله.

والثّاني: والّذين آمنوا أشدُّ حبًّا لله من محبَّة المشركين لله. فإنَّ محبَّة المؤمنين خالصةٌ، ومحبَّة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادُهم بقسطٍ منها، والمحبَّة الخالصة أشدُّ من المشتركة. والقولان مرتّبان على القولين في قوله: ﴿يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾ فإنَّ فيها قولين أيضًا:

أحدهما: يحبُّونهم كما يحبُّون الله، فيكون قد أثبتَ لهم محبَّةً لله، ولكنَّها محبّةٌ شرَّكُوا فيها مع الله أندادَهم.

والثّاني: أنّ المعنى يحبُّون أندادهم كما يحبُّ المؤمنون الله. ثمّ بيَّن أنّ محبَّة المؤمنين لله أشدُّ من محبَّة أصحاب الأنداد لأندادهم.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يرجِّح القول الأوّل، ويقول[٢]: إنّما ذمُّوا بأن شرَّكوا بين الله وبين أندادهم في المحبَّة، ولم يخلصوها لله كمحبَّة المؤمنين له.

وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾[آل عمران: ٣١]. وهذه تُسمَّى آية المحبَّة. قال بعض السّلف[٣]: ادَّعى قومٌ محبَّة الله، فأنزل الله آية المحبة ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي﴾.

وقال: ﴿يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾إشارةً إلى دليل المحبّة وثمرتها وفائدتها. فدليلها

---

(١) انظر: «تفسير البغوي» (١/ ١٣٦)، و«تفسير القرطبي» (٢/ ٢٠٤).
(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٨/ ٣٥٧- ٣٥٩).
(٣) انظر: «تفسير الطبري» (٥/ ٣٢٥)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦٣٣).

وعلامتها: اتِّباع الرّسول ﷺ. وفائدتها وثمرتها: محبّة المرسل لكم. فما لم تحصل المتابعة فلا محبّتكم له حاصلةٌ، ومحبّته لكم منتفيةٌ.

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾[المائدة: ٥٤].

وقال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾[الإسراء: ٥٧]. فذِكْرُ المقامات الثّلاث الحب، وهو ابتغاء القرب إليه والتّوسُّل إليه بالأعمال الصّالحة. والرّجاء، والخوف يدلُّ علىٰ أنّ ابتغاء الوسيلة أمرٌ زائدٌ علىٰ رجاء الرحمة وخوف العذاب.

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[الأنعام: ٥٢].

وقال أحبابه وأولياؤه: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[الإنسان: ٩].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[الليل: ١٩ - ٢٠]. فجعل غاية أعمال الأبرار والمقرّبين والمحبِّين إرادةَ وجهه.

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب: ٢٩]. فجعل إرادته غير إرادة الآخرة.

وهذه الإرادة لوجهه موجبةٌ للذّة النّظر إليه في الآخرة، كما في «صحيحي» الحاكم وابن حبّان[(١)] في الحديث المرفوع عن النبيِّ ﷺ أنّه كان يدعو: «**اللهمّ**

---

(١) الحاكم (١/ ٥٢٤)، وابن حبان (١٩٧١)، من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه، وأخرجه أيضًا=

بعلمِك الغيبَ، وقدرتِك علىٰ الخلق: أحْيِني إذا كانت الحياة خيرًا لي، وتَوفَّني إذا كانت الوفاة خيرًا لي. وأسألك خشيتَك في الغيب والشّهادة، وأسألك كلمةَ الحقِّ في الغضب والرِّضا، وأسألك القصْدَ في الفقر والغنىٰ، وأسألك نعيمًا لا ينفَدُ، وأسألك قرَّةَ عينٍ لا تنقطع، وأسألك الرِّضا بعد القضاء، وبرْدَ العيش بعد الموت، وأسألك لذّةَ النّظرِ إلىٰ وجهك، وأسألك الشّوقَ إلىٰ لقائك، في غير ضَرّاءَ مُضِرَّةٍ ولا فتنةٍ مُضلّةٍ. اللهمّ زَيِّنّا بزينة الإيمان، واجعلْنا هُداةً مهتدين».

وفي «الصحيحين»[(١)] عن أنس ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ من كنّ فيه وجدَ بهنَّ حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه ممّا سواهما، وأن يحبَّ المرءَ لا يحبُّه إلّا لله، وأن يكرهَ أن يعود في الكفر بعدَ أن أنقذَه الله منه كما يكره أن يُقذَف في النّار».

وفي «صحيح البخاريِّ»[(٢)] عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالىٰ: مَن عادىٰ لي وليًّا فقد آذنتُه بالحرب. وما تقرَّبَ إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ من أداءِ ما افترضتُ عليه. ولا يزال عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافل حتّىٰ أُحبَّه. فإذا أحببتُه كنتُ سمْعَه الذي يسمع به، وبصَرَه الذي يبصر به، ويدَه التي يبطشُ بها، ورجلَه التي يمشي بها. وإن سألني لأُعطِينّه، وإن استعاذني لأُعِيذنَّه».

وفي «الصحيحين»[(٣)] عنه أيضًا عن النّبيِّ ﷺ: «إذا أحبَّ الله العبدَ دعا جبريل، فقال: إنِّي أحبُّ فلانًا فأَحِبَّه. فيحبُّه جبريل، ثمّ ينادي في السّماء فيقول: إنّ الله يحبُّ فلانًا فأَحِبُّوه. فيحبُّه أهل السّماء. ثمّ يُوضَع له القبول في الأرض». وذكر في البغض مثل ذلك.

=أحمد (١٨٣٢٥)، والنسائي (١٣٠٥، ١٣٠٦)، وهو حديث صحيح.

(١) البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).

(٢) برقم (٦٥٠٢).

(٣) البخاري (٣٢٠٩)، ومسلم (٢٦٣٧).

وفي «الصحيحين»[1] عن عائشة رضي الله عنها في حديث أمير السّريّة الذي كان يقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ لأصحابه في كلّ صلاةٍ، وقال: لأنّها صفة الرحمن، فأنا أحبُّ أن أقرأ بها، فقال النبيُّ ﷺ: «**أَخبِروه أنّ الله يُحِبُّه**».

وفي «جامع الترمذيِّ»[2] من حديث أبي إدريس الخَولانيِّ عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أنّه قال: «**كان من دعاء داود عليه السلام: اللهمّ إنِّي أسألك حُبَّك وحُبَّ من يُحِبُّك، والعملَ الذي يُبلِّغني حبَّك. اللهمّ اجعلْ حُبَّك أحبَّ إليَّ من نفسي وأهلي ومن الماء البارد**».

وفيه[3] أيضًا من حديث عبد الله بن يزيد الخَطْميِّ: أنّ النبيّ ﷺ كان يقول في دعائه: «**اللّهمّ ارزقْني حبَّك، وحبَّ من ينفعني حبُّه عندك. اللّهمَّ ما رزقتَني ممّا أُحِبُّ فاجعله قوّةً لي فيما تُحِبُّ، اللهمَّ وما زَويتَ عنِّي ممّا أُحِبُّ فاجعلْه فراغًا لي فيما تُحِبُّ**».

والقرآن والسُّنّة مملوءان بذكرِ من يحبُّه سبحانه من عباده، وذكرِ ما يحبُّه من أعمالهم وأقوالهم وأخلاقهم. كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[آل عمران: ١٤٦]، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[آل عمران: ١٣٤]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ﴾[البقرة: ٢٢٢]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[التوبة: ٤].

وقوله في ضدِّ ذلك: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾[البقرة: ٢٠٥]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[الحديد: ٢٣]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[آل عمران: ٥٧]،

(١) البخاري (٧٣٧٥)، ومسلم (٨١٣).
(٢) برقم (٣٤٩٠). قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وانظر: «السلسلة الضعيفة» (١١٢٥).
(٣) رقم (٣٤٩١). قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وانظر: «بيان الوهم والإيهام» (٣/ ٦١٦).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾[النساء: ٣٦].

وكم في السُّنَّة أحبُّ الأعمال إلىٰ الله كذا، وإنّ الله يحبُّ كذا. كقوله: «**أحبُّ الأعمال إلىٰ الله: الصَّلاة علىٰ وقتها، ثـمَّ برُّ الوالدين، ثمَّ الجهاد في سبيل الله**»(١). و«**أحبُّ الأعمال إلىٰ الله: الإيمان بالله، ثمّ الجهاد في سبيل الله، ثمّ حجٌّ مبرورٌ**»(٢). و«**أحبُّ العمل إلىٰ الله: ما داوم عليه صاحبه**»(٣). و«**إنّ الله يحبُّ أن يُؤخَذ برخَصِه**»(٤). وأضعاف أضعاف ذلك. وفرحُه العظيم بتوبة عبده الذي هو أشدُّ فرحٍ يعلمه العباد هو من محبّته للتّوبة وللتّائب.

فلو بطلت مسألة «المحبَّة» لبطلتْ جميع مقامات الإيمان والإحسان، ولتعطَّلتْ منازلُ السّير، فإنّها روح كلِّ مقامٍ ومنزلةٍ وعملٍ، فإذا خلا منها فهو ميِّتٌ لا روحَ فيه. ونسبتها إلىٰ الأعمال كنسبة الإخلاص إليها، بل هي حقيقة الإخلاص، بل هي نفس الإسلام، فإنّه الاستسلام بالذُّلِّ والحبِّ والطّاعة لله، فمن لا محبّةَ له لا إسلامَ له البتّةَ. بل هي حقيقة شهادة أن لا إله إلّا الله، فإنّ الإله هو الذي تَألَهُه العباد حبًّا وذلًّا، وخوفًا ورجاءً، وتعظيمًا وطاعةً، «إله» بمعنىٰ مألوهٍ، وهو الذي تألهه القلوب، أي تُحبُّه وتَذِلُّ له. وأصل التّألُّه التّعبُّد، والتّعبد آخر مراتب الحبِّ. يقال: عبَّدَه الحبُّ وتيَّمَه: إذا ملكه وذَلَّلَه لمحبوبه.

«فالمحبّة» حقيقة العبوديَّة. وهل يمكن الإنابة بدون المحبَّة والرِّضا، والحمد والشُّكر، أو الخوف والرّجاء؟ وهل الصّبر في الحقيقة إلّا صبر المحبِّين؟ فإنّهم إنّما يتوكّلون علىٰ المحبوب في حصول مَحابِّه ومَراضيه.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٧، ٥٩٧٠)، ومسلم (٨٥)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٦)، ومسلم (٨٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٥٨٦١)، ومسلم (٧٨٢)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

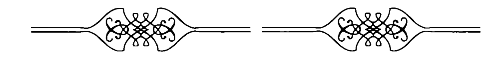
(٤) أخرجه أحمد (٥٨٦٦، ٥٨٧٣)، وابن خزيمة (٩٥٠، ٢٠٢٧)، وابن حبان (٢٧٤٢، ٣٥٦٨)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما بنحوه. وإسناده صحيح.

وكذلك «الزُّهد» في الحقيقة هو زهد المحبِّين، فإنّهم يَزهَدون في محبَّة ما سواه لمحبّته.

وكذلك «الحياء» في الحقيقة إنَّما هو حياء المحبِّين، فإنّه يتولَّد من بين الحبِّ والتّعظيم. وأمّا ما لا يكون عن محبّةٍ فذاك خوفٌ محضٌ.

وكذلك مقام «الفقر» فإنّه في الحقيقة فقر الأرواح إلىٰ محبوبها، وهو أعلىٰ أنواع الفقر. فإنَّه لا فقرَ أتمُّ من فقر القلب إلىٰ من يحبُّه، لا سيّما إذا وحَّده في الحبِّ، ولم يجد منه عوضًا سواه. وهذا حقيقة الفقر عند العارفين.

وكذلك «الغنىٰ» هو غنىٰ القلب بحصول محبوبه. وكذلك «الشّوق» إلىٰ الله تعالىٰ ولقائه، فإنّه لبُّ المحبّة وسرُّها. كما سيأتي.



فصل

في مراتب المحبّة

وهي عشر:

أوّلها: العَلاقة، وسمِّيت عَلاقةً لتعلُّق القلب بالمحبوب.

الثّانية: الإرادة، وهي ميل القلب إلىٰ محبوبه وطلبه له.

الثّالثة: الصَّبابة، وهي انصباب القلب إليه بحيثُ لا يملكه صاحبه، كانصباب الماء في الحدور.

الرّابعة: الغَرام، وهو الحبُّ اللّازم للقلب، الذي لا يفارقه، بل يلازمه كملازمة الغريم لغريمه. ومنه سمِّي عذاب النّار غَرامًا للزومِه لأهله، وعدمِ مفارقته لهم. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾[الفرقان: ٦٥].

الخامسة: الوِداد، وهو صَفْو المحبّة وخالصها ولبُّها. والوَدود من أسماء الرّبِّ تعالىٰ، وفيه قولان[(١)]:

أحدهما: أنّه المودود. قال البخاريُّ ﷺ في «صحيحه»[(٢)]: الوَدود الحبيب.

والثّاني: أنّه الوادُّ لعباده، أي المحبُّ لهم.

السّادسة: الشَّغَف. يقال: شُغِفَ بكذا، فهو مَشغوفٌ به، وقد شَغَفَه المحبوب، أي وصل حبُّه إلىٰ شَغَاف قلبه. كما قال النِّسوة عن امرأة العزيز: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾[يوسف: ٣٠].

السّابعة: العشق، وهو الحبُّ المفرط الذي يُخاف علىٰ صاحبه منه. وعليه

---

(١) انظر: «شأن الدعاء» للخطابي (ص٧٤)، و«زاد المسير» (٤/ ١٥٢).

(٢) (١٣/ ٤٠٣ مع «الفتح»).

تأوَّل إبراهيم ومحمَّد بن عبد الوهَّاب: ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال محمَّدٌ: هو العشق[١].

ورُفع إلىٰ ابن عبّاسٍ ﷺ شابٌّ وهو بعرفةَ قد صار كالخِلال، فقال: ما به؟ قالوا: العشق. فجعل ابن عبَّاسٍ ﷺ عامّةَ دعائه بعرفة الاستعاذةَ من العشق[٢].

وفي اشتقاقه قولان:

أحدهما: أنَّه من العَشَقة، وهي نبتٌ أصفر يلتوي علىٰ الشجر، فشُبِّه به العاشق.

والثّاني: أنَّه من الإفراط.

وعلىٰ القولين فلا يوصف به الرّبُّ تعالىٰ، ولا العبدُ في محبَّة ربِّه. وإن أطلقه سكرانُ من المحبَّة قد أفناه الحبُّ عن تمييزه، كان في خَفارة صدقِه ومحبَّته.

الثّامنة: التَّتيُّم، وهو التعبُّد والتذلُّل. يقال: تيَّمه الحبُّ أي ذلَّله وعبَّده، وتَيمُ الله: عبد الله.

التّاسعة: التعبُّد، وهو فوق التتيُّم. فإنَّ العبد الذي قد ملك المحبوبُ رِقَّه فلم يبقَ له شيءٌ من نفسه البتّةَ، بل كلُّه عبد لمحبوبه ظاهرًا وباطنًا. وهذا هو حقيقة العبوديّة، ومن كمَّلَ ذلك فقد كمَّلَ مرتبتها.

ولمَّا كمَّلَ سيِّد ولد آدم ﷺ هذه المرتبة وصفَه الله بها في أشرفِ مقاماته: مقامِ الإسراء كقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾[الإسراء: ١]، ومقام الدّعوة كقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾[الجن: ١٩]، ومقام التّحدِّي كقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾[البقرة: ٢٣]. وبذلك استحقّ التّقديم علىٰ الخلائق في الدُّنيا والآخرة.

---

(١) «تفسير البغوي» (١/ ٢٧٥)، وانظر: «زاد المسير» (١/ ٣٤٨).
(٢) أخرجه الخرائطي في «اعتلال القلوب» (ص٣٢٢).

ولذلك يقول المسيح ﷺ لهم إذا طلبوا منه الشّفاعة بعد الأنبياء ﷺ: «**اذهبوا إلىٰ محمّدٍ، عبدٍ غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخّر**»[(١)].

فسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: فحصلتْ له تلك المرتبة بتكميل عبوديَّته لله تعالىٰ، وكمالِ مغفرة الله له.

وحقيقة العبوديّة: الحبُّ التّامُّ، مع الذُّلِّ التّامِّ والخضوع للمحبوب. تقول العرب: طريقٌ مُعبَّدٌ، أي قد ذَلَّلته الأقدام وسَهَّلته[(٢)].

العاشرة: مرتبة الخُلَّة التي انفرد بها الخليلان إبراهيم ومحمَّدٌ صلّىٰ الله عليهما وسلّم كما صحّ عنه: «**إنَّ الله اتَّخذني خليلًا، كما اتَّخذ إبراهيم خليلًا**»[(٣)]. وقال: «**لو كنت متَّخذًا من أهل الأرض خليلًا لاتّخذت أبا بكرٍ خليلًا، ولكنّ صاحبكم خليل الرّحمن**»[(٤)]. والحديثان في «الصحيح».

وهما يُبطِلان قولَ من قال: الخلَّة لإبراهيم والمحبَّة لمحمَّدٍ، فإبراهيم خليله ومحمّدٌ حبيبه.

والخُلَّة هي المحبّة التي تخلَّلتْ روحَ المحبِّ وقلْبَه، حتىٰ لم يبقَ فيه موضعٌ لغير محبوبه، كما قيل[(٥)]:

قد تَخلَّلْتِ مسلكَ الرُّوحِ منِّي   وبذا سُمِّي الخليلُ خليلًا

وهذا هو السِّرُّ الذي لأجله والله أعلم أُمر الخليل بذبح ولدِه وثمرةِ فؤادِه وفِلْذَة كبِدِه، لأنَّه لمَّا سأل الولدَ فأُعطِيَه تعلّقتْ به شعبةٌ من قلبه. والخلّة منصبٌ لا يقبل

(١) جزء من حديث الشفاعة الطويل الذي رواه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) انظر: «العبودية» ضمن «مجموع الفتاوىٰ» (١٠/ ١٥٣).
(٣) أخرجه مسلم (٥٣٢)، من حديث جندب رضي الله عنه.
(٤) أخرجه مسلم (٢٣٨٣)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
(٥) هو بلا نسبة في «المنتحل» (٢/ ١٠٨)، و«ديوان الصبابة» (ص٣٧).

الشّركة والقسمة، فغارَ الخليل علىٰ خليله أن يكون في قلبه موضعٌ لغيره، فأمره بذبح الولد ليخرج المزاحم من قلبه. فلمّا وطَّن نفسَه علىٰ ذلك، وعزم عليه عزمًا جازمًا، حصل مقصود الأمر، فلم يبقَ في إزهاقِ نفس الولد مصلحةٌ. فحالَ بينه وبينه، وفَداه بالذِّبح العظيم. وقيل له: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ أي عملتَ عملَ المصدِّق ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ نجزي من بادر إلىٰ طاعتنا، بأن نُقِرَّ عينه، كما أقررنا عينَك بامتثال أوامرنا وإبقاء الولد وسلامته، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الصافات: ١٠٤- ١٠٦] وهو اختبار المحبوب لمحبِّه، وامتحانه إيّاه ليُؤثِر مرضاته، فيُتِمّ نعمتَه عليه، فهو بلاء محنةٍ ومنحةٍ عليه معًا.

وهذه الدعوة إنَّما دعا اللهُ بها خواصَّ خلقه، وأهلَ الألباب والبصائر منهم، فما كلُّ أحدٍ يجيب داعيَها، ولا كلُّ عينٍ قريرةٌ بها. وأهلُها هم الذين حصلوا في وسطِ قبضة اليمين يومَ القبضتين، وسائر أهل اليمين في أطرافها.

فما كلُّ عينٍ بالحبيب قريرةً ... ولا كلُّ من نُودِيْ يُجيبُ المناديا[1]

ومن لم يُجِبْ داعِي هُداك فخَلِّهِ ... يُجِبْ كلَّ من أضحىٰ إلىٰ الغَيِّ داعيا

وقل للعيون الرُّمْد: إيّاكِ أن تَرَيْ ... سَنا الشّمسِ فاستغشِيْ ظلامَ اللَّياليا

وسامِحْ نفوسًا لم تَهيَّأْ لحبِّهم ... مَغِيبُك عن ذا الشّأنِ لو كنتَ واعيا

وقُلْ للّذي قد غابَ يكفي عقوبةً ... مَغِيبُك عن ذا الشّأنِ لو كنتَ واعيا

وواللهِ لو أضحىٰ نصيبُك وافرًا ... رحمتَ عدوًّا حاسدًا لك قاليا

ألم تَرَ آثارَ القطيعةِ قد بَدَتْ ... علىٰ حالِه فارحَمْه إن كنت رائيَا

خَفافيش أعشاها النّهارُ بضوئِه ... ولاءَمَها قِطْعٌ من اللّيلِ باديا

---

(١) يبدو أن القصيدة للمؤلف، والأبيات الثلاثة الأخيرة مع خبر في «الرسالة القشيرية» (ص٦٥٧)، و«مصارع العشاق» (١/ ١٠٩).

فجالتْ وصالتْ فيه حتّىٰ إذا سَنَا النْـ ـهارِ بدا اسْتَخْفَتْ وأَعطَتْ تَواريا
إذا ظلمةُ اللّيلِ انجلَتْ بضيائها يعودُ لعينيه ظلامًا كما هِيا
فيا محنةَ الحسناءِ تُهدَىٰ إلىٰ امرئٍ ضَريرٍ وعِنِّينٍ من الوجدِ خاليا
فضَنَّ بها إن كنتَ تعرِفُ قدْرَها إلىٰ أن ترىٰ كُفْؤًا أتاك مُوافيا
فما مهرها شيءٌ سوىٰ الرُّوح أيُّها الْـ جَبانُ تَأخَّرْ لستَ كُفْؤًا مُساويا
فكن أبدًا حيثُ استقلَّتْ ركائبُ الْـ محبّةِ في ظهر العزائمِ ساريا
وأدلِجْ ولا تَخْشَ الظّلامَ فإنَّه سيكفيكَ وجهُ الحبِّ في اللّيل هاديا
وسُقْها بذكراه مَطاياك إنّه سَيكفي المطايا طِيبُ ذكراه حاديا
وعِدْها بروحِ الوصل تُعْطِك سَيْرَها كما شئتَ واستبقِ العظامَ البواليا
وأَقدِمْ فإمّا مُنْيةٌ أو مَنِيَّةٌ تُريحُك من عيشٍ به لستَ راضيا
فما ثَمَّ إلّا الوصلُ أو تَلَفٌ بهم وحَسْبُك فوزًا ذاك إن كنتَ واعيا
أما سَئِمتْ من عيشِها نفسُ والهٍ تَبيتُ بنار البعد تَلْقىٰ المكاويا
أمَا موتُه فيهم حياةٌ، وذُلُّه هو العزُّ، والتّوفيق، ما زال غاليا
أما يَستحي مَن يدَّعي الحبَّ باخلًا بما لحبيبٍ عنه يَدْعوه ذَا ليا
أما تلك دعوىٰ كاذبٍ ليس حظُّه من الحبِّ إلّا قولَه والأمانيا
أمَا أنفُسُ العشّاقِ مِلْكٌ لغيرهم بإجماع أهلِ الحبِّ ما زالَ فاشيا
أما سمعَ العشّاقُ قولَ حبيبةٍ لِصَبٍّ بها وَافىٰ من الحبِّ شاكيا
«ولمّا شَكوتُ الحبَّ قالت كَذَبْتَني ألستُ أرىٰ الأعضاءَ منك كَواسِيا
فلا حُبَّ حتّىٰ يَلْصَقَ القلبُ بالحَشَا وتَخْرَسَ حتّىٰ لا تُجيبَ مناديا
وتَنْحُلَ حتّىٰ لا يُبَقِّي لك الهوىٰ سوىٰ مُقْلةٍ تَبكِي بها وتُناجِيا»

٣/ ٤١٩

فصل

منزلة الغَيرة

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة الغَيرة.**

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[الأعراف: ٣٣]. وفي «الصحيح»[١] عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعودٍ ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أحدٌ أغيرَ من الله، ومن غيرتِه حرَّمَ الفواحشَ ما ظهر منها وما بطن. وما أحدٌ أحبَّ إليه المدحُ من الله، ومن أجلِ ذلك أثنىٰ علىٰ نفسه. وما أحدٌ أحبَّ إليه العذرُ من الله، ومن أجل ذلك أرسل الرُّسُلَ مبشِّرين ومنذرين**».

وفي «الصحيح»[٢] أيضًا: من حديث أبي سلمة عن أبي هريرة ﵁ أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إنّ الله يَغَار، وإنّ المؤمن يَغَار، وغيرةُ الله أن يأتيَ العبدُ ما حَرَّم عليه**».

وفي «الصّحيح»[٣] أيضًا: أنَّ النّبيّ ﷺ قال: «**أتعجبون من غيرة سعدٍ؟! لأنا أغْيرُ منه، والله أغيرُ منِّي**».

وممَّا يدخل في الغيرة قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾[الإسراء: ٤٥].

قال السَّرِيُّ لأصحابه: تدرون ما هذا الحجاب؟ حجاب الغَيرة، ولا أحدَ أغيرُ من الله[٤]. إنَّ الله تعالىٰ لم يجعل الكفّار أهلاً لفهم كلامه، ولا أهلاً لمعرفته وتوحيده ومحبّته. فجعل بينهم وبين رسوله وكلامه وتوحيده حجابًا مستورًا عن

---

(١) رواه البخاري (٤٦٣٤)، ومسلم (٢٧٦٠)، من طريقين آخرين عن ابن مسعود. أما رواية أبي الأحوص عنه، فقد أخرجها أبو يعلىٰ في «مسنده» (٥١٢٣) مختصرًا.

(٢) البخاري (٥٢٢٣)، ومسلم (٢٧٦١).

(٣) البخاري (٦٨٤٦، ٧٤١٦)، ومسلم (١٤٩٩)، من حديث المغيرة ﵁.

(٤) «الرسالة القشيرية» (ص٥٤٦، ٥٤٧).

العيون، غيرةً عليه أن يناله من ليس أهلًا له.

والغَيرة منزلةٌ شريفةٌ عظيمةٌ جدًّا، جليلة المقدار، ولكنِ الصُّوفيَّة المتأخِّرون منهم من قَلَبَ موضوعها، وذهب بها مذهبًا آخرَ باطلًا سمَّاه غيرةً، فوضعها في غير موضعها، ولُبِّس عليه أعظمَ تلبيسٍ [١].

والغَيرة نوعان: غيرةٌ من الشيء، وغيرةٌ علىٰ الشّيء.

والغَيرة من الشيء: هي كراهة مزاحمته ومشاركته لك في محبوبك.

والغَيرة علىٰ الشيء: هي شدَّة حرصك علىٰ المحبوب أن يفوز به غيرك دونك، أو يشاركك في الفوز به.

والغَيرة أيضًا نوعان: غيرة العبد من نفسه علىٰ نفسه لنفسه، كغيرته من نفسه علىٰ قلبه، ومن تفرقته علىٰ جمعيّته، ومن إعراضه علىٰ إقباله، ومن صيانته علىٰ ابتذاله، ومن صفاته المذمومة علىٰ صفاته الممدوحة.

وهذه الغَيرة خاصِّيَّة النفس الشريفة الزَّكيَّة العُلْويّة، وما للنفس الدنيَّة المَهِينة فيها نصيبٌ، وعلىٰ قدر شرفِ النّفس وعلوِّ همّتها تكون هذه الغيرة.

ثمَّ الغَيرة أيضًا نوعان: غَيرة الحقِّ تعالىٰ علىٰ عبده، وغَيرة العبد لربِّه لا عليه.

فأمَّا غَيرة الرّبِّ علىٰ عبده: فهي أن لا يجعله للخلق عبدًا ، بل يتّخذه لنفسه عبدًا، فلا يجعل له فيه شُركاء متشاكسينَ، بل يُفرِده لنفسه، ويَضَنُّ به علىٰ غيره. وهذه أعلىٰ الغيرتين.

وغَيرة العبد لربِّه نوعان أيضًا: غَيرةٌ من نفسه، وغَيرةٌ من غيره. فالّتي من نفسه: أن لا يجعل شيئًا من أعماله وأقواله وأحواله ولا أوقاته وأنفاسه لغير ربِّه.

---

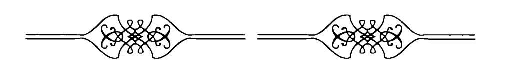
(١) انظر الرد علىٰ الصوفية: «روضة المحبين» (ص٤١١- ٤٣٩).

والّتي من غيره: أن يغضب لمحارمه إذا انتهكها المنتهكون، ولحقوقه إذا تهاونَ بها المتهاونون.

وأمّا الغيرة علىٰ الله: فأعظمُ الجهل وأبطلُ الباطل، وصاحبُها من أعظم الناس جهلًا، وربّما أدَّتْ بصاحبها إلىٰ معاداته لربِّه وهو لا يشعر، وإلىٰ انسلاخه من أصل الدِّين والإسلام. وربّما كان صاحبها شرًّا علىٰ السالكين إلىٰ الله من قُطَّاع الطّريق، بل هو من قُطّاع طريق السالكين حقيقةً، وأخرج قَطْع الطّريق في قالب الغيرة. وأين هذا من الغيرة لله التي تُوجب تعظيمَ حقوقه، وتصفيةَ أعماله وأحواله؟ فالعارف يَغار لله، والجاهل يَغار علىٰ الله. فلا يقال: أنا أَغارُ علىٰ الله، ولكن أنا أَغار لله.

وغيرة العبد من نفسه: أهمُّ من غيرته من غيره، فإنَّك إذا غِرْتَ من نفسك صحَّتْ لك غيرتك لله من غيرك، وإذا غِرْتَ له من غيرك ولم تَغَرْ من نفسِك فالغيرة مدخولةٌ معلولةٌ ولا بدَّ. فتأمّلْها وحَقِّق النّظرَ فيها.

فليتأمَّل السالك اللّبيب هذه الكلمات في هذا المقام الذي زلَّتْ فيه أقدام كثيرٍ من السالكين. والله الهادي الموفِّق المثبِّت.



٣/ ٤٣٢

فصل

منزلة الشوق

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **منزلة «الشوق»**.

قال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍ﴾[العنكبوت: ٥].

قيل: هذا تعزيةٌ للمشتاقين، وتسليةٌ لهم. أي أنا أعلم أنَّ من كان يرجو لقائي فهو مشتاقٌ إليَّ، فقد أجَّلتُ له أجلًا يكون عن قريبٍ، فإنّه آتٍ لا مَحالةَ، وكلُّ آتٍ قريبٌ.

وفيه لطيفةٌ أخرىٰ، وهي تعلُّل المشتاقين برجاء اللِّقاء.

لولا التعلُّل بالرّجاء تقطَّعتْ ... نفسُ المحبِّ صَبابةً وتشوُّقَا

ولقد يكاد يذوب منه قلبُه ... ممَّا يُقاسِي حَسرةً وتحرُّقَا

حتّىٰ إذا رَوْحُ الرّجاء أصابه ... سكنَ الحريق إذا تعلَّل باللِّقا

وقد قال النبيُّ ﷺ في دعائه: «**أسألك لذَّةَ النّظرِ إلىٰ وجهك، والشّوقَ إلىٰ لقائك**»[١].

قال بعضهم[٢]: النبيُّ ﷺ كان دائمَ الشوق إلىٰ لقاء الله، لم يسكُنْ شوقُه إلىٰ لقائه قطُّ. ولكنّ الشّوق مائة جزءٍ، تسعةٌ وتسعون له، وجزءٌ مقسومٌ علىٰ الأمّة. فأراد أن يكون ذلك الجزء مضافًا إلىٰ ما له من الشّوق الذي يختصُّ به.

---

(١) جزء من دعاء طويل سبق قريبًا.

(٢) هو أبو علي الدقّاق كما في «الرسالة القشيرية» (ص٦٦٨).

فصل

الشوق من آثار المحبة

والشوق أثرٌ من آثار المحبَّة، وحكمٌ من أحكامها. فإنَّه سفرُ القلب إلىٰ المحبوب في كلِّ حالٍ.

وقيل: هو اهتياجُ القلوب إلىٰ لقاء المحبوب[(١)].

وقيل: هو احتراقُ الأحشاء، وتلهُّبُ القلوب، وتقطُّعُ الأكباد. والمحبّة أعلىٰ منه، لأنّ الشّوق عنها يتولّد[(٢)]، وعلىٰ قَدْرِها يقوىٰ ويضعُف.

قال يحيىٰ بن معاذٍ رحمه الله: علامةُ الشّوق فِطام الجوارحِ عن الشّهوات[(٣)].

وقال أبو عثمان رحمه الله: علامته حبُّ القرب مع الرّاحة والعافية[(٤)]، كحال يوسف لمّا أُلقي في الجُبِّ لم يقلْ: «تَوَفَّني»، ولمّا أُدخِل السِّجن لم يقل: «تَوفَّني»، ولمّا تَمَّ له الأمر والنِّعمة قال: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾[يوسف: ١٠١].

قال ابن خَفيفٍ رحمه الله: الشّوق ارتياحُ القلوب بالوجد، ومحبّة اللِّقاء والقرب[(٥)].

وقيل: هو لهيبٌ ينشأ بين أثناء الحشا، يَسنَحُ عن الفرقة. فإذا وقع اللِّقاء طَفِئَ[(٦)].

قلت: هذه مسألة نزاعٍ بين المحبِّين، وهي أنّ الشّوق هل يزول باللِّقاء أم

---

(١) هذا قول أبي القاسم القشيري في «الرسالة القشيرية» (ص٦٦٤).

(٢) قاله ابن عطاء، كما في المصدر السابق (ص٦٦٦).

(٣) المصدر نفسه (ص٦٦٥).

(٤) المصدر نفسه (ص٦٦٥).

(٥) المصدر نفسه (ص٦٦٧).

(٦) المصدر نفسه (ص٦٦٦).

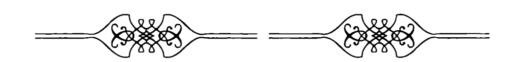
لا[١]؟ ولا يختلفون أنَّ المحبَّة لا تزول.

وفصلُ النِّزاع في هذه المسألة: أنّ الشّوق يُراد به حركة القلب واهتياجه للقاء المحبوب، فهذا يزول باللِّقاء. ولكن يعقبه شوقٌ آخر أعظم منه، تُثِيره حلاوة الوصل ومشاهدة جمال المحبوب، فهذا يزيد باللِّقاء والقرب ولا يزول. والعبارة عن هذا وجودُه، والإشارة إليه حصولُه. وبعضهم سمَّىٰ النوع الأوَّل شوقًا، والثّاني اشتياقًا.

قال الدَّقَّاق رحمه الله في قول موسىٰ: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾[طه: ٨٤] قال: معناه: شوقًا إليك، فسَتَرَه بلفظ الرِّضا[٢].

وكانت عجوزٌ مُغْيِبَة، فقدِمَ غائبُها من السفر، ففرِحَ به أهلُه وأقاربه، وقعدتْ تبكي. فقيل لها: ما يُبكيكِ؟ فقالت: ذكَّرني قدومُ هذا الفتىٰ يومَ القدومِ علىٰ الله[٣].

يا مَن شَكا شوقَه من طولِ فُرقته ... اصبِرْ لعلَّكَ تَلقىٰ مَن تُحِبُّ غدَا[٤]



(١) انظر: «روضة المحبين» (ص٥١، ٥٢).
(٢) «الرسالة القشيرية» (ص٦٦٦).
(٣) «الرسالة القشيرية» (ص٦٦٦).
(٤) البيت للعباس بن الأحنف في «ديوانه» (ص٨٣).

فصل

القلق شوق بلا صبر

وقد يقوىٰ هذا الشوق، ويتجرَّد عن الصّبر، فيُسمَّىٰ قَلَقًا. وبذلك سمَّاه صاحب «المنازل»، واستشهد عليه بقوله حاكيًا عن كليمه موسىٰ: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾[طه: ٨٤]. فكأنَّه فهم أنَّ عَجَلَتَه إنَّما حملَه عليها القلقُ، وهو تجريد الشّوق للقائه وميعاده.

وظاهر الآية: أنَّ الحامل لموسىٰ علىٰ العجلة طلبُ رضا ربِّه، وأنّ رضاه في المبادرة إلىٰ أوامره، والعجلة إليها. ولهذا احتجَّ السّلف بهذه الآية علىٰ أنَّ الصّلاة في أوَّل الوقت أفضل، سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يذكر ذلك[١]، قال: لأنّ رضا الرّبِّ في العجلة إلىٰ أوامره.

وحدَّثني بعض أقارب شيخ الإسلام ابن تيمية[٢] قال: كان في بداية أمره يخرج أحيانًا إلىٰ الصّحراء يخلو عن النّاس، لقوّة ما يَرِد عليه. فتبعتُه يومًا، فلمّا أصْحَرَ[٣] تنفَّسَ الصُّعَداء، ثمَّ جعل يتمثّل بقول الشّاعر:

وأخرجُ من بين البيوتِ لعلَّني ... أُحدِّث عنك النّفسَ بالسِّرِّ خاليا

وصاحب هذه الحال إن لم يَرُدَّه الله سبحانه إلىٰ الخَلْق بتثبيتٍ وقوَّةٍ، وإلَّا فإنَّه لا صبرَ له علىٰ مخالطتهم.

---

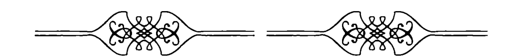
(١) انظر: «شرح العمدة» له (٢/ ١٩١).
(٢) هو تقي الدين ابن شُقير، كما في «روضة المحبين» (ص٣٩٤)، والبيت للمجنون في «ديوانه» (ص٢٩٤، ٣٠١، ٣١٤).
(٣) أي: برز في الصحراء.

٣/ ٤٤٧

فصل

منزلة العطش

ثـمَّ يقـوىٰ هـذا القلـقُ ويتزايـد حتّىٰ يُـورث القلـبَ حالـةً شـبيهةً بشـدَّة ظمـأ الصَّـادي الحـرَّان إلـىٰ المـاء، وهـذه الحالـة هـي التـي يُسـمِّيها صاحـب «المنـازل»[1] **العطـش**.



(١) (ص٧٥).

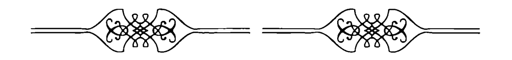
فصل

قال[1]: (العطش: كنايةٌ عن غلبةِ وَلُوعٍ بمأمولٍ).

الوَلُوع بالشّيء: هو التّعلُّق به بصفة المحبّة، مع أمل الوصول إليه.

وقيل في حدِّ الوَلُوع[2]: إنّه كثرة ترداد القلب إلىٰ الشّيء المحبوب. كما يقال: فلانٌ مُولَعٌ بكذا، وقد وَلِعَ به.

وقيل: هو لزوم القلب للشّيء، فكأنّه مثل: أُغرِيَ به فهو مُغْرًىٰ.



(١) «المنازل» (ص٧٥).

(٢) هو قول التلمساني في «شرحه» (ص٤١٨).

٣/ ٤٥٥

فصل

منزلة الوجد

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «**الوجد**».

ثبت في «الصحيحين»[1] من حديث أنسٍ رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: «**ثلاثٌ من كُنّ فيه وَجدَ بهنّ حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه ممّا سواهما، وأن يُحِبَّ المرءَ لا يحبُّه إلّا لله، وأن يكرهَ أن يعودَ في الكفر بعدَ أن أنقذَه الله منه، كما يكره أن يُقذَفَ في النّار**».

وقد استشهد صاحب «المنازل» رحمه الله بقوله تعالىٰ في أهل الكهف: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾[الكهف: ١٤]. وهذا من أحسن الاستدلال والاستشهاد، فإنّ هؤلاء كانوا بين قومهم الكفّار في خدمة ملكهم الكافر، فما هو إلّا أن وجدوا حقيقةَ الإيمان والتوحيد، وذاقوا حلاوته، وباشَر قلوبَهم، فقاموا من بين قومهم، وقالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية.

والرّبط علىٰ قلوبهم يتضمَّن الشّدَّ عليها بالصّبر والتّثبيت، وتقويتَها وتأييدها بنور الإيمان، حتّىٰ صبروا علىٰ هجران دار قومهم، ومفارقةِ ما كانوا فيه من خَفْضِ العيش، وفرُّوا بدينهم إلىٰ الكهف.

والرّبط علىٰ القلب عكسُ الخِذلان، فالخذلان حلُّه من رِباط التّوفيق، فيغفُل عن ذكر ربِّه، ويتّبع هواه، ويصير أمره فُرُطًا. والرّبط علىٰ القلب شَدُّه برباط التّوفيق، فيتّصلُ بذكر ربِّه، ويتّبع مرضاته، ويجتمع عليه شَمْلُه. فلهذا استشهد عليه بهذه الآية في مقام الوجد.

(١) البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).

والشّيخ رحمه الله جعل مقام الوجد غير مقام الوجود كما سيأتي إن شاء الله تعالىٰ، فإنّ الوجود عند القوم هو الظَّفر بحقيقة الشّيء. و«الوجد» هو ما يُصادف القلب ويَرِد عليه من واردات المحبّة والشّوق، والإجلال والتّعظيم، وتوابع ذلك. و«المواجيد» عندهم فوق الوجد، فإنَّ الوجد مصادفةٌ، والمواجيد ثمراتُ الأوراد، وكلَّما كثرت الأوراد قويت المواجيد. و«الوجود» عندهم فوق ذلك، وهو الظّفر بحقيقة المطلوب، ولا يكون إلّا بعد خمودِ البشريَّة، وانسلاخِ أحكام النّفس انسلاخًا كلِّيًّا.

فالمراتب أربعةٌ:

أضعفُها: التواجد، وهو نوع تكلُّفٍ وتعمُّلٍ واستدعاءٍ. واختلفوا فيه: هل يُسلَّم لصاحبه أم لا؟ علىٰ قولين[1].

فطائفةٌ قالت: لا يُسلَّم لصاحبه، ويُنكَر عليه لما فيه من التكلُّف والتّصنُّع المباين لطريق الصادقين. وبناء هذا الأمر علىٰ الصِّدق المحض.

وطائفةٌ قالت: يُسلَّم لصاحبه إذا كان قصدُه استدعاء الحقيقة، لا التّشبُّه بأهلها. واحتجُّوا بقول عمر رضي الله عنه وقد رأىٰ رسول الله ﷺ وأبا بكرٍ يبكيان في شأن أُسارىٰ بدرٍ، وما قبلوا منهم من الفداء: «أَخبِراني ما يُبكيكما؟ فإن وجدتُ بكاءً بكيتُ، وإلّا تباكيتُ»[2]. ورووا أثرًا: «**ابْكُوا؛ فإن لم تَبكُوا فتَباكَوْا**»[3].

قالوا: والتكلُّف والتعمُّل في أوائل السُّلوك والسّير لا بدَّ منه، إذ لا يُطالَب صاحبه بما يُطالَب به صاحب الحال، وتعمُّلُه بنيَّة حصول الحقيقة لمن

(١) انظر: «الرسالة القشيرية» (ص٢٤٥).
(٢) أخرجه مسلم (١٧٦٣)، من حديث ابن عباس عن عمر رضي الله عنهم.
(٣) أخرجه ابن ماجه (١٣٣٧)، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. وإسناده ضعيف. وانظر التعليق علىٰ «زاد المعاد» (١/ ٢٠١).

يرصد الوجد لا يُذَمُّ. و«التّواجد» يكون بما يتكلَّفه العبد من حركاتٍ ظاهرةٍ، و«المواجيد» لما يُنازِله من أحكامٍ باطنةٍ.

المرتبة الثّانية: المواجيد، وهي نتائج الأوراد وثَمراتها.

المرتبة الثّالثة: الوجد، وهو ثمرة أعمال القلوب من الحبِّ في الله والبغض فيه، كما جعله النبيُّ ﷺ ثمرةَ كونِ الله ورسوله أحبَّ إلىٰ العبد ممّا سواهما، وثمرةَ الحبِّ فيه وكراهةِ عوده في الكفر كما يكره أن يُقذَف في النّار. فهذا الوجد ثمرة هذه الأعمال القلبيّة، التي هي الحبُّ والبغض لله وفي الله.

المرتبة الرّابعة: الوجود، وهي أعلىٰ ذروة مقام الإحسان، فمن مقام الإحسان يرقىٰ إليه. فإنّه إذا غلبَ علىٰ قلبه مشاهدةُ معبوده حتّىٰ كأنّه يراه، وتمكَّن في ذلك= صار له ملكةً أخْمَدتْ أحكامَ نفسه، وتَبدَّل بها أحكامًا أُخَر وطبيعةً ثانيةً، حتّىٰ كأنّه أُنشِئ نشأةً أخرىٰ غير نشأته الأولىٰ، ووُلِد وِلادًا جديدًا.

وممّا يُذكر عن المسيح عليه السّلام أنّه قال: يا بني إسرائيل، لن تَلِجُوا ملكوتَ السّماء حتّىٰ تُولَدوا مرّتين[1].

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀ يذكر ذلك، ويُفسِّره[2] بأنّ الولادة نوعان، أحدهما: هذه المعروفة، والثّانية: ولادة القلب والرُّوح وخروجهما من مَشِيْمة النّفس وظُلمة الطّبع.

قال: وهذه الولادة لمَّا كانت بسبب الرسول ﷺ كان كالأب للمؤمنين، وقد قرأ أبيُّ بن كعبٍ ﵁: (النّبيُّ أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم وهو أبٌ لهم)[3].

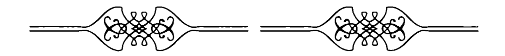
قال: ومعنىٰ هذه القراءة في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾[الأحزاب: ٦]، إذْ

(١) ذكره المؤلف في «طريق الهجرتين» (١/ ٢٩، ٣٨١).
(٢) وانظر: «جامع المسائل» (٤/ ٢٧٤، ٢٧٥)، و«منهاج السنة» (٥/ ٢٣٨).
(٣) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (١٨٧٤٨)، والبيهقي (٧/ ٦٩).

ثبوتُ أمومة أزواجه لهم فرعٌ علىٰ ثبوت أُبوَّته.

قال: فالشّيخ والمعلِّم والمؤدِّب أبو الرُّوح، والوالد أب الجسم.

ويقال في الحبِّ: وَجْدٌ، وفي الغضب: مَوجِدةٌ، وفي الظَّفَر: وجِدانٌ ووجودٌ.



فصل

الدهشة ليست من منازل السائرين

وقد يَعْرِض للسّالك دهشةٌ في حال سلوكه، شبيهةٌ بالبَهْتَة التي تحصل للعبد عند مفاجأة رؤية محبوبه، وليست من منازل السُّلوك، خلافًا لأبي إسماعيل الأنصاريِّ حيث جعلها من المنازل، بل من غاياتها. فإنَّ هذه الحالة ليست مذكورةً في القرآن ولا في السُّنّة ولا في كلام السالكين، ولا عَدَّها أحدٌ من المتقدِّمين من المنازل والمقامات، ولهذا لم يجد ما يستشهد به عليها سوىٰ حال النِّسوة مع يوسف ﷺ لمَّا رأينَه أكبرنَه وقطَّعن أيديهنّ. فصدَّر الباب[1] بقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾[يوسف: ٣١]، أي أعظمنه.

فإن كان مقصوده ما حصل لهنَّ من إعظامه وإجلاله، فذلك منزلة **التعظيم**. وإن كان مراده ما ترتَّب علىٰ رؤيته من غَيبتهنَّ عن أنفسهنَّ وعن أيديهنَّ وما فيها حتّىٰ قطَّعنها= فتلك منزلة **الفناء**. وإن كان مقصوده الدَّهْشة والبَهْتة التي حصلتْ لهنَّ عند مفاجأته وهو الذي قصَدَه فذلك أمرٌ عارضٌ عند مفاجأة ما يغلب علىٰ صبر الإنسان وعقله، ولا ريبَ أنَّ ذلك عارضٌ من عوارض الطريق ليس بمقامٍ للسّالكين، ولا منزلٍ مطلوبٍ لهم. فعوارضُ الطّريق شيءٌ، ومنازلُها ومقاماتُها شيءٌ.

فلهذا قال في تعريفه الدّهش[2]: (**بَهْتةٌ تأخذ العبدَ عند مفاجأة ما يغلب علىٰ عقلِه أو صبرِه أو علمِه**).

يشير إلىٰ الشُّهود الذي يغلِب عقلَه، والحبِّ الذي يغلب صبرَه، والحال الذي يغلب علمَه.

---

(١) باب الدهش في «المنازل» (ص٧٧).
(٢) المصدر نفسه.

فصل

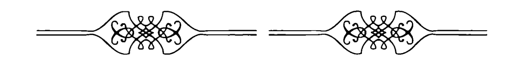
٣/ ٤٧٢

منزلة الهيمان

وقد يَعرِض للسالك عند ورود بعض المعاني والواردات العجيبة علىٰ قلبه فرطُ تعجُّبٍ واستحسانٍ واستلذاذٍ، يُزِيل عنه تماسُكَه، فيورِثُه ذلك **الهيمان**. وليس ذلك من مقامات السَّير، ولا منازل الطّريق المقصودة بالنُّزول فيها للمسافرين، خلافًا لصاحب «المنازل»، حيث عدَّ ذلك من أعلىٰ المنازل وغاياتها، وعبَّر عنه بمنزلة الهيمان. ولهذا ليس له ذِكرٌ في القرآن، ولا في السُّنّة، ولا في لسان سلف القوم.

وقد تكلّف له صاحب «المنازل» رحمه الله الاستشهادَ بقوله تعالىٰ: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣]. وما أبعدَ الآيةَ من استشهاده! وكأنَّه ظنَّ أنَّه ذهب عن تماسكه، لِما وردَ عليه في حالة الخطاب والتكليم الإلهيّ، فأورثه ذلك هَيَمانًا صَعِقَ منه. وليس كما ظنَّه، وإنّما صعِقَ موسىٰ عند تجلِّي الربِّ تعالىٰ للجبل واضمحلالِه وتَدَكْدُكِه من تجلِّي الرّبِّ تعالىٰ.

فالاستشهاد بالآية في منزلة الفناء التي تضمحلُّ فيها الرُّسوم أنسبُ وأظهرُ، لأنَّ تدكدُكَ الجبلِ هو اضمحلال رسمه عند وُرودِ نور التّجلِّي عليه. والصَّعَق فناءٌ في هذه الحال لهذا الوارد المُفْنِي لبشريَّةِ موسىٰ عليه السّلام.



فصل

نور البرق من أحوال السائرين لا من أعمالهم

ومن أنوار ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **نور البَرْق** الّذي يبدو للعبد عند دخوله في طريق الصادقين، وهو لامعٌ يَلْمَع لقلبه يُشبِه لامعَ البرق.

قال صاحب «المنازل» رحمه الله[1]: **(البرق: باكورةٌ تلمع للعبد، فتدعوه إلىٰ الدُّخول في هذه الطّريق)**.

واستشهد عليه بقوله تعالىٰ: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ۝ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾[طه: ٩ - ١٠].

وجه الاستشهاد: أنّ النّار التي رآها موسىٰ كانت مبدأً في طريق نبوَّته. والبرق مبدأٌ في طريق الولاية التي هي وراثة النُّبوّة.

وقوله: (**باكورةٌ**)، الباكورة هي أوّل الشّيء. ومنه «باكورة الثِّمار» وهي لما سبق نوعه في النُّضج.

قوله: (**يلمع للعبد**) أي يبدو له ويظهر، (**فيدعوه إلىٰ الدُّخول في هذه الطّريق**)، ولم يُرِد طريق أهل البدايات، فإنّ تلك هي اليقظة التي ذكرها في أوّل كتابه، وإنّما أراد طريق أرباب التّوسُّط والنِّهايات.

وعلىٰ هذا فالبرق الذي أشار إليه هو برقُ الأحوال لا برق الأعمال، أو برقٌ لا سببَ له من السالك، إنّما هو مجرَّد موهبةٍ.

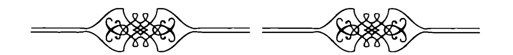
والدليل علىٰ أنّه أراد ما يحصل لأرباب التّوسُّط والنِّهايات: أنّه أخذَ بعد تعريفه يُفرِّق بينه وبين الوجد، فقال[2]: **(والفرق بينه وبين الوجد: أنّ الوجد يقع**

(١) (ص٧٨).
(٢) «المنازل» (ص٧٩).

بعد الدُّخول فيه، والبرق قبله. فالوجد زادٌ، والبرق إذنٌ).

يريد: أنّ البرق نورٌ يقذفه الله في قلب العبد ويُبدِيه له، فيدعوه إلىٰ الدُّخول في الطّريق. والوجد هو شدّة الطّلب وقوّته الموجبة لتأجُّجِ اللهيب من الشُّهود، كما تقدّم.

و(**الوجد زادٌ**) يعني: أنّه يصحب السّالكَ كما يصحبه زادُه، بل هو من نفائس زاده. و(**البرق إذنٌ**) يعني: إذنًا في السُّلوك، والإذن إنّما يَفْسَح للسّالك في المسير لا غير.



٣/ ٤٨٤

﴿ فصل ﴾

منزلة الذوق

ومنها: **منزلة الذّوق.**

الذَّوق: مباشرةُ الحاسَّةِ الظّاهرة أو الباطنة للملائم أو المنافر، ولا يختصُّ ذلك بحاسَّة الفم في لغة القرآن، بل ولا في لغة العرب. قال تعالىٰ: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ﴾ [الأنفال: ٥٠]. وقال: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[آل عمران: ١٠٦]. وقال تعالىٰ: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾[ص: ٥٧]. وقال: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾[النحل: ١١٢].

فتأمّلْ كيف جمعَ بين الذّوق واللِّباس، ليدلَّ علىٰ مباشرة المَذُوق وإحاطته وشموله، فأفاد الإخبارُ عن إذاقته أنّه واقعٌ مباشرٌ غير منتظرٍ، فإنّ المَخُوف قد يُتوقَّع ولا يُباشِر، وأفاد الإخبارُ عن لباسه أنّه محيطٌ شاملٌ كاللِّباس للبدن.

وفي «الصّحيح»[1] عنه ﷺ: «**ذاقَ طعْمَ الإيمان من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمّدٍ رسولًا**». فأخبر أنّ للإيمان طعمًا، وأنّ القلب يذوقه كما يذوق الفم طعْمَ الطّعام والشّراب.

وقد عبَّر النبيُّ ﷺ عن إدراك حقيقة الإيمان والإحسان، وحصوله للقلب ومباشرته له: بالذّوق تارةً، وبالطّعام والشّراب تارةً، وبوَجْد الحلاوة تارةً، كما قال: «**ذاق طعْمَ الإيمان**»، وقال: «**ثلاثٌ مَن كُنّ فيه وجدَ بهنّ حلاوةَ الإيمان: من كان الله ورسوله أحبَّ إليه ممّا سواهما، ومن كان يُحبُّ المرءَ لا يُحبُّه إلّا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد أن أنقذَه الله منه، كما يكره أن يُلْقىٰ في النّار**»[2].

(١) رواه مسلم (٣٤)، من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.
(٢) رواه البخاري (١٦، ٢١)، ومسلم (٤٣)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

ولمَّا نهاهم عن الوصال قالوا: إنَّك تُواصِل، فقال: «**إنِّي لستُ كهيئتكم، إنِّي أُطْعَم وأُسقىٰ**»[(١)]. وفي لفظٍ[(٢)]: «**إنِّي أظلُّ عند ربِّي يُطعِمني ويَسْقيني**». وفي لفظٍ[(٣)]: «**إنّ لي مُطعِمًا يُطعِمني، وساقيًا يَسْقِيني**».

وقد غَلُظ حجابُ من ظنَّ أنّ هذا طعامٌ وشرابٌ حسِّيٌّ للفم. ولو كان كما ظنّه هذا لما كان صائمًا، فضلًا عن أن يكون مواصلًا، ولَمَا صحَّ جوابه بقوله: «**إنِّي لستُ كهيئتكم**» فأجاب بالفرق بينه وبينهم. ولو كان يأكل ويشرب بفِيه الكريم حسًّا لكان الجواب أن يقول: وأنا لستُ أواصل أيضًا، فلمَّا أقرَّهم علىٰ قولهم «إنّك تُواصِل» عُلِم أنّه كان يمسك عن الطّعام والشّراب، ويكتفي بذلك الطّعام والشّراب العالي الرُّوحانيِّ، الذي يُغني عن الطّعام والشّراب المشترك الحسِّيِّ.

وهذا الذّوق هو الذي استدلّ به هرقلُ علىٰ صحّة النُّبوّة، حيث قال لأبي سفيان: فهل يرتدُّ أحدٌ منهم سَخْطةً لدينه؟ فقال: لا. قال: وكذلك الإيمان، إذا خالطَ بشاشةَ القلوب[(٤)]. فاستدلّ بما يحصل لأتباعه من ذوق الإيمان الذي إذا خالطت بشاشة القلوب لم يَسخَطْه ذلك القلبُ أبدًا علىٰ أنّه دعوة نبوّةٍ ورسالةٍ، لا دعوة ملكٍ ورياسةٍ.

والمقصود: أنّ ذوق حلاوة الإيمان والإحسان أمرٌ يجده القلب، يكون نسبته إليه كنسبة ذوق حلاوة الطّعام إلىٰ الفم، وذوقِ حلاوة الجماع إلىٰ آلتِه، كما قال النّبيُّ ﷺ: «**حتّىٰ تَذُوقِي عُسَيلته، ويذوقَ عُسَيلتَكِ**»[(٥)]. وللإيمان طَعمٌ وحلاوةٌ يتعلّق بهما ذوقٌ ووجدٌ، ولا تزول الشُّبَه والشُّكوك إلّا إذا وصل العبد إلىٰ هذه الحال، فيباشر الإيمان قلبه حقيقةَ المباشرة، فيذوق طَعْمَه ويجد حلاوتَه.

---

(١) رواه البخاري (١٩٢٢)، ومسلم (١١٠٢/ ٥)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) لمسلم (١١٠٤)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) للبخاري (١٩٦٧)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري (٧، ٤٥٥٣)، ومسلم (١٧٧٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه البخاري (٢٦٣٩)، ومسلم (١٤٣٣)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

٣/ ٥٠٣

فصل

منزلة اللحظ

ومن ذلك: **منزلة اللّحظ.**

قال شيخ الإسلام[١]: (**باب اللحظ. قال الله تعالىٰ:** ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾[الأعراف: ١٤٣]).

قلت: يريد والله أعلم بالاستشهاد بالآية أنَّ الله سبحانه أراد أن يُرِيَ موسىٰ ﷺ من كمال عظمته وجلاله ما يعلم به أنَّ القوَّة البشريّة في هذه الدّار لا تثبتُ لرؤيته ومشاهدته عيانًا، لصيرورة الجبل دَكًّا عند تجلِّي ربِّه سبحانه وتعالىٰ له أدنىٰ تجلٍّ. كما رواه ابن جريرٍ في «تفسيره»[٢] من حديث حمّاد بن سلمة: أخبرنا ثابتٌ عن أنسٍ عن النّبيِّ ﷺ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، قال حمّادٌ هكذا، ووضع الإبهام علىٰ مَفْصِل الخنصرِ الأيمن. فقال حميدٌ لثابتٍ: أتُحدِّث بمثلِ هذا؟ فضرب ثابتٌ صدرَ حميدٍ ضربةً بيده، وقال: رسولُ الله ﷺ يُحدِّث به وأنا لا أحدِّث به؟ ورواه الحاكم في «صحيحه»[٣] وقال: هو علىٰ شرط مسلمٍ. وهو كما قال.

والمقصود: أنَّ الشّيخ استشهد بهذه الآية في باب اللّحظ، لأنّ الله سبحانه أمر موسىٰ أن ينظر إلىٰ الجبل حين تجلّىٰ له ربُّه، فرأىٰ أثَرَ التّجلِّي في الجبل، فخرَّ صعقًا.

قال الشّيخ[٤]: (**اللّحظ: لَمْحٌ مُسْتَرَقٌ**). الصّواب قراءة هذه الكلمة علىٰ

---

(١) «المنازل» (ص٨١).

(٢) (١٠/ ٤٢٩).

(٣) «المستدرك» (١/ ٢٥، ٢/ ٥٧٧).

(٤) «المنازل» (ص٨١).

الصِّفة بالتّخفيف، فوصف اللّمح بأنّه مسترقٌ، كما يقال: سارَقْتُه النّظرَ، وهو لَمْحٌ بخفيةٍ من حيثُ لا يشعر المَلْمُوح.

ولهذا الاستراق أسبابٌ:

منها: تعظيم الملموح وإجلاله، فالناظر يسارقه النّظر، ولا يُحِدُّه إليه إجلالًا له، كما كان أصحاب النّبيِّ ﷺ لا يُحِدُّون النّظر إليه إجلالًا له. وقال عمرو بن العاص: لم أكن أملأ عينَيَّ منه إجلالًا له، ولو سُئلتُ أن أصِفَه لكم لما قدرتُ، لأنّي لم أكن أملأ عينيَّ منه[1].

ومنها: خوف الملموح وسطوته.

ومنها: محبّته.

ومنها: الحياء منه.

ومنها: ضعف القوّة الباصرة عن التّحديق فيه. وهذا السّبب هو السّبب الغالب في هذا الباب.

ويجوز أن يُقرأ بكسر الرّاء وتشديد القاف، أي نظرٌ يسترِقُّ صاحبَه، أي يأسر قلبه ويجعله رقيقًا أي عبدًا مملوكًا للمنظور إليه، لأنه لما شاهد من جماله وكماله فاسترقّ قلبه له، فلم يكن بينه وبين رقِّه له إلّا مجرّدُ وقوعِ لحْظِه عليه.

فهكذا صاحب هذه الحال إذا لاحظ بقلبه جلالَ الرُّبوبيّة، وكمالَ الربِّ سبحانه، وكمالَ نعوته، ومواقعَ لطفه وفضله وبرِّه وإحسانه= استرقّ قلبه له، وصارت له عبوديّةٌ خاصّةٌ.

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١).

فصل

ساعة جمع على الله أنفع من كثير من المجاهدات البدنية

ساعةٌ من ساعات الجمع علىٰ الله أنفعُ وأجدىٰ من القيام بكثيرٍ من المجاهدات البدنيّة التي لم يفرضها الله عليه. فإن أجمعَ همَّه وقلبه كلَّه علىٰ الله، وزال عنه كلُّ مفرِّقٍ ومشتِّتٍ= كانت هذه هي ساعات عمره في الحقيقة، فتعوَّض بها عمَّا كان يُقاسِيه من كَدِّ المجاهدات وتَعَبِها.

وهذا موضعٌ غلِطَ فيه طائفتان من النّاس:

إحداهما: غلَتْ فيه حتّىٰ قدَّمتْه علىٰ الفرائض والسُّنن، ورأت نزولها عنه إلىٰ القيام بالأوامر انحطاطًا من الأعلىٰ إلىٰ الأدنىٰ. حتّىٰ قيل لبعض من ذاق ذلك: قُمْ إلىٰ الصّلاة، فقال:

يُطالَب بالأورادِ من كان غافلًا فكيف بقلبٍ كلُّ أوقاتِه وِرْدُ

وقال آخر: لا تُسيِّبْ واردَك لوِردِك.

وهؤلاء بين كافرٍ وناقصٍ: فمن لم يرَ القيامَ بالفرائض إذا حصلت له الجمعيّةُ فهو كافرٌ منسلخٌ من الدِّين. ومن عطّل لها ما مصلحتُه راجحةٌ كالسُّنن الرّواتب، والعلم النّافع، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر، والنّفع العظيم المتعدِّي فهو ناقصٌ.

والطّائفة الثّانية: لا تَعْبأ بالجمعيّة، ولا تعمل عليها. ولعلّها لا تدري ما مسمَّاها وحقيقتها.

وطريقة الأقوياء أهلِ الاستقامة: القيام بالجمعيَّة في التّفرقة ما أمكن. فيقوم بالعبادات ونفع الخلق والإحسان إليهم، مع جمعيَّته علىٰ الله. فإن ضعُفَ عن

اجتماع الأمرين وضاق عن ذلك قام بالفرائض، ونزل عن الجمعيَّة، ولم يلتفتْ إليها، إذا كان لا يقدر علىٰ تحصيلها إلّا بتعطيل الفرض. فإنَّ ربّه سبحانه يريد منه أداء فرائضه، ونفسُه تريد الجمعيّة، لما فيها من الرّاحة واللّذّة، والتّخلُّص من ألم التّفرقة وشَعَثِها. فالفرائض حقُّ ربِّه، والجمعيّة حظُّه هو. فالعبوديّة الصّحيحة تُوجِب عليه تقديمَ أحد الأمرين علىٰ الآخر.

فإذا جاء إلىٰ النوافل، وتعارض عنده الأمران: فمنهم من يُرجِّح الجمعيَّة، ومنهم من يُرجِّح النّوافل، ومنهم من يُؤثِر هذا في وقتٍ وهذا في وقتٍ.

والتّحقيق إن شاء الله أنَّ تلك النوافل إن كانت مصلحتُها أرجحَ من الجمعيّة، ولا تُعوِّض الجمعيّة عنها= اشتغل بها ولو فاتتْه الجمعيَّة، كالدّعوة إلىٰ الله، وتعليم العلم النّافع، وقيام وسط اللّيل، والذِّكر أوَّل النهار وآخره، وقراءة القرآن بالتّدبُّر، وفعل الجهاد، والإحسان إلىٰ المضطرِّ، وإغاثة الملهوف، ونحو ذلك. فهذا كلُّه مصلحتُه أرجحُ من مصلحة الجمعيّة.

وإن كانت مصلحته دون مصلحة الجمعيّة كصلاة الضُّحىٰ، وزيارة الإخوان، والتبتل لحضور الجنائز، وعيادة المرضىٰ، وإجابة الدّعوات، وزيارة القدس، وضيافة الإخوان، ونحو ذلك فهذا فيه تفصيلٌ.

فإن قويتْ جمعيَّته وظهر تأثيرُها فيه، فهي أولىٰ له وأنفعُ من ذلك. وإن ضعفت الجمعيَّة، وقوي إخلاصُه في هذه الأعمال، فهي أنفع له وأفضلُ من الجمعيّة.

والمعوَّل عليه في ذلك: إيثار أحبِّ الأمرين إلىٰ الرّبِّ تعالىٰ. وذلك يُعرَف بنفع العمل وثمرته، من زيادة الإيمان به، وترتُّبِ الغايات الحميدة عليه، وكثرة مواظبة الرسول ﷺ، وشدّة اعتنائه به، وكثرة الوصيّة به، وإخبارِه أنّ الله يحبُّ فاعله، ويُباهي به ملائكته، ونحو ذلك.

ونكتة المسألة وحرفها: أنَّ الصادق في طلبه يُؤثِر مرضاةَ ربِّه علىٰ حظِّه، فإن كان رضا الله في القيام بذلك العمل، وحظُّه في الجمعيّة: خلّىٰ الجمعيّة تذهب، وقام بما فيه رضا الله. ومتّىٰ علم الله من قلبه أنّ مراده وتوقُّعه ليعلم: أيّ الأمرين أحبُّ إلىٰ الله وأرضىٰ له= أنشأَ له من ذلك التّوقُّفِ والتّردُّدِ حالةً شريفةً فاضلةً، حتّىٰ لو أقدمَ علىٰ المفضول لِظنِّه أنّه الأحبُّ إلىٰ الله رَدَّتْ تلك النِّيّةُ والإرادة عليه ما ذهبَ عليه وفَاتَه من زيادة العمل الآخر. وبالله التّوفيق.

وبعدُ، فالعبد وإن لاحظ عينَ الجمع ولم يَغِبْ عنها، فهو سائرٌ إلىٰ الله، ولا ينقطع سيرُه إليه ما دام في قيد الحياة. ولا يصل العبد ما دام حيًّا إلىٰ الله وصولًا يستغني به عن المسير إليه البتّة، وهذا عين المحال. بل يشتدُّ سيره إلىٰ الله كلّما زادت ملاحظته لتوحيده وأسمائه وصفاته. ولهذا كان رسول الله ﷺ أعظم الخلق اجتهادًا، وقيامًا بالأعمال، ومحافظةً عليها، إلىٰ أن توفّاه وهو أعظم ما كان اجتهادًا وقيامًا بوظائف العبوديّة. فلو أتىٰ العبد بأعمال الثَّقلَين جميعها لم تفارِقه حقيقة السّير إلىٰ الله، وكان بعدُ في طريق الطّلب والإرادة.

وتقسيم السّائرين إلىٰ الله إلىٰ طالبٍ وسائرٍ وواصلٍ، أو إلىٰ مريدٍ ومرادٍ= تقسيمٌ فيه مساهلةٌ لا تقسيمٌ حقيقيٌّ، فإنّ الطّلب والسُّلوك والإرادة لو فارق العبدَ انقطع عن الله بالكلِّيّة. ولكنّ هذا التّقسيم باعتبار تنقُّل العبد في أحوال سيره، وإلّا فإرادةُ العبدِ المرادَ وطلبُه وسيرُه أشدُّ من إرادةِ غيره وطلبِه وسيرِه.

وأيضًا فإنّه مرادٌ أوّلًا، حيث أُقيم مقامَ الطّلب، وجُذِب إلىٰ السّير. فكلُّ مريدٍ مرادٌ، وكلُّ واصلٍ سالكٌ وطالبٌ لا يفارقه طلبه ولا سيره، وإن تنوّعتْ طرقُ السّير بحسب اختلاف حال العبد.

فمن السّالكين: من يكون سيره ببدنه وجوارحه أغلبَ عليه من سيره بقلبه وروحه.

ومنهم: من سيره بقلبه أغلبُ عليه، أعني قوّة سيره وحِدَّته.

ومنهم وهم الكمّل الأقوياء: من يعطي كلَّ مرتبةٍ حقّها، فيسير إلىٰ الله ببدنه وجوارحه، وقلبه وروحه.

وقد أخبر الله سبحانه عن صفوة أوليائه بأنّهم في مقام الإرادة له، فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[الأنعام: ٥٢]. وقال: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[الليل: ١٩]. فالعبد أخصُّ أوصافِه وأعلىٰ مقاماتِه: أن يكون مريدًا صادقَ الإرادة، عبدًا في إرادته، بحيث يكون مراده تبعًا لمراد ربِّه الدِّينيِّ منه، ليس له إرادةٌ في سواه.

فإنّ العبد كلّما كان إلىٰ الله أقرب كان جهاده في الله أعظم. قال تعالىٰ: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾[الحج: ٧٨].

وتأمَّلْ أحوال رسول الله ﷺ وأصحابه، فإنّهم كانوا كلَّما تَرقَّوا من القرب في مقامٍ عظُمَ جهادهم واجتهادهم. لا كما ظنَّه بعض الملاحدة المنتسبين إلىٰ الطّريق، حيث قال[١]: القرب الحقيقيُّ يَنقُل العبد من الأعمال الظّاهرة إلىٰ الأعمال الباطنة، ويُرِيح الجسدَ والجوارح من كَدِّ العمل.

وهؤلاء يظنُّون أنّهم يستغنون بهذه الحقيقة عن ظاهر الشّريعة.

واجتمعت علماء الطّائفة علىٰ أنّ هذا كفرٌ وإلحادٌ، وصرَّحوا بأنّ كلّ حقيقةٍ لا تتبعها شريعةٌ فهي كفرٌ.

وقال سريٌّ: من ادّعىٰ باطنَ حقيقةٍ ينقضُها ظاهرُ حكمٍ فهو غالطٌ[٢].

وقال سيِّد الطّائفة الجنيد بن محمّدٍ: علمنا هذا متشبِّكٌ بحديث رسول الله ﷺ[٣].

---

(١) هو التلمساني في «شرحه» (ص٤٥٣).

(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١٢١).

(٣) رواه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٧/ ٢٥١).

وسئل إسماعيل بن نُجيدٍ: ما الذي لا بدَّ للعبد منه؟ فقال: ملازمة العبوديّة علىٰ السُّنّة، ودوام المراقبة[١].

وسئل: ما التّصوُّف؟ فقال: الصّبر تحت الأمر والنّهي[٢].

وقال أحمد بن أبي الحَواريِّ: من عمِلَ بلا اتِّباع سنّةٍ فباطلٌ عملُه[٣].

وقال أبو يزيد البِسطاميُّ: لو نظرتم إلىٰ رجلٍ أُعطي من الكرامات حتّىٰ يرتفع في الهواء فلا تَغترُّوا به، حتّىٰ تنظروا: كيف تجدونه عند الأمر والنّهي وحفظِ الحدود والشّريعة[٤].

وقال عبد الله بن مبارك[٥]: لا يظهر علىٰ أحدٍ شيءٌ من نور الإيمان إلاّ باتِّباع السُّنّة ومجانبة البدعة. وكلُّ موضعٍ ترىٰ فيه اجتهادًا ظاهرًا بلا نورٍ فاعلَمْ أنّ ثَمَّ بدعةً خفيّةً.

وقال سهل بن عبد الله: الزم السواد علىٰ البياض حدّثنا وأخبرنا إن أردت أن تفلح[٦].

ولقد كان سادات الطّائفة أشدَّ ما كانوا اجتهادًا في آخر أعمارهم.

قال القشيريُّ[٧]: سمعت أبا عليٍّ الدّقّاق يقول: رُئي في يد الجنيد سُبحةٌ، فقيل له: أنت مع شرفك تأخذ بيدك سبحةً؟ فقال: طريقٌ به وصلتُ إلىٰ ربِّي تبارك وتعالىٰ لا أفارقه أبدًا.

---

(١) رواه السلمي في «طبقات الصوفية» (ص٤٥٥).
(٢) رواه السلمي (ص٤٥٤)، والقشيري (ص٢١٧).
(٣) رواه السلمي (ص١٠١)، والقشيري (ص١٤٣).
(٤) رواه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٤٠)، والقشيري في «الرسالة القشيرية» (ص١٢٩).
(٥) الفقرة الثانية مروية عن ابن فورك في «طبقات الفقهاء الشافعية» لابن الصلاح (١/ ١٣٨).
(٦) «تاريخ دمشق» (٤٨/ ٢٥٣)، و«تلبيس إبليس» (ص٢٨٧).
(٧) «الرسالة القشيرية» (ص١٥٦).

وقال إسماعيل[(١)] بن نُجيدٍ: كان الجنيد يجيء كلَّ يومٍ إلىٰ السُّوق، فيفتح بابَ حانوته، فيدخله ويُسبِل السِّتر، ويصلِّي أربعمائة ركعةٍ، ثمَّ يرجع إلىٰ بيته.

ودخل عليه ابنُ عطاءٍ وهو في النَّزع، فسلّم عليه، فلم يردَّ عليه. ثمّ ردّ عليه بعد ساعةٍ، فقال: اعذرني، فإنِّي كنتُ في وِرْدي. ثمّ حَوَّل وجهَه إلىٰ القبلة، وكبّر، ومات[(٢)].

وقال أبو سعيد بن الأعرابيّ: سمعت أبا بكرٍ العطّار يقول: حضرتُ أبا القاسم الجُنيد أنا وجماعةٌ من أصحابنا، وكان قاعدًا يصلِّي، ويَثْنِي رجلَه إذا أراد أن يسجد. فلم يزل كذلك حتّىٰ خرجت الرُّوح من رجليه، فثقلَتْ عليه حركتها، وكانتا قد تورَّمتا. فقال له بعض أصحابه: ما هذا يا أبا القاسم؟ فقال: هذه نِعَمُ الله. الله أكبر. فلمَّا فرغ من صلاته قال له أبو محمّدٍ الجريريُّ: يا أبا القاسم، لو اضطجعتَ. فقال: يا أبا محمَّدٍ، هذا وقتٌ يؤخذ فيه الله أكبر. فلم يزل ذلك حاله حتَّىٰ مات[(٣)].

ودخل عليه شابٌّ وهو في مرضه الذي مات فيه، وقد تورَّم وجهُه، وبين يديه مخدَّةٌ يصلِّي إليها، فقال: وفي هذه الساعة لا تترك الصّلاة؟ فلمَّا سلّم دعاه وقال: هذا شيءٌ وصلتُ به إلىٰ الله، فلا أدَعُه. ومات بعد ساعةٍ[(٤)].

وقال أبو محمَّدٍ الجُرَيريُّ: كنتُ واقفًا علىٰ رأس الجنيد في وقت وفاته، وكان يومَ جمعةٍ ويومَ نَيروزٍ، وهو يقرأ القرآن. فقلت له: يا أبا القاسم، ارفُقْ بنفسك، فقال: يا أبا محمّدٍ، أرأيتَ أحدًا أحوجَ إليه منِّي في مثل هذا الوقت، وهو ذا تُطوىٰ صحيفتي؟[(٥)].

---

(١) الخبر من طريقه في «تاريخ بغداد» (٧/ ٢٤٥).
(٢) الخبر في «تاريخ بغداد» (٧/ ٢٤٥).
(٣) الخبر في «صفة الصفوة» (٢/ ٤٢٢، ٤٢٣)، و«طبقات الشافعية» للسبكي (٢/ ٢٦٢).
(٤) رواه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٧/ ٢٤٧، ٢٤٨).
(٥) رواه الخطيب (٧/ ٢٤٨).

وقال أبو بكرٍ العَطويُّ: كنت عند الجنيد حين مات، فختم القرآن، ثمّ ابتدأ في ختمةٍ أخرىٰ، فقرأ من البقرة سبعين آيةً، ثمّ مات[(١)].

وقال محمّد بن إبراهيم: رأيت الجنيد في النّوم، فقلت: ما فعلَ الله بك؟ فقال: طاحتْ تلك الإشارات، وغابتْ تلك العبارات، وفنِيتْ تلك العلوم، ونفدت تلك الرُّسوم، وما نفعَنا إلّا ركعاتٌ كنّا نركعها في الأسحار[(٢)].

فرحمةُ الله علىٰ أبي القاسم الجنيد ورضي الله عنه، ما أَتبعَه لسنّة الرّسول ﷺ! وما أقفاه لطريقته وطريقة أصحابه!

وهذا بابٌ يطول تتبُّعه جدًّا، يدلُّك علىٰ أنّ أهل الاستقامة في نهاياتهم أشدُّ اجتهادًا منهم في بداياتهم، بل كان اجتهادهم في البداية في عملٍ مخصوصٍ، فصار اجتهادهم في النِّهاية في الطّاعة المطلقة، وصارت إرادتهم دائرةً معها. فيضعُف الاجتهاد في العين، لأنّه قد صار مقسومًا بينه وبين غيره.

قال الجنيد رحمه الله: واشوقًا إلىٰ أوقات البداية[(٣)]. يعني لذّة أوقات البداية، وجمع الهمَّة علىٰ الطّلب، والسّير إلىٰ الله. فإنّه كان مجموعَ الهمَّة علىٰ السّير والطّلب، فلمَّا لاحظ عينَ الجمع فنيتْ رسومُه، وهو لا يمكنه الفناء عن بشريَّته وأحكام طبيعته، فتقاضَتْه طباعُه ما فيها، فلزِمتْه الكُلَف، فارتاح إلىٰ أوقات البدايات، لِما كان فيها من لذّة الإعراض عن الخلق واجتماع الهمَّة.

ومرَّ أبو بكرٍ رضي الله عنه علىٰ رجلٍ وهو يبكي من خشية الله، فقال: هكذا كنّا حتّىٰ قَسَتْ قلوبنا[(٤)].

---

(١) رواه الخطيب (٧/ ٢٤٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٦٤).
(٢) رواه الخطيب (٧/ ٢٤٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٥٧).
(٣) «شرح التلمساني» (ص٤٥٣)، و«شرح القاساني» (ص٤٥١).
(٤) رواه ابن أبي شيبة (٣٦٦٧٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٤).

وقد أخبر النبيُّ ﷺ أنَّ لكلِّ عاملٍ شِرَّةً، ولكلِّ شِرَّةٍ فَتْرة[١].

فالطّالب الجادُّ لا بدّ أن تَعرِض له فترةٌ، فيشتاق في تلك الفترة إلىٰ حاله وقتَ الطّلب والاجتهاد.

ولمّا فَتر الوحيُ عن النبيِّ ﷺ كان يغدو إلىٰ شَواهقِ الجبال ليُلقِي نفسَه، فيتبدَّىٰ له جبريل فيقول له: إنّك رسول الله. فيسكُن لذلك جَأْشُه، وتطمئنُّ نفسه[٢].

فتخلُّلُ الفترات للسالكين أمرٌ لازمٌ لا بدَّ منه. فمن كانت فترتُه إلىٰ مقاربةٍ وتسديدٍ، ولم تُخرِجه من فرضٍ، ولم تُدخِله في محرّمٍ= رُجِيَ له أن يعود خيرًا ممّا كان.

قال عمر بن الخطّاب: إنّ لهذه القلوب إقبالًا وإدبارًا، فإذا أقبلتْ فخذوها بالنّوافل، وإذا أدبرتْ فألزِموها الفرائضَ[٣].

وفي هذه الفترات والغُيوم والحُجُب التي تَعرِض للسالكين من الحِكم ما لا يعلم تفصيله إلّا الله، وبها يتبيّن الصّادق من الكاذب.

فالكاذب ينقلب علىٰ عقبيه، ويعود إلىٰ رسوم طبيعته وهواه.

والصّادق ينتظر الفرج، ولا ييأس من رَوْح الله، فيُلْقي نفسَه في الباب طَريحًا ذليلًا مسكينًا مستكينًا، كالإناء الفارغ الذي لا شيء فيه البتّةَ، ينتظر أن يضع فيه مالك الإناء وصانعه ما يصلُح له، لا بسببٍ من العبد وإن كان هذا الافتقار من

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٣) وصححه، وابن حبان (٣٤٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه..

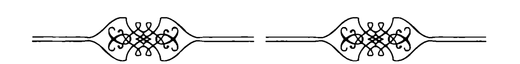
(٢) رواه البخاري (٦٩٨٢) ضمن حديث عائشة رضي الله عنها، وهو من بلاغات الزهري وليس موصولاً، كما بينه الحافظ في «الفتح» (١٢/ ٣٥٩).

(٣) لم أجده عن عمر، وروي نحوه عن ابن مسعود في «الزهد» لابن المبارك (١٣٣١)، و«حلية الأولياء» (١/ ١٣٤)، و«الجامع» للخطيب (١/ ٣٣١).

أعظم الأسباب، لكن ليس هو منك، بل هو الذي منَّ عليك به، وجرَّدك منك، وأخلاك عنك.

فإذا رأيتَه قد أقامك في هذا المقام، فاعلم أنّه يريد أن يرحمك ويملأ إناءك، فإن وضعتَ القلب في غير هذا الموضع فاعلم أنّه قلبٌ مُضَيَّعٌ، فسَلْ ربّه ومَن هو بين أصابعه أن يردَّه عليك، ويجمعَ شَمْلَك به. ولقد أحسن القائل[1]:

إذا ما وضعتَ القلبَ في غيرِ موضعٍ   بغير إناءٍ فهو قَلْبٌ مضيَّعُ



(١) أنشده شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (٩/ ٣١٦)، وشرَحَه.

فصل

٣/ ٥٤٤

ومنها الوقت.

منزلة الوقت

قال صاحب «المنازل»[1]: (باب الوقت. قال الله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾[طه: ٤٠].

وجه استشهاده بالآية: أنّ الله سبحانه قدَّر مجيء موسىٰ أحوجَ ما كان الوقت إليه، فإنّ العرب تقول: جاء فلانٌ علىٰ قَدَرٍ، إذا جاء وقتَ الحاجة إليه. قال جريرٌ[2]:

نال الخلافةَ أو كانت علىٰ قَدَرٍ كما أتىٰ ربَّه موسىٰ علىٰ قَدَرِ

وقال مجاهدٌ: علىٰ موعدٍ[3]. وهذا فيه نظرٌ، لأنّه لم يَسبِق بين الله سبحانه وبين موسىٰ موعدٌ للمجيء حتَّىٰ يقال: إنّه أتىٰ علىٰ ذلك الموعد. ولكنَّ وجهَ هذا أنّ المعنىٰ: جئتَ على الموعد الذي وعدناه أن نُنجِزه، والقَدَر الذي قدَّرنا أن يكون في وقته. وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾[الإسراء: ١٠٧-١٠٨]. لأنَّ الله سبحانه وعد بإرسال نبيٍّ في آخر الزّمان يملأ الأرض نورًا وهدًى، فلمَّا سمعوا القرآن علموا أنَّ الله أنجزَ ذلك الوعد الذي وعد به.

واستشهاده بهذه الآية يدلُّ علىٰ محلِّه من العلم، لأنَّ الشيء إذا وقع في وقته

---

(١) (ص٨٢).

(٢) «ديوانه» (ص٤١٦).

(٣) رواه ابن أبي حاتم وغيره كما في «الدر المنثور» (١٠/ ٢٠٧).

الذي هو أليقُ الأوقات بوقوعه فيه كان أحسنَ وأنفعَ وأجدىٰ، كما إذا وقع الغيثُ في أحوجِ الأوقات إليه، وكما إذا وقع الفَرَجُ في وقته الذي يليق به.

ومن تأمّلَ أقدار الرّبِّ تعالىٰ وجَرَيانَها في الخلق علِمَ أنّها واقعةٌ في أليق الأوقات بها. فبعث الله سبحانه موسىٰ أحوجَ ما كان الناس إلىٰ بعثته، وبعث عيسىٰ كذلك، وبعث محمَّدًا ﷺ أحوجَ ما كان أهل الأرض إلىٰ إرساله، فهكذا وقت العبد مع الله يَعمُره بأنفع الأشياء له أحوجَ ما كان إلىٰ عمارته.

ولكنّ الوقت في اصطلاح القوم أخصُّ من ذلك؛ يريدون بالوقت ما بين الزمانين الماضي والمستقبل. وهو اصطلاح أكثر الطّائفة، ولهذا يقولون: الصُّوفيُّ أو الفقير ابنُ وقتِه[1].

يريدون: أنَّ همَّته لا تتعدّىٰ وظيفةَ وقتِه، وعمارتَه بما هو أولىٰ الأشياء به وأنفعُها له. فهو قائمٌ بما هو مُطالَبٌ به في الحِين والسّاعة الرّاهنة، فهو لا يهتمُّ بماضي وقتِه وآتيه، بل بوقته الذي هو فيه، فإنّ الاشتغال بالوقت الماضي والمستقبل يُضيِّع الوقتَ الحاضر، وكلّما حضرَ وقتٌ اشتغل عنه بالطّرفين، فتصير أوقاته كلُّها فَواتًا.

قال الشافعيُّ ﵀: صحبتُ الصُّوفيَّة، فما انتفعتُ منهم إلّا بكلمتين. سمعتهم يقولون: الوقت سَيفٌ، فإن قطعتَه وإلّا قطَعَك. ونفسك إن لم تَشْغَلْها بالحقِّ شَغَلَتْك بالباطل[2].

قلت: يا لهما من كلمتين ما أنفعَهما وأجمعَهما! وأدلَّهما علىٰ علوِّ همَّة قائلهما ويقظته! ويكفي هذا ثناءً من الشّافعيِّ علىٰ طائفةٍ هذا قدْرُ كلماتهم.

---

(١)«الرسالة القشيرية» (ص٢٣٢).

(٢)انظر: «مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ٢٠٨)، و«تلبيس إبليس» (ص٣٠١).

فصل

٣/ ٥٦٦

منزلة الصفاء

ومنها **منزلة الصَّفاء**.

قال صاحب «المنازل»[(١)]: (**باب الصَّفاء. قال الله** ﷻ: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾[ص: ٤٧]. **الصَّفاء اسمٌ للبراءة من الكَدَر، وهو في هذا الباب سقوطُ التَّلوين**).

أمَّا استشهاده بالآية: فوجهه أنَّ المصطفىٰ مُفتعَلٌ من الصَّفوة، وهي خلاصة الشَّيء، وتصفيتُه ممَّا يَشُوبه. ومنه: اصطفىٰ الشَّيءَ لنفسه، أي خلَّصه من شوب شركة غيره له فيه. ومنه: «الصَّفيُّ»، وهو السَّهم الذي كان يصطفيه رسول الله ﷺ لنفسه من الغنيمة[(٢)]. ومنه: الشَّيء الصَّافي، وهو الخالص من كدَرِ غيره.

قوله: (**الصَّفاء: اسمٌ للبراءة من الكَدَر**).

البراءة هي الخلاص، والكدر: امتزاج الطَّيِّب بالخبيث.

قوله: (**وهو في هذا الباب سقوطُ التَّلوين**).

التَّلوين هو التَّردُّد والتَّذبذب، كما قيل[(٣)]:

كلَّ وقــتٍ تتلوَّنْ ... غيرُ هـذا بـك أجمَلْ

قال[(٤)]: (**وهو علىٰ ثلاث درجاتٍ. الدَّرجة الأولىٰ: صفاء علمٍ يُهذِّب لسلوك الطَّريق، ويُبصِّر غايةَ الجدِّ، ويُصحِّح همَّةَ القاصد**).

---

(١) (ص٨٣).

(٢) انظر: «سنن أبي داود»، باب ما جاء في سهم الصفي، ح(٢٩٩١-٢٩٩٩).

(٣) البيت في «اللمع» (ص٢٨٦)، و«الرسالة القشيرية» (ص٦٩٢)، وفيها: «كلَّ يوم».

(٤) «المنازل» (ص٨٣).

ذكر الشّيخ له في هذه الدّرجة ثلاث فوائد:

الفائدة الأولىٰ: (**علمٌ يهذِّب لسلوك الطّريق**)، وهذا العلم الصّافي الذي أشار إليه هو العلم الذي أوصىٰ به القوم، وحذَّروا من مفارقته، وأخرجوا مَن فارقَه من أهل الطريق بالكلية. وهو العلم الذي جاء به الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

وكان الجنيد يقول دائمًا: علمُنا هذا مقيَّدٌ بالكتاب والسُّنّة. من لم يحفظِ القرآن ولم يكتبِ الحديث ولم يفقَهْ فلا يُقتدىٰ به[1].

وقال أبو سليمان الدّارانيُّ: إنّه لتمرُّ بقلبي النُّكتة من نكت القوم، فلا أقبلها إلّا بشاهدينِ من الكتاب والسُّنّة.

وقال النصراباذيُّ: أصلُ هذا المذهب ملازمة الكتاب والسُّنّة، وتركُ الأهواء والبدع، والاقتداء بالسّلف، وتركُ ما أحدثه الآخرون، والإقامة علىٰ ما سلكه الأوّلون.

وقد تقدّم ذكر بعض ذلك.

فهذا العلم الصّافي المتلقّىٰ من مشكاة الوحي والنُّبوّة يهذِّب صاحبَه لسلوك طريق العبوديّة، وحقيقةِ التّأدُّبِ بآداب رسول الله ﷺ ظاهرًا وباطنًا، والوقوفِ معه حيث وقف بك، والمسيرِ معه حيث سار بك، بحيث تجعله بمنزلة شيخك الذي قد ألقيتَ إليه أمرَك كلّه سِرَّه وظاهرَه، واقتديتَ به في جميع أحوالك، ووقفتَ مع ما يأمرك به فلا تخالفه البتّةَ. فتجعل رسول الله ﷺ لك شيخًا وإمامًا وقدوةً وحاكمًا، وتُعلِّق قلبك بقلبه الكريم، وروحانيّتَك بروحانيّته.

وبالجملة: فتجعل الرّسولَ شيخك وأستاذك، ومعلِّمك ومربِّيك ومؤدِّبك، وتُسقِط الوسائطَ بينك وبينه إلّا في التّبليغ، كما تُسقِط الوسائط بينك وبين المرسل

---

(١) تقدم هذا وما يليه من الأقوال.

في العبوديّة، ولا تُثبِت وساطةً إلّا في وصول أمره ونهيه ورسالته إليك.

وهذان التّجريدان حقيقة شهادة أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّدًا رسول الله. فالله وحده المعبود المألوه، الذي لا يستحقُّ العبادةَ سواه، ورسولُه المُطاع المتَّبَع المقتدَىٰ به، الذي لا يستحقُّ الطّاعةَ سواه. ومَن سِواه فإنّما يُطاع إذا أمر بطاعته، فيطاع تبعًا لا أصلًا.

وبالجملة: فالطّريق مسدود إلّا علىٰ من اقتفىٰ آثار رسول الله ﷺ، واقتدىٰ به في ظاهره وباطنه.

فلا يتعنَّىٰ السّالكُ علىٰ غير هذه الطّريق، فليس حظُّه من سلوكه إلَّا التّعب، وأعمالُه ﴿كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾[النور: ٣٩].

ولا يتعنَّىٰ السّالك علىٰ هذه الطّريق، فإنّه واصلٌ ولو زحفَ زحفًا.

قوله: **(ويُبصِّر غايةَ الجدِّ)**.

الجدُّ: الاجتهاد والتّشمير، والغاية: النِّهاية. يريد أنّ صفاء العلم يَهدي صاحبَه إلىٰ الغاية المقصودة بالاجتهاد والتّشمير، فإنّ كثيرًا من السّالكين بل أكثرهم سالكٌ بجدِّه واجتهاده، غير متنبِّه إلىٰ المقصود.

وأضرب لك في هذا مثالًا حسنًا جدًّا، وهو: أنَّ قومًا قَدِموا من بلادٍ بعيدةٍ عليهم أنس النّعيم والبهجة والملابس السَّنيَّة والهيئة المُعجِبة، فعجِب النّاس لهم، فسألوهم عن حالهم، فقالوا: بلادنا من أحسنِ البلاد، وأجمعِها لسائر أنواع النّعيم، وأرخاها، وأكثرِها مياهًا، وأصحِّها هواءً، وأكثرها فاكهةً، وأعظمها اعتدالًا، وأهلُها كذلك أحسنُ النّاس صورًا وأبشارًا. ومع هذا فمَلِكُها لا يناله الوصف جمالًا وكمالًا، وإحسانًا وعلمًا وحلمًا، وجودًا ورحمةً للرّعيّة، وقربًا

منهم. وله الهيبة والسّطوة علىٰ سائر ملوك الأطراف، فلا يطمع أحدٌ منهم في مقاومته ومحاربته. فأهلُ بلدِه في أمانٍ من عدوِّهم، لا يحلُّ الخوف بساحتهم. ومع هذا فله أوقاتٌ يَبْرُز فيها إلىٰ رعيَّته، فيُسهِّل لهم الدُّخول عليه، ويرفع الحجاب بينه وبينهم، فإذا وقعت أبصارهم عليه تلاشىٰ كلُّ ما هم فيه من النّعيم واضمحلّ، حتّىٰ لا يلتفتون إلىٰ شيءٍ منه. فإذا أقبلَ علىٰ واحدٍ منهم أقبلَ عليه سائر أهل المملكة بالتعظيم والإجلال، ونحن رسلُه إلىٰ أهل البلاد ندعوهم إلىٰ حضرته، وهذه كُتُبه إلىٰ الناس، ومعنا من الشُّهود ما يُزيل سوء الظّنِّ بنا، واتِّهامنا بالكذب عليه.

فلمّا سمع النّاس ذلك وشاهدوا أحوالَ الرُّسل انقسموا أقسامًا:

فطائفةٌ قالت: لا نفارق أوطاننا، ولا نخرج من ديارنا، ولا نتجشَّم مشقَّة السفر البعيد، وتَرْك ما أَلِفناه من عيشنا ومنازلنا، ومفارقة آبائنا وأبنائنا وإخواننا، لأمرٍ وعدنا به في غير هذه البلاد، ونحن لم نقدر علىٰ تحصيل ما نحن فيه إلّا بعد الجهد والمشقّة، فكيف ننتقل عنه؟

والطّائفة الثّانية: لمَّا رأت حالَ الرُّسل، وما هم فيه من البهجة وحسن الحال، وعلموا صدقهم= تأهَّبوا للمسير إلىٰ بلاد الملك، فأخذوا في السَّير، فعارضهم أهلُهم وأصحابهم وعشائرهم من القاعدين، وعارضَتْهم مساكنُهم ودورهم وبساتينهم، فجعلوا يُقدِّمون رِجلًا ويؤخِّرون أخرىٰ، فهم دائمًا بين الدّاعيَيْنِ والجاذبينِ، إلىٰ أن يغلب أحدهما ويقوىٰ علىٰ الآخر، فيصيرون إليه.

والطّائفة الثّالثة: ركبتْ ظهورَ عزائمها، ورأتْ أنّ بلاد الملك أولىٰ بها، فوطَّنتْ أنفسَها علىٰ قصدها، ولم يَثْنِها لومُ اللُّوّام. لكن في سيرها بطءٌ بحسب ضعفِ ما كُشِف لها من أحوال تلك البلاد وحال الملك.

والطّائفة الرّابعة: جدّتْ في المسير وواصلتْه، فسارت سيرًا حثيثًا. فهم كما قيل[(١)]:

ورَكْبٍ سَرَوْا واللّيلُ مُرْخٍ سُدُولَه ... علىٰ كلِّ مُغْبَرِّ المطالعِ قاتمِ

حَدَوا عَزَماتٍ ضاعتِ الأرضُ بينها ... فصار سُراهم في ظُهورِ العزائمِ

أرَتْهم نجومُ اللّيل ما يطلبونه ... علىٰ عاتقِ الشِّعرىٰ وهَامِ النَّعائمِ

فأَمُّوا حِمًىٰ لا ينبغي لسواهمُ ... وما أخذتْهم فيه لَومةُ لائمِ

فهؤلاء هِمَّتُهم مصروفةٌ إلىٰ المسير، وقُواهم موقوفةٌ عليه من غير تنبُّهٍ منهم إلىٰ المقصود الأعظم والغاية العليا.

والطّائفة الخامسة: أخذوا في الجِدِّ في السير، وهمّتُهم متعلِّقةٌ بالغاية، فهم في سيرهم ناظرون إلىٰ المقصود بالسير، فكأنّهم يشاهدونه من بُعدٍ وهو يدعوهم إلىٰ نفسه وإلىٰ بلاده، وهم عاملون علىٰ هذا الشّاهد الذي قام بقلوبهم.

وعملُ كلِّ أحدٍ علىٰ قَدْرِ شاهدِه. فمن شاهدَ المقصودَ بالعمل في علمه كان نصحُه فيه وإخلاصُه وتحسينُه وبذلُ الجهد فيه أتمَّ ممَّن لم يلاحظه، ولم يجد من مَسِّ التعب والنصب ما يجده الغائب. والوجود شاهدٌ بذلك، فمن عمل عملًا لِمَلِكٍ بحضرته وهو شاهده= ليس حاله كحالة مَن عمل في غَيبته وبُعدِه عنه، وهو غير متيقِّنٍ بوصوله إليه.

وقوله: **(ويُصحِّح همّةَ القاصد)**.

أي: ويُصحِّح له صفاءُ هذا العلم همَّتَه، ومتىٰ صحَّت الهمَّة علَتْ وارتفعت، فإنَّ سُفولَها ودناءتها من علَّتها وسَقَمها، وإلَّا فهي كالنار تطلب الصُّعود والارتفاع ما لم تُمنع.

---

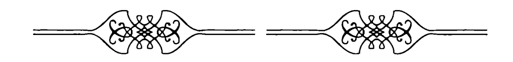
(١) الأبيات للشريف الرضي في «ديوانه» (٢/ ٣٨٢) ببعض الاختلاف. سُراهم: مسيرهم في الليل. الشِّعرىٰ: كوكب نيِّر. النعائم: ثمانية أنجم علىٰ هيئة سرير مُعوَجّ.

وأعلىٰ الهمم همّةٌ اتّصلتْ بالحقِّ طلبًا وقصدًا، وأوصلت الخلقَ إليه دعوةً ونصحًا، وهذه همَّة الرُّسل وأتباعهم. وصحَّتُها: بتجريدها من انقسام طلبها وانقسام مطلوبها وانقسام طريقها، بل تُوحِّد مطلوبها بالإخلاص، وطلبَها بالصِّدق، وطريقَها بالسُّلوك خلف الدليل الذي نصبَه الله دليلًا، لا من نصبَه هو دليلًا له.

ولله الهِمم! ما أعجبَ شأنَها، وأشدَّ تفاوتَها! فهمَّةٌ متعلِّقةٌ بمن فوقَ العرش، وهمَّةٌ حائمةٌ حولَ الأنتان والحُشِّ. والعامَّة تقول: قيمة كلِّ امرئٍ ما يُحسِنه، والخاصَّةُ تقول: قيمة المرء ما يطلبه، وخاصّةُ الخاصَّة تقول: قيمتُه همتُه إلىٰ مطلوبه.

وإذا أردتَ أن تعرف مراتبَ الهمم فانظر إلىٰ همَّة ربيعة بن كعبٍ الأسلميِّ وقد قال له رسول الله ﷺ: «سَلْني»، فقال: أسألك مرافقتك في الجنَّة[1]. وكان غيره يسأله ما يملأ بطنَه، أو يواريْ جلْدَه.

وانظر إلىٰ همَّة رسول الله ﷺ حين عُرِضت عليه مفاتيح كنوز الأرض فأباها. ومعلومٌ أنَّه لو أخذها لأنفقها في طاعة ربِّه، فأبَتْ له تلك الهمَّة العالية أن يتعلّق منها بشيءٍ ممَّا سوىٰ الله ومَحابِّه. وعُرِض عليه أن يتصرَّف بالملك فأباه، واختار التّصرُّف بالعبوديَّة المحضة. فلا إله إلّا الله، خالقُ هذه الهمَّة وخالقُ نفسٍ تَحمِلها، وخالقُ هِمَمٍ لا تعدو همَمَ أخسِّ الحيوانات.



(١) أخرجه مسلم (٤٨٩).

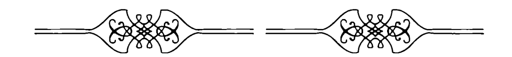
فصل

قال[١]: **(الدرجة الثانية: صفاء حالٍ، يُشاهَد به شواهدُ التحقيق، وتُذاقُ به حلاوةُ المناجاة، ويُنسىٰ به الكونُ).**

هذه الدّرجة إنّما كانت أعلىٰ ممَّا قبلها لأنه همَّة حالٍ، والحال ثمرة العلم، ولا يصفو حالٌ إلّا بصفاء العلم المثمر له، وعلىٰ حسب شَوْب العلم يكون شوبُ الحال. وإذا صفا الحالُ شاهد العبدُ بصفائه آثارَ الحقائق، وهي الشّواهد فيه وفي غيره، وعليه وعلىٰ غيره، ووجد حلاوةَ المناجاة. وإذا تمكَّن في هذه الدّرجة نسي الكونَ وما فيه من المكوَّنات.

وهذه الدّرجة تختصُّ بصفاء الحال كما اختصّت الأولىٰ بصفاء العلم.

والحال هو تكيُّف القلب وانصباغُه بحكم الواردات علىٰ اختلافها، والحال يدعو صاحبه إلىٰ المقام الذي منه جاء الوارد، كما تدعوه رائحةُ البستان الطّيِّبة إلىٰ دخوله والمُقام فيه.



فصل

قال[١]: (الدّرجة الثّالثة: صفاء اتِّصالٍ. يُدرِج حظَّ العبوديّة في حقِّ الرُّبوبيّة، ويُغرِق نهايات الخبر في بدايات العيان).

ومراد القوم بالاتِّصال والوصول: اتِّصال العبد بربِّه ووصوله إليه.

قوله: (يُدرِج حظَّ العبوديّة في حقِّ الرُّبوبيّة).

المعنىٰ الصّحيح الذي يُحمل عليه هذا الكلام: أنَّ من تمكَّن في قلبه شهودُ الأسماء والصِّفات، وصفا له علمُه وحالُه= اندرج عمله جميعُه وأضعافُه وأضعافُ أضعافِه في حقِّ ربِّه تعالىٰ، ورآه في جنب حقِّه أقلَّ من خَردلةٍ بالنِّسبة إلىٰ جبال الدُّنيا، فسقطَ من قلبه اقتضاءُ حظِّه من المجازاة عليه لاحتقاره له، وقلّتِه عنده، وصغرِه في عينه.

وله محملٌ آخر صحيحٌ أيضًا، وهو أنّ ذاتَ العبد وصفاتِه وأفعالَه وقواه وحركاتِه كلَّها مفعولةٌ للرّبِّ، مملوكةٌ له، ليس يملك العبدُ منها شيئًا، بل هي محضُ مِلكِ الله، فهو المالك لها، المُنعِم علىٰ عبده بإعطائه إيّاها. فالمال ماله، والعبد عبده، والخدمة مستحقّةٌ عليه بحقِّ الرُّبوبيّة، وهي من فضل الله عليه. فالفضل كلُّه لله، ومن الله، وبالله.

قوله: (ويُغرِق نهاياتِ الخبر في بداياتِ العيان).

الخبر: متعلّق الغيب، والعيان: متعلّق الشّهادة. وهو إدراك عين البصيرة لصحّة الخبر وثبوت مخبره.

ومراده ببدايات العيان: أوائل الكشف الحقيقيِّ الذي يدخل منه إلىٰ مقام

---

(١) «المنازل» (ص٨٤).

الفناء، ومقصوده أن يرىٰ المشاهد ما أخبر به الصّادق بقلبه عيانًا. قال تعالىٰ: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾[سبأ: ٦]. وقال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾[الرعد: ١٩]. فقابلَ من رأىٰ بعين قلبه أنّ ما أنزل إلىٰ رسوله هو الحقُّ بمن هو أعمىٰ لا يبصر ذلك. وقال النبيُّ ﷺ في مقام الإحسان: «**أن تعبدَ الله كأنّك تراه**»(١). ولا ريبَ أنّ تصديق الخبر واليقين به يَقوىٰ حتّىٰ يصيرَ للقلب بمنزلة المُشاهَد بالعين.

فصاحب هذا المقام كأنّه يرىٰ الله سبحانه فوقَ سماواته علىٰ عرشه، مطلعٌ علىٰ عباده ناظِرٌ إليهم، يسمع كلامهم، ويرىٰ ظواهرهم وبواطنهم.

وكأنَّه يسمعه وهو يتكلّم بالوحي، ويُكلِّم به عبدَه جبريل، ويأمره وينهاه بما يريد، ويُدبِّر أمر المملكة، وأملاكه صاعدةٌ إليه بالأمر، نازلةٌ من عنده به.

وكأنَّه يشاهده وهو يرضىٰ ويغضب، ويُحبُّ ويُبغض، ويُعطي ويمنع، ويضحك ويفرح، ويُثني علىٰ أوليائه بين ملائكته، ويَذُمُّ أعداءه.

وكأنَّه يشاهده ويشاهد يديه الكريمتين، وقد قَبضتْ إحداهما السّماوات السّبع، والأخرىٰ الأرضين السّبع، وقد طوىٰ السّماواتِ السّبعَ بيمينه، كما يُطوىٰ السِّجلُّ علىٰ أسطر الكتاب.

وكأنَّه يشاهده وقد جاء لفصل القضاء بين عباده، وأشرقت الأرض بنوره، ونادىٰ وهو قائمٌ علىٰ عرشه بصوتٍ يسمعه مَن بعُدَ كما يسمعه مَنْ قَرُبَ: «وعزّتي وجَلالي، لا يُجاوِزني اليومَ ظلمُ ظالمٍ»(٢).

وكأنَّ نداءه لآدم «**يا آدمُ، قُمْ فابعَثْ بعْثَ النَّار**»(٣) بأُذُنه الآن، وكذلك نداؤه

---

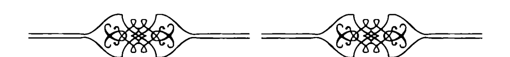
(١) كما في حديث أبي هريرة الذي أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩).

(٢) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (١٥٦)، وتمام في «فوائده» (٩٢٨)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه، وإسناده ضعيف.

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٤٨)، ومسلم (٢٢٢)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

لأهل الموقف: ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[القصص: ٦٥]، وماذا كنتم تعبدون؟

وبالجملة، فيشاهد بقلبه ربًّا عرَّفَتْ به الرُّسل كما عرَّفَتْ، ودينًا دَعَتْ إليه الرُّسل، وحقائق أخبرت بها الرُّسل. فقام شاهدُ ذلك بقلبه كما قام شاهدُ ما أخبر به أهل التواتر وإن لم يَرَه من البلاد والوقائع. فهذا إيمانه يجري مجرىٰ العيان، وإيمان غيره فمحض التقليد.



فصل

منزلة السرور

ومنها السُّرور.

قال صاحب «المنازل»: (**باب السُّرور، قال الله تعالىٰ:** ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾[يونس: ٥٨]).

تصدير الباب بهذه الآية في غاية الحسن، فإنَّ الله تعالىٰ أمر عباده بالفرح بفضله ورحمته، وذلك تبَعٌ للفرح والسُّرور بصاحب الفضل والرحمة. فإنَّ مَن فرِحَ بما يصل إليه من جوادٍ كريمٍ، محسنٍ، برٍّ= كان فرحُه بمن أوصل ذلك إليه أولىٰ وأحرىٰ.

ونذكر ما في هذه الآية من المعنىٰ. ثمَّ نشرح كلام المصنِّف.

فقال ابن عبَّاسٍ، وقتادة، ومجاهدٌ، والحسن، وغيرهم: فضل الله: الإسلام، ورحمته: القرآن[1].

فجعلوا رحمته أخصَّ من فضله، فإنَّ فضله الخاصَّ عامٌّ علىٰ أهل الإسلام، ورحمته بتعليم كتابه لبعضهم دون بعضٍ، فجعلهم مسلمين بفضله، وأنزل إليهم كتابه برحمته. قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ﴾[القصص: ٨٦].

وقال أبو سعيدٍ الخدريُّ: فضلُ الله: القرآن، ورحمتُه: أنْ جعَلَنا من أهله[2].

قلت: يريد بذلك أن هاهنا أمرين:

أحدهما: الفضل في نفسه. والثّاني: استعداد المحلِّ لقبوله، كالغيث يقع علىٰ

---

(١) أخرجها الطبري (١٢/ ١٩٦).
(٢) أخرجه الطبري (١٢/ ١٩٤).

الأرض القابلة للنّبات. فيتمُّ المقصود بالفضل، وقبول المحلِّ له. والله أعلم.

والفرح لذَّةٌ تقع في القلب بإدراك المحبوب ونيل المشتهىٰ، فيتولَّد من إدراكه حالةٌ تسمَّىٰ الفرح والسُّرور. كما أنَّ الحزن والغمَّ مِن فَقْد المحبوب، فإذا فقَده تولَّد مِن فَقْده حالةٌ تسمَّىٰ الغمَّ والحزن.

وذكر سبحانه الأمر بالفرح بفضله وبرحمته عقيب قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

ولا شيء أحقُّ أن يُفرَح به من فضلٍ ورحمةٍ تتضمَّن الموعظةَ وشفاءَ الصُّدور من أدوائها والهدىٰ والرّحمة. فأخبر سبحانه أنَّ ما آتىٰ عباده من **الموعظة** التي هي الأمر والنهي، المقرون بالتّرغيب والتّرهيب؛ **وشفاءِ الصُّدور** المتضمِّن لعافيتها من داء الجهل، والظُّلمة، والغيِّ، والسَّفَه، وهو أشدُّ ألمًا لها من أدواء البدن، ولكنَّها لمَّا ألِفَت هذه الأدواء لم تحسَّ بألمها، وإنَّما يقوىٰ إحساسُها بها عند المفارقة للدُّنيا، فهناك يحضرها كلُّ مؤلمٍ محزنٍ؛ وما آتاها من **الهدىٰ** الذي يتضمَّن ثَلَجَ الصَّدر باليقين، وطمأنينة القلب به، وسكون النّفس إليه، وحياة الرُّوح به؛ **والرحمة** التي تجلب لها كلّ خيرٍ ولذّةٍ، وتدفع عنها كلّ شرٍّ ومؤلمٍ= فذلك خيرٌ مما يجمع الناسُ من أعراض الدُّنيا وزينتها، أي هذا هو الذي ينبغي أن يُفرَح به، ومن فرح به فقد فرح بأجلِّ مفروحٍ به، لا ما يجمع أهلُ الدُّنيا منها، فإنَّه ليس بموضعٍ للفرح، لأنّه عُرضة الآفات، ووشيك الزّوال، ووخيم العاقبة، وهو كطيف خيالٍ زارَ الصّبَّ في المنام، ثمّ انقضىٰ المنامُ، وولّىٰ الطّيفُ، وأعْقَب مرارة الهجران.

وقد جاء الفرح في القرآن علىٰ نوعين؛ مطلقٌ ومقيّدٌ.

فالمطلق جاء في الذّمِّ، كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾[القصص: ٧٦]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾[هود: ١٠].

والمقيَّد نوعان أيضًا: مقيَّدٌ بالدُّنيا، يُنسي صاحبَه فضلَ الله ومننَه، فهو مذمومٌ، كقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾[الأنعام: ٤٤].

والثّاني: مقيّدٌ بفضل الله وبرحمته. وهو نوعان أيضًا: فضلٌ ورحمةٌ بالسّبب، وفضلٌ بالمسبَّب، فالأوّل كقوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾[يونس: ٥٨]. والثّاني كقوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[آل عمران: ١٧٠].

فالفرح بالله وبرسوله، وبالإيمان والسُّنّة، وبالعلم والقرآن مِن أعلىٰ مقامات العارفين، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[التوبة: ١٢٤]. وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ و﴾[الرعد: ٣٦].

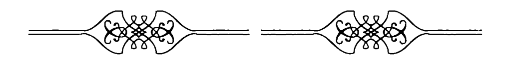
فالفرح بالعلم والإيمان والسُّنّة دليلٌ علىٰ تعظيمه عند صاحبه، ومحبّته له، وإيثاره له علىٰ غيره، فإنّ فرحَ العبد بالشّيء عند حصوله له علىٰ قدر محبّته له، ورغبته فيه، فمن ليس له رغبةٌ في الشّيء لا يُفرِحه حصولُه، ولا يُحْزِنه فواتُه. فالفرح تابعٌ للمحبّة والرّغبة.

والفرق بينه وبين الاستبشار: أنّ الفرح بالمحبوب بعد حصوله، والاستبشار يكون به قبل حصوله إذا كان علىٰ ثقةٍ من حصوله. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

والفرح صفةُ كمالٍ، ولهذا يوصف الربُّ تعالىٰ بأعلىٰ أنواعه وأكملها، كفرحِه بتوبة التّائب أعظم من فرح الواجد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في

الأرض المَهلكة بعد فقْدِه لها واليأس من حصولها[(١)].

والمقصود أنّ الفرح أعلىٰ أنواع نعيم القلب ولذّته وبهجته. فالفرح والسُّرور نعيمُه، والهمُّ والحزن عذابُه. والفرحُ بالشّيء فوق الرِّضا به. فإنّ الرِّضا طمأنينةٌ وسكونٌ واستراحة. والفرح لذّةٌ وبهجةٌ وسرورٌ، فكلُّ فَرِحٍ راضٍ، وليس كلُّ راضٍ فرِحًا. ولهذا كان الفرح ضدَّ الحزن، والرِّضا ضدَّ السُّخط. والحزن يؤلم صاحبه، والسُّخط لا يؤلمه إلَّا إذا كان مع العجز عن الانتقام.



(١) الحديث في ذلك في البخاري (٦٣٠٨)، عن ابن مسعود، و(٦٣٠٩)، عن أنس، وفي مسلم (٢٦٧٥)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فصل

السرور اسم لاستبشار جامع

قال صاحب «المنازل»[(١)]: (**السُّرور اسمٌ لاستبشارٍ جامعٍ، وهو أصفىٰ من الفرح، لأنّ الأفراح ربّما شابها الأحزان، ولذلك نزل القرآن باسمه في أفراح الدُّنيا في مواضع. وورد اسم السُّرور في موضعين من القرآن في حال الآخرة**).

السُّرور والمسرَّة: مصدر سرَّه سرورًا ومَسَرَّةً. وكأنّ معنىٰ سرَّه: أثَّر في أسارير وجهه. فإنَّه تَبْرُق منه أساريرُ الوجه. كما قال شاعر العرب[(٢)]:

وإذا نظرتَ إلىٰ أسرَّة وجهه برقَتْ كبرقِ العارضِ المتهلِّل

وهذا كما يقال: «رَأَسَه» إذا أصاب رأسه، و«بَطَنَه وظَهَرَه» إذا أصاب بطنه وظهره، و«أَمَّه» إذا أصاب أمَّ رأسِه.

وأمّا الاستبشار: فهو استفعالٌ من البُشرىٰ. والبشارة: هي أوّل خبرٍ صادقٍ سارٍّ.

والبُشرىٰ يراد بها أمران. أحدهما: بشارة المُخْبِر. والثّاني: سرور المُخبَر. قال الله تعالىٰ: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾[يونس: ٦٤]، فُسِّرت البشرىٰ بهذا وهذا. ففي حديث عُبادة بن الصّامت وأبي الدّرداء رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ: «**هي الرُّؤيا الصّالحة يراها المسلم، أو تُرىٰ له**»[(٣)].

وقال ابن عبَّاسٍ: بشرىٰ الحياة الدُّنيا: هي عند الموت تأتيهم ملائكة الرحمة

---

(١) (ص٨٤).

(٢) البيت لأبي كبير الهذلي، ينظر شرح «أشعار الهذليين» (ص ١٠٧٤).

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٦٧٨) والترمذي (٢٢٧٥) وابن ماجه (٣٨٩٨) من حديث عبادة، وأخرجه أحمد (٢٧٥١٠) والترمذي (٢٢٧٣) من حديث أبي الدرداء، وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

بالبشرىٰ من الله، وفي الآخرة: عند خروج نَفْس المؤمن إذا خرجت يعرجون بها إلىٰ الله، تُزَفُّ كما تُزفُّ العروس، تُبَشَّر برضوان الله[١].

وقال الحسن: هي الجنَّة[٢]. واختاره الزَّجَّاج والفرَّاء[٣].

وفُسِّرت بشرىٰ الدُّنيا بالثناء الحسن يجري له علىٰ ألسنة النَّاس.

وكلُّ ذلك صحيحٌ، فالثناء من البُشرىٰ، والرُّؤيا الصالحة من البُشرىٰ، وتبشير الملائكة له عند الموت من البُشرىٰ، والجنَّة فأعظم البُشرىٰ. قال تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥]. وقال: ﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

قيل: وسمِّيت بذلك لأنَّها تؤثِّر في بشرة الوجه. ولذلك كانت نوعين: بُشرىٰ سارَّةٌ تُؤثِّر فيه نَضارةً وبهجةً، وبُشرىٰ محزنةٌ تؤثِر فيه بُسورًا وعبوسًا. ولكن إذا أطلقت كانت للسُّرور. وإذا قُيِّدت كانت بحسب ما تُقيَّدُ به.

قوله: (**وهو أصفىٰ من الفرح**) احتجَّ علىٰ ذلك بأنَّ الأفراح ربَّما شابها أحزانٌ، أي ربَّما مازجها ضدُّها، بخلاف السُّرور.

فيقال: والمسرَّات ربَّما شابها أنكادٌ وأحزانٌ فلا فرق.

قوله: (**ولذلك نزل القرآن باسمه في أفراح الدُّنيا في مواضع**) يريد أنَّ الربّ تعالىٰ نسب الفرحَ إلىٰ أحوال الدُّنيا في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ﴾ [الأنعام: ٤٤]، وقوله: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠].

فإنّ الدُّنيا لا تتخلّص أفراحُها مِن أحزانِها وأتراحِها البتّة، بل ما من فرحةٍ إلَّا ومعها ترحةٌ سابقةٌ أو مقارنةٌ أو لاحقةٌ، ولا تتجرَّد الفرحةُ، بل لا بدَّ من ترحةٍ تقارنُها،

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٢٤٩- ٢٥٠).
(٢) ذكره الواحدي أيضًا (١١/ ٢٥٠).
(٣) ينظر «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣/ ٢٦)، و«معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٧١).

ولكن قد تقوىٰ الفرحة علىٰ الحزن فينغمر حكمُه مع وجودها وبالعكس.

فيقال: ونزل القرآن أيضًا بالفرح في أمور الآخرة في مواضع، كقوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾[آل عمران: ١٧٠]. وقوله: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾[يونس: ٥٨] فلا فرق بينهما من هذا الوجه الذي ذكره.

قوله: (**وورد اسم السُّرور في القرآن في موضعين في حال الآخرة**).

يريد بهما قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا﴾[الانشقاق: ٧- ٩]، والموضع الثَّاني قوله: ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا﴾[الإنسان: ١١].

فيقال: وورد السُّرور في أحوال الدُّنيا في موضع علىٰ وجه الذَّمِّ، كقوله: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ۝١٠ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ۝١١ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾[الانشقاق: ١٠].

فقد رأيتَ ورود كلِّ واحدٍ من الفرح والسُّرور في القرآن بالنِّسبة إلىٰ أحوال الدُّنيا وأحوال الآخرة، فلا يظهر ما ذكرَه من الترجيح.

بل قد يقال: الترجيح للفرح، لأنَّ الربَّ تبارك وتعالىٰ يوصَف به، ويُطْلَق عليه اسمه دون السُّرور، فدلّ علىٰ أنّ معناه أكمل من معنىٰ السُّرور، وأمر به في قوله: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾[يونس: ٥٨]، وأثنىٰ علىٰ السُّعداء به في قوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾[آل عمران: ١٧٠].

وأمَّا قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا﴾، وقوله: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا﴾، فعدَل إلىٰ لفظ السُّرور لاتِّفاق رؤوس الآي. ولو أنَّه ترجم الباب بباب الفرَح، لكان أشدَّ مطابقةً للآية التي استشهد بها، والأمر في ذلك قريبٌ، فالمقصود أمرٌ وراء ذلك.

٤/ ٢٧

منزلة السر

فصل

ومنها منزلة السِّرِّ.

قال صاحب «المنازل»[1]: (**باب السِّرِّ، قال الله تعالىٰ:** ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾[هود: ٣١] **أصحاب السِّرِّ: هم الأخفياء الذين ورد فيهم الخبر**).

أمّا استشهاده بالآية، فوجهه: أنَّ أتباع الرُّسل الذين صدَّقوهم، وآثروا الله والدّار الآخرة علىٰ قومهم وأصحابهم، أودع الله قلوبَهم سرًّا مِن أسرار معرفته ومحبّته والإيمان به خفي علىٰ أعداء الرُّسل، فنظروا إلىٰ ظواهرهم، وعَمُوا عن بواطنهم، فازْدَروهم واحتقروهم، وقالوا للرّسول: اطرد هؤلاء عنك، حتّىٰ نأتيك ونسمع منك[2]، وقالوا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾[الأنعام: ٥٣]، فقال نوحٌ لقومه: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[هود: ٣١].

قال الزجّاج[3]: المعنىٰ إن كنتم تزعمون أنَّهم اتّبعوني في بادي الرَّأي وظاهره، فليس عليّ أن أطّلع علىٰ ما في نفوسهم، فإذا رأيتُ مَن يوحِّد الله عملتُ علىٰ ظاهره، ورددتُ علْمَ ما في نفوسهم إلىٰ الله.

وهذا معنًىٰ حسنٌ. والّذي يظهر من الآية: أنّ الله يعلم بما في أنفسهم، إذ أهَّلهم لقبول دينه وتوحيده، وتصديق رسله، فالله سبحانه حكيمٌ، يضع العطاءَ في مواضعه،

---

(١) (ص٨٥).
(٢) أخرجه مسلم (٢٤١٣)، من حديث سعد بن أبي وقاص بنحوه، وليس فيه «حتىٰ نأتيك ونسمع منك».
(٣) في «معاني القرآن» (٣/ ٤٩).

وتكون هذه الآية مثل قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾[الأنعام: ٥٣].

فإنّهم أنكروا أن يكون الله سبحانه أهَّلهم للهدىٰ والحقِّ، وحرَمه رؤساءَ الكفّار وأهل العزّة منهم والثّروة، كأنّهم استدلُّوا بعطاء الدُّنيا علىٰ عطاء الآخرة، فأخبر سبحانه أنّه أعْلَم بمَن يؤهِّله لذلك لسرٍّ عنده؛ من معرفة قدر النِّعمة، ورؤيتها من مجرّد فضل المنعم، ومحبّته وشكره عليها. وليس كلُّ أحدٍ عنده هذا السِّرُّ، فلا يؤهَّل لهذا العطاء.

قوله: (**أصحاب السِّرِّ هم الأخفياء الذين ورد فيهم الخبر**) قد يريد به حديثَ سعد بن أبي وقّاصٍ، حيث قال ابنه: أنتَ هاهنا والنّاس ينازعون في الإمارة؟ فقال: إنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**إنّ الله يحبُّ العبدَ التّقيَّ الغنيَّ الخفيّ**»[(١)].

وقد يريد به قولَه ﷺ: «**ربّ أشعثَ أغبرَ مدفوعٍ بالأبواب لا يُؤبَه له، لو أقسم علىٰ الله لأبَرَّه**»[(٢)].

وقولَه في الحديث الآخر وقد مرَّ به رجلٌ فقال: ما تقولون في هذا؟ فقالوا: هذا حريٌّ إن شفَع أن يُشَفَّع، وإن خطَب أن يُنكَح، وإن قال أن يُسمع لقوله. ثمّ مرّ به آخر فقال: ما تقولون في هذا؟ فقالوا: هذا حريٌّ إن شفَع ألّا يُشفَّع، وإن خطَب: أن لا يُنكَح، وإن قال: لم يُسمع لقوله. فقال النبيُّ ﷺ: «**هذا خيرٌ مِن ملء الأرض مِثل هذا**»[(٣)].

(١) أخرجه مسلم (٢٩٦٥).
(٢) أخرجه مسلم (٢٦٢٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) أخرجه البخاري (٥٠٩١)، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

فصل

طبقات أصحاب السر

قال[1]: (وهم على ثلاث طبقاتٍ، **الطّبقة الأولى: طائفةٌ علَت هممُهم، وصفَت قصودُهم، وصحَّ سلوكُهم، ولم يوقَف لهم على رسمٍ، ولم يُنسبوا إلى اسمٍ، ولم تُشِرْ إليهم الأصابع. أولئك ذخائر الله حيث كانوا**).

ذكر لهم ثلاثَ صفاتٍ ثبوتيَّةٍ، وثلاثًا سلبيّةً.

الأولى: علوُّ هممهم. وعلوُّ الهمَّة أن لا تقف دون الله، ولا تتعوَّض عنه بشيءٍ، ولا ترضى بغيره بدلًا منه، ولا تبيع حظَّها من الله وقربَه والأنسَ به، والفرحَ والسُّرورَ والابتهاجَ به، بشيءٍ من الحظوظ الخسيسة الفانية، **فالهمَّة العالية على الهمم كالطّائر العالي على الطُّيور**، لا يرضى بمساقطتهم، ولا تصل إليه الآفات التي تصل إليهم.

العلامة الثانية: صفاء القصد، وهو خَلاصُه من الشوائب التي تعوقه عن مقصوده، فصفاء القصد: تجريدُه لطلب المقصود له لا لغيره، فهاتان آفتان في القصد؛ إحداهما: أن لا يتجرّد لمطلوبه. الثّاني: أن يطلبه لغيره لا لذاته.

العلامة الثّالثة: صحّة السُّلوك وهو سلامته من الآفات والعوائق والقواطع، وهو إنّما يصحُّ بثلاثة أشياء:

أحدها: أن يكون على الدّربِ الأعظم، النّبويِّ المحمّديِّ، لا على الجوادِّ الوضعيّة، والرُّسوم الاصطلاحيّة.

الثّاني: أن لا يجيب على الطّريق داعي البطالة والوقوف والدَّعَة.

الثّالث: أن يكون في سلوكه ناظرًا إلى المقصود. وقد تقدّم بيان ذلك.

---

(١) «المنازل» (ص٨٥).

فبهذه الثّلاثة يصحُّ السُّلوك، والعبارةُ الجامعة لها: أن يكون واحدًا لواحدٍ في طريقٍ واحدٍ، فلا ينقسم طلبه ولا مطلوبه، ولا تتلوّن طريقه.

وأمّا الثلاثة السلبيَّة التي ذكرها، فأوَّلها قوله: **(ولم يوقَف لهم علىٰ رسمٍ)** يريد: أنّهم لم ينقطعوا بشيءٍ سوىٰ الله عنه، فكلُّ ما قَطَع عن الله لم يقفوا معه، وما أوصلهم إلىٰ الله لم يفارقوه، وكان وقوفهم معه.

وقد يريد بقوله: **(لم يوقَف لهم علىٰ رسمٍ)** أنّهم لِعُلوِّ هممهم سبقوا الناس في السّير، ولم يقفوا معهم، فهم المفرِّدون السّابقون، فلسَبْقِهم لم يوقَف لهم علىٰ أثرٍ في الطّريق، ولم يعلم المتأخِّر عنهم أين سلكوا! والمشمِّر بعدهم قد يرىٰ آثار نيرانهم علىٰ بُعْدٍ عظيمٍ، كما يرىٰ الكوكب، ويستخبر مَن رآهم؟ وأينَ رآهم؟ فحاله كما قيل[1]:

أسائلُ عنكم كلَّ غادٍ ورائحٍ وأومي إلىٰ أوطانكم وأسلِّم

العلامة الثّانية: قوله :**(ولم يُنسبوا إلىٰ اسمٍ)** أي: لم يشتهروا باسمٍ عند النّاس من الأسماء التي صارت أعلامًا لأهل الطّريق.

وأيضًا، فإنَّهم لم يتقيَّدوا بعملٍ واحدٍ يجري عليهم اسمُه، فيُعرفون به دون غيره من الأعمال. فإنّ هذا آفةٌ في العبوديّة، وهي عبوديّةٌ مقيّدةٌ، وأمّا العبوديّة المطلقة فلا يُعرف صاحبها باسمٍ معيّنٍ من معاني أسمائها، فإنّه مجيبٌ لداعيها علىٰ اختلاف أنواعها، فله مع كلِّ أهل عبوديّةٍ نصيبٌ يضرب معهم بسهمٍ، فلا يتقيّد برسمٍ ولا إشارةٍ، ولا اسمٍ ولا زِيٍّ، ولا طريقٍ وضعيٍّ اصطلاحيٍّ.

بل إن سُئل عن شيخه؟ قال: الرّسول، وعن طريقِه؟ قال: الاتِّباع، وعن خِرْقَتِه؟ قال: لباس التّقوىٰ، وعن مذهبه؟ قال: تحكيم السُّنّة، وعن مقصوده

(١) البيت للمؤلف ضمن قصيدته الميمية (ص٦٤ ضمن مجموع أربح البضاعة).

ومطلبه؟ قال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[الأنعام: ٥٢]، وعن رِباطه وخانكاته؟ قال: ﴿بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ [النور: ٣٦]، وعن نسبه؟ قال:

أبي الإسلامُ لا أبَ لي سواه إذا افتخروا بقيسٍ أو تميم[١]

وعن مأكله ومشربه؟ قال: ما لك ولها؟ معها حِذاؤها وسِقاؤها تَرِد الماءَ وترعىٰ الشّجرَ حتَّىٰ تلقىٰ ربَّها[٢].

واحسرتاه تمضّىٰ العمرُ وانصرمت ساعاتُه بين ذلِّ العجز والكسل

والقوم قد أخذوا درب النّجاة وقد ساروا إلىٰ المطلب الأعلىٰ علىٰ مَهلِ[٣]

العلامة الثالثة: قوله: (**ولم يُشِر إليهم بالأصابع**) يريد: أنّهم لخفائهم عن النّاس لم يُعرفوا بينهم حتّىٰ يشيروا إليهم بالأصابع.

وفي الحديث المعروف عن النبيِّ ﷺ: «**لكلِّ عاملٍ شرَّةٌ ولكلِّ شرَّةٍ فترةٌ. فإنْ صاحِبُها سدَّدَ وقارَبَ فارجوا له، وإن أشير إليه بالأصابع فلا تعدُّوه شيئًا**»[٤].

فسئل راوي الحديث ما معنىٰ: «أشير إليه بالأصابع» فقال: هو المبتدع في دينه، الفاجر في دنياه.

قوله: (**أولئك ذخائر الله حيث كانوا**). ذخائرُ الملك: ما يخبِّئه عنده، ويَدَّخِره لمهمَّاته ولا يبذله لكلِّ أحدٍ، وكذلك ذخيرة الرّجل: ما يَدّخِره لحوائجه ومهمَّاته.

وهؤلاء لمَّا كانوا مستورين عن النّاس بأسبابهم، غيرَ مشارٍ إليهم ولا متميِّزين

---

(١) اختلف في نسبة البيت، فنسبه في «الكامل» (٣/ ١٠٩٧)، و«الشعر والشعراء» (١/ ٥٢٣) إلىٰ نهار بن توسعة، ونُسِب إلىٰ سلمان الفارسي وإلىٰ قُراد بن أقرم.

(٢) مقتبس من قوله ﷺ في ضالة الإبل، أخرجه البخاري (٩١)، ومسلم (١٧٢٢).

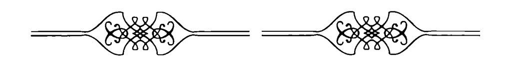
(٣) لم أجد البيتين، ولعلهما للمؤلف.

(٤) تقدم تخريجه. ولم نجد في مصادر التخريج سؤال الراوي عن معناه وجوابه.

برسمٍ دون النّاس، ولا منتسبين إلىٰ اسم طريقٍ أو مذهبٍ أو شيخٍ أو زيٍّ= كانوا بمنزلة الذّخائر المخبوءة.

وقد سُئل بعض الأئمَّة عن السُّنّة[1]؟ فقال: ما لا اسم له غير السُّنّة. يعني: أنَّ أهل السُّنّة ليس لهم اسمٌ يُنسبَون إليه سواها.

فمن النّاس مَن يتقيَّد بلباسٍ لا يلبس غيرَه، أو بالجلوس في مكانٍ لا يجلس في غيره، أو مِشيةٍ لا يمشي غيرها، أو زيٍّ وهيئةٍ لا يخرج عنهما، أو عبادةٍ معيّنةٍ لا يتعبَّد بغيرها وإن كانت أعلىٰ منها، أو شيخٍ معيَّنٍ لا يلتفتُ إلىٰ غيره وإن كان أقرب إلىٰ الله ورسوله منه= وهؤلاء كلُّهم محجوبون، وعن الظَّفَر بالمطلوب الأعلىٰ مصدودون، قد قيَّدتهم العوائدُ والرُّسومُ والأوضاعُ والاصطلاحاتُ عن تجريد المتابعة، فأصبحوا عنها بمعزلٍ، ومنزلتهم منها أبعد منزلٍ.



(١) هو الإمام مالك بن أنس، ذكر الخبر ابنُ عبدالبر في «الانتقاء» (ص٣٥)، وعياض في «ترتيب المدارك» (١/ ١٧٢).

فصل

الطبقة الثانية من أصحاب السر

قال[1]: (**الطبقة الثانية: طائفةٌ أشاروا عن منزلٍ وهم في غيره، وورَّوا بأمرٍ وهم لغيره، ونادوا علىٰ شأنٍ وهم علىٰ غيره، فهم بين غيرةٍ عليهم تستُرهم، وأدبٍ فيهم يصونهم، وظَرفٍ يهذِّبهم**).

أهلُ هذه الطبقة استسرُّوا اختيارًا وإرادةً لذلك، صيانةً لأحوالهم، وكمالًا في تمكُّنهم، فمقاماتهم عاليةٌ لا ترمقها العيون ولا تخالجها الظُّنون، يشيرون إلىٰ ما يعرفه المخاطَب من مقامات المريدين السّالكين، وبدايات السُّلوك، ويخفون ما مكّنهم فيه الحقُّ تعالىٰ من أحوال المحبّة ومواجيدها، وآثار المعرفة وتوحيدها. فهذه هي التّورية التي ذكرها.

فهم عاملون علىٰ إسقاط جاههم ومنزلتهم في قلوب الناس، لمَّا رأوا المغترِّين المغترَّ بهم من المنتسبين إلىٰ السُّلوك يعملون علىٰ تربية نفوسهم وتوفير جاههم في قلوب النّاس، فعاكسهم هؤلاء وأظهروا بطالةً وأبطنوا أعمالًا، وكتموا أحوالهم جهدهم، وينشدون في هذه الحال[2]:

فليتك تحلو والحياةُ مريرةٌ وليتك ترضىٰ والأنامُ غِضابُ
وليتَ الذي بيني وبينَك عامرٌ وبيني وبين العالمين خرابُ

وقال الإمام أحمد[3]: حدّثنا عبد الرّزّاق، أنا سفيان، عن منصورٍ، عن هلال بن يسافٍ قال: كان عيسىٰ عليه الصلاة والسّلام يقول: إذا كان صوم أحدكم

(١) «المنازل» (ص٨٥ -٨٦).
(٢) البيتان لأبي فراس الحمداني «ديوانه» (ص ١٦).
(٣) في «الزهد» (ص٥٧).

فليَدْهُن لحيتَه وليمسح شفتَيه، حتَّىٰ يخرج إلىٰ النّاس، فيقولوا: ليس بصائمٍ.

ولهذا قال بعضهم: التّصوُّف ترك الدّعاوي، وكتمان المعاني[١].

وسئل الحارث بن أسدٍ عن علامات الصادق؟ فقال: أن لا يبالي أن يَخرجَ كلّ قدْرٍ له في قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه، ولا يحبُّ اطِّلاع النّاس علىٰ اليسير من عمله[٢].

وهذا يُحمد في حالٍ ويذمُّ في حالٍ، ويَحسُن مِن رجلٍ ويَقبُح مِن آخر، فيُحمَد إذا أظهر ما يجوز إظهارُه، ولا نقص عليه فيه، ولا ذمّ من الله ورسوله؛ ليكتم به حالَه وعملَه، كما إذا أظهر الغِنىٰ وكتمَ الفاقَة، وأظهر الصِّحَّة وكتم المرض، وأظهر النِّعمة وكتم البليّة.

فهذا كلُّه من كنوز السِّتر، وله في القلب تأثيرٌ عجيبٌ يعرفه من ذاقه. وشكا رجلٌ إلىٰ الأحنف بن قيسٍ شَكاةً فقال: يا ابن أخي لقد ذهب ضوء عيني من عشرين سنةً فما أخبرتُ به أحدًا[٣].

وأمَّا الحال التي يُذمُّ فيها: فأنْ يُظهر ما لا يجوز إظهاره، ليسيء الناسُ به الظّنَّ، فلا يعظِّمونه.

فقوله: **(أشاروا إلىٰ منزلٍ، وهم في غيره)**. مثاله: أنّهم يتكلَّمون في التّوبة والمحاسبة وهم في منزل المحبَّة والفناء.

وقوله: **(وورَّوا بأمرٍ، وهم بغيره)**. التَّورية: أن يَذكر لفظًا يَفهم به المخاطَب معنًىٰ وهو يريد غيرَه، مثاله: يقول: ما صحّ لي مقام التّوبة بعدُ. ويريد: ما صحَّت لي التّوبة عن رؤية التّوبة، ونحو ذلك.

قوله: **(ونادوا علىٰ شأنٍ، وهم علىٰ غيره)** أي: عظّموا شأنًا من شؤون القوم،

---

(١) ينظر «مجموع الفتاوىٰ» (١١/ ١٦).

(٢) ذكره في «الرسالة القشيرية» (ص٤٨٦). والحارث هو: المُحاسبي.

(٣) خبره في «الزهد» لأحمد (ص٢٨٨)، و«شعب الإيمان» (٩٥٨٣).

فيدعوا النّاس إليه، وهم في أعلىٰ منه. وهذا قريبٌ ممّا قبله.

قوله: (**فهم بين غيرةٍ عليهم تسترهم**) أي: يغار الحقُّ سبحانه عليهم، فيسترهم عن الخلق، ويغارون علىٰ أحوالهم ومقاماتهم، فيستترون عن رؤية الخلق لها، كما قيل[1]:

أَلِفَ الخمولَ صيانةً وتستُّرا فكأنَّما تعريفه أن يُنكرا

وكأنّه كَلِفَ الفؤاد بنفسه فحمَتْه غيرتُه عليها أن تُرىٰ

قوله: (**وأدبٌ فيهم يصونهم**) بهذا يتمُّ أمرهم، وهو أن يقوم بهم أدبٌ يصونهم عن ظنِّ السّوء بهم، ويصونهم عن دناءة الأخلاق والأعمال، فأدبهم صوانٌ علىٰ أحوالهم، فهمَّته العليّة ترتفع به، وأدبه يرسو به إلىٰ التُّراب، كما قيل[2]:

أبلجُ سهلُ الأخلاقِ ممتنعٌ يبرزه الدَّهر وهو محتجِبُ

إذا ترقّت به عزائمُه إلىٰ الثُّريّا رسا به الأدبُ

فأدب المريد والسالك: صونٌ له، وتاجٌ علىٰ رأسه.

قوله: (**وظَرفٍ يُهَذِّبُهم**) التّهذيب: هو التّأديب والتّصفية.

والظَّرف في هذه الطائفة أحلىٰ من كلِّ حلوٍ، وأزيَنُ من كلِّ زينٍ، فما قُرِن شيءٌ إلىٰ شيءٍ أحسن من ظَرفٍ إلىٰ صدقٍ وإخلاصٍ، وسرٍّ مع الله وجمعيّةٍ عليه، فإنّ أكثر مَن عُني بهذا الشّأن تضيقُ نفسُه وأخلاقُه عن سوىٰ ما هو بصدده، فتثقُل وطأتُه علىٰ أهله وجليسه، ويَضَنّ عليه ببِشْرِه والتّبسُّط إليه ولين الجانب له. ولعَمْر الله إنّه لمعذورٌ، وإن لم يكن في ذلك بمشكورٍ، فإنّ الخلق كلّهم أغيارٌ،

---

(١) البيتان في «شرح التلمساني» (ص٤٧٦)، وصدر البيت الأول فيه: واسمٌ تألَّف بالخمول صيانةً.

(٢) البيتان في «شرح التلمساني» (ص٤٧٧).

إلّا من أعانك علىٰ شأنك وساعدك علىٰ مطلوبك.

فإذا تمكّن العبد في حاله، وصار له إقبالة علىٰ الله وجمعيّة عليه ملَكَةً ومقامًا راسخًا= أنِسَ بالخلق وأنِسُوا به، وانبسطَ إليهم وحملهم علىٰ ضَلَعهم وبُطء سيرهم، وعكفت القلوبُ علىٰ محبّته للُطْفِه وظَرْفِه، فإنّ النّاس ينفرون من الثقيل ولو بلغ في الدِّين ما بلغ!

ولله ما يجلبُ اللُّطفُ والظَّرفُ مِن القلوب، ويدفع عن صاحبه من الشّرِّ، ويسهِّل له ما توعَّر علىٰ غيره! فليس الثُّقلاء بخواصِّ الأولياء، وما ثَقُل أحدٌ علىٰ قلوب الصَّادقين المخلصين إلّا من آفةٍ هناك، وإلَّا فهذه الطريق تكسو العبدَ حلاوةً ولطافةً وظَرْفًا، فيُرىٰ الصَّادق فيها من أحلىٰ النّاس وألطفهم وأظرفهم، قد زالت عنه ثقالة النّفس وكدورة الطّبع، وصار روحانيًّا سمائيًّا بعد أن كان حيوانيًّا أرضيًّا، فتراه أكرمَ النّاس عشرةً، وألينَهم عَريكةً، وألطفَهم قلبًا وروحًا، وهذه خاصّيّة المحبّة، فإنّها تلطّف وتظرُّف وتنظّف.

ومِن ظَرْف أهل هذه الطَّبقة: أن لا يظهر أحدُهم علىٰ جليسه بحالٍ ولا مقامٍ، ولا يواجهه إذا لقيه بالحال، بل بلين الجانب، وخفْضِ الجناح، وطَلاقة الوجه، فيفرش له بساط الأُنس ويُجلِسه عليه، فهو أحبُّ إليه من الفُرُش الوثيرة.

وسئل محمَّدُ بن عليٍّ القصَّاب أستاذُ الجُنيد عن التّصوُّف؟ فقال: أخلاقٌ كريمةٌ، ظهرت في زمانٍ كريمٍ، من رجلٍ كريم، مع قومٍ كرامٍ[١].

وبالجملة: فهذه الطّريق لا تنافي اللُّطفَ والظَّرْفَ والصَّلَف، بل هي أصلف شيءٍ، ولكن هاهنا دقيقةٌ قاطعةٌ وهي: الاسترسال مع هذه الأمور، فإنّها أقطع شيءٍ للمريد والسالك، فمن استرسل معها قطعَتْه، ومَن عاداها بالكلّيَّة وعَّرَت عليه طريقَ سلوكِه، ومَن استعان بها أراحَتْه في طريقه، وأراحت غيرَه به، وبالله التّوفيق.

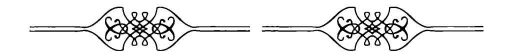
---

(١) ذكره في «الرسالة القشيرية» (ص٥٨٦)، واللمع (ص٤٥).

فصل

أصحاب الطبقة الثانية مشغولون بشأنهم عن غيرهم

وأهل هذه الطبقة، أثقل شيءٍ عليهم البحث عن ماجَرَيات الناس، وطلب تعرُّف أحوالهم، وأثقل ما علىٰ قلوبهم سماعُها، فهم مشغولون عنها بشأنهم، فإذا اشتغلوا بما لا يَعنيهم منها فاتهم ما هو أعظم عنايةً لهم، وإذا عَدَّ غيرُهم الاشتغالَ بذلك وسماعَه من باب الظَّرْف والأدب، وستر الأحوال= كان هذا من خُدَع النُّفوس وتلبيسها، فإنّه يحطُّ الهممَ العالية مِن أوْجها إلىٰ حضيضها، وربّما يعزُّ عليه أن يحصِّل همّةً أخرىٰ يصعد بها إلىٰ موضعه الذي كان فيه، فأهل الهمم والفِطَن الثاقبة لا يفتحون من آذانهم وقلوبهم طريقًا إلىٰ ذلك، إلّا ما تقاضاه الأمر، وكانت مصلحتُه أرجح، وما عداه فبطالةٌ وحطُّ مرتبةٍ.



فصلٌ

الطبقة الثالثة من أصحاب السر

قال[(١)]: **(والطّبقة الثّالثة: طائفةٌ أسرَهم الحقُّ عنهم، فألاح لهم لائحًا أذهلهم عن إدراك ما هم فيه، وهيَّمهم عن شهود ما هم له، وضنَّ بحالهم علىٰ علمهم بمعرفة ما هم فيه، فاستسرُّوا عنهم مع شواهد تشهد لهم بصحّة مقامهم، عن قصدٍ صادقٍ يهيِّجه غيبٌ، وحبّ صادق يخفىٰ عليه علمُه، ووجد غريب لا ينكشف له مُوقِدُه، وهذا من أرقِّ مقامات أهل الولاية)**.

أهلُ هذه الطبقة أحقُّ باسم السِّرِّ من الذين قبلهم، فإنَّه إذا كانت أحوال القلب ومواهب الربِّ التي وضعها فيه سرًّا عن صاحبه، بحيث لا يشعر هو بها، شُغلًا عنها بالعزيز الوهَّاب سبحانه، فلا يتَّسع قلبُه لاشتغاله به وبغيره، بل يشتغل بمُجريها ومنشئها وواهبها عنها، فهذا أقوىٰ وجوه السِّرِّ، بل ذلك أخفىٰ من السِّرِّ.

وأعظم السِّتر والإخفاء: أن يستر الله سبحانه حالَ عبده عنه ويخفيه منه، رحمةً به ولطفًا، لئلّا يساكنه وينقطع به عن ربِّه، فإنّ ذلك خِلعةٌ من خِلَع الحقِّ، فإذا سترها صاحبُها ومُلبِسها عن عبده، فقد أراد به أن لا يقف مع شيءٍ دونه، وقد يكون ذلك السِّتر لما شُغِل به العبدُ من مشاهدة جلال الربِّ تعالىٰ وكماله وجماله، أعني مشاهدة القلب لمعاني تلك الصِّفات واستغراقه فيها.

وعلامة هذا الشُّهود الصّحيح: أن يكون باطنه معمورًا بالإحسان، وظاهره مغمورًا بالإسلام، فيكون ظاهره عنوانًا لباطنه، مصدِّقًا لما اتّصف به، وباطنه مصحِّحًا لظاهره. هذا هو الأكمل عند أصحاب الفناء.

وأكمل منه: أن يشهد ما وهبه الله له ويلاحظه ويراه من محض المنَّة وعين

(١) «المنازل» (ص٨٦).

الجود، فلا يفنىٰ بالمُعطي عن رؤية عطيَّته، ولا يشتغل بالعطيَّة عن معطيها، وقد أمر الله تعالىٰ بالفرح بفضله ورحمته، وذلك لا يكون إلَّا برؤيته وملاحظته، وأمر بذكر نعمته وآلائه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾[فاطر: ٣]، وقال: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[الأعراف: ٦٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾[البقرة: ٢٣١].

فلم يأمر سبحانه بالفناء عن شهودِ نِعَمِه، فضلًا عن أن يكون مقامه أرفع من مقام شهودها مِن محض فضله ومنّته.

فقوله: (**أسرَهم الحقُّ عنهم**) أي: شَغلَهم به عن ذِكْر أنفسهم، فأنساهم بذِكْره ذِكْرَ نفوسهم.

قوله: (**وألاح لهم لائحًا أذهلهم عن إدراك ما هم فيه**). ألاح أي: أظْهَر، والمعنىٰ: أظهرَ لهم مِن معرفة جماله وجلاله لائحًا ما، لم تتّسع قلوبُهم بعدَه لإدراك شيءٍ مِن أحوالهم ومقاماتهم.

قوله: (**وهيّمَهم عن شهودِ ما هم له**) مراده: أنّ هذا اللّائح غيّبَهم عن شهود أحوالهم التي هم لها في تلك الحال، فغابوا بمشهودهم عن شهودهم، وبمعروفهم عن معرفتهم، وبمعبودهم عن عبادتهم.

قوله: (**وضنّ بحالهم علىٰ علمهم**) أي: لم يمكن علمهم أن يدرك حالهم وما هم عليه.

قوله: (**فاستسرُّوا عنهم**) أي: اختفَوا حتَّىٰ عن أنفسهم، فلم تعلم نفوسُهم كيفَ هم!

قوله: (**مع شواهد تشهد لهم بصحّة مقامهم**) وتلك الشّواهد: هي القيام بالأمر وآداب الشّريعة ظاهرًا وباطنًا.

قوله: (**عن قصدٍ صادقٍ، يهيِّجه غيبٌ**) أي: حصل لهم ذلك عن قصدٍ صادقٍ؛ أي: لازمٍ ثابتٍ، لا يلحقه تلوُّنٌ، (يهيِّجه غيبٌ) أي: أمرٌ غائبٌ عن إدراكهم هيّج لهم ذلك القصد الصّادق.

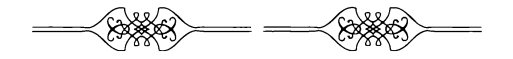
قوله: (**وحبّ صادق يخفىٰ عليه مبدأ علمه**) أي: هم لا يعرفون مبدأ ما بهم، ولا يصل علمهم إليه.

قوله: (**ووَجْد غريب لا ينكشفُ لصاحِبه مُوقِدُه**) أي: لا ينكشف لصاحب هذا الوجد السببُ الذي أهاجَه له وأوقدَه في قلبه.

قوله: (**وهذا من أرقِّ مقامات أهل الولاية**) جعله رقيقًا لكون الحسِّ مقهورًا مغلوبًا عند صاحبه، والعلم والمعرفة لا يحكمان عليه، فضلًا عن الحسِّ والعادة.

وحاصل هذا المقام: الاستغراق في الفناء، وهو الغاية عند الشيخ! والصَّحيح أنَّ أهل الطبقة الثانية أعلىٰ من هؤلاء وأرفع مقامًا، وهم الكُمَّل؛ وهم أقوىٰ منهم، كما كان مقام رسول الله ﷺ ليلة الإسراء أرفع مِن مقام موسىٰ يوم التّجلِّي، ولم يحصل لرسول الله ﷺ من الفناء ما حصل لموسىٰ، وكان حبُّ امرأة العزيز ليوسف أعظم من حبِّ النِّسوة، ولم يحصل لها من تقطيع الأيدي ونحوه ما حصل لهنّ، وكان حبُّ أبي بكرٍ لرسول الله ﷺ أعظم مِن حبِّ عمر وغيره له، ولم يحصل له عند موته من الاضطراب والغَشْي والإقعاد ما حصل لغيره.

فأهلُ البقاء والتّمكُّن أقوىٰ حالًا وأرفع مقامًا من أهل الفناء، وبالله التّوفيق.



٤/ ٥٣

فصل

باب النفس

قال صاحب «المنازل»[(١)]: (باب النّفَس، قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ﴾[الأعراف: ١٤٣]).

وجه إشارته بالآية: أنَّ النفَس يكون بعد مفارقة الحال وانفصاله عن صاحبه، فشبَّه الحالَ بالشّيء الذي يأخذ صاحبَه فيغتُّه ويغطُّه، حتّىٰ إذا أقلع عنه تنفَّس نفَسًا يستريحُ به ويستَرْوِحِ إليه.

قال[(٢)]: (وسمِّيَ النّفَسُ نفَسًا، لِترَوُّح المُتنفِّس به).

التنفيس هو: الترويح، يقال: نفَّسَ الله عنك الكرْبَ، أي: أراحَك منه، وفي الحديث الصّحيح: «مَنْ نفَّسَ عن مؤمنٍ كُرْبةً مِن كُرَب الدُّنيا نفّسَ الله عنه كُرْبةً مِن كُرَب يوم القيامة»[(٣)].

وهذه الأحرف وهي النُّون والفاء وما يُثلِّثهما تدلُّ حيث وُجِدت علىٰ الخروج والانفصال، فمنه النَّفَل؛ لأنّه زائدٌ علىٰ الأصل خارجٌ عنه، ومنه: النّفْي و النّفْر والنّفْش، ونفَقَت الدابَّة، ونَفِسَت المرأةُ ونُفِسَت: إذا حاضت أو ولدت، فالنَّفَس: خروجٌ وانفصالٌ يستريح به المتنفِّس.



(١) (ص٨٦).
(٢) (ص٨٦).
(٣) أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

٤/ ٦٧

باب الغربة

فصل

قال شيخ الإسلام[(١)]: (باب الغُرْبة، قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ **الآية** [هود: ١١٦]).

استشهاده بهذه الآية في هذا الباب يدلُّ علىٰ رسوخِه في العلم والمعرفة وفهم القرآن، فإنّ الغُرَباء في العالَم هم أهل هذه الصِّفة المذكورة في الآية، وهم الذين أشار إليهم النّبيُّ ﷺ في قوله: «**بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا، فطوبىٰ للغرباء**»، قيل: ومَن الغُرباء يا رسول الله؟ قال: «**الذين يصلحون إذا فسدَ النّاس**»[(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدّثنا عبد الرّحمن بن مهديٍّ، عن زُهير عن عَمرو بن أبي عَمرٍو مولىٰ المطّلب بن حنطبٍ، عن المطّلب بن حنطبٍ، عن النّبيِّ ﷺ قال: «**طوبىٰ للغُرَباء**»، قالوا: يا رسول الله، مَن الغرباء؟ قال: «**الذين يزيدون إذا نقَصَ النّاسُ**»[(٣)].

وإن كان هذا الحديث بهذا اللّفظ محفوظًا لم ينقلب علىٰ الراوي لفظه وهو: «**الذين ينقصون إذا زاد النّاس**»، فمعناه: الذين يزيدون خيرًا وإيمانًا وتقًىٰ إذا نقص النّاسُ من ذلك، والله أعلم.

وفي حديث عبد الله بن عمرٍو قال: قال النّبيُّ ﷺ ذات يومٍ ونحن عنده: «**طوبىٰ للغرباء**»، قيل: ومَن الغرباء يا رسول الله؟ قال: «**ناسٌ صالحون قليلٌ في**

---

(١) «المنازل» (ص٨٧).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٥)، من حديث أبي هريرة ﷺ دون قوله: «قيل: ومن الغرباء...»، وهذه الزيادة أخرجها أحمد (١٦٦٩٠)، من حديث عبد الرحمن بن سَنَّة ﷺ، وإسناده واهٍ.

(٣) أخرجه عليُّ بن حُجْر السعدي في حديثه (٣٦٧) من طريق عمرو بن المطلب عن المطلب به.

ناسٍ سوءٍ كثيرٍ، مَن يعصيهم أكثر ممّن يطيعهم»[(١)] .

وقال أحمد: حدَّثنا الهيثم بن جميلٍ، حدَّثنا محمّد بن مُسْلمٍ، حدّثنا عثمان بن عبد الله، عن سليمان بن هُرمُز، عن عبد الله بن عمرٍو قال: «إنَّ أحبَّ شيءٍ إلىٰ الله تعالىٰ الغرباء، قيل: ومن الغرباء؟ قال: الفرَّارون بدينهم، يجتمعون إلىٰ عيسىٰ ابن مريم يوم القيامة»[(٢)] .

وفي حديثٍ آخر: «**بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبىٰ للغرباء**، قيل: ومَن الغرباء يا رسول الله؟ قال: **الذين يحيون سنّتي ويعلّمونها النّاس**»[(٣)] .

وقال نافع بن مالكٍ: دخل عمر بن الخطّاب المسجد، فوجد معاذ بن جبلٍ جالسًا إلىٰ بيت النّبيِّ ﷺ وهو يبكي، فقال له عمر: ما يبكيك يا أبا عبد الرّحمن؟ هلك أخوك؟ قال: لا، ولكنّ حديثًا حدّثنيه حِبّي ﷺ وأنا في هذا المسجد، فقال: ما هو؟ قال: «**إنّ الله يحبُّ الأخفياء الأتقياء الأبرياء، الذين إذا غابوا لم يُفْتَقدوا، وإذا حضروا لم يُعرَفوا، قلوبُهم مصابيح الهدىٰ يخرجون مِن كلِّ فتنةٍ عَمياء مظلمةٍ**»[(٤)] .

فهؤلاء هم الغرباء الممدوحون المغبوطون، ولقلَّتهم في النَّاس جدًّا سُمُّوا غرباء، فإنّ أكثر النّاس علىٰ غير هذه الصِّفات، فأهل الإسلام في النّاس غرباء، والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء، وأهلُ العلم في المؤمنين غرباء، وأهلُ السُّنّة

---

(١) أخرجه أحمد (٦٦٥٠)، وابن المبارك في الزهد (٧٧٥)، من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه، وفي إسناده ابن لهيعة.

(٢) أخرجه أحمد بهذا الإسناد في «الزهد» (٧٧) موقوفًا علىٰ عبد الله بن عمرو، وأخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (١٤٩) مرفوعًا، وإسناد الموقوف أصحُّ.

(٣) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٩٠٥)، والبيهقي في «الزهد» (٢٠٥)، من حديث كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جدِّه. وإسناده واهٍ، كثير متروك.

(٤) رواه الآجُرّي في «الغرباء» (ص٥٢)، وفي سنده انقطاع، نافع بن مالك لم يدرك عمر ومعاذًا. وأخرجه ابن ماجه (٣٩٨٩) من طريق آخر، وسنده ضعيف جدًّا.

الذين يميِّزونها من الأهواء والبدع فيهم غرباء، والدّاعون إليها الصّابرون علىٰ أذىٰ المخالفين لهم أشدُّ هؤلاء غربةً، ولكنّ هؤلاء هم أهل الله حقًّا، فلا غربة عليهم، وإنّما غربتهم بين الأكثرين الذين قال الله فيهم: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[الأنعام: ١١٦]، فأولئك هم الغرباء من الله ورسوله ودينه، وغربتهم هي الغربة الموحشة، وإن كانوا هم المعروفين المشار إليهم، كما قيل[١]:

فليس غريبًا من تناءت ديارُه ولكنَّ مَن تَنْأين عنه غريبُ

ولمَّا خرج موسىٰ عليه السلام هاربًا من قوم فرعون انتهىٰ إلىٰ مدين علىٰ الحال التي ذَكَر الله، وهو وحيدٌ غريبٌ خائفٌ جائعٌ، فقال: يا ربِّ وحيدٌ مريضٌ غريبٌ، فقيل له: يا موسىٰ الوحيد مَن ليس له مثلي أنيسٌ، والمريض مَن ليس له مثلي طبيبٌ، والغريب مَن ليس بيني وبينه معاملة.

فالغربة ثلاثة أنواعٍ:

غربة أهل الله وأهل سنَّة رسوله بين هذا الخلق، وهي الغربة التي مدح رسولُ الله ﷺ أهلَها، وأخبر عن الدِّين الذي جاء به: أنَّه بدأ غريبًا، وأنَّه سيعود غريبًا، وأنّ أهله يصيرون غرباء.

وهذه الغربة قد تكون في مكانٍ دون مكانٍ، ووقتٍ دون وقتٍ، وبين قومٍ دون غيرهم، ولكنّ أهل هذه الغربة هم أهل الله حقًّا، فإنّهم لم يأووا إلىٰ غير الله، ولم ينتسبوا إلىٰ غير رسوله ﷺ، ولم يدعوا إلىٰ غير ما جاء به، وهم الذين فارقوا النّاسَ أحوجَ ما كانوا إليهم، فإذا انطلق النّاسُ يوم القيامة مع آلهتهم بقُوا في مكانهم، فيقال لهم: ألا تنطلقون حيث انطلقَ النّاس؟ فيقولون: فارَقْنا النَّاسَ

---

(١) البيت لامرئ القيس «ديوانه» (٢/ ٧٣٣- الحاشية).

ونحن أحوجُ منَّا إليهم اليوم، وإنّا ننتظر ربَّنا الذي كنَّا نعبده[(١)].

فهذه الغربة لا وحشة علىٰ صاحبها، بل هو آنسُ ما يكون إذا استوحش النّاس، وأشدُّ ما يكون وحشةً إذا استأنسوا، فوليُّه الله ورسوله والّذين آمنوا، وإن عاداه أكثرُ النّاس وجفوه.

وفي حديث القاسم، عن أبي أمامة، عن النبيِّ ﷺ قال: **«إنَّ أغبَطَ أوليائي عندي لمؤمنٌ خفيف الحاذِ ذو حظٍّ من صلاة، أحسنَ عبادةَ ربِّه، وكان رزقُه كفافًا، وكان مع ذلك غامضًا في النّاس، لا يُشار إليه بالأصابع، وصبَر علىٰ ذلك حتّىٰ لقي الله، ثمّ حلّت منيّته، وقلَّ تراثُه، وقلّت بواكيه»**[(٢)].

ومن هؤلاء الغرباء: مَا ذَكرَهم أنسٌ في حديثه عن النّبيِّ ﷺ: **«رُبَّ أشعثَ أغبرَ، ذي طِمْرين، لا يُؤبه له، لو أقسم علىٰ الله لأبرَّه»**[(٣)].

وفي حديث أبي إدريس الخَولانيِّ، عن معاذ بن جبلٍ، عن النبيِّ ﷺ قال: **«ألا أخبركم عن ملوك أهل الجنَّة؟»** قالوا: بلىٰ يا رسول الله. قال: **«كلُّ ضعيفٍ أغبر ذي طمرين لا يؤبه له، لو أقسم علىٰ الله لأبرّه»**[(٤)].

وقال الحسن: المؤمن في الدُّنيا كالغريب لا يجزع مِن ذلِّها، ولا ينافس في عزِّها، للناس حالٌ وله حالٌ، النّاس منه في راحةٍ وهو من نفسه في تعبٍ[(٥)].

ومن صفات هؤلاء الغرباء الذين غبطَهم النّبيُّ ﷺ: التّمسُّكُ بالسُّنّة إذا رغب

---

(١) يشير إلىٰ حديث أبي سعيد الخدري الذي أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، مسلم (١٨٣).
(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٢١٦٧)، والترمذي (٢٣٤٧)، وإسناده ضعيف جدًّا مسلسل بالضعفاء، ينظر حاشية «المسند» (٣٦/ ٤٩٩).
(٣) أخرجه الترمذي (٣٨٥٤)، وقال: «حديث حسن غريب». وقد سبق نحوه من حديث أبي هريرة عند مسلم.
(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٠/ ٨٤).
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس» (٧٨).

عنها النّاس، وتَرْكُ ما أحدثوه وإن كان هو المعروف عندهم، وتجريدُ التّوحيد وإن أنكرَ ذلك أكثر النّاس، وتَرْكُ الانتساب إلىٰ أحدٍ غير الله ورسوله، لا شيخ ولا طريقة ولا مذهب ولا طائفة، بل هؤلاء الغرباء منتسبون إلىٰ الله بالعبوديَّة له وحده، وإلىٰ رسوله بالاتِّباع لما جاء به وحده، وهؤلاء هم القابضون علىٰ الجمر حقًّا، وأكثر النّاس بل كلُّهم لائمٌ لهم؛ فلغربتهم بين هذا الخلق: يَعُدُّونهم أهلَ شذوذٍ وبدعةٍ، ومفارَقةٍ للسّواد الأعظم.

وكيف لا تكون فرقةٌ واحدةٌ قليلةٌ جدًّا غريبةً بين اثنتين وسبعين فرقةً، ذات أتباعٍ ورئاساتٍ ومناصب وولاياتٍ، لا يقوم لها سوقٌ إلّا بمخالفة ما جاء به الرّسولُ ﷺ؟ فإنَّ نفس ما جاء به يضادُّ أهواءهم، وما هم عليه من الشُّبهات التي هي منتهىٰ فضيلتهم وعملهم، والشَّهَوات التي هي غاية مقاصدهم وإراداتهم؟

فكيف لا يكون المؤمن السائرُ إلىٰ الله علىٰ طريق المتابعة غريبًا بين هؤلاء الذين قد اتّبعوا أهواءهم، وأطاعوا شحَّهم، وأُعْجِب كلٌّ منهم برأيه؟ كما في «سنن أبي داود» و«الترمذيِّ»[1] من حديث أبي ثعلبة الخشنيِّ قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْۚ﴾[المائدة: ١٠٥] فقال: «**بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتّىٰ إذا رأيتَ شُحًّا مُطاعًا، وهوًىٰ متبعًا، ودنيا مؤثَرةً، وإعجابَ كلِّ ذي رأيٍ برأيه، فعليك بنفسك ودَعْ عنك العوامّ، فإنَّ مِن ورائكم أيّامَ الصّبر؛ الصّبرُ فيهنَّ مثلُ قبضٍ علىٰ الجمر، للعامل فيهنَّ أجر خمسين رجلًا يعملون مثل عمله، قلت: يا رسول الله أجر خمسين منهم؟ قال: أجر خمسين منكم**».

وهذا الأجر العظيم إنّما هو لغربته بين النّاس، والتّمسُّك بالسُّنّة بين ظُلَم

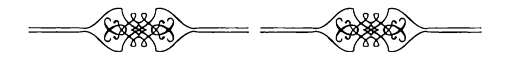
---

(١) أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨)، وأخرجه أيضًا ابن ماجه (٤٠١٤)، وابن حبان (٣٨٥)، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١٠٢٥).

أهوائهم وآرائهم.

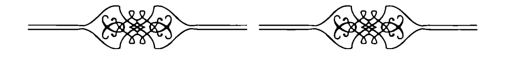
فهو غريبٌ في دينه لفسادِ أديانِهم، غريبٌ في تمسُّكه بالسُّنة لتمسُّكهم بالبدع، غريبٌ في اعتقاده لفساد عقائدهم، غريبٌ في صَلاته لسوء صلاتهم، غريبٌ في طريقه لفساد طُرُقهم، غريبٌ في نِسْبَتِه لمخالفة نِسَبِهِم، غريبٌ في معاشرته لهم، لأنّه يُعاشرهم علىٰ ما لا تهوىٰ أنفسُهم.

وبالجملة: فهو غريبٌ في أمور دنياه وآخرته، لا يجد مساعدًا ولا معينًا، فهو عالمٌ بين قوم جهَّالٍ، صاحب سنّةٍ بين أهل بدعٍ، داعٍ إلىٰ الله ورسوله بين دعاةٍ إلىٰ الأهواء والبدع، آمرٌ بالمعروف ناهٍ عن المنكر بين قومٍ المعروف لديهم منكرٌ والمنكر معروفٌ.



فصل

النوع الثاني من الغربة: غربةٌ مذمومةٌ، وهي غربة أهل الباطل وأهل الفجور بين أهل الحقِّ، فهي غربةٌ بين حزب الله وإن كثُرَ أهلُها، فهم غرباء علىٰ كثرة أصحابهم وأشياعهم، أهل وحشةٍ علىٰ كثرة مؤنسيهم، يُعرفون في أهل الأرض، ويَخْفَون علىٰ أهل السّماء.



فصل

النوع الثالث: غربةٌ مشتركةٌ لا تُحمَد ولا تُذَمُّ، وهي الغربة عن الوطن؛ فإنّ النّاس كلّهم في هذه الدّار غرباء، فإنَّها ليست لهم بدار مُقام، ولا هي الدّار التي خُلقوا لها، وقد قال النّبيُّ ﷺ لعبد الله بن عمر: «**كنْ في الدُّنيا كأنّكَ غريبٌ أو عابر سبيلٍ**»[1]. وهكذا هو في نفس الأمر أمَرَ أن يطالع ذلك بقلبه ويعرفه حقَّ المعرفة.

ولي من أبياتٍ في هذا المعنىٰ[2]:

وحيَّ علىٰ جنّات عدنٍ فإنَّها ... منازلك الأولىٰ وفيها المُخيَّم

ولكنّنا سبي العدوِّ فهل ترىٰ ... نعود إلىٰ أوطاننا ونسلّم

وأيُّ اغترابٍ فوق غربتنا التي ... لها أضحت الأعداءُ فينا تَحَكَّمُ

وقد زعموا أنّ الغريبَ إذا نأىٰ ... وشطّت به أوطانُه ليس ينعَمُ

فمن أجل ذا لا ينعَمُ العبدُ ساعةً ... من العمر إلّا بعدَها يتألّم

وكيف لا يكون العبد في هذه الدار غريبًا، وهو علىٰ جناح سفرٍ، لا يحلُّ عن راحلته إلّا بين أهل القبور؟ فهو مسافرٌ في صورة قاعدٍ، وقد قيل:

وما هذه الأيّام إلّا مراحل ... يحثُّ بها داعٍ إلىٰ الموت قاصدُ

وأعجبُ مِن ذا لو تأمّلتَ أنّها ... منازلُ تُطوَىٰ والمسافرُ قاعدُ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٦).

(٢) وهذه الأبيات من القصيدة المعروفة بالميمية، نشرت ضمن مجموعة «رسائل أربح البضاعة ص٦٣-٧٣».

٤/ ٨٧

فصل

باب الغرق

قال صاحب «المنازل»[(١)]: (**باب الغرق. قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾**[الصافات: ١٠٣]. **هذا اسمٌ يُشار به في هذا الباب إلىٰ من توسَّطَ المقامَ وجاوزَ حدَّ التّفرُّق**).

وجه استدلاله بإشارة الآية: أنَّ إبراهيم ﷺ لمَّا بلغ ما بلغ هو وولده في المبادرة إلىٰ الامتثال، والعزمِ علىٰ إيقاع الذّبح المأمور به، ألقىٰ الولدَ علىٰ جَنْبه في الحال، وأخذَ الشَّفرةَ وأهوىٰ إلىٰ حلقه= أعرضَ في تلك الحال عن نفسه وولده، وفني بأمر الله عنهما، فتوسَّطَ بحرَ جمْعِ السِّرِّ والقلب والهمِّ علىٰ الله، وجاوزَ حدَّ التفرقةِ المانعة من امتثال هذا الأمر.

وقوله: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾ أي: استسلما وانقادا لأمر الله، فلم يبقَ هناك منازعةٌ لا من الوالد ولا من الولد، بل استسلامٌ صِرفٌ وتسليمٌ محضٌ.

وقوله: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ أي: صَرعَه علىٰ جبينه، وهو جانب الجبهة الذي يلي الأرضَ عند النّوم، وتلك هيئةُ ما يُراد ذبحه.

وقوله: (**توسّط المقام**) لا يريد به مقامًا معيّنًا، ولذلك أبهمه ولم يُقيِّده. و«المقام» عندهم: منزلٌ من منازل السّالكين، وهو يختلف باختلاف مراتبه، وله بدايةٌ وتوسُّطٌ ونهايةٌ، فالغرق المشار إليه: أن يصير في وسط المقام.

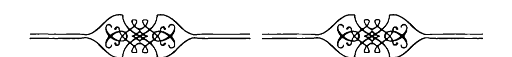
فإن قيل: الغرق أخصُّ بنهاية المقام من توسُّطه؛ لأنّه استغراقٌ فيه بحيث يَستفرغ قلْبَه وهمّه، فكيف جعله الشّيخ توسُّطًا فيه؟

قلت: لمَّا كانت همّةُ الطالب في هذه الحال مجموعةً علىٰ المقصود، وهو

---

(١) (ص٨٨).

معرضٌ عمَّا سواه، قد فارق مقامَ التفرقة، وجاوزَ حدَّها إلىٰ مقام الجمع، فابتدأ في المقام، وأوَّلُ كلِّ مقامٍ يُشبِه آخرَ الذي قبله، فلمّا توسَّطَ فيه استغرق قلبه وهمّه وإرادته، كما يَغرَقُ من توسّطَ اللُّجّةَ فيها قبل وصوله إلىٰ آخرها.

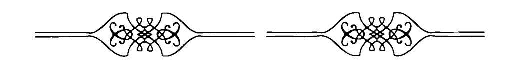


٤/ ٩٤
باب الغيبة

فصل

قال صاحب «المنازل»[1]: (باب الغَيبة. قال الله ﷻ: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾[يوسف: ٨٤]).

وجه استدلاله بإشارة الآية أنَّ يعقوب ﷺ لمَّا ابتُلي قلبه بحبِّ يوسف عليه الصلاة والسلام وذِكْرِه أعرضَ عن ذكر أخيه، مع قرب عهده بمصيبة فراقه، فلم يذكره مع ذلك ولم يتأسّف عليه غيبةً عنه بمحبّة يوسف واستيلائه علىٰ قلبه. ولو استدلّ بقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾[يوسف: ٣١] لكان دليلًا أيضًا، فإنَّ مشاهدته في تلك الحال غيَّبَ عنهنَّ السّكاكين وما تُقطَع بهنَّ، حتَّىٰ قطَّعن أيديهنَّ ولا يشعرن، وذلك من قوّة الغَيبة.



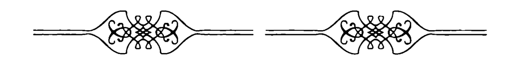
(١) (ص٨٩).

٤/ ١٠٠
باب التمكن

فصل

قال صاحب «المنازل»[1]: (باب التمكُّن. قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[الروم: ٦٠]).

وجه استدلاله بالآية في غاية الظُّهور، وهو أنَّ المتمكِّن لا يبالي بكثرة المُشْغِلات، ولا بمخالطة أصحاب الغفلات، ولا بمعاشرة أهل البطالات، بل قد تمكَّنَ بصبره ويقينه عن استفزازهم إيّاه واستخفافِهم له. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾[الروم: ٦٠]. فمن وَفَّىٰ الصّبرَ حقَّه، وتيقّن أنّ وعد الله حقٌّ، لم يستفزَّه المبطلون، ولم يستخفَّه الذين لا يوقنون. ومتىٰ ضعُفَ صبره أو يقينه أو كلاهما استفزَّه هؤلاء واستخفَّه هؤلاء، فجذبوه إليهم بحسب ضعف قوّة صبره ويقينه، فكلَّما ضعُفَ ذلك منه قوي جذْبُهم له، وكلّما قوي صبره ويقينه قوِيَ انجذابُه منهم وجذْبُه لهم.



(١) (ص٩٠).

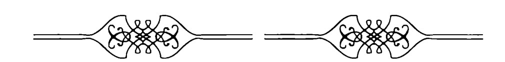
فصل

قال الشيخ[1]: **(التّمكُّن فوق الطُّمأنينة، وهو الإشارة إلىٰ غاية الاستقرار)**.

التّمكُّن هو القدرة علىٰ التّصرُّف في الفعل والتّرك، وتُسمَّىٰ مكانةً أيضًا، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[الزمر: ٣٩].

وأكثر ما يطلق في اصطلاح القوم: علىٰ من انتقل إلىٰ مقام البقاء بعد الفناء، وهو الوصول عندهم، وحقيقته: ظفَرُ العبد بنفسه، وهو أن تَتوارىٰ عنه أحكام البشريّة بطلوع شمس الحقيقة واستيلاءِ سلطانها، فإذا دامت له هذه الحال أو غلبتْ عليه فهو صاحب تمكينٍ.

قال صاحب «المنازل»: **(التّمكُّن فوق الطُّمأنينة، وهو إشارة إلىٰ غاية الاستقرار)**. إنّما كان فوق الطُّمأنينة لأنّها تكون مع نوعٍ من المنازعة، فيطمئنُّ القلب إلىٰ ما يسكنه، وقد يتمكّن فيه وقد لا يتمكّن، ولذلك كان التّمكُّن هو غاية الاستقرار، وهو تفعُّلٌ من المكان، فكأنّه قد صار مقامه مكانًا لقلبه قد تبوّأه منزلًا مستقرًّا.



(١) «المنازل» (ص٩٠).

١/ ١٠٨

باب المكاشفة

فصل

قال صاحب «المنازل»[(١)]: (باب المكاشفة. قال الله تعالىٰ: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾[النجم: ١٠]).

ووجه احتجاجه بإشارة الآية: أنه سبحانه كشف لعبده ما لم يكشفه لغيره، وأطلعَه علىٰ ما لم يُطلِع عليه غيره، فحصل لقلبه الكريم من انكشافِ الحقائق التي لا تخطر ببالِ غيره ما خصَّه الله به. والإيحاء هو الإعلام السّريع الخفيُّ، ومنه الوَحَا الوَحَا؛ أي: الإسراعَ الإسراعَ.

وقوله: ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾ أبهمه لعِظَمِه، فإنَّ الإبهام قد يقع للتعظيم، ونظيره: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾[طه: ٧٨]، أي: أمرٌ عظيمٌ فوق الصِّفة.

قال الشيخ[(٢)]: (**المكاشفة: مُهاداة السِّرِّ بين متباطنَين**). يريد أنَّ المكاشفة إطْلاعُ أحد المتحابَّينِ المتصافيينِ صاحبَه علىٰ باطن أمره وسرِّه.

وقوله: (**مهاداة السِّرِّ**) أي: تردُّد السِّرِّ علىٰ وجه الإلطاف والمودّة.

وقوله: (**بين متباطنينِ**) يعني بالمتباطنين: باطن المكاشِف والمكاشَف، فيحمل سرُّ كلٍّ منهما إلىٰ الآخر كما يحمل إليه هديَّته، فيَسرِي سرُّ كلِّ واحدٍ منهما إلىٰ الآخر. وإذا بلغ العبد في مقام المعرفة إلىٰ حدٍّ كأنّه يطالع ما اتّصف به الرّبُّ سبحانه من صفات الكمال ونعوت الجلال، وأحسَّتْ روحُه بالقرب الخاصِّ الذي ليس كقرب المحسوس من المحسوس، حتّىٰ يشاهدَ رفعَ الحجاب بين روحه وقلبه وبين ربِّه، فإنّ حجابه هو نفسه، وقد رفع الله سبحانه عنه ذلك

---

(١) (ص٩٢).
(٢) (ص٩٢).

الحجاب بحوله وقوّته= أفضىٰ القلبُ والرُّوح حينئذٍ إلىٰ الرّبِّ، فصار يعبده كأنّه يراه. فإذا تحقّق بذلك، وارتفع عنه حجاب النّفس، وانقشعَ عنه ضَبابها ودخانها، وكُشِطَتْ عنه سُحُبُها وغيومُها= فهناك يقال له:

بَدا لكَ سِرٌّ طالَ عنك اكتتامُه ... ولاح صباحٌ كنتَ أنت ظَلامُه

فأنت حجابُ القلب عن سِرِّ غيبِه ... ولولاك لم يُطبَع عليه خِتامُه

فإن غبتَ عنه حلَّ فيه وطَنَّبَت ... علىٰ منكبِ الكشف المَصُونِ خِيامُه

وجاء حديثٌ لا يُمَلُّ سَماعُه ... شَهِيٌّ إلينا نثرُه ونِظامُه

إذا ذكرتْه النّفسُ زالَ عَناؤُها ... وزال عن القلب الكئيبِ قَتامُه

فلذلك قال الشيخ[(١)]: **(وهي في هذا الباب بلوغُ ما وراء الحجاب وجودًا)**.

وقوله: **(وجودًا)** احترازٌ من بلوغه سماعًا وعلمًا، وكثيرًا ما يلتبس علىٰ العبد أحدهما بالآخر، فأين وجود الحقيقة من العلم بها ومعرفتها؟ كما تقدّم ذلك مرارًا، فتعلُّق العلم بالقلب شيءٌ، واتِّصافه بالمعلوم شيءٌ آخر.

فمن الناس من يتعلّق به سماع ذلك دون فهمه، ومنهم من يتعلَّق به فهمه دون حقيقته، والتّعلُّق الكامل أن يتعلّق به وجوده، فلذلك قال: **(بلوغ ما وراء الحجاب وجودًا)**.

والمكاشفة الصحيحة: علومٌ يُحدِثها الرّبُّ تعالىٰ في قلب العبد، ويُطلِعه بها علىٰ أمورٍ تخفىٰ علىٰ غيره، وقد يُواليها سبحانه، وقد يُمسِكها عنه بالغفلة عنها، يُوارِيها عنه بالغَيْن الذي يَغشىٰ قلبَه وهو أرقُّ الحجب، أو بالغَيْم وهو أغلظُ منه، أو بالرَّانِ وهو أشدُّها.

---

(١) «المنازل» (ص٩٢).

فالأوّل: يقع للأنبياء، كما قال النّبيُّ ﷺ: «**إنّه ليُغَانُ علىٰ قلبي، وإنِّي لأستغفر الله في كل يوم أكثرَ من سبعينَ مرّةً**»[(١)].

والثّاني: يكون للمؤمنين.

والثّالث: لمن غلبت عليه الشِّقوة، قال تعالىٰ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾[المطففين: ١٤]. قال ابن عبّاسٍ وغيره: هو الذّنب بعد الذّنب يُغطِّي القلبَ حتّىٰ يصير كالرَّانِ عليه[(٢)].

والحُجُب عشرة:

حجابُ التّعطيلِ ونفيِ حقائق الأسماء والصِّفات، وهو أغلظُها، فلا يُهيَّأُ لصاحب هذا الحجاب أن يعرف الله، ولا يصل إليه البتَّةَ، إلا كما يتهيَّأ للحجر أن يصعد إلىٰ فوق.

الثاني: حجاب الشِّرك، وهو أن يتعبَّد قلبه لغير الله.

الثالث: حجاب البدعة القوليَّة، كحُجُب أهل الأهواء والمقالاتِ الفاسدة علىٰ اختلافها.

الرابع: حجاب البدعة العمليَّة، كحجاب أهل السُّلوك المبتدعين في طريقهم وسلوكهم.

الخامس: حجاب أهل الكبائر الباطنة، كحجاب أهل الكبر والعُجْب والرِّياء والحسد والفخر والخيلاء ونحوها.

السادس: حجاب أهل الكبائر الظّاهرة، وحجابهم أرقُّ من حجاب إخوانهم

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٢)، من حديث الأغرّ المزني ﷺ. وفيه «مئة مرة» بدلاً من «أكثر من سبعين مرة».

(٢) «تفسير البغوي» (٤/ ٤٦٠).

من أهل الكبائر الباطنة، مع كثرة عباداتهم وزهاداتهم واجتهادهم، فكبائر هؤلاء أقرب إلىٰ التّوبة من كبائر أولئك، فإنّها قد صارت مقاماتٍ لهم لا يتحاشون من إظهارها وإخراجها في قوالب عبادةٍ ومعرفةٍ، فأهل الكبائر الظّاهرة أدنىٰ إلىٰ السّلامة منهم، وقلوبهم خيرٌ من قلوبهم.

السابع: حجاب أهل الصغائر.

الثامن: حجاب أهل الفضلات، والتّوسُّعِ في المباحات.

التاسع: حجاب أهل الغفلة عن استحضار ما خُلِقوا له وأُرِيد منهم، وما لله عليهم من دوامِ ذكره وشكره وعبوديّته.

العاشر: حجاب المجتهدين من السالكين المُشمِّرين في السّير عن المقصود.

فهذه عَشْرُ حُجُبٍ بين القلب وبين الله سبحانه، تحول بينه وبين هذه الشأن. وهذه الحجب تنشأ من أربعة عناصِرَ: عنصر النّفس، وعنصر الشّيطان، وعنصر الدُّنيا، وعنصر الهوىٰ، فلا يمكن كشفُ هذه الحجب مع بقاء أصولها وعناصرها في القلب البتّةَ.

وهذه الأربعة تُفسِد القول والعمل والقصد والطّريق بحسب غلبتها وقلّتها، فتقطع طريقَ القول والعمل والقصد أن يصل إلىٰ القلب، وما وصل منه إلىٰ القلب قطعتْ عليه الطّريقَ أن يصل إلىٰ الرّبِّ. فبين القول والعمل وبين القلب مسافةٌ يسافر فيها العبد إلىٰ قلبه ليرىٰ عجائب ما هناك، وفي هذه المسافة قُطَّاع الطّريق المذكورون، فإن حاربهم وخلص العمل إلىٰ قلبه دار فيه، وطلبَ النُّفوذَ من هناك إلىٰ الله، فإنّه لا يستقرُّ دون الوصول إليه ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾[النجم: ٤٢]. فإذا وصل إلىٰ الله سبحانه أثابه عليه مزيدًا في إيمانه ويقينه ومعرفته وعقله، وجمَّلَ به ظاهره وباطنه، فهداه به لأحسن الأخلاق والأعمال، وصرف به عنه سيِّئ الأخلاق

والأعمال، وأقام سبحانه من ذلك العمل للقلب جندًا يحارب به قُطَّاعَ طريق الوصول إليه. فيحارب الدُّنيا بالزُّهد فيها وإخراجها من قلبه، ولا يضرُّه أن تكون في يده وبيته وقوّةُ يقينِه بالآخرة. ويحارب الشّيطان بترك الاستجابة لداعي الهوىٰ، فإنّ الشّيطان مع الهوىٰ لا يفارقه. ويحارب الهوىٰ بتحكيم الأمر المطلق والوقوف معه، بحيث لا يبقىٰ له هوًىٰ فيما يفعله ويتركه. ويحارب النّفس بقوّة الإخلاص.

هذا كلُّه إذا وجد العمل مَنفذًا من القلب إلىٰ الربِّ سبحانه. وإن دار فيه ولم يجد مَنفذًا وَثَبَتْ عليه النفسُ، فأخذتْه وصيَّرتْه جندًا لها، فصالت به وعلَتْ وطغَتْ، فتراه أزهدَ ما يكون، وأعبدَ ما يكون، وأشدَّه اجتهادًا، وهو أبعدُ ما يكون عن الله، وأصحابُ الكبائر أقربُ قلوبًا إلىٰ الله منه، وأدنىٰ إلىٰ الخلاص.

فانظر إلىٰ السَّجَّاد العبَّاد الزّاهد الذي بين عينيه أثر السُّجود، كيف أورثه طغيانُ عمله أن أنكر علىٰ النبيِّ ﷺ، وأورثَ أصحابَه احتقارَ المسلمين، حتّىٰ سَلُّوا عليهم سيوفهم، واستباحوا دماءهم[1].

وانظر إلىٰ الشِّرِّيب السِّكِّير الذي كان كثيرًا ما يُؤتىٰ به إلىٰ النبيِّ ﷺ، فيحدُّه علىٰ الشّراب، كيف قامت به قوَّةُ إيمانه ويقينه، ومحبّته لله ورسوله، وتواضعه وانكساره لله، حتّىٰ نهىٰ رسول الله ﷺ عن لعنته[2].

فظهر بهذا أنّ طغيان المعاصي أسلمُ عاقبةً من طغيان الطّاعات.

وقد روىٰ الإمام أحمد في كتاب «الزُّهد»[3] أنّ الله سبحانه أوحىٰ إلىٰ موسىٰ ﷺ: يا موسىٰ، أَنذِر الصِّدِّيقين، فإنِّي لا أضعُ عدلي علىٰ أحدٍ إلّا عذَّبتُه من غيرِ

---

(١) يشير إلىٰ ذي الخويصرة التميمي وأصحابه من الخوارج، وقد أخرجه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤)، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) أخرج البخاري (٦٧٨٠).

(٣) رقم (٣٧٦)، وفيه: «أوحىٰ إلىٰ داود: يا داود...».

أن أظلمَه، وبَشِّرِ الخطّائين، فإنّه لا يتعاظمني ذنبٌ أن أغفره.

وليس مراد الشيخ في هذا الباب: الكشفَ الجزئيَّ المشترك بين المؤمنين والكفّار والأبرار والفجّار، كالكشف عمّا في دار العبد، أو في يده، أو تحت ثيابه، أو ما حملَتْ به امرأته بعد انعقاده ذكرًا أو أنثىٰ، وما غاب عن العيان من أحوال البلد الشّاسع ونحو ذلك، فإنَّ ذلك يكون من الشّيطان تارةً، ومن النّفس تارةً، ولذلك يقع من الكفّار، كالنصارىٰ وعابدي النِّيران والصُّلبان، فقد كاشفَ ابنُ صيَّادٍ رسولَ الله ﷺ بما أضمره له وخَبَأه، فقال له رسول الله ﷺ: «**إنّما أنت من إخوان الكهَّان**»[1]. فأخبر أنّ ذلك الكشف من جنس كشف الكهّان، وأنّ ذلك قدره. وكذلك مسيلمة الكذَّاب مع فرط كفره كان يُكاشف أصحابَه بما فعله أحدهم في بيته وما قال لأهله، يخبره به شيطانُه ليُغوِيَ الناس[2]. وكذلك الأسود العَنْسيُّ[3]، والحارث المتنبِّي الدِّمشقيُّ[4] الذي خرج في دولة عبد الملك بن مروان، وأمثال هؤلاء ممّن لا يُحصِيهم إلّا الله. ورأينا نحن وغيرنا منهم جماعةً، وشاهد النّاس من كشف الرُّهبان عُبَّادِ الصليب ما هو معروفٌ.

والكشف الرحمانيُّ من هذا النوع: هو مثل كشف أبي بكرٍ لمَّا قال لعائشة: إنَّ امرأته حاملٌ بأنثىٰ[5]، وكشف عمر وقد قال: يا ساريةُ الجبلَ[6]، وأضعاف هذا من كشف أولياء الرحمن.

---

(١) إنما قاله لحمل بن النابغة الهذلي لما تكلَّم بسجع، كما في حديث أبي هريرة الذي أخرجه البخاري (٥٧٥٨)، ومسلم (١٦٨١)، أما ابن صيَّاد فقال له النبي ﷺ: «اخْسأ فلن تَعْدُوَ قدرك»، كما في حديث ابن عمر الذي أخرجه البخاري (١٣٥٤)، ومسلم (٢٩٣٠).

(٢) انظر: «تاريخ الطبري» (٣/ ٢٨١ وما بعدها)، و«البداية والنهاية» (٩/ ٤٥٨ وما بعدها).

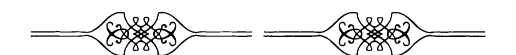
(٣) انظر: «دلائل النبوة» للبيهقي (٥/ ٣٣٥، ٣٣٦)، و«فتح الباري» (٨/ ٩٣).

(٤) انظر: «البداية والنهاية» (١٢/ ٢٨٥ وما بعدها).

(٥) رواه مالك في «الموطأ» (٢١٨٩)، وابن سعد في «الطبقات» (٣/ ١٩٤، ١٩٥).

(٦) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ٣٧٠)، وحسَّنه الحافظ في «الإصابة» (٤/ ١٧٧).

والمقصود: أنَّ مراد القوم بالكشف في هذا الباب أمرٌ وراء ذلك، وأفضلُه وأجلُّه أن يُكْشَفَ للسّالك عن طريق سلوكه ليستقيم عليها، وعن عيوب نفسه ليصلحها، وعن ذنوبه ليتوب منها. فما أكرم الله الصّادقين بكرامةٍ أعظمَ من هذا الكشف، وجعلهم منقادين له عاملين بمقتضاه، فإذا انضمّ هذا الكشف إلىٰ كشف تلك الحُجُب المتقدِّمة عن قلوبهم، سارت القلوب إلىٰ ربِّها مَسيرَ الغيث استدبرتْه الرِّيحُ.



٤/ ١٢٢
باب
المشاهدة

فصل

قال صاحب «المنازل»[1]: (**باب المشاهدة. قال الله تعالى**: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[ق: ٣٧]).

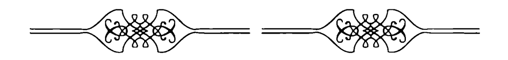
قلت: جعل الله سبحانه كلامه ذكرىٰ، ينتفع بها مَن جمعَ هذه الأمور الثّلاثة:

أحدها: أن يكون له قلبٌ حيٌّ واعٍ، فإذا فقد هذا القلب لم ينتفع بالذِّكرىٰ.

الثاني: أن يُصغي سَمْعَه فيُميله كلَّه نحو المخاطب له، فإن لم يفعل لم ينتفع بكلامه.

الثالث: أن يحضر قلبه وذهنه عند المكلِّم له وهو الشّهيد؛ أي الحاضر غير الغائب، فإن غاب قلبه وسافر في موضعٍ آخر لم ينتفع بالخطاب.

وهذا كما أنَّ المبصر لا يدرك حقيقة المرئيِّ إلَّا إذا كانت له قوّةٌ باصرةٌ، وحدَّقَ بها نحو المرئيِّ، ولم يكن قلبه مشغولًا بغير ذلك. فإن فقد القوّة المبصرة، أو لم يُحدِّق نحو المرئيِّ، أو حدَّقَ نحوه وقلبُه كلُّه في موضعٍ آخر= لم يدركه، فكثيرًا ما يمرُّ بك إنسانٌ أو غيره، وقلبك مشغولٌ بغيره، فلا تَشعُر بمروره. فهذا الشّأن يستدعي صحّة القلب وحضوره، وكمال الإصغاء.



(١) (ص٩٣).

٤/ ١٤١

فصل

باب المعاينة

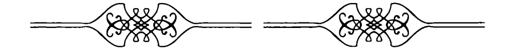
قال شيخ الإسلام[1]: (باب المعاينة: قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾[الفرقان: ٤٥]).

قلت: المعاينة مفاعلةٌ من العِيان، وأصلها من الرُّؤية بالعين، يقال: عاينَه إذا وقعت عينُه عليه، كما يقال: شافَهَه إذا كلَّمه شِفاهًا، وواجَهَه إذا قابله بوجهه. وهذا مستحيلٌ في هذه الدّار أن يظفر به بشرٌ.

وأمّا قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾فالرُّؤية واقعةٌ علىٰ نفس مدِّ الظِّلِّ، لا علىٰ الذي مَدَّه سبحانه، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾[نوح: ١٥]، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾[الفيل: ١]. فهاهنا أوقع الرُّؤية علىٰ نفس الفعل، وفي قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾أوقعها في اللّفظ عليه سبحانه، والمراد فِعْلُه من مدِّ الظِّلِّ، وهذا كلامٌ عربيٌّ بيِّنٌ معناه، غير محتملٍ ولا مجملٍ، كما قيل في العُزّىٰ:

كُفرانَكِ اليومَ لا سبحانَكِ، إنِّي رأيتُ الله قد أهانَكِ[2].

وهو كثيرٌ في كلامهم، يقولون: رأيتُ الله قد فعلَ كذا وكذا، والمراد رأيتُ فعْلَه. فالعيان والرُّؤية واقعٌ علىٰ المفعول، لا علىٰ ذاتِ الفاعل وصفتِه ولا فِعْلِه القائم به.



(١) «المنازل» (ص٩٤).

(٢) قاله خالد بن الوليد، كما في كتاب «الأصنام» لابن الكلبي (ص٢٥- ٢٦).

فصل

المعاينة نوعان: بصر وبصيرة

المعاينة نوعان: معاينة بصرٍ، ومعاينة بصيرةٍ. فمعاينة البصر: وقوعه علىٰ نفس المرئيِّ أو مثالِه الخارجيِّ، كرؤية مثال الصُّورة في المرآة والماء. ومعاينة البصيرة: وقوع القوّة العاقلة علىٰ المثال العلميِّ المطابق للخارجيِّ، فيكون إدراكه له بمنزلة إدراك العين للصُّورة الخارجيّة، وقد يقوىٰ سلطان هذا الإدراك الباطن، بحيث يصير الحكم له، ويقوىٰ استحضار القوَّة العاقلة لمُدرَكها بحيث يستغرق فيه، فيغلب حكمُ القلب علىٰ حكم الحسِّ والمشاهدة، فيستولي علىٰ السّمع والبصر، بحيث يراه ويسمع خطابه في الخارج، وهو في النّفس والذِّهن، لكن لغلبة الشُّهود وقوّةِ الاستحضار وتمكُّنِ حكم القلب واستيلائه علىٰ القوىٰ صار كأنّه مرئيٌّ بالعين، مسموعٌ بالأذن، بحيث لا يشكُّ المُدرِك في ذلك ولا يرتاب البتّةَ، ولا يقبل عذلًا.

وحقيقة الأمر: أنّ ذلك كلّه شواهدُ وأمثلةٌ علميّةٌ تابعةٌ للمعتقد، فذلك الذي أُدرِك بعين القلب والرُّوح إنّما هو شاهدٌ دالٌّ علىٰ الحقيقة، وليس نفس الحقيقة، فإنّ شاهِدَ نورِ جلال الذّات في قلب العبد ليس هو نفس نور الذّات الذي لا تقوم له السّماوات والأرض، فإنّه لو ظهر لها لتدكدكتْ، وأصابَها ما أصاب الجبل. وكذلك شاهدُ نورِ العظمة في القلب، إنّما هو نور التّعظيم والإجلال، لا نور نفس المعظّم ذي الجلال والإكرام.

وليس مع القوم إلّا الشّواهد والأمثلة العلميّة، والرّقائق التي هي ثمرة قرب القلب، وأنسه به، واستغراقه في محبّته وذكره، واستيلاء سلطان معرفته عليه، والرّبُّ تبارك وتعالىٰ وراء ذلك كلِّه، منزّهٌ مقدّسٌ عن اطِّلاع البشر علىٰ ذاته أو أنوارِ ذاته،

أو صفاتِه أو أنوار صفاته، وإنَّما هي الشّواهد التي تقوم بقلب العبد، كما يقوم بقلبه شاهدٌ من الآخرة والجنّة والنّار وما أعدّ الله لأهلها.

وهذا هو الذي وجده عبد الله بن حَرامٍ يومَ أحدٍ، لمَّا قال: واهًا لريح الجنّة! إنّي أجدُ ريحَها دون أُحُدٍ[(١)]. ومن هذا قوله ﷺ: «**إذا مررتم برياض الجنّة فارْتَعُوا**». قالوا: وما رياض الجنّة؟ قال: «**حِلَقُ الذِّكر**»[(٢)]. ومنه قوله: «**ما بين بيتي ومنبري روضةٌ من رياض الجنّة**»[(٣)]، فهو روضةٌ لأهل العلم والإيمان، لِما يقوم بقلوبهم من شواهد الجنّة، حتّىٰ كأنّها لهم رأيَ عينٍ، وإذا قعد المنافق هناك لم يكن ذلك المكان في حقِّه روضةً من رياض الجنّة. ومن هذا قوله: «**الجنّة تحت ظلال السُّيوف**»[(٤)].

فالعمل إنّما هو علىٰ الشّواهد، وعلىٰ حسب شاهد العبد يكون عملُه.

ونحن نشير بعون الله وتوفيقه إلىٰ الشّواهد إشارةً يُعلَم بها حقيقة الأمر.

فأوّل شواهد السّائر إلىٰ الله والدّار الآخرة: أن يقوم به شاهدٌ من الدُّنيا وحقارتها، وقلّة وفائها، وكثرة جفائها، وخِسَّة شركائها، وسرعة انقضائها، ويرىٰ أهلها وعشّاقها صَرْعىٰ حولَها، قد بَدَّعتْ بهم، وعذَّبتْهم بأنواع العذاب، وأذاقتْهم أمرَّ الشّراب، أضحكتْهم قليلًا وأبكَتْهم طويلًا، سَقَتْهم كؤوسَ سُمِّها بعد كؤوس خمرها، فسَكِروا بحبِّها، وماتوا بهجرِها.

---

(١) قالها أنس بن النضر ﷺ، كما أخرجه البخاري (٢٨٠٥)، ومسلم (١٩٠٣)، من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٢) رواه أحمد (١٢٥٢٣)، والترمذي (٣٥١٠). قال الترمذي: «حسن غريب».

(٣) أخرجه البخاري (١١٩٥)، عن عبد الله بن زيد المازني، و(١١٩٦)، عن أبي هريرة ﷺ. وأخرجه أيضًا مسلم (١٣٩٠، ١٣٩١).

(٤) أخرجه البخاري (٢٨١٨)، من حديث عبد الله بن أبي أوفىٰ ﷺ، وأخرجه مسلم (١٩٠٢)، من حديث أبي موسىٰ الأشعري ﷺ.

فإذا قام بالعبد هذا الشّاهد منها ترحَّلَ قلبه عنها، وسافر في طلب الدّار الآخرة، وحينئذٍ يقوم بقلبه شاهدٌ من الآخرة ودوامها، وأنّها الحيوان حقًّا، فأهلُها لا يرتحلون منها، ولا يَظْعَنون عنها، بل هي دار القرار، ومحطُّ الرِّحال، ومنتهىٰ السّير، وأنّ الدُّنيا بالنِّسبة إليها كما قال النّبيُّ ﷺ: **«ما الدُّنيا في الآخرة إلّا كما يجعل أحدُكم إصبعَه في اليمِّ، فلينظر بم ترجع؟»**[1]. وقال بعض التّابعين: ما الدُّنيا في الآخرة إلّا أقلُّ من ذرّةٍ واحدةٍ في جبال الدُّنيا.

ثمّ يقوم بقلبه شاهدٌ من النّار، وتوقُّدِها واضطرامها، وبُعْدِ قَعْرِها، وشدّة حرِّها، وعظيم عذاب أهلها، فيشاهدهم وقد سِيقوا إليها سُودَ الوجوه، زُرْقَ العيون، والسّلاسل والأغلال في أعناقهم، فلمّا انتهوا إليها فُتِحت في وجوههم أبوابها، فشاهدوا ذلك المنظر الفظيع، وقد تقطّعت قلوبهم حسرةً وأسفًا، ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾[الكهف: ٥٣].

فيراهم شاهدُ الإيمان وهم إليها يُدفَعون، وأتىٰ النِّداء من قِبَل الرحمن أنْ: قِفُوهم إنهم مسؤولون، ثمَّ قيل لهم: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الطور: ١٤ - ١٦].

فيراهم شاهدُ الإيمان وهم في الحميم علىٰ وجوههم يُسحَبون، وفي النّار كالحطب يُسْجَرون، ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾[الأعراف: ٤١]، فبئس اللِّحاف وبئس الفراش، وإن يستغيثوا من شدّة العطش يُغاثوا بماءٍ يشوي الوجوه، فإذا شربوه قطَّع أمعاءهم في أجوافهم، وصَهَر ما في بطونهم، شرابُهم الحميم، وطعامهم الزّقّوم، ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ

(١) أخرجه مسلم (٢٨٥٨)، من حديث مُستَورِد رضي الله عنه.

عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[فاطر: ٣٦ - ٣٧].

فإذا قام بقلب العبد هذا الشّاهد انخلع من الذُّنوب والمعاصي، واتِّباع الهوىٰ، ولبسَ ثيابَ الخوف والحذر، وأخصبَ قلبُه من مَطرِ أجفانه، وهان عليه كلُّ مصيبةٍ في غير دينه وقلبه.

وعلىٰ حسب قوّة هذا الشّاهد يكون بُعْدُه من المعاصي والمخالفات، فيُذِيب هذا الشّاهدُ من قلبه الفضلاتِ والموادَّ المهلكة، ويَنْضَحُها ثمّ يُخرِجها، فيجد القلب لذّةَ العافية وسرورها.

فيقوم به بعد ذلك شاهدٌ من الجنّة، وما أعدَّ الله لأهلها فيها ممّا لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطَرَ علىٰ قلب بشرٍ، فضلًا عمَّا وصفه لعباده علىٰ لسان رسوله من النّعيم المفصّل، الكفيل بأعلىٰ أنواع اللّذّة، من المطاعم والمشارب، والملابس والصُّور، والبهجة والسُّرور، فيقوم بقلبه شاهدُ دارٍ قد جعل النّعيم المقيم الدّائم بحذافيره فيها، ترابُها المِسك، وحصباؤها الدُّرُّ، وبناؤها لَبِنُ الذّهب والفضّة وقَصَبُ اللُّؤلؤ، وشرابها أحلىٰ من العسل، وأطيب رائحةً من المسك، وأبرد من الكافور، وألذُّ من الزّنجبيل، ونساؤها لو برزَ وجهُ إحداهنّ في هذه الدُّنيا لغلبَ علىٰ ضوء الشّمس، ولباسهم الحرير من السُّندس والإستبرق، وخَدَمُهم وِلدانٌ كاللُّؤلؤ المنثور، وفاكهتهم دائمةٌ، لا مقطوعةٌ ولا ممنوعةٌ، وغذاؤهم لحمُ طيرٍ ممَّا يشتهون، وشرابهم عليه خمرةٌ لا فيها غَوْلٌ ولا هم عنها يُنزَفُون، وخضرتهم فاكهةٌ ممَّا يتخيّرون، ومشاهدهم حورٌ عِينٍ كأمثال اللُّؤلؤ المكنون، فهم علىٰ الأرائك متّكئون، وفي تلك الرِّياض يُحبَرون، وفيها ما تشتهي

الأنفس وتلذُّ الأعين وهم فيها خالدون.

فإذا انضمَّ إلىٰ هذا الشّاهد شاهدُ يومِ المزيد، والنظر إلىٰ وجه الربِّ جلّ جلاله، وسماعِ كلامه منه بلا واسطةٍ، كما قال ﷺ: «**بَيْنا أهل الجنّة في نعيمهم إذ سطَعَ لهم نورٌ، فرفعوا رؤوسهم، فإذا الرّبُّ تبارك وتعالىٰ قد أشرفَ عليهم من فوقهم، وقال: يا أهل الجنّة، سلامٌ عليكم**. ثمَّ قرأ قوله: ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾[يس: ٥٨]، **ثمَّ يتوارىٰ عنهم، وتبقىٰ رحمته وبركته في ديارهم**»[1].

فإذا انضمّ هذا الشّاهد إلىٰ الشاهد الذي قبله فهناك يسير القلب إلىٰ ربِّه أسرعَ من سيرِ الرِّياح من مَهابِّها، فلا يلتفت في طريقه يمينًا ولا شمالًا.

هذا، وفوق ذلك شاهدٌ آخر تضمحلُّ فيه هذه الشّواهد، ويغيب العبد به عنها كلِّها، وهو شاهد جلالِ الرّبِّ تعالىٰ وجمالِه وكماله، وعزِّه وسلطانه، وقيُّوميّته وعلوِّه فوق عرشه، وتكلُّمِه بكتبه وكلماتِ تكوينه، وخطابه لملائكته وأنبيائه.

فإذا شاهدَ بقلبه قيُّومًا قاهرًا فوقَ عباده، مستويًا علىٰ عرشه، منفردًا بتدبير مملكته، آمرًا ناهيًا، مرسلًا رسلَه، ومُنزِلًا كتبَه، يرضىٰ ويغضب، ويُثيب ويعاقب، ويعطي ويمنع، ويُعِزُّ ويُذِلُّ، ويحبُّ ويبغض، يرحم إذا اسْتُرحِم، ويغفر إذا استُغْفِر، ويُعطي إذا سُئل، ويجيب إذا دُعي، ويُقِيل إذا استُقِيل، أكبرُ من كلِّ شيءٍ، وأعظمُ من كلِّ شيءٍ، وأعزُّ من كلِّ شيءٍ، وأقدرُ من كلِّ شيءٍ، وأعلمُ من كلِّ شيءٍ، وأحكمُ من كلِّ شيءٍ، فلو كانت قوىٰ الخلائق كلِّهم علىٰ واحدٍ منهم، ثمّ كانوا كلُّهم علىٰ تلك القوَّة، ثمّ نُسِبَتْ تلك القوىٰ إلىٰ قوَّتِه تعالىٰ لكانت أقلَّ من قوَّة البعوضة بالنِّسبة إلىٰ قوَّة الأسد. ولو قُدِّر جمالُ الخلق كلُّهم علىٰ واحدٍ منهم، ثمَّ كانوا كلُّهم بذلك الجمال، ثمّ نُسِب إلىٰ جمال الرّبِّ تعالىٰ لكان دونَ

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٨٤)، من حديث جابر بن عبد الله ﷺ، وفي إسناده الفضل بن عيسىٰ الرقاشي متروك.

سِراجٍ ضعيفٍ بالنِّسبة إلىٰ عين الشّمس. ولو كان علمُ الأوّلين والآخرين علىٰ رجلٍ منهم، ثمَّ كان كلُّ الخلق علىٰ ذلك، ثمّ نُسِب إلىٰ علم الربِّ تعالىٰ لكان كنَقْرةِ عصفورٍ من البحر.

وهكذا سائر صفاته، كسمعه وبصره وسائر نعوت كماله، فإنَّه يسمع ضجيجَ الأصوات باختلاف اللُّغات علىٰ تفنُّن الحاجات، فلا يَشْغَلُه سمعٌ عن سمعٍ، ولا تُغلِّطه المسائل، ولا يَتبرَّمُ بإلحاح المُلِحِّين، سواءٌ عنده من أسرَّ القولَ ومن جهر به، فالسِّرُّ عنده علانيةٌ، والغيب عنده شهادةٌ، يرىٰ دبيبَ النَّملة السَّوداء علىٰ الصخرة الصمَّاء في اللّيلة الظّلماء، ويرىٰ عُروقَ نِيَاطِها ومجاريَ القُوتِ في أعضائها، يضع السّماوات علىٰ إصبعٍ من أصابع يده، والأرض علىٰ إصبعٍ، والجبالَ علىٰ إصبعٍ، والشّجر علىٰ إصبعٍ، والماء علىٰ إصبعٍ، ويقبض سماواتِه بإحدىٰ يديه، والأرضين باليد الأخرىٰ، والسّماوات السّبع في كفِّه كخَرْدلةٍ في كفِّ العبد. ولو أنّ الخلق كلَّهم من أوّلهم إلىٰ آخرهم قاموا صفًّا واحدًا ما أحاطوا بالله ﷻ، لو كَشَفَ الحجابَ عن وجهه لأحرقَتْ سُبُحاتُه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه.

فإذا قام بقلب العبد هذا الشاهد اضمحلَّتْ فيه الشّواهد المتقدِّمة من غير أن تُعْدَم، بل تصير الغلبة والقهر لهذا الشّاهد، وتندرج فيه الشّواهد كلُّها، ومن هذا شاهدُه، فله سلوكٌ وسيرٌ خاصٌّ، ليس لغيره ممّن هو عن هذا في غفلةٍ أو معرفةٍ مجملةٍ.

فصاحبُ هذا الشّاهد سائرٌ إلىٰ الله في يقظته ومنامه، وحركته وسكونه، وفطرِه وصيامه، له شأنٌ وللنّاس شأنٌ، هو في وادٍ وهم في وادٍ.

خليليَّ لا واللهِ ما أنا منكما ... إذا عَلَمٌ من آلِ ليلىٰ بَدَا ليا[1]

والمقصود: أنّ العيان والكشف والمشاهدة في هذه الدّار إنَّما يقع علىٰ

(١) البيت للمجنون في «ديوانه» (ص٢٩٨).

الشّواهد والأمثلة العلميَّة، وهو المثل الأعلىٰ الذي ذكره سبحانه في ثلاثة مواضع من كتابه: في سورة النّحل [٦٠] والرُّوم [٢٧] وسورة الشُّورىٰ [١١]، وهو ما يقوم بقلوب عابديه ومحبِّيه والمنيبين إليه من هذا الشّاهد، وهو الباعث لهم علىٰ العبادة والمحبّة والخشية والإنابة، وتفاوتُهم فيه لا ينحصر طرفاه، كلٌّ منهم له مقامٌ معلومٌ لا يتعدّاه. وأعظمُ النّاس حظًّا في ذلك معترفٌ بأنّه لا يُحصِي ثناءً عليه سبحانه، وأنّه فوقَ ما يُثنِي عليه المُثنُون، وفوق ما يَحْمَدُه به الحامدون.

وما بلغَ المُهْدُونَ نحوَك مِدحةً ... وإن أَطْنبوا إلَّا الذي فيك أعظمُ

لك الحمدُ كلُّ الحمدِ لا مبدأٌ له ... ولا مُنتهىٰ والله بالحمد أعلمُ (١)

وطهارة القلب ونزاهتُه من الأوصاف المذمومة والإراداتِ السُّفليّة، وخلوُّه وتفريغُه من التّعلُّق بغيرِ الله سبحانه، هو كرسيُّ هذا الشّاهد الذي يجلس عليه، ومقعدُه الذي يتمكَّنُ فيه. فحرامٌ علىٰ قلبٍ متلوِّثٍ بالخبائث والأخلاق والصِّفات الذّميمة متعلِّقٍ بالمراداتِ السّافلة= أن يقوم به هذا الشّاهد أو يكون من أهله.

نَزِّهْ فؤادَك عن سِوانا وَائتِنا ... فجَنابُنا حِلٌّ لكلِّ مُنزِّهِ

والصَّبرُ طِلَّسمٌ لكنزِ لقائنا ... مَن حَلَّ ذا الطِّلَّسمَ فازَ بكنزِهِ

إذا طلعتْ شمسُ التّوحيد، وباشرت حرارتُها الأرواح، ونورُها البصائر= تجلَّتْ بها ظلمات النّفس والطّبع، وتحرّكت بها الروحُ في طلب من ليس كمثله شيءٌ، فسافر القلب في بيداء الأمر، ونزل منازلَ العبوديّة منزلًا منزلًا، فهو ينتقل من عبادةٍ إلىٰ عبادةٍ، مقيمًا علىٰ معبودٍ واحدٍ، فلا تزال شواهد الصِّفات قائمةً بقلبه، تُوقِظه إذا رقد، وتُذَكِّره إذا غَفَل، وتَحْدُو به إذا سار، وتُقِيمه إذا قعد.

---

(١) أولهما بقافية (أفضلُ) من قصيدة للخنساء في «ديوانها» (ص٣٢٠)، ونُسب لغيرها، ولعل المصنف ضمَّنه شعره بعد تبديل القافية.

إن قام بقلبه شاهدٌ من الرُّبوبيّة والقيُّوميّة: رأىٰ أنَّ الأمر كلّه لله، ليس لأحدٍ معه من الأمر شيءٌ، ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٢- ٣]، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[الزمر: ٣٨]، ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٨٥ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٨٧ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾[المؤمنون: ٨٤ - ٨٩].

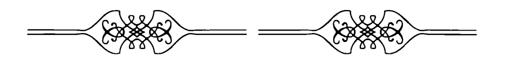
وإن قام بقلبه شاهدٌ من الإلهيَّة: رأىٰ في ذلك الشاهدِ الأمرَ والنّهيَ، والنُّبوّاتِ والكتبَ والشَّرائع، والمحبّة والرِّضا، والكراهة والبغض، والثّواب والعقاب، وشاهدَ الأمرَ نازلًا ممّن هو مستوٍ علىٰ عرشه، وأعمال العباد صاعدةٌ إليه معروضةٌ عليه، يَجزِي بالإحسان منها في هذه الدّار وفي العقبىٰ نضرةً وسرورًا، ويَقْدَمُ إلىٰ ما لم يكن علىٰ أمره وشرْعِه منها فيجعله هباءً منثورًا.

وإن قام بقلبه شاهدٌ من الرّحمة: رأىٰ الوجود كلّه قائمًا بهذه الصِّفة، قد وَسِعَ مَن هي صفته كلَّ شيءٍ رحمةً وعلمًا، فانتهتْ رحمته إلىٰ حيث انتهىٰ

علمه، فاستوىٰ علىٰ عرشه برحمته، يَسَعُ كلَّ شيءٍ، كما وسِعَ عرشُه كلَّ شيءٍ.

وإن قام بقلبه شاهدُ العزّة والكبرياء والعظمة والجبروت: فله شأنٌ آخر.

وهكذا جميعُ شواهد الصِّفات، وما ذكرناه أدنىٰ تنبيهٍ عليها، فالكشف والعيان والمشاهدة لا تتجاوز هذه الشّواهدَ البتّةَ.



فصل

قال صاحب «المنازل»[1]: (باب الحياة. قال الله تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾[الأنعام: ١٢٢]).

استشهاده بهذه الآية في هذا الباب ظاهرٌ جدًّا، فإنّ المراد بها: من كان ميِّتَ القلب بعدمِ روحِ العلم والهدىٰ والإيمان، فأحياه الرّبُّ تعالىٰ بروحٍ أخرىٰ غير الرُّوح التي أحيا بها بدنه، وهي روحُ معرفته وتوحيده ومحبّته وعبادته وحدَه لا شريك له؛ إذ لا حياة للرُّوح إلّا بذلك، وإلّا فهي في جملة الأموات، ولهذا وصفَ الله تعالىٰ من عَدِمَ ذلك بالموت، فقال: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾، وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾[النمل: ٨٠].

وسَمَّىٰ وحيه روحًا، لِما يحصُل به من حياة القلوب والأرواح، فقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ﴾[الشورىٰ: ٥٢]. فأخبر أنّه روحٌ تحصل به الحياة، ونورٌ تحصُل به الإضاءة. وقال تعالىٰ: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾[النحل: ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾[غافر: ١٥].

فبالوحي حياةُ الرُّوح، كما أنّ بالرُّوحِ حياة البدن، ولهذا من فقد هذا الرُّوح فقدَ الحياةَ النّافعة في الدُّنيا والآخرة. أمَّا في الدُّنيا فحياته حياة البهائم، وله المعيشة الضَّنْك، وأمّا في الآخرة فله جهنَّم لا يموت فيها ولا يحيا.

---

(١) (ص٩٥).

وقد جعل تعالىٰ الحياةَ الطّيِّبة لأهل معرفته ومحبّته وعبادته، فقال تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[النحل: ٩٧]. وقد فُسِّرت الحياة الطِّيِّبة بالقناعة والرِّضا والرِّزق الحسن وغير ذلك[١]. والصَّواب: أنَّها حياةُ القلب ونعيمه وبهجته وسروره بالإيمان ومعرفة الله، ومحبَّته، والإنابة إليه، والتّوكُّل عليه، فإنّه لا حياةَ أطيب من حياة صاحبها، ولا نعيمَ فوق نعيمه إلّا نعيم الجنّة، كما كان بعض العارفين[٢] يقول: إنّه لتمرُّ بي أوقاتٌ أقول فيها إن كان أهل الجنّة في مثل هذا إنّهم لفي عيشٍ طيِّبٍ. وقال غيره[٣]: إنّه لَتَمرُّ بالقلب أوقاتٌ يَرقُص فيها طربًا.

وإذا كانت حياة القلب حياةً طيِّبةً تبعتْه حياة الجوارح، فإنَّه مَلِكها، ولهذا جعل سبحانه المعيشةَ الضَّنْك لمن أعرض عن ذكره، وهي عكس الحياة الطَّيِّبة.

وهذه الحياة الطِّيِّبة تكون في الدُّور الثّلاثة، أعني: دار الدُّنيا، ودار البرزخ، ودار القرار. والمعيشة الضَّنْك أيضًا في الدُّور الثلاثة، فالأبرار في نعيم هاهنا وهناك، والفجَّار في الجحيم هاهنا وهناك، قال تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ﴾[النحل: ٣٠]، وقال: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾[هود: ٣].

فذِكْر الله ومحبَّته وطاعته والإقبالُ عليه ضامنٌ لأطيبِ الحياة في الدُّنيا والآخرة، والإعراضُ والغفلة عنه ومعصيته كفيلٌ بالحياة المنغِّصة والمعيشةِ الضَّنْك في الدُّنيا والآخرة.

---

(١) انظر: «زاد المسير» (٤/ ٤٨٨، ٤٨٩).

(٢) هو أبو سليمان المغربي، وقد سبق.

(٣) روي عن أبي سليمان الداراني نحوه، كما في «تاريخ دمشق» (٣٤/ ١٤٧).

فصل

مراتب الحياة

الحياة الخاصَّة التي يتكلَّم عليها القومُ دون الحياة العامَّة المشتركة بين الحيوان كلِّه، بل بين الحيوان والنّبات. وللحياة مراتب، ونحن نشير إليها:

المرتبة الأولىٰ: حياة الأرض بالنبات، قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾[النحل: ٦٥]، وقال في الماء: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾[ق: ١١]، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ۝٤٨ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾[الفرقان: ٤٨]، وجعل هذه الحياة دليلًا علىٰ الحياة يوم المعاد. وهذه حياةٌ حقيقةٌ في هذه المرتبة، مستعملةٌ في كلِّ لغةٍ، جاريةٌ علىٰ ألسن الخاصَّة والعامَّة، قال الشّاعر يمدح عبد المطّلب:

بشَـيْبَةِ الحمـدِ أحيـا الله بلدتَنـا ... لمّـا فقدْنـا الحَيـا واجْلَـوَّذ المطرُ[(١)]

وهذا أكثر من أن تُذكَر شواهده.

المرتبة الثانية: حياة النُّموِّ والاغتذاء. وهذه الحياة مشتركةٌ بين النّبات والحيوان الذي يعيش بالغذاء، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾[الأنبياء: ٣٠].

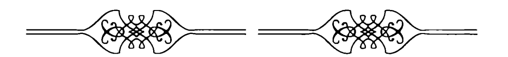
وقد اختلف الفقهاء في الشُّعور: هل تحلُّها الحياة؟ علىٰ قولين[(٢)]، والصَّواب: أنّها تحلُّها حياة النُّموِّ والاغتذاء، دون حياة الحسِّ والحركة، ولهذا لا تنجس بالموت، إذ لو أوجب لها فراقُ النُّموِّ والاغتذاء النّجاسةَ لنجس الزّرع والشّجر بيُبْسِه، لمفارقة هذه الحياة له، ولهذا كان الجمهور علىٰ أنّ الشُّعور لا تنجس بالموت.

(١) البيت ضمن أبيات لِرُقَيقة بنت أبي صيفي مع خبر في «طبقات ابن سعد» (١/ ٨٩، ٩٠)، و«المنمق» لابن حبيب (ص١٤٧)، واجلوَّذ المطر: ذهب وامتدَّ وقتُ تأخُّره وانقطاعه.

(٢) انظر: «الهداية» للمرغيناني (١/ ٢١)، و«المنتقىٰ» للباجي (٣/ ١٣٧)، و«المجموع للنووي» (١/ ٢٧٥)، و«الإنصاف» (١/ ٩٢)، و«بداية المجتهد» (١/ ٦٨).

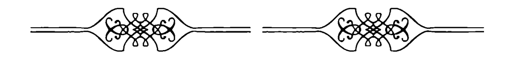
فصل

المرتبة الثّالثة: حياة الحيوان المتغذِّي بقدرٍ زائدٍ علىٰ نموِّه واغتذائه، وهو إحساسه وحركته، ولهذا يألم بورود الكيفيَّات المؤلمة عليه وبتفرُّقِ الاتِّصال ونحو ذلك. وهذه الحياة فوق حياة النّبات. وهذه الحياة تقوىٰ وتضعُف في الحيوان الواحد بحسب أحواله، فحياته بعد الولادة أكملُ منها وهو جنينٌ في بطن أمِّه، وحياته وهو صحيحٌ مُعافًىٰ أكملُ منها وهو سقيمٌ عليلٌ. فنفسُ هذه الحياة تتفاوت تفاوتًا عظيمًا في محالِّها، فحياة الحيَّة أكملُ من حياة البعوض، ومن قال غير هذا فقد كابر الحسَّ والعقل.



فصل

المرتبة الرّابعة: حياة الحيوان الذي لا يتغذَّىٰ بالطّعام والشّراب، كحياة الملائكة، وحياة الأرواح بعد مفارقتها الأبدانَ، فإنَّ حياتها أكملُ من حياة الحيوان المتغذِّي، ولهذا لا يَلحقُها كلالٌ ولا فتورٌ، ولا نومٌ ولا إعياءٌ، قال تعالىٰ: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾[الأنبياء: ٢٠]. وكذا الأرواح إذا تخلَّصتْ من هذه الأبدان وتجرَّدتْ صارتْ لها حياةٌ أخرىٰ أكملُ من هذه إن كانت سعيدةً، وإن كانت شقيَّةً كانت عاملةً ناصبةً في العذاب.



فصل

المرتبة الخامسة: حياة العلم من موت الجهل، فإنَّ الجهل موتٌ لأصحابه، كما قيل:

وفي الجهل قبلَ الموت موتٌ لأهله ... وأجسامُهم قبلَ القبورِ قبورُ

وأرواحُهم في وحشةٍ من جُسومِهم ... وليس لهم حتَّىٰ النُّشور نُشورُ

فالجاهل ميِّت القلب والرُّوح وإن كان حيَّ البدن، فجسدُه قبرٌ يمشي به علىٰ وجه الأرض، قال تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[يس: ٦٩ - ٧٠]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾[النمل: ٨٠]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢]. شَبَّههم في موت قلوبهم بأهل القبور، فإنَّهم قد ماتت أرواحهم، وصارت أجسامهم قبورًا لها، فكما لا يسمع أصحاب القبور لا يسمع هؤلاء، وإذا كانت الحياة بين الحسِّ والحركة وملزومهما، فهذه القلوب لمَّا لم تُحِسَّ بالعلم والإيمان ولم تتحرّك له= كانت ميتةً حقيقةً، وليس هذا تشبيهًا بموت البدن، بل ذلك موت القلب والرُّوح.

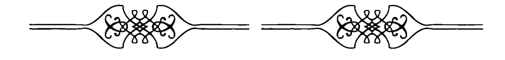
وقد ذكر الإمام أحمد في كتاب «الزُّهد»[1] من كلام لقمان، أنَّه قال لابنه: جالسِ العلماءَ، وزَاحِمْهم بركبتيك، فإنّ الله يُحيِي القلوبَ بنور الحكمة، كما يُحيِي الأرضَ بوابلِ القَطْر.

---

(١) برقم (٥٥٩).

وقال معاذ بن جبلٍ: تعلَّموا العلمَ، فإنَّ تعلُّمه لله خشيةٌ، وطلبه عبادةٌ، ومذاكرتهُ تسبيحٌ، والبحث عنه جهادٌ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقةٌ، وبذْله لأهله قربةٌ؛ لأنَّه مَعالمُ الحلال والحرام، ومنار سبيل أهل الجنَّة، وهو الأنيس في الوحشة، والصَّاحب في الغربة، والمحدِّث في الخلوة، والدليل علىٰ السرَّاء والضرَّاء، والسِّلاح علىٰ الأعداء، والزَّين عند الأخلَّاء، يرفع الله به أقوامًا، فيجعلهم في الخير قادةً، فإنَّه تُقتصُّ آثارُهم، ويُقتدىٰ بفعالهم، ويُنتهىٰ إلىٰ رأيهم، ترغب الملائكة في خُلَّتهم، وبأجنحتها تمسحُهم، يستغفر لهم كلُّ رَطْبٍ ويابسٍ، وحيتانُ البحر وهَوامُّه، وسباع البَرِّ وأنعامه؛ لأنَّ العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظُّلَم، يبلُغ العبد بالعلم منازلَ الأخيار والدرجاتِ العلىٰ في الدُّنيا والآخرة، التّفكُّرُ فيه يَعدِلُ الصِّيام، ومدارسته تَعدِلُ القيام، به تُوصَل الأرحام، وبه يُعرَف الحلال من الحرام، وهو إمام العمل، والعمل تابعُه، يُلْهَمُه السُّعداء، ويُحْرَمُه الأشقياء. رواه الطبرانيُّ وابن عبد البرِّ وغيرهما[1]، وقد روي مرفوعًا إلىٰ النبيِّ ﷺ[2]، والموقوف أصحُّ.

والمقصود قوله: «لأنَّ العلم حياة القلوب من الجهل»، فالقلب ميِّتٌ، وحياته بالعلم والإيمان.



(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٣٨)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١/ ٢٤٠)، ولم أجده في معاجم الطبراني الثلاثة.

(٢) رواه مرفوعًا ابن عبد البر في «الجامع» (١/ ٢٣٩)، وقال: «هو حديث حسن جدًّا، ولكن ليس له إسناد قوي». وانظر: «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٣٧).

فصل

المرتبة السّادسة: حياة الإرادة والهمَّة والمحبة، فإنَّ فتور الهمَّة وضعف الإرادة والطّلب من ضعف حياة القلب، وكلّما كان القلب أتمَّ حياةً كانت همَّته أعلىٰ، وإرادته ومحبَّته أقوىٰ، فإنّ الإرادة والمحبَّة تتبع الشُّعور بالمراد المحبوب، وسلامة القلب من الآفة التي تحول بينه وبين طلبه وإرادته، فضعفُ الطّلب وفتورُ الهمَّة إمَّا من نقصان الشُّعور والإحساس، وإمّا من وجود الآفة المُضعِفة للحياة، فقوَّةُ الشُّعور وقوَّةُ الإرادة دليلٌ علىٰ قوَّة الحياة، وضعفهما دليلٌ علىٰ ضعفها. وكما أنَّ علوَّ الهمَّة وصدق الإرادة والطّلب من كمال الحياة، فهو سببٌ إلىٰ حصول أكمل الحياة وأطيبها، فإنّ الحياة الطّيِّبة إنّما تُنال بالهمَّة العالية، والمحبَّة الصادقة، والإرادة الخالصة، فعلىٰ قدْرِ ذلك تكون الحياة الطّيِّبة. وأخسُّ النّاس حياةً أخسُّهم همَّةً وأضعفُهم محبَّةً وطلبًا، وحياة البهائم خيرٌ من حياته، كما قيل[1]:

نهارُك يا مغرورُ لهْوٌ وغفلةٌ ... وليلك نومٌ والرَّدَىٰ لك لازمُ
تُسَرُّ بما يَفنىٰ وتَفْرَحُ بالمُنىٰ ... كما غُرَّ باللّذّاتِ في النّوم حالمُ
وتكدَحُ فيما سوفَ تَسخَطُ غِبَّه ... كذلك في الدُّنيا تعيش البهائمُ

والمقصود: أنّ حياة القلب بالعلم والإرادة والهمَّة، والنّاس إذا شاهدوا ذلك من الرجل قالوا: هو حيُّ القلب. وحياة القلب بدوامِ الذِّكر وتركِ الذُّنوب، كما قال عبد الله بن المبارك رحمة الله ورضوانه عليه[2]:

---

(١) الأبيات لعمر بن عبد العزيز رحمه الله في «عيون الأخبار» (٢/ ٣٠٩)، و«المجالسة» للدينوري (٢/ ٤٢٤).

(٢) «ديوانه» (ص٢٦).

رأيتُ الذُّنوبَ تُميتُ القلوب وقد يُورِثُ الذُّلَّ إدمانُها
وتركُ الذُّنوبِ حياةُ القلوب وخيرٌ لنفسكَ عِصيانُها

وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيميَّة يقول: من واظبَ علىٰ «يا حيُّ يا قيُّوم، لا إله إلّا أنت» كلّ يومٍ بين سنَّة الفجر وصلاة الفجر أربعين مرَّةً أحيا اللهُ قلبه[(١)].

وكما أنَّ الله سبحانه جعل حياة البدن بالطعام والشراب، فحياة القلب بدوام الذِّكر، والإنابة إلىٰ الله، وترك الذُّنوب. والغفلةُ الجاثمة علىٰ القلب والتّعلُّق بالرّذائل والشّهوات المنقطعة عن قُربٍ تُضعِف هذه الحياة، ولا يزال الضّعف يتوالىٰ عليه حتّىٰ يموت، وعلامةُ موته: أنّه لا يعرف معروفًا ولا يُنكِر منكرًا، كما قال عبد الله بن مسعودٍ: أتدرون مَن ميِّتُ الأحياء الذي قيل فيه:

ليس مَن ماتَ فاستراحَ بميْتٍ إنّما الميْتُ ميِّتُ الأحياءِ

قالوا: ومن هو؟ قال: الذي لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا[(٢)].

والرجل هو الذي يخاف موتَ قلبه لا موتَ بدنه، إذ أكثر هذا الخلق يخافون موت أبدانهم، ولا يبالون بموت قلوبهم، ولا يعرفون من الحياة إلّا الحياة الطّبيعيّة، وذلك من موت القلب والرُّوح، فإنّ هذه الحياة الطبيعيّة شبيهةٌ بالظِّلِّ الزائل، والنبات السريع الجفوف، والمنام الذي يتخيَّل رائيه أنَّه حقيقةٌ، فإذا استيقظ عَرف أنّه كان خيالًا. كما قال عمر بن الخطّاب: لو أنّ الحياة الدُّنيا من أوَّلها إلىٰ آخرها أُوتِيَها رجلٌ واحدٌ، ثمّ جاءه الموت= لكان بمنزلة من رأىٰ

---

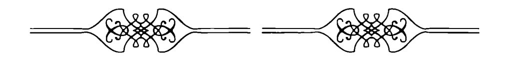
(١) ومما ورد عن شيخ الإسلام فيه: أنه كتب في رسالته إلىٰ الملك المنصور حسام الدين لاجين: «... فإذا ناجىٰ ربَّه في السحر واستغاث به وقال: (يا حي يا قيوم، لا إله إلا أنت، برحمتك أستغيث) أعطاه الله من المُكنة ما لا يعلمه إلا الله». «جامع المسائل» (٧/ ٤٤٤).

(٢) رُوي عن حذيفة بن اليمان ﵁، أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٠١٨٨)، وعزاه شيخ الإسلام في «الاستقامة» (٢/ ٢١٢) إلىٰ ابن مسعود كما هنا، والبيت لعديّ بن الرعلاء الشاعر الجاهلي من قصيدة له في «الأصمعيات» (ص١٧١).

في منامه ما يَسُرُّه ثمَّ استيقظ، فإذا ليس في يده شيء.

وقد قيل: إنّ الموت موتانِ: موتٌ إراديٌّ، وموتٌ طبيعيٌّ[1]، فمن أمات نفسَه موتًا إراديًّا كان موته الطّبيعيُّ حياةً له. ومعنىٰ هذا أنّ الموت الإراديّ هو قمْعُ الشهوات المُردِية، وإخمادُ نيرانها المُحرِقة، وتسكينُ هوائجها المُتلِفة، فحينئذٍ يتفرّغ القلب والرُّوح للتّفكُّر فيما فيه كمالُ العبد ومعرفتُه والاشتغالُ به، ويرىٰ حينئذٍ أنّ إيثار الظِّلِّ الزائل عن قريبٍ علىٰ العيش اللّذيذ الدّائم أخسرُ الخسران. فأمّا إذا كانت الشّهوات واقدةً، واللذّات مُؤثَرةً، والعوائد غالبةً، والطّبيعة حاكمةً= فالقلب حينئذٍ إمّا أن يكون أسيرًا ذليلًا، أو مهزومًا مُخرَجًا عن وطنه ومستقرّه الذي لا قرار له إلّا فيه، أو قتيلًا ميّتًا، ما لِجُرحٍ به إيلامٌ. وأحسن أحواله أن يكون في حربٍ، يُدَال فيها مرَّةً، ويُدَال عليه مرَّةً. فإذا مات العبدُ موته الطبيعيّ كانت بعده حياةُ روحه بتلك العلوم النّافعة، والأعمال الصّالحة، والأحوال الفاضلة، التي حصلت له بإماتة نفسه، فتكون حياته هاهنا علىٰ حسب موته الإراديِّ في هذه الدّار.

وهذا موضعٌ لا يفهمه إلّا أَلِبَّاء النّاس وعقلاؤهم، ولا يعملُ بمقتضاه إلّا أهلُ الهِمم العليَّة والنُّفوسُ الزّكيَّة الأبيَّة.



(١) انظر: «تهذيب الأخلاق» لمسكويه (ص٢١٩).

فصل

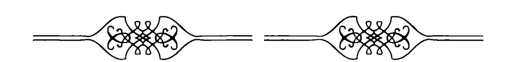
المرتبة السّابعة من مراتب الحياة: حياة الأخلاق والصِّفات المحمودة، التي هي هيئاتٌ راسخةٌ للموصوف بها، فهو لا يتكلَّف التّرقِّيَ في درجات الكمال، ولا تَشُقُّ عليه، لاقتضاء أخلاقه وصفاته لذلك، بحيث لو فارقه لفارقَ ما هو من طبيعته وسجيّته. فحياةُ من قد طُبِع علىٰ الحياء والعفّة والجود والسّخاء والمروءة والصِّدق والوفاء ونحوها أتمُّ من حياة من يَقْهَر نفسَه ويُغالِب طبعَه حتّىٰ يكون كذلك، فإنّ هذا بمنزلة من يُعارِضه أسباب الردىٰ وهو يعالجها ويَقمَعُها بأضدادها، وذلك بمنزلة من قد عُوفِيَ من ذلك.

وكلّما كانت هذه الأخلاق في صاحبها أكملَ كانت حياته أقوىٰ وأتمَّ، ولهذا كان خُلق الحياء مشتقًّا من الحياة اسمًا وحقيقةً، فأكمل الناس حياةً أكملُهم حياءً، ونقصان حياء المرء من نقصان حياته، فإنَّ الرُّوح إذا ماتت لم تحسَّ بما يُؤلِمها من القبائح، فلا تستحيي منها، وإذا كانت صحيحة الحياة أحسَّتْ بذلك فاستحيتْ منه. وكذلك سائر الأخلاق الفاضلة والصِّفات الممدوحة تابعةٌ لقوَّة الحياة، وضدُّها من نقصان الحياة، ولهذا كانت حياةُ الشُّجاع أكملَ من حياة الجبان، وحياةُ السخيِّ أكمل من حياة البخيل، وحياةُ الفَطِن الذّكيِّ أكمل من حياة الفَدْم البليد. ولهذا لمَّا كانت الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أكملَ النّاس حياةً حتّىٰ إنّ قوَّة حياتهم منعَ الأرضَ أن تُبلِي أجسادهم= كانوا أكملَ الناس في هذه الأخلاق، ثمَّ الأمثل فالأمثل من أتباعهم.

فانظر الآن إلىٰ حياة ﴿حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾[القلم: ١٠- ١٣]، وحياة جوادٍ شجاعٍ بَرٍّ عادلٍ

عفيفٍ محسنٍ، تَجدِ الأوّلَ ميِّتًا بالنِّسبة إلىٰ الثاني، ولله درُّ القائل:

وما للمرء خيرٌ في حياةٍ ... إذا ما عُدَّ من سَقَطِ المتاعِ[1]



(١) البيت لقطري بن الفجاءة من مقطوعة له في «الحماسة» (١/ ١٦١).

فصل

المرتبة الثّامنة من مراتب الحياة: حياة الفرح والسُّرور وقرَّة العين، وهذه الحياة إنَّما تكون بعد الظّفر بالمطلوب الذي تَقَرُّ به عينُ طالبه، فلا حياة نافعةً له بدونه، وحول هذه الحياة يُدندِن النّاس كلُّهم، وكلُّهم قد أخطأ طريقَها، وسلك طرقًا لا تُفضِي إليها، بل تقطعه عنها، إلّا أقلَّ القليل. فدارَ طلبُ الكلِّ حول هذه الحياة، وحُرِمَها أكثرُهم.

وسبب حرمانها: ضعف العقل والتّمييز والبصيرة، وضعف الهمَّة والإرادة، فإنَّ مادَّتها بصيرةٌ وقَّادةٌ، وهمّةٌ نَفَّاذة، والبصيرة كالبصر تكون عمياءَ وعوراءَ وعَمْشاء ورَمْدَاءَ، وتامّةَ النُّور والضِّياء، وهذه الآفات قد تكون لها بالخِلقة في الأصل، وقد تحدُثُ فيها بالعوارض الكسبيّة.

والمقصود: أنّ هذه المرتبة من مراتب الحياة هي أعلىٰ مراتبها، ولكن كيف يصل إليها مَن عقلُه مَسْبِيٌّ في بلاد الشهوات، وأملُه موقوفٌ علىٰ اجتناء اللّذّات، وسيرته جاريةٌ علىٰ أسوأ العادات، ودينه مستهلكٌ بالمعاصي والمخالفات، وهمّته واقفةٌ مع السُّفلِيّات، وعقيدته غير متلقّاةٍ من مشكاة النُّبوّات؟!

فهو في الشهوات منغمسٌ، وفي الشُّبهات منتكسٌ، وعن النّاصح معرضٌ، وعلىٰ المرشد معترضٌ، وعن السُّرَىٰ نائمٌ، وقلبه في كلِّ وادٍ هائمٌ. فلو أنّه تجرَّد من نفسه، ورغِبَ عن مشاركة أبناء جنسه، وخرج من ضيق الجهل إلىٰ فضاء العلم، ومن سجْنِ الهوىٰ إلىٰ ساحة الهدىٰ، ومن نجاسة النّفس إلىٰ طهارة القدس= لرأىٰ الإلْفَ الذي نشأ بنشأته، وزاد بزيادته، وقوي بقوَّته، وشَرُفَ عند نفسه وأبناء جنسه بحصوله: قذًىٰ في عين بصيرته، وشَجًا في حلق إيمانه، ومرضًا مترامِيًا إلىٰ هلاكه.

فإن قلت: قد أشرتَ إلىٰ حياةٍ غير معهودةٍ بين أموات الأحياء، فهل يمكنك وصفُ طريقها، لأصِلَ إلىٰ شيءٍ من ذوقها؟ فقد بان لي أنَّ ما نحن فيه من الحياة حياةٌ بهيميّةٌ، ربَّما زادت علينا فيه البهائم بخلوِّها من المنكِّدات والمنغِّصات وسلامةِ العاقبة.

قلت: لعمر الله إنّ اشتياقَ القلب إلىٰ هذه الحياة، وطلبَ علمِها ومعرفتها= دليلٌ علىٰ حياته، وأنه ليس من جملة الأموات.

فأوّل طريقها: أن تعرف الله سبحانه، وتهتدي إليه طريقًا يُوصِلك إليه، ويَخْرِق ظلماتِ الطّبع بأشعَّة البصيرة، فيقوم بقلبه شاهدٌ من شواهد الآخرة، فينجذب إليها بكلِّيّته، ويَزْهَد في التّعلُّقات الفانية، ويَدْأَب في تصحيح التّوبة، والقيامِ بالمأمورات الظّاهرة والباطنة، وتركِ المنهيّات الظّاهرة والباطنة، ثمّ يقوم حارسًا علىٰ قلبه، فلا يسامحه بخَطْرةٍ يكرهها الله، ولا بخَطْرةِ فضولٍ لا تنفعه، فيصفو بذلك قلبه عن حديث النّفس ووساوسها، فيُفْدَىٰ من أَسْرِها ويصير طليقًا، فحينئذٍ يخلو قلبه بذكر ربِّه ومحبّته والإنابة إليه، ويخرج من بين بيوت طَبْعِه ونفسه إلىٰ فضاء الخلوة بربِّه وذكْرِه، كما قال:

وأخرجُ من بين البيوتِ لعلَّني ... أحدِّثُ عنك النّفسَ في السِّرِّ خاليًا[1]

فحينئذٍ يجتمع قلبه وخواطره وحديثُ نفسه علىٰ إرادة ربِّه، وطلبِه والشّوقِ إليه.

فإذا صدقَ في ذلك رُزِقَ محبّةَ الرسول ﷺ، واستولتْ روحانيَّته علىٰ قلبه، فجعله إمامَه، وأستاذه ومُعلِّمَه، وشيخَه وقدوتَه، كما جعله الله نبيَّه ورسولَه وهادِيَه، فيطالع سيرته ومبادئ أموره، وكيفيّة نزول الوحي عليه، ويعرف صفاتِه وأخلاقَه، وآدابَه في حركاته وسكونه، ويقظتِه ومنامه، وعبادته ومعاشرته لأهله

(١) البيت للمجنون في «ديوانه» (ص٢٩٤، ٣٠١، ٣١٤).

وأصحابه، حتّىٰ يصير كأنّه معه من بعض أصحابه.

فإذا رسخ قلبه في ذلك فُتِح عليه بفهم الوحي المنزّل عليه من ربِّه، بحيث إذا قرأ السُّورة شاهد قلبُه ماذا أُنزِلت فيه، وماذا أُريد بها، وحظّه المختصّ به منها من الصِّفات والأخلاق والأفعال المذمومة، فيجتهد في التّخلُّص منها كما يجتهد في الشِّفاء من المرض المَخُوف، ومن الصِّفات والأفعال الممدوحة، فيجتهد في تكميلها وإتمامها.

فإذا تمكَّن من ذلك انفتحَ في قلبه عينٌ أخرىٰ، يشاهد بها صفات الرّبِّ جلّ جلاله، حتّىٰ تصير لقلبه بمنزلة المرئيِّ لعينه، فيشهد علوَّ الرّبِّ سبحانه فوقَ خلقه، واستواءه علىٰ عرشه، ونزولَ الأمر من عنده بتدبير مملكته، وتكلُّمه بالوحي، وتكليمَه لعبده جبريل به، وإرسالَه إلىٰ من يشاء بما يشاء، وصعودَ الأمور إليه، وعرضَها عليه.

فيشاهد قلبُه ربًّا قاهرًا فوقَ عباده، آمرًا ناهيًا، باعثًا لرسله، مُنزِلًا لكتبه، معبودًا مطاعًا، لا شريكَ له، ولا مثيلَ له، ولا عدلَ له، ليس لأحدٍ معه من الأمر شيءٌ، بل الأمر كلُّه له، فيشهده سبحانه قائمًا بالملك والتّدبير، فلا حركة ولا سكون، ولا نفع ولا ضرّ، ولا عطاء ولا مَنْع، ولا قبض ولا بسط إلّا بقدرته وتدبيره، فيشهد قيامَ الكون كلِّه به، وقيامَه سبحانه بنفسه، فهو القائم بنفسه، المقيمُ لكلِّ ما سواه.

فإذا رسخَ قلبه في ذلك شهد الصِّفةَ المصحِّحة لجميع صفات الكمال، وهي الحياة التي كمالها يستلزم كمالَ السمع والبصر والقدرة والإرادة والكلام وسائر صفات الكمال، وصفةَ القيُّوميّة المصحِّحة لجميع الأفعال، فالحيُّ القيُّوم: من له صفة الكمال، وهو الفعّال لما يريد.

فإذا رسخ قلبه في ذلك فُتِح له بمشهد القرب والمعيَّة، فيشهده سبحانه

حاضرًا معه غيرَ غائبٍ، قريبًا غير بعيدٍ، مع كونه فوقَ سماواته علىٰ عرشه، بائنًا من خلقه، قائمًا بالصُّنع والتّدبير والخلق والأمر، فيحصل له مع التّعظيم والإجلال الأنسُ بهذه الصِّفة، فيأْنَس بعد أن كان مستوحشًا، ويَقوىٰ بعد أن كان ضعيفًا، ويفرح بعد أن كان حزينًا، ويجِدُ بعدَ أن كان فاقدًا. فحينئذٍ يجد طعْمَ قوله: «**ولا يزال عبدي يتقرَّبُ إليّ بالنّوافل حتّىٰ أُحبّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمْعَه الذي يسمع به، وبصَرَه الذي يبصر به، ويدَه التي يَبطِش بها، ورِجْلَه التي يمشي بها، ولئن سألني لأُعطِينّه، ولئن استعاذني لأُعِيذنَّه**»[(١)].

فأطيبُ الحياة علىٰ الإطلاق حياة هذا العبد، فإنّه محبٌّ محبوبَه، يتقرَّبُ إلىٰ ربِّه، وربُّه قريبٌ منه، قد صار له حبيبُه لفرطِ استيلائه علىٰ قلبه، ولَهَجِه بذكره، وعكوف همّته علىٰ مرضاته بمنزلة سمعه وبصره ويده ورجله، وهذه آلات إدراكِه وعمله وسعيه، فإن سمع سمع بحبيبه، وإن أبصر أبصر به، وإن بطشَ بطشَ به، وإن مشىٰ مشىٰ به.

وإن صعُبَ عليك فهمُ هذا المعنىٰ، وكونِ المحبِّ الكامل المحبّة يسمع ويبصر ويبطش ويمشي بمحبوبه وذاتُه غائبةٌ عنه= فاضرِبْ عنه صفحًا، ودَعْ هذا الشّأن لأهله.

خَلِّ الهوىٰ لأناسٍ يُعرَفون به قد كابدوا الحبَّ حتّىٰ لانَ أصعبُه[(٢)]

فإنَّ السالك إلىٰ ربِّه لا تزال همَّتُه عاكفةً علىٰ أمرين: استفراغ القلب في صدق الحبِّ، وبذل الجهد في امتثال الأمر، فلا يزال كذلك حتّىٰ يبدو علىٰ سرِّه شواهدُ معرفته، وآثارُ صفاته وأسمائه، ولكن يتواریٰ ذلك عنه أحيانًا ويبدو أحيانًا، يبدو من عين الجود، ويتواریٰ بحكم الفترة. والفَتَرات أمرٌ لازمٌ للعبد، فلكلِّ عاملٍ شرّةٌ،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢)، من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٢) البيت لأبي القاسم علي بن أفلح العبسي (ت٥٣٣) في «المنتظم» (١٠/ ٨٢).

ولكلِّ شِرّةٍ فترةٌ، فأعلاها فترة الوحي؛ وهي للأنبياء، وفترة الحال الخاصِّ عن العارفين، وفترة الهمّة للمريدين، وفترة العمل للعابدين. وفي هذه الفَتَرات أنواعٌ من الحكمة والرّحمة، والتعرُّفات الإلهيَّة، وتعريف قدر النِّعمة، وتجديد الشّوق إليها، وعَضّ النواجذِ عليها، وغير ذلك.

ولا تزال تلك الشواهد تتكرَّر وتتزايد حتّىٰ تستقرّ، وينصبغ بها قلبه، وتصير الفترة غيرَ قاطعةٍ له، بل تكون نعمةً عليه، وراحةً له، وترويحًا وتنفيسًا عنه.

فهمَّة المحبِّ إذا تعلّقت روحه بحبيبه، عاكفة علىٰ مزيد محبّته وأسباب قوَّتها، فهو يعمل علىٰ هذا، ثمَّ يترقّىٰ منه إلىٰ طلب محبَّة حبيبه له، فيعمل علىٰ حصول ذلك، ولا يعدم الطّلب الأوّل ولا يفارقه البتّةَ، بل يندرج في هذا الطّلب الثّاني، فتتعلّق همَّته بالأمرين جميعًا، فإنّه إنّما يحصُلُ له منزلةُ «**كنتُ سمعَه الذي يسمع به، وبصَرَه الذي يبصر به**» بهذا الأمر الثّاني، وهو كونه محبوبًا لحبيبه، كما قال في الحديث: «**فإذا أحببتُه كنتُ سمْعَه وبصَرَه**»، فهو يتقرّب إلىٰ ربِّه حفظًا لمحبّته له، واستدعاءً لمحبّة ربِّه له.

فحينئذٍ يَشُدُّ مِئزرَ الجِدِّ في طلب محبَّة حبيبه له بأنواع التقرُّب إليه، فقلبه للمحبَّة والإنابة والتّوكُّل والخوف والرجاء، ولسانه للذِّكر وتلاوة كلام حبيبه، وجوارحه للطاعات، فهو لا يَفتُر عن التّقرُّب.

وهذا هو السَّير المُفضِي إلىٰ هذه الغاية التي لا تُنال إلّا به، ولا يُوصَل إليها إلّا من هذا الطّريق، وحينئذٍ تَجتمعُ له في سَيْره جميعُ متفرِّقات السُّلوك من الحضور والهيبة والمراقبة ونفي الخواطر وتخلية الباطن.

فإنَّ المحبَّ يشرع أوَّلًا في التقرُّبات بالأعمال الظّاهرة، وهي ظاهر التّقرُّب. ثمّ يترقَّىٰ من ذلك إلىٰ حال التقرُّب، وهو الانجذاب إلىٰ حبيبه بكلِّيّته، بروحه

وقلبه، وعقله وبدنه. ثمّ يترقّىٰ من ذلك إلىٰ مقام الإحسان، فيعبد الله كأنّه يراه، فيتقرَّب إليه حينئذٍ بأعمال القلوب؛ من المحبَّة والإنابة والتّعظيم والإجلال والخشية، فينبعث حينئذٍ من باطنه الجودُ ببذل الرُّوحِ والموجودِ في محبّة حبيبه بلا تكلُّفٍ، فيجود بروحه ونفسِه وأنفاسِه وإراداته وأعمالِه لحبيبه حالًا لا تكلُّفًا. فإذا وجد المحبُّ ذلك فقد ظفِرَ بحال التّقرُّب وسرِّه وباطنه، وإن لم يجده فهو يتقرَّب بلسانه وبدنه وظاهره فقط، فليدُمْ علىٰ ذلك، وليتكلّف التّقرُّب بالأذكار والأعمال علىٰ الدوام، فعساه أن يَحظَىٰ بحال التقرب.

ووراء هذا التقرب الباطن أمرٌ آخر أيضًا، وهو شيءٌ لا يُعبَّر عنه بأحسنَ من عبارة أقربِ الخلق عن هذا المعنىٰ، حيث يقول حاكيًا عن ربِّه تبارك وتعالىٰ: «**من تقرَّبَ منِّي شِبْرًا تقرّبتُ منه ذراعًا، ومن تقرَّبَ منِّي ذراعًا تقرّبتُ منه باعًا، ومن أتاني يَمشي أتيتُه هَرولةً**»[1]، فيجد هذا المحبُّ في باطنه ذوقَ معنىٰ هذا الحديث ذوقًا حقيقيًّا.

فذكر من مراتب القرب ثلاثةً، ونبّه بها علىٰ ما دونها وما فوقها. فذكر تقرُّب العبد إليه بالسَّير شِبرًا، وتقرُّبه سبحانه إلىٰ العبد ذراعًا، فإذا ذاق العبد حقيقة هذا التّقرُّب انتقل منه إلىٰ تقرُّب الذِّراع، فيجد ذوق تقرُّب الرّبِّ إليه باعًا. فإذا ذاق حلاوة هذا التقرب الثّاني أسرعَ المشيَ حينئذٍ إلىٰ ربِّه، فيذوق حلاوة إتيانه إليه هرولةً. وهاهنا انتهىٰ الحديث، منبِّهًا علىٰ أنّه إذا هرولَ عبده إليه كان قربُ حبيبه منه فوق هرولة العبد إليه، فإمَّا أن يكون أمسك عن ذلك لِعظَم شأنِ هذا الجزاء، وأنه يدخل في الحدَّ الذي لم تسمع به أذنٌ، ولم يَخطُرْ علىٰ قلب بشرٍ، أو أحاله علىٰ المراتب المتقدِّمة، فكأنّه قيل: وقِسْ علىٰ هذا، فعلىٰ قدر ما تبذلُ منك متقرِّبًا إلىٰ ربِّك يتقرَّبُ إليك بأكثر منه، وعلىٰ هذا فلازمُ هذا التقرُّبِ المذكور

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

في مراتبه: أنَّ من تقرَّب إلىٰ حبيبه بروحه وجميع قُواه وإراداته وأقواله وأعماله تقرَّب الربُّ سبحانه منه بنفسه في مقابلة تقرُّب عبده إليه.

وليس القرب في هذه المراتب كلِّها قربَ مسافةٍ حسِّيَّةٍ ولا مماسَّةٍ، بل هو قربٌ حقيقةٍ، والرّبُّ تعالىٰ فوق سماواته علىٰ عرشه، والعبدُ في الأرض.

وهذا الموضع هو سرُّ السُّلوك، وحقيقة العبوديَّة، وهو معنىٰ الوصول الذي يُدندِن حولَه القومُ.

ومِلاكُ هذا الأمر هو قصد التقرُّب أوَّلًا، ثمَّ التقرُّب ثانيًا، ثمَّ حال التقرُّب ثالثًا، وهو الانبعاث بالكلِّيّة إلىٰ الحبيب.

وحقيقة هذا الانبعاث: أن تَفنىٰ بمراده عن هواك، وبما يحبُّه عن حظِّك، بل يصير ذلك هو مجموع حظِّك ومرادك. وقد عرفتَ أنَّ من تقرَّب إلىٰ حبيبه بشيءٍ من الأشياء جُوزِي علىٰ ذلك بقربٍ هو أضعافه، وعرفتَ أنّ أعلىٰ أنواع التّقرُّب تقرُّبُ العبد بجملته بظاهره وباطنه وبوجوده إلىٰ حبيبه، فمن فعلَ ذلك فقد تقرَّبَ بكلِّه، ولم تبقَ منه بقيّةٌ لغير حبيبه، كما قيل:

لا كان مَن لِسواكَ فيه بقيّةٌ ... يجد السّبيل بها إليه العُذَّلُ

وإذا كان المتقرِّب إليه بالأعمال يُعطىٰ أضعافَ أضعافِ ما تقرَّب به، فما الظنُّ بمن أعطي حال التّقرُّب وذوقه ووجده؟ فما الظنُّ بمن تقرَّب إليه بروحه وجميعِ إرادته وهمّته، وأقوالِه وأعماله؟

وعلىٰ هذا فكما جاد لحبيبه بنفسه فإنّه أهلٌ أن يُجادَ عليه، بأن يكون ربُّه سبحانه هو حظُّه ونصيبه عوضًا عن كلِّ شيءٍ جزاءً وِفاقًا، فإنَّ الجزاء من جنس العمل. وشواهد هذا كثيرةٌ:

منها: قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا

﴿يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢]، ففرَّق بين الجزاءين كما ترىٰ، وجعل جزاء المتوكِّل عليه كونه سبحانه حَسْبَه.

ومنها: أنّ الشّهيد لمَّا بذل حياته لله أعاضَه الله سبحانه حياةً أكملَ منها عنده في محلِّ قربه وكرامته.

ومنها: أنّ من بذلَ لله شيئًا منه أعاضه الله خيرًا منه.

ومنها: قوله تعالىٰ: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

ومنها: قوله: «مَنْ ذَكَرَني في نفسه ذكرتُه في نفسي، ومن ذكرني في ملأٍ ذكرتُه في ملأٍ خيرٍ منه»(١).

ومنها: قوله: «مَن تقرَّبَ منِّي شِبرًا تقرَّبتُ منه ذراعًا» الحديث.

فالعبد لا يزال رابحًا علىٰ ربِّه أفضلَ ممَّا تقرَّب به له، وهذا المتقرِّب بروحه وقلبِه وعملِه يُفتَح عليه بحياةٍ لا تُشبِه ما الناسُ فيه من أنواع الحياة، بل حياةُ من ليس كذلك بالنِّسبة إلىٰ حياته: كحياة الجنين في بطن أمِّه بالنِّسبة إلىٰ حياة أهل الدُّنيا ولذّتهم فيها، بل أعظم من ذلك.

فهذا أُنموذجٌ من بيان شرفِ هذه الحياة وفضلها، وإن كان علمُ هذا يوجب لصاحبه حياةً طيِّبةً، فكيف إن انصبغ القلب به، وصار حالًا ملازمًا لذاته؟ فالله المستعان.

فهذه الحياة هي حياة الدُّنيا ونعيمها في الحقيقة، فمن فقدَها ففقدُه لحياته الطبيعيّة أولىٰ به.

هذي حياةُ الفتىٰ فإن فُقِدَتْ ... ففقدُه للحياة أليقُ بِهْ(٢)

(١) ضمن الحديث القدسي الذي سبق عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) تصرَّف المؤلف فيه، وهو من بيتين بلا نسبة في «العقد» (٢/ ٤٢٣)، و«معجم الأدباء» (١/ ١٩) كما يلي: =

فلا عيشَ إلّا عيشُ المحبِّين، الذين قرَّتْ أعينهم بحبيبهم، وسكنت نفوسهم إليه، واطمأنّت قلوبهم به، واستأنسوا بقربه، وتنعَّموا بحبِّه، ففي القلب فاقةٌ لا يَسُدُّها إلّا محبّة الله والإقبالُ عليه والإنابة إليه، ولا يُلَمُّ شَعَثُه بغير ذلك البتّةَ. ومن لم يظفَرْ بذلك فحياته كلُّها همومٌ وغمومٌ، وآلامٌ وحسراتٌ، فإنّه إن كان ذا همّةٍ تقطَّعتْ نفسُه على الدُّنيا حسراتٍ، فإنَّ همَّته لا ترضى منها بالدُّون، وإن كان مَهِينًا خسيسًا فعيشُه كعيشِ أخسِّ الحيوانات، فلا تَقَرُّ العيون إلّا بمحبّة الحبيب الأوّل.

نَقِّلْ فؤادَك حيثُ شئتَ من الهوىٰ ... ما الحبُّ إلّا للحبيب الأوّلِ
كم منزلٍ في الأرض يألَفُه الفتىٰ ... وحنينُه أبدًا لأوّلِ منزلِ[1]

= ما وهبَ الله لامرئ هبةً ... أفضلَ من عقلِه ومن أدبِهْ
هما حياة الفتىٰ فإن فُقِدا ... فإنَّ فقْد الحياة أحسنُ بِهْ

(١) البيتان لأبي تمام في «ديوانه» (٤/ ٢٥٣).

فصل

المرتبة التّاسعة من مراتب الحياة: حياة الأرواح بعد مفارقتها لأبدانها وخَلاصِها من هذا السِّجن وضِيْقه، فإنّ من ورائه فضاءً ورَوْحًا وريحانًا وراحةً، نسبةُ هذه الدّار إليه كنسبة بطن الأمِّ إلىٰ هذه الدّار أو أدنىٰ من ذلك. قال بعض العارفين: لتكنْ مبادرتُك إلىٰ الخروج من الدُّنيا كمبادرتك إلىٰ الخروج من السِّجن الضّيِّق إلىٰ أحبّتك، والاجتماع بهم في البساتين المُؤْنِقة. قال تعالىٰ في هذه الحياة: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾[الواقعة: ٨٨].

ويكفي في طيب هذه الحياة: مفارقةُ الرّفيق المؤذي المُنكِّد، الذي تُنغِّص الحياةَ رؤيتُه ومشاهدتُه، فضلًا عن مخالطته وعِشْرته إلىٰ الرّفيق الأعلىٰ الذين أنعمَ الله عليهم من النّبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصّالحين، في جوار الربِّ الرّحيم.

ولو لم يكن في الموت من الخير إلّا أنّه باب الدُّخول إلىٰ هذه الحياة، وجِسْرٌ يُعبَر منه إليها= لكفىٰ به تحفةً للمؤمن.

جزىٰ الله عنّا الموتَ خيرًا فإنّه ... أبرُّ بنا من كلِّ برٍّ وألطفُ
يُعجِّل تخليصَ النُّفوسِ من الأذىٰ ... ويُدنِي إلىٰ الدّار التي هي أشرفُ[1]

فالاجتهاد في هذا العمر القصير والمدَّة القليلة، والسّعي والكَدْح، وتحمُّلُ الأثقال، والتّعب والمشقّة= إنّما هو لهذه الحياة، والعلومُ والأعمال وسيلةٌ إليها. وهي يقظةٌ، وما قبلها من الحياة نومٌ. وهي عينٌ، وما قبلها أثرٌ. وهي حياةٌ جامعةٌ بين فَقْد المكروه، وحصول المحبوب في مقام الأنس وحضرة القدس، حيث لا

(١) البيتان بلا نسبة في «المحاسن والأضداد» (ص٢٥٥).

يتعذَّرُ مطلوبٌ، ولا يُفقَد محبوبٌ؛ حيث الطُّمأنينةُ والراحة، والبهجة والسُّرور، حيثُ لا عبارةَ للعبد عن حقيقة كُنْهِها؛ لأنَّها في بلدٍ لا عهدَ لنا به، ولا إلفَ بيننا وبين ساكنيه، فالنّفس لإلْفِها هذا السِّجنَ الضّيِّق النَّكِد زمانًا طويلًا تكره الانتقال منه إلىٰ ذلك البلد، وتستوحش إذا استشعرتْ مفارقتَه.

وحصول العلم بهذه الحياة إنّما وصل إلينا بنورٍ إلهيٍّ علىٰ يد أكمل الخلق وأعلمهم وأنصحهم، فقامت شواهدُها في قلوب أهل الإيمان، حتّىٰ صارت لهم بمنزلة العيان، فعَزَفَتْ نفوسهم عن هذا الظِّلِّ الزّائل، والخيال المضمحلِّ، والعيش الفاني المَشُوب بالتّنغيص وأنواع الغُصَص، رغبةً في هذه الحياة، وشوقًا إلىٰ ذلك الملكوت، ووجدًا بهذا السُّرور، وطربًا علىٰ هذا الحدِّ، واستنشاقًا لهذا النّسيم الوارد من محلِّ النّعيم المقيم.

ولعمر الله إنّ من سافرَ إلىٰ بلد العدل والخصب والأمن والسُّرور صبرَ في طريقه علىٰ كلِّ مشقّةٍ وإعوازٍ وجَدْبٍ، وفارقَ المتخلّفين أحوجَ ما كان إليهم، وأجاب المناديَ إذا نادىٰ به حيَّ علىٰ الفلاح، وبذل نفسه في الوصول بذْلَ المحبِّ بالرِّضا والسّماح، وواصل السَّير بالغُدوِّ والرّواح، فحمِدَ عند الوصول مسراه، وإنَّما يحمَدُ المسافر السُّرىٰ عند الصَّباح.

عند الصّباح يحمَدُ القومُ السُّرىٰ وفي الممات يحمَدُ القومُ التُّقَىٰ[1]

وما هذا واللهِ بالصعب ولا بالشديد، مع هذا العمر القصير الذي هو بالنِّسبة إلىٰ تلك الدّار كساعةٍ من نهارٍ ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾[يونس:

(١) الشطر الأول من الأمثال السائرة، وقد تقدم، ضمَّ إليه المؤلف الشطر الثاني علىٰ منواله، فأصبح بيت شعر.

٤٥]، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾[النازعات: ٤٦]، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾[الروم: ٥٥]، ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[المؤمنون: ١١٢ - ١١٤]. فلو أنَّ أحدنا يُجَرُّ علىٰ وجهه يتَّقي به الشوك والحجارة إلىٰ هذه الحياة لم يكن ذلك كثيرًا ولا غبنًا في جنب ما يؤمِّلُه.

فواحسرتاه علىٰ بصيرةٍ تشاهد هاتين الحياتين علىٰ ما هما عليه، وعلىٰ هِمّةٍ تُؤثِر الأعلىٰ علىٰ الأدنىٰ، وما ذاك إلّا بتوفيقِ مَن أزِمَّةُ الأمور بيديه، ومنه ابتداء كلِّ شيءٍ وانتهاؤه إليه، أقعَدَ نفوسَ مَن غلبت عليهم الشّقاوة عن السّفر إلىٰ هذه الدّار، وجذَبَ قلوبَ من سبقت لهم منه الحسنىٰ، وأقامهم في الطّريق، وسهَّل عليهم ركوبَ الأخطار، فأضاع أولئك مراحلَ أعمارهم مع المتخلِّفين، وقطع هؤلاء مراحلَ أعمارهم مع السّائرين، وعَقِدَت الغبرةُ وثار العَجَاجُ، فتوارىٰ عنه السائرون والمتخلِّفون. وسينجلي عن قريبٍ، فيفوز العاملون، ويخسر المبطلون.

وعن طيب هذه الحياة ولذّتها قال النّبيُّ ﷺ: «**ما من نفسٍ تموت لها عند الله خيرٌ يَسُرُّها أن ترجع إلىٰ الدُّنيا وأنّ لها الدُّنيا وما فيها، إلّا الشّهيد، فإنّه يتمنّىٰ الرُّجوع إلىٰ الدُّنيا، لِما يرىٰ من كرامة الله**»[(١)]. يعني لِيُقْتَل مرَّةً أخرىٰ.

وسمع بعض العارفين منشدًا ينشد عن بعض الزّنادقة عند موته، وهو محمَّد بن زكريَّا الرازي المتطبِّب[(٢)]:

لعَمْري ما أدري وقد آذنَ البِلىٰ ... بعاجلِ تَرْحالي إلىٰ أينَ تَرْحالي

وأين مكانُ الرُّوح بعد خروجه ... عن الهيكل المُنحلِّ والجسدِ البالي

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٩٥)، ومسلم (١٨٧٧)، من حديث أنس بن مالك ﷺ.
(٢) البيتان له في «عيون الأنباء» (٢/ ٣٥١)، و«الوافي بالوفيات» (٣/ ٧٧).

فقال: وما علينا من جهْلِه إذا لم يدرِ أين تَرحاله! لكنَّا ندري إلىٰ أين تَرحالنا وترحاله، أمّا تَرحاله فإلىٰ دار الأشقياء، ومحلِّ المُنكِرين لقدرة الله وحكمته، المكذِّبين بما اتّفقت عليه كلمة المرسلين عن ربِّهم، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[الرعد: ٥]، ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ۝١٠ ۞قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ۝١١ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[السجدة: ١٠- ١٢].

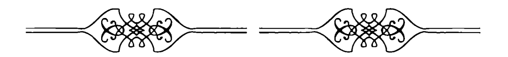
وأمّا ترحالنا أيُّها المسلمون والصدِّيقون المصدِّقون بلقاء ربِّهم وكتبه ورسله فإلىٰ نعيمٍ دائمٍ، وخلودٍ متَّصلٍ، ومقامٍ كريمٍ، وجنّةٍ عرضها السماوات والأرض في جوار ربِّ العالمين، وأرحمِ الرّاحمين، وأقدر القادرين، وأحكم الحاكمين، الذي له الخلق والأمر، وبيده النّفع والضَّرُّ، الأوّل بالحقِّ، الموجود بالضّرورة، المعروف بالفطرة، الذي أقرَّتْ به العقول، ودلَّت عليه الموجودات، وشهدت بوحدانيّته وربوبيّته المخلوقات، وأقرَّت بها الفِطَر، المشهود وجوده وقيُّوميَّته بكلِّ حركةٍ وسكونٍ، وبكلِّ ما كان وما هو كائنٌ وما سيكون، الذي خلق السماوات والأرض، وأنزل من السماء ماءً فأنبتَ به أنواع النبات، وبثَّ به في الأرض جميع الحيوانات، ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ﴾[النمل: ٦١]، الذي يجيب المضطرّ إذا دعاه، ويُغِيث الملهوفَ إذا ناداه، ويكشف السُّوء، ويُفرِّج الكربات، ويُقِيل العَثَرات، الذي يهدي خلْقَه في ظلمات البرِّ والبحر، ويرسل الرِّياح بُشرًا بين يدي رحمته، فيحيي الأرض بوابل القَطْر، الذي يبدأ الخلق ثمّ يعيده، ويرزق من في السماوات والأرض من خلقه وعبيده، الذي يملك السّمع والأبصار،

ويُخرج الحيّ من الميِّت، ويُخرج الميِّت من الحيِّ، ويدبِّر الأمر، الذي ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾[المؤمنون: ٨٨]، ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[الفرقان: ٢]، المستعان به على كلِّ نائبةٍ وفادحةٍ، والمعهود منه كلُّ برٍّ وكرامةٍ، الذي عَنَتْ له الوجوه، وخَشَعَت له الأصوات، وسبَّحتْ بحمده الأرض والسّماوات وجميع الموجودات، الذي لا تسكنُ الأرواح إلّا بحبِّه، ولا تطمئنُّ القلوب إلّا بذكره، ولا تزكُو العقول إلّا بمعرفته، ولا يُدرَك النّجاحُ إلّا بتوفيقه، ولا تحيا القلوب إلّا بنسيم قربه ولطفه، ولا يقع أمرٌ إلّا بإذنه، ولا يهتدي ضالٌّ إلّا بهدايته، ولا يستقيم ذو أَوَدٍ إلّا بتقويمه، ولا يفهم أحدٌ شيئًا إلّا بتفهيمه، ولا يتخلّص من مكروهٍ إلّا برحمته، ولا يُحفَظ شيءٌ إلّا بكلاءته، ولا يُفتتَح أمرٌ إلّا باسمه، ولا يَتِمُّ إلّا بحمده، ولا يُدرَك مأمولٌ إلّا بتيسيره، ولا تُنال سعادةٌ إلّا بطاعته، ولا حياةٌ إلّا بذكره ومحبّته ومعرفته، ولا طابت الجنّة إلّا بسماع خطابه ورؤيته، الذي وسع كلَّ شيءٍ رحمةً وعلمًا، وأوسع كلَّ مخلوقٍ فضلًا وبرًّا.

فهو الإله الحقُّ، والربُّ الحقُّ، والملك الحقُّ، والمنفرد بالكمال المطلق من كلِّ الوجوه، المبرَّأ عن النّقائص والعيوب من كلِّ الوجوه، لا يبلغ المُثْنُون وإن استوعبوا جميعَ الأوقات بكلِّ أنواع الثّناء ثناءً عليه، بل ثناؤه أعظم من ذلك، فهو كما أثنى على نفسه.

هذا الجار، وأمَّا الدار فلا تعلم نفسٌ حسنها وبهاءها، وسعتها ونعيمها، وبهجتها وروحها وراحتها، فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطَرَ على قلب بشرٍ، فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذُّ الأعين، فهي الجامعة لجميع أنواع الأفراح والمسرّات، الخالية من جميع المنكِّدات والمنغِّصات، ريحانةٌ تهتزُّ، وقصرٌ مشيدٌ، وزوجةٌ حسناء، وفاكهةٌ نضيجةٌ.

فترحالنا أيُّها المصدِّقون إلىٰ هذه الدّار بإذن ربِّنا وتوفيقه وإحسانه. وترحال المكذِّبين إلىٰ الدّار التي أُعِدّت لمن كفر بالله ولقائه وكتبِه ورسله. فلن يجمع الله بين الموحِّدين له، الطّالبين لمرضاته، السّاعين في طاعته، الدّائبين في خدمته، المجاهدين في سبيله، وبين الملحدين، السّاعين في مساخطه، الدَّائبين في معصيته، المستفرغين جهدَهم في أهوائهم وشهواتهم= في دارٍ واحدةٍ، إلّا علىٰ وجه الجواز والعبور، كما جمع بينهم في هذه الدُّنيا، ويجمع بينهم في موقف القيامة. فحاشاه من هذا الظّنِّ السّيِّئ الذي لا يليق بكماله وحكمته.

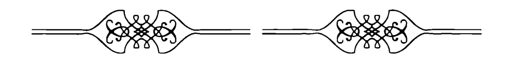


فصل

وفي هذه المرتبة تُعلَم حياة الشُّهداء عند ربِّهم، وأنّها أكمل من حياتهم في هذه الدُّنيا، وأتمُّ وأطيب، وإن كانت أجسادهم متلاشيةً، ولحومهم متمزِّقةً، وأوصالهم متفرِّقةً، فليس العمل على الطّلل، الشّأن في السّاكن، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤]. وإذا كان الشُّهداء إنّما نالوا هذه الحياة بمتابعة الرُّسل وعلى أيديهم، فما الظّنُّ بحياة الرُّسل في البرزخ؟ ولقد أحسن القائل ما شاء:

فالعيشُ نومٌ والمنيّةُ يقظةٌ والمرء بينهما خيالٌ ساري (١)

فللرُّسل والشُّهداء والصِّدِّيقين من هذه الحياة التي هي يقظةٌ من نوم الدُّنيا أكملُها وأتمُّها، وعلى قدر حياة العبد في هذا العالم يكون شوقُه إلى هذه الحياة، وسعيُه لها وحرصه على الظّفر بها، والله المستعان.



(١) البيت من رائية التهامي المشهورة، انظر: «ديوانه» (ص١٥٥).

فصل

المرتبة العاشرة من مراتب الحياة: الحياة الدائمة الباقية بعد طيِّ هذا العالم، وذهابِ الدُّنيا وذهاب أهلها في دار الحيوان، وهي الحياة التي شمَّر إليها المشمِّرون، وتسابقَ إليها المتسابقون، وتنافس فيها المتنافسون، وهي التي أجرينا الكلام إليها، ونادت الكتب السماويّة ورسل الله جميعهم عليها، وهي التي يقول من فاته الاستعداد لها ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾[الفجر: ٢١ - ٢٦]، وهي التي قال الله فيها: ﴿وَمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

والحياة المتقدمة كالنّوم بالنِّسبة إليها، وكلُّ ما تقدّم من وصف السفر ومنازله، وأحوال السّائرين، وعبوديّتهم الظّاهرة والباطنة= فوسيلةٌ إلىٰ هذه الحياة، وإنّما الحياة الدُّنيا بالنِّسبة إليها كما قال النّبيُّ ﷺ: «**ما الدُّنيا في الآخرة إلّا كما يُدخِل أحدُكم إصبعَه في اليمِّ فلينظر بِمَ ترجع؟**»[(١)].

وكما قيل: تنفَّستِ الآخرة فكانت الدُّنيا نَفَسًا من أنفاسها، فأصاب أهل السّعادة نفس نعيمها، فهم علىٰ هذا النّفس يعملون، وأصاب أهل الشّقاء نفس عذابها، فهم علىٰ ذلك النّفس يعملون.

وإذا كانت حياةُ أهل الإيمان والعمل الصالح في هذه الدار حياةً طيِّبةً، فما الظّنُّ بحياتهم في البرزخ، وقد تخلَّصوا من سجن الدُّنيا وضيقها؟ فما الظّنُّ

(١) أخرجه مسلم (٢٨٥٨)، من حديث المستورد رضي الله عنه.

بحياتهم في دار النَّعيم المقيم الذي لا يزول، وهم يرون وجهَ ربِّهم تبارك وتعالىٰ بكرةً وعشيًّا ويسمعون خطابه؟

فإن قلت: ما سببُ تخلُّفِ النفس عن طلب هذه الحياة التي لا خطَرَ لها، وزُهدِها فيها ورغبتها في الحياة الفانية المضمحلّة، التي هي كالخيال والمنام؟ أفسادٌ في تصوُّرها وشعورها؟ أم تكذيبٌ بتلك الحياة؟ أم لآفةٍ في العقل وعمًىٰ هناك؟ أم إيثارًا للحاضر المشهود بالعيان علىٰ الغائب المعلوم بالإيمان؟

قيل: بل ذلك لمجموع أمورٍ مركَّبةٍ من ذلك كلِّه.

فأقوىٰ الأسبابِ في ذلك: ضعفُ الإيمان، فإنّ الإيمان روح الأعمال، وهو الباعث عليها، والآمر بأحسنها، والنّاهي عن أقبحها، وعلىٰ قدر قوّة الإيمان يكون أمره ونهيه لصاحبه، وائتمارُ صاحبه وانتهاؤه، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[البقرة: ٩٣]. وبالجملة، فإذا قوي الإيمان قوي الشّوق إلىٰ هذه الحياة، واشتدّ طلب صاحبه لها.

السّبب الثّاني: جُثُوم الغفلة علىٰ القلب، فإنّ الغفلة نوم القلب، ولهذا تجد كثيرًا من الأيقاظ في الحسِّ نيامًا، فتحسبهم أيقاظًا وهم رقودٌ، ضدّ حال من يكون يقظانَ القلب وهو نائمٌ، فإنّ القلب إذا قويتْ فيه الحياة لا ينام إذا نام البدن، وكمال هذه الحياة كان لنبيِّنا ﷺ، ولمن أحيا الله قلبه بمحبّته واتِّباع رسوله من ذلك بحسب نصيبه منهما.

فالغفلة واليقظة يكونان في الحسِّ والعقل والقلب، فمستيقظ القلب وغافله كمستيقظ البدن ونائمه، وكما أنّ يقظة الحسِّ علىٰ نوعين، فكذلك يقظة القلب علىٰ نوعين.

فالنوع الأوَّل من يقظة الحسِّ: أنّ صاحبها يَنفُذ في الأمور الحسِّيّة ويتوغَّلُ

فيها بكَيْسِه وفطانته، واحتيالِه وحسنِ تأتِّيه.

والنوع الثاني: أن يُقبِل علىٰ نفسه وقلبه وذاته، فيعتني بتحصيل كماله، فيلحظ عواليَ الأمور وسفسافَها، فيُؤْثِر الأعلىٰ علىٰ الأدنىٰ، وخيرَ الخيرين بتفويت أدناهما، ويرتكب أخفَّ الشّرّين خشيةً من حصول أقواهما، ويتحلّىٰ بمكارم الأخلاق ومعالي الشِّيَم، فيكون ظاهره جميلًا، وباطنه أجملَ من ظاهره، وسريرتُه خيرًا من علانيته، فيزاحم أصحاب المعالي عليها كما يُزاحم أهل الدِّينار والدِّرهم عليهما، فبهذه اليقظة يستعدُّ للنّوعين الآخرين منها:

أحدهما: يقظةٌ تبعثه علىٰ اقتباس الحياة الدائمة الباقية التي لا خطَرَ لها من هذه الحياة الفانية الزّائلة، التي لا قيمة لها.

فإن قلت: مثِّلْ لي كيفَ تُقتبس الحياة الدائمة من الحياة الفانية؟ وكيف يكون هذا؟ فإنِّي لا أفهمه.

قلت: وهذا أيضًا من نوم القلب، بل هو من موته، وهل تُقتبس الحياة الدّائمة إلَّا من هذه الحياة الزائلة؟ وأنت قد تُشعِل سراجك من سراجٍ آخرَ قد أشفىٰ علىٰ الانطفاء، فيتَّقِد الثاني ويضيء غايةَ الإضاءة، ويتَّصل ضوؤه وينطفئ الأوَّل. والمقتبس لحياته الدّائمة من حياته المنقطعة إنَّما ينتقل من دارٍ منقطعةٍ إلىٰ دارٍ باقيةٍ، وقد توسَّط الموت بين الدّارين، فهو قنطرةٌ لا يعبُر إلىٰ تلك الدّار إلّا عليها، وبابٌ لا يدخل إليها إلّا منه، فهما حياتان في دارين بينهما موتٌ. وكما أنَّ نور تلك الدّار مقتبسٌ من نور هذه الدّار، فحياتها مقتبسةٌ من حياتها، فعلىٰ قدر نور الإيمان في هذه الدّار يكون نور العبد في تلك الدّار، وعلىٰ قدر حياته في هذه الدّار تكون حياته هناك.

نعم؛ هذا النُّور والحياة الذي يقتبس منه ذلك النُّور والحياة لا ينقطع، بل

يتَّصل للعبد في البرزخ، وفي موقف القيامة، وعلىٰ الصِّراط، فلا يفارقه إلىٰ دار الحيوان، يَطْفَأ نور الشّمس وهذا النُّور لا يَطفَأ، وتَبْطُل الحياة المحسوسة وهذه الحياة لا تبطُل. هذا أحد نوعي يقظة القلب.

النوع الثاني: يقظةٌ تبعث علىٰ حياةٍ لا تدركها العبارة، ولا ينالها التّوهُّم، ولا يطابق فيها اللّفظ لمعناه البتّة، والّذي يشار به إليها حياة المحبِّ مع حبيبه، الذي لا قِوامَ لقلبه وروحه وحياته إلّا به ولا غنًىٰ له عنه طرفةَ عينٍ، ولا قرّةَ لعينه ولا طمأنينةَ لقلبه ولا سكونَ لروحه إلّا به، فهو أحوجُ إليه من سمعه وبصره وقوّته، بل ومن حياته، فإنَّ حياته بدونه عذابٌ وآلامٌ، وهمومٌ وأحزانٌ، فحياته موقوفةٌ علىٰ قربه وحبِّه ومصاحبته، وعذابُ حجابه عنه أعظم من العذاب الآخر، كما أنّ نعيم القلب والرُّوح بإزالة ذلك الحجاب أعظم من النّعيم بالأكل والشُّرب والتّمتُّع بالحور العين، فهكذا عذاب الحجاب أعظم من عذاب الجحيم.

ولهذا جمع سبحانه لأوليائه بين النّعيمين في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[يونس: ٢٦]، فالحسنىٰ الجنّة، والزِّيادة رؤية وجهه الكريم في جنّات عدنٍ. وجمع لأعدائه بين العذابين في قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾[المطففين: ١٥ - ١٦].

والمقصود: أنّ الغفلة هي نوم القلب عن طلب هذه الحياة، وهي حجابٌ عليه:

فإن كُشِفَ هذا الحجاب بالذِّكر وإلّا تكاثفَ حتّىٰ يصير حجابَ بطالةٍ ولعبٍ واشتغالٍ بما لا يفيد.

فإن بادر إلىٰ كشفه وإلّا تكاثف حتّىٰ يصير حجابَ معاصٍ وذنوبٍ صغارٍ تُبعِده عن الله.

فإن بادر إلىٰ كشفه وإلّا تكاثف حتّىٰ يصير حجابَ كبائرَ توجب مقْتَ الرّبِّ تعالىٰ وغضَبه ولعنته.

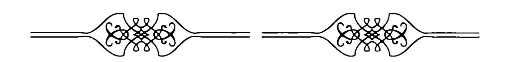
فإن بادر إلىٰ كشفه وإلّا تكاثف حتّىٰ يصير بدعًا عمليّةً يعذِّب العاملُ فيها نفسَه، ولا تُجدِي عليه شيئًا.

فإن بادر إلىٰ كشفه وإلّا تكاثف حتّىٰ صار حجابَ بدعٍ قوليّةٍ واعتقاديّةٍ؛ تتضمَّن الكذبَ علىٰ الله ورسوله، والتكذيبَ بالحقِّ الذي جاء به الرسول ﷺ.

فإن بادر إلىٰ كشفه وإلّا تكاثف حتّىٰ صار حجابَ شكٍّ وتكذيبٍ؛ يقدح في أصول الإيمان الخمسة، وهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه، فلِغِلَظِ حجابه وكثافته وظلمته وسواده لا يرىٰ حقائق الإيمان، ويتمكَّن منه الشّيطان، يَعِده ويُمنِّيه، والنّفس الأمّارة تهوىٰ وتشتهي، وسلطان الطّبع قد ظفِرَ بسلطان الإيمان، فأسَرَه أو سجَنَه إن لم يُهلكه، وتولّىٰ تدبير المملكة، واستخدم جنودَ الشّهوات، وأقطعها العوائد التي جرىٰ عليها العمل، وأغلق بابَ اليقظة، وأقام عليه بوَّابَ الغفلة وقال: إيَّاك أن نُؤتىٰ من قِبَلك، واتّخذ حاجبًا من الهوىٰ وقال: إيّاك أن تمكِّن أحدًا يدخل إلّا معك، فأمرُ هذه المملكة قد صار إليك وإلىٰ البوَّاب، فيا بوَّابَ الغفلة ويا حاجبَ الهوىٰ ليلزمْ كلُّ منكما ثغْرَه، فإن أخليتما فسدَ أمرُ مملكتنا، وعادت الدّولة لغيرنا، وسامَنا سلطانُ الإيمان شرَّ الخزي والهوان، ولا نفرح بهذه المدينة أبدًا.

فلا إله إلّا الله! إذا اجتمعتْ علىٰ القلب هذه العساكر مع رقَّة الإيمان وقلَّة الأعوان، والإعراض عن ذكر الرّحمن، والانخراط في سِلْك أبناء الزّمان، وطولِ الأمل المفسد للإنسان= آثرَ العاجلَ الحاضرَ علىٰ الغائب الموعود به بعد طيِّ هذه الأكوان، فالله المستعان وعليه التُّكلان.

فهذا فصلٌ مختصرٌ نافعٌ في ذكر الحياة وأنواعها، والتّشويق إلىٰ أشرفها وأطيبها، فمن صادف في قلبه حياةً انتفع به، وإلَّا فخَوْدٌ تُزَفُّ إلىٰ ضَريرٍ مُقْعَدِ[1]!



(١) شطر بيت لابن الحجاج:

وكأنّها لما أحلَّتْ عنده   خَوْدٌ تُزَفُّ إلىٰ ضريرٍ مُقْعَدِ

وهو في «يتيمة الدهر» (٣/ ٦٠)، والخود: الفتاة الشابة الحسنة الخلق.

٤/ ٢٠٨

فصل

باب القبض

قال صاحب «المنازل»[(١)]: (**باب القبض**).

قلت: القبض نوعان: قبضٌ في الأحوال، وقبضٌ في الحقائق.

فالقبض في الأحوال أمرٌ يطرق القلبَ يمنعه عن الانبساط والفرح، وهو نوعان أيضًا:

أحدهما: ما يعرف سببه، مثل تذكُّر ذنبٍ أو تفريطٍ أو بُعدٍ أو جفوةٍ، أو حدوث ذلك.

والثاني: ما لا يعرف سببه، بل يهجم علىٰ القلب هجومًا لا يقدر علىٰ التخلُّص منه. وهذا هو القبض المشار إليه علىٰ ألسنة القوم، وضدُّه البسط. فالقبض والبسط عندهم حالتان للقلب لا يكاد ينفكُّ منهما.

وقد قال أبو القاسم الجنيد: في معنىٰ القبض والبسط معنىٰ الخوف والرّجاء، فالرجاء يبسط إلىٰ الطاعة، والخوف يقبض عن المعصية[(٢)].

وكلُّهم تكلَّم في (القبض والبسط) علىٰ هذا المنهج، حتَّىٰ جعلوه أقسامًا: قبض تأديبٍ، وقبض تهذيبٍ، وقبض جمعٍ، وقبض تفريقٍ. ولهذا يمتنع به صاحبُه إذا تمكَّن منه من الأكل، والشُّرب، والكلام، وفعل الأوراد، والانبساط إلىٰ الأهل وغيرهم.

فقبض **التأديب** يكون عقوبةً علىٰ غفلةٍ، أو خاطر سوءٍ، أو فكرةٍ رديئةٍ.

وقبض **التهذيب** يكون إعدادًا لبسطٍ عظيمٍ شأنه يأتي بعده، فيكون القبض

---

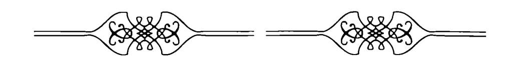
(١) (ص٩٦).
(٢) «اللمع» للطوسي (ص٣٤٣-٣٤٤).

قبله كالتنبيه عليه والمقدِّمة له، كما كان الغتُّ والغطُّ[1] مقدِّمةً بين يدي الوحي وإعدادًا لوروده. وهكذا الشدَّة مقدِّمةٌ بين يدي الفرج، والبلاء مقدِّمةٌ بين يدي العافية، والخوف الشديد مقدِّمةٌ بين يدي الأمن، وقد جرت سنَّة الله سبحانه أنّ هذه الأمور النافعة المحبوبة إنَّما يُدخَل إليها من أبواب أضدادها.

وأمَّا قبض الجمع: فهو ما يحصل للقلب حالة جمعيَّته علىٰ الله من انقباضه عن العالم وما فيه، فلا يبقىٰ فيه فضلٌ ولا سعةٌ لغير من اجتمع قلبه عليه. وفي هذه الحال مَن أراد مِن صاحبها ما يعهده منه من المؤانسة والمذاكرة فقد ظلمه.

وأمَّا قبض التفرقة: فهو القبض الذي يحصل لمن تفرَّق قلبه عن الله، وتشتَّت عنه في الشِّعاب والأودية، فأقلُّ عقوبته: ما يجده من القبض الذي يتمنَّىٰ معه الموت.

وأمّا القبض الذي أشار إليه صاحب «المنازل» فهو شيءٌ وراء هذا كلِّه، فإنَّه جعله من قسم الحقائق، وذلك القبض الذي تقدَّم ذكره من أقسام البدايات.



(١) يشير إلىٰ قوله ﷺ في وصف بدء الوحي: «فأخذني (أي: جبريل) فغطَّني حتىٰ بلغ مني الجَهد»، أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠)، من حديث عائشة.

٤/ ٢٢٠
باب البسط

فصل

قال صاحب «المنازل»[(١)]: **(باب البسط)**.

قلت: البسط إرسال ظواهر العبد وأعماله علىٰ مقتضىٰ العلم، ويكون باطنه معمورًا بالمراقبة والمحبَّة والأنس بالله، فيكون جماله في ظاهره وباطنه، فظاهره قد أُلبس الجمال بموجب العلم، وباطنه قد اكتسىٰ الجمال بالمحبَّة والرجاء والخوف والمراقبة والأنس، فالأعمال الظاهرة له دثارٌ، والأحوال الباطنة له شعارٌ. فلا حالُه ينقص عليه ظاهر حكم، ولا علمه يقطع عليه وارد حالٍ.

وقد جمع سبحانه بين الجمالين أعني: جمال الظاهر والباطن في غير موضعٍ من كتابه:

منها: قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾[الأعراف: ٢٦].

ومنها: قوله في نساء الجنّة: ﴿فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٞ﴾[الرحمن: ٧٠] فهنّ حسان الوجوه، خيرات الأخلاق.

ومنها: قوله: ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا﴾[الإنسان: ١١]، فالنضرة جمال الوجوه، والسُّرور جمال القلوب.

ومنها: قوله: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾[القيامة: ٢٢]، فالنضرة تزيِّن ظواهرها، والنّظر يجمِّل بواطنها.

ومنها: قوله: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا﴾[الإنسان: ٢١]، فالأساور جمَّلت ظواهرهم، والشراب الطهور طهَّر بواطنهم.

---

(١) (ص٩٦).

ومنها: قوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ﴾ [الصافات: ٦ - ٧]، فجمَّل ظاهرها بالكواكب، وباطنها بالحراسة من الشياطين.

قال[1]: **(فطائفةٌ بسطت رحمةً للخلق، يباسطونهم ويلابسونهم فيستضيئون بنورهم؛ والحقائق مجموعة، والسَّرائر مصونة).**

أي: جعل الله سبحانه انبساطهم مع الخلق رحمةً لهم، كما قال تعالىٰ: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾[آل عمران: ١٥٩]، فالرّبُّ سبحانه بسط هؤلاء مع خلقه ليقتدي بهم السالك، ويهتدي بهم الحيران، ويُشفىٰ بهم العليل، ويُستضاء بنور هدايتهم ونصحهم ومعرفتهم في ظلمات دياجي الطَّبع والهوىٰ، فالسالكون يقتدون بهديهم إذا سكتوا، وينتفعون بكلماتهم إذا نطقوا، فإنَّ حركاتِهم وسكونَهم ونُطقهم وسكوتهم لمَّا كانت بالله ولله وعلىٰ أمر الله= جذبت قلوب الصادقين إليهم. وهذا النُّور الذي أضاء علىٰ الناس منهم هو نور العلم والمعرفة.

والعلماء ثلاثة:

عالمٌ استنار بنوره واستنار به الناس، فهذا من خلفاء الرُّسل وورثة الأنبياء.

وعالمٌ استنار بنوره ولم يستنر به غيرُه، فهذا إذا لم يفرِّط كان نفعه قاصرًا علىٰ نفسه، وبينه وبين الأوَّل ما بينهما.

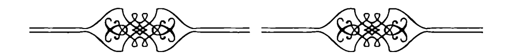
وعالمٌ لم يستنر بنوره ولا استنار به غيرُه، فهذا علمه وبالٌ عليه، وبسطته للناس فتنةٌ لهم، وبسطة الأوَّل رحمةٌ لهم.

قوله: **(والحقائق مجموعة، والسرائر مصونة)**، أي: انبسطوا والحقائق التي في سرائرهم مجموعةٌ في بواطنهم، لم تتفرق بالانبساط الذي اشتغلت به

---

(١) «المنازل» (ص٩٧).

ظواهرهم، فالانبساط لم يشتِّت قلوبهم، ولم يفرِّق هممهم، ولم يحلَّ عقد عزائمهم. وسرائرهم مصونةٌ مستورةٌ لم يكشفوها لمن انبسطوا إليه وإن كان البسط يقتضي الإلف واطِّلاعَ كلٍّ من المتباسطين علىٰ سرِّ صاحبه. فإيَّاك ثمَّ إيَّاك أن تُطلع من باسطتَه علىٰ سرِّك مع الله، ولكن اجذبه وشوِّقه، واحفظ وديعة الله عندك، لا تعرِّضها للاسترجاع.



٤/ ٢٥٥

فصل

باب الاتصال

قال صاحب «المنازل»[(١)]: (**باب الاتِّصال. والاتِّصال ثلاث درجاتٍ، الدرجة الأولىٰ: اتِّصال الاعتصام، ثمَّ اتِّصال الشُّهود، ثمَّ اتِّصال الوجود**).

أمَّا القسمان الأوَّلان وهما: اتِّصال الاعتصام واتِّصال الشُّهود فلا إشكال فيهما، فإنَّهما مقاما الإيمان والإحسان، فاتِّصال الاعتصام مقام الإيمان، واتِّصال الشُّهود مقام الإحسان. وعندي أنَّه ليس وراء ذلك مرمًىٰ، وكلُّ ما يُذكر بعد ذلك من اتِّصالٍ صحيحٍ فهو من مقام الإحسان، فاتِّصال الوجود لا حقيقة له. ولكن لا بدَّ من ذكر مراد الشيخ وأهل الاستقامة بهذا الاتِّصال، ومرادِ أهل الإلحاد القائلين بوحدة الوجود منه، إذا انتهينا إلىٰ ذكره إن شاء الله.

فأمَّا (**اتِّصال الاعتصام**)، فقد قال تعالىٰ: ﴿**وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ**﴾[الحج: ٧٨]، وقال تعالىٰ: ﴿**وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [آل عمران: ١٠١]، وقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾[النساء: ١٤٦]، وقال: ﴿**وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا**﴾[آل عمران: ١٠٣].

فالاعتصام به نوعان:

اعتصام توكُّلٍ واستعانةٍ وتفويضٍ ولَجْءٍ وعياذٍ، وإسلام النفس إليه، والاستسلام له سبحانه.

والثاني: اعتصامٌ بوحيه، وهو تحكيمه دون آراء الرِّجال ومقاييسهم ومعقولاتهم، وأذواقهم وكشوفاتهم ومواجيدهم، فمن لم يكن كذلك فهو مُتخلٍّ من هذا الاعتصام.

---

(١) «المنازل» (ص٩٩).

فالدِّين كلُّه في الاعتصام به وبحبله، علمًا وعملًا، وإخلاصًا واستعانةً ومتابعةً، واستمرارًا على ذلك إلى يوم لقائه.

قوله: (**ثمَّ اتِّصال الشُّهود**)، تقدَّم ذكر المشاهدة وبيَّنَّا أنَّ المشاهدة هي تحقيق مقام الإحسان. فالاتِّصال الأوَّل: اتِّصال العلم والعمل، والثاني: اتِّصال الحال والمعرفة.

قوله: (**ثمَّ اتِّصال الوجود**)، الوجود: الظفر بحقيقة الشيء، ويريد الشَّيخ باتِّصال الوجود: أنَّ العبد يجد ربَّه بعد أن كان فاقدًا له، فهو بمنزلة من كان يطلب كنزًا ولا وصول له إليه، فظفر به بعد ذلك ووجده، واستغنى به غاية الغنى، فهذا اتِّصال الوجود، كما في الأثر: «**اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كلَّ شيءٍ، وإن فُتُّك فاتك كلُّ شيءٍ**»[1].

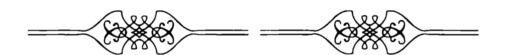
وهذا الوجود من العبد لربِّه يتنوَّع بحسب حال العبد ومقامه، فالتائب الصادق في توبته إذا تاب إليه وجده غفورًا رحيمًا، والمتوكِّل إذا صدق في التوكُّل عليه وجده حسيبًا كافيًا، والداعي إذا صدق في الرغبة إليه وجده قريبًا مجيبًا، والمحبُّ إذا صدق في محبَّته وجده ودودًا حبيبًا، والملهوف إذا صدق في الاستغاثة به وجده كاشفًا للكرب مخلِّصًا منه، والمضطرُّ إذا صدق في الاضطرار إليه وجده رحيمًا مغيثًا، والخائف إذا صدق في اللجأ إليه وجده مؤمِّنًا له من المخوف، والراجي إذا صدق في الرجاء وجده عند ظنِّه به.

فمحبُّه وطالبه ومريده، ومن لا يبغي به بدلًا، ولا يرضى بسواه عوضًا، إذا صدق في محبَّته وإرادته وجده أيضًا وجودًا أخصَّ من تلك الوجودات، فإنَّه إذا كان المريد منه يجده، فكيف مريدُه ومحبُّه!

---

(١) أثر إسرائيلي، انظر: «مجموع الفتاوى» (٨/ ٥٢).

فيظفر هذا الواجد بنفسه وبربِّه. أمَّا ظفره بنفسه فتصير منقادةً له، مطيعةً له، تابعةً مرتاضةً، غيرَ أبيَّةٍ ولا أمَّارةٍ، بل تصير خادمةً له مملوكةً بعد أن كانت مخدومةً مالكةً. وأمَّا ظفره بربِّه فقربُه منه وأنسه به، وعمارةُ سرِّه به، وفرحُه وسرورُه به أعظمَ فرحٍ وسرورٍ. فهذا حقيقة اتِّصال الوجود، والله المستعان.



فصل

٤/ ٢٦٧

باب الانفصال

قال صاحب «المنازل»[1]: (**باب الانفصال. قال الله تعالىٰ**: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾[آل عمران: ٢٨]).

وجه الإشارة بالآية أنَّه سبحانه المقرِّب المُبعد، فليحذر القريب من الإبعاد والمتَّصل من الانفصال، فإنَّ الحقَّ جلَّ جلاله غيورٌ، لا يرضىٰ ممَّن عرفه ووجد حلاوة معرفته، واتَّصل قلبه بمحبَّته والأنس به، وتعلَّقت روحه بإرادة وجهه الأعلىٰ= أن يكون له التفاتٌ إلىٰ غيره البتَّة.

ومِن غَيرته سبحانه حرَّم الفواحش، والله سبحانه يغار أشدَّ الغَيرة علىٰ عبده أن يلتفت إلىٰ سواه؛ فإذا أذاقه حلاوةَ محبَّتِه، ولذَّةَ الشَّوق إليه، وأنسَ معرفته، ثمَّ ساكن غيره= باعَدَه مِن قربه، وقطعه مِن وصله، وأوحش سرَّه، وشتَّت قلبَه، ونَغَّص عيشَه، وألبسه رداءَ الذلِّ والصغار والهوان؛ فنادىٰ عليه حالُه، إن لم يصرِّح به قالُه: هذا جزاء من تعوَّض عن وليِّه وإلهِه وفاطرِه ومَن لا حياة له إلَّا به بغيره، وآثر غيرَه عليه، فاتَّخذ سواه له حبيبًا، ورضي بغيره أنيسًا، واتَّخذ سواه وليًّا، ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾[الكهف: ٥٠].

فإذا ضُرب هذا القلب بسوط البعد والحجاب، وسُلِّط عليه من يسومه سوء العذاب، وملئ من الهموم والغموم والأحزان، فصار محلًّا للجيف والأقذار والأنتان، وبُدِّل بالأنس وحشةً، وبالعزِّ ذلًّا، وبالقَنَع حرصًا، وبالقرب بعدًا

(١) (ص١٠٠).

وطردًا، وبالجمع شتاتًا وتفرقةً= كان هذا بعض جزائه. وحينئذٍ فتَطْرُقه الطوارق المؤلمات، وتعتريه وُفُودُ الأحزان والهموم بعد وفود المسرَّات.

قرأ قارئٌ بين يدي السَّريِّ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾[الإسراء: ٤٥]، فقال السريُّ: تدرون ما هذا الحجاب؟ هذا حجاب الغيرة، ولا أحد أغير من الله[١]. فمن عرفه وذاق حلاوة قربِه ومحبَّته، ثمَّ رجع عنه إلىٰ مساكنة غيره= ثبَّطَ جوارحَه عن طاعته، وعقل قلبه عن إرادته ومحبَّته، وأخَّره عن محلِّ قربه، وولَّاه ما اختاره لنفسه.

وقال بعضهم: احذره، فإنَّه غيورٌ، لا يحبُّ أن يرىٰ في قلب عبده سواه[٢].

ومن غيرته سبحانه: أنَّ صفيَّه آدم لمَّا ساكن بقلبه الجنَّةَ، وحرص علىٰ الخلود فيها أخرجه منها.

ومن غيرته سبحانه: أنَّ إبراهيم خليله لمَّا أخذ إسماعيلُ شعبةً من قلبه أمره بذبحه، حتَّىٰ يخرج من قلبه.

إنَّما كان الشِّرك عنده ذنبًا لا يُغفَر لتعلُّق قلب المشرك به وبغيره، فكيف بمن علَّق قلبَه كلَّه بغيره وأعرض عنه بكلِّيَّته؟

إذا أردت أن تعرف ما حلَّ بك من بلاء الانفصال وذلِّ الحجاب، فانظر لمن استعبد قلبَك، واستخدم جوارحَك، وبمن شُغِل سرُّك، وأين يبيت قلبك إذا أخذت مضجعك؟ وإلىٰ أين يطير إذا استيقظتَ من منامك؟ فذلك هو معبودُك وإلهُك؛ فإذا سمعت النِّداء يوم اللقاء: لينطلق كلُّ أحدٍ مع من كان يعبده[٣]،

---

(١) «القشيرية» (ص٥٤٦).

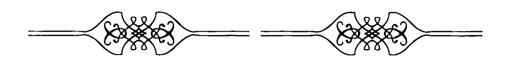
(٢) «القشيرية» (ص٥٥٠).

(٣) كما ثبت من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الطويل في الشفاعة، أخرجه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢).

انطلقت معه كائنًا من كان.

لا إله إلَّا الله! ما أشدَّ غبنَ من باع أطيبَ الحياة في هذه الدار المتَّصلة بالحياة الطيِّبة هناك، والنعيمَ المقيمَ بالحياة المنغَّصة المنكَّدة المتَّصلة بالعذاب الأليم؛ والمدَّةُ ساعةٌ من نهارٍ، أو عشيَّةٌ أو ضحاها، أو يومٌ أو بعض يومٍ، فيه ربح الأبد وخسارة الأبد.

فما هي إلَّا ساعةٌ ثمَّ تنقضي ويذهب هذا كلُّه ويزولُ[(١)]



(١) لعله أخذه من شعرٍ لبهاء الدين زُهير الكاتب في «ديوانه» (ص٢٧٩):
وما هي إلا غيبةٌ ثم نلتقي ويذهب هذا كلُّه ويزولُ

فصل

٤/ ٢٧٧

باب المعرفة

قال صاحب «المنازل»[(١)]: (باب المعرفة. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾[المائدة: ٨٣].
المعرفة: إحاطةٌ بعين الشيء كما هو).

قلت: وقع في القرآن لفظ «المعرفة» ولفظ «العلم»، فلفظ «المعرفة» كقوله تعالى: ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾[البقرة: ١٤٦].

وأمَّا لفظ «العلم» فهو أكثر وأوسع إطلاقًا، كقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾[محمد: ١٩]، وقوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[آل عمران: ١٨]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾[الأنعام: ١١٤]، وقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[طه: ١١٤]، وقوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾[الرعد: ١٩]، وقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر: ٩]، وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ﴾[الروم: ٥٦].

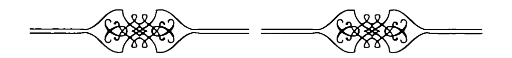
واختار سبحانه لنفسه اسم «العلم» وما تصرَّف منه، فوصف نفسه بأنَّه عالمٌ، وعليمٌ، وعلَّامٌ، وعَلِم، ويَعلم، وأخبر أنَّ له علمًا، دون لفظ «المعرفة»؛ ومعلومٌ أنَّ الاسم الذي اختاره لنفسه أكملُ نوعِه المشارك له في معناه.

وإنَّما جاء لفظ المعرفة في القرآن في مؤمني أهل الكتاب خاصَّةً،

(١) (ص١٠٢).

كقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۝٨٢ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾[المائدة: ٨٢- ٨٣]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ﴾[البقرة: ١٤٦].

وهذه الطائفة ترجِّح المعرفة علىٰ العلم جدًّا، وكثيرٌ منهم لا يرفع بالعلم رأسًا، ويعدُّه قاطعًا وحجابًا دون المعرفة. وأهلُ الاستقامة منهم أشدُّ الناس وصيَّةً للمريدين بالعلم، وعندهم أنَّه لا يكون وليٌّ لله كاملُ الولاية من غير أولي العلم أبدًا، فما اتَّخذ الله ولا يتَّخذ وليًّا جاهلًا؛ فالجهل رأس كلِّ بدعةٍ وضلالةٍ ونقص، والعلمُ أصل كلِّ خيرٍ وهدًىٰ وكمال.



فصل

الفرق بين العلم والمعرفة لفظًا ومعنىً

والفرق بين العلم والمعرفة لفظًا ومعنىً[1].

أمَّا اللفظ ففعل المعرفة يقع علىٰ مفعولٍ واحدٍ، تقول: عرفت الدار، وعرفت زيدًا، قال تعالىٰ: ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾[يوسف: ٥٨]، وقال: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾[البقرة: ١٤٦]. وفعل العلم يقتضي مفعولين، كقوله: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾[الممتحنة: ١٠]. وإذا وقع علىٰ مفعولٍ واحدٍ كان بمعنىٰ المعرفة، كقوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[الأنفال: ٦٠].

وأمَّا الفرق المعنويُّ فمن وجوهٍ:

أحدها: أنَّ المعرفة تتعلَّق بذات الشيء، والعلم يتعلَّق بأحواله، فتقول: عرفت أباك، وعلمتُه صالحًا. ولذلك جاء الأمر في القرآن بالعلم دون المعرفة، كقوله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[محمد: ١٩]، وقوله: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[المائدة: ٩٨]، وقوله: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾[هود: ١٤].

فالمعرفة: حضور صورة الشيء ومثاله العلميِّ في النَّفس، والعلم: حضور أحواله وصفاته ونسبتها إليه. فالمعرفة تشبه «التصوُّر»، والعلم يشبه «التصديق»[2].

الثاني: أنَّ المعرفة في الغالب تكون لِما غاب عن القلب بعد إدراكه، فإذا أدركه قيل: عرفه، أو تكون لِما وُصف له بصفاتٍ قامت في نفسه، فإذا رآه وعلم أنَّه الموصوف بها قيل: عرفه، قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً

(١) انظر: «بدائع الفوائد» (٢/ ٤٨٥ وما بعدها).

(٢) «التصور» و«التصديق» هنا علىٰ اصطلاح أهل المنطق، فالأول: العلم بذات الشيء، والثاني: نسبة الشيء إلىٰ آخر سلبًا أو إيجابًا.

﴿مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾[يونس: ٤٥]، وقال: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾[يوسف: ٥٨]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾[البقرة: ١٤٦]، لمَّا كانت صفاته معلومةً عندهم فرأوه، عرفوه بتلك الصِّفات.

والفرق بين العلم والمعرفة عند أهل هذا الشأن: أنَّ المعرفة عندهم هي العلم الذي يقوم العالم بموجَبه ومقتضاه، فلا يطلقون المعرفة علىٰ مدلول العلم وحده، بل لا يصفون بالمعرفة إلَّا من كان عالمًا بالله، وبالطريق المُوصِل إليه، وبآفاتها وقواطعها، وله حالٌ مع الله يشهد له بالمعرفة.

فالعارف عندهم من عرف الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله، ثمَّ صدق الله في معاملاته، ثمَّ أخلص له في قصوده ونيَّاته، ثمَّ انسلخ من أخلاقه الرديَّة وآفاته، ثمَّ تطهَّر مِن أوساخه وأدرانه ومخالفاته، ثمَّ صبر علىٰ أحكامه في نِعَمه وبليَّاته، ثمَّ دعا إليه علىٰ بصيرةٍ بدينه وآياته، ثمَّ جرَّد الدعوة إليه وحده بما جاء به رسوله، ولم يَشُبْها بآراء الرِّجال وأذواقهم ومواجيدهم ومقاييسهم ومعقولاتهم، ولم يزن بها ما جاء به الرسول عليه من الله أفضل صلواته؛ فهذا الذي يستحقُّ اسم العارف علىٰ الحقيقة، إذا سمِّي به غيره علىٰ الدعوىٰ والاستعارة.

وقد تكلَّموا علىٰ «المعرفة» بآثارها وشواهدها، فقال بعضهم: من أمارات المعرفة بالله حصول الهيبة منه، فمن ازدادت معرفتُه ازدادت هيبتُه.

وقال أيضًا: المعرفة توجب السُّكون، فمن ازدادت معرفته ازدادت سكينته[(١)].

وقال لي بعض أصحابنا: ما علامة المعرفة التي يشيرون إليها؟ فقلت له: أنس القلب بالله، فقال لي: علامتها أن يحسَّ بقرب قلبه من الله، فيجده قريبًا منه.

---

(١) هذا والذي قبله ذكرهما القشيري (ص٦٣٩)، عن شيخه أبي عليٍّ الدقَّاق.

وقال الشِّبليُّ: ليس لعارفٍ علاقةٌ، ولا لمحبٍّ شكوىٰ، ولا لعبدٍ دعوىٰ، ولا لخائفٍ قرارٌ، ولا لأحدٍ من الله فرار[١]. وهذا كلام جيِّد، فإنَّ المعرفة الصحيحة تقطع من القلب العلائق كلَّها، وتُعلِّقه بمعروفه، فلا يبقىٰ فيه علاقةٌ بغيره، ولا تمرُّ به العلائق إلَّا وهي مجتازة، لا تمرُّ به مرور استيطانٍ.

وقال أحمد بن عاصمٍ: من كان بالله أعرف كان له أخوف[٢]. ويدلُّ علىٰ هذا قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[فاطر: ٢٨] وقولُ النبيِّ ﷺ: «**أنا أعرفكم بالله، وأشدُّكم له خشيةً**»[٣].

وقال آخر: من عرف الله تعالىٰ صفا له العيش، وطابت له الحياة، وهابه كلُّ شيءٍ، وذهب عنه خوف المخلوقين، وأَنِس بالله.

وقال غيره: من عرف الله قرَّت عينه بالله، وقرَّت به كلُّ عينٍ، ومن لم يعرف الله تقطَّع قلبه علىٰ الدُّنيا حسراتٍ.

ومن عرف الله لم يبق له رغبةٌ في سواه، ومن ادَّعىٰ معرفة الله وهو راغبٌ في غيره كذَّبَتْ رغبتُه معرفتَه.

ومن عرف الله أحبَّه علىٰ قدر معرفته به، وخافه ورجاه، وتوكَّل عليه، وأناب إليه، ولهج بذكره، واشتاق إلىٰ لقائه، واستحيا منه، وأجلَّه وعظَّمه علىٰ قدر معرفته به.

وعلامة العارف: أن يكون قلبه مرآةً، إذا نظر فيها رأىٰ فيها الغيب الذي دُعي إلىٰ الإيمان به.

---

(١) أسنده القشيري (ص٦٣٩).
(٢) أسنده المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٧٩١)، والقشيري (ص٦٤١).
(٣) أخرجه البخاري (٦١٠١، ٧٣٠١)، ومسلم (٢٣٥٦)، من حديث عاشة بلفظ: «إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية».

ومن علامات المعرفة: أن يبدو لك الشاهد، وتفنىٰ الشواهد، وتنحلَّ العلائق، وتنقطع العوائق، وتجلس بين يدي الربِّ تعالىٰ، وتقوم وتضطجع علىٰ التأهُّب للقائه، كما يجلس الذي قد شدَّ أحماله وأزمع السفر علىٰ التّأهُّب له، ويقوم علىٰ ذلك ويضطجع عليه، وكما ينزل المسافر في المنزل، فهو جالس وقائم ومضطجع علىٰ التأهُّب.

وقيل للجنيد: إنَّ أقوامًا يدَّعون المعرفة، يقولون: إنَّهم يَصِلون بترك الحركات من باب البرِّ والتّقوىٰ؟ فقال الجنيد: هذا قول أقوامٍ تكلَّموا بإسقاط الأعمال، وهو عندي عظيمٌ، والَّذي يسرق ويزني أحسن حالًا من الذي يقول هذا، إنّ العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله، وإلىٰ الله رجعوا فيها، ولو بقيتُ ألف عامٍ لم أنقص من أعمال البرِّ ذرَّةً[1].

ومن علامات العارف: أنَّه لا يطالب ولا يخاصم، ولا يعاتب، ولا يرىٰ له علىٰ أحدٍ فضلًا، ولا يرىٰ له علىٰ أحدٍ حقًّا.

ومن علاماته: أنَّه لا يأسف علىٰ فائتٍ، ولا يفرح بآتٍ؛ لأنَّه ينظر إلىٰ الأشياء بعين الفناء والزوال، لأنَّها في الحقيقة كالظِّلال والخيال.

وقال الجنيد: لا يكون العارف عارفًا حتىٰ يكون كالأرض يطؤها البَرُّ والفاجر، وكالسحاب يُظلُّ كلَّ شيءٍ، وكالمطر يَسقي ما يحبُّ وما لا يحبُّ[2].

وقال يحيىٰ بن معاذٍ: يخرج العارف من الدُّنيا ولم يَقضِ وطَرَه من شيئين: بكاؤه علىٰ نفسه، وثناؤه علىٰ ربِّه[3]. وهذا من أحسن الكلام، فإنَّه يدلُّ علىٰ معرفته بنفسه وعيوبه وآفاته، وعلىٰ معرفته بربِّه وكماله وجلاله، فهو شديد

---

(١) «الحلية» (١٠/ ٢٧٨)، و«القشيرية» (ص١٥٤-١٥٥، ٦٤٢).
(٢) «القشيرية» (ص٦٤٣).
(٣) «القشيرية» (ص٦٤٣).

الإزراء علىٰ نفسه، لَهِجٌ بالثناء علىٰ ربِّه.

وقال أبو يزيد: إنما نالوا المعرفة بتضييع ما لهم والوقوف مع ما له[(١)]. يريد تضييعَ حظوظهم، والوقوفَ مع حقوق الله سبحانه وتعالىٰ، فتُفنيهم حقوقُه عن حظوظهم.

وقال ابن عطاءٍ: المعرفة علىٰ ثلاثة أركانٍ: الهيبة والحياء والأنس[(٢)].

وقيل لذي النُّون: بم عرفت ربَّك؟ فقال: عرفت ربِّي بربِّي، ولولا ربِّي لما عرفت ربِّي[(٣)].

وقيل لعبد الله بن المبارك: بماذا نعرف ربَّنا؟ قال: بأنَّه فوق سماواته علىٰ عرشه بائنٌ من خلقه[(٤)]. فأتىٰ عبد الله بأصل المعرفة التي لا يصحُّ لأحدٍ معرفةٌ ولا إقرارٌ بالله سبحانه إلَّا به، وهو المباينة والعلوُّ علىٰ العرش.

ومن علامات العارف: أن يعتزل الخلق بينه وبين الله، حتَّىٰ كأنَّهم أمواتٌ لا يملكون له ضَرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا؛ ويعتزلَ نفسه بينه وبين الخلق، حتىٰ يكون بينهم بلا نفسٍ. وهذا معنىٰ قول من قال: العارف يقطع الطريق بخطوتين: خطوة عن نفسه، وخطوة عن الخلق.

وقيل: العارف ابن وقته[(٥)]. وهذا من أحسن الكلام وأخصره، فهو مشغولٌ بوظيفة وقته عمَّا مضىٰ وصار في العدم، وعمَّا لم يدخل بعدُ في الوجود، فهمُّه عمارة وقته الذي هو مادَّة حياته الباقية.

---

(١) «القشيرية» (ص٦٤٣)، وقد أسنده السلمي في «طبقاته» (ص٧١).
(٢) أسنده القشيري (ص٦٤٣).
(٣) أسنده القشيري (ص٦٤٣) بمثله، والسلمي في «طبقاته» (ص٧٢) بنحوه.
(٤) أسنده عثمان الدارمي في «الرد علىٰ الجهمية» (ص٤٧، ٩٨) بإسناد صحيح.
(٥) «القشيرية» (ص٢٣٢).

ومن علاماته: أنَّه مستأنسٌ بربِّه، مستوحشٌ ممَّن يقطعه عنه. ولهذا قيل: العارف من أنس بالله فأوحشه من الخلق، وافتقر إلىٰ الله فأغناه عنهم، وذلَّ لله فأعزَّه فيهم، وتواضع لله فرفعه بينهم، واستغنىٰ بالله فأحوجهم إليه[1].

وقيل: العارف فوق ما يقول، والعالم دون ما يقول[2]. يعني أنَّ العالم علمُه أوسع من حاله وصفته، والعارف حاله وصفته فوق كلامه وخبره.

وقال أبو سليمان الدارانيُّ: إنَّ الله تعالىٰ يفتح للعارف علىٰ فراشه ما لا يفتح له وهو قائمٌ يصلِّي[3]. وقال غيره: العارف تنطق المعرفة علىٰ قلبه وحاله وهو ساكتٌ[4].

وقال ذو النُّون: لكلِّ شيءٍ عقوبةٌ، وعقوبة العارف انقطاعه عن ذكر الله[5].

وسئل الجنيد عن العارف؟ فقال: لون الماء لون إنائه[6]. وهذه كلمةٌ رمز بها إلىٰ حقيقة العبوديَّة، وهو أنه يتلوَّن بتلوُّن أقسام العبوديَّة، فبينا تراه مصلِّيًا إذ رأيته ذاكرًا، وقارئًا، ومعلِّمًا، ومتعلِّمًا، ومجاهدًا، وحاجًّا، ومساعدًا للضعيف، ومغيثًا للملهوف؛ فيضرب في كلِّ غنيمةٍ من الغنائم بسهمٍ، فهو مع المتسبِّبين متسبِّب، ومع المتعلِّمين متعلِّم، ومع الغزاة غازٍ، ومع المصلِّين مصلٍّ، ومع المتصدِّقين متصدِّق؛ فهو يتنقَّل في منازل العبوديَّة من عبوديَّةٍ إلىٰ عبوديَّة، وهو مقيمٌ علىٰ معبودٍ واحدٍ لا ينتقل عنه إلىٰ غيره.

وقال أبو سعيدٍ[7]: المعرفة تأتي من عين الوجد، وبذل المجهود. وهذا كلامٌ حسنٌ، يشير إلىٰ أنَّ المعرفة ثمرة بذل المجهود في الأعمال وتحقيقِ الوجد في

---

(١) ذكر القشيري (ص٦٤٤) بعضَه بلا نسبة.
(٢) أسنده أبو نُعيم في «الحلية» (١٠/ ٣٩)، عن أبي يزيد البُسطامي.
(٣) «القشيرية» (ص٦٤٤).
(٤) ذكر القشيري (ص٦٤٤) نحو معناه عن الجنيد.
(٥) «القشيرية» (ص٦٤٤)، وقد أسنده أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٣٥٥).
(٦) ذكره عن الجنيد الكلاباذيُّ في «التعرُّف» (ص١٠٦)، والقشيري (ص٦٤٤).
(٧) الخرَّاز، وقوله في «اللمع» (ص٣٥)، و«القشيرية» (ص٦٤٦)، وأسنده عنه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٤٧).

الأحوال، فهي ثمرة عمل الجوارح، وحالُ القلب لا ينال بمجرَّد العلم والبحث، فمن ليس له عملٌ ولا حالٌ فلا معرفة له.

وسئل ذو النُّون عن العارف؟ فقال: كان هاهنا فذهب. فسئل الجنيد عمَّا أراد بكلامه هذا؟ فقال: لا يحصره حالٌ عن حالٍ، ولا يحجبه منزلٌ عن التنقُّل في المنازل، فهو مع أهل كلِّ منزلٍ علىٰ الذي هم فيه، يجد مثل الذي يجدون، وينطق بمعالمها لينتفعوا[(١)].

وقال محمَّد بن الفضل: المعرفة حياة القلب مع الله[(٢)].

وسئل أبو سعيدٍ: هل يصل العارف إلىٰ حالٍ يجفو عليه البكاء؟ فقال: نعم، إنَّما البكاء في أوقات سيرهم إلىٰ الله؛ فإذا نزلوا بحقائق القرب، وذاقوا طعم الوصول مِن برِّه= زال عنهم ذلك[(٣)].

وقال بعض السلف: نوم العارف يقظة، وأنفاسه تسبيح، ونوم العارف أفضل من صلاة الغافل. وإنَّما كان نوم العارف يقظةً لأنَّ قلبه حيٌّ، فعيناه تنامان وروحُه ساجدةٌ تحت العرش بين يدي ربِّها وفاطرها، جسده في الفرش وقلبه حول العرش. وإنَّما كان نومه أفضل من صلاة الغافل لأنَّ بدن الغافل واقفٌ في الصلاة، وقلبه يَسيح في حشوش الدُّنيا والأمانيِّ، ولذلك كانت يقظته نومًا، لأنَّ قلبه موات.

وقيل: مجالسة العارف تدعوك من ستٍّ إلىٰ ستٍّ: من الشكِّ إلىٰ اليقين، ومن الرياء إلىٰ الإخلاص، ومن الغفلة إلىٰ الذِّكر، ومن الرَّغبة في الدُّنيا إلىٰ الرَّغبة في الآخرة، ومن الكبر إلىٰ التواضع، ومن سوء الطويَّة إلىٰ النصيحة[(٤)].

---

(١) أسنده القشيري (ص٦٤٦).
(٢) أسنده القشيري (ص٦٤٦).
(٣) أسنده القشيري (ص٦٤٧).
(٤) أسند أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٧٢) نحوه عن جابر مرفوعًا، وكذا من طريقه عن أنس مرفوعًا، قال أبو نعيم: وهذا الحديث كلام كان شقيق كثيرًا ما يعظ به أصحابه والناس، فوهم فيه الرواة فرفعوه وأسندوه.

فصل

لا معرفة من غير الإيمان بصفات الرب تعالىٰ

قال صاحب «المنازل»[(١)]: **(المعرفة معرفة الصِّفات والنُّعوت، وقد وردت أساميها بالرِّسالة، وظهرت شواهدُها في الصَّنعة)**.

لا يستقرُّ للعبد قدمٌ في المعرفة بل ولا في الإيمان حتَّىٰ يؤمن بصفات الربِّ جلَّ جلاله، ويعرفَها معرفةً تخرجه عن حدِّ الجهل بربِّه، فالإيمان بالصِّفات ومعرفتُها هو أساس الإسلام، وقاعدة الإيمان، وثمرة شجرة الإحسان. فمن جحد الصِّفات فقد هدم أساس الإسلام والإيمان والإحسان، فضلًا عن أن يكون من أهل العرفان.

وقد جعل الله سبحانه منكر صفاته مسيءَ الظنِّ به، وتوعَّده بما لم يتوعَّد به غيره من أهل الشِّرك والكبائر، فقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[فصلت: ٢٢- ٢٣]، فأخبر سبحانه: أنَّ إنكارهم هذه الصِّفة من صفاته من سوء ظنِّهم به، وأنَّه هو الذي أهلكهم. وقد قال في الظانِّين به ظنَّ السَّوء: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[الفتح: ٦]. ولم يجئ مثل هذا الوعيد في غير من ظنَّ السَّوء به سبحانه، وجحدُ صفاته وإنكارُ حقائق أسمائه من أعظم ظنِّ السَّوء به.

---

(١) (ص١٠٢-١٠٣).

فصل

الرسل عليهم السلام أرسلوا لبيان ثلاث قواعد

والرُّسل من أوَّلهم إلىٰ خاتمهم صلوات الله وسلامه عليهم أُرسلوا بالدعوة إلىٰ الله، وبيان الطريق الموصل إليه، وبيان حال المدعوِّين بعد وصولهم إليه. فهذه **القواعد الثلاث** ضروريَّةٌ في كلِّ ملَّةٍ علىٰ لسان كلِّ رسولٍ، فعرَّفوا الربَّ المدعوَّ إليه بأسمائه وصفاته وأفعاله تعريفًا مفصَّلًا، حتّىٰ كأنَّ العباد يشاهدونه سبحانه، وينظرون إليه فوق سماواته علىٰ عرشه، يكلِّم ملائكته، ويدبِّر أمر مملكته، ويسمع أصوات خلقه، ويرىٰ أفعالهم وحركاتِهم، ويشاهد بواطنهم كما يشاهد ظواهرهم، يأمر وينهىٰ، ويرضىٰ ويغضب، ويحبُّ ويسخط، ويضحك من قنوطهم وقُرب غِيَره، ويجيب دعوة مضطرِّهم، ويغيث ملهوفهم، ويعين محتاجهم، ويجبر كسيرهم، ويغني فقيرهم، ويميت ويحيي، ويعطي ويمنع، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممَّن يشاء، ويعزُّ من يشاء ويذلُّ من يشاء، بيده الخير وهو علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ، كلَّ يومٍ هو في شأنٍ: يغفر ذنبًا، ويفرِّج كربًا، ويفكُّ عانيًا، وينصر مظلومًا، ويقصم ظالمًا، ويرحم مسكينًا، ويغيث ملهوفًا، ويسوق الأقدار إلىٰ مواقيتها، ويجريها علىٰ نظامها، ويقدِّم ما يشاء تقديمه، ويؤخِّر ما يشاء تأخيره؛ فأزمَّة الأمور كلِّها بيديه، ومدار تدبير الممالك كلِّها عليه. وهذا مقصودُ الدعوة وزبدةُ الرِّسالة.

القاعدة الثانية: تعريفهم بالطريق الموصل إليه، وهو صراطه المستقيم الذي نصبه لرسله وأتباعهم، وهو امتثال أمره، واجتناب نهيه، والإيمان بوعده ووعيده.

القاعدة الثالثة: تعريف الحال بعد الوصول، وهو ما تضمَّنه اليوم الآخر من الجنَّة والنار، وما قبل ذلك من الحساب، والحوض والميزان والصِّراط.

فالإيمان بالصِّفات ومعرفتُها، وإثباتُ حقائقها، وتعلُّقُ القلب بها، وشهودُه لها= هو مبدأ الطريق ووسطه وغايته. وهو روح السالكين، وحاديهم إلىٰ الوصول، ومحرِّكُ عزماتهم إذا فتروا، ومثيرُ هِمَمهم إذا قصروا؛ فإنَّ سَيرهم إنَّما هو علىٰ الشواهد، فمن لا شاهد له لا سيرَ له ولا طلب ولا سلوك، وأعظم الشواهد: شواهد صفات محبوبهم ونهايةِ مطلوبهم، وذلك هو العَلَم الذي رُفع لهم في السَّير فشمَّروا إليه، كما قالت عائشة ﵂: من رأىٰ رسول الله ﷺ فقد رآه غاديًا رائحًا، لم يضع لبنةً علىٰ لبنةٍ، ولكن رُفع له عَلَمٌ فشمَّر إليه[1]. ولا يزال العبد في التواني والفتور والكسل، حتَّىٰ يرفع الله له بفضله ومنِّه عَلَمًا يشاهده بقلبه، فيشمِّر إليه، ويعمل عليه.

فإذا عُطِّلت شواهد الصِّفات، ووُضعت أعلامها من القلوب، وطمست آثارها فيها= ضُربت بسياط البعد، وأُسبل دونها حجابُ الطرد، وتخلَّفت مع المتخلِّفين، وأوحىٰ إليها القدر: أن اقْعُدي مع القاعدين؛ فإنَّ أوصاف المدعوِّ إليه ونعوتَ كماله وحقائقَ أسمائه هي الجاذبةُ للقلوب إلىٰ محبَّته وطلبِ الوصول إليه، لأنَّ القلوب إنَّما تحبُّ من تعرفه، وتخافه وترجوه وتشتاق إليه، وتلذُّ بقربه وتطمئنُّ إلىٰ ذكره= بحسب معرفتها بصفاته، فإذا ضُرب دونها حجابُ معرفة الصِّفات والإقرارِ بها امتنع منها بعد ذلك ما هو مشروطٌ بالمعرفة وملزومٌ لها، إذ وجود الملزوم بدون لازمه والمشروط بدون شرطه ممتنع. فحقيقة المحبَّة والإنابةِ والتوكُّلِ ومقامِ الإحسان ممتنعٌ علىٰ المعطِّل امتناعَ حصول المُغَلِّ من معطِّل البذر، بل أعظمَ امتناعًا.

قوله: (**قد وردت أساميها بالرِّسالة...**) إلىٰ آخره.

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٤٠) عن الحسن البصري من قوله. وروي نحوه عن عائشة مرفوعًا، أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣٢٤١)، وإسناده واه.

ذكر أنَّ إثبات الصِّفات دلَّ عليه: الوحيُ الذي جاء من الله علىٰ لسان رسوله، والحسُّ الذي شاهد به البصيرُ آثار الصَّنعة فاستدلَّ بها علىٰ صفات صانعها، والعقلُ الذي طابت حياته بزرع الفكر، والقلبُ الذي حيي بحسن النظر بين التعظيم والاعتبار.

فأمَّا الرسالة، فإنَّها جاءت بإثبات الصفات إثباتًا مفصَّلًا علىٰ وجهٍ أزال الشُّبهة وكشف الغطاء، وحصَّل العلمَ اليقينَ، ورفعَ الشكَّ والرَّيب، فثلجت له الصُّدور، واطمأنَّت به القلوب، واستقرَّ به الإيمان في نصابه؛ ففصَّلت الرسالةُ الصفاتِ والنُّعوتَ والأفعالَ أعظمَ من تفصيل الأمر والنهي، وقرَّرت إثباتها أكملَ تقريرٍ في أبلغ لفظٍ، وأبعدِه عن الإجمال والاحتمال، وأَمْنَعِه من قبول التّأويل. ولذلك كان تأويلُ آيات الصِّفات وأحاديثها بما يخرجها عن حقائقها من جنس تأويل آيات المعاد وأخباره، بل أبعدَ منه وأفسدَ لوجوهٍ كثيرةٍ ذكرناها في كتاب «الصواعق المرسلة علىٰ الجهميَّة والمعطِّلة»[1]. بل تأويل آيات الصِّفات بما يُخرجها عن حقائقها كتأويل آيات الأمر والنهي، فالباب كلُّه بابٌ واحد، ومصدرُه واحد، ومقصودُه واحد، وهو إثبات حقائقه والإيمان بها.

وقوله: **(وظهرت شواهدها في الصنعة)**، هذا هو الطريق الثاني من طرق إثبات الصِّفات، وهو دلالة الصَّنعة عليها، فإنَّ المخلوق يدلُّ علىٰ وجود خالقه، وعلىٰ حياته، وعلىٰ قدرته، وعلىٰ علمه ومشيئته، فإنَّ الفعل الاختياريَّ يستلزم ذلك استلزامًا ضروريًّا.

وما فيه من الإتقان والإحكام ووقوعه علىٰ أكمل الوجوه يدلُّ علىٰ حكمة فاعله وعنايته.

---

(١) (٣/ ١٠٩٦-١١٠٦)، وانظر «مختصره» (ص١١ وما بعدها).

وما فيه من الإحسان والنفع، ووصولِ المنافع العظيمة إلىٰ المخلوق يدلُّ علىٰ رحمة خالقه، وإحسانه وجوده.

وما فيه من آثار الكمال يدلُّ علىٰ أنَّ خالقه أكمل منه، فمعطي الكمال أحقُّ بالكمال، وخالقُ الأسماع والأبصار والنُّطق أحقُّ بأن يكون سميعًا بصيرًا متكلِّمًا، وخالق الحياة والعلوم والقُدَر والإرادات أحقُّ بأن يكون هو كذلك في نفسه. فما في المخلوقات من أنواع التخصيصات من أدلِّ شيءٍ علىٰ إرادة الربِّ تعالىٰ ومشيئته وحكمته التي اقتضت التّخصيص.

وحصولُ الإجابة عقيب سؤال المطلوب علىٰ الوجه المطلوب دليلٌ علىٰ علم الربِّ تعالىٰ بالجزويَّات، وعلىٰ سمعه لسؤال عبيده، وعلىٰ قدرته علىٰ قضاء حوائجهم، وعلىٰ رأفته ورحمته بهم.

والإحسان إلىٰ المطيعين، والتقريبُ لهم والإكرام، وإعلاءُ درجاتهم يدلُّ علىٰ محبَّته ورضاه. وعقوبتُه للعصاة والظلمة وأعداء رسله بأنواع العقوبات المشهودة تدلُّ علىٰ صفة الغضب والسُّخط، والإبعادُ والطردُ والإقصاءُ يدلُّ علىٰ المقت والبغض.

فهذه الدلالات من جنسٍ واحدٍ عند التأمُّل. ولهذا دعا سبحانه عبادَه في كتابه إلىٰ الاستدلال بذلك علىٰ صفاته، فهو يثبت العلمَ بربوبيَّته ووحدانيَّته، وصفاتِ كماله بآثار صُنعه المشهودة، والقرآن مملوءٌ من ذلك.

فيظهر شاهد اسم «الخالق» من نفس المخلوق، وشاهد اسم «الرزَّاق» من وجود الرِّزق، وشاهد اسم «الرحيم» من شهود الرحمة المبثوثة في العالم، واسم «المعطي» من وجود العطاء الذي هو مدرارٌ لا ينقطع لحظةً واحدةً، واسم «الحليم» من حلمه عن الجُناة والعُصاة وعدم معاجلتهم، واسم «الغفور» و«التوَّاب» من

مغفرة الذُّنوب وقبول التوبة، ويظهر شاهد اسم «الحكيم» من العلم بما في خلقه وأمره من الحِكَم والمصالح ووجوه المنافع. وهكذا كلُّ اسمٍ من أسمائه الحسنىٰ له شاهدٌ في خلقه وأمره، يعرفه من عرفه ويجهله من جهله، فالخلق والأمر من أعظم شواهد أسمائه وصفاته.

وكلُّ سليم العقل والفطرة يعرف قدرَ الصانع وحَذْقَه، وتبريزَه علىٰ غيره، وتفرُّدَه بكمالٍ لم يشاركه فيه غيرُه= من مشاهدة صُنعه، فكيف لا تُعرَف صفات مَن هذا العالَمُ العلويُّ والسفليُّ وهذه المخلوقاتُ مِن بعض صنعه؟!

وإذا اعتبرتَ المخلوقات والمأمورات، وجدتها كلَّها دالَّةً علىٰ النُّعوت والصِّفات وحقائقِ الأسماء الحسنىٰ، وعلمت أنَّ المعطِّل من أعظم الناس عمًىٰ ومكابرةً. ويكفي ظهور شاهد الصُّنع فيك خاصَّةً كما قال تعالىٰ: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾[الذاريات: ٢١]، فالموجودات بأسرها شواهد صفات الربِّ جلَّ جلاله ونعوتِه وأسمائه، فهي كلُّها تشير إلىٰ الأسماء الحسنىٰ وحقائقها، وتنادي عليها، وتدلُّ عليها، وتخبر بها بلسان النُّطق والحال، كما قيل[(١)]:

تأمَّل سطور الكائنات فإنَّها ... من الملك الأعلىٰ إليك رسائلُ

وقد خُطَّ فيها لو تأمَّلتَ خطَّها ... «ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلُ»

تشير بإثبات الصِّفات لربِّها ... فصامتُها يهدي ومن هو قائلُ

فلستَ ترىٰ شيئًا أدلَّ علىٰ شيءٍ مِن دلالة المخلوقات علىٰ صفات خالقها، ونعوت كماله، وحقائقِ أسمائه، وقد تنوَّعت أدلَّتها بحسب تنوُّعها، فهي تدلُّ عقلًا وحسًّا وفطرةً ونظرًا واعتبارًا.

---

(١) البيتان الأولان لركن الدين ابن القويع المالكي (ت٧٣٨) في ترجمته من «أعيان العصر» (٥/ ١٦٣)، و«الدرر الكامنة» (٤/ ١٨٣)، ولعل البيت الثالث من نظم المؤلف.

٤/ ٣٢٩

باب الفناء

فصل

قال صاحب «المنازل»[1]: (باب الفناء. قال الله تعالىٰ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[الرحمن: ٢٦-٢٧]).

الفناء المذكور في الآية ليس هو الفناءَ الذي تشير إليه الطائفة، فإنَّ الفناء في الآية: الهلاك والعدم، أخبر سبحانه أنَّ كلَّ من علىٰ الأرض يعدم ويموت، ويبقىٰ وجهه سبحانه. وهذا مثل قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[الزمر: ٣٠]، ومثلِ قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[آل عمران: ١٨٥]، قال الكلبيُّ ومقاتل: لمَّا نزلت هذه الآية قالت الملائكة: هلك أهل الأرض، فلمَّا قال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] أيقنت الملائكة بالهلاك.

قال الشعبيُّ: إذا قرأت ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[الرحمن: ٢٦] فلا تسكت حتىٰ تقرأ ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[الرحمن: ٢٧][2]. وهذا من فقهه في القرآن وكمال علمه، إذ المقصود الإخبار بفناء مَن عليها مع بقاء وجهه سبحانه، فإنَّ الآية سيقت لتمدُّحه بالبقاء وحده، ومجرَّدُ فناء الخليقة ليس فيه مدحٌ، إنَّما المدح في بقائه بعد فناء خلقه، فهي نظير قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

وأمَّا الفناء الذي يترجم عليه الطائفة، فأَمرٌ غير هذا، ولكن وجهُ الإشارة بالآية: أنَّ الفناء المشار إليه هو ذهاب القلب وخروجُه من هذا العالم، وتعلُّقه بالعليِّ الكبير الذي له البقاء فلا يدركه الفناء، ومَن فني في محبَّته وطاعته وإرادة

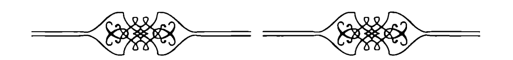
---

(١) (ص١٠٤).

(٢) الأقوال السابقة منقولة من «البسيط» للواحدي (٢١/ ١٥٨).

وجهه أوصله هذا الفناءُ إلىٰ منزل البقاء، فالآية تشير إلىٰ أنَّ العبد حقيقٌ أن لا يتعلَّق بمن هو فانٍ ويذَرَ من له البقاء، وهو ذو الجلال والإكرام؛ فكأنَّه يقول: إذا تعلَّقتَ بمن هو فانٍ انقطع ذلك التعلُّق عند فنائه أحوج ما تكون إليه، وإذا تعلَّقتَ بمن هو باقٍ لا يفنىٰ لم ينقطع تعلُّقك ودامَ بدوامه.

والفناء الذي يترجم عليه هو غاية التعلُّق ونهايته، فإنَّه انقطاعٌ عمَّا سوىٰ الربِّ تعالىٰ من كلِّ وجهٍ.



فصل

الفناء لفظ مجمل ولم يرد في نصوص الشرع

لـم يـرد في الكتـاب، ولا في السنَّة، ولا في كلام الصحابة والتابعين مدحُ لفظ الفناء ولا ذمُّه، ولا استعملوا لفظه في هذا المعنىٰ المشارِ إليه البتَّة، ولا ذكره مشايخ الطريق المتقدِّمون، ولا جعلوه غايةً ولا مقامًا، وقد كان القوم أحقَّ بكلِّ كمالٍ، وأسبقَ إلىٰ كلِّ غايةٍ محمودةٍ.

ونحن لا ننكر هذا اللفظ مطلقًا، ولا نقبله مطلقًا، بل لابدَّ فيه من التفصيل، وبيانِ صحيحه من معلوله، ووسيلته من غايته.

فنقول وبالله التوفيق، وهو الفتَّاح : حقيقة الفناء المشار إليه هو استهلاك الشَّيء في الوجود العلميِّ الذهنيِّ، وهاهنا تَقَسَّمَه أهلُ الاستقامة وأهل الزيغ والإلحاد، فزعم أهلُ الاتِّحاد القائلين بوحدة الوجود أنَّ الفناء الذي هو غاية هو الفناء عن وجود السِّوىٰ، فلا يثبت للسِّوىٰ وجودٌ البتَّة، لا في الشُّهود ولا في العِيان، بل يتحقَّق بشهودِ وحدة الوجود، فيعلم حينئذٍ أنَّ وجود جميع الموجودات هو عين وجود الحقِّ، فما ثَمَّ وجودان، بل الموجود واحد.

وأمَّا أهلُ التوحيد والاستقامة، فيشيرون بالفناء إلىٰ أمرين أحدُهما أرفع من الآخر:

الأمر الأوَّل: في شهود الرُّبوبية والقَيُّومية، فيشهد تفرُّد الربِّ تعالىٰ بالقَيُّوميَّة والتدبير، والخلق والرِّزق، والعطاء والمنع، والضُّرِّ والنَّفع، وأنَّ جميع الموجودات منفعلةٌ لا فاعلةٌ، وما له منها فعلٌ فهو منفعلٌ في فعله، محلٌّ محضٌ لجريان أحكام الربوبيَّة عليه، لا يملك شيءٌ منها لنفسه ولا لغيره ضرًّا ولا نفعًا.

فإذا تحقَّق بهذا المشهد خمدت منه الخواطرُ والإرادات، نظرًا إلىٰ القيُّوم

الذي بيده تدبير الأمور، وشخوصًا منه إلىٰ مشيئته وحكمه، فهو ناظرٌ منه به إليه، فانٍ بشهوده عن شهود ما سواه. ومع هذا فهو ساعٍ في طلب الوصول إليه، قائمًا بالواجبات والنوافل.

الأمر الثاني: الفناء في مشهد الإلهيَّة، وحقيقته: الفناء عن إرادة ما سوىٰ الله ومحبَّته، والإنابةِ إليه، والتوكُّلِ عليه، وخوفِه ورجائه؛ فيفنىٰ بحبِّه عن حبِّ ما سواه، وبخوفه ورجائه عن خوف ما سواه ورجائه. وحقيقة هذا الفناء: إفراد الربِّ سبحانه بالمحبَّة والخوف والرجاء والتعظيم والإجلال. ونحن نشير إلىٰ مبادئ ذلك وتوسُّطه وغايته:

اعلم أنَّ القلب إذا خلا من الاهتمام بالدنيا والتعلُّق بما فيها من مالٍ أو رياسةٍ أو صورة، وتعلَّقَ بالآخرة، والاهتمامِ بها من تحصيل العدَّة، والتَّأهُّبِ للقدوم علىٰ الله سبحانه= فذلك أوَّلُ فتوحه وتباشيرُ فجره، فعند ذلك يتحرَّك قلبُه لمعرفة ما يرضىٰ ربُّه منه فيفعله ويتقرَّب به إليه، وما يسخطه منه فيجتنبه. وهذا عنوانُ صدق إرادته، فإنَّ كلَّ من أيقن بلقاء اللهِ وأنَّه سائلُه عن كلمتين يُسأل عنهما الأوَّلون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟= لابدَّ أن يتنبَّه لطلب معرفة معبوده والطريق الموصلة إليه، فإذا تمكَّن في ذلك فُتح له باب الأنس بالخلوة والوحدة والأماكن الخالية التي تهدأ فيها الأصوات والحركات، فلا شيءَ أشوقُ إليه من ذلك، فإنَّها تجمع عليه قوىٰ قلبه وإرادته، وتسدُّ عليه الأبواب التي تفرِّق همَّه وتشتِّتُ قلبه، فيأنس بها ويستوحش من الخلق.

ثمَّ يُفتح له حلاوة العبادة بحيث لا يكاد يشبع منها، ويجد فيها مِن اللذَّة والراحة أضعاف ما كان يجده في لذَّة اللهو واللعب ونيل الشهوات، بحيث إذا دخل في الصلاة ودَّ أن لا يخرج منها.

ثمَّ يُفتح له حلاوة استماع كلام الله فلا يشبع منه، وإذا سمعه هدأ قلبه به كما يهدأ الصبيُّ إذا أعطي ما هو شديد المحبَّة له. ثمَّ يُفتح له شهودُ عظمة المتكلِّم به وجلاله، وكمال نعوته وصفاته وحكمته، ومعاني خطابه، بحيث يستغرق قلبه في ذلك حتَّىٰ يغيب فيه، ويحسُّ بقلبه قد دخل في عالمٍ آخر غير ما الناس فيه.

ثمَّ يُفتح له باب الحياء من الله، وهو أوَّل شواهد المعرفة. وهو نورٌ يقع في القلب، يريه ذلك النُّور أنَّه واقفٌ بين يدي ربِّه ﷻ، فيستحيي منه في خلواته وجلواته، ويُرزق عند ذلك دوامَ المراقبة للرقيب، ودوامَ التطلُّع إلىٰ حضرة العليِّ الأعلىٰ، حتَّىٰ كأنَّه يراه ويشاهده فوقَ سماواته، مستويًا علىٰ عرشه، ناظرًا إلىٰ خلقه، سامعًا لأصواتهم، مشاهدًا لبواطنهم. فإذا استولىٰ عليه هذا الشاهد غطَّىٰ عليه كثيرًا من الهموم بالدُّنيا وما فيها، فهو في وجودٍ والناس في وجودٍ آخر، هو في وجودٍ بين يدي ربِّه ووليِّه، ناظرًا إليه بقلبه، والناس في حجاب عالم الشهادة في الدُّنيا، فهو يراهم وهم لا يرونه، ولا يرون منه إلَّا ما يناسب عالمهم ووجودهم.

ثمَّ يفتح له الشُّعور بمشهد القيُّوميَّة، فيرىٰ سائر التقلُّبات الكونيَّة وتصاريف الوجود بيده سبحانه وحده، فيَشهده مالكَ الضرِّ والنفع، والخلق والرِّزق، والإحياء والإماتة، فيتَّخذه وحده وكيلًا، ويرضىٰ به ربًّا ومدبِّرًا وكافيًا. وعند ذلك إذا وقع نظرُه علىٰ شيءٍ من المخلوقات دلَّه علىٰ خالقه وبارئه، وصفاتِ كماله ونعوت جلاله، فلا يحجبه خلقه عنه سبحانه، بل يناديه كلٌّ من المخلوقات بلسان حاله: اسمع شهادتي لمن أحسن كلَّ شيءٍ خَلَقه، فأنا صنع الله الذي أتقن كلَّ شيءٍ.

فإذا استمرَّ له ذلك فُتح عليه باب القبض والبسط، فيقبض عليه حتَّىٰ يجد ألم القبض لقوَّة وارده، ثمَّ يفيض وعاؤه بأنوار الوجود، فيفنىٰ عن وجوده، وينمحي كما يمحو نورُ الشمس نورَ الكواكب، ويطوي الكون عن قلبه بحيث لا يبقىٰ فيه إلَّا الله الواحد القهَّار، وتفيض أنوار المعرفة والمعاملة والصِّدق والإخلاص

والمحبَّة من قلبه، كما يفيض نور الشمس عن جرمها، فيغرق حينئذٍ في الأنوار كما يغرق راكب البحر في البحر. وذلك إنَّما يكون بعد الرِّياضة والمجاهدة، وزوالِ أحكام الطبيعة، وطولِ الوقوف في الباب.

وهذا هو من علم اليقين، لا من عين اليقين، ولا من حقِّ اليقين، إذ لا سبيل إليهما في هذه الدار، فإنَّ عين اليقين مشاهدة، وحقَّ اليقين مباشرة. نعم، قد يكون حقُّ اليقين وعين اليقين في هذه الدُّنيا بالنِّسبة إلىٰ الوجود الذِّهنيِّ وما يقوم بالقلوب فقط، ليس إلَّا، كما تقدَّم تقريره مرارًا. ونحن لا تأخذنا في ذلك لومةُ لائمٍ، وهم لا تأخذهم في كون ذلك في العيان لومةُ لائمٍ، وهم عندنا صادقون ملبوسٌ عليهم، ونحن عندهم محجوبون عن ذلك غير واصلين إليه.

فإن استمرَّ علىٰ حاله واقفًا بباب مولاه، لا يلتفت عنه يمينًا ولا شمالًا، ولا يجيب غير من يدعوه إليه، ويعلم أنَّ الأمر وراء ذلك، وأنَّه لم يصل بعد، ومتىٰ توهَّم أنَّه قد وصل انقطع وانقطع عنه المزيد= رُجي أن يفتح له فتحٌ آخر، هو فوق ما كان فيه، فيستغرق قلبُه في أنوار مشاهد الجلال بعد ظهور أنوار الوجود الحقِّ، ومحوِ وجوده هو. ولا تتوهَّم أنَّ وجود ذاته وصفاته يبطل، بل الذي يبطل: وجوده النفسانيُّ الطَّبْعيُّ، ويبقىٰ له وجودٌ قلبيٌّ روحانيٌّ ملكيٌّ، فيبقىٰ قلبُه سابحًا في بحرٍ من أنوار آثار الجلال، فتنبع الأنوار من باطنه كنبع الماء من العين، حتَّىٰ يجد الملكوت الأعلىٰ كأنَّه في باطنه وقلبه، ويجدَ قلبه عاليًا علىٰ ذلك كلِّه، صاعدًا إلىٰ مَن ليس فوقه شيء.

ثمَّ يرقِّيه الله سبحانه، فيُشهده أنوارَ الإكرام بعد ما شهد أنوار الجلال، فيستغرق في نورٍ مِن أشعَّة الجمال. وفي هذا المشهد يذوق المحبَّة الخاصَّة الملهبة للأرواح والقلوب، فيبقىٰ القلب مأسورًا في يد حبيبه ووليِّه، ممتحَنًا بحبِّه.

وإن شئت أن تفهم ذلك تقريبًا، فانظر إليك أو إلىٰ غيرك وقد امتُحنتَ بصورةٍ بديعة الجمال ظاهرًا وباطنًا، فملكَتْ عليك قلبك وفكرك، وليلك ونهارك؛ فيحصل له نارٌ من المحبَّة تتضرَّم في أحشائه يقلُّ معها الاصطبار، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

فيا له مِن قلبٍ ممتحنٍ مغمورٍ مستغرقٍ بما ظهر له من أشعَّة أنوار الجمال الأحديِّ! والناس مفتونون ممتحَنون بما يفنىٰ من المال والصُّور والرِّياسة، معذَّبون بذلك قبل حصوله وحالَ حصوله وبعدَ حصوله، وأعلاهم مرتبةً من يكون مفتونًا بالحور العين، أو عاملًا علىٰ تمتُّعه في الجنَّة بالأكل والشُّرب واللِّباس والنِّكاح.

وهذا المحبُّ قد ترقَّىٰ في درجات المحبَّة علىٰ أهل المقامات، ينظرون إليه في الجنَّة كما يُنظر إلىٰ الكوكب الدُّرِّيِّ الغابر في الأفق لعلوِّ درجته وقربِ منزلته من حبيبه ومعيَّته معه، فإنَّ المرء مع من أحبَّ، ولكلِّ عملٍ جزاءٌ وجزاءُ المحبَّة: المحبَّةُ والوصولُ والاصطناع والقرب، فهذا هو الذي يصلح، وكفىٰ بذلك شرفًا وفخرًا في عاجل الدُّنيا، فما ظنُّك بمقاماتهم العالية عند مليكٍ مقتدرٍ؟ كيف إذا رأيتهم في موقف القيامة، وقد أسمعهم المنادي: لينطلق كلُّ قومٍ مع ما كانوا يعبدون، فيبقَون في مكانهم ينتظرون معبودهم وحبيبهم الذي هو أحبُّ شيءٍ إليهم، حتَّىٰ يأتيهم فينظرون إليه، ويتجلَّىٰ لهم ضاحكًا[(١)].

والمقصود: أنَّ هذا العبد لا يزال اللهُ يرقِّيه طبقًا بعد طبقٍ، ومنزلًا بعد منزلٍ، إلىٰ أن يوصله إليه ويمكِّن له بين يديه، أو يموتَ في الطريق فيقع أجرُه علىٰ الله. فالسعيد كلُّ السعيد، الموفَّقُ كلَّ التوفيق مَن لم يلتفت عن ربِّه تبارك وتعالىٰ يمينًا ولا شمالًا، ولا اتَّخذ سواه ربًّا ولا وكيلًا، ولا حبيبًا

---

(١) كما في حديث جابر عند مسلم (١٩١/ ٣١٦).

ولا مدبِّرًا، ولا حكمًا ولا ناصرًا ولا رازقًا.

وجميع ما تقدَّم من مراتب الوصول إنَّما هو شواهدُ وأمثلة، إذا تجلَّت له الحقائق في الغيب بحسب استعداده ولطفه ورقَّته من حيث لا يراها= ظهر له من تجلِّيها شاهدٌ في قلبه، وذلك الشّاهد دالٌّ عليها ليس هو عينَها، فإنَّ نور الجلال في القلب ليس هو نور ذي الجلال في الخارج، فإنَّ ذلك لا تقوم له السماوات والأرض، ولو ظهر للوجود لتَدَكْدَك، لكنَّه شاهدٌ دالٌّ علىٰ ذلك، كما أنَّ المثل الأعلىٰ شاهدٌ دالٌّ علىٰ الذات، والحقُّ وراء ذلك كلِّه، منزَّهٌ عن حلولٍ واتِّحادٍ وممازجةٍ لخلقه. وإنَّما تلك رقائق وشواهد تقوم بقلب العارف، تدلُّ علىٰ قرب الألطاف منه في عالم الغيب حيث لا يراها. وإذا فني فإنَّما يفنىٰ بحال نفسه لا بالله ولا فيه، وإذا بقي فإنَّما يبقىٰ بحاله هو ووصفه، لا ببقاء ربِّه وصفاته، ولا يبقىٰ بالله إلَّا الله.

ومع ذلك فالوصول حقٌّ، يجد الواصل آثار تجلِّي الصِّفات في قلبه، وآثار تجلِّي الحقِّ في قلبه، ويُوقَف القلب فوق الأكوان كلِّها بين يدي الربِّ تعالىٰ، وهو علىٰ عرشه، ومن هناك يكاشَف بآثار الجلال والإكرام، فيجد العرش والكرسيَّ تحت مشهدِ قلبه حُكمًا، وليس الذي يجده تحت قلبه حقيقةً العرشَ والكرسيَّ، بل شاهدٌ ومثالٌ علميٌّ يدلُّ علىٰ قرب قلبه من ربِّه، وقرب ربِّه من قلبه؛ وبين الذَّوقين تفاوتٌ، فإذا قَرُب الربُّ تعالىٰ من قلب عبده بقيت الأكوانُ كلُّها تحت مشهد قلبه، وحينئذٍ فتَطْلُع في أفقه شمسُ التوحيد، فينقطع بها ضبابُ وجوده ويضمحلُّ ويتلاشىٰ، وذاتُه وحقيقته موجودةٌ بائنةٌ عن ربِّه، وربُّه بائنٌ عنه، فحينئذٍ يغيب العبدُ عن نفسه ويفنىٰ، وفي الحقيقة هو باقٍ غيرُ فانٍ، ولكنَّه ليس في سرِّه غيرُ الله، قد فني فيه كلُّ ما سواه.

فعليك بهذا الفرقان، والله المستعان وعليه التُّكلان.

فصل

قال الشيخ[1]: (باب البقاء. قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[طه: ٧٣]).

البقاء الذي يشير إليه القوم: هو صفة العبد ومقامه، والبقاء في الآية: هو بقاء الرّبِّ تعالىٰ ودوام وجوده، وإنّما ذكره مؤمنو السَّحَرة في هذا المكان لأنَّ عدوَّ الله فرعون توعَّدهم علىٰ الإيمان بإتلاف حياتهم وإفناء ذواتهم، فقالوا له: وإن فعلتَ ذلك، فالذي آمنّا به وانتقلنا من عبوديَّتك إلىٰ عبوديَّته، ومن طلبِ رضاك والمنزلةِ عندك إلىٰ طلب رضاه والمنزلة عنده= خيرٌ منك وأدوَمُ، وعذابك ونعيمك ينقطع ويفرغ، وعذابه هو ونعيمه وكرامته لا ينقطع ولا يبيد، فكيف نُؤثِر المنقطع الفاني الأدنىٰ علىٰ الباقي المستمرِّ الأعلىٰ؟

ولكن وجه الإشارة بالآية أنَّ الوسائل والتّعلُّقات والمحبّة والإرادة تابعةٌ لغاياتها ومحبوبها ومرادها، فمن كانت غاية محبّته وإرادته منقطعةً انقطع تعلُّقه عند انقطاعها، وذهب عمله وسعيه واضمحلّ. ومن كان مطلوبه وغايته باقيًا دائمًا لا زوالَ له ولا فناء، ولا يضمحلُّ ولا يتلاشىٰ= دام تعلُّقه ونعيمه به بدوامه. فالوسائل تابعةٌ للغايات، والتّعلُّقات تابعةٌ لمتعلَّقاتها، والمحبَّة تابعةٌ للمحبوب، فليس المحبوب الذي يتلاشىٰ ويضمحلُّ ويفنىٰ كالمحبوب الذي كلُّ شيءٍ هالكٌ إلّا وجهه، فالمحبُّ باقٍ ببقاء محبوبه، يَشْرُف بشرفه، ويعظُم خطَرُه بحسب محبوبه، ويستغني بغناه، ويقوىٰ بقوَّته، ويعزُّ بعزّته، ويعظُم شأنه في النُّفوس بخدمته وإرادته ومحبّته.

تاللهِ لولا حجاب الغفلة والعوائد والهوىٰ والمخالفات لذاقَ القلب أعظمَ الألم بتعلُّقه بغير الحبيب الأوّل، وذاقَ أعظم اللّذّة والسُّرور بتعلُّقه به، فالله المستعان.

(١) «المنازل» (ص١٠٥).

٤/ ٣٥١

باب البقاء

فصل

قال الشّيخ[1]: **(البقاء: اسمٌ لما بقي قائمًا بعد فناء الشواهد وسقوطها)**.

في هذه العبارة تسامحٌ، وأرباب هذا الشأن هِمَمُهم المعاني، فهم يُسامحون في العبارات ما لا يسامح فيه غيرهم.

فالبقاء: هو الدّوام واستمرار الوجود، وهو نوعان: مقيَّدٌ ومطلقٌ، فالمقيَّد: البقاء إلىٰ مدَّةٍ، والمطلق: الدائم المستمرُّ لا إلىٰ غايةٍ.

والبقاء أوضحُ من هذا الحدِّ الذي ذكره، ولكن لمَّا كان مراده البقاء الذي هو صفة العبد ومقامه، قال: **(هو اسمٌ لما بقي بعد فناء الشواهد)**، وهذا عامٌّ في سائر أنواع ما بقي العبد متَّصفًا به بعد فناء الأدلَّة والآثار التي دلَّتْه علىٰ الحقيقة.

و«الشّواهد» عنده هي الرُّسوم كلُّها.

وحقيقة الأمر أنّ الحقّ سبحانه يُفنيهم عمَّا سواه ويُبقيهم به، وما سواه هو المعالم والرُّسوم.

وحاصل ذلك: أن تفنىٰ من قلبك إرادةُ السِّوىٰ وشهودُه والالتفاتُ إليه، وتَبقىٰ فيه إرادةُ الحقِّ وحدَه وشهودُه، والالتفاتُ بالكلِّيّة إليه، والإقبالُ بجمعيَّتك عليه. فحولَ هذا يُدندِن العارفون، وإليه شَمَّر السّالكون، وإن وسَّعوا له العبارات، وصرَّفوا له القول، والله أعلم.

(١) «المنازل» (ص١٠٥).

٤/ ٣٥٧

فصل

باب التحقيق

قال[١]: **(باب التحقيق. التحقيق: تلخيص مصحوبك من الحقِّ، ثمّ بالحقِّ، ثمّ في الحقِّ، وهذه أسماء درجاته الثلاث).**

هاهنا أربعة ألفاظٍ بتفسيرها يُفهَم مراده إن شاء الله.

أحدها: لفظ «**التحقيق**»، وهو تفعيلٌ من حقَّق الشّيء يحقِّقه تحقيقًا، فهو مصدرٌ فعلُه حقَّق الشّيء، أي أثبته وخلَّصه من غيره.

الثّانية: لفظ «**التلخيص**»، ومعناها: تخليص الشّيء من غيره، فخلَّصه ولخَّصه يشتركان لفظًا ومعنًى، وإن كان «التّلخيص» أغلب على ما في الذِّهن، والتَّخليص أغلب على ما في الخارج. فالتلخيص: تخليص الشّيء في الذِّهن بحيث لا يدخل فيه غيره، والتخليص: إفراده في الخارج عن غيره.

الثّالثة: «**المصحوب**»، وهو ما يصحب الإنسان في قصده ومعرفته من معلومٍ ومرادٍ.

الرّابعة: «**الحقُّ**»، وهو الله سبحانه، وما كان مُوصِلًا إليه مُدْنِيًا للعبد من رضاه.

إذا عُرِف هذا، فالمصحوب للعبد من الحقِّ هو معرفته ومحبَّته وإرادة وجهه، وما يستعين به على الوصول إليه، وما هو محتاجٌ إليه في سلوكه. فتحقيق ذلك هو تخليصه من المُفسِدات القاطعة عنه، الحائلة بين القلب وبين الوصول إليه، وتحصينه من المخالطات، وتجريده من المُشَوِّشات، فإنَّ تلك قواطعُ له عن مصحوبه الحقِّ، وهي نوعان لا ثالث لهما: عوارضُ محبوبةٌ، وعوارضُ مكروهةٌ.

فصاحبُ مقامِ التحقيق لا يقف مع العوارض المحبوبة، فإنَّها تقطعه عن مصحوبه ومطلوبه، ولا مع العوارض المكروهة، فإنّها قواطعُ أيضًا، ويتغافل

(١) «المنازل» (ص١٠٥).

عنها ما أمكنه، فإنّها تمرُّ بالمكاسرة والتغافل مرًّا سريعًا، ولا يوسِّع دوائرها، فإنّه كلمّا وسَّعها اتَّسعَتْ، ووجدت مجالًا فسيحًا فصالَتْ فيه وجالَتْ، ولو ضيَّقَها بالإعراض والتّغافل لاضمحلَّتْ وتلاشَتْ. فصاحبُ مقام التّحقيق ينساها وَيطمِسُ آثارها، ويعلم أنّها جاءت بحكم المقادير في دار المِحَن والآفات.

قال لي شيخ الإسلام مرَّةً: العوارض والمِحَن هي كالحرِّ والبرد، فإذا علم العبد أنّه لابدَّ منهما لم يغضَبْ لورودهما، ولم يغتمَّ لذلك ولم يحزن له.

فإذا صبر العبد علىٰ هذه العوارض ولم ينقطع بها رُجِيَ له أن يصل إلىٰ مقام التحقيق، فيبقىٰ مع مصحوبه الحقِّ وحده، فتتهذَّب نفسُه، وتطمئنُّ مع الله، وتنفطم عن عوائد السُّوء، حتّىٰ تَغْمُر محبَّةُ الله قلبَه وروحَه، وتتعوَّد جوارحه متابعةَ الأوامر، فيحسُّ حينئذٍ قلبه بأثر معيّة الله معه وتولِّيه له، فيبقىٰ في حركاته وسكناته بالله لا بنفسه، وتردُ علىٰ قلبه التعريفات الإلهيَّة، وذلك إنّما يكون في منزل البقاء بعد الفناء، والظّفر بالمحبَّة الخاصَّة، ومشهدِ الإلهيَّة والقيُّوميَّة والفردانيَّة، فإنَّ علىٰ هذه المشاهد الثّلاث مدارَ المعرفة والوصول.

والمقصود: أنَّ صاحب مقام «التحقيق» يعرف الحقّ، ويُميِّز بينه وبين الباطل، فيتمسَّك بالحقِّ ويُلغِي الباطل، فهذه رتبةٌ. ثمّ يتبيَّن له أنَّ ذلك ليس به، بل بالله وحده؛ فيتبرأ حينئذٍ من حوله وقوّته، ويعلم أنّ ذلك بالحقِّ. ثمَّ يتمكّن في ذلك المقام، ويرسخ فيه قلبه، فيصير تحقيقه بالله وفي الله.

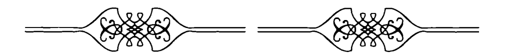
ففي الأوّل: تخلَّص له مطلوبه من غيره، وتجرَّد له من سواه.

وفي الثّاني: تخلَّص له إضافتُه إلىٰ غيره، وأن يكون بسواه سبحانه.

وفي الثّالث: تجرَّد له شهوده وقصودُه وإرادته، بحيث صارت في مطلوبه.

فالأوّل: سفرٌ إلىٰ الله، والثاني: سفرٌ بالله، والثالث: سفرٌ في الله.

وإن أشكل عليك معنىٰ السفر فيه والفرق بينه وبين السفر إليه= ففرِّقْ بين حال العابد الزاهد السائر إلىٰ الله ولم يُفتَح له في الأسماء والصِّفات والمعرفة الخاصّة والمحبة الخاصّة، وبين حال العارف الذي قد كُشِف له من معرفة الأسماء والصِّفات والفقه فيها ما حُجِب عن غيره.



٤/ ٣٨٧

باب الوجود

فصل

قال شيخ الإسلام[1]: (**باب الوجود. أطلق الله تعالىٰ في القرآن اسم الوجود صريحًا في مواضع، فقال:** ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[النساء: ١١٠]، ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[النساء: ٦٤]، ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾[النور: ٣٩]. **الوجود: الظَّفَر بحقيقة الشّيء**).

هذا الباب هو العلم الذي شمَّر إليه القوم، والغاية التي قصدوها، ولا ريبَ أنّهم قصدوا معنًىٰ صحيحًا، وعبَّروا عنه بالوجود، واستدلُّوا عليه بهذه الآيات ونظيرها، ولكن ليس مقصودهم ما تضمَّنه الوجدان في هذه الآيات، فإنّه وجدان لمطلوبٍ تعلَّق باسمٍ أو صفةٍ، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[النساء: ٦٤]، فهذا وجودٌ مقيّدٌ بظَفَرهم بمغفرة الله ورحمته لهم. وكذلك قوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[النساء: ١١٠]، ومعناه: أنّه يجد ما ظنَّه من مغفرة الله، فيجد مغفرة الله له حاصلةً. وكذلك: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾[النور: ٣٩]، فهذا وجدان الكافر لربِّه عند حسابه له علىٰ أعماله، وليس هذا هو الوجود الذي يشير إليه القوم، بل منه الأثر المعروف: «**ابنَ آدم، اطلُبْني تجِدْني، فإن وجدتَني وجدتَ كلّ شيءٍ، وإن فتُّك فاتَك كلُّ شيءٍ، وأنا أَحبُّ إليك من كلِّ شيءٍ**»[2]، ومنه الحديث: «**أنا عند ظنِّ عبدي بي**»[3]، ومنه الأثر الإسرائيليُّ: أنَّ موسىٰ ﷺ

(١) «المنازل» (ص١٠٧).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم.

قال: يا ربِّ أين أجدُك؟ قال: عند المنكسرةِ قلوبُهم من أجلي [(١)].

ومنه الحديث الصحيح: «**إنّ الله تعالىٰ يقول يوم القيامة: عبدي، استطعمتُك فلم تُطعِمْني، قال: يا ربِّ كيف أُطعِمك وأنت ربُّ العالمين؟ قال: استطعمَك عبدي فلانٌ فلم تُطعِمه، أَمَا لو أطعمتَه لوجدتَ ذلك عندي. عبدي، استسقيتُك فلم تَسْقِني، قال: يا ربِّ كيف أَسْقِيك وأنت ربُّ العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلانٌ فلم تَسْقِه، أَمَا لو سقيتَه لوجدتَ ذلك عندي. عبدي، مرضتُ فلم تَعُدْني، قال: يا ربِّ، كيف أعودك وأنت ربُّ العالمين؟ قال: مرض عبدي فلانٌ فلم تعده، أَمَا لو عُدْتَه لوجدتَني عنده**» [(٢)].

فتأمّلْ قولَه في الإطعام والإسقاء: «**لوجدتَ ذلك عندي**» أي: لوجدتَ جزاءه وثوابه عندي. وقوله في العيادة: «**لوجدتَني عنده**»، ولم يقل: لوجدت ذلك عندي، إيذانًا بقُربه من المريض، وأنَّه عنده، لذلِّه وخضوعه، وانكسار قلبه، وافتقاره إلىٰ ربِّه، فأوجب ذلك له وجود الله ﷻ عنده. هذا، وهو فوق سماواته مستوٍ علىٰ عرشه بائنٌ من خلقه، وهو عند عبده. فوجودُ العبد ربَّه ظَفَرُهُ بالوصول إليه.

والناس ثلاثةٌ: سالكٌ، وواصلٌ، وواجدٌ.

فإن قلت: اضرِبْ لي مثلًا أفهم به معنىٰ الوصول في هذا الباب والوجود.

قلت: إذا بلغَك أنَّ بمكان كذا وكذا كنزًا عظيمًا، من ظَفِرَ به أو بشيء منه استغنىٰ غِنَىٰ الدهر، وترحّل عنه الفقر والعُدْم، فتحرَّكتْ نفسُه للسير إليه، فأخذ في التأهُّب للمسير، فلمَّا جدَّ به السيرُ انتهىٰ إلىٰ الكنز ووصل إليه، ولكن لم يظفَرْ بتحويله إلىٰ داره وحصولِه عنده بعدُ، فهو واصلٌ غير واجدٍ، والذي في الطريق سالكٌ، والقاعد عن الطلب منقطعٌ، وآخذُ الكنزِ بحيث حصل عنده، وصار في

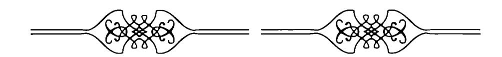
---

(١) تقدم.
(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٩).

داره واجدٌ. فهذا المعنىٰ حولَه حام القوم، وعليه دارت إشارتُهم، فعندهم التواجد بدايةٌ، والوجد واسطةٌ، والوجود نهايةٌ.

ومعنىٰ ذلك: أنّه في الابتداء يتكلَّف التواجد، فيقوىٰ عليه حتَّىٰ يصير واجدًا، ثمَّ يستغرق في وجده حتَّىٰ يصل إلىٰ موجوده.

وقد مُثِّل التواجد والوجد والوجود بمشاهدة البحر وركوبه والغرق فيه، فقيل: التواجد يوجب استيعابَ العبد، والوجد يوجب استغراقَ العبد، والوجود يوجب استهلاك العبد. وهذه عباراتٌ واستعاراتٌ للمراتب الثّلاثة، وهي البداية والتوسُّط والنِّهاية. والسُّلوك والوصول عندهم قصودٌ، ثمَّ ورودٌ، ثمَّ شهودٌ، ثمَّ وجودٌ، ثمَّ خمودٌ، فيَقْصِد أوَّلًا، ثمَّ يَرِد، ثمَّ يشهد، ثمَّ يجد، ثمَّ تَخْمُد نفسُه وتذهبُ بالكلِّيّة.



٤/ ٣٩٨

باب التجريد

فصل

قال[(١)]: (**باب التجريد. قال الله تعالىٰ: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾[طه: ١٢]. التجريد: انخلاعٌ عن شهود الشّواهد**).

وجه الإشارة بالآية وليس هو تفسيرها ولا المراد بها أنه سبحانه أمره أن يخلع نعليه عند دخوله ذلك الوادي المقدَّس، فهو أمرٌ بالتجرُّد من النعلين في ذلك المكان وتلك الحال، فعلم أنَّ التجرُّد شرطٌ للدخول فيما لا يصلح الدُّخول فيه إلَّا بالتجرُّد.

وعلىٰ هذا، فيقال لمن أراد الوصول إلىٰ الله سبحانه والدُّخول عليه: اخلَعْ من قلبك ما سواه، وادخُلْ عليه، وأوَّلُ قدمٍ تدخل بها في الإسلام: أن تخلع الأنداد والأوثان التي تُعبد من دون الله، وتتجرَّد منها، فكأنّه قيل له: اطرَحْ عنك ما لا يكون صالحًا للوطء به علىٰ هذا البساط. أو لأنَّ ذلك الوادي لمَّا كان من أشرف الأودية وأطهرها، ولذلك اختاره سبحانه علىٰ غيره من الأودية لتكليم نبيِّه وكليمه، فأمره سبحانه أن يُعظِّم ذلك الوادي بالوطء فيه حافيًا، كما يُوطَأ بِساطُ الملك، وصار ذلك سنَّةً في بني إسرائيل في مواضع صلواتهم وكنائسهم. وشريعتُنا جاءت بخلاف ذلك، فصلَّىٰ النبيُّ ﷺ في نعلَيه، وأمر الصحابة أن يصلُّوا في نعالهم، وقال: «**إنَّ اليهود والنّصارىٰ لا يُصلُّون في نعالهم فخَالِفوهم**»[(٢)]. فالسنّة في ديننا الصلاةُ في النِّعال، نصَّ عليه الإمام أحمد رحمه الله، وقيل له: أيصلِّي الرّجلُ في نعليه؟ فقال: إي والله[(٣)].

---

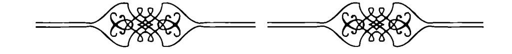
(١) «المنازل» (ص١٠٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٦٥٢)، من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه. وهو حديث صحيح. وليس في عامَّة طرقه ذكر النصارىٰ.

(٣) ذكر المؤلف هذه الرواية في «إغاثة اللهفان» (١/ ٢٦٢).

فصل

قوله: (**التجريد: الانخلاع عن شهود الشواهد**)، الشّواهد عنده: هي ما سوىٰ الحقِّ. والانخلاع عن شهودها هو غَيْبة الشّاهد بمشهوده عن شهوده، وذلك يكون في مقام المعاينة، فإنّه لا ينخلع عن شهود الشّواهد إلّا إذا كان معاينًا للمشهود.



فصل

باب التفريد

قال[1]: (باب التفريد. قال الله تعالىٰ: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥]. **التفريد: اسمٌ لتخليص الإشارة إلىٰ الحقِّ، ثمَّ بالحقِّ، ثمَّ عن الحقِّ**).

الشّيخ رحمه الله جعل التفريد غير التجريد وجعله بعده، والفرق بينهما: أنّ التجريد انقطاعٌ عن الأغيار، والتفريد إفراد الحقِّ بالإيثار، فالتجريد متعلِّقٌ بالعبوديَّة، والتفريد متعلِّق بالمعبود، وجعله ثلاث درجاتٍ: تخليص الإشارة إلىٰ الحقِّ، ثمَّ به، ثمَّ عنه. فهاهنا أمران، أحدهما: تخليص الإشارة، والثّاني: متعلَّق الإشارة.

فأمّا تخليصها: فهو تجريدها ممَّا يزاحمها ويخالطها. وأمّا متعلَّقها فثلاثة أمورٍ: الإشارة إلىٰ الحقِّ، وبه، وعنه. فالإشارة إليه غايةٌ، والإشارة به وجودٌ، والإشارة عنه إخبارٌ وتبليغٌ. فمن خلصَتْ إشارته إلىٰ الحقِّ كان من المخلِصين، ومن كانت إشارته به فهو من الصّادقين، ومن كانت إشارته عنه فهو من المبلِّغين، ومن اجتمعت له الثّلاثة فهو من الأئمّة العارفين، فالكمال أن يشير إليه به عنه. فتخليص الإشارة إليه هو حقيقة الإخلاص، وتخليص الإشارة به هو حقيقة الصدق، وتخليص الإشارة عنه هو حقيقة المتابعة. وذلك هو محض الصِّدِّيقيَّة، فمتىٰ اجتمعت هذه الثّلاثة في العبد فقد خُلِعَت عليه الصِّدِّيقيّة، فما كلُّ من أشار إلىٰ الله أشار به، ولا كلُّ من أشار به أشار عنه. والرُّسل صلوات الله وسلامه عليهم هم الذين كمَّلوا المراتب الثلاثة، فخلصت إشارتهم إلىٰ الله وبه وعنه من كلِّ شائبةٍ، ثمَّ الأمثل فالأمثل علىٰ منهاجهم.

---

(١) «المنازل» (ص١٠٨).

وما أكثرَ ما تشتبه الإشارة إلىٰ الله وبه بالإشارة إلىٰ النّفس والإشارة بها، فيشير بنفسه إلىٰ نفسه ظانًّا أنَّ إشارته بالله وإلىٰ الله، ولا يميِّز بين هذا وهذا إلّا خواصُّ العارفين الفقهاءُ في معرفة الطّريق والمقصود. وهاهنا انقطع من انقطع، واتَّصل من اتَّصل. ولا إله إلّا الله! كم مَن تنوَّعَ في الإشارة، وبالغ ودقَّق وحقَّق، ولم تَعْدُ إشارتُه نفسَه وهو لا يعلم، أشار بنفسه وهو يظنُّ أنَّه أشار بربِّه، وإنّ فَلَتاتِ لسانه ورائحة كلامه لتنادي عليه: أنا، وعنِّي.

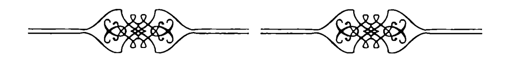
فإذا خلصت الإشارة بالله، وإلىٰ الله، وعن الله من جميع الشوائب؛ كانت متَّصلةً بالله، خالصةً له، مقبولةً لديه، راضيًا بها. وعلىٰ هذا كان حرصُ السابقين الأوّلين، لا علىٰ كثرة العمل، ولا علىٰ تدقيق الإشارة، كما قال بعض الصحابة: لو أعلم أنّ الله قبِلَ منِّي عملًا واحدًا لم يكن غائبٌ أحبَّ إليَّ من الموت[(١)]. وليس هذا علىٰ معنىٰ أنَّ أعماله كانت لغير الله تعالىٰ، أو علىٰ غير سنَّة رسوله ﷺ، فشأن القوم كان أجلَّ من ذلك، ولكن علىٰ تخليص الأعمال من شوائب النُّفوس ومشاركاتِ الحظوظ، فكانوا يخافون لكمال علمهم بالله وحقوقه عليهم أنَّ أعمالهم لم تخلص من شوائب حظوظهم ومشاركات نفوسهم، بحيث تكون متمحِّضةً لله وبالله، ومأخوذةً عن الله، فمن وصلَ له عملٌ واحدٌ علىٰ هذا الوجه وصل إلىٰ الله، والله تعالىٰ شكورٌ، إذا رضي من العبد عملًا من أعماله نجّاه، وأسعده به، وثمَّره له، وبارك له فيه، وأوصله به إليه، وأدخله به عليه، ولم يقطعه به عنه.

فما أكثرَ المنقطعين بالإشارة عن المشار إليه، وبالعبادة عن المعبود، وبالمعرفة عن المعروف! فتكون الإشارات والمعارف قِبلةَ قلبه، وغايةَ قصده، فيتغذّىٰ بها، ويجد من الأنس بها والذّوق والوجد ما يسكن قلبه إليه، ويطمئنُّ به، ويظنُّ أنَّه الغاية المطلوبة، فيصير قلبه محبوسًا عن ربِّه وهو لا يشعر، وتصير نفسه

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣١/ ١٤٦)، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

راتعةً في رياض العلوم والمعارف واجدةً لها، وهو يظنُّ أنّه قد وصل واتَّصل، وعلىٰ منزلة الوجود حصل، فهو دقيق الإشارة، لطيف العبارة، فقيهٌ في مسائل السُّلوك، وبينه وبين الله حجابٌ لم ينكشف عنه. وإنّما يرتفع هذا الحجاب بحال التجريد والتفريد، لا بمجرَّد علم ذلك؛ فبتفريدِ المعبود المطلوب المقصود عن غيره، وبتجريدِ القصد والطّلب، والإرادة والمحبَّة، والخوف والرّجاء، والإنابة والتّوكُّل، واللّجأ له عن الحظوظ وإرادات النفس= ينكشف عن القلب حجابُه، ويزول عنه ظلامه، ويَطْلُع فيه فجر التوحيد، وتَبزُغ فيه شمسُ اليقين، وتستبين له الطريقُ الغرَّاء، والمحجَّةُ البيضاء التي ليلها كنهارها.



٤/ ٤٠٩

فصل

باب الجمع

قال[١]: **(باب الجمع)**.

يراد بالجمع: الجمع في الإرادة والطلب علىٰ المراد المطلوب وحده، وبالتفرقة: تفرقة الهمَّة والإرادة. وهذا هو الجمع الصحيح، والتفرقة المذمومة؛ فحدُّ الجمع الصحيح: ما أزال هذه التفرقة.

وإذا عُرف هذا، فالجمعُ الصَّحيحُ: ما أسقط التفرقة الطبيعيَّة النفسيَّة، وهي التفرقة المذمومة. وأمّا التَّفرقةُ الأمريَّةُ الشَّرعيَّةُ بين المأمور والمحظور، والمحبوب والمكروه؛ فلا يُحمَد جمعٌ أسقَطَها، بل يُذَمُّ كلَّ الذّمِّ. وبمثل هذه المجملات دخل علىٰ أصحاب السُّلوك والإرادة ما دخل.

قوله[٢]: **(والجمع: غاية مقامات السّالكين)**.

وجه ذلك: أنَّ السّالكَ ما دام في سلوكه فهو في تفرقةِ الاستدلال وطلبِ الشَّواهد، فإذا وصل إلىٰ مقام المعرفة وصار همُّه همًّا واحدًا لله وفي الله وبالله نـزَلَ في منزلة الجمع، فالجمعُ عنده نهايةُ سفر السالكين إلىٰ الله.

وهذا موضعٌ غير مسلَّمٍ له علىٰ إطلاقه، وإنَّما غاية مقامات السالكين: التوبةُ التي هي بدايات منازلهم.

ولعلَّ سمعَك ينفر من هذا غاية النُّفور، وتقول: هذا كلام من لم يعرف شيئًا من طريق القوم، ولا نزل في منازل الطريق! ولَعَمْرُ الله، إنّ كثيرًا من الناس ليوافقك علىٰ هذا، ويقول: أين كنّا؟ وأين صرنا؟ نحن قد قطعنا منزلة التّوبة وبيننا وبينها

(١) «منازل السائرين» (ص١٠٩).
(٢) «منازل السائرين» (ص١٠٩).

مائةُ مقامٍ، فنرجع من مائة مقامٍ إليها، ونجعلها غايةَ مقامات السالكين!

فاسمَع الآن وعِهْ، ولا تعجَلْ بالإنكار، ولا تُبادِرْ بالردِّ، وافتَحْ ذهنك لمعرفة نفسك، وحقوق ربِّك، وما ينبغي له منك، وما له من الحقِّ عليك؛ ثمَّ انسُبْ أعمالك وأحوالك وتلك المنازلَ التي نزلتها والمقاماتِ التي قمتَ فيها لله وبالله إلىٰ عظيم جلاله وما يستحقُّه وما هو له أهلٌ. فإن رأيتها وافيةً بذلك مكافئةً له فلا حاجة بك حينئذٍ إلىٰ التوبة، والرُّجوعُ إليها وقوعٌ عن المقامات العليَّة، وانحطاطٌ من عُلْوٍ إلىٰ سُفْلٍ، ورجوعٌ من غايةٍ إلىٰ بدايةٍ. وما أظنُّ ذلك بعيدًا من كثيرٍ من المنتسبين إلىٰ هذا الشأن المغرورين بمعارفهم وأحوالهم وإشاراتهم!

وإن رأيت أنَّ أضعافَ أضعافِ ما قمتَ به من صدقٍ وإخلاصٍ وإنابةٍ وتوكُّلٍ وزهدٍ وعبادةٍ لا يفي بأيسَرِ حقٍّ له عليك، ولا يكافئ نعمةً من نِعَمه عندك، وأنّ ما يستحقُّه لجلاله أعظمُ وأجلُّ وأكثرُ ممّا يقوم به الخلق= فاعلم الآن أنَّ التوبةَ نهايةُ كلِّ عارفٍ وغايةُ كلِّ سالكٍ، وكما أنّها بدايةٌ فهي نهايةٌ، والحاجةُ إليها في النِّهاية أشدُّ من الحاجة إليها في البداية، بل هي في النِّهاية في محلِّ الضَّرورة.

فاسمع الآن ما خاطب الله به رسولَه في آخر الأمر وعند النِّهاية، وكيف كان رسولُ الله ﷺ في آخر حياته أشدَّ ما كان استغفارًا وأكثرَه:

قال الله تعالىٰ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة: ١١٧]. وهذا أنزله الله سبحانه بعد غزوة تبوك، وهي آخر الغزوات التي غزاها رسول الله ﷺ بنفسه؛ فجعل الله سبحانه التَّوبةَ عليهم شُكرانًا لما تقدَّم من تلك الأعمال وذلك الجهاد.

وقال تعالىٰ في آخر ما أنزل علىٰ رسوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ١

﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾. وفي «الصحيح»[(١)] أنَّه ﷺ ما صلَّىٰ صلاةً بعد إذ أُنزلت عليه هذه السُّورة إلَّا قال فيها: «**سبحانك اللهمَّ ربَّنا وبحمدك، اللهمَّ اغفر لي**». وذلك في نهاية أمره صلوات الله وسلامه عليه. ولهذا فهم منها علماءُ الصَّحابة كعمر بن الخطّاب وعبد الله بن عبّاسٍ أنَّه أجلُ رسول الله ﷺ أعلَمَه الله إيّاه[(٢)]. فأمره سبحانه بالاستغفار في نهاية أحواله وآخر أمره أعلىٰ ما كان مقامًا وحالًا.

وآخرُ ما سُمِع من كلامه عند قدومه علىٰ ربِّه: «**اللهمّ اغفر لي، وألحقني بالرّفيق الأعلىٰ**»[(٣)].

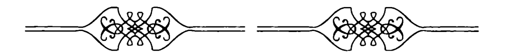
وكان ﷺ يختم كلَّ عملٍ صالحٍ بالاستغفار كالوضوء، والصّلاة، والحجِّ، والجهاد، فإنّه كان إذا فرغ منه وأشرف علىٰ المدينة قال: «**آئبون، تائبون، لربِّنا حامدون**»[(٤)].

وشرع أن يختم المجلس بالاستغفار وإن كان مجلس خيرٍ وطاعةٍ[(٥)]. وشرع أن يختم العبدُ عملَ يومه بالاستغفار، فيقول عند النوم: «**أستغفر الله الذي لا إله إلّا هو الحيُّ القيُّوم وأتوب إليه**»[(٦)]، وأن ينام علىٰ سيِّد الاستغفار[(٧)].

---

(١) البخاري (٤٩٦٧)، ومسلم (٤٨٤)، من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٢) كما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما في «صحيح البخاري» (٣٦٢٧).
(٣) أخرجه البخاري (٤٤٤٠)، ومسلم (٢٤٤٤)، من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٤) أخرجه البخاري (١٧٩٧)، ومسلم (١٣٤٤)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.
(٥) وذلك بأن يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك»، أخرجه أحمد (٢٤٤٨٦)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١٠٠٦٧، ١٠١٦٠)، من حديث أم المؤمنين عائشة، وصحَّح الحافظ إسناده في «النكت علىٰ ابن الصلاح» (٢/ ٧٣٢-٧٣٣).
(٦) أخرجه أحمد (١١٠٧٤)، والترمذي (٣٣٩٧)، وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري، وفي سنده ضعف.
(٧) أخرجه البخاري (٦٣٠٦).

والعارفُ بالله وأسمائه وصفاته وحقوقه يعلم أنَّ العبدَ أحوجُ ما يكون إلىٰ التّوبة في نهايته، وأنّه أحوجُ إلىٰ التّوبة من الفناء، والاتِّصال، وجمع الشّواهد، وجمع الوجود، وجمع العين. وكيف يكون ذلك أعلىٰ مقامات السّالكين وغايةَ مطالب المقرَّبين، ولم يأت له ذكرٌ في قرآنٍ ولا في سُنّةٍ، ولا يعرفه إلّا النادرُ من الناس، ولا يتصوَّره أكثرهم إلّا بصعوبةٍ ومشقّةٍ، ولو سمعه أكثرُ الخلق لما فهموه ولا عرفوا المرادَ منه إلّا بترجمةٍ؟ فأين في كتاب الله، أو سنّة رسوله ﷺ، أو كلام الصحابة الذين نسبةُ معارفِ مَن بعدهم إلىٰ معارفهم كنسبة فضلهم ودينهم وجهادهم إليهم= ما يدلُّ علىٰ ذلك أو يشير إليه؟ إذن فصار المتأخِّرون أربابُ هذه الاصطلاحات الحادثة بالألفاظ المجملة والمعاني المتشابهة أعرفَ بمقامات السالكين ومنازل السّائرين وغاياتها من أعلَمِ الخلق بالله بعد رسله! هذا من أعظم الباطل.



فصل

نهاية مقامات السالكين تكميل مرتبة العبودية

فالحقُّ أنّ نهايةَ مقامات السّالكين تكميلُ مرتبة العبوديّة صِرْفًا، وهذا ممَّا لا سبيل إليه لبني الطبيعة، وإنّما خُصَّ بذلك الخليلان من بين سائر الخلق. أمّا إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه فإنَّ الله سبحانه شهد له بأنّه وفَّىٰ. وأمَّا سيِّدُ ولد آدم صلوات الله وسلامه عليه فإنّه كمَّل مرتبةَ العبوديَّة، فاستحقَّ التَّقديمَ علىٰ سائر الخلائق، وكان صاحب الوسيلة والشّفاعة التي يتأخَّر عنها جميعُ الرُّسل، ويقول هو: «أنا لها»(١). ولهذا ذكره الله سبحانه بالعبوديَّة في أعلىٰ مقاماته وأشرف أحواله، كقوله تعالىٰ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾[الإسراء: ١]، وقوله: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾[الجن: ١٩]، وقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾[البقرة: ٢٣]، وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١]. ولهذا يقول المسيح حين يُرغَب إليه في الشفاعة: اذهبوا إلىٰ محمَّدٍ، عبدٍ غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر(٢). فاستحقَّ تلك الرُّتبة العليا بتكميل عبوديّته لله، وبكمال مغفرة الله له.

فرجع الأمرُ إلىٰ أنَّ غايةَ المقامات ونهايتَها: هو التَّوبةُ والعبوديَّةُ المحضةُ، لا جمعُ العين، ولا جمعُ الوجود، ولا تلاشي الاتِّصال.

فإن قلتَ: فهذا الجمعُ إنَّما يحصل لمن قام بحقيقة التّوبة والعبوديّة.

قيل: ليس كذلك، بل الجمعُ الذي يحصل لمن قام بذلك هو جمعُ الرُّسل وخلفائهم، وهو جمعُ الهمَّة علىٰ الله سبحانه محبَّةً وإنابةً وتوكُّلًا وخوفًا ورجاءً

---

(١) قطعة من حديث الشفاعة المتفق عليه، وقد تقدَّم.

(٢) من حديث الشفاعة المذكور.

ومراقبةً، وجمعُ الهمَّة علىٰ تنفيذ أوامر الله في الخلق دعوةً وجهادًا. فهما جمعان: جمعٌ للقلب علىٰ المعبود وحده، وجمعٌ له علىٰ محض عبوديّته.

فإن قلتَ: فأين شاهد هذين الجمعين؟

قلتُ: في القرآن كلِّه، فخذه من فاتحة الكتاب في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة: ٥]. وتأمَّلْ ما في قوله: ﴿إِيَّاكَ﴾ من التّخصيص لذاته المقدَّسة بالعبادة والاستعانة، وما في قوله: ﴿نَعْبُدُ﴾ الذي هو للحال والاستقبال وللعبادة الظّاهرة والباطنة، من استيفاء أنواعِ العبادة حالًا واستقبالًا، قولًا وعملًا، ظاهرًا وباطنًا؛ وما في قوله: ﴿نَسْتَعِينُ﴾ من الاستعانةِ علىٰ ذلك به لا بغيره. ولهذا كانت الطّريقُ كلُّها في هاتين الكلمتين، وهي معنىٰ قولهم: «الطّريق في: إيّاك أريدُ بما تريدُ»، فجمَعَ المرادَ في واحدٍ، والإرادةَ في مراده الذي يحبُّه ويرضاه. فإلىٰ هذا دعت الرُّسلُ من أوّلهم إلىٰ آخرهم، وإليه شخَص العاملون وتوجَّه المتوجِّهون. وكلُّ الأحوال والمقامات من أوّلها إلىٰ آخرها مندرجةٌ في ضمن ذلك، ومن ثمراته وموجَباته.

والعبوديّةُ تجمَعُ كمالَ الحبِّ في كمالِ الذُّلِّ وكمالِ الانقياد لمراضي المحبوب وأوامره، فهي الغاية التي ليس فوقها غايةٌ. وإذا لم يكن إلىٰ القيام بحقيقتها كما يجب سبيلٌ، فالتَّوبةُ هي المعوَّل والآخيَّة. وقد عرفتَ بهذا وبغيره أنَّ الحاجةَ إليها في النِّهاية أشدُّ من الحاجة إليها في البداية، ولولا تنسُّمُ رَوْحِها لَحالَ اليأسُ بين ابن الماء والطِّين وبين الوصول إلىٰ ربِّ العالمين. هذا لو قام بما ينبغي عليه أن يقوم به من حقوق ربِّه وسيِّده، فكيف والغفلةُ والتّقصيرُ والتّفريطُ والتّهاونُ وإيثارُ حظوظه في كثيرٍ من الأوقات علىٰ حقوق ربِّه، لا يكاد يتخلَّصُ منه.

٤/ ٤٣٩

فصل

باب التوحيد

قال صاحب «المنازل»[(١)]: (باب التوحيد: قال الله تعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[آل عمران: ١٨]).

قلت: التّوحيدُ أوّل دعوة الرُّسل، وأوّلُ منازل الطّريق، وأوّلُ مقام يقوم فيه السّالكُ إلىٰ الله تعالىٰ. قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[الأعراف: ٥٩]. وقال هودٌ لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[الأعراف: ٦٥]. وقال صالحٌ لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾[الأعراف: ٧٣]. وقال شعيبٌ لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾[الأعراف: ٨٥]. وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[النحل: ٣٦].

فالتوحيدُ مفتاحُ دعوة الرُّسل. ولهذا قال النبيُّ ﷺ لرسوله معاذ وقد بعثه إلىٰ اليمن: «**إنّك تأتي قومًا أهلَ كتابٍ، فليكن أوّلَ ما تدعوهم إليه: عبادةُ الله وحده. فإذا شهدوا أن لا إله إلّا الله وأنّ محمَّدًا رسول الله، فأخبِرْهم أنَّ الله قد فرض عليهم خمسَ صلواتٍ في اليوم واللّيلة**»[(٢)]، وذكَر الحديث. وقال ﷺ: «**أُمِرْتُ أن أقاتل النّاس حتّىٰ يشهدوا أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّدًا رسول الله**»[(٣)].

ولهذا كان الصحيح أنَّ أوّلَ واجبٍ يجب علىٰ المكلَّف: شهادة أن لا إله إلّا الله، لا النَّظرُ، ولا القصدُ إلىٰ النظر، ولا الشَّكُّ، كما هي أقوالٌ لأرباب الكلام المذموم.

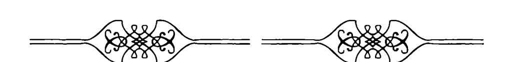
---

(١) «منازل السائرين» (ص١١٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٩٦)، ومسلم (١٩).

(٣) أخرجه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢)، من حديث ابن عمر ﵄.

فالتَّوحيد: أوَّلُ ما يدخل به في الإسلام وآخِرُ ما يخرج به من الدُّنيا، كما قال النبيُّ ﷺ: «**من كان آخر كلامه: لا إله إلَّا الله؛ دخل الجنَّة**»[1]. فهو أوَّل واجبٍ وآخر واجبٍ. فالتوحيد: أوّل الأمر وآخره.



(١) أخرجه أحمد (٢٢٠٣٤)، وأبو داود (٣١١٦) من حديث معاذ بن جبل، وفي إسناده راو مجهول، ويُغني عنه في الاستشهاد هنا حديثُ أبي سعيد الخدري عند مسلم (٩١٦): «لقِّنوا موتاكم: لا إله إلا الله».

فصل

نوعا التوحيد الذي دعت إليه الرسل

والتوحيدُ الذي دعت إليه رسلُ الله ونزلت به كتُبه نوعان: توحيدٌ في المعرفة والإثبات، وتوحيدٌ في المطلب والقصد.

فالأوّل: هو إثباتُ حقيقةِ ذات الرَّبِّ تعالىٰ وصفاته وأفعاله وأسمائه، وعلوِّه فوق سماواته علىٰ عرشه، وتكلُّمه بكتبه، وتكليمه لمن شاء من عباده؛ وإثباتُ عموم قضائه وقدره وحكمته. وقد أفصح القرآن عن هذا النّوع جِدَّ الإفصاح، كما في أوّل الحديد، وسورة طه، وآخر الحشر، وأوّل تنزيل السّجدة، وأوّل آل عمران، وسورة الإخلاص بكمالها، وغير ذلك.

النّوع الثّاني: مثل ما تضمَّنته سورةُ (قل ياأيُّها الكافرون)، وقولُه: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾[آل عمران: ٦٤]، وأوّلُ سورة تنزيل الكتاب وآخرُها، وأوَّلُ سورة يونس ووسطُها وآخرُها، وأوَّلُ سورة الأعراف وآخرُها، وجملةُ سورة الأنعام.

وغالبُ سور القرآن، بل كلُّ سورةٍ سورةٍ في القرآن، فهي متضمِّنةٌ لنوعَي التَّوحيد. بل نقول قولًا كلِّيًا: إنَّ كلَّ آيةٍ في القرآن فهي متضمِّنةٌ للتّوحيد، شاهدةٌ به، داعيةٌ إليه؛ فإنَّ القرآنَ إمّا خبرٌ عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التَّوحيدُ العلميُّ الخبريُّ. وإمّا دعوةٌ إلىٰ عبادته وحده لا شريك له، وخلعِ كلِّ ما يُعبَد من دونه، فهو التَّوحيدُ الإراديُّ الطّلبيُّ. وإمّا أمرٌ ونهيٌ وإلزامٌ بطاعته وأمره ونهيه، فهي حقوق التّوحيد ومكمِّلاته. وإمّا خبرٌ عن إكرامه لأهل توحيده وطاعته، وما فعَل بهم في الدُّنيا، وما يُكرمهم به في الآخرة؛ فهو جزاء توحيده. وإمَّا خبرٌ عن أهل الشِّرك، وما فعَلَ بهم في الدُّنيا من النَّكال، وما يحُلُّ بهم في العقبىٰ من

العذاب؛ فهو جزاءُ مَن خرج عن حكم التّوحيد.

فالقرآن كلُّه في التّوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشِّرك وأهله وجزائهم. فـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾توحيدٌ، ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾توحيدٌ، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾توحيدٌ، ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾توحيدٌ، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾توحيدٌ، ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾توحيدٌ، ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾توحيدٌ متضمِّنٌ لسؤال الهداية إلىٰ طريق أهل التّوحيد الذين أُنْعِمَ عليهم﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾الذين فارقوا التّوحيد.

ولذلك شهد الله لنفسه بهذا التوحيد، وشهدت له به ملائكتُه وأنبياؤه ورسله. قال تعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ﴾[آل عمران: ١٨- ١٩]. فتضمَّنت هذه الآيةُ الكريمة إثباتَ حقيقة التّوحيد، والرَّدَّ علىٰ جميع هذه الطَّوائف، والشّهادةَ ببطلان أقوالهم ومذاهبهم. وهذا إنّما يتبيَّن بعد فهم الآية وبيان ما تضمَّنته من المعارف الإلهيَّة والحقائق الإيمانيّة[(١)].

فتضمّنت هذه الآية: أجلَّ شهادةٍ وأعظمَها وأعدلَها وأصدقَها، من أجلِّ شاهدٍ، بأجلِّ مشهودٍ به.

وعباراتُ السَّلَف في «شهد» تدور علىٰ الحكم، والقضاء، والإعلام، والبيان، والإخبار. قال مجاهدٌ: حكَمَ، وقضىٰ. وقال الزَّجّاج: بيَّن. وقالت طائفةٌ: أعلَمَ وأخبَر[(٢)]. وهذه الأقوال كلُّها حقٌّ لا تنافي بينها، فإنَّ الشَّهادَة تتضمَّن كلامَ الشّاهد وخبرَه وقولَه، وتتضمَّن إعلامَه وإخبارَه وبيانَه. فلها أربعُ مراتب. فأوّل مراتبها:

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٤/ ١٦٨- ٢٠٠).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٣٨٥)، و«معاني القرآن» للنحاس (١/ ٣٦٩)، و«النكت والعيون» (١/ ٣٧٩)، و«زاد المسير» (١/ ٣٦٢).

علمٌ ومعرفةٌ واعتقادٌ لصحَّة المشهود به وثبوته. وثانيها: تكلُّمه بذلك ونطقُه به وإن لم يُعلِمْ به غيرَه، بل يتكلَّم بها مع نفسه ويذكرها وينطق بها أو يكتبها. وثالثها: أن يُعلِمَ غيرَه بما شهِد به، ويخبرَه به، ويبيِّنه له. ورابعها: أن يُلْزِمَه بمضمونها ويأمرَه به.

فشهادةُ الله سبحانه لنفسه بالوحدانيَّة والقيام بالقسط تضمَّنَت هذه المراتبَ الأربعة: علمَه سبحانه بذلك، وتكلُّمَه به، وإعلامَه وإخبارَه لخلقه به، وأمرَهم وإلزامَهم به.

فأمَّا مرتبة العلم، فإنَّ الشّهادةَ بالحقِّ تتضمّنها ضرورةً، وإلّا كان الشاهدُ شاهدًا بما لا علم له به. قال الله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]. وقال النَّبيُّ ﷺ: «**علىٰ مثلها فاشهد**»، وأشار إلىٰ الشَّمس[١].

وأمَّا مرتبة التّكلُّم والخبر، فمَن تكلّم بشيءٍ وأخبر به فقد شهد به، وإن لم يتلفّظ بالشّهادة. قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ﴾[الأنعام: ١٥٠]. وقال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ﴾[الزخرف: ١٩]. فجعل ذلك منهم شهادةً، وإن لم يتلفَّظوا بلفظ الشّهادة، ولم يؤدُّوها عند غيرهم.

وأمّا مرتبة الإعلام والإخبار، فنوعان: إعلامٌ بالقول، وإعلامٌ بالفعل.

فالقول هو ما أرسل به رسلَه، وأنزل به كتبَه، ممّا قد عُلِمَ بالاضطرار. وإنَّ جميعَ الرُّسل أخبروا عن الله أنّه شهد لنفسه بأنّه لا إله إلّا هو، وأخبر بذلك، وأمرَ عباده أن يشهدوا به. وشهادتُه سبحانه أنه لا إله إلّا هو معلومةٌ من جهة كلِّ من بلَّغ عنه كلامَه.

---

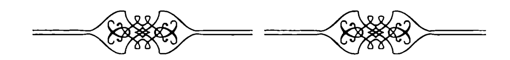
(١) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٩/ ٢٥٢)، والعقيلي في «الضعفاء» (٥/ ٢٦٥)، وضعفه البيهقي في «السنن» (١٠/ ١٥٦).

وأمّا بيانُه وإعلامُه بفعله، فهو ما تضمّنه خبرُه تعالىٰ عن الأدلّة الدّالّة علىٰ وحدانيّته التي يُعلَم دلالتها بالعقل والفطرة.

والمقصود: أنَّه سبحانه يشهد بما جعل آياته المخلوقةَ دالّةً عليه، فإنَّ دلالتها إنَّما هي بخلقه وجعله، ويشهد بآياته القوليَّة الكلاميّة المطابقة لما شهدت به آياتُه الخلقيّة، فتتطابق شهادةُ القول وشهادةُ الفعل، كما قال تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[فصلت: ٥٣]، أي أنَّ القرآن حقٌّ. فأخبر أنّه يدلُّ بآياته الأفقيَّة والنَّفسيَّة علىٰ صدق آياته القوليّة الكلاميّة.

وأمّا المرتبة الرَّابعة وهي الأمر بذلك والإلزام به، وإن كان مجرَّدُ الشهادة لا يستلزمه، لكن الشَّهادةَ في هذا الموضع تدلُّ عليه وتتضمَّنَه، فإنّه سبحانه شهد به شهادةَ من حكَمَ به وقضىٰ وأمرَ وألزَمَ عباده به، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[الإسراء: ٢٣].

ووجهُ استلزام شهادته سبحانه لذلك: أنّه إذا شهد أنّه لا إله إلّا هو، فقد أخبَر وبيَّن وأعلَم وحكَم وقضىٰ: أنّ ما سواه ليس بإلهٍ، وأنَّ إلهيَّةَ ما سواه أبطَلُ الباطل وإثباتَها أظلَمُ الظُّلم، فلا يستحقُّ العبادةَ سواه، كما لا تصلح الإلهيّةُ لغيره. وذلك يستلزم الأمرَ باتِّخاذه وحده إلهًا، والنَّهيَ عن اتِّخاذ غيره معه إلهًا. وهذا يفهمه المخاطب من هذا النّفي والإثبات.



فصل

شهادة الله سبحانه تتضمن بيانه للعباد

وإذا كانت شهادتُه سبحانه تتضمَّن بيانَه للعباد ودلالتَهم وتعريفَهم بما شهد به وإلّا فلو شهد شهادةً لم يتمكَّنوا من العلم بها لم ينتفعوا بها، ولم تقم عليهم بها الحجّة، كما أنَّ الشّاهدَ من العباد إذا كانت عنده شهادةٌ ولم يبيِّنها بل كتَمها لم ينتفع بها أحدٌ، ولم تقُم بها حجّةٌ وإذا كان لا يُنتفع بها إلّا ببيانها، فهو سبحانه قد بيَّنها غايةَ البيان بطرقٍ ثلاثةٍ: السَّمع، والبصر، والعقل.

أمّا السَّمْعُ، فيسمعُ آياته المتلوَّة القوليَّة المتضمِّنة لإثبات صفات كماله ونعوت جلاله، وعلوِّه علىٰ عرشه فوق سبع سماواته، وتكلُّمِه بكتبه، وتكليمِه لمن شاء من عباده تكلُّمًا وتكليمًا حقيقةً لا مجازًا.

وفي هذا إبطالٌ لقول من قال: إنّه لم يُرِد من العباد ما دلّت عليه آياتُه السَّمعيّةُ من إثبات معانيها وحقائقها التي وُضِعت لها ألفاظها، فإنَّ هذا ضدُّ البيان والإعلام، ويعود علىٰ مقصود الشّهادة بالإبطال والكتمان. وقد ذمَّ الله من كتم شهادةً عنده من الله، وأخبر أنّه من أظلم الظّالمين. فإذا كانت عند العبد شهادةٌ من الله تُحقِّق ما جاء به رسولُه من أعلامِ نبوَّته وتوحيدِ المرسِل وأنَّ إبراهيم وأهل بيته كانوا علىٰ الإسلام كلُّهم، وكَتَم هذه الشّهادةَ، كان من أظلَم الظّالمين، كما فعله أعداءُ رسول الله ﷺ من اليهود الذين كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم؛ فكيف يُظَنُّ بالله سبحانه أنّه كتَم الشَّهادةَ الحقَّ التي تشهد بها الجهميّة والمعتزلة والمعطِّلة، ولا يشهد بها لنفسه، ثمَّ يَشهد لنفسه بما يضادُّها ويناقضها، ولا يجامعها بوجهٍ ما؟ سبحانك هذا بهتانٌ عظيمٌ!

فإنَّ الله سبحانه شهد لنفسه بأنَّه استوىٰ علىٰ العرش، وبأنَّه القاهر فوق عباده،

وبأنَّ ملائكته يخافونه من فوقهم، وأنَّ الملائكة تعرج إليه بالأمر وتنزل من عنده به، وأنَّ العملَ الصَّالحَ يصعد إليه، وأنّه يأتي ويجيء، ويتكلّم، ويرضىٰ ويغضب، ويحبُّ ويبغض، ويُنادي ويفرَح ويضحَك ويعجب، وأنّه يسمع ويُبصر، وأنّه يراه المؤمنون بأبصارهم يومَ لقائه، إلىٰ غير ذلك ممّا شهد به لنفسه، وشهد له به رسولهُ.

وشهدت له الجهميّة بضدِّ ذلك، وقالوا: شهادتُنا أعدَلُ وأصحُّ من شهادة النُّصوص، فإنّ النُّصوص تضمَّنت كتمانَ الحقِّ وإظهارَ خلافه. فشهادةُ الرَّبِّ تعالىٰ تُكذِّب هؤلاء أشدَّ التَّكذيب، وتتضمَّن أنَّ الذي شهِدَ به بيَّنه وأوضَحه وأظهَره حتّىٰ جعله في أعلىٰ مراتب الظُّهور والبيان، وأنّه لو كان الحقُّ ما تقوله المعطِّلة والجهميَّة لم يكن العباد قد انتفعوا بما شهد به سبحانه، فإنّ الحقّ الذي في نفس الأمر عندهم لم يشهد به لنفسه، والّذي شهد به لنفسه وأظهره وأوضحه فليس بحقٍّ، ولا يجوز أن يستفاد منه الحقُّ واليقين!

وأمّا آياته العِيانيَّة الخلقيَّة، فالنَّظرُ فيها والاستدلال بها يدلُّ علىٰ ما تدلُّ عليه آياته القوليّة السّمعيّة. وآياتُ الرّبِّ: هي دلالاته وبراهينه التي بها يعرفه العباد ويعرفون أسماءه وصفاته وتوحيده وأمره ونهيه. فالرُّسلُ تخبر عنه بكلامه الذي تكلَّم به وهو آياتُه القوليّة، ويستدلُّون علىٰ ذلك بمفعولاته التي تشهد علىٰ صحّة ذلك وهي آياته العيانيّة، والعقل يجمع بين هذه وهذه، فيجزم بصحَّة ما جاءت به الرُّسل، فتتّفق شهادةُ السّمع والبصر والعقل والفطرة. وهو سبحانه لكمال عدله ورحمته، وإحسانه وحكمته، ومحبّته للعذر، وإقامته للحجّة لم يبعث نبيًّا من الأنبياء إلّا ومعه آيةٌ تدلُّ علىٰ صدقه فيما أخبر به.

قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ

﴿وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾[الحديد: ٢٥]. وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾[النحل: ٤٣]. وقال تعالىٰ: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾[آل عمران: ١٨٣ - ١٨٤]. وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾[فاطر: ٢٥].

حتّىٰ إنَّ من أخفىٰ آيات الرُّسل آياتِ هودٍ عليه السّلام، حتّىٰ قال له قومه: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾[هود: ٥٣]، ومع هذا فبيِّنتُه من أظهر البيِّنات. وقد أشار إليها بقوله: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[هود: ٥٤ - ٥٦]. فهذا من أعظم الآيات: أنَّ رجلًا واحدًا يخاطب أمّةً عظيمةً بهذا الخطاب غيرَ جزعٍ ولا فزعٍ ولا خوّارٍ، بل هو واثقٌ بما قاله جازمٌ به، فأشهد الله أوّلًا علىٰ براءته من دينهم وما هم عليه إشهادَ واثقٍ به، معتمدٍ عليه، مُعْلِمٍ لقومه أنّه وليُّه وناصرُه وغير مسلِّط لهم عليه.

ثمَّ أشهَدهم إشهادَ مجاهرٍ لهم بالمخالفة: أنّه بريءٌ من دينهم وآلهتهم التي يوالون عليها، ويعادون عليها، ويبذلون دماءهم وأموالهم في نصرتها.

ثمّ أكَّد عليهم ذلك بالاستهانة بهم واحتقارهم وازدرائهم، وكونهم يجتمعون كلُّهم علىٰ كيده وشفاء غيظهم منه، ثمَّ يعالجونه ولا يمهلونه. وفي ضمن ذلك: أنّكم أضعفُ وأعجزُ وأقلُّ من ذلك، وأنّكم لو رُمتموه لانقلبتم بغيظكم مكبوتين مخذولين.

ثمّ قرّر دعوته أحسنَ تقريرٍ، وبيّن أنَّ ربَّه تعالىٰ وربَّهم الذي نواصيهم بيده هو وليُّه ووكيلُه القائمُ بنصره وتأييده، وأنّه علىٰ صراطٍ مستقيمٍ، فلا يخذُل من توكَّلَ عليه وآمن به، ولا يُشمِتُ به أعداءَه، ولا يكون معهم عليه، فإنَّ صراطه المستقيم الذي هو عليه في قوله وفعله يمنع ذلك ويأباه.

وتحت هذا الخطاب: أنَّ من صراطه المستقيم أن ينتقمَ ممَّن خرج عنه وعمل بخلافه، ويُنزلَ به بأسه؛ فإنَّ الصِّراط المستقيم هو العدلُ الذي الرَّبُّ تعالىٰ عليه، ومنه انتقامُه من أهل الشِّرك والإجرام ونصرةُ أوليائه ورسله عليهم، وأنّه يذهب بهم ويستخلف قومًا غيرهم ولا يضرُّه ذلك شيئًا، وأنّه القائمُ سبحانه علىٰ كلِّ شيءٍ حفظًا ورعايةً وتدبيرًا وإحصاءً.

فأيُّ آيةٍ وبرهانٍ ودليلٍ أحسَنُ من آيات الأنبياء وبراهينهم وأدلّتهم؟ وهي شهادةٌ من الله سبحانه لهم، بيَّنها لعباده غاية البيان وأظهرها لهم غاية الإظهار بقوله وفعله.

وفي «الصحيح»[1] عنه ﷺ أنّه قال: «**ما من نبيٍّ من الأنبياء إلاّ وقد أوتي من الآيات ما آمن علىٰ مثله البشر، وإنَّما كان الذي أوتيتُه وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرَهم تابعًا يوم القيامة**».

ومن أسمائه تعالىٰ: «المؤمن»، وهو في أحد التَّفسيرين: المصدِّق الذي يُصدِّق الصّادقين بما يقيم لهم من شواهد صدقهم. فهو الذي صدَّق رسلَه وأنبياءه فيما بلَّغوا عنه، وشهد لهم بأنّهم صادقون بالدّلائل التي دلَّ بها علىٰ صدقهم قضاءً وخَلْقًا، فإنّه سبحانه أخبر وخبرُه الصِّدق، وقولُه الحقُّ أنّه لابدّ أن يُري العبادَ من الآيات الأفقيّة والنّفسيّة ما يبيِّن لهم أنَّ الوحي الذي بلَّغته رسلُه حقٌّ، فقال تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ

---

(١) البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

﴿ٱلۡحَقُّۗ﴾ أي القرآن، فإنّه هو المتقدِّم في قوله: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾[فصلت: ٥٢]. ثمّ قال: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾[فصلت: ٥٣]، فشهد سبحانه لرسوله بقوله: أنَّ ما جاء به حقٌّ، ووَعَده أن يُري العبادَ من آياته الفعليّة الخَلقيّة ما يشهد بذلك أيضًا. ثمَّ ذكر ما هو أعظَمُ من ذلك وأجلُّ، وهو شهادته سبحانه علىٰ كلِّ شيءٍ، فإنَّ من أسمائه «الشّهيد» الذي لا يغيب عنه شيءٌ، ولا يعزُب عنه، بل هو مطّلعٌ علىٰ كلِّ شيءٍ، مشاهدٌ له، عليمٌ بتفاصيله. وهذا استدلالٌ بأسمائه وصفاته، والأوّلُ استدلالٌ بقوله وكلماته، والاستدلالُ بالآيات الأفقيّة والنّفسيّة استدلالٌ بأفعاله ومخلوقاته.

فإن قلتَ: قد فهمتُ الاستدلالَ بكلماته والاستدلالَ بمخلوقاته، فبيِّن لي كيفيَّة الاستدلال بأسمائه وصفاته، فإنّ ذلك أمرٌ لا عهد لنا به في تخاطبنا ولا في كتبنا.

قلتُ: أجل! وهو لَعَمْرُ الله كما ذكرتَ، وشأنُه أجلُّ وأعلىٰ، فإنَّ الرَّبَّ تعالىٰ هو المدلول عليه، وآياته هي الدّليل والبرهان.

فاعلم أنَّ الله سبحانه في الحقيقة هو الدّالُّ علىٰ نفسه بآياته، فهو الدَّليلُ لعباده في الحقيقة بما نصبَه لهم من الدَّلالات والآيات. وقد أودع في الفِطَر التي لم تتنجَّس بالتّعطيل والجحود أنّه سبحانه الكاملُ في أسمائه وصفاته، وأنّه الموصوفُ بكلِّ كمالٍ، المنزَّهُ عن كلِّ عيبٍ ونقصٍ. فالكمالُ كلُّه والجلالُ والجمالُ والبهاءُ والعزُّ والعظمةُ والكبرياءُ= كلُّه من لوازم ذاته، يستحيلُ أن يكون علىٰ غير ذلك. فالحياةُ كلُّها له، والعلمُ كلّه له، والقدرةُ كلُّها له. والسَّمعُ والبصرُ والإرادةُ والمشيئةُ والرَّحمةُ والغنىٰ والجودُ والإحسانُ والبِرُّ= كلُّه خاصٌّ له قائمٌ به، وما خفي عن الخلق من كماله أعظَمُ وأعظَمُ ممَّا عرفوه منه، بل لا نسبةَ لما

عرفوه من ذلك إلىٰ ما لم يعرفوه!

ومن كماله المقدَّس: اطِّلاعُه علىٰ كلِّ شيءٍ، وشهادتُه عليه، بحيث لا يغيب عنه وجهٌ من وجوه تفاصيله، ولا ذرَّةٌ من ذرَّاته باطنًا وظاهرًا. ومَن هذا شأنه، كيف يليق بالعباد أن يشركوا به، وأن يعبدوا معه غيره ويجعلوا معه إلهًا آخر؟ وكيف يليق بكماله أن يُقِرَّ من يكذِبُ عليه أعظمَ الكذب ويخبرُ عنه بخلاف ما الأمر عليه، ثمّ ينصرَه علىٰ ذلك ويؤيِّدَه، ويُعليَ كلمته، ويرفعَ شأنه، ويجيبَ دعوته، ويُهلك عدوَّه، ويُظهر علىٰ يديه من الآيات والبراهين والأدلّة ما يعجز عن مثله قوىٰ البشر، وهو مع ذلك كاذبٌ عليه مفترٍ، ساعٍ في الأرض بالفساد؟

ومعلومٌ أنَّ شهادتَه سبحانه علىٰ كلِّ شيءٍ، وقدرتَه علىٰ كلِّ شيءٍ، وحكمتَه وعزَّتَه وكمالَه المقدَّس= يأبىٰ ذلك كلَّ الإباء. ومن ظنَّ ذلك به وجوَّزه عليه؛ فهو من أبعد الخلق عن معرفته، وإن عرَفَ منه بعضَ صفاته كصفة القدرة وصفة المشيئة.

والقرآن مملوءٌ من هذه الطريق، وهي طريقُ الخاصَّة، بل خاصَّةِ الخاصَّة الّذين يستدلُّون بالله علىٰ أفعاله، وما يليق به أن يفعله وما لا يفعله.

وإذا تدبَّرتَ القرآنَ رأيتَه ينادي علىٰ ذلك، ويبديه ويعيده لمن له فهمٌ وقلبٌ واعٍ عن الله. قال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾[الحاقة: ٤٤- ٤٧]. أفلا تراه سبحانه يخبر: أنَّ كماله وحكمته وقدرته تأبىٰ أن يُقِرَّ من تقوَّلَ عليه بعضَ الأقاويل؟ بل لابدَّ أن يجعله عبرةً لعباده، كما جرت بذلك سنَّتُه في المتقوِّلين عليه.

وقال تعالىٰ: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ﴾

[الشورىٰ: ٢٤]. هاهنا انتهىٰ جوابُ الشَّرط، ثمَّ أخبر خبرًا جازمًا غيرَ معلَّقٍ أنّه يمحو الباطلَ ويُحِقُّ الحقَّ.

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]، فأخبر أنَّ مَن نفىٰ عنه الإرسالَ والكلامَ لم يقدِّره حقَّ قدره، ولا عرَفَه كما ينبغي، ولا عظَّمه كما يستحقُّ؛ فكيف من ظنَّ أنّه ينصر الكاذبَ المفتريَ عليه ويؤيِّده، ويُظهِر علىٰ يديه الآيات والأدلّة؟

وهذا في القرآن كثيرٌ جدًّا: يستدلُّ بكماله المقدَّس وأوصافه وجلاله علىٰ صدق رسله وعلىٰ وعده ووعيده، ويدعو عبادَه إلىٰ ذلك، كما يستدلُّ بأسمائه وصفاته علىٰ وحدانيّته وعلىٰ بطلان الشِّرك، كما في قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٢ - ٢٣]. وأضعافُ أضعافِ ذلك في القرآن.

ويستدلُّ سبحانه بأسمائه وصفاته علىٰ بطلان ما نُسِب إليه من الأحكام والشَّرائع الباطلة، وأنَّ كماله المقدَّس يمنع من شرعها، كقوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨]، وقوله عقيبَ ما نهىٰ عنه وحرَّمه من الشِّرك والظُّلم والفواحش والقولِ عليه بلا علمٍ: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٣٨]، فأعلَمَك أنَّ ما كان سيِّئة في نفسه فهو يكرهه، وكمالُه يأبىٰ أن يجعله شرعًا له ودينًا. فهو سبحانه يدلُّ عباده بأسمائه وصفاته علىٰ ما يفعله ويأمر به، ويحبُّه ويبغضه، ويثيب عليه ويعاقب عليه؛ ولكنَّ هذه الطَّريقَ لا يصل إليها إلّا خاصَّةُ الخاصَّة، فلذلك كانت طريقُ الجمهور الدِّلالةَ بالآيات المشاهدة،

فإنّها أوسع وأسهل تناولًا، والله سبحانه يفضِّل بعضَ خلقه على بعضٍ، ويرفع درجاتٍ من يشاء، وهو العليم الحكيم.

فالقرآنُ العظيمُ قد اجتمع فيه ما لم يجتمع في غيره، فإنَّه هو الدَّعوةُ والحجَّةُ، وهو الدَّليلُ والمدلولُ عليه، وهو الشَّاهدُ والمشهودُ له، وهو الحَكَم والدَّليلُ، وهو الدَّعوى والبيِّنة. قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾[هود: ١٧] أي من ربِّه، وهو القرآن.

وقال تعالى لمن طلب آيةً تدلُّ على صدق رسوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[العنكبوت: ٥١ - ٥٢]، فأخبر سبحانه أنَّ الكتابَ الذي أنزله يكفي من كلِّ آيةٍ، ففيه الحجَّةُ والدلالةُ على أنَّه من الله سبحانه، أرسل به رسوله، وفيه بيانُ ما يوجب لمن اتَّبعه السّعادةَ، وينجيه من العذاب. ثمَّ قال: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾، فإذا كان سبحانه عالمًا بجميع الأشياء كانت شهادتُه أصدقَ شهادةٍ وأعدلَها، فإنّها شهادةٌ بعلمٍ تامٍّ، محيطٍ بالمشهود به، فيكون الشَّاهدُ به أعدلَ الشُّهداء وأصدقَهم.

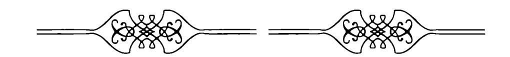
وهو سبحانه يذكر علمَه عند شهادته، وقدرتَه وملكَه عند مجازاته، وحكمتَه عند خلقه وأمره، ورحمتَه عند ذكر إرسال رسوله، وحلمَه عند ذكر ذنوب عباده ومعاصيهم، وسمْعَه عند ذكر دعائهم ومسألتهم، وعزَّتَه وعلمَه عند قضائه وقدره. فتأمَّلْ ورودَ أسمائه الحسنى في كتابه، وارتباطَها بالخلق والأمر والثَّواب والعقاب.

فصل

من شهادته سبحانه: إرساله النبي

ومن هذا: قوله تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[الرعد: ٤٣]، فاستشهد علىٰ رسالته بشهادة الله له، ولابدّ أن تُعلَم هذه الشَّهادةُ، وتقوم بها الحجَّةُ علىٰ المكذِّبين له.

وكذلك قوله: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ١٩﴾[الأنعام: ١٩]. وكذلك قوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[النساء: ١٦٦]. وكذلك قوله: ﴿يسٓ ١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾[يس: ١ - ٣]، وقوله: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾[البقرة: ٢٥٢]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾[المنافقون: ١]، وقوله: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾[الفتح: ٢٩]. فهذا كلُّه شهادةٌ منه لرسوله، قد أظهرها وبيَّنها، وبيَّن صحَّتَها غاية البيان بحيث قطع العذرَ بينه وبين عباده، وأقام الحجَّةَ عليهم. فكونُه سبحانه شاهدًا لرسوله معلومٌ بسائر أنواع الأدلّة: عقليِّها ونقليِّها وفطريِّها، ضروريِّها ونظريِّها.



فصل

من شهادته سبحانه: ما أودع القلوب من التصديق واليقين

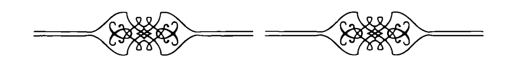
ومن شهادته أيضًا: ما أودعه في قلوب عباده من التَّصديق الجازم، واليقين الثّابت، والطُّمأنينة بكلامه ووحيه؛ فإنّ العادة تُحيل حصولَ ذلك بما هو من أعظم الكذب والافتراء على ربِّ العالمين، والإخبارِ عنه بخلاف ما هو عليه من أسمائه وصفاته. بل ذلك يُوقع أعظمَ الرَّيب والشّكِّ، وتدفعه الفطَرُ والعقولُ السَّلِيمة، كما تدفع الفطَرُ التي فُطِرَ عليها الحيوانُ الأغذيةَ الخبيثةَ الضَّارَّةَ التي لا تغذِّي كالأبوال والأنتان. فإنَّ الله سبحانه فطَر القلوبَ على قبول الحقِّ، والانقياد له، والطُّمأنينة به، والسُّكون إليه ومحبّته؛ وفطَرها على بغض الكذب والباطل، والنُّفور عنه، والرِّيبة به، وعدم السُّكون إليه. ولو بقيت الفطَرُ على حالها لما آثرت على الحقِّ سواه، ولما سكنت إلّا إليه، ولا اطمأنَّت إلّا به، ولا أحبَّت غيره.

ولهذا ندَب سبحانه عبادَه إلى تدبُّر القرآن، فإنَّ كلَّ من تدبَّره أوجب له تدبُّرُه علمًا ضروريًّا ويقينًا جازمًا: أنّه حقٌّ وصدقٌ، بل أحقُّ كلِّ حقٍّ، وأصدَقُ كلِّ صدقٍ؛ وأنَّ الذي جاء به أصدَقُ خلقِ الله، وأبرُّهم، وأكمَلُهم علمًا وعملًا ومعرفةً. قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[النساء: ٨٢]. وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[محمد: ٢٤]. فلو رُفعت الأقفالُ عن القلوب لباشرتها حقائقُ القرآن، واستنارت فيها مصابيحُ الإيمان، وعلِمت علمًا ضروريًّا يكون عندها كسائر الأمور الوجدانيّة من الفرح والألم والحبِّ والخوف= أنّه من عند الله، تكلَّم به حقًّا، وبلَّغه رسولُه جبريلُ عنه إلى رسوله محمَّدٍ ﷺ.

فهذا الشّاهد في القلب من أعظم الشّواهد، وبه احتجَّ هرقلُ على أبي سفيان

حيث قال له: فهل يرتدُّ أحدٌ منهم سخطةً لدينه، بعد أن يدخل فيه؟ فقال: لا. فقال له: وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشتُه القلوبَ لا يَسْخَطُه أحدٌ.

وقد أشار تعالىٰ إلىٰ هذا المعنىٰ بقوله: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾[العنكبوت: ٤٩]، وقوله: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾[سبأ: ٦]، وقوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾[الرعد: ١٩]، وقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾[الرعد: ٢٧] يعني: أنَّ الآيةَ التي يقترحونها لا تُوجِب هدايةً، بل الله هو الذي يهدي ويضلُّ. ثمّ نبَّههم علىٰ أعظم آيةٍ وأجلِّها، وهي: طمأنينةُ قلوب المؤمنين بذكره الذي أنزله، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ﴾أي بكتابه وكلامه ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[الرعد: ٢٨]. فطمأنينةُ القلوب الصَّحيحة والفِطَر السَّليمة به وسكونُها إليه من أعظم الآيات، إذ يستحيل في العادة أن تطمئنَّ القلوبُ وتسكنَ إلىٰ الكذب والافتراء والباطل.



الخلاف في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾

﴿ فصل ﴾

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[آل عمران: ١٩] اختلف المفسِّرون: هل هو كلامٌ مستأنَفٌ، أو داخلٌ في مضمون هذه الشهادة، فهو بعض المشهود به؟

وهذا الاختلاف مبنيٌّ علىٰ القراءتين في كسر «إنّ» وفتحها. فالأكثرون علىٰ كسرها علىٰ الاستئناف، وفتحَها الكسائيُّ وحده[1]. والوجهُ: هو الكسر، لأنَّ الكلام الذي قبله قد تَمَّ، فالجملة الثّانية مقرِّرةٌ مؤكِّدةٌ لمضمون ما قبلها. وهذا أبلغُ في التّقرير، وأذهبُ في المدح والثّناء. ولهذا كان كسرُ «إنَّ» في قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾[الطور: ٢٨] أحسَنَ من الفتح[2]، وكان الكسرُ في قول الملبِّي: «لبّيك، إنَّ الحمد والنِّعمة لك» أحسنَ من الفتح.

وقد دلَّ قولُه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾علىٰ أنّه دينُ أنبيائه ورسله وأتباعهم من أوّلهم إلىٰ آخرهم، وأنّه لم يكن لله قطُّ ولا يكون له دينٌ سواه. قال أوَّلُ الرُّسل نوحٌ: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[يونس: ٧٢]. وقال إبراهيم وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[البقرة: ١٢٨]، ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[البقرة: ١٣٢]. وقال يعقوب لبنيه عند الموت: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِي قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا

---

(١) انظر: «السَّبعة» لابن مجاهد (ص٢٠٢)، و«المبسوط» لابن مهران (ص١٦٢).

(٢) قرأ نافع والكسائي: «أنّه»، انظر: «السَّبعة» (ص٦١٣).

﴿وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[البقرة: ١٣٣]. وقال موسىٰ لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾[يونس: ٨٤].

وقال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢]، وقالت ملكة سبأ: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[النمل: ٤٤].

فالإسلامُ دينُ أهلِ السَّماوات ودينُ أهلِ التَّوحيد من أهل الأرض، لا يقبل الله من أحدٍ دينًا سواه.

ولا ريب أنَّ أهلَ التّوحيد متفاوتون في توحيدهم علمًا ومعرفةً وحالًا تفاوتًا لا يحصيه إلَّا الله. فأكمَلُ النّاس توحيدًا: الأنبياءُ صلوات الله وسلامه عليهم، والمرسلون منهم أكمَلُ في ذلك، وأولو العزم من الرُّسل أكملُهم توحيدًا، وهم نوحٌ، وإبراهيم، وموسىٰ، ومحمّدٌ صلوات الله وسلامه عليهم. وأكمَلُهم توحيدًا: الخليلان محمّدٌ وإبراهيم صلوات الله وسلامه عليهما، فإنَّهما قاما من التَّوحيد بما لم يقم به غيرُهما علمًا ومعرفةً وحالًا، ودعوةً للخلق وجهادًا. فلا توحيد أكمَلُ من الذي قامت به الرُّسلُ، ودعَوا إليه، وجاهَدوا الأمم عليه.

ولهذا أمر الله سبحانه نبيَّه ﷺ أن يقتدي بهم فيه، كما قال سبحانه بعد ذكر إبراهيم ومناظرته قومَه في بطلان الشِّرك وصحَّة التوحيد، وذكَر الأنبياءَ من ذرِّيّته، ثمّ قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[الأنعام: ٨٩]. فلا أكملَ من توحيد مَن أُمر رسولُ الله ﷺ أن يقتدي بهم.

ولمَّا قاموا بحقيقة التوحيد علمًا وعملًا ودعوةً وجهادًا جعلَهم الله أئمَّةً للخلائق، يهدُون بأمره، ويدعُون إليه. وجعل الخلائقَ تبعًا لهم، يأتمرون بأمرهم، وينتهون إلىٰ ما وقفوا بهم عنده؛ وخصَّ بالسَّعادة والفلاح والهدىٰ أتباعَهم، وبالشَّقاء والضّلال مخالفيهم؛ وقال لإمامهم وشيخهم إبراهيم خليله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[البقرة: ١٢٤]، أي لا ينال عهدي بالإمامة مشركًا.

ولهذا أوصىٰ نبيَّه محمَّدًا ﷺ أن يتَّبع ملَّةَ إبراهيم. وكان يعلِّم أصحابه إذا أصبحوا أن يقولوا: «**أصبحنا علىٰ فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبيِّنا محمَّدٍ، وملَّةِ أبينا إبراهيم حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين**»[١]، فملَّةُ إبراهيم: التَّوحيد. ودينُ محمّدٍ: ما جاء به من عند الله قولًا وعملًا واعتقادًا. وكلمةُ الإخلاص هي شهادة أن لا إله إلّا الله. وفطرةُ الإسلام هي ما فطَر الله عليه عبادَه من محبّته وعبادته وحده لا شريك له، والاستسلامِ له عبوديَّةً وذلًّا وانقيادًا وإنابةً.

فهذا هو توحيدُ خاصَّة الخاصّة، الذي مَن رغب عنه فهو من أسفه السُّفهاء.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[البقرة: ١٣٠- ١٣١].

وبهذا أمر الله سبحانه جميعَ المرسلين من أوّلهم إلىٰ آخرهم. قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾[المؤمنون: ٥١- ٥٢].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا يُوحَىٰ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٣٦٣، ١٥٣٦٧)، من حديث عبد الرحمن بن أبزىٰ، وحسَّنه الحافظ في «نتائج الأفكار» (٢/ ٤١٠).

﴿إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال تعالىٰ: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

وقال تعالىٰ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ٢١ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ٢٣ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۗ﴾ [الأنبياء: ٢١ - ٢٤]، أي هذا الكتابُ الذي أُنزِل عليَّ وهذه كتبُ الأنبياء كلِّهم، هل وجدتم في شيءٍ منها اتِّخاذَ آلهةٍ مع الله أم كلُّها ناطقةٌ بالتّوحيد آمرةٌ به؟

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦]. والطَّاغوتُ اسمٌ لكلِّ ما عبدوه من دون الله، فكلُّ مشركٍ إلهُه طاغوتُه.

وقد تكلَّم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله **علىٰ ما ذكره صاحب «المنازل» في التّوحيد، فقال**[1] بعد أن حكىٰ كلامه إلىٰ آخره: أمّا التوحيد الأوَّل الذي ذكره فهو التوحيد الذي جاءت به الرُّسل كلُّهم، ونزلت به الكتب كلُّها، وبه أمر الله الأوّلين والآخرين. وذكر الآيات الواردة بذلك.

ثمّ قال: وقد أخبر الله عن كلِّ رسولٍ من الرُّسل أنّه قال لقومه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾. وهذا أوَّلُ دعوة الرُّسل وآخرُها. قال النَّبيُّ ﷺ: **«أُمِرتُ أن أقاتلَ النّاسَ حتّىٰ يشهدوا أن لا إله إلّا الله، وأنّي رسولُ الله»**[2]. وقال: **«من مات وهو يعلم أنّه لا إله إلّا الله دخلَ الجنّة»**[3].

---

(١) انظر: «منهاج السنة» (٥/ ٣٤٦ وما بعدها).

(٢) أخرجه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢)، من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه مسلم (٢٦)، من حديث عثمان بن عفان.

والقرآنُ مملوءٌ من هذا التوحيد، والدَّعوةِ إليه، وتعليقِ النَّجاة والسَّعادة في الآخرة به. وحقيقتُه: إخلاصُ الدِّين كلِّه لله. والفَناءُ في هذا التوحيد مقرونٌ بالبقاء، وهو أن تُثبت إلهيَّةَ الحقِّ تعالىٰ في قلبك، وتنفي إلهيَّةَ ما سواه، فتجمعَ بين النّفي والإثبات. فالنَّفيُ هو الفَناء، والإثباتُ هو البقاء. وحقيقتُه: أن تفنىٰ بعبادته عن عبادة ما سواه، وبمحبَّته عن محبَّة ما سواه، وبخشيته عن خشية ما سواه، وبطاعته عن طاعة ما سواه. وكذلك بموالاته، وسؤالِه، والاستعانةِ به، والتّوكُّلِ عليه، ورجائِه ودعائه، والتَّفويضِ إليه، والتّحاكُمِ إليه، واللَّجأ إليه، والرّغبةِ فيه.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الأنعام: ١٤].

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[الزمر: ٦٤ - ٦٥].

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[الأنعام: ١٦١ - ١٦٣].

وقال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾[الشعراء: ٢١٣].

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[الزمر: ٣٨].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ﴾[الزمر: ٢- ٣].

وقال تعالىٰ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا

يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ۝٤٣ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[الزمر: ٤٣- ٤٤].

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[النساء: ٣٦].

وهذا في القرآن أكثر من أن يذكر. وهو أوَّلُ الدِّين وآخرُه وظاهرُه وباطنُه، وذروةُ سنامه، وقطبُ رحاه.

وأمرنا تعالىٰ أنَّ نتأسَّىٰ بإمام هذا التَّوحيد في نفيه وإثباته، كما قال تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾[الممتحنة: ٤].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾[الزخرف: ٢٦].

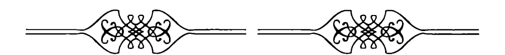
وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ۝٧٠ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ۝٧١ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٢ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۝٧٣ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٧٤ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾[الشعراء: ٦٩ - ٨٢].

وإذا تدبَّرتَ القرآن من أوّله إلىٰ آخره رأيتَه يدور علىٰ هذا التَّوحيد وتقريره وحقوقه.

قال شيخنا[١]: والخليلان هما أكملُ خاصَّة الخاصَّة توحيدًا. ولا يجوز

(١) في «منهاج السنة» (٥/ ٣٥٥).

أن يكـون في الأمَّـة مـن هـو أكمـل توحيـدًا مـن نبيٍّ مـن الأنبيـاء، فضـلًا عـن الرُّسـل، فضـلًا عـن أولـي العـزم، فضـلًا عـن الخليليـن. وكمـالُ هـذا التّوحيـد هـو أن لا يبقـىٰ في القلـب شيءٌ لغيـر الله أصـلًا، بـل يبقـىٰ العبد مواليًا لربِّـه في كلِّ شـيءٍ، يحـبُّ مـا أحـبَّ، ويُبغـض مـا أبغـضَ، ويوالـي مـن يواليـه، ويعادي مـن يعاديـه، ويأمر بمـا يأمر بـه، وينهـىٰ عمّـا نهـىٰ عنه.



﴿ فصل ﴾

الجمع بين نوعي التوحيد

الجمعُ الصَّحيحُ الذي عليه أهلُ الاستقامة هو: جمعُ توحيد الرُّبوبيَّة وجمعُ توحيد الإلهيَّة.

فيشهد صاحبُه قيُّوميّةَ الربِّ تعالىٰ فوق عرشه يدبِّر أمرَ عباده وحده. فلا خالقَ ولا رازق، ولا معطيَ ولا مانع، ولا مميتَ ولا محيي، ولا مدبِّر لأمر المملكة ظاهرًا وباطنًا غيره. فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. لا تتحرَّك ذرّةٌ إلّا بإذنه، ولا يجري حادثٌ إلّا بمشيئته، ولا تسقط ورقةٌ إلّا بعلمه، ولا يعزُب عنه مثقالُ ذرّةٍ في السّماوات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلّا وقد أحصاها علمه، وأحاطت بها قدرته، ونفذت بها مشيئته، واقتضتها حكمته. فهذا جمعُ توحيد الرُّبوبيّة.

وأمّا جمعُ توحيد الإلهيَّة، فهو: أن يجمع قلبَه وهمَّه وعزمَه وإرادتَه وحركاتِه علىٰ أداء حقِّه والقيامِ بعبوديّته، فتجتمع شؤونُ إرادته علىٰ مراده الدِّينيِّ الشّرعيِّ.

وهذان الجمعان هما حقيقةُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. فإنَّ العبدَ يشهد من قوله ﴿إِيَّاكَ﴾ الذّاتَ الجامعةَ لجميع صفات الكمال التي لها كلُّ الأسماء الحسنىٰ، ثمَّ يشهد من قوله: ﴿نَعْبُدُ﴾ جميعَ أنواع العبادة ظاهرًا وباطنًا، قصدًا وقولًا وعملًا، حالًا واستقبالًا. ثمَّ يشهد من قوله: ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ جمعَ الاستعانة والتّوكُّل والتّفويض، فيشهد منه جمعَ الرُّبوبيَّة. ويشهد من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ جمعَ الإلهيَّة، ويشهد من ﴿إِيَّاكَ﴾ الذّاتَ الجامعةَ لكلِّ الأسماء الحسنىٰ والصِّفات العُلا.

ثمَّ يشهد من ﴿ ٱهْدِنَا﴾ عشر مراتب، إذا اجتمعت حصلت الهداية:

المرتبة الأولىٰ: هداية العلم والبيان، فيجعله عالمًا بالحقِّ مدركًا له.

الثّانية: أن يُقدِره عليه، وإلّا فهو غير قادرٍ بنفسه.

الثّالثة: أن يجعله مريدًا له.

الرّابعة: أن يجعله فاعلًا له.

الخامسة: أن يُثبِّته علىٰ ذلك، ويستمرَّ به عليه.

السَّادسة: أن يصرف عنه الموانع والعوارض المضادَّة له.

السَّابعة: أن يهديه في الطَّريق نفسها هدايةً خاصَّةً أخصَّ من الأولىٰ، فإنّ الأولىٰ هدايةٌ إلىٰ الطّريق إجمالًا، وهذه هدايةٌ فيها وفي منازلها تفصيلًا.

الثَّامنة: أن يُشهِده المقصودَ في طريقه وينبِّهه عليه، فيكون مطالعًا له في سيره، ملتفتًا إليه، غير محتجبٍ بالوسيلة عنه.

التَّاسعة: أن يُشهِده فقرَه وضرورتَه إلىٰ هذه الهداية فوقَ كلِّ ضرورةٍ.

العاشرة: أن يُشهِده الطَّريقين المنحرفين عن طريقها، وهما: طريقُ أهل الغضب الذين عدلوا عن اتِّباع الحقِّ قصدًا وعنادًا، وطريقُ أهل الضَّلال الذين عدلوا عنها جهلًا وضلالًا.

ثمّ يشهد جمعَ «الصِّراط المستقيم» في طريقٍ واحدٍ عليه جميعُ أنبياء الله ورسله وأتباعهم من الصِّدِّيقين والشُّهداء والصّالحين.

فهذا هو الجمعُ الذي عليه رسلُ الله وأتباعُهم، فمن حصل له هذا الجمع، فقد هُدي إلىٰ الصِّراط المستقيم.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢].

فنختم الكتاب بهذه الآية حامدين لله مثنين عليه بما هو أهله، وبما أثنىٰ علىٰ نفسه. والحمدُ لله ربِّ العالمين حمدًا طيِّبًا مباركًا فيه كما يحبُّ ربُّنا ويرضىٰ، وكما ينبغي لكرم وجه ربِّنا وعزِّ جلاله غيرَ مكفيٍّ ولا مكفورٍ ولا مودَّعٍ ولا مستغنًىٰ عنه ربّنا. ونسأله أن يوزعنا شكر نعمته ويوفِّقنَا لأداء حقِّه، وأن يعيننا علىٰ ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يجعل ما قصدنا له في هذا الكتاب وفي غيره خالصًا لوجهه الكريم ونصيحةً لعباده.

فيا أيُّها القارئ له، لك غنمُه وعلىٰ مؤلِّفه غرمُه، ولك ثمرتُه وعليه تبعتُه. فما وجدتَ فيه من صوابٍ وحقٍّ فاقبله ولا تلتفت إلىٰ قائله، بل انظر إلىٰ ما قال لا إلىٰ من قال. وقد ذمَّ الله تعالىٰ من يردُّ الحقَّ إذا جاء به مَن يبغضه، ويقبله إذا قاله مَن يحبُّه، فهذا خلقُ الأمَّة الغضبيَّة. قال بعض الصّحابة: اقبل الحقَّ ممَّن قاله وإن كان بغيضًا، ورُدَّ الباطلَ علىٰ من قاله وإن كان حبيبًا[1]. وما وجدتَ فيه من خطأٍ فإنَّ قائلَه لم يألُ جهدَ الإصابة، ويأبىٰ الله إلّا أن ينفرد بالكمال:

فالنَّقصُ في أصل الطّبيعة كامنٌ ... فبنو الطّبيعة نقصُهم لا يُجحَدُ[2]

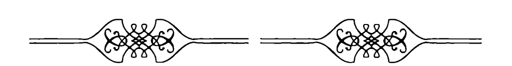
وكيف يُعصَم من الخطأ من خُلِقَ ظلومًا جهولًا، ولكن مَن عُدَّتْ غلطاتُه أقرَبُ إلىٰ الصّواب ممّن عُدَّت إصاباته.

وعلىٰ المتكلِّم في هذا الباب وغيره: أن يكون مصدرُ كلامه عن العلم بالحقِّ، وغايتُه النَّصيحةَ لله ولكتابه ولرسوله ولإخوانه من المسلمين. وإذا كان الحقُّ تبعًا للهوىٰ فسد القلبُ والعملُ والحالُ والطَّريقُ. قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾[المؤمنون: ٧١]. وقال

خاتمة الكتاب

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ١٢١) من كلام أبي بن كعب رضي الله عنه، وأخرج نحوه ابن أبي الدنيا في «كتاب الصمت» (٤٥١)، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
(٢) لم أقف عليه.

النبيُّ ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتَّىٰ يكون هواه تبعًا لما جئتُ به**»[1]. فالعلمُ والعدلُ أصلُ كلِّ خيرٍ، والجهلُ والظُّلمُ أصلُ كلِّ شرٍّ. والله تعالىٰ أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحقِّ، وأمرَه أن يعدل بين الطّوائف، ولا يتَّبع أهواءَ أحدٍ منهم، فقال تعالىٰ: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١٥].



(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (١٥)، من حديث عبد الله بن عمرو، وضعفه ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٣٩٤).

فهرس الموضوعات

فهرس الفوائد

الفائدة	الصفحة	الأصل
اضطرار العبد إلىٰ الدعاء بالهداية فوق كلِّ ضرورة	١٦	١/ ١٣
مثل رجل خرج من بيته إلىٰ الصّلاة لا يريد غيرها فعرَض له في طريقه شيطانٌ من شياطين الإنس	٢٥	١/ ٣٣- ٣٤
يقرن الله استواءَه علىٰ العرش باسم الرحمن كثيرًا	٣٤	١/ ٥١
ومن هاهنا كان قول المسيح عليه السّلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[المائدة: ١١٨] أحسنَ من أن يقول: وإن تغفر لهم فإنّك أنت الغفور الرّحيم. أي إن غفرتَ لهم كان مصدرُ مغفرتك عن عزّةٍ وهي كمالُ القدرة، وعن حكمةٍ وهي كمالُ العلم. فمَن غفَر عن عجزٍ وجهلٍ بجرم الجاني، فأنت لا تغفر إلّا عن قدرةٍ تامّةٍ، وعلم تامٍّ، وحكمةٍ تضع بها الأشياء مواضعها. فهذا أحسن من ذكر الغفور الرّحيم في هذا الموضع، الدّالّ ذكرُه علىٰ التّعريض بطلب المغفرة في غير حينها، وقد فاتت. فإنّه لو قال: وإن تغفر لهم فإنّك أنت الغفور الرّحيم، كان في هذا من الاستعطاف والتّعريض بطلب المغفرة لمن لا يستحقُّها ما ينزَّه عنه منصبُ المسيح، لا سيّما والموقف موقف عظمةٍ وجلالةٍ، وموقف انتقام ممّن جعل لله ولدًا، واتّخذه إلهًا من دونه. فذكرُ العزّة والحكمة فيه أليقُ من ذكر المغفرة والرّحمة	-	١/ ٥٥- ٥٦

الفائدة	الصفحة	الأصل
القلب يعرض له مرضان عظيمان، إن لم يتداركهما تراميا به إلىٰ التَّلَف ولا بدَّ، وهما: الرِّياء، والكبر. فدواء الرِّياء بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ودواء الكبر بـ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. وكثيرًا ما كنتُ أسمع شيخ الإسلام ابن تيميّة قدّس الله روحَه يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾تدفع الرِّياء، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾تدفع الكبرياء	٥٠	١/ ٨٧
والعارفون أرباب البصائر يستدلُّون بالله علىٰ أفعاله وصُنْعه، إذا استدلَّ النّاسُ بصُنعه وأفعاله عليه. ولا ريب أنّهما طريقان صحيحان، كلٌّ منهما حقٌّ، والقرآن مشتملٌ عليهما. فأمّا الاستدلالُ بالصّنعة فكثيرٌ. وأمّا الاستدلال بالصّانع فله شأنٌ، وهو الذي أشارت إليه الرُّسل بقولهم لأممهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾أي أيُشَكُّ في الله حتّىٰ يُطلَب إقامةُ الدّليل علىٰ وجوده!	–	١/ ٩٥
التّوكُّل والعبادة ذُكِرا في القرآن في عدَّة مواضع قُرِنَ بينهما فيها	٥٦	١/ ١١٧
أنفعُ الدُّعاء طلبُ العون علىٰ مرضاته، وأفضلُ المواهب إسعافُه بهذا المطلوب	٥٩	١/ ١٢٢
لو توكَّل العبد علىٰ الله حقَّ توكُّله في إزالة جبلٍ عن مكانه وكان مأمورًا بإزالته لأزاله	٦٢	١/ ١٢٦
أفضلُ العبادة العملُ علىٰ مرضاة الرّبِّ تعالىٰ في كلِّ وقتٍ بما هو مقتضىٰ ذلك الوقت ووظيفته	٦٩	١/ ١٣٥-١٣٦
الأفضلُ في كلِّ وقتٍ وحالٍ: إيثارُ مرضاة الله تعالىٰ في ذلك الوقت والحال، والاشتغالُ بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه	٧١	١/ ١٣٨

الفائدة	الصفحة	الأصل
العبد المطلق هو الذي لم تملكه الرُّسوم ولم يكن عملُه علىٰ مراد نفسه وما فيه لذّتها وراحتها من العبادات	٧١	١/ ١٣٨- ١٣٩
بناءُ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ علىٰ أربعة قواعد	٧٥	١/ ١٥٣
كلَّما تمكَّن العبدُ في منازل العبوديّة كانت عبوديّتُه أعظم	٧٩	١/ ١٦٠
رحىٰ العبوديّة تدور علىٰ خمس عشرة قاعدة	٨٣	١/ ١٦٥
العبوديّات الخمس علىٰ الجوارح علىٰ خمس وعشرين مرتبة	٨٧	١/ ١٧٧
ترتيب المقامات ليس باعتبار أنَّ السَّالكَ يقطع المقامَ ويفارقه وينتقل إلىٰ الثّاني	١٠١	١/ ٢٠٤- ٢٠٥
فتأمَّلْ حالَ عبدين في خدمة سيِّدهما: أحدُهما يؤدِّي حقوق خدمته في حال غَيبته عن نفسه وعن خدمته لاستغراقه بمشاهدة سيِّده. والآخَرُ يؤدِّيها في حالِ كمالِ حضوره وتمييزه، وإشعارِ نفسه بخدمةِ السّيِّد وابتهاجِها بذلك فرحًا بخدمته، وسرورًا والتذاذًا منه، واستحضارًا لتفاصيل الخدمة ومنازلها؛ وهو مع ذلك عاملٌ علىٰ مراد سيِّده منه، لا علىٰ مراده من سيِّده. فأيُّ العبدين أكمل؟	-	١/ ٢٣٩
عظُمَتْ وصيّةُ أئمَّة القوم بالعلم، وحذَّروا من السُّلوك بلا علم، وأمَروا بهَجْرِ مَن هَجَرَ العلمَ وأعرضَ عنه وعدمِ القبول منه، لمعرفتهم بمآلِ أمرِه وسوءِ عاقبةِ سَيره. وعامَّةُ من تزندق من السّالكين فلإعراضه عن دواعي العلم، وسيرِه علىٰ جادَّة الذّوق والوجد والفناء، ذاهبةً به الطّريقُ كلَّ مذهب. فهذا فتنته، والفتنةُ به شديدةٌ! وبالله التّوفيق	-	١/ ٢٤١

الفائدة	الصفحة	الأصل
كلِّ من أعرض عن شيءٍ من الحقِّ وجَحَده وقَع في باطل مقابل لما أعرض عنه من الحقِّ وجَحَده، ولا بدَّ؛ حتّىٰ في الأعمال، مَن رغب عن العمل لوجه الله وحدَه ابتلاه الله بالعمل لوجوه الخلق، فرغب عن العمل لِمَن ضرُّه ونفعُه وموتُه وحياتُه ونشورُه وسعادتُه بيده، فابتلي بالعمل لمن لا يملك له شيئًا من ذلك. وكذلك مَن رغِبَ عن إنفاق ماله لله وفي طاعته، ابتُلِيَ بإنفاقه لغير الله، وهو راغمٌ. وكذلك مَن رغِبَ عن التَّعب لله ابتُلِيَ بالتَّعب في خدمة الخلق، ولا بدّ. وكذلك مَن رغِبَ عن الهدي بالوحي ابتُلِيَ بكُناسةِ الآراء وزُبالةِ الأذهان ووسَخ الأفكار. فليتأمَّل من يريد نصحَ نفسه وسعادَتَها وفلاحَها هذا الموضعَ في نفسه وفي غيره. والله المستعان	-	١/ ٢٥٢
لا يسيءُ الظّنَّ بنفسه إلّا مَن عرفها، ومَن أحسن ظنَّه بها فهو من أجهل النّاس بنفسه!	١١٣	١/ ٢٦٣
كم من مستدرَج بالنِّعم وهو لا يشعُر	١١٤	١/ ٢٦٣
رضا العبد بطاعته دليلٌ علىٰ حسنِ ظنِّه بنفسه، وجهلِه بحقوق العبوديّة	١١٦	١/ ٢٦٧- ٢٦٨
قال بعضُ العارفين: متىٰ رضيتَ نفسَك وعملَك لله، فاعلم أنّه غيرُ راضٍ به	١١٨	١/ ٢٧٠
ذنبٌ تَذِلُّ به لديه أحبُّ إليه من طاعةٍ تُدِلُّ بها عليه	١١٩	١/ ٢٧٢
أجمع العارفون بالله علىٰ أنَّ الخِذْلانَ: أن يخلِّيَ الله بينك وبين نفسك، والتّوفيقَ: أن لا يكلك الله إلىٰ نفسك	١٢٤	١/ ٢٧٧- ٢٧٨
المؤمنُ لا تتمُّ لذَّته بمعصيته أبدًا، ولا يكمل بها فرحُه	١٢٤	١/ ٢٧٨

الفائدة	الصفحة	الأصل
تعظيمُ الجناية يصدر عن ثلاثة أشياء: تعظيم الأمر، وتعظيم الآمر، والتَّصديق بالجزاء	١٢٧	١/ ٢٨٥
من اتِّهام التَّوبة: ضعفُ العزيمة، والتفاتُ القلب إلىٰ الذَّنب اللَّفْتَةَ بعد اللَّفْتةِ، وتذكُّر حلاوة مواقعته	١٢٨	١/ ٢٨٦
أكثر النَّاس المتبرِّئين عن الكبائر الحسِّيَّة والقاذورات في كبائر مثلِها أو أعظمَ منها أو دونَها	١٣٠	١/ ٢٨٩
إذا أحسَّ من نفسه حالَ الصَّفاء غَيْمًا من الدَّعوىٰ ورقيقةً من العُجْب ونسيانِ المِنَّة فذكرُ الذَّنب أنفع له. وإن كان في حال مشاهدةِ منَّة الله عليه، وكمالِ افتقاره إليه، فنسيانُ الجناية والإعراض عن الذَّنب أولىٰ به وأنفع له	١٣٤	١/ ١/ ٣١٦- ٣١٧
برُّه سبحانه في سَتْره علىٰ عبده حالَ ارتكاب المعصية، مع كمال رؤيته له، ولو شاء لَفَضَحه بين خلقه	١٣٧	١/ ٣٢٢
تأمَّلْ قولَ الأمِّ: لا تحملني بمعصيتك علىٰ خلاف ما جُبلتُ عليه من الرَّحمة والشَّفقة. وتأمَّلْ قوله ﷺ: «لَلّهُ أرحَمُ بعباده من الوالدة بولدها». وأين تقع رحمةُ الوالدة من رحمة الله؟	١٤٧	١/ ٣٣٤- ٣٣٥
ولهذا قيل لبعض الأعراب وقد أسلم لمَّا عرف دعوته ﷺ: عن أيِّ شيءٍ أسلمت؟ وما رأيتَ منه ممَّا دلَّكَ علىٰ أنَّه رسول الله؟ قال: ما أمرَ بشيءٍ، فقال العقل: ليته نهىٰ عنه! ولا نهىٰ عن شيءٍ، فقال العقل: ليته أمر به! ولا أحلَّ شيئًا، فقال العقل: ليته حرَّمه! ولا حرَّم شيئًا، فقال العقل: ليته أباحه!	-	١/ ٣٦٧

الفائدة	الصفحة	الأصل
وهـذا بـابٌ عظيـمٌ نافـعٌ في التّوحيـد وإثبـات الحِكَـم، يُوجِـب للعبـد إذا تبصَّـر فيـه الصُّعـودَ مِـن الأسـباب إلـىٰ مسـبِّبها، والتّعلُّـق بـه دونهـا، وأنّهـا لا تضـرُّ ولا تنفـع إلّا بإذنـه، وأنّـه إذا شـاء جَعـلَ نافعَهـا ضـارًّا وضارَّهـا نافعًـا، ودواءَهـا داءً وداءَهـا دواءً. فالالتفـاتُ إليهـا بالكلّيّـة شـركٌ منـافٍ للتّوحيـد، وإنكارُهـا أن تكـون أسـبابًا بالكلّيّـة قـدحٌ في الشَّـرع والحكمـة. والإعـراضُ عنهـا مـع العلـم بكونها أسـبابًا نقصـانٌ في العقـل. وتنزيلُهـا منازلَهـا، ومدافعـةُ بعضهـا ببعـضٍ، وتسـليطُ بعضهـا علـىٰ بعـضٍ، وشـهودُ الجمـعِ في تفرُّقهـا، والقيـامُ بهـا= هـو محـضُ العبوديّـة والمعرفـة، وإثبـاتُ التَّوحيـد والشَّـرع والقـدَر والحكمـة	-	١/ ٣٧٩
والرَّجـلُ كلُّ الرَّجـل: مَـن يـردُّ مـن تفرقتـه علـىٰ جمعـه، ومـن جمعـه علـىٰ تفرقتـه، فيقـوِّي كلَّ واحـدٍ منهمـا بالآخـر، ولا يلقـي الحـربَ بينهمـا. فإذا جاءت تفرقةُ الأمر جدَّ فيها وقام بها مُمِدًّا بها لجمعيَّته مقوِّيًا لها بالأمر، وإذا جاءت حالةُ الجمعيّة تقوَّىٰ بها علىٰ تفرقة الأمر. فإذا تفـرَّق تفـرَّق لله ليجمعَـه عليـه. وإذا جـاءت الجمعيّـةُ قـال: أجتمـع لأتقـوَّىٰ علـىٰ أمـر الله ورضـاه، لا لمجـرَّدِ حظّـي ولـذّتي مـن هـذه الجمعيَّـة؛ فمـا أكثـرَ مـن يغيـبُ بحظّـه منهـا ولذّتهـا ونعيمهـا وطيبهـا، عـن مـراد الله منـه!	-	١/ ٣٩٠

الفائدة	الصفحة	الأصل
ولا ريب أنَّ مَن أظهرَ الاستغناءَ عن الله، وتوثَّبَ عليه، وأورثته الطَّاعاتُ جبروتًا وحَجْبًا عن رؤيته عيوبَ نفسه وعمله، وكثرت في عينه= فهو من أبغَضِ الخلقِ إلىٰ الله تعالىٰ، وأبعدِهم عن العبوديّة، وأقربهم إلىٰ الهلاك، لا مَن استكثَر من الباقيات الصَّالحات. ومن قول النَّبيِّ ﷺ لمن سأله مرافقته في الجنّة، فقال: «أعِنِّي علىٰ نفسك بكثرة السُّجود»	-	١/ ٤٠٧
والعارفُ من صغُرتْ حسناتُه في عينه، وعظمتْ ذنوبُه عنده. وكلَّما صغُرت الحسناتُ في عينك كبُرتْ عند الله، وكلّما كبُرتْ وعظُمتْ في قلبك قلَّتْ عند الله وصغُرَتْ. وسيِّئاتُك بالعكس. ومَن عرف اللهَ وحقَّه وما ينبغي لعظمته من العبوديّة تلاشت حسناتُه عنده وصغُرت جدًّا في عينه، وعلِم أنّها ليست ممّا ينجو بها من عذابه، وأنَّ الذي يليق بعزّته ويصلح له من العبوديّة أمرٌ آخر. وكلَّما استكثَر منها استقلَّها واستصغَرها، لأنّه كلَّما استكثَر منها فُتِحَت له أبوابُ المعرفة بالله والقرب منه، فشاهد قلبُه من عظمته وجلاله ما يستصغِرُ معه جميعَ أعماله، ولو كانت أعمالَ الثَّقَلَين. وإذا كثُرت في عينه وعظُمت دلَّ علىٰ أنّه محجوبٌ عن الله، غيرُ عارفٍ به وبما ينبغي له	-	١/ ٤١١

الفائدة	الصفحة	الأصل
المراقبـة تعطـي نـورًا كاشـفًا لحقائـق المعرفـة والعبوديّـة، وإضاعـةُ الوقـت تطفـئ ذلـك النُّـور، وتكـدِّر عيـنَ الصُّحبـة مـع الله تعالـىٰ، فـإنَّ صاحـب الوقت مع صحبة الله، ولـه مع الله معيّةٌ خاصّةٌ بحسب حفظه وقتَه مع الله. فإن كان مع الله كان الله معـه. فإذا أضاع وقتَه كـدَّر عينَ هـذه المعيَّـة الخاصَّـة، وتعـرَّض لقطـع هـذه الصُّحبـة. فـلا شـيءَ أضـرُّ علـىٰ العـارف بـالله مـن إضاعـة وقتـه مـع الله	–	١/ ٤١٥- ٤١٦
وفـوق هـذا مقـامٌ آخـر مـن التّوبـة أرفَـعُ منـه وأخـصُّ، لا يعرفـه إلّا خـواصُّ المحبِّيـن، الذيـن يسـتقلُّون في حـقِّ محبوبهـم جميـعَ أعمالهـم وأحوالهـم وأقوالهـم، فـلا يرونهـا قـطُّ إلّا بعيـن النَّقـص والإزراء عليهـا، ويـرون شـأنَ محبوبهـم أعظـمَ وقـدرَه أعلـىٰ مـن أن يرضَـوا نفوسَـهم وأعمالَهـم لـه، فهـم أشـدُّ شـيءٍ احتقـارًا لهـا وإزراءً بهـا. وإذا غفلـوا عـن مـراد محبوبهـم منهـم ولـم يوفُّـوه حقَّـه تابـوا إليـه مـن ذلـك توبـةَ أربـاب الكبائـر منهـا. فالتّوبـةُ لا تفارقهـم أبـدًا، وتوبتُهـم لـونٌ، وتوبـةُ غيرهـم لـونٌ وكلَّمـا ازدادوا حبًّـا لـه ازدادوا معرفـةً بحقِّـه وشـهودًا لتقصيرهـم، فعظمـت لذلـك توبتُهـم. ولذلـك كان خوفُهـم أشـدَّ، وإزراؤهـم علـىٰ أنفسـهم أعظـمَ، ومـا يتـوب منـه هـؤلاء قـد يكـون مـن كبـار حسـنات غيرهـم	–	١/ ٤١٦- ٤١٧

الفائدة	الصفحة	الأصل
وعلىٰ هذا، فهل يُحبطُ الرَّاجحُ المرجوحَ حتّىٰ يجعله كأن لم يكن، أو يُحبط ما قابله بالموازنة، ويبقىٰ التّأثيرُ للقدر الزَّائد؟ فيه قولان للقائلين بالموازنة، ينبني عليهما أنّه إذا كانت الحسناتُ أرجحَ من السّيِّئات بواحدةٍ مثلًا، فهل يدفع الرَّاجحُ المرجوحَ جملةً؟ فيثاب علىٰ الحسنات كلِّها، أو يسقط من الحسنات ما قابلَ السّيِّئاتِ فلا يثاب عليه، ولا يعاقَب علىٰ تلك السّيِّئات، فيبقىٰ القدرُ الزّائدُ لا مقابلَ له، فيثابُ عليه وحده؟ وهذا الأصل فيه قولان لأصحاب الموازنة. وكذلك إذا رجحت السّيِّئاتُ بواحدةٍ، هل يدخل النّارَ بتلك الواحدة التي سَلِمت عن مقابل، أو بكلِّ السّيِّئاتِ التي رجحت؟ علىٰ القوليْن	-	١/ ٤٣٤
مثل رجل مسافر سائر علىٰ الطَّريق بطمأنينةٍ وأمنٍ، فهو يعدو مرَّةً ويمشي أخرىٰ	١٧٦	١/ ٤٥٣- ٤٥٤
مثل رجل خرج من بيته يريد الصَّلاةَ في الصَّفِّ الأوّل، لا يَلوي علىٰ شيءٍ في طريقه، فعرَض له رجلٌ من خلفه جبَذ ثوبَه وأوقفه قليلًا	١٧٧	١/ ٤٥٥
وهذا والله أعلم هو السِّرُّ في استجابة دعوة الثّلاثة: المظلوم، والمسافر، والصّائم للكَسْرة التي في قلبِ كلِّ واحدٍ منهم، فإنَّ غربة المسافر وكسْرتَه ممّا يجده العبدُ في نفسه، وكذلك الصَّومُ فإنَّه يكسِر سورةَ النَّفس السَّبُعيّةِ الحيوانيّةِ ويُذلُّها	-	١/ ٤٦٢
الاستغفار الذي يمنع العذابَ في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾	١٨٨	١/ ٤٧٥
لأهل الذُّنوب ثلاثةُ أنهارٍ عظامٍ يتطهَّرون بها في الدُّنيا	١٩٣	١/ ٤٨١

الفائدة	الصفحة	الأصل
فاعلم أنَّ هذا النَّفيَ العامَّ للشِّرك: أن لا يُشرك بالله شيئًا البتَّةَ، لا يصدر من مصرٍّ علىٰ معصيةٍ أبدًا، ولا يمكن مدمنَ الكبيرةِ والمصرَّ علىٰ الصَّغيرةِ أن يصفو له التَّوحيدُ حتّىٰ لا يشرك بالله شيئًا. هذا من أعظم المحال	-	١/ ٥٠٣
واعلم أنَّ الإصرارَ علىٰ المعصية يُوجِب من خوف القلب من غير الله، ورجائه لغير الله، وحبِّه لغير الله، وذلِّه لغير الله، وتوكُّله علىٰ غير الله= ما يصير به منغمسًا في بحار الشِّرك. والحاكمُ في هذا: ما يعلمه الإنسان من نفسه، إن كان له عقلٌ. فإنَّ ذلَّ المعصية لا بدَّ أن يقومَ بالقلب، فيورثَه خوفًا من غير الله تعالىٰ، وذلك شركٌ؛ ويورثَه محبّةً لغير الله، واستعانةً بغيره في الأسباب التي تُوصِله إلىٰ غرضه، فيكون عملُه لا بالله ولا له، وهذا حقيقة الشِّرك	-	١/ ٥٠٤
والمقصود: أنَّ مَن لم يشرك بالله شيئًا يستحيلُ أن يلقىٰ الله بقُراب الأرض خطايا مصرًّا عليها غيرَ تائبٍ منها، مع كمال توحيده الذي هو غايةُ الحبِّ والخضوع والخوف والرَّجاء للرَّبِّ تعالىٰ	-	١/ ٥٠٤
يُعفىٰ للمحبِّ ولصاحب الإحسان العظيم ما لا يُعفىٰ لغيره	١٩٦	١/ ٥٠٥
الحكمة في احتمال الله ﷻ لموسىٰ ﵇ بعض أفعاله بخلاف يونس ﵇	٢٠٢	١/ ٥٠٦
الأعمالَ لا تتفاضَلُ بصورها وعددها، وإنَّما تتفاضَلُ بتفاضُلِ ما في القلوب	٢٠٥	١/ ٥١٠- ٥١١
حالُ الأعمالِ والعُمَّال عند الله	٢٠٧	١/ ٥١٣
مَن كملت عليه نعمةُ الله تعالىٰ، واختصَّه منها بما لم يختصَّ به غيرَه، تكون حقوقُه عليه أتمّ	٢٠٩	١/ ٥١٥

الفائدة	الصفحة	الأصل
والصَّحيحُ: أنَّ الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفرين: الأصغرَ والأكبرَ، بحسب حال الحاكم، فإنّه إن اعتقد وجوبَ الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة، وعدَلَ عنه معصيةً، مع اعترافه بأنّه مستحقٌّ للعقوبة= فهذا كفرٌ أصغر. وإن اعتقد أنَّه غيرُ واجب وأنّه مخيَّرٌ فيه، مع تيقُّنه أنّه حكمُ الله تعالىٰ، فهذا كفرٌ أكبر. وإن جهِلَه وأخطَأَه، فهذا مخطئٌ له حكمُ المخطئين	-	١/ ٥١٩- ٥٢٠
ثلاثة فصول تقطع شجرةَ الشِّرك من قلب من وعاها وعقلها	٢١٧	١/ ٥٢٦- ٥٢٧
تالله لقد قطَّع خوفُ النِّفاق قلوبَ السّابقين الأوّلين	٢٢٤	١/ ٥٥٠
فسقُ العمل نوعان: مقرونٌ بالعصيان، ومفرد	٢٢٦	١/ ٥٥٦
ولقد سئل شيخُنا أبو العبَّاس ابن تيميَّة قدَّس الله روحَه، سأله شيخٌ فقال: هربتُ من أستاذي وأنا صغيرٌ، إلىٰ الآن لم أطَّلع له علىٰ خبر، وأنا مملوكٌ، وقد خفتُ من الله، وأريد براءَة ذمّتي من حقِّ أستاذي من رقبتي. وقد سألتُ جماعةً من المفتين، فقالوا لي: اذهب، فاقعد في المستودَع! فضحك شيخنا، وقال: تصدَّق بقيمتك أعلىٰ ما كانت عن سيِّدك، ولا حاجة لك بالمستودع عبثًا في غير مصلحةٍ، وإضرارًا بك، وتعطيلًا عن مصالحك. ولا مصلحةَ لأستاذك في هذا، ولا لك، ولا للمسلمين. أو نحو هذا من الكلام	-	١/ ٥٩٦- ٥٩٧
المشاهد الاثنا عشر	٢٤٢	٢/ ٣

الفائدة	الصفحة	الأصل
الصحيح من القولين في تقدير الآية: (أإلهٌ مع الله فعل هذا؟) حتَّىٰ يتمَّ الدليلُ، فلا بدَّ من الجواب بلا، فإذا لم يكن معه إلهٌ فعل كفعله فكيف تعبدون آلهةً أخرىٰ سواه؟ فعُلِم أنَّ إلهيَّة ما سواه باطلة، كما أنَّ ربوبيّة ما سواه باطلةٌ بإقراركم وشهادتكم. ومن قال: المعنىٰ: هل مع الله إلهٌ آخر؟ من غير أن يكون المعنىٰ: فعل هذا، فقوله ضعيفٌ	-	٢/ ٢٣- ٢٤
أجمع العارفون بالله أنَّ التَّوفيق أن لا يكلك الله إلىٰ نفسك، والخذلان: أن يخلّي بينك وبينها	٢٥٤	٢/ ٢٥
شهود توفيق الله وخذلانه، وشهود ربوبيّته وخلقه	٢٥٤	٢/ ٢٦
الله سبحانه يحبُّ موجَب أسمائه وصفاته	٢٥٩	٢/ ٣٦
مشهد الذُّلِّ والانكسار والخضوع والافتقار للربِّ جلّ جلاله	٢٦٧	٢/ ٤٧
ما أقربَ الجبرَ من هذا القلب المكسور، وما أدنىٰ النصرَ والرحمةَ والرِّزق منه!	٢٦٧	٢/ ٤٨
صاحب هذا المشهد يشهد نفسه كرجل كان في كنف أبيه يغذوه بأطيب الطعام والشَّراب واللِّباس ...	٢٦٨	٢/ ٤٩- ٥٠
الذِّلّة والكسرة الخاصة تُدخله علىٰ الله، وترميه علىٰ طريق المحبّة، فيفتح له منها بابٌ لا يفتح له من غير هذا الطّريق	٢٧٠	٢/ ٥٢
إذا صَفَتْ له الإنابةُ إلىٰ ربِّه تخلَّص من الفكرة في لذَّة الذنب	٢٧٤	٢/ ٦٠- ٦١
الاستقصاء في رؤية علل الخدمة هو التّفتيش عمَّا يشوبها من حظوظ النفس، وتمييز حقِّ الربِّ منها من حظِّ النّفس	٢٧٧	٢/ ٦٤

الفائدة	الصفحة	الأصل
بين العمل وبين القلب مسافة، وفي تلك المسافة قطَّاعٌ تمنع وصول العمل إلىٰ القلب	٢٧٧	٢/ ٦٤
بين القلب وبين الرّبِّ مسافة، وعليها قطَّاعٌ تمنع وصول العمل إليه	٢٧٧	٢/ ٦٥
ومن تجريبات السالكين التي جرَّبوها فألْفَوها صحيحةً أنَّ مَن أدمن مِن قول: «يا حيُّ يا قيُّوم، لا إله إلا أنت» أورثه ذلك حياة القلب والعقل. وكان شيخ الإسلام ابن تيميَّة شديدَ اللهج بها جدًّا، وقال لي يومًا: لهذين الاسمين وهما الحيُّ القيُّوم تأثير عظيم في حياة القلب، وكان يشير إلىٰ أنَّهما الاسم الأعظم، وسمعته يقول: من واظب علىٰ أربعين مرَّةً كلَّ يوم بين سُنَّة الفجر وصلاةِ الفجر: «يا حيُّ يا قيُّوم، لا إله إلا أنت، برحمتك أستغيث»= حصلت له حياة القلب، ولم يَمُت قلبُه	-	٢/ ٧٨
ليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلىٰ نجاته من تدبُّر القرآن وإطالة التأمُّل له وجمع الفكر علىٰ معاني آياته	٢٨٦	٢/ ٨٤
لا نعيم ولا لذَّة ولا ابتهاج ولا كمال إلَّا بمعرفة الله ومحبَّته	٢٩٠	٢/ ٨٨
الضابط النافع في أمر الخلطة أن يخالط الناس في الخير كالجمعة والجماعات، ويعتزلهم في الشّرِّ وفضول المباحات	٢٩٢	٢/ ٩٠-٩١
إن دعت الحاجة إلىٰ خلطتهم في فضول المباحات، فليجتهد أن يقلب ذلك المجلس طاعةً لله إن أمكنه	٢٩٣	٢/ ٩١
إن عجَّزته المقادير عن ذلك، فليَسُلَّ قلبه من بينهم كسَلِّ الشعرة من العجين، وليكن فيهم حاضرًا غائبًا	٢٩٣	٢/ ٩١

الفائدة	الصفحة	الأصل
وكلّما كان العبد حَسَن الظنِّ بالله، حسنَ الرجاء له، صادقَ التّوكُّل عليه، فإن الله لا يخيِّب أمله فيه البتَّة، فإنه سبحانه لا يخيِّب أمل آملٍ، ولا يضيِّع عمل عاملٍ	-	٢/ ١١٧
وهذا أيضًا موضعٌ لا بدَّ من تحريره فيقال: ملاحظة المعاوضة ضرورية للعامل، وإنَّما الشأن في ملاحظة الأعواض وتبايُنها، فالمحبُّ الصادق الذي قد تجرَّد عن ملاحظة عوضٍ قد لاحظ أعظم الأعواض وشمَّر إليها، وهي قربه من الله ووصولُه إليه، واشتغالُه به عمَّا سواه، والتنعُّم بحبِّه ولذَّة الشَّوق إلىٰ لقائه، فهذه أعواضٌ لا بدَّ للخاصَّة منها، وهي من أجلِّ مقاصدهم وأعواضهم، ولا تقدح في مقاماتهم وتجريد عبوديَّاتهم، بل أكملُهم عبوديةً أشدُّهم التفاتًا إلىٰ هذه الأعواض	-	٢/ ١٢٩
وبالجملة فمن قرئ عليه القرآن فليقدِّر نفسَه كأنَّما يسمعه من الله يخاطبه به، فإذا حصل له مع ذلك السماع به، وله، وفيه ازدحمت معاني المسموع ولطائفه وعجائبه علىٰ قلبه وازدلفت إليه بأيِّها يبدأ، فما شئتَ مِن علمٍ وحِكَم، وتعرُّفٍ وبصيرة، وهدايةٍ وعِبرة	-	٢/ ١٦٦
الخوف لعامَّة المؤمنين، والخشية للعلماء العارفين، والهيبة للمحبِّين، والإجلال للمقرَّبين	٣١٩	٢/ ١٨١
كلُّ أحدٍ إذا خفته هربت منه إلا الله تعالىٰ، فإنك إذ خفتَه هربتَ إليه، فالخائف هاربٌ من ربِّه إلىٰ ربِّه	٣١٩	٢/ ١٨٢
الخوف ليس مقصودًا لذاته، بل مقصودًا لغيره قصدَ الوسائل	٣٢٠	٢/ ١٨٣- ١٨٤

الفائدة	الصفحة	الأصل
سمعت شيخ الإسلام ابن تيميَّة يقول: الخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله	٣٢٠	٢/ ١٨٤
أجمع العارفون علىٰ أنّ الخشوع محلُّه القلب، وثمرته علىٰ الجوارح فهي تظهره	٣٢٤	٢/ ١٩٤
سمعت شيخ الإسلام ابن تيميَّة قدّس الله روحه يقول: العارف لا يرىٰ له علىٰ أحدٍ حقًّا، ولا يشهد له علىٰ غيره فضلًا، فلذلك لا يعاتب، ولا يطالب، ولا يضارب	–	٢/ ١٩٨
فلا شيء أنفع للصادق من التحقُّق بالمسكنة والفاقة والذُّلّ، وأنَّه لا شيء، وأنه ممَّن لم يصحَّ له بعدُ الإسلامُ حتَّىٰ يدَّعي الشَّرَف. ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية قدّس الله روحه من ذلك أمرًا لم أشاهده من غيره، وكان يقول كثيرًا: ما لي شيء، ولا منِّي شيء، ولا فيَّ شيء. وكان كثيرًا ما يتمثَّل بهذا البيت: أنا المكدِّي وابن المكدِّي وهكذا كان أبي وجدِّي وكان إذا أُثني عليه في وجهه يقول: والله إنِّي إلىٰ الآن أجدِّد إسلامي كلَّ وقتٍ، وما أسلمت بعدُ إسلامًا جيِّدًا	–	٢/ ١٩٩- ٢٠٠
إنَّ الرجلين ليكون مقامهما في الصفِّ واحدًا، وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض	٣٢٧	٢/ ٢٠٨
إذا استوفت العصمة جميع أجزاء الشَّهوة، فذلك دليل علىٰ إخباته ودخوله في مقام الطُّمأنينة ونزوله منازلَها	٣٣٠	٢/ ٢١١
متىٰ استقرَّت قدمُ العبد في منزلة الإخبات وتمكَّن فيها ارتفعت همَّته وعَلَتْ نفسه عن خطفات المدح والذّمِّ	٣٣٢	٢/ ٢١٣

الفائدة	الصفحة	الأصل
من قواعد القوم المجمَع عليها بينهم: أن النفس حجابٌ بين العبد وبين الله تعالىٰ	٣٣٣	٢/ ٢١٥
سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: الزُّهد ترك ما لا ينفع في الآخرة، والورع ترك ما يُخاف ضرره في الآخرة	٣٣٧	٢/ ٢١٩
قال الإمام أحمد بن حنبل: الزُّهد علىٰ ثلاثة أوجه	٣٣٩	٢/ ٢٢٣
لا يستحقُّ العبد اسم الزهد حتَّىٰ يزهد في المال، والصُّور، والرِّياسة، والناس، والنفس، وكلِّ ما دون الله	٣٤٠	٢/ ٢٢٤
عمارة الوقت: الاشتغال في جميع آنائه بما يقرِّب إلىٰ الله	٣٤٥	٢/ ٢٣٠
قال لي يومًا شيخ الإسلام ابن تيميّة قدّس الله روحه في شيءٍ من المباح: هذا ينافي المراتب العالية وإن لم يكن تركه شرطًا في النَّجاة. أو نحو هذا من الكلام. فالعارف يترك كثيرًا من المباح إبقاءً علىٰ صيانته، ولا سيَّما إذا كان ذلك المباح برزخًا بين الحلال والحرام	–	٢/ ٢٤٤
الخوف يثمر الورع والاستقامة وقصر الأمل. وقوَّةُ الإيمان باللِّقاء تثمر الزُّهد. والمعرفة تثمر المحبَّة والخوف والرّجاء	٣٥٢	٢/ ٢٤٧
الكشف عن ثلاثة أشياءَ هي منتهىٰ كشف الصادقين أرباب البصائر: أحدها: الكشف عن منازل السير. والثاني: الكشف عن عيوب النفس وآفات الأعمال ومُفسداتها. والثالث: الكشف عن معاني الأسماء والصِّفات وحقائق التوحيد والمعرفة	–	٢/ ٢٥٤
الفرق بين الرجاء والتمنِّي	٣٥٧	٢/ ٢٦٠

الفائدة	الصفحة	الأصل
أيُّ الرجائين أكمل: رجاء المحسنِ ثوابَ إحسانه، أو رجاء المذنب المسيء التائب مغفرةَ ربِّه وعفوه؟	٣٥٨	٢/ ٢٦١
شيخ الإسلام حبيبٌ إلينا، والحقُّ أحبُّ إلينا منه، وكلٌّ من عدا المعصوم فمأخوذٌ من قوله ومتروك. ونحن نحمل كلامه علىٰ أحسن محامله، ثمَّ نبيِّن ما فيه: فيقال: هذا ونحوه من الشَّطحات التي ترجىٰ مغفرتُها بكثرة الحسنات، ويستغرقها كمالُ الصِّدق وصحَّةُ المعاملة وقوَّةُ الإخلاص وتجريدُ التوحيد، ولم تُضمن العصمة لبشر بعد رسول الله ﷺ. وذكر عن الجُرَيريِّ: أنَّه رأىٰ الجنيد في المنام بعد موته، فقال: كيف حالك يا أبا القاسم؟ قال: طاحت تلك الإشارات، وبادت تلك العبارات، وما نفعنا إلَّا تسبيحاتٌ كنَّا نقولها بالغدوات	-	٢/ ٢٦٢-٢٦٦
علامة رضا الله عنك سخطك علىٰ نفسك، وعلامة قبول العمل احتقاره واستقلاله وصغره في قلبك	٣٦٦	٢/ ٣٠٠-٣٠١
من راقب اللهَ في خواطره عَصَمه في جوارحه	٣٧٠	٢/ ٣٠٦
أرباب الطريق مجمعون علىٰ أنَّ مراقبة الله في الخواطر: سببٌ لحفظه في حركات الظواهر	٣٧١	٢/ ٣٠٧
وسمعت شيخ الإسلام ابن تيميَّة- قدَّس الله روحه يقول: إذا لم تجد للعمل حلاوةً في قلبك وانشراحًا فاتَّهمه، فإنَّ الربَّ تعالىٰ شكورٌ. يعني: أنَّه لا بدَّ أن يثيب العامل علىٰ عمله في الدُّنيا مِن حلاوةٍ يجدها في قلبه وقوَّةٍ وانشراح وقرَّةِ عينٍ، فحيث لم يجد ذلك فعمله مَدخولٌ	-	٢/ ٣٠٩

الفائدة	الصفحة	الأصل
وصيانة الباطن بحفظ الخواطر والإرادات والحركات الباطنة التي منها رَفضُ معارضةِ أمره وخبره، فيتجرّد الباطن من كلِّ شهوةٍ تعارض أمره، وإرادةٍ تعارض إرادته، ومن كلّ شبهةٍ تعارض خبره، ومن كلّ محبَّةٍ تزاحم محبَّته. وهذا حقيقة القلب السليم الذي لا ينجو إلا من أتىٰ الله به	-	٢/ ٣١٠
لا يتمُّ الإخلاص إلا بالصِّدق، ولا الصِّدق إلا بالإخلاص، ولا يتمَّان إلا بالصبر	٣٧٦	٢/ ٣٤٨- ٣٤٩
يعرض للعامل في عمله ثلاث آفاتٍ: رؤيته وملاحظته، وطلب العوض عليه، ورضاه به وسكونه إليه	٣٨١	٢/ ٣٥١
حقيقة الإخلاص: توحيد المطلوب، وحقيقة الصِّدق: توحيد الطلب والإرادة، ولا يثمران إلَّا بالاستسلام المحض للمتابعة	٣٨٥	٢/ ٣٥٧
سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: أعظم الكرامة لزوم الاستقامة	٣٨٩	٢/ ٣٧١
التّوكُّل نصف الدِّين، ونصفه الثاني الإنابة، فإنَّ الدين استعانة وعبادة، فالتوكُّل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة	٣٩١	٢/ ٣٨٣
أجمع القوم علىٰ أنَّ التوكُّل لا ينافي القيام بالأسباب، بل لا يصحُّ التوكُّل إلَّا مع القيام بها، وإلَّا فهو بطالة وتوكُّل فاسد	٣٩٥	٢/ ٣٨٨
كان شيخنا رضي الله عنه يقول: المقدور يكتنفه أمران: التوكُّل قبله، والرِّضا بعده، فمن توكَّل علىٰ الله قبل الفعل ورضي بالمقضيِّ له بعد الفعل فقد قام بالعبودية	٤٠٤	٢/ ٣٩٨

الفائدة	الصفحة	الأصل
التوكُّل من أعمِّ المقامات تعلُّقًا بالأسماء الحسنىٰ، فإنَّ له تعلُّقًا خاصًّا بعامَّة أسماء الأفعال وأسماء الصِّفات	٤٠٨	٢/ ٤٠١
التسليم هو الخلاص من شُبهةٍ تعارض الخبر، أو شهوةٍ تعارض الأمر، أو إرادةٍ تعارض الإخلاص، أو اعتراضٍ يعارض القدر والشرع	٤١٩	٢/ ٤٣٧-٤٣٨
سمعتُ شيخ الإسلام ابن تيميّة يقول: بالصَّبر واليقين تُنال الإمامة في الدِّين	٤٢٢	٢/ ٤٤٨-٤٤٩
أمر الله سبحانه في كتابه بالصبر الجميل والصفح الجميل والهجر الجميل	٤٣٠	٢/ ٤٦٠
فعل الطاعة آكد من ترك المعصية	٤٣٣	٢/ ٤٦٨
أجمع العقلاء من كلِّ أمَّةٍ علىٰ أنَّ النعيم لا يُدرَك بالنعيم، وأنَّ من رافق الراحة فارق الراحة، وأن علىٰ قدر التعب تكون الراحة	٤٣٥	٢/ ٤٧٠
ثمرة الرِّضا: الفرح والسُّرور بالربِّ تبارك وتعالىٰ	٤٤٥	٢/ ٤٨٣
فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: سأل الرِّضا بعد القضاء لأنَّه حينئذٍ يتبيَّن حقيقة الرِّضا. وأمّا الرِّضا قبله فإنَّما هو عزمٌ علىٰ أنَّه يرضىٰ به إذا أصابه، وإنَّما يتحقَّق الرِّضا بعده	-	٢/ ٥٥٣
قال بعض العارفين: إنَّه لتكون لي الحاجة إلىٰ الله، فأسأله إيَّاها، فيفتح عليَّ من مناجاته ومعرفته والتذلُّل له ما أُحبُّ معه أن يؤخِّر قضاءها وتدوم لي تلك الحال	٤٦٧	٢/ ٥٧٩
الشُّكر مبنيٌّ علىٰ خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبُّه له، واعترافه بنعمته، والثناء عليه بها، وأن لا يستعملها فيما يكره	٤٧٤	٢/ ٥٨٩

الفائدة	الصفحة	الأصل
فتأمَّل الآن عبدين بين يدي ملكٍ من ملوك الدُّنيا، وهما علىٰ موقفٍ واحدٍ بين يديه، أحدهما مشغولٌ بمشاهدته فانٍ في استغراقه في ملاحظة الملك، ليس فيه متَّسعٌ إلىٰ ملاحظة شيءٍ من أمور الملك البتَّة. وآخر مشغولٌ بملاحظة حركات الملك وكلماته، وأيشٍ أمرُه، ولحظاتِه وخواطره، ليرتِّب علىٰ كلٍّ من ذلك ما هو مرادٌ للملك	-	٢/ ٦٠٨
وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يحكي عن بعض العارفين أنَّه قال: الناس يعبدون الله، والصُّوفيَّة يعبدون نفوسهم. أراد هذا المعنىٰ، وأنَّهم واقفون مع مرادهم من الله، لا مع مراد الله منهم، وهذا عين عبادة النفس	-	٢/ ٦١٠
كرم شيخ الإسلام ابن تيمية في إجابة السائل	٤٩٩	٣/ ٧
كلُّ سببٍ يعود بصلاح قلبك وحالك مع الله: فلا تُؤثِرْ به أبدًا	٥٠٥	٣/ ١٥
جرت سنّة الله التي لا تبديلَ لها أنّ من آثَرَ مرضاةَ الخلق علىٰ مرضاته: أن يَسخَطَ عليه مَن آثَرَ رضاه، ويَخذُلَه مِن جهته	٥٠٧	٣/ ١٧- ١٨
حسنُ الخُلق يقوم علىٰ أربعة أركانٍ لا يُتصوَّر قيامُ ساقِه إلّا عليها: الصّبر، والعفّة، والشّجاعة، والعدل	٥١٦	٣/ ٣١
منشأ جميع الأخلاق السّافلة وبناؤها علىٰ أربعة أركانٍ: الجهل، والظُّلم، والشّهوة، والغضب	٥١٧	٣/ ٣٢
كلُّ خُلقٍ محمودٍ مكتنَفٌ بخُلُقين ذميمين، وهو وسطٌ بينهما	٥١٨	٣/ ٣٤
فصلٌ يَصِل به السّالك مع تلك الأخلاق	٥٢١	٣/ ٣٧

الفائدة	الصفحة	الأصل
جواب شيخ الإسلام ابن تيمية عن مسألة قطعِ الآفات والاشتغالِ بتنقية الطّريق وتنظيفها	٥٢٣	٣/ ٤٠- ٤١
قاعدة مطّردة في جميع الصفات والأخلاق، فالرسل صلوات الله وسلامه عليهم جاؤوا بصرفها عن مجاريها المذمومة إلىٰ مجارٍ محمودة	٥٢٦	٣/ ٤٤
إنما دخل الداخل حيث ظنَّ أن تزكية النفس وتهذيب الأخلاق يتيسَّر بطريق الرِّياضات والمجاهدات والخلوات	٥٢٧	٣/ ٤٥- ٤٦
هل يمكن أن يكون الخُلق كسبيًّا، أو هو أمرٌ خارجٌ عن الكسب؟	٥٢٨	٣/ ٤٦- ٤٧
مشهد الإحسان: أن يُقابِل إساءةَ المسيء إليه بالإحسان	٥٣٢	٣/ ٥٣
مدار حسن الخلق مع الخلق ومع الحق علىٰ حرفين	٥٣٩	٣/ ٦٣- ٦٤
قيل: التّواضع أن لا ترىٰ لنفسك قيمة	٥٤٣	٣/ ٦٩
سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: المتكبِّر شرٌّ من المشرك	٥٤٦	٣/ ٧٤
اسم «الفتىٰ» لا يُشعِر بمدحٍ ولا ذمٍّ، كاسم الشّابِّ والحَدَث	٥٤٩	٣/ ٨٧
كان بعض أصحاب شيخ الإسلام ابن تيميّة الأكابر يقول: وددتُ أنّي لأصحابي مثله لأعدائه وخصومه	٥٥٣	٣/ ٩٥
اجعلْ هذه المعاملة منك صادرةً عن سماحٍ، وطِيبةِ نفسٍ، وانشراح صدرٍ، لا عن كظمٍ وضيقٍ ومصابرة	٥٥٤	٣/ ٩٦

الفائدة	الصفحة	الأصل
قال بعض السّلف: خلق الله الملائكة عقولًا بلا شهوةٍ، وخلق البهائم شهوةً بلا عقولٍ، وخلق ابنَ آدم وركّب فيه العقل والشّهوة	٥٥٥	٣/ ١٠٤- ١١٠٥
المريد الصّادق يفتح الله علىٰ قلبه، ويُنوِّره بنورٍ من عنده	٥٦٢	٣/ ١٢٧
وقد يهجُم علىٰ قلب السّالك قبضٌ لا يدري ما سببه، وبَسْطٌ لا يدري ما سببه. وحكمُ صاحب هذا القبض أمران: التّوبة والاستغفار، لأنّ ذلك القبض نتيجة جِنايةٍ أو جَفْوةٍ لا يَشعُر بها. والثّاني: الاستسلام، حتّىٰ يمضي عنه ذلك الوقت، ولا يتكلّف دفعَه، ولا يستقبل وقته مغالبةً وقهرًا، ولا يطلب طلوعَ الفجر في وسط اللّيل، وليرقُدْ حتّىٰ يمضيَ عامّة اللّيل، ويحينَ طلوعُ الفجر وانقشاعُ ظلمةِ اللّيل. بل يصبر حتّىٰ يهجُم عليه الوقت، ويزول القبضُ، فالله يقبض ويبسط. وكذلك إذا هجم عليه واردُ البسط: فليحذَرْ كلَّ الحذر من الحركة والاهتزاز، ولْيُحرِزْه بالسُّكون والانكماش والاستقرار وتلقِّيه بالثبات	-	٣/ ١٣٧- ١٣٨
من الحكمة في قوله: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، ولم يقل: «الغفور الرّحيم»	٥٦٩	٣/ ١٤٦
سمعت شيخ الإسلام ابن تيميّة يقول: حدُّ الخوف ما حَجَزَك عن معاصي الله، فما زاد علىٰ ذلك فهو غير محتاجٍ إليه	٥٨٠	٣/ ١٦٥

الفائدة	الصفحة	الأصل
الفرق بين علم اليقين وعين اليقين: كالفرق بين الخبر الصّادق والعيان، وحقُّ اليقين فوق هذا. وقد مُثِّلت المراتب الثّلاث بمن أخبرك أنّ عنده عسلًا، وأنت لا تشكُّ في صدقه. ثمّ أراك إيّاه، فازددتَ يقينًا. ثمّ ذُقْتَ منه. فالأوّل علم اليقين، والثّاني عين اليقين، والثّالث حقُّ اليقين	-	٣/ ١٨٠
هذه الثّلاثة هي طرق العلم. وهي السّمع والبصر والعقل. وتعلُّق القلب بالسّمع وارتباطه به أشدُّ من تعلّقه بالبصر وارتباطِه به	-	٣/ ١٨٧
الصّحيح من القولين: أنّ حاسّة السّمع أفضلُ من حاسّة البصر، لِشدّة تعلُّقِها بالقلب، وعِظَم حاجته إليها، وتوقُّفِ كماله عليها، ووصولِ العلوم إليه بها، وتوقُّفِ الهدىٰ علىٰ سلامتها. وحكم شيخ الإسلام ابن تيميّة قدَّس الله روحه بين الطّائفتين حكمًا حسنًا. فقال: المُدْرَك بحاسّة السّمع أعمُّ وأشمل. والمُدرَك بحاسّة البصر أتمُّ وأكمل. فللسّمع العمومُ والشُّمول والإحاطة بالموجود والمعدوم، والحاضر والغائب، والحسِّيِّ والمعنويِّ، وللبصر: التّمام والكمال	-	٣/ ١٨٨
قال الحسن البصريُّ ﵁: تفقَّدوا الحلاوةَ في ثلاثة أشياء: في الصّلاة والذِّكر وقراءة القرآن، فإن وجدتم وإلّا فاعلموا أنّ الباب مغلقٌ	٥٩٣	٣/ ٢٠٨
وسمعت شيخ الإسلام ابن تيميّة يقول: معنىٰ الآية: أنّ في الصّلاة فائدتين عظيمتين، إحداهما: نهيها عن الفحشاء والمنكر، والثّانية: اشتمالُها علىٰ ذكر الله وتضمُّنها له، ولَمَا تضمَّنَتْه مِن ذكر الله أعظمُ من نهيها عن الفحشاء والمنكر	-	٣/ ٢١١- ٢١٢

الفائدة	الصفحة	الأصل
إذا عرفت معنىٰ الفقر عرفتَ أنّه عينُ الغنىٰ بالله	٦٠٥	٣/ ٢٣٧
التحقيق في المفاضلة بين الفقير الصّابر والغنيِّ الشّاكر	٦٠٥	٣/ ٢٣٧
وأمّا تعطيلها عن اللِّسان: فأن لا يمدحها ولا يذمّها، فإنّ اشتغاله بمدحها أو ذمِّها دليلُ محبّتها ورغبته فيها، فإنّ من أحبَّ شيئًا أكثر من ذكره. وإنّما اشتغل بذمِّها حيث فاتته، كمن طلب العنقود فلم يصل إليه، فقال: هو حامضٌ. ولا يتصدّىٰ لذمِّ الدُّنيا إلّا راغبٌ محبٌّ مفارقٌ، فالواصل مادحٌ، والمفارق ذامٌّ	–	٣/ ٢٤١
واتّفقتْ كلمة الطّائفة علىٰ أنّ رؤية الأعمال حجابٌ بين العبد وبين الله، ويُخلِّصه منها شهودُ السَّبق ومطالعةُ الفضل	–	٣/ ٢٤٤
والفرق بين الحال والمقام: أنّ الحال معنًىٰ يَرِد علىٰ القلب من غير اجتلاب له ولا اكتسابٍ ولا تعمُّدٍ. والمقام يُتوصَّل إليه بنوع كسبٍ وطلبٍ. فالأحوال عندهم مواهبُ، والمقاماتُ مكاسبُ. فالمقام يحصل ببذل المجهود، وأمّا الحال فمن عين الجود	–	٣/ ٢٤٥
إظهار الحال للنّاس عند الصّادقين حمقٌ وعجز	٦١٧	٣/ ٢٦٥-٢٦٦
كلّ واردٍ يبقىٰ الإنسان بعد انفصاله نشيطًا مسرورًا نشوانَ فإنّه واردٌ مَلَكيٌّ. وكلّ واردٍ يبقي بعد انفصاله خبيثَ النّفس كسلانَ، ثقيلَ الأعضاء والرُّوح، فهو واردٌ شيطاني	٦١٨	٣/ ٢٦٧
قال الإمام أحمد: النّاس إلىٰ العلم أحوجُ منهم إلىٰ الطّعام والشّراب	٦٢٦	٣/ ٢٨١

الفائدة	الصفحة	الأصل
الحكمة فعلُ ما ينبغي، علىٰ الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي	٦٣١	٣/ ٢٩٤
شاهدتُ من فراسة شيخ الإسلام ابن تيميّة أمورًا عجيبةً، وما لم أشاهده منها أعظم وأعظم	٦٤٢	٣/ ٣٠٩
ذكر الله سبحانه السّكينة في كتابه في ستّة مواضع	٦٤٦	٣/ ٣٣١
كان شيخ الإسلام ابن تيميّة إذا اشتدّت عليه الأمور قرأ آياتِ السّكينة	٦٤٧	٣/ ٣٣٢
السّكينة إذا نزلت في القلب اطمأنّ بها، وسكنتْ إليها الجوارح وخشعت، واكتسبت الوقار، وأنطقتِ اللّسانَ بالصّواب والحكمة، وحالت بينه وبين قول الخنا والفحش، واللّغو والهُجْر، وكلِّ باطل. قال ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما: كنّا نتحدّث أنّ السّكينة تنْطق علىٰ لسانِ عمر وقلبه	-	٣/ ٣٣٦
فإذا حصلت هذه الثّلاثة بالسّكينة وهي النُّور والحياة والرُّوح سكنَ إليها العصيُّ، وهو الذي سكونه إلىٰ المعصية والمخالفة لعدم سكينة الإيمان في قلبه، فلما سكنت سكينةُ الإيمان في قلبه صار سكونه إليها عِوَضَ سكونِه إلىٰ الشّهوات والمخالفات، فإنّه قد وجد فيها مطلوبَه، وهو اللّذّة التي كان يطلبها من المعصية، ولم يكن له ما يُعِيضُه عنها	-	٣/ ٣٤٠
لا تُحَدُّ المحبّة بحدٍّ أوضحَ منها، فالحدود لا تزيدها إلّا خفاءً	٦٥٨	٣/ ٣٦٩
كلام الجنيد في المحبة	٦٦١	٣/ ٣٨١

الفائدة	الصفحة	الأصل
ومـن أعظـم مطالعـة منّـة الله علـىٰ عبـده: منَّـةُ تأهيلِـه لمحبّتِـه ومعرفتـه، وإرادةِ وجهـه، ومتابعـةِ حبيبه. وأصلُ هـذا نـورٌ يَقذِفـه الله في قلـب العبـد، فإذا دارَ ذلك النُّورُ في قلبِ العبدِ وذاتِه أشرقَتْ لـه ذاتُـه، فـرأىٰ فيـه نفسَـه، ومـا أُهِّلـتْ لـه مـن الكمـالات والمحاسن، فعَلَتْ به همَّتُه، وقوِيَتْ عزيمتُه، وانقشَعَتْ عنه ظلماتُ نفسِه وطبعِه	–	٣/ ٤١١
فليـس الشّـأن في أن تحـبّ الله، بـلِ الشّـأن في أن يحبّـك الله، ولا يُحبّـك إلّا إذا اتّبعـتَ حبيبَـه ظاهـرًا وباطنًـا، وصدَّقتَـه خـبرًا، وأطعتَـه أمـرًا، وأجبتَـه دعـوةً، وآثرتَـه طوعًـا	–	٣/ ٤١٢
وتأمّلْ قولـه: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[آل عمران: ٣١]، أي الشّـأن في أنّ الله يحبُّكـم، لا في أنّكـم تحبُّونـه، وهـذا لا تنالونـه إلّا باتّبـاع الحبيـب	–	٣/ ٤١٢
احتجاج السّلف علىٰ أنّ الصّلاة في أوّل الوقت أفضل	٦٨٣	٣/ ٤٤٤
تحقيـق العبوديّـة التي هـي معنىٰ العبد لا يكـون إلّا بفقد النّفس الحاملة للحظوظ، فمتىٰ فَقَدت حظوظَها تمحَّصتْ عبوديّتُها، وكلّما مات منها حـظٌّ حَيِيَ منهـا عبوديّـةٌ ومعنًـىٰ، وكلّمـا حَيِـيَ فيهـا حـظٌّ ماتـت منها عبوديّـةٌ، حتّىٰ يعود الأمر علىٰ نفسين وروحين وقلبين: قلبٌ حيٌّ وروحٌ حيّـةٌ بمـوت نفسـه وحظوظهـا، وقلـبٌ ميِّـتٌ وروحٌ ميِّتـةٌ بحيـاة نفسـه وحظوظـه. وبيـن ذلـك مراتـبُ متفاوتـةٌ في الصِّحّـة والمرض وبيـنَ بيـنَ، لا يُحصيهـا إلّا الله	–	٣/ ٤٦٤

الفائدة	الصفحة	الأصل
وأُمنيَّة الرجل تدلُّ علىٰ علوِّ همَّته وخِسَّتها. وفي أثر إلهيٍّ: «إنِّي لا أنظُرُ إلىٰ كلام الحكيم، وإنّما أنظُرُ إلىٰ هِمّته». والعامَّة تقول: قيمة كلِّ امرئٍ ما يُحسِن. والعارفون يقولون: قيمة كلِّ امرئٍ ما يطلب	-	٣/ ٤٩٥
والأنس بالله حالةٌ وجدانيّةٌ، وهي من مقامات الإحسان تقوىٰ بثلاثة أشياء: دوام الذِّكر، وصدق المحبّة، وإحسان العمل. وقوّة الأنس وضعفه علىٰ حسب قوّة القرب، وكلّما كان القلب من ربِّه أقرب كان أنسُه به أقوىٰ، وكلّما كان أبعدَ كانت الوحشة بينه وبين ربِّه أشدّ	-	٣/ ٤٩٦
ولا يَلُمُّ شَعَثَ القلوب شيءٌ غير الإقبال علىٰ الله والإعراضِ عمّا سواه، فهناك يُلَمُّ شَعَثُه، ويزول كَدَرُه، ويصحُّ سَقَمُه، ويجد روحَ الحياة، ويذوق طعم الحياة المَلَكيّة	-	٣/ ٤٩٧
الأولىٰ العدول عن لفظ «المسامرة» إلىٰ لفظ «المناجاة»، فإنّه اللّفظ الذي اختاره رسول الله ﷺ في هذا، وعبَّر به عن حال العبد بقوله: «إذا قام أحدكم في الصّلاة فإنما يُناجي ربَّه»، وفي الحديث الآخر: «كلُّكم يُناجي ربّه، فلا يجهَرْ بعضُكم علىٰ بعضٍ». فلا يُعدَل عن ألفاظه، فإنّها معصومةٌ صادرةٌ عن معصوم، والإجمال والإشكال في اصطلاحات الناس وأوضاعهم. وبالله التّوفيق	-	٣/ ٥٠٢

الفائدة	الصفحة	الأصل
الفرح بالنِّعمة قد يُنسِيه المنعِمَ، ويشتغل بالخلعة التي خلعها عليه عنه، فيطفح عليه السُّرور حتّىٰ يغيب بنعمته عنه. وهنا يكون المكر إليه أقربَ من اليد للفم. ولله كم هاهنا من مستردٍّ منه ما وهب له غيرةً وحكمةً! وربّما كان ذلك رحمةً به، إذ لو استمرّ علىٰ تلك الولاية لخيفَ عليه من الطُّغيان. كما قال تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[العلق: ٦ - ٧]	-	٣/ ٥١٤
وبالجملة: فمن أُحيلَ علىٰ نفسه فقد مُكِرَ به	-	٣/ ٥١٦
طريقة الأقوياء القيام بالجمعيّة في التّفرقة ما أمكن	٦٩٤	٣/ ٥٢٤
التحقيق فيما إذا تعارضت عند العبد الجمعية والنّوافل	٦٩٧	٣/ ٥٢٥
إن كانت مصلحته دون مصلحة الجمعيّة	٦٩٧	٣/ ٥٢٥
الصّادق في طلب العمل يُؤثِر مرضاةَ ربِّه علىٰ حظِّه	٦٩٩	٣/ ٥٢٦
قال محمّد بن إبراهيم: رأيت الجنيد في النّوم، فقلت: ما فعلَ الله بك؟ فقال: طاحتْ تلك الإشارات، وغابتْ تلك العبارات، وفنِيتْ تلك العلوم، ونفدت تلك الرُّسوم، وما نفعَنا إلّا ركعاتٌ كنّا نركعها في الأسحار	٧٠٣	٣/ ٥٣٥
تخلُّلُ الفترات للسّالكين أمرٌ لازمٌ لا بدَّ منه	٧٠٤	٣/ ٥٤٢

الفائدة	الصفحة	الأصل
وصاحب التّمكين يتصرَّفُ علمُه في حاله، ويحكم عليه، فينقاد لحكمه. ويتصرّف حالُه في علمه، فلا يدَعُه أن يقف معه، بل يدعوه إلىٰ غاية العلم، فيجيبُه ويلبِّي دعوته. فهذه حالُ الكُمَّل من هذه الأمّة، ومن استقرأ أحوال الصّحابة وجدها كذلك. فلمّا فرّق المتأخِّرون بين الحال والعلم دخل عليهم النّقصُ والخلل، والله المستعان	-	٣/ ٥٥٥
صاحب هذا المقام تَغَار تفرقتُه من جمعيّته علىٰ الله، فنفسُه تفرُّ من الجمعيّة علىٰ الله إلىٰ تفرُّقِ العلم، فإنّه لا أشقَّ علىٰ النُّفوس من جمعيّتها علىٰ الله، فهي تهرب من الله إلىٰ الحال تارةً، وإلىٰ العمل تارةً، وإلىٰ العلم تارةً. هذه نفوس السّالكين الصّادقين. ومن ليس من أهل هذا الشّأن فنفوسُهم تَفِرُّ من الله إلىٰ الشّهوات والرّاحات. فأشقُّ ما علىٰ النفس: جمعيَّتُها علىٰ الله، وهي تُناشِد صاحبها أن لا يُوصِلها إليه، وأن يَشْغَلَها بما دونه. فإنّ حبسَ النَّفسِ علىٰ الله شديدٌ، وأشدُّ منه حبْسُها علىٰ أوامره وحبْسُها عن نواهيه، فهي دائمًا تُرضِيك بالعلم عن العمل، وبالعمل عن الحال، وبالحال عن الله سبحانه، وهذا أمرٌ لا يعرفه إلّا من شدَّ مِئزَرَ سيرِه إلىٰ الله، وعلمَ أنّ كلّ ما سواه فهو قاطعٌ عنه	-	٣/ ٥٥٨- ٥٥٩
أعلىٰ الهمم همّةٌ اتّصلتْ بالحقِّ طلبًا وقصدًا، وأوصلت الخلقَ إليه دعوةً ونصحًا، وهذه همّة الرُّسل وأتباعهم	٧١٣	٣/ ٥٧٣- ٥٧٤
العامَّة تقول: قيمة كلِّ امرئ ما يُحسِنه، والخاصّةُ تقول: قيمة المرء ما يطلبه، وخاصّةُ الخاصّة تقول: قيمتُه همتُه إلىٰ مطلوبه	٧١٣	٣/ ٥٧٤

الفائدة	الصفحة	الأصل
التفـرُّق تفـرُّق الهـمِّ والقلـب عـن الله عـزّ وجـلّ. ولهـذا التّفـرُّق حزنٌ ممضٌّ علىٰ فوات جمعيّة القلـب علىٰ الله ولذّتهـا ونعيمهـا، فلـو فُرِضت لـذّات أهـلُ الدُّنيـا بأجْمَعِهـا حاصلـةً لرجـل لـم يكـن لهـا نسبةٌ إلىٰ لـذّة جمعيّة القلـب علىٰ الله، وفرحـه بـه، وأُنْسِه بقربـه، وشـوقِه إلىٰ لقائـه	-	٤/ ١٥- ١٦
ففـي القلـب شعَثٌ لا يلمُّـه إلّا الإقبال علىٰ الله، وفيـه وحشـةٌ لا يُزيلهـا إلّا الأُنـس بـه في خَلوتـه. وفيـه حزنٌ لا يُذهبـه إلّا السُّرور بمعرفتـه وصـدق معاملتـه. وفيـه قلقٌ لا يسكّنه إلّا الاجتماع عليه، والفرار منه إليه. وفيـه نيران حسراتٍ لا يطفئهـا إلّا الرِّضـا بأمـره ونهيـه وقضائـه، ومعانقـة الصّبـر علىٰ ذلـك إلىٰ وقـت لقائـه. وفيـه طلـبٌ شـديدٌ لا يقـف دونَ أن يكـون هـو وحـده مطلوبـه. وفيـه فاقـةٌ لا يسـدُّها إلّا محبّتـه، والإنابـة إليـه، ودوام ذكـره، وصـدق الإخـلاص لـه، ولـو أعطي الدُّنيـا بمـا فيهـا لـم تسـدّ تلـك الفاقـة منـه أبـدًا	-	٤/ ١٧
لله مـا يجلـبُ اللُّطـفُ والظَّـرفُ مِـن القلـوب، ويدفـع عـن صاحبـه مـن الشّـرِّ، ويسـهِّل لـه مـا توعّـر علىٰ غيـره!	٧٣٤	٤/ ٤٥
أهـل هـذه الطّبقـة، أثقـل شـيءٍ عليهـم البحـث عـن ماجَرَيـات النّـاس، وطلـب تعـرُّف أحوالهـم	٧٣٥	٤/ ٤٦
حـروف النُّـون والفـاء ومـا يُثلِّثهمـا تـدلُّ حيـث وُجِـدت علىٰ الخـروج والانفصـال	٧٣٧	٤/ ٥٣- ٥٤
حجاب أهـل الكبائـر الظّاهـرة أرقُّ مـن حجاب إخوانهـم مـن أهـل الكبائـر الباطنـة، مـع كثـرة عباداتهـم وزهاداتهـم واجتهادهـم	٧٥٥	٤/ ١١١- ١١٢
الحجـب تنشـأ مـن أربعـة عناصِـرَ: عنصـر النّفـس، وعنصـر الشّـيطان، وعنصـر الدُّنيـا، وعنصـر الهـوىٰ	٧٥٦	٤/ ١١٢

الفائدة	الصفحة	الأصل
طغيان المعاصي أسلمُ عاقبةً من طغيان الطّاعات	٧٥٧	٤/ ١١٤
شاهدٌ آخر تضمحلُّ فيه هذه الشّواهد، ويغيب العبد به عنها كلِّها، وهو شاهد جلالِ الرّبِّ تعالىٰ وجمالِه وكماله	٧٦٦	٤/ ١٥١
والعزّة يراد بها ثلاث معانٍ: عزّة القوّة، وعزّة الامتناع، وعزّة القهر. والربُّ تعالىٰ له العزّة التامّة بالاعتبارات الثّلاث، ويقال من الأوّل: عَزَّ يَعَزُّ بفتح العين في المستقبل، ومن الثاني: عَزَّ يَعِزُّ بكسرها، ومن الثالث: عَزَّ يَعُزُّ بضمِّها، أَعطَوا أقوىٰ الحركات لأقوىٰ المعاني، وأخفَّها لأخفِّها، وأوسطَها لأوسطها	-	٤/ ١٥٨
كما أنّ الله سبحانه جعل حياة البدن بالطّعام والشّراب، فحياة القلب بدوام الذِّكر، والإنابة إلىٰ الله، وترك الذُّنوب	٧٧٩	٤/ ١٦٩
السّالك إلىٰ ربِّه لا تزال همّته عاكفةً علىٰ أمرين: استفراغ القلب في صدق الحبِّ، وبذل الجهد في امتثال الأمر	٧٨٦	٤/ ١٧٧
المحبّ يشرع أوّلًا في التّقرُّبات بالأعمال الظّاهرة، ثمّ يترقّىٰ من ذلك إلىٰ حال التّقرُّب، ثمّ يترقّىٰ من ذلك إلىٰ مقام الإحسان	٧٨٧	٤/ ١٧٩
مِلاكُ هذا الأمر هو قصد التّقرُّب أوّلًا، ثمّ التّقرُّب ثانيًا، ثمّ حال التقرُّب ثالثًا	٧٨٩	٤/ ١٨٠ - ١٨١
الجزاء من جنس العمل. وشواهد هذا كثيرة	٧٨٩	٤/ ١٨١ - ١٨٢
في القلب فاقةٌ لا يَسُدُّها إلّا محبّة الله والإقبالُ عليه	٧٩١	٤/ ١٨٣

الفائدة	الصفحة	الأصل
هـذه الفرقـة هـم مـع النـاس مخالطـون لهـم، والنـاس يـرون ظواهرهـم، وقـد سـتر الله سبحانه حقائقهـم وأحوالهـم عـن رؤيـة الخلـق لهـا. فحالهـم ملتبـسٌ علىٰ النـاس لا يعرفونـه، فـإذا رأوا منهـم مـا يـرون مـن أبنـاء الدُّنيـا مـن الأكل والشُّـرب، واللِّبـاس والنِّـكاح، وطلاقـة الوجـه وحسـن العشـرة= قالـوا: هـؤلاء مـن أبنـاء الدُّنيـا. وإذا رأوا ذلـك الجدَّ والهمـم، والصبـر والصِّدق، وحـلاوة المعرفـة والإيمـان والذِّكـر، وشـاهدوا أمـورًا ليسـت مـن دأب أبنـاء الدُّنيـا= قالـوا: هـؤلاء أبنـاء الآخـرة، فالتبـس حالهـم عليهـم، فهـم مسـتورون عـن النـاس بأسـبابهم وصنائعهـم ولباسـهم، لـم يجعلـوا لطلبهـم وإرادتهـم إشـارةً تشـير إليهـم: اعرفـوني، فهـؤلاء هـم الصادقـون، وهـؤلاء يكونـون مـع النـاس، والمحجوبـون لا يعرفونهـم، ولا يرفعـون بهـم رأسًـا، وهـم مـن سـادات أوليـاء الله، صانهـم الله عـن معرفـة النـاس لهـم كرامـةً لهـم، لئـلَّا يفتتنـوا بهـم، وإهانـةً للجهَّـال بهـم فـلا ينتفعـون بهـم	-	٤/ ٢١٦-٢١٧
جمـع سـبحانه بيـن جمـال الظاهـر والباطـن في غيـر موضـع مـن كتابـه	٨٠٧	٤/ ٢٢١-٢٢٢
فالانبسـاط لـم يشـتِّت قلوبهـم، ولـم يفـرِّق هممهـم، ولـم يحـلَّ عقـد عزائمهـم. وسـرائرهم مصونـةٌ مسـتورةٌ لـم يكشـفوها لمـن انبسـطوا إليه وإن كان البسـط يقتضـي الإلـف واطِّـلاعَ كلٍّ مـن المتباسـطين علىٰ سـرِّ صاحبـه. فإيَّـاك ثـمَّ إيَّـاك أن تُطلـع مـن باسـطتَه علىٰ سـرِّك مـع الله، ولكـن اجذبـه وشـوِّقه، واحفـظ وديعـة الله عنـدك، لا تعرِّضهـا للاسـترجاع	-	٤/ ٢٢٤

الفائدة	الصفحة	الأصل
إذا أردت أن تعرف ما حلَّ بك من بلاء الانفصال وذلِّ الحجاب، فانظر لمن استعبد قلبَك	٨١٤	٤/ ٢٦٩
ومن علامات العارف: أنَّه لا يطالب ولا يخاصم، ولا يعاتب	٨٢١	٤/ ٢٨٦
العارف ابن وقته. وهذا من أحسن الكلام وأخصره	٨٢٢	٤/ ٢٨٧- ٢٨٨
سئل الجنيد عن العارف؟ فقال: لون الماء لون إنائه	٨٢٣	٤/ ٢٨٩- ٢٩٠
مجالسة العارف تدعوك من ستٍّ إلىٰ ستٍّ	٨٢٤	٤/ ٢٩٤
الإيمان بالصِّفات ومعرفتُها، وإثباتُ حقائقها، وتعلُّقُ القلب بها، هو مبدأ الطريق ووسطه وغايته	٨٢٧	٤/ ٣٠١
وأمَّا المعارف الإلهيَّة، فإنَّ حالة البقاء فيها أكمل من حالة الفناء، وهي حالة نبيِّنا صلوات الله وسلامه عليه، وحال الكُمَّل من أتباعه، ولهذا رأىٰ ما رأىٰ ليلة الإسراء وهو ثابت القلب، رابط الجأش، حاضر الإدراك، تامُّ التمييز، ولو رأىٰ غيرُه بعضَ بعضِ ذلك لما تمالك	-	٤/ ٣٣٧

الفائدة	الصفحة	الأصل
قال أبو بكر الكتَّاني: جرت مسألةٌ في المحبَّة بمكَّة أيَّام الموسم، فتكلَّم الشيوخ فيها، وكان الجنيدُ أصغرَهم سنًّا، فقالوا له: هاتِ ما عندك يا عراقيُّ؛ فأطرق ساعةً، ودمعت عيناه، ثمَّ قال: عبدٌ ذاهبٌ عن نفسه، متَّصلٌ بذكر ربِّه، قائمٌ بأداء حقوقه، ناظرٌ إليه بقلبه، أحرق قلبَه أنوارُ هيبته، وصفا شربُه من كأس ودِّه، وانكشف له الجبَّار من أستار غيبه، فإن تكلَّم فبالله، وإن نطق فمن الله، وإن تحرَّك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله، فهو بالله ولله ومع الله؛ فبكى الشُّيوخ وقالوا: ما على هذا مزيد، جبرك الله يا تاجَ العارفين	–	٤/ ٣٣٩- ٣٤٠
قال لي شيخ الإسلام مرَّةً: العوارض والمِحَن هي كالحرِّ والبرد، فإذا علم العبد أنَّه لابدَّ منهما لم يغضَبْ لورودهما	٨٤٢	٤/ ٣٥٩
شيخ الإسلام حبيبنا، والحقُّ أحبُّ إلينا منه، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: عمله خيرٌ من علمه. وصدق رحمه الله، فسيرته في الأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر وجهادِ أهل البدع لا يُشَقُّ له فيها غبارٌ، وله المقامات المشهورة في نَصْر الله ورسوله، وأبى الله أن يكسوَ ثوب العصمة لغير الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى. وأخطأ رحمه الله في هذا الباب لفظًا ومعنى	–	٤/ ٣٦٦
إذا بلغَك أنّ بمكان كذا وكذا كنزًا عظيمًا ...	٨٤٥	٤/ ٣٨٩
فأمَّا الواجد فلم تجئ تسميته به إلَّا في حديث تعداد الأسماء الحسنى، والصحيح: أنّه ليس من كلام النبيِّ ﷺ، ومعناه صحيحٌ، فإنه ذو الوجد والغنى، فهو أولى بأن يُسمَّى به من الموجود ومن المُوجِد	–	٤/ ٣٩٥

الفائدة	الصفحة	الأصل
ما أكثرَ ما تشتبه الإشارة إلىٰ الله وبه بالإشارة إلىٰ النّفس والإشارة بها	٨٥٠	٤/ ٤٠٢
الجمعُ الصَّحيحُ: ما أسقط التفرقة الطبيعيّة النفسيّة، وهي التفرقة المذمومة	٨٥٢	٤/ ٤١٢
غاية مقامات السّالكين: التوبةُ التي هي بدايات منازلهم	٨٥٢	٤/ ٤٢٢
التوبةَ نهايةُ كلِّ عارفٍ وغايةُ كلِّ سالك	٨٥٣	٤/ ٤٢٣
القرآن كلُّه في التّوحيد وجزائه وفي شأن الشِّرك وأهله وجزائهم	٨٦١	٤/ ٤٥٠
القرآن مملوءٌ من هذه الطّريق، وهي طريقُ الخاصَّة، بل خاصَّةِ الخاصَّة الّذين يستدلّون بالله علىٰ أفعاله	٨٦٩	٤/ ٤٧٧
وقد قال بعض أهل العلم: الالتفاتُ إلىٰ الأسباب شركٌ في التّوحيد، ومحوُ الأسباب أن تكون أسبابًا تغييرٌ في وجه العقل، والإعراضُ عن الأسباب بالكلّيّة قدحٌ في الشّرع. والتّوكّل معنىٰ يلتئم من معنىٰ التّوحيد والعقل والشّرع	-	٤/ ٥٢٢
والكلمة الواحدة يقولها اثنان، يريد بها أحدُهما أعظَم الباطل، ويريد بها الآخرُ محضَ الحقِّ، والاعتبارُ بطريقة القائل وسيرته ومذهبه وما يدعو إليه ويناظر عليه	-	٤/ ٥٥٢-٥٥٣

